BOBST LIBRARY
3 1142 01113 2175

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

(محي مصر وبطلها وجنديها)

Gouin, Edouard
Miṣr fī al-qarn al-tāsiʿ ʿashara

مصر فى القرن التاسع عشر

سيرة جامعة

لحوادث ساكنى الجنان

محمد على باشا وابراهيم باشا

والمغفور له سليمان باشا الفرنسى

من النواحى الحربية والسياسية والقصصية

تأليف : ادوار جوان

نقله الى اللغة العربية

محمد مسعود

مدير قسم النشر بمصلحة التجارة والصناعة

الطبعة الثانية

طبعت بالقاهرة فى سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

DT
104
.G6912
1931

MAY 30 1985

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على خير انبيائه

وبعد فقد تقدم الىّ حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال فى سنة ١٩٢١ بنقل كتاب « مصر فى القرن التاسع عشر » من الفرنسية الى العربية فصدعت بامر سموه وطبع الكتاب طبعة اولى لم تكد تظهر حتى تخطفته ايدى القراء معجبين مثنين داعين ، اذ أضاف بهذه المأثرة عارفة جديدة الى سابغ عوارفه فى نشر ثمرات العلوم والآداب والفنون وأزاح الستار بها عن ناحية من نواحى تاريخ مصر فى فجر نهضتها الحديثة ، ما كان لحقائقها ان تبرزمن خدرها لولا المؤرخ القدير ادوارجوان الذى ألف ذلك الكتاب وطبعه بباريس منذ نحو ثمانين عاما محلى بالرسوم والصور الفنية الملونة ولولا وجود نسخة من ذلك المصنف الفذ فى مكتبة سمو الامير الجليل

اما وقد نفدت نسخ الطبعة الاولى من هذا المصنف الجليل ، وكان وجوبا أن يظل طويلا في متناول ايدى الطالبين ، فقد رأيت من البر بوطنى والولاء للأسرة المالكة تسهيل اقتنائه فى طبعة جديدة بترجمة مستأنفة لاذاعة ماتضمنه من الحقائق التاريخية الدالة على مابلغت مصر اليه فى العهد المحمدى العلوى من الغايات البعيدة بين امم الشرق فى الاخذ باسباب التقدم وما احرزته من نصيب واف من الحضارة وعزة الجانب مما كان في مجموعه أساسا للنهضة المصرية الحديثة التى اشرأبت لها الاعناق فى الخافقين وبهرت الانظار وخلبت العقول

وانى لأرجو أن اكون بما بذلت من جهود ادبية ومادية فى هذه السبيل جديرا برضائهم وحسن تقديرهم

تمهيد

قامت مصر فى العهد الحاضر بكثير من جلائل الاعمال ، فبعد أن كانت بالامس رثة الاسباب منحلة العرى ، استحوذ عليها الجهل فصرفها عن الرشد وأعطت قيادها المماليك ، وهم أولئك الاشرار الدعار الذين عثوا فى الارض مفسدين فاستذلوها واستصفوها ، أصبحت اليوم بما أبدته من آيات البطولة والبأس فى القتال عزيزة المنال على من يرومها بمطمع ، تساجل الدول العظمى فى ميدان المناظرات السياسية فيحسب لها حساب ، وتلقى سيفها فى كِفة ميزان الحوادث فيكون لها الرجحان .

سعدت من اعلام العلم والحضارة الى ذراها ، فأفاضت على أمم الارض من نورها الساطع ، ثم لم تلبث ان انحدرت من منزلتها الرفيعة الى هوّةٍ اكتنفتها فيها ظلمات من الجهل طبقاتٍ كثيفةً بعضها فوق بعض . لكن ها هي ، والحمد لله ، قد خرجت من الظلمات الى النور وعادت فاستقرت من

المجد والعزة فى مرتبة امتدت نحوها فيها الاعناق وتخطت اليها الآمال من اقصى الآفاق .

كانت فرنسا أولى الأمم التى رمقت مصر ، في تطوّرها الجديد ، بعين الاعجاب ، فهرعت اليها مندفعة بباعث الميل النفسي لتخطب ودّها وتصافحها بملء يدها .

ورأى محمد عليّ ، رأس الأسرة المحمدية العلوية ، ماطمّ فيها من الفساد والشر ، فتقلد الأمر ليميطهما عن الاهلين ، وتصدّى لقمع الفوضى واصلاح الخلل فحسم بعزمته وحكمته هذه الادواء ، حتى استقام المائل وارتتق الفتق . وشدّ أزره فى هذا العمل الصالح اثنان : ابراهيم ابنه وابنٌ آخر بالروح هو الضابط الفرنسي سيف Selves الذى عرف بعدُ باسم سليمان الفرنسى ، وعشرون من ابناء جلدته الفرنسيين تعاهدوا على ابلاغ مصر الى المكانة التى تبوأتها عن جدارة واستحقاق .

أولئك الثلاثة الرجال العظام الساهرون على مصالح مصر لاتعرف عيونهم الاغفاء ، المتعهدون لها بما ينميها ويقوى أساطينها ويشد مفاصلها ، جاء الى بلادنا اثنان منهم منذ أشهر قليلة ، فتهيأت لنا فرصة من أجلّ الفرص وأشرفها ، لنرى رأى العين ابراهيم باشا ، ذلك البطل الحميّ الأنف الأبيّ الضيم الذى اطلق الناس عليه ، تنويها بذكره واشادةً بقدره ، اسم السيف الحيّ . وذكروا فيما اطروا من صفاته العالية ، أنه كان

فى أثناء الحروب يرقد على الثرى كعساكره رغم البرد القارس والامطار الغزيرة . وكان اذا ما أزفت ساعة القتال ، انساب بين صفوف الجند صائحا فيهم بصوته الجهوَريّ مستفزا اياهم الى خوض المعامع : « آفرين أوغلم » . ثم لايلبث ، بعد أن يلقى فى صدر كل جندىّ جذوة من نار حماسه وبسالته ، ان يسارع الى الطليعة مندفعا نحو العدو ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الاستخفاف به ، لو ارتسم مثلها على شفاه أجدادنا « الغولوا » لخشي الموت بأسهم ولدانت لهم الارض من اقصائها الى اقصائها .

رأينا سليمان ، رفيق ابراهيم وصديقه الحميم ، عن كثب تحت قبة قصر الانفليد ، وقد جثا على ركبتيه فى المصلى حينما مرّت بخاطره ذكرى استاذه الامبراطورى « نابوليون » ، وترقرقت عبراته بتأثير هذه الذكرى التى صوّرت له آيات بسالته ومعجزات بطولته .

ولو ان محمدا عليا جاء الى فرنسا لزيارتها ، كما فعل وليّ عهده ابراهيم وقائد جنده سليمان ، لصافحها مصافحة الصديق صديقه ، ولقيَ من الأمة الفرنسية جماء مالقيه ذانك الزائران الكريمان من أجلّ مظاهر الحفاوة والتكريم ، لاسيما أن ابناء وطننا من الفرنسيين المقيمين بضفاف النيل قد اجتمعت كلمتهم على مدح عواطفه الرحيمة والأشادة بذكر مآثره التى كان من أجلّ آثارها فى الجاليات الافرنجية ببلاده اعفاء

أفرادها من الضرائب ، وتشييد مستشفى خاص بالمرضى منهم لوقايتهم فتكَ الاوبئة والطواعين .

وكان مما حدا بفرنسا الى التشوّف لتوكيد الرابطة بينها وبين محمد عليّ ، اعتقادها ان هذا العظيم من العصاميين، وأنه لم يتسنم ذِروة المجد والشوكة الا بفضل ذكائه وهمته . وكان حتى الخامسة والاربعين من عمره أميا لايقرأ ولا يكتب ، لكن جهله بهما لم يحل دون علمه علما مبنيا على التجربة والاختبار والحصافة والحجى ، بأساليب احياء البلاد وتجديد الأمم والسير بها الى ماكانت عليه فى الاعصر الخالية ، من ابعد غايات التقدم والارتقاء فى الحضارة والعرفان .

وكان بدهيا ان يفضى هذا التجديد الى تضحية الكثير من المال ، والسير بالضغط والاكراه فى سبيل تحصيله . فلا عجب اذا أساءت النهضة المصرية فى إبانها الى كثيرين من المصريين ، اذ العادة أن يورث النوم الطويل الضجر والملال . وهكذا كان شأنهم فى مصر على أثر مابذله محمد عليّ من الهمة فى استفزازهم من سباتهم بانهاض بلادهم من الكبوة التى قضت فيها الاحقاب الطوال .

يقولون إن مجدد مصر ومحيي مجدها العريق لم يكن الا مغامرا كان التوفيق قرينه فى مغامرته . ولسنا نرى فى نعته بهذا النعت ما يعدّ سبة او اهانة ، بعد اذ وصف البطل القرسقى

(نابوليون) بهذا الوصف ، وبعد إذ لم يختلف اثنان فى أن الاسد ، سيد الفلوات وبطل الغابات ، فى مقدمة المغامرين . فليقل القائلون فى محمد علي ماشاءوا أن يقولوا وليصفوه بما يطيب لانفسهم أن يصفوه ، فليست اقوالهم ولا اوصافهم بمانعة من ان يكون هذا الرجل من الابطال الذين لم ينجب الشرق مثلهم منذ عهد طويل .

والمرجوّ ان يكون لفرنسا فى مصر القسط الأوفى من الاصلاحات التي يرى مجدد هذا القطر ألا مندوحة عنها لأنهاضه من كبوته . فأن فرنسا هي التى اعارت مصر خلاصة الأنجاب من علمائها وضباطها وصناعها وأطبائها ومهندسيها ليأخذوا بيدها فيما اعتزمت ان تقطعه من أشواط فى ذلك السبيل . وعهدت مصر ادارة شؤون الكثير من مصالحها ، كالجيش والدونمة ودور الصناعة والصحة العامة ، الى الاختصاصيين من الفرنسيين وانشأت المدارس فى أمهات مدائن القطر لتعليم العلوم والفنون ودرس آداب اللغة الفرنسية فيما يلق بها من الدروس . وها نحن أولاء نهذب فى عاصمة بلادنا ، كما نهذب ابناءنا على حد سواء ، لفيفا من الشبان الذين عهدت مصر تربيتهم الينا ونلقنهم أقوم المبادىء الخلقية وأصلح القواعدالعلمية . وجملة القول فقد ارسلت فرنسا الى ضفاف النيل أشعة ساطعة من نور عرفانها ، وتم للشرق والغرب بذلك ما كانا يرنوان اليه من التصافح والتصالح

منذ عهد بعيد .

ولى أن أقيم الدليل فى هذا المقام على ان تاريخ « مصر فى القرن التاسع عشر » لمن أجلّ الآثار الوطنية الفرنسية ، لأننا بإيرادنا فيه أبدع سيرة من سير هذا العصر ، انما نلخص ترجمة حياة ابنتنا التى تبنيناها ، ألا وهى مصر .

مصر القديمة

حجّ الى مصر قبيل الألمبياد(١) الخامس والتسعين قاصدٌ من قصاد العلم ، فجاب أطرافها منقبا عن دخائل الحكمة الالهية ، مستفتحا مغالق أسرارها . وكانت هذه الدخائل والاسرار فيها أدنى ملتمسا للطالب منها فى أي بلد آخر ، ولو لم يخضْ لها غمرةً ولم يتجشم فى سبيلها مشقة . ذلك لأن الحكمة الالهية فى مصر كانت من ابواب العلوم التي لم تفقد يد النسيان مفاتيحها .

نزل ذلك القاصد الى قاع بئر حالكة الظلام مفضية الى نفقٍ ، فوجد أمامه باب نحاس صُلب لم يلبث ، بعد أن دفعه بكلتا يديه ، ان انفتح بصريرٍ أصمّ . وكان بيده مصباح فانطلق فى النفق حتي اذا بلغ الى باب ثان ، رأى من خلال اجزائه أن من خلفه رواقا تضيئه مصابيحُ عدة قرأ على شعاعها جملة نقشت باعلى عقوده وهى :

---

(١) الالمبياد عند قدماء اليونان فترة من الزمن تعدل اربع سنوات وتفصل بين حفلتين متتابعتين من حفلات الالعاب الألمبية والسنة الاولى من الألمبياد الاول توافق سنة ٧٧٦ قبل الميلاد والألمبياد الأخير توافق سنواته سني ٣٩٢ — ٣٩٦ بعد الميلاد

« كل ابن انثى اذا سار فى هذا المعهد المقدس ، غير هياب ولا وجل ، فاضت عليه الانوار المطهرة وطهره الهواء والماء ووقف على دفائن الاسرار الصوفية للألهة إيزيس »

وسمع المريد صوتا من عليين يسأله : هل تجرد قلبه من الجرأة والاقدام ؟ فأجاب من فوره : كلا ، فاستأنف فى الآن نفسه السير فى طريقه ، من غير ان تعروه رجفة الخوف أو يغشى عزيمته خورٌ . وظل ماضيا فى طريقه حتى اذا بلغ الى باب من الحديد اعترضه ثلاثة رجال اشداء مدججين بالاسلحة . وكانت تعلو رؤوسهم خوذات صلب تمثل رأس الكلب ، فقالوا له : « لك ان تنقلب على عقبيك ، لكنك ان اصررت على عزمك ثم تراجعت قليلا أو التفت يَمنة أو يَسرة فلا تلومن الا نفسك »

أجاب المريد : « كلا ، بل لامحيص لى عن مواصلة السير الى الأمام »

وكان أمامه نار تلظى سعيرها ، لايقدر على النجاة منها الا من يجتازها مرّ كرّ الطيف ، على صراط ضيق ممدود فوقها . وكان يلى النار مسيل ماء له هدير شديد لاتقوى الآذان على سماعه . ومن وراء المسيل ضفة دون البلوغ اليها هول السباحة فيه وخطرها العظيم . تغلب المريد بمضاء عزيمته على العقبتين وحل الصعوبتين ، لكن كانت لاتزال ثمة عقبة ثالثة

هى أم العقبات كلها فى شدة المراسة وكؤود المطلب .

ذلك ان المريد وجد أمامه بضع درج تؤدى الى باب عاج منير ، اذا انفتح تطاير شرر ساطع من عقبيه . فلما بلغ منه الى العتبة تحرك كما لو كانت حركته منبعثة من زلزال شديد . ورأى رأى العين بكرتين عظيمتين من نحاس ذى بأس شديد ، تدوران فتجذبان بسرعتهما المنيفة سلاسل حديد غلاظا يسمع لاحتكاكها بها صلصلة هائلة ، اذا بلغت الى السمع صممته . تجاه فداحة الأمر وهول منظره سقط المصباح من يد المريد فبات من الليل فى حندس داج وظلام مدلهم ، لم يروّعه هول المنظر ولم ينزل به منه بل ظل ساكن الروع ثابت الجأش آمن الجناب ولبث متريثا . . فماذا حدث ؟

حدث أن ما انتابه من الاهتزاز بادىء ذى بدء ، أعقبه السكون تجاه ما ابداه من جلد وقوة جنان .

لذا ماعتم أن رأى الباب الذى كان الى تلك الساعة محجوبا عن الانظار ، وقد انفتح وتمهدت به السبيل الى بهو جليل تضىء ارجاءه مئات المصابيح . وشهد بصدر هذا البهو ستين كاهنا جلوسا ، وقد أفرغوا على أبدانهم اردية من الكتان وطوقوا أعناقهم بعقود تتباين اشكالها وتتفاوت قيمتها ، بحسب مايفرقهم من الرتب والدرجات فى النظام الكهنوتىّ . تقدم المريد نحو كبير الكهان ووقف حذوته ، فأفرغ عليه هذا رداء ابيض من

ذلك الصنف وعرض عليه إناء ممتلئا ماء ، وقال له :

« هاك شرابَ ليثوس [١] فاشربه ، لتنسى الحكم الدنيوية والاحكام السفلية »

تجرع المريد هذا الشراب ثم قضى اربعا وعشرين ساعة فى راحة كان حقيقا به ان ينالها ، تأهبا لما كان مقبلا عليه من لزوم الخلوة ثمانين يوما يزاح له الستار ، فى خلالها وفى اثناء الاشهر الستة التالية ، عن أسرار الحكمة الالهية ، بما تكنه من اثبات وجود الخالق وتتناوله من سرد اسمائه الحسنى وشرح صفاته وما يقترن بها من عظمته تعالى وتقدسه عن سمة الحدوث والزوال وتلألؤ قدرته على صفحات الموجودات وتهلل آثار ملكوته على وجنات الكائنات . استطلع المريد مكنون هذه الاسرار واضاف اليها الرسوخ فى علم الآداب والاخلاق والفلسفة الدينية . فلما جاء دور التجربة والاختبار ، وجهت اليه الاسئلة فأجاب عليها بما لم يسبق لغيره ان جاوب على مثلها تبحراً وسعة اطلاع ، ثم اقتيد الى الاماكن المقدسة حيث حلف باليمين الغموس الا يطلع أحدا من عامة القوم على ماشهد وسمع .

وما انتهت هذه الطقوس السرية حتى آلى المريد على

---

(١) نهر من انهار الجحيم كان القدماء يعتقدون ان من شرب ماءه نسي كل ماوقع فى ماضى حياته

يمين القواد أن يموتوا في نصرة محمد علي

نفسه أليةً ان يقضي في عين شمس ثلاثة ألمبيادات تباعا ينكبّ في غضونها على الدرس باحثا محققا، وابيضّ في خلالها فوداه مستقصيا مذاهب هرمس فى الفلسفة ومصغيا الاصغاء كله الى ماكان يلقيه عليه الكاتب سخنوفيس فى ليالى تلك الاثنتى عشرة سنة التى لم تكتحل عيناه فيها بنوم ، حتى اذا سلخها مجدّا فى تحصيل العلوم لم يتمالك ان صاح بملء شدقيه « أسولون ! أسولون ! (١) انكم معاشر الأغريق مازلتم عيالا لاتفهمون من الحكمة شيئا ! »

وكان مريدنا المتحمس فى اطراء المصريين ، المنوّه برسوخ قدمهم فى العلم ، قد امضى عشر سنوات من تلك الحقبة متلمذا لسقراط ومصاحبا له فى مدارسة العلوم كما صاحب كراتيلس هرقليطس وصاحب هرموجينس برمنيدس . وحجّ قبل ذلك الى ميجار من مدائن اليونان الزاهرة بالعلم فى العصور القديمة للاحاطة بفن المنطق على طريقة إقليدس ، واقام بسيرين (٢) زمنا يتلقى تعاليم طيودوزس الرياضى . وقصد الى ايطاليا لسماع محاضرات أثقراطس وأكريون وتيميه وأوريتاس وأرخيتاس

---

(١) سولون احد فحول حكماء اليونان السبعة ومشرع أثينه اذ سن لها القوانين الديمقراطية (ولد سنة ٦٤٠ ومات سنة ٥٥٨ قبل الميلاد)

(٢) سيرين (قيرينة او قورينى) كانت قاعدة بلاد برقة الواقعة مصر وكانت غربى تابعة فى ذلك العهد لليونان كمستعمرة لها

ودنيلولاؤس الهرقلى . ولم يكن ، بعد هذا كله ، قد شبع من العلم فطاف بالاساليب الفلسفية على اختلاف منازعها وتباين مذاهبها فلم تسدّ نهمته ولم يطفأ أوار عطشه الا فى مصر ، حيث وجد كل حاجته فى متناول اليد فأخذ منها ماشاء ، وترك ماشاء.

ذاك المريد المجدّ فى تحصيل العلم ، والمادح لفضائل مصر هو الذى وصفوه فيما بعد بالالهى واتخذ ابنا لأبولون ، اله العلوم والفنون والشعر عند اليونان . وهو الواضع لأساس الفلسفة المعروفة باسمه والتى يقول العارفون إنها تنزل من صنوف الفلسفة منزلة الألياذة من صنوف الشعر . ويزعم غيرهم أنه شوهد فى صورة طائر يذهب صعداً الى قمم جبل اولمب (١) وأن نحل جبل هيمت كانوا يذيقونه عسلهم كلما صاح أو بكى ، وهو صبيّ فى المهد.

ذاك هو أفلاطون الذى اشتق اسمه من كلمة بلاتوس التى معناها باليونانية « العريض » لعرض شديد فى جبهته يدل على سعة فى العقل وبسطة فى الذكاء والفهم .

***

كانت مصر منبعث أشعة الحضارة الأولى ومهد العلوم والفنون ومهبط العبادات والطقوس الدينية ومركز تلاقى اشتات

---

(١) احد جبال اليونان بين تساليا ومقدونيا كان قدماء الأغريق يعتقدون انه مسكن الآلهة ومقرهم

الافكار المفيدة والخواطر النافعة . وكانت لهذه الاسباب ولموقعها من الدنيا القديمة فى بهرته ميدانا تتجلى فيه للانظار أجلّ حوادث التاريخ وأشد عظاته وقعا فى النفوس .

برزت مصر من وراء ستار العدم الى مجالى الوجود واستقلت بكيانها الخاصّ قبل عهد ابراهيم (عليه السلام) بزمان طويل ، فرأت عظمة صور وقرطاجة تبزغ شمسها ثم تجنح الى التطفيل . وكانت كنبراس تتشعع من حواليه اضواء العلوم والفنون بينا كانت رومية وأتيكا واسبرطة لم تنفض عنها بعدُ غمارَ الخمول ، ولم تخرج من الظلمات الى النور . وكان لها السبق والفوق فى كل شيء ، حتى أن أحدث آثارها وأقربها منا عهدا يرجع فى الوجود الى ماقبل حرب ترواده (١) ويحق لها ان تفتخر بأنها أول من رسم طريق الحضارة للجنس البشرى واختط له الخطط وأنها أول من بثّ نفوذه في أرجاء الارض وسحيق أطرافها حيث اتخذت لنفسها منها فى كل منطقة مستعمرات لجاليتها .

مصر أول بلد فى الارض سارت فى طرقاتها وشطوطها المركبات ، تحمل الابطال الظافرين من امثال : سيزوستريس

---

(١) ترواده او تروای مدينة قديمة فى آسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها حصار قدماء اليونان لها عشرة اعوام وقد خلد سيرة هذا الحصار الشاعر هوميرس بقصيدته الالياذة المعروفة . وموقع ترواده القديمة هو الآن حصارلك القريبة من أزمير

ونابوخذنصر وقبيز وداريوس واكزرسيس وبطليموس (ابطولاماوس) واسكندر الكبير وقيصر وتيمورلنك الأعرج وصلاح الدين وبونابرته. وهي ايضا القطر الذى شهد فطاحل العلماء يجوسون خلال دياره ويجوبون فيافيه وأوعاره مثل: هوميرس وارشميدس وارسطوطاليس وأورفه التراقى ومينوس الكريدى وداناءوس الليبي وطاليس وميلمبوس وفيثاغورس وهيردوتس وديودورس الصقلى وسولون وافلاطون وليكورغه اللقدمونى وديموقريطس واودكسوس واينوبيدس وفولنى ودوليل وشمبوليون فيجاك وتيلور واسكندر دوماس وشاتوبريان ولامرتين.

حفت اسباب الثروة والنعيم بمصر من حواليها، فهي غنية بموقعها الفريد بين إفريقيا وآسيا والبحر الاحمر والبحر المتوسط، غنية بجودة تربتها التى تنبت العسجد والنضار، غنية بهمة شعبها ودأبه على الجد والنشاط فى العمل، الا أنها لهذه الاسباب عينها كانت هدفا للمطامع من عظماء الرجال الذين حاولوا اتخاذها أساسا لعملهم الذى كانوا يسمون به الى انشاء الممالك الواسعة والدول العظيمة، فيوليوس وبومبيوس وانطونيوس وأكتاف، كل اولئك تخذوها مقرا للحكم يقضون فيه قضاءهم على النوع البشرى ويصرفون اموره على ما يهوون. ولقد حامت حول إينوسان الثالث (البابا ١١٩٨ — ١٢١٦) واكزمنس كردينال

اسبانيا الذى عمل على طرد العرب منها (ولد سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٥١٧) وفرديناند الكاثوليكى (ملك اسبانيا الذى على عهده اخرج العرب منها) وهنرى السابع ولويس الرابع عشر من ملوك فرنسا أمنية الذهاب اليها بخيلهم ورجلهم لفتحها والاستيلاء عليها. وفيها اختط اسكندر الكبير المدينة العظمى التى أسميت باسمه، وكانت عاصمة التجارة فى القطر المصرى ولا تزال حتى اليوم.

واختص أهل ايطاليا السفن الواردة من هذا الثغر بميزة اصبحت حقا لها دون سواها من سفائن العالم أجمع، تلك هى ميزة دخولها فى ثغرهم ناشرة شراعها الأصفر بطرف ساريتها، بينا سفن البلاد الأخرى يفرض عليها طيّ هذا الشراع متى اقتربت من كابريه [١]. وكان الاهلون فى أقليم كمبانيا بايطاليا الجنوبية كلما وردت السفن المصرية مشحونة بالبردى وانواع الصمغ والادهان والاعطار والأفاوية المصلحة للابدان والعسل الكثيف المزاج العطرى الرائحة وملح النوشادر المستخرج من واحة آمون والنتر الذى كانوا يعالجون به احوال العقم فى النساء والمصنوعات الزجاجيـة المختلفة الالوان والآنية الصلصاليـة المدهونة بالاصباغ الفضية والانبذة اللذيذة التى كانت كليوبترة مغرمة بتعاطيها، أقاموا الحفلات والاعياد سرورا بورودها.

---

(١) جزيرة فى خليج نابولى

وكان اذا نزل القحط بفلسطين فى سنوات الجدب والامحال، عولوا على مصر فى الخلاص من ضنك العيش. وانما على خيرات مصر انما كان يعتمد بنو اسرائيل فى التماس العيش والنجاة من نتائج الامحال. ولقد ثارت على كل من موسى وهارون ثائرتهم وهم يجتازون الصحراء وأخذوا يقولون: « من ذا الذى يشبع بطوننا الآن ؟ لقد كنا فى مصر نأكل القثاء والشمام والكراث، وكنا نجلس بالقرب من قدورنا مملوءة لحما والخبز من حولنا يفيض عن حاجاتنا »

وهذا هانيبال القائد الافريقى المعروف بانتصاره على الرومان واستيلائه على بلادهم، ماحصد آخر سنبلة من مزارع اقليم لاطيون بوسط ايطاليا حتى تجدد عنده أمل، وقد انقطعت عنه الامدادات من بلاده، فى الاعتماد على مصر للاستمداد بالخيرات الموفورة فى خزائنها. فإنه مانشب أن أنفذ برسله اليها ليأتوه بما كان ينقصه من المؤونة والميرة. أوما تزال مصر، حتى اليوم، ينبوع الرزق ومستودع الخير لبلاد الترك والعرب والشام وأنحاء أسيا الصغرى كافة ؟

ألم تنفق مصر من خيراتها العقلية عن سعة، كما أنفقت من خيراتها المادية ؟ — ألسنا مدينين لها بتنظيم الزمن وتقسيمه بحسب حركات القمر ؟ وهل الى غيرها يرجع الفضل فى تحديد عدد أيام السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ؟ وهل لم تكن هى

أول واضع للقواعد الأولى من علم الهيئة والنظريات والمسائل الاساسية من علم الهندسة ومبتكر لحروف الابجدية ومنشىء لأول مكتبة كتب على بابها « كنز أدوية النفس »

كانت مصر أول معلم تلقى اليونان عليه تلقى العلم الذى لقنته اوروبا فيما بعد ، وكانت كريد والهند تتنازعان الاختصاص بتطبيق القوانين الفرعونية على سكانهما . وفى مصر بحث سليمان عن عذراء تكون أهلا لمشاطرته الجلوس على عرش بنى اسرائيل ، وعن أفراس كريمة تكون أهلا للاستنتاج منها بجيادهم . ومن مصر استعار اكز رسيس الهجانة من جنودها ليثق من الظفر بأعدائه والغلبة عليهم ، واليها كانت مقاطعة إيايد من مقاطعات اليونان القديمة ترسل مشروع ألعابها الاولمبية لمراجعته والموافقة عليه ، لأنه كان لا يوضع مشروع فى البلاد الاجنبية عن مصر ويبدأ بتنفيذه قبل الموافقة عليه منها .

وكانت مصر تدوّن حوادثها السنوية نقشا فى الحجر الصلد ، وكانت تعانى في هذه السبيل جهداً عظيما . وعليك أيها القارىء أن تحسب عدد الايدى التى دونت تلك الحوادث الخالدة وأن تقيس أبعاد ذينك الصنمين العظيمين الكبيرى القاعدتين الذاهبين فى الجو الى ارتفاع سامق ، وأن تستخرج أطوال تلك المسالك التي يقوم على حراستها التماثيل الحيوانية التي اذا نظرها الناظر خالها جبالا شامخة ، وأن تعجب بتلك المسلات

الدقيقة الصنع التى ما اصطدم بها سيف حتى ارتدّ عنها مفلولا وبتلك المقابر التى لاحصر لعددها ، وقد ازدحمت بالجثث المحنطة وبتلك الاهرام الشامخة التى تخالها ، لعلوها وضخامتها ، قد أخذها الشموخ والكبرياء .

أنظر ذلك كله وجاهد نفسك حتى لاتسترسل فى التأمل والاتعاظ والاعتبار ، واعجب بما تراه على أن تستنقذ نفسك من تأثير الدهش فيها واستيلاء الشعور الدينى عليها . قال أبو التاريخ : « ليس على وجه الأرض قطر كمصر أبدعت الطبيعة فيه ، إذ خصته بالحسن من كل شيء ، وتفنن ارباب الحجى فأتوا بما لم يسبقوا به من المعجزات » وكتب سافارى ما يأتى : « سلام عليك أيتها الآثار التى هى أجل وأفخر ما أخرجته يد الانسان »

لقد شاد اليونان والرومان معابد للآلهة وقصوراً للملوك ومدرجات للجمهور يشهد منها التمثيل ، لكن ما الذى سبقت مصر الى تعظيمه وتمجيده قبل غيرها من أمم الارض ؟ كانت مصر أول من عظم الفهم ومجد الفضيلة وقدس الاجداد والموتى ، وكان لا يهمها أمر التنميق والتنسيق فى المساكن لاعتبارها إياها من المعاهد الزائلة بزوال أربابها . وانما كانت تصرف همتها الى تنميق المساكن الأبدية الخالدة وهي المعابد . لهذا السبب كانت تخص الموتى بالاحترام والاعظام وتحوطهم بصنوف الرعاية والعناية . واعتبر بالأقارب الاقربين للموتى ترهم يشقون الثياب

ويضربون الصدور ويطوقون الخصور ويرسلون الشعور فى الأسى على ماوقع من النائبة ونزل من المحنة ، بل ترى النساء فى المساكن يلطخن رؤوسهن ووجوههن بالطين ويعرين أثداءهن يلطمنها بكفوفهن مخترقات المدينة من اقصاها الى أقصاها ويمسكن عن الخبز والنبيذ والاطعمة الشهية أربعين يوما او سبعين .

العادة عندنا فى التعزى عن فقد عزيز اعتقادنا أنه ، بعد أن نرده الى بطن الارض التى أخرجته ، سيبعث منها مرة أخرى ، فيعيش عيشة ثانية أبدية . لكن المصريين كانوا لا يدفنون الموتى منهم خيفة أن يأكلهم الدود وكانوا يربأون بهم عن الاحراق لاعتقادهم أن النار حيوان مفترس ينهش كل مايقع فى مخلبه ، دع اشمئزازهم من أن يعرض أحدهم الى الفناء البقية الباقية من قريب له أو صديق عزيز عليه ، فكانوا لهذا وذاك يفضلون الاحتفاظ بالاجسام التي كانوا يعتبرونها غلاف الروح وصندوقه ، ويرون أن الروح متى تركت هذا الغلاف سكنت اجساد أنواع أخر من الحيوانات ، الخبيث منها للروح الخبيثة والطيب منها للروح الطيبة ، وتستمر متقمصة بها ثلاثة آلاف من السنين .

وكان منهم الناحت ، وكانت المهمة الموكولة اليه تنحصر فى تحديد الحجر الأتيوبى أى الحبشى ، والمجهز لنبيذ النخل والسوائل العطرية التى يتعين حقن الاحشاء بها وصمغ الأرز والقرفة والدارصينى . وكانت هذه المواد تصلح لدهن الجسم مغلفاً

باللفائف الدقيقة . ومتى جيء بالميت اتخـذت العدة والتدبير لاستلال المخ من الأنف بساق متلوية الطرف مجوفته ، فيبدأ البارا-شت ، وهو جراح الموتى ، عمليته بفتح الجانب الأيسر من البطن وقطع جزء من اللحم يعدل النصاب المقرر فى الشرع ، ثم يولى الادبار فيتبعه الحاضرون يرشقونه بالاحجار لاعتبارهم إياه عابثاً بجثث الموتى . ومن يعبث بها ويعتد عليها بما يغير كيانها يلعنْ لعناتٍ ثلاثا .

يحدد أهل الميت وأقاربه واصدقاؤه يوماً لتشييع جنازته ، ويعلنون على الملأ أن فلانا الذى دهمه الموت سيعبر بحيرة اقليمه ثم يجلس ، فيما يلى الماء ، أربعون قاضياً فى نصف دائرة . فما هى إلاّ ساعة حتى يدنو من الشاطىء زورقٌ ينقل الجثة ويقوده الرّبان كارون المنوط به نقل أرواح الموتى الى الجحيم . وكان أهل الميت يضعون بين شفتيه قطعة نقد ، قبل أن يتولى الرّبان نقله ، فإذا ماتسلمه التقطها من بينهما . وكان لأى إنسان ان يوجه الى الميت تهمة أو يدعى عليه بدعوى ، فاذا قدمت جثته الى القضاة الأربعين وثبت أمامهم أن صاحبها أساء السيرة فى حياته وأضلّ السبيل قضت محكمتهم عليه بما اكتسبت يداه . وكان القضـاء فى الغالب بالحرمان من الدفن . أما اذا ثبت كذب التهمة عوقب صاحبها عقابا صارما ، وفى هذه الحالة ترتفع الاصوات بالاحتجاج على الملفق واستهجان خطته وتقبيح

طريقته ، ويسترسل أفراد أسرة الفقيد فى مظاهر الحزن والتوجع . ثم يشرع الحاضرون في تأبينه منوهين بسيرته الحسنة واخلاقه الرضية . وهم يتقون فى هذا التأبين الاشارة الى حسب الفقيد ومحتده ، لما كان سائداً بين المصريين من الاعتقاد بأنهم جميعا من نسل حام وأنهم من كرم المحتد ورسوخ الشرف بالا حاجة معه الى تنويه او اطراء . وكل مايهم المؤبنين إيراده عن الفقيد هو التربية التى تلقاها فى طفولته والمبادىء الطيبة التى لقنت له يافعاً ، من مزاولة التقوى والصلاح وحب العدل والاعتدال وسائر الفضائل التى يجدر بالرجل أن يتخذها زينة له فى حياته . ويختم التأبين بعد استيعاب هذه الفضائل بالدعاء الى الآلهة أن يتقبلوا الفقيد بين الاتقياء والابرار . وعندئذ يصفق الحاضرون تصفيقا عنيفا ويشيدون بمدح الفقيد فرحين بأنه سيبقى فى الجحيم أبد الآبدين مع الاتقياء والابرار . ثم تشق الارض اكراما له لتغيب فيها جثته ، مع ما كان يحبه من متاع الدنيا كالأسلحة أوالآلات .

أما إذا جاء حكم الأربعين قاضيا على خلاف المنتظر من تبرئة الفقيد من الآثام والذنوب كأن يكون عليه دين ، فإن جثته تعاد على الفور الى داره ويسند تابوتها الى جدار مكين فى زاوية من زوايا غرفة تشاد خصيصا له وتظل فى مكانها محرومة من الدفن في المدفن العام حتى يقوم ابناؤه وأحفاده بوفاء دينه ،

بعد أن يكونوا قد بدلوا من فقرهم غنى . وعندئذ ينالون الاجازة بدفنه طبقا للطقوس المرعية ويرد اليه ماسلب من الكرامة والشرف .

واذا أردت أن تعرف الى أى حد وصلت عاطفة الشرف والكرامة عند المصريين ، والى أى غاية بلغ عرفانهم بالجميل وقيامهم بحرمة الصنيعة وقضاؤهم بالشكر حق النعمة فانظر كيف كانوا يمجدون ، بمظاهر الاجلال والتعظيم ، أصحاب النعم والآلاء . ومعلوم أن اسم النيل مشتق من اسم الملك نيلوس وكان قدماء اليونان يسمونه تارة بالأقيانوس أو النسر لسرعة سيره فى مجراه وطوراً بإجبتوس ، وهو المبدع الثانى لمصر والموجد لها من العدم . وقد شكرت له مصر مجراه الفخم السريع وطميه المخصب وخصياته العجيبة معلنةً على الملأ أن الرطوبة عنصر كل شىء وأصله ، ومطلقةً عليه اسم زيدروس أى الخصب . وذهبت فى تمجيدها الى أبعد من ذلك ، إذ رفعته الى درجة المعبودات ثم جعلته أبا للآلهة أجمعين ، فاتخذ له عندئذ زوجة رزق منها بنتا هى منفيس وولداً هو الدلتا .

وفى المأثور من عقائد قدماء المصريين أن النيل دعى الى الوليمة التى كان يعدّها الفيضان في كل عام وأن الكهان كانوا يحنطون جثث الذين يذهبون فريسة التماسيح والغرقى الذين كانت تلتهمهم مياه النهر وأن المعابد والمدائن كانت تشاد اكراماً

واجلالا له وأن الثيران السوداء كانت تضحى فى نيلوبوليس (مدينة النيل) وأن فى حفلات النيل كان يضحى فتى يافع وفتاة بعد أن يزينا بالازهار وغصون الاشجار .

وما أكثر ماخلدت صورة النيل ، نحتا ونقشاً فى الخشب والحجر والرخام ورمزا له بصورة انسان كللت جبهته بسنابل القمح متلاقية متزاوجة وقد استندالى ظهر أبى الهول وتمدد عند قدميه تمساح ودلفين وفرس بحر ، وأحاط به وبهذه الحيوانات ستة عشر غلاماً هم رمز الست عشرة ذراعاً التى يتم ببلوغ الماء اليها وفاء النيل متشابكين بالأذرع متساندين بالاكتاف .

وكانوا عند انقضاء الانقلاب الصيفى وابتـداء الفيضان ينقلون قطعة الخشب أو الحجر أوالرخام التى نقشت فيها الصورة الرمزية يطوفون بهاالقرى والمدائن فى حشد حشيد وهيئةهيّئة، حتى اذا كان منتهى فصل الخريف وبدأت مياه النهر بالهبوط أعيد التمثال الرمزى الى المعبد الذى أخذ منه للطواف به . وقد وضع فسبازيانوس الامبراطور الرومانى فى القرن الاول من الميلاد اكبر تمثال من هذه التماثيل فى معبد السلام . وقال بلوطرخس : « لم تبتدع الديانة لمعبودٍ حفلاتِ تعظيم وإكبار أجلّ ولا أبهى مما ابتدعت للاحتفال بالنيل »

وكان الاعتقاد العام فى مصر أن أوزيريس حاكمها هو الذى يرجع الفضل اليه فى تلطيف مادرج الأهلون عليه من عادات

الهمج وانه هو الذى اختط مدينة طيبة ذات مائة الباب وهدى الناس الى الأساليب النافعة فى زراعة الارض وجني غلتها، وانه كغيره من الملوك صار إلهاً وسمي بروح الخير وابن الدهر والطبيعة، على عكس أخيه تيفون الذى دعي بالروح الشريرة، لأنه أهلك أخاه اذ نصب له شركا اوقعه فيه. وقد صوّر على مثال انسان يضغط بأصابعه على جبهة صلّ كبير ويحمل على رأسه مثالا من مكيال الحبوب رمزاً للخصب والخير. وقد غيبت جثته فى ارض جزيرة اسميت «الحقل المقدس» وعقد عليها ضريح كانوا اذا راموا ان يوثقوا عهدا أولا يخفروا بذمة اقسموا به جهد أيمانهم وجعلوا حوله ثلاثمائة إناء يملأها الكهان بالماء فى كل صباح ثم يسترسلون فى الرثاء والتوجع والنواح.

ومن عقائدهم ان كانوبوس، اذا انتقل من دار الفناء الى دار البقاء، لم يعامل معاملة الكافة رعاية لما بينه وبين أوزريس من صلات إذ كان رُبان زورقه، فإن جثته غيبت فى القبر وارتفعت روحه الى السماء حيث سكنت من كواكبها كوكباً سمي منذ ذاك العهد باسمه.

وكان المصريون يقولون إن رجل الخير والاحسان هو الذى يجمع المال ليدرأ عن نفسه به شرّ الحاجة فى الأيام السوداء وأن للرجل الذى يقضى بالشكر حق النعمة حقا ثابتا فى الاغاثة اذا جزع من لهف وان يحظى بما يسمو اليه من صنوف الهناءة

والسعادة ، فلا عجب بعد هذا أن تكون مقابرهم آهلة بطوائف من الآلهة كان الفرق بينها واضحاً فى العظمة والجلال .

وكانوا يعتقدون أن سكان السماء خشوا ان ينزل أشقياء أهل الارض بهم مايودون اتقاءه من شرورهم فلاذوا بضفاف النيل متنكرين فى صور بعض الحيوانات وان المقاتلة من المصريين اتخذوا هذه الصور شعارا لهم فى أعلامهم زمنا ما فلم يتنكر لهم حظ القتال بل كان الانتصار حليفهم على الدوام . ومما أيد حسن ظنهم بها قيامها بما كانوا يطلبونه منها ويسخرونها فيه يوميا من الاعمال النافعة . فقد كان الكلب يقوم بالحراسة على عتبات البيوت ويرافق الصياد فى صيده ، والثور يساعد الزارع فى حرث الارض ، والأغنام تعطى الغزير من البانها والوفير من اوبارها ، والقط يدفع عن صاحبه الانسان عادية الحية والثعبان ويوقيه سمهما ، والصقر يفتك بالحيات القرناء والعقارب والبجع يحارب الأفاعي المجنحة ويبيد الجراد والثغاة تتحرى بيوض التماسيح ، لاتبتلعها بل لتكسرها وتتلفها أو تتقلب فى الحمأة ثم تثب فتنحط في جوف تمساح فاغرفاه فتأكل أحشاءه وتثقب جلد بطنه الطرىء لتفلت منه ، والتمساح يعمل لوقاية الناس وحمايتهم اذ يحول دون إيغال اللصوص فى الجهات التي يألف الاختلاف اليها .

لهذه الاسباب جميعاً كان المصريون يكرمون الحيوانات ويخصونها بجليل المزايا ووافر البر . وخليق بالذكر في هذا المقام

ان الأحراس القائمين على خدمة العجل أبيس بمدينة منفيس والعجل منوفيس بمدينة عين شمس والجدى ببلدة منديس والتمساح ببحيرة موريس (الفارون) والسبع بمدينة ليونتوبوليس الخ كان مرخصا لهم أن يقدموا الى الحيوانات المقدسة ألذ اللحوم طعما كلحم الأوز المحمر وأشهى صنوف الفطائر وما الى ذلك من اطعمة فاخرة اختير لعملها العسل الماذيّ فى اشكال متنوعة وصنوف شتى واستخلص لها زهر الدقيق المعجون باللبن وكان أولئك الاحراس يعنون عناية خاصة بغسلها بالمياه المعطرة ودهنها بخلاصات الارواح الزكية وتزيينها بالحلل الفاخرة ، مع اهتمامهم الشديد باحراق الموادالعطرية أمامها فى المباخر وفرش الابسطة الثمينة تحتها وتهيئة الصيد غذاء لها والبحث عن الأناث الأصيلة من نوعها لتنزو عليها . وكانت المقررات لنفقتها فى الميزانية الخاصة لاتقل عما يعدل مائة الف ريال ، وكان من نذر على نفسه نذرا ، أن يقص شعر رأس ابنه اذا شفى من مرض ، يدعى الى زيارة تلك الحيوانات المقدسة والسجود امامها فى خضوع وخشوع وتقديم مايعدل وزن ذلك الشعر فضة أو ذهباً اليها .

كتب شيشرون (اشهر خطباء الرومان) : « لايندر عندنا ان تسلب الهيا كل ماتحتويه من تماثيل وغيرها . اما عند المصريين فليس مألوفا ان يعامل قط أو تمساح أو بجعة معاملة تلحق بأحدها بعض الألم لانهم يفضلون أن يلحق أشخاصهم أشد العذاب على

أن يصاب حيوان بأقل أذى »

وكان الاعدام فى مصر جزاء من يقتل متعمداً أحد الحيوانات المقدسة وكان اذا ألحق بعضهم ضررا بقط أو بجعة أو حيوان مقدس أيا كان أفضى الى موته وهو غير عامد ولا مترصد ، كثيرا ما يمثل به الجمهور الناقم شر تمثيل ويورده من الهلاك موارد لاصدر لها . ولقد حدث أن قتل رومانى قطاً قتلا غير مسبوق بإصرار ولا عمد فثارت عليه ثائرة الجمهور اذ حاصروه في بيته وقتلوه على الرغم من مقاومة احراس الملك لهم ووقوفهم دونهم ، بعد إذ أخذوهم بالملاينة وبالحسنى عملا بما درجت عليه سياسة قياصرة رومية فى استهواء افئدة المصريين اليهم فلم تأت تلك الوسيلة بجدوى . وكان اذا أمحلت الارض وعم القحط وفشت المجاعة أكل الناس بعضهم بعضاً ، ولكنهم كانوا لايجرؤون على مد الأيدى بالأذى الى تلك المعبودات العجيبة . وكان إذا شبت نار الحريق لايطفئونها حرصا على راحة القطط وتأميناً لحياتها . وكان اذا دهمها الموت على الرغم من وسائل الاحتياط التي اتخذت نقلت جثتها الى بلدة بوبسط (تل بسطه) لتدفن فيها باحتفال فخم . وكانت الذئاب اذا ماتت دفنت حيث تنفق ، أما الافاعى القرناء فى ضاحية طيبة فكانت تدفن فى هيكل المشترى ، وأما البزاة والبجع والنموس (جمع نمس) فكانت تنقل الى هرموبوليس فى صناديق ثمينة الصنع . وكان إذا مات كلب

لطعونه فى السن حزن أصحابه عليه ، والأمثل تأدبا فى حقه أن نقول مسا كنوه ، وجعلوا مظهر حزنهم حلق الجسم والامساك عن الخبز والنبيذ وسائر الاغذية المدخرة عندهم . وكانوا لايأسفون على ابنائهم إذا فقدوا أسفهم على الكلاب إذا وافاها الموت .

وكانوا اذا نفق العجل أبيس يلبسون عليه الحداد لايخلعونه الا اذا هداهم البحث الى خلف له يختارونه بعلامات تميزه عن غيره من العجول ، وتلك العلامات هى غرة هلالية بيضاء فى جبهته وأخرى بهيئة النسر فى ظهره وثالثة على مثال الجعل (الجعران) فى لسانه . فإن وفقوا له أولموا الولائم وأقاموا الافراح ثم ساروا بهذا المختار السعيد الى مدينة نيلوبوليس لتبذل له صنوف العناية ويخص من وسائل الرعاية بما يتفق مع سامى رتبته ورفيع مقامه وتهافتت ربات التقوى والورع من النسوة على زيارته للتبرك به وطفن حوله بمظاهر التغالى فى اجلاله والتفانى فى حبه وعكف المتظاهرون والمتظاهرات على هذه الأفراح والأعياد أربعين يوماً تباعا ينزل العجل بعدها فى الغرفة المذهبة من الزورق المعدّ لنقله الى مدينة منفيس .

وإنه لمما يؤلم الفؤاد ويحزن النفس أن نرى أساطين الحكمة يهبطون من مكانتهم العليا الى درك هذه الاعتقادات الفاسدة ، فإن الخمسين ألف الريال التى كان ينفقها أحد البطالسة فى معدات

تشييع جنازة العجل النافق لم تمنع القصاب الغليظ الكبد من مدّ يده أيام قبيز الى أحد العجول الأ بيسية والانحاء على رقبته انحاءه على رقبة أى عجل سواه ومن أن يحرمه بذلك تمجيد الملأ له كربٌ من الأرباب . قال لوسيانوس الكاتب الرومانى : « كنت تدخل الهيكل الفخم فيخطف بصرك بريق الذهب ولمعان الفضة فى كل نواحيه ثم تبحث عن المعبود الذى حفت به مظاهر العظمة والجلال على هذا المثال فلا تجد الا قرداً خاسئاً جاثماً فى مكانه . وكم من قصر منيف كنت تراه ثم نجد أن كرامة ساكنيه ومكانتهم فى الوجود لاتتفقان مع فخامة تنجيده وحسن تشييده » .

ولم يقف المصريون فى الاستكثار من معبوداتهم عند حد الحيوانات ، بل عدوه الى النباتات . فقد بلغت سهولة الطباع وبساطة الاخلاق بهم الى عبادة بعض البقول . فكان أحدهم ، اذا أخذ على نفسه عهدا ، لا يخيس به ما بقي حيا متى أقسم على البصل أنه لا ينقضه .

وكان أهل منفيس يعبدون العجل وأهل «ومنفيس البقرة والباريميون فرس البحر وأهل سينوبوليس الكلب واهل لاتوبوليس اللاتس وأهل ليكوبوليس الذئب وأهل منديس الجدى وأهل هرموبوليس القرد والاتريبيون الفأرة وأهل عين شمس العنقاء زاعمين أن هذا الطائر الوهمى يتخذ من المرّ فى كل خمسمائة سنة مايشبه بيضة يجعل فيها ثقباً يدخل فيه أباه

الميت ثم يسد فوهة الثقب بالمر ويجيء من أقصى بلاد العرب بعد ذلك بهذا المحبوب من الشمس.

وكان فى فطرة المصرى شيء من العظمة دفعت به الى انتحال أرومة لنفسه غير أرومة البشر والسمو الى اصل أشرف واكرم من أصوله . فلقد قرر كهان منفيس أن أول من حكم المصريين هو الأله فتاح وأن حكمه عليهم تواصل اثنى عشر الف عام ثم خلفه الأله فريه أو الشمس فدام حكمه عليهم ثلاثين ألف سنة ، وجاءت من بعده خلائف من انصاف الآلهة كزحل والمشترى وأصحابهما وهى الآلهة التى رأى قدماء اليونان فيها من العظمة والجلال ما أرضاهم بها وجعلهم يرفعونها الى مصاف آلهتهم الاثنى عشر الأشد بأساً والأعظم طولا وحولا . قال المؤرخ رولان : « إن مصر العزيزة المجيدة كانت تعد من الجمال هوبها فى مهواة لاقرار لها مادامت هذه المهواة تدنيها من الأبدية ، ولامراءَ أن شرائعنا وأنظمتنا وأفكارنا فى شؤون الاجتماع وتقديرنا لما هو عدل أو غير عدل انما اقتبسناه من بلاد النيل وأخذناه عن أهلها وما من حكومة فى العالم الا وكانت فى بدايتها قائمة الأنظمة على أساس من الدين ثم صار بعضها جمهورياً والبعض دستورياً . ولقد تحسست مصر هذه الأنظمة أيضاً غير أنها كانت كما يؤخذ من أقوال المؤرخ هيرودتس أول من أخذ بالقسط الأوفى من الأنظمة الدينية وأول من أمعن فى تمجيد

الآلهة وتكريمها .

ولقد حدث فيها ما لا يزال يحدث حتى الآن فى جميع الامصار من عبث رجال الكهنوت بالسلطة التى أفضى بها اليهم حتى مل الشعب الكدّ والكدح فى سبيل العمل بلا جدوي وسئم الخنوع المطلق لارادة الكهنوت ، وبلغ من امرهم فى التعبد أن الملك مينيس حرمت ذكراه حق التمجيد بعد وفاته ونقش اسمه فى جدران هيكل المشترى من يد جنفكتوس والد بوخوريس المدبر مشفوعا بعبارات التعزير والحرْم لا لشيء سوى انه أذاع بين مواطنيه عادة اتخاذ المناضد والسرر والأقمشة وادوات البذخ والترف والزينة . ومينيس هو الذى أقام أركان الملكية فى مصر ونقلها الى أعقابه قبل الاسلام بستة آلاف سنة ، اذا صح مانقله المؤرخون . وكان الملوك في ذلك العهد يسمون رؤساء الجمهورية ، ولعل هذه التسمية أريد بها تلطيف الحكم المطلق الذى كانت له الكلمة العليا ، كما لطف الرومانيون بمثل هذه التسمية استبداد قياصرتهم فى بلادهم .

وقسمت مصر الى ستة وثلاثين اقليما يقوم على ادارتها موظفون يباشرون العمل فى وظائفهم بمقتضى قانون مسنون . وكانت الأمة مقسمة ثلاث طبقات : الطبقة الاولى طبقة الكهان الذين ، وإن لم يطمحوا الى الارتداء بالرداء القانىء اللون الذى هو شارة التملك والحكم ، عرفوا كيف يقتطعون لأنفسهم

حقوقا وامتيازاتٍ واسعةَ النطاق . اذ لاواحد منهم الا أجريت عليه الارزاق من لحوم البقر والأوز وحصة من لحم البقر المقدس الناضج وزكرة نبيذ معتق كل يوم . على أنهم لم تكفهم هذه المرتبات فاضافوا اليها مافرضوه من المبالغ الفادحة رسوما للقيام بالطقوس الجنازية واتخذوا لأنفسهم شارات تمثل المحراث اشارة الى مراتبهم الكهنوتية ، فلم يبق فارق ولا مميز فى ذلك بينهم وبين الأمراء الذين كانت تلك الشارة شارتهم . وقد أعفوا أملاكهم الكثيرة وأراضيهم الواسعة من الفرض والضرائب وحتموا جباية الاموال برسمهم من اصناف الحاصلات فى بقية الاراضى وفرضوا ذلك على الملك نفسه فلم يسعه الا الرضوخ لمطابهم . وبعد ان ابتز أولئك الشرهون الأموال من الاحياء ابتزوها من الاموات بأن فرضوا على أهليهم إتاوة سنوية فى مقابل انزال جثثهم بالكهوف محنطة فى التوابيت .

وحدث أن رغبت الملكة إيزيس فى رفع زوجها أوزريس بعد وفاته الى مراتب المعبودات ، فلما سألت الكهان ان يحققوا لها هذه الأمنية أبوا الا اذا تنازلت لهم عن الثلث من املاكها جميعا ، وقد كان . وتمكن فرعون من الاستيلاء على أموال رعاياه وماشيتهم وأرضهم بمشورة من الوزير ، وكان أجنبيا من أصهار الكاهن الأعظم . على أنه ، مع طموح الكهان الى الاستئثار بالاموال والخيرات ، لم يجرؤ غيرهم على ان يمد يده

بأذى الى الاملاك الكهنوتية ، بل كان اذا نزلت بالأمة مجاعة فوقعت فى الضيق باع أفرادها بعضهم بعضا لسد الرمق بشيء من الخبز ، بينما كان الكهان فى بلهنيةٍ من العيش لاتكف الخيرات عن الورود على ابوابهم ليلَ نهارَ .

وكان من عادتهم التدخل فيما لايعنيهم من شؤون الغير . ومن ذلك اندساسهم بين الأسر وامتزاجهم بها وتدخلهم فى تولية الملوك ، حتى آل الأمر بالضرورة الى الاستمداد بنصائحهم ودعوتهم الى مجالس الاستشارة للمفاوضة معهم فى شؤون الحرب والصلح والزراعة والمشاريع العامة والأمور الداخلية والخارجية . وكان المرجع اليهم فى تقرير المواعيد لمواسم الزراعة وإعلانها والنظر فى الفيضان والتحاريق . واذ كانوا الملمين وحدهم بالشريعة والقابضين على مفاتيح العلوم فقد دونوا بأيديهم حوادثهم السنوية وانظمتهم الدينية وخططوا الرسوم على جدران المبانى المقدسة ومارسوا الآداب اللغوية وعلوم الاخلاق والتاريخ الطبيعى والطبيعة والطب والعلوم الرياضية وعلم أصول الاجرام السماوية ومناشئها وجلسوا للفصل بين الناس فى المنازعات وزاولوا الاعمال المدنية كالمساحة والجراحة والتحنيط والتنجيم .

وكان المنصب الأول من مناصب الدولة فى مصر منصب الكاهن الأعظم كما كان عند العبرانيين ، ثم تتلوه مناصب الآباء الكهان او الانبياء والكتبة المأمورين بجباية الضرائب الخاصة

بالكهنوت وكبار انبياء هاتور وأحراس الهيكل وحملة اختام الضحايا القربانية وغيرهم ممن اقتصرت وظائفهم على تقديم القرابين الجنازية او احراق البخور أمام الآلهة او اهراق الاشربة على الارض او مراقبة الهياكل او القيام بحراسة الابواب او الغناء أو تحنيط الأجسام . ولا يخطرن ببال القارىء ان هذه السلسلة المتصلة الحلقات من الطبقات الممتازة قد اخليت من القيود فقد كان لايصرح لأحد من افرادها بالتزوج من اكثر من امرأة واحدة بينا الرجل من غيرها كان يستطيع التزوج من اى عدد شاء من النساء ، مادام قادرا على القيام بنفقاتهن . وكان مفروضا عليهم التأهب للاجراءات الدينية بالتعفف عن النساء اسبوعا على الأقل واثنين واربعين يوما على الأكثر وبالامساك عن البقول والخضر والاغذية اللحمية والتأمل وتعليم الحقائق المختصة بالطبيعة الآلهية والعقائد الثلاث الأصلية التى تتلخص فى وحدة الذات العلية وخلود النفس والجزاء والعقاب فى الدار الأخرى وكانوا يرُوضون أنفسهم فى كل وقت على العطش والجوع والقناعة بالقليل .

وكان فرضا عليهم التوضؤ بالماء البارد فى كل مصبح وممسى وفى غسق الليل او بالماء النقى الذى شرب منه البجع كما كان واجبا عليهم حلق شعورهم أو نتفها مرة فى كل ثلاثة ايام . وكانوا يكتفون من اللباس والنعال على مرّ فصول السنة بنعال ببيوس

ورداء واسع من الـكتان حديث الغسل . وكانت الخواتم بأصابعهم تسطع منها أشعـة الضوء والعقود ذات الصفوف والطبقات تتحلى بها أجيادهم وصدورهم مقترنة بهنات صغيرة على شكل النواويس والجعلان « الجعارين » . وكان الـكتاب يفرغون على جسومهم معطفا طويلا يسمونه كلازيريس يستر من تحته ثوبهم القصير المسمى شنتى . أما كهنة أو زريس فـكانوا يضعون على أرديتهم البيضاء الواسعة فرو الفهد . كتب احد قياصرة الرومان الى والى مصر على عهده ، وكان قد وافاه بضرائب تفوق مااعتيد تحصيله فى الاعوام الغابرة مايأتى : « والذى اريد هو ان تجزّ أصواف نعاجى لا أن تسلخها» لكن جماعة الكهنوت كانوا يرون غير هذا الرأى بلا ريب .

أما الطبقة الثانية فطبقة الجند وكانت محترمة جداً تقوم الحكومة على نفقتها ببذل وسخاء وكانت تملك الاراضى الزراعية معفاة من الفروض والرسوم . وكان كل جندى يجرى عليه من الرزق فى اليوم مايكفيه وعائلته شر العوز ، اذ كان من مخصصاته المرتبة له يوميا خمسة ارطال من الخبز ورطلان من اللحم وزكرة نبيذ . وكان كل جندى يرى من صالح نفسه صيانة البلاد من عادية القهر والذلة ، فـكان اذا طلب منه الدفاع عنها همّ بأداء هذا الواجب ناشطا متحمسا . وكان تسهيل الزواج للجنود وترويجه بين صفوفهم يقيان مصر شر الحاجة الى حشد الأجانب .

وكان ابن الجندى يشبّ جنديا فتتوافر فيه الفضائل العسكرية منذ نعومة الأظفار ، وتصبح في غرائزه لممارسته اياها بالتجربة والقدوة . وكان اذا تمرد جندى او بدا منه فى القتال جبن او خوَرٌ رمي بالعار والشنار . لكنه كان ، اذا جاء بعد ذلك بعمل باهر ، انمحى العار عنه . وكان بمصر على قدم القتال دائما مائة وثمانون الف مقاتل ، وأحصى المؤرخ هيرودوتس جيوشها فى غضون تطوافه بها فقال إن عدد جنودها بلغ فى اقاليم كاسيريا مائتين وخمسين ألفا وفى اقليم هرموتيبي مائة وخمسين الفا .

وكان الجيش مؤلفا من المشاة الثقيلة حاملة السيف المحدب والخوذة ومن المشاة الخفيفة الضاربة بالسهام والمقاليع ثم من خيالة اشتهرت بالرشاقة والخفة العجيبتين فى أداء الحركات . وكان سلاحها فى بادىء الأمر القوس والخنجر وكان رجالها يركبون عجلات يجرها اثنان من الجياد الصافنات . وكانت فرق الجيش المختلفة تقوم بالتداريب والمناورات الحربية مقسمة الى كتائب شتى وتنفذها تنفيذا دقيقا طبقا لأوامر تصل الى اسماعهم بالابواق والطبول . وكان الملك يقلد الأمراء قيادتها فى حومات الوغى .

أما الطبقة الثالثة فطبقة الشعب . وكانت تشمل الفلاحين والرعاة والصناع . وكان للفلاحين المام تام بانواع الارض وصفاتها وخواصها ومواسم النيل من فيضان وتحاريق وغيرهما ،

وبفصول السنة الصالحة للبذار والحصاد ونقل الحاصلات . اما الرعاة فكانوا على إرث من العلم بوسائل تنمية الحاصلات لتغذية المواشى واحاطة تامة بتربيـة البط والأوز والدجاج . وكثيرا ما كانوا يتخطون مقتضيات الطبيعة الى النتائج المنتظرة من عملها، اذ كانوا فى المدة الموافقة من ايام السنة الشمسية الافرنجية لمابين أخريات دسمبر وأخريات أفريل يفرخون اكثر من ثلاثمائة الف بيضة بوضعها فى اكوام السباخ أو فى افران ثابتة الحرارة او بتسخينها بحرارة الكفين . وكان لهم فى ذلك صبر تضرب به الامثال .

وقد تهيأت لمصر بتوفر عمالها على النشاط فى العمل أسباب الهناءة والسعادة . وكانت طوائفهم فى الاتحاد والوئام كأعضاء أسرة كبيرة . وقد حذقوا تلوين الزجاج وتنميق جدران المقابر بما لايعد ولا يحصى من النقوش والصور وبرعوا فى صبغ أنسجة الكتان فنافسوا فى هذه الصناعة أهل صور وصيدا . وانمازت السجاجيد والابسطة التى كانوا يصنعونها بالمتانة لجودة حبكها سدى ولحمة وبتنوع ألوانها الجميلة ، فأحرزت قصب السبق على ماكان يصنع من نوعها فى بابل . وكان لهم حذق خاص وبراعة مأثورة فى التصوير على الأكواب التى كانت تصنع فى بلدة قبطوس من الصلصال الممزوج بالمساحيق العطرية بحيث اذا سكب الماء فيها اكتسب رائحة عطرة وطراءة تغرى الشفاه

برشف مافيها من شراب ، وبرعوا أضعاف هذه البراعة فى نحت القنانى من حجر النهاء (المرمر) لحفظ خلاصات الروائح العطرية على حالتها الطبيعية ومن غير ان يطرأ عليها طارىء زمنا طويلا ونحت الحجر الأعبل المجزع الذى كان الارقاء النصارى يقطعونه من مقالع طيبائيد وصقل المرمر الاسكندرانى الذى كانت تكسى به المبانى الضخمة المسماة فيها بالاهرام لتوافر الشبه بينها وبين لهيب النار كلما ارسلت الشمس اشعتها على سطوحها الصقيلة اللامعة فينبعث منها مايشبه اللهب ومعالجة حجر المغنطيس الذى همّ بطليموس فيلادلفوس بجعله قبة لهيكل شاده اجلالا لأخته وزوجته أرسينوة وكان قد صنع لها بعد وفاتها تمثالا من الحديد اراد بوضع ذلك الحجر فى قبة الهيكل بقاء هذا التمثال معلقا فى الهواء تحتها مجذوبا اليه بالقوة المغنطيسية المنبعثة منه بحساب معين وقدر معلوم .

ووصلوا فى القدرة الصناعية الى التصرف في الاحجار الكريمة التى كانوا يستخرجونها من مناجم الصعيد على مايطابق منافع الناس ويوافق فى التجمل اهواءهم ومنازعهم فأحجار الدم والعقيق والزمرد الذى له من الصلابة مايقاوم به الضغط الشديد ايا كان كثيرا ماتتحول فى ايديهم الى وسائل للزينة كان الرجال والنساء يتنافسون فى اقتنائها للتجمل بها . أما معادن البلاد التابعة الى مصر فكانت تصلح لصناعة الاسلحة والآلات والآنية ،

فمركبات القتال كانت تصنع من النحاس النقى او الخليط . وذكر هوميرس الشاعر اليونانى انهم كانوا يتخذون احواض الماء لغسل الوجه من اللجين المصفى . أما الكراسى والسرُر وسائر الأثاث فكانوا يحتفلون بتنميقها على مثال يسترعى النظر ويخلب العقل لما توافر فيها من حسن النسق وضبط التناسب واتقان الصنع . وكانوا لقلة انواع الحيوانات فى مصر واقتصارها على صنوف محدودة يجلبون من بلاد الرومان واليونان منها مايرون استنتاجه صالحا للزراعة أو غيرها . وبلغوا فى جولاتهم البحرية لترويج بضاعتهم من ثمرات الارض او منتجات الصناعة الى جزر كناريا فى بحر الظلمات (المحيط الاطلانطى) غربا وضفاف نهر القنج (بالهند) شرقا . وكانوا يأنفون فى معاملاتهم بمصر من تسويتها بمال غير النقد الكريم من الذهب المصفى . ولقد بلغ ايراد الحكومة فى ذلك العهد البعيد الى مايعدل ٨٠٠ مليون من الفرنكات اى نحو ٣٢ مليونا من الجنيهات المصرية بنقد الزمن الشاهد . وكان لكل من طوائف العلماء والجند والكهان شارات للتشريف وسمات خاصة بكل منها للتفرقة بينها ، الا أن هذه الطوائف كافة كانت فى منزلة واحدة من الاكرام والالطاف والايثار لاعتقاد الناس أن التكاتف على العمل للمصلحة العامة واقٍ من التحقير وباعث على التوقير . وقد كتب القسّ فلوري الأسطر الآتية فيما نحن فيه . قال :

« ان الريف الفظ الغليظ الطبع هو الذى يملأ بطون المياسير من اهل المدن واعوان القضاء والجباية ورجال الدين . ومهما سلك المرء من سبل لتحويل النقد الى سلعة او السلعة الى نقد فلا محيص من عودة كل شىء الى ثمرات الارض وما تغذيه من الحيوانات والبهم . على أننا لو قارنا ما بين الناس من درجات متفاوتات بعضها ببعض لجعلنا فى الدرجة السفلى اولئك الذين يفلحون الارض ويعملون لاستثمارها وخص الكثيرون منا بالاحترام والتعظيم جماعة المياسير الذين لايؤدون عملا صالحا للاجتماع الانسانى لحرمانهم من القوة البدنية وجهلهم المطبق بالصناعات ، ولا شأن لهم فى الحياة غير انفاق ماعندهم من المال الكثير فى ملاذهم وخدمة اهوائهم . ولكننا لو تخيلنا بلدا لايكون التفاوت بين الدرجات فيه كبيرا بهذا القدر ويكون شرف المرء فيه منوطا بالجد والعمل لابالتراخى والكسل وبالحرص على الحرية اى بالانقياد للقوانين المسنونة والسلطة العامة وبالاعتماد فى المعيشة على ثمرات الكد لا بأن يكون عالة على الناس وبايثار القليل من الربح بالعمل على الكثير منه بالتسفل فى سبيل الملق والتزلف وباجتناب الكسل والدعة والجهل بلوازم الحياة وبتعهد البدن بما ينميه ويقويه دون ارضاء النفس بملاذها وحظوظها ، إذا وجد بلد توافرت هذه الشروط فيه فخير للمرء وأشرف له ان يقضى حياته فيه فالحا الارض

او حارسا قطعان الماشية او مزاولا احدى الصناعات من التفرغ للهو وقطع حبال العمر فى التنزه وطلب الملاذ » .

البلد الذى يشير اليه الكاتب فى الأسطر السابقة ويحسب وجوده مستحيلا موجود فعلا ، بدليل ان الحكومة فى مصر القديمة سنت قانونا يلزم كل مصرى بأن يقابل فى يوم معين من السنة مدير اقليمه ليبلغ اليه نوع العمل الذى يزاوله ويقتات من ربحه . فاذا ظهر انه كاذب فى بلاغه عوقب بالاعدام كما يعاقب به كل من ثبت عليه انه لايزاول عملا مطلقا . ولم يتمالك الامبراطور الرومانى ادريانوس عندما وقف على نصوص هذا القانون ان ابدى اعجابه بما يرمى اليه من تقديس للعمل وحث على ممارسته اذ قال : « البلد الوفير الخير هو الذى لاترى فيه عاطلا أبدا » . وكان لايجوز لمصري بحكم القانون ان يجمع بين عملين ولا أن يبدل من صناعته صناعة غيرها . وهذا الحظر جلىّ النفع اذ اريد به تضييق السبل على الطامعين وحث المحترفين على اتقان عملهم بما يبذلونه فى ادائه من حذق وخبرة ونشاط .

على ان اتقان الفنون فى مصر اعترضته عقبات ثلاث سوغتها اسباب وجيهة منها : الموسيقى فقد منعها المصريون لاعتبارهم اياها عملا لاتتفق مزاولته مع كرامة النفس وهمتها، دع انه من السفاسف التى لاخير منها يرتجى ولا ثمرة تجتنى ولا شىء من ورائها غير اهاجة النفس . ومنها المصارعة فقد عدوها ضارة

بالصحة ومفسدة للنظام العضوى . وهنا لا بأس من ذكر ما كانت الاجيال الغابرة بمصر تتخذه من الحيطة فى مسألة الحياة والموت ، فقد كان أطباؤهم ملزمين ، عملا بنصوص السجلات المقدسة ، برعاية ماورد من النظريات والملاحظات والحكم على ألسنة قدماء الاساتذة والمعلمين . على انه كان لهم الخيار فى اطراح هذه التقاليد على ان يحملوا التبعة فيما لومس المريض ضرّ من الزيغ عن الخطط المتبعة والقواعد المرعية . ولسنا نذهب الى استحسان القيود والحض عليها ولو قصد بها تقييد حرية العلاج وانما الحقيقة التى تجلت هى ان قدماء المصريين قد اصابوا شاكلة الصواب عندما اوجبوا على الأطباء الاقتصار فى علاجاتهم وتجاريبهم على نوع واحد من الأمراض . ولقد كانوا يتقاضون اتعابهم من خزينة الحكومة ، ولذا كانوا يلبون بلا استثناء دعوة من يطلبونهم الى معالجة المرضى ولا يطالبونهم فى مقابل ذلك أجرا .

وكان لكل اقليم من اقاليم مصر وكلاء ينوبون عنه فى الجمعية العمومية الكبرى التى تعقد جلساتها بقصر اللابرانت (١)

(١) اللابرانت وباللغة المصرية « لوبورهونيك » قصر عظيم من قصور مصر القديمة بشرق بحيرة موريس او القارون او القرن . وكان مؤلفا من ٣٠٠٠ غرفة مظلمة تتصل بينها بدهاليز مظلمة وكانت تتخذ مدافن للفراعنة والتماسيح المقدسة

(احد الفراعنة يفتتح موسم الحراثة)

وكانت الأمة فى بادىء الرأى تبايع ملوكها بالانتخاب ثم عدلت عن هذه الطريقة فلم تعد تتدخل فى المبايعة الا في حالة انقراض الاسرة الحاكمة وتنصيب أسرة أخرى مكانها . وقد سلبت هذا الحق ايضا بتعاقب الاجيال فلم تجد امامها ما تخول نفسها من الحقوق إلا حق الحكم على الجثث الملكية قبل دفنها ومعاملتها بما كانت تعامل به جثث الكافة سواء . فكان شأنها فى التماس الحقوق العامة والاصرار على احرازها شأن البطل اللقدمونى الذى القى بنفسه فى البحر ليدرك سفينة الاعداء ويقاتلهم ، فلما انبترت ذراعه قبل وصوله اليها استعان بذراعه الأخرى على تسلقها واعتمد على فكيه بعد انبتارها فى مقاتلتهم والفتك بهم .

وذكر ديودورس الصقلى فى المقال الأول من كتاب تاريخه العام مايأتى : « كان ملوك مصر لا يسيرون على سنة الملوك الآخرين الذين جعلوا ارادتهم المطلقة وشهوات نفوسهم قاعدة لتصرفاتهم » ، فقد كان الملك فى مصر يقسم بالأيمان المؤكدة ان يحافظ على القوانين وينقاد لها ويحرص على تنفيذها فى السلم حرصه فى الحرب ذوداً عن حمى وطنه اذا أرهقه عدوّ بعدوان . وكان لديهم برنامج ببيان الاعمال التى ينحتم عليه مباشرتها فى كل ساعة من النهار ، فكان فى فاتحة السنة الزراعية يتولى بنفسه شق أول خط بالمحراث . وكان اذا شب ضرام الحرب علا عجلة القتال وأمسك بأعنة خيلها وقاتل العدو كبعض جنده . وكان لا يلازم ركابه

ليتولى خدمته أحد . وكانت حاشيته مؤلفة من ابناء الكهان الذين ناهزوا العشرين من العمر على الأقل ، لاتصافهم فى هذه السن بمكارم الاخلاق واعتصامهم بالمبادىء القويمة وليتقي بمخالطة امثالهم قول السوء فى حقه ورميه بما لا يتفق مع الكرامة من شائن الفعال . وكان يهبّ من نومه فى البكور ، وقد لطف مزاجه وصفا ذهنه فيقبل أول مايقبل من الأعمال على تلاوة كتب الأخبار الواردة من اطراف مملكته ، ويتوفر على ذلك حتى اذا استقصاها عمد الى الاستحمام وأسبغ على جسمه بعد الفراغ منه ثوبا ثمينا وحمل شارات مكانته وعلامات رتبته وقصد بعد ذلك الى الهيكل ، فيقف الكاهن الاكبر باسطا الأكف مبتهلا الى الآلهة ان يحفظوا المليك ويطيلوا بقاءه ليحكم بين رعاياه بالنصفة ويحيي فيهم سنن العدل ، ثم يسرد ما امتاز به من الفضائل الخلقية كالتقوى والشرف والرأفة وحب الخير وكراهة الكذب والرفق ببنى الانسان والعقاب بما دون الاستحقاق والمكافأة بما فوقه ، ثم يعلن الهفوات التي زلت فيها قدم الملك غافلا غير عامد ويتدرج من التشهير بها الى النطق ببراءته منها منحيا باللعنة والمقت على المتملقين والمداهنين من حاشيته الذين يسيئون اليه النصح . وعلى أثر ذلك يفحص الملك أحشاء القربان ثم ينصت لما يتلى عليه من الكتب المقدسة المتضمنة سير أسلافه والمثبتة لاقوالهم وفعالهم الجديرة بالذكر

والتنويه . ومتى عاد الى قصره بعد أداء هذه الفروض خلا الى نفسه وأخذ يحاسبها على مابدر منه من قول او فعل ثم عرضه على محك النقد الصحيح . وكان مما لايجوز له ان يتصرف فى وقته على مايهوى حتى لو التمس وفد ان يحظى بشرف المثول بين يديه فأنه كان لايسوغ له ان يقابله كلا ولا ان يتفرغ لنزهة او رياضة أو أنس بقرينته الملكة الا فى ساعات معينة من اليوم. وكان القيم الاعظم على طعامه وكبير الموكلين بسقايته لايقدمان اليه من الطعام غيرما سهل هضمه وطابت مراءته كلحم العجل والبط مع قدر من النبيذ لايفقد الرشد ولا يكدر صفاء العقل. وكانوا يقصدون من وراء هذا الاعتدال الى الهوادّة فى انالة النفس متمناها من الشهوات وقاية لمتولى شؤون الأمة المحبوبة من الآلهة من العيوب الجثمانية والمثالب الأدبية .

فلا عجب بعد هذا إذا لم يضنّ الجمهور المصرى قط على الملك بالحب والعطف والامتثال . وكيف يضن وقد كان يوقر فى شخصه السيادة التى آتته العناية الربانية بها والقدرة على بث المعروف واغداق الخير ويجده التمجيد الذى حدا به الى التعبير له عن عواطفه تعبيرا يخلده النقش فى الآثار بعد وفاته .

وكان اذا مات الملك أسيت الأمة له أسى شديدا ووجدت عليه ، فتسربلت على بكرة أبيها بسرابيل الحداد وغلقت هيا كلها وعطلت شعائر قرابينها وحفلات دينها فى مدى اثنين

وسبعين يوما وصالا . وكان يجتمع فى كل يوم نحو مائتى رجل وامرأة او ثلاثمائة ليحثوا التراب على رؤوسهم ويصيحوا صيحات الرثاء تارة والتمجيد أخرى موقعة على نغمات الموسيقى . وكانوا ، خلال هذه المدة ، يمسكون عن شهوات النفس فلا يستحمون ولا يتضمخون بالروائح العطرية ويتجافون الرقاد على الفراش الوثير ويهجرون النساء فى المضاجع . وكانت امارات الحزن الصادق تبدو واضحةً على الوجوه يلمحها الحاضرون فى حفلة الجنازة . وكانت جثة الملك الفقيد تعرض فى اليوم الاخير من الايام الاثنين والسبعين على الجمهور بالقرب من القبر وتتلى عليها أمامهم التعازير والملاوم والشكاوى ويلقى الكهان الخطب المسهبة فى تأبينه . فإذا صفق الحاضرون استحساناً لمضمونها خوّلت جثة الملك حق التشييع بما يليق بمكانته من الاحترام والحفاوة . أما اذا لم تقع منهم موقع الاستحسان فكثيراً مايحدث أن يمحى اسم الملك من الآثار الدينية التى نقش فى جدرانها .

وليس معنى عناية المصريين بمحاكمة الجثث على ما اقترف أصحابها فى حياتهم من الآثام أنهم كانوا يغفلون محاكمة الأحياء على ماوجدوا متلبسين به من الجنايات . فلقد كانت مدائن عين شمس ومنفيس وطيبة تختار كل منها ثلاثين رجلا من أهلها المعروفين بالصلابة فى الحق والالمام بأطراف العلوم الشرعية ليتألف منهم مجلس قضاء لاتؤثر فيه عوامل الزلفى . وكانوا

يقيمون على رأسهم أرسخهم قدماً فى الفضائل وأوسعهم علما بالشرائع وأصدقهم ميلا الى صون الحقوق العامة .

وكان الملك ينفق عليهم من خالص ماله ويقضى حاجاتهم ويلبي طلباتهم حتى اذا خلت نفوسهم بذلك من الهم والقلق على أهلهم وأولادهم تفرغوا للقضاء بين الناس بالحق ، لا يبغون على عملهم أجراً ولا يتأثرون بالمباغتات والشهوات ولا بمنطق البلغاء والفصحاء من المتقاضين . لأن تفاصيل الخلاف كانت ترفع اليهم بها النتائج والمذكرات من قبل . وكان فريقا المتخاصمين يترافعان بنفسهما ومتى انتهت المرافعة انسحب رئيس المجلس للمداولة مومئا بإصبعهِ الى تمثال « ساته » إلهة الحقيقة المعلق فى عنقه بسلسلة ذهب فإذا تأكد له أن الحق الى جانب احد الفريقين وأراد اعلامه بذلك لمسه بذلك التمثال . وما زال المنقبون عن الآثار فى مصر يعثرون على صور تمثل أصحابها مطرقين الى الارض ولا أيديَ لهم ، اشارة الى أن القضاة لا ينبغى لهم أن يمدوا بصرهم الى شيء ولا أن يقبلوا شيئاً . وكانت المجلدات الثمانية للشريعة فى متناول أيديهم فى كل وقت واليك خلاصة منها :

« الأثر الأدبى للقوة التشريعية اساسه اليمين ، فاليمين تبرىء ذمة المقترض بلا سند — ليس للمسلف أن يغاليَ فى فوائده بحيث تتجاوز رأس المال ولا أن يضبط من الاموال ما يتعدى قيمة الكفالة — الحرية الشخصية مصونة الحرمة محترمة الجانب

والوطن وحده حق التصرف فى ابنائه »

ومع هذا فقد كانوا فى بعض الأحايين يرهنون لدى الدائن مومياء المدين . واذ كان التأمل فى شخص فقيدهم من وسائل السلوى والعزاء لهم فقد كانوا يرون من العقوق للوالدين أن يموت المرء قبل استرداده تلك المومياء بدفع المستحق على صاحبها .

وكانوا يرون في نكث العهود مدعاة لتدهور احوال الجماعات وفي الحنث بالايمان سبة وعارا للآلهة . لهذا كان الاعدام عقاب الناكث والحانث كقاتل الروح المحرم قتلها سواء أكان القتيل حرًّا أم عبداً . وكانوا يعاقبون المفترى بهتانا وباطلا بالعقوبة التى يعاقب بها المفترى عليه اذا صحت فريته . وكان المزيف للنقود والمطفف الكيل وغير مقيم الوزن بالقسط ومقلد الاختام ومزوّر العقود من الكتبة العموميين أو من منهم يزيد فى نسخ هذه العقود او يحذف منها يجزى على جرمه ببتر اليدين مالم يكن بين الفريقين اتفاق سابق عليه . وكانوا يعاقبون من يفشى أسرار الحكومة بقطع اللسان والزانى بقطع الانثيين (الخصيتين) ومنتهك العرض والزانية بجدع الانف والمحرض لها على الزنا بألف جلدة بعصا من الغاب . وحرىّ بالنقد تجاوزهم اذ ذاك عمن يعتادون نشل الاشياء الحقيرة ، فلقد كان من نتائج ذلك ان تألفت للنشالين بزعامة الشطار منهم ، عصابات كانت

تحتفظ بالمسروقات لتردّها فيما بعد الى أصحابها بحلوان يعدل ربع قيمتها . وكان إذا دهم أحدهم خطر ولم يبادر باسعافه من يستطيع الى ذلك سبيلا عومل معاملة المجرم وعوقب بقدر مايكون قد وصل من الأذى الى المتعرض للخطر . وكان القانون يطالب الشاهد الذى يثبت انه لم يؤد واجب الاسعاف بالارشاد الى المعتدى او اقتفاء أثره بنفسه . فأذا لم يفعل جزى على إهماله ضربا بالعصى وحرم الطعام والشراب ثلاثة ايام . وهذه المبادىء حقيقة ، على شذوذها وغرابتها ، بأن تعد من مبادىء التعاون الذى كان ظاهر الأثر فى ولائم الاغنياء . فقد كانوا يضعون فى غرفة الوليمة تابوتاً فيه تمثال خشب أجيد طلاؤه بالالوان ، وهو يمثل ميتاً محنطاً ، فاذا حضر المدعون جميعاً وانتظم شملهم بالجلوس حول المائدة طاف عليهم من يطلعهم على هذا التابوت والتمثال المودع به واحداً واحداً وحضهم على الاتفاق والا يطيلوا بالشقاق حياتهم القصيرة كحياة ذلك الميت المزعوم . وكان مما يقال لهم فى هذا الموضوع : « انظروا هذا الرجل فأنكم ستكونون مثله يوما ما ، فهلموا اذن الى البسط والانشراح واشربوا معا غير مفترقين . وكان المصريون قد اقتدوا بمعبوداتهم بعد الفتح اليونانى فى اتخاذ اخواتهم نساء لهم ، فقرروا ان يكون ابناؤهم منهن معترفا بهم قانونا ، وهوّن عليهم هذا القرار اعتبارهم ان الأب هو موجد الابن وأن الأم حوض له

ومصدر لغذائه ليس غير . فكأنهم بذلك راعوا القاعدة التى عمل بها اليونان باعتبارهم الشجرة التى تؤتى أكلها كل حين ذكراً والشجرة التى لاثمر لها أنثى . وكانوا ينشئون ابناءهم على القناعة والزهد والتقشف حتى قيل إن نفقات تربية الغلام الى ان يصير يافعا كانت لاتتجاوز عشرين درهما اذ كانوا يعرونهم من الثياب ويطبخون لطعامهم الحشائش ولبّ بعض الاشجار أو يقتصرون فى تغذيتهم على الكرنب وجذوره نيئة أو مصلوقة أو محمرة وكانت طريقتهم فى التحية بخفض اليد الى الركبتين وكان اليافع مطالبا بالتأدب فى حضرة الشيوخ ، فيقف إذا دخلوا ويتنحى عن طريقهم او يأخذ طريقاً غيره اذا التقى بهم . وكان قاتل أبيه يعاقب بتقليب جسده على أشواك فى طول الاصابع حتى اذا نفذت فى جسمه أحرق حيا ، بعد ايقافه عليها . أما قاتل ابنه فكان يصلب ثلاثة أيام وثلاث ليال والى جانبه جثة فريسته .

* * *

لو أن من الاغراض التى يرمى المؤلف اليها وصل حلقات هذه السلسلة التاريخية بعضها ببعض ، لما كان له الآن بدّ من ايراد الاسرات الملوكية القديمة برمتها ، نقلا عن القائمة المسهبة التى نقلها مانيتون كبير كهنة عين شمس عن النقوش الهيروغليفية والسجلات المقدسة ولصور للقارىء بلاد مصر منذ الساعة التى تنحت فيها عن العمل بأنظمتها الجليلة وقوانينها التى سردنا فيما

تقدم البعض منها معجبين ووقفت بحافة الهاوية التى توارت فيها سعادتها وخفض عيشها واستكانت لأقصى مايمكن لأمة ان تتحمله من استبداد أمة اخرى بها ومعاملتها لها بالحيف والعسف . ولقد توالى عليها الفرس واليونان والرومان والعرب والترك والمماليك والفرنسيون ، فما من أمة منها إلا استذلت الأمة المصرية عميدة الشعوب القديمة والحديثة وعاملتها معاملة من يريد بها ان تكفر عن مجدها السامق السابق ، كما لو كان جناية اقترفتها أو عاراً تلوثت به .

ولا يسع مصور هذا المنظر الغريب ان يطرح قلم التصوير من يده قبل ان يرسم منظرا دقيقا قلّ ان يهتدى الى مثله باحث فى أية صورة تاريخية أخرى . نريد بهذا المنظر ذاك الذى يمثل انقضاء خمسة أجيال بين الفتح العثمانى والفتح الفرنسى لمصر ، لبث صولجان الحكم فى أثنائها وقفا على قوم كانوا ، أمس الدابر ، يساقون سوق الانعام ويشترون بالمال فأصبحوا وقد اتشحوا بوشاح الملك وحملوا شارة الحكم والسلطان .

وما أصدق ماوصف به مصر مؤلفو كتاب (نابوليون فى القطر المصرى) إذ قالوا : « مصر بلد نادر المثال بمبانيه الأثرية التى هى معالم دنيا غير دنيانا وبنهره الذى تنطوى كل قطرة من قطرات مائه على اسرار الحياة وصحاراه المرصعة بالواحات الخضراء . وماأشبه اسرارها الكامنة بأسرار النقوش

الهيروغليفية التى طالما عزّت على طلابها فى هياكلها . وقلما أوحيَ الى خاطر مؤلف موضوع أجل شأنا وأعظم خطرا من الكتابة عن مصر »

وكتب فورييه فقال : « يفيدنا البحث فى احوال مصر وثوق الرابطة بين نمو الادراك العقلى واتساع نطاق الصناعة بالنظام . وهو ينبه فينا الشعور بجلال قوانين مصر وجمال نسق حكومتها وقيام أنظمتها على الآساس الوطيدة واستمدادها بالآراء الرشيدة . ونحن كلما توسعنا فى ذلك البحث وتقصينا أسرار تلك الانظمة والقوانين ازداد تعلقنا بها واحترامنا لهـا ، وأيقنا أن للاشياء الباقية بمتانتها على وجه الدهر جلالا خاصا بها . وإذا كان الاحتفال بتنميق الشكل داعيا الى الاجادة والاحسان فإن تخيل الجمال يشمل بضرورة الحال تصور البقاء والجلال . فلا عجب اذا تجلى هذا المبدأ من خلال أبحاثنا وأثر التأثير النافع فى أذواق أهل الجيل واعمالهم »

مصر الحديثة

مصر المطلقة من أغلال العصور السالفة ، الشهيرة بآثارها الضخمة على عهد ابناء مينيس ، الشديدة البأس الصعبة المراس أيام العماليق الرعاة ، الوثيقة الأركان الشامخة البنيان على عهد الفراعنة ، الساطعة الأنوار اليانعة الثمار تحت حكم الولاة والامراء ، الرافعة لواء العلم والعرفان فى عهد البطالسة ، المتدينة بالمسيحية تحت حكم الرومان ، المستوفزة للقتال ومقاومة الاعداء أيام الخلفاء ، مصر التى نهضت واقفة تسير بجنان ثبت لقتال الافرنج في القرون الوسطى ، مصر التى كان هذا بعض شأنها العظيم فى التاريخ لم تلبث أن زلت قدمها فى المعاثر فسقطت فى قبضة المماليك الجهلاء الغاشمين . فى تلك العصور البائدة ، بعد ان كانت مصر هى المتصرفة في شؤونها المهيمنة بارادتها على أمورها أصبحت رقيقة للأرقاء ومملوكة للمماليك . وسنذكر فيما يلى كيف سقطت من علوة مجدها السامق وشوكتها الرفيعة الى حضيض الضعف والذل والاستكانة .

كان كليبر اذا ذكر نابوليون قال فيه : « قائد يحتاج فى كل مطلع شمس الى ستة آلاف جندى » . ولقد أوردت حروب جنكيز خان موارد الردى ستة ملايين من الانفس وهو من

دون الفاتحين الذى أذل أكبر عدد من الأمم . وكان يعذب العصاة بإلقائهم فى الماء المغلى فى قدور النحاس وكان لديه منها سبعون قدراً . وكان يحرق المدائن والقرى فبعد أن تكون عامرة تصبح أرضا غامرة . قال تيمورلنك تلميذ جنكيز خان فى التخريب والتدمير والعبث والافساد واصفاً له : « كان يثير عواصف الخراب فى الجبال والأودية والسهول » . ووصفه غيره فقال : كان نمرا فى مسلاخ آدمى . اذا دخل مدينة خربها وشق بطون الحبليات » وقد أسميت الجهات التى وطأها ـ موبالك ـ اى معهد الحداد . ولما مل" جنكيز خان حصد الأرواح وبث الخراب فى الآفاق وسئم النهب والسلب وانتهاك الاعراض وارتوى بما سفك من الدماء استرق" وسبا من الذكور والأناث من سلم من الحديد والنار حتى غصت معسكرات المغل وأسواقهم بالأرقاء والسبايا من الجركس والأباظية فتيانا وفتيات . وفى سنة ١٢٤٠ من الميلاد اشترى السلطان نجم الدين أيوب اثنى عشر الفاً من هؤلاء الأرقاء أقرهم حول قصره ودر"بهم على أساليب القتال . واتفق له وهو يحصر نابلس من مدائن الشام ان تفرقت جنوده من حوله وصمد أولئك المماليك وحدهم لقتال أهلها فكتبت له النجاة ، بفضل ثباتهم ، فلما استوى على عرش مصر اتخذ منهم حراسه ووثق باخلاصهم في الدفاع عنه عند الحاجة ، لاسيما اذا أراده بسوء بعض الامراء الذين انتزعوا الملك من

أخيه . ثم ألف منهم الجيوش وأطلق عليهم اسم المماليك ، فكان جيشهم أجمل الجيوش الأسيوية منظرا وأشدها بأساً واكثرها بسالة وإقداما ، الا انها كانت مع ذلك أسرعها جنوحا الى العصيان والتمرد . وكان المماليك على الجملة أشبه بالبريتوريان فى رومية والانكشارية فى الآستانة ، من جهة أنهم لم يلبثوا ان خلعوا مواليهم واغتصبوا زمام الحكم من أيديهم وتصرفوا فى شؤون السلطنة بما شاءت اهواؤهم .

وكان فرسان الصليبيين ينتظرون فى الثانى من فبراير ١٢٥٠ عند معبر مخاضةٍ ورود الامر اليهم بخوضها وعبورها فطلب الكونت دارتوا أخو الملك تخويله شرف عبورها فى مقدمة العابرين ، فأقنعه لويس التاسع بان هذا الحماس المتدفق قد يكون العطب من ورائه ، ولكن الكونت لجّ فى الرجاء مقسما لمولاه بالأناجيل المقدسة أنه لن يقدم على عمل ما قبل وصوله عبر المخاضة » . فأذن الملك له بالعبور فهمّ الكونت بعبورها فى مقدمة طايعة من الجيش . وكانت المخاضة فى ترعة أشمون فابتلعت مياهها بعض الفرسان ومنهم جهان دورليان حامل العلم . ورأى الصربون ذلك فتقدمت شرذمة من جنودهم لمقاومة العابرين وتعطيل حركتهم فصدهم الفرنسيون وفرقوا شملهم وما رآهم الكونت دارتوا يولون الأدبار حتى نسى الميثاق الذى واثق الملك عليه وهو ألا يأتى عملا ماقبل حضوره فأطلق العنان

لجواده فدنا منه اثنان من قواد الجيش ضارعين ألا يخيس بعهد عاهد الملك عليه فلم يلتفت الى رجائهما حتى لاتفلت من يده فرصة الانتصار على العدوّ ، بل انه قطع الكلام عليهما بقوله : « الى غيرى يجوز توجيه هذه النصائح » . وأمسك فوركودى مرل استاذه ومربيه بأعنة جواده ، ولم يكن هذا الشيخ الجليل سمع شيئاً من الحديث الذى دار لصمم فى أذنيه . وكان بتلك الحركة يفتخر بتلميذه ويشعر بأنه سيحرز الفوز فى هذا اليوم ولذا تقدم قليلا معه وصاح بما حضره من الجهد والقوة : « هلموا الى المطاردة . . . » نخافت طائفة الهيكليين (١) من الجنود أن يلحقهم العار ان تركوا الأمير يسبقهم الى العدو فأرخوا لجيادهم العنان ليدركوا الاعداء قبله . وكان عدد الهيكليين ألفاً وأربعمائة فتدفقوا على المصريين واستولوا على معسكرهم وواصلوا المسير الى المنصورة فدخلوها عنوة بعد أن قتلوا حراسها .

وكان فخر الدين قائد الجيش المصرى يلهو فى تلك الساعة بصبغ لحيته فى الحمام . فلما انتهى النبأ المشئوم اليه وثب على ظهر فرس لاسرج ولا عنان له ، وهو لم يلبس بعد ثيابه . وكان يبغى

(١) او طائفة التامبليبه وهى طائفة اسست سنة ١١١٨ . وامتاز فرسانها بالبسالة فى الحروب الصليبية واحرزوا ثروة عظيمة احب الملك فيليب الجميل الاستيلاء عليها فاضطهدهم وقبض عليهم واهلكهم احراقا بالنار بعد قضية لفقها عليهم وفى سنة ١٣١٢ امر البابا كليمان الخامس بايعاز من ملك فرنسا بالغاء طائفتهم

بذلك البدار الى العدو لصده عن التقدم ، لكنه لم يلبث ان قتل قبل ان تتحقق أمنيته .

وكان بين الطليعة الظافرة وبين بقية الجيش بعدُ فرسخين ، فأدرك بيبرس زعيم المماليك بثاقب رأيه مايمكن ان يحيق بالعدو من السوء لبعد ما بين شطرى جيشه فتحفز من فوره لاغتنام هذه الفرصة فجمع فلول جيشه المنهزم . وبعد أن هدأ روعهم وأكد لهم قلة عدد المسيحيين جمع اليه الفرسان المصريين وانطلق بهم الى مابين البلدة والترعة ليحول دون الاتصال بين شقى الجيش الفرنسى . عندئذ انقضّ المماليك ، وقد شبههم أحد المؤرخين العرب يومئذ بالأسود الكاسرة وشبه انقضاضهم بانقضاض الصاعقة . والواقع أنهم أبادوا فريقا منهم على بكرة أبيهم وأفشوا الجراح فى فريق آخر ودفعوا بالبقية الباقية الى الأزقة فلم يستطيعوا القتال ركبانا ولا راجلين وأحسّ الأهلون ماصاروا اليه من ضيق وحرج بين المقاتلة فطفقوا يلقون على الفرنجة من سطوح بيوتهم ونافذاتها وابلا من الأحجار والرمال المحماة بالنار ويرشقونهم بالنبال .

وسمع من ظاهر المدينه أثناء ذلك صوت الابواق ودوىّ الطبول وصهيل الخيول ، فإذا هى جلبة جيش من الفرنجة تمكن رغم اعتراض الفرسان المصريين له من الزحف لاستنقاذ الكونت دارتوا . وقد برز الملك لويس التاسع فى طليعة شراذمه فوقف

فى الطريق على أكمة عالية وعلى رأسه خوذته المذهبة وبقبضته سيفه الألمانى ، فما هى إلا لحظة حتى التحم الجيشان وتصاولا بالسيف وحد السنان . ووصف المعركة أحد مؤرخى لويس التاسع الذين رافقوه فيها فقال : « مارأت عيناى قط فيما شهدته من الحروب التى وقعت بعيداً عن الوطن والديار حربا جمة الحوادث جليلة الشأن بالبسالة التى ابداها فيها الفريقان فريق المسيحيين وفريق الكفار (المسلمين) كهذه الحرب » . وكان جوانفيل وغيره من الابطال قد حفّ بهم مكروه إذ أصيب أحدهم وهو إيرارد دوسيفرى بضربة سيف فى جبهته فتدفق دمه حتى أيقن الحاضرون انه لاحياة له بعدها ، لكن لم يلبث ان صاح بالحاضرين : « أيها الفرسان اذا كنتم لاتظنون بى أننى أطلب النجاة لنفسى ، واذا كنتم توقوننى واولادى من بعدى لوم الناس ووصمة العار فأنى أجيئكم بالكونت دانجو الذى أراه هناك بين تلك الحقول ، فأجابوا : « أيها السيد إيرارد انك لتحسن صنعا اذا قصدت اليه وسألته النجدة لنا جميعا » فاخترق بجواده على الفور صفوف العدو متجها صوب الأمير ، فما ان التقى به حتى عاد معه لاستنقاذ اصحابه ، الا انه ماكاد يستقر فى مكانه بعد عودته حتى فاضت روحه وهو يبدى آيات الاغتباط بأن العار لن يلوث اسمه ولن يدرك ابناءه من بعده .

قصد بيبرس بالمماليك الى ذاك المكان من الترعة فتراجع

الملك لويس التاسع الى الخلف وحاول ان يحشد قواه العسكرية كلها فى نقطة واحدة ، الا أن أوامره اليها فى هذا الصدد كانت تذهب صرخة فى واد بسبب ماتولى الجند من الفزع منذ تفاقم الخطب ، فتراءى عندئذ له ، وكان قد تمكن من اعادة النظام الى الصفوف بعد ان بذل في هذه السبيل جهده ، فرأى ان يجعل نفسه مثالا وقدوة لجنده فى البسالة والاقدام فبرزللحملة على المصريين . الا أنه ما كاد يدنو منهم حتى أحدقوا به من كل جانب وأمسك ستة منهم بعنان جواده ليقبضوا عليه ويأخذوه أسيراً ، غير انه استجمع قواه لقتال هذا النفر فتغلب عليهم ، وكتب جوانفيل فى هذا الموضوع مايأتى : « ان قدرة الله ضاعفت قوته وأيدت تقواه بروح منه ولولا هذه القدرة ، وهى مما يخرج عن طوق البشر ، لحقّ علينا العفاء . وماشهد الفرنسيون مليكهم تمّ له الغلبة على أعدائه ، حتى دبّ فى نفوسهم الحماس وتقدم بعض فرسانهم لتفريق العدو من حوله » .

وكان الكونت دارتوا فى المنصورة يقاوم عدوه فى قلة من جنده ، فتحصن بأحد المنازل وأتى من آيات البسالة ما يستحق ان يكون « أحدوثة سائرة بين الناس » ، كما قال أحد المؤرخين بالحرف الواحد ، وانتهي الأمر به أن سقط قتيلا مكفراً بموته عن خطيئته التى زلت فيها قدمه بمخالفته أوامر قائده . ومات سالسبورى معه فى هذه المعركة . وقبل أن يصل

نعيه الى والدته الورعة كانت رأته فيما يرى النائم متوجا باكاليل الفخر وعارجا الى السماء . وكان روبرت دوفير يحمل العلم الانكليزى فخرّ صريعا وعلمه من فوقه ، فكان له منه أشرف كفن . وقتل رءول دى كرسى مع من قتلوا وأخذ قائد فرقة الاوسبتاليه أسيراً وتمكن قائد طائفة الهيكليين من النجاة بمعجزة ، إذ عاد الى إخوانه المسيحيين فى المساء مثخنَ الوجه بالجراح ممزق الثياب والدروع فروى أنه رأى مائتين وثمانين فارساً من رفاقه مجندلين فى المعركة وعاد دوق بريتانيا الى المعسكر الفرنسى مقتديا بجي دى مالفوزان في الاستبسال لانقاذ الكونت دارتوا أخى القديس لويس من المدينة فعجز عن فتح ابوابها أو تسلق اسوارها لانسكاب الدم غزيرا من فمه . وكان ، وقد انقطع عنان جواده ، ممسكا برقبته ومع ماأصابه من ضعف ولحقه من وهن كان يلقى بمنظره هذا الرّوع والفزع فى افئدة المطاردين له بل كان يقصيهم عنه ، كلما ادركوه ، بطعنات رمحه أو يلتفت اليهم ليقذفهم بعبارات التهكم والاستخفاف . ووقف كل من جوانفيل والكونت دى سواسون وبطرس دى نوفيل وغليوم دى بون وحنا دى جوماس على رأس قنطرة حتى لا يؤخذ الفرنسيون من خلفهم فتمكنوا بوقوفهم عنده متراصين كالبنيان المنضود من صد شراذم مصرية كثيرة . وأصابت رأس بطرس دى نوفيل ضربة وسقط سينيشال شامبانيا مرتين

عن جواده ؛ بعد أن جندل بطعنة واحدة مصريا هائل الخلقة واستنجد في ساعة كرب وضيق بالقديس جاك فقال : « أيها السيد الجميل جاك أضرع اليك ان تساعدنى وتسعفنى بالخلاص من هذا الكرب الشديد » ، فجرح بسهم المرة الحادية عشرة وأصيب جواده من تحته للمرة الخامسة فلم تعقه هذه الطعنات المتواليات والجراح الداميات عن الضحك لما سمعه من مطايبات الكونت دى سواسون فى هذا الموضوع .

وكان لويس التاسع قد أحرز الفوز الباهر فى تلك المعركة فعاد الى سرادقه . أما السينيشال فقد نزع خوذته ضاجرا من ثقلها ، ثم سار فى صحب له يتحدثون فى وقائع اليوم . وقصد الأخ هنرى رئيس مستشفى روسناى الى الملك يلثم يده ويستقرىء احوال الكونت دارتوا ، فاجاب لويس التاسع : « الذى أعلمه عن يقين أن أخى يقيم الآن في دار النعيم » . ثم رفع رأسه الى السماء منهمل العبرات ، بينما كان الامراء الحاضرون كأن على رؤوسهم الطير يحمدون الله فى نجواهم ويأسون لمصاب مليكهم ويشاطرونه همومه واحزانه .

ولولا حيطة المماليك ونباهة زعيمهم ولطف حيلتـه فى الحيلولة بين المسيحيين وتدفق شراذمهم فى الهجوم لاصبحت مصر اقليما فرنسيا ، لكن قدر الله ألا تتحقق هذه الامنية وأن يطلق المماليك من المنصورة فى صبيحة غد يوم الواقعة الى

القاهرة حماما زاجلا يحمل اليها رسالة نصها : « انقض العدو على المدينة فوقعت معركة هائلة بين المسلمين وبينه » .

وعثر المماليك بجثة الكونت دارتوا فانتزعوا قميصه الحريري المزركش بأزهار الزنبق وطافوا به على الناس ينادون : « هذا ثوب ملك فرنسا الذى سقط فى ميدان القتال مضرجا بدمه » . وطافوا ايضا برؤوس القتلى من أعيان الفرسان محمولة بأطراف المزاريق ينادون : لقد اصبح جيش المسيحيين بعد قتل مليكه وأمرائه جسما بلا روح وشجرة بلا ثمر » . ويوم الجمعة الأول من عيد الفصح تحرك الفرنسيون لهجمة عامة فأثبتوا فيه ان ايامهم لم تنته بعد على عكس ماخيل للعدو وخاله حقيقة موكدة .

وما اشرقت الشمس يومئذ حتى رؤى سلطان مصر ممتطيا جواده يروح ويغدو ليرتب جيوشه فى مصاف القتال بين ترعة اشمون والنيل . فلما تنصف النهار نشرت ألويته ودقت طبوله ونفخت الابواق فانبعثت الاصوات منها مؤذنة بالهجوم تتجاوبها الآفاق ، وشعر الناس كأن السماء أطبقت على الأرض . وما التحم الفريقان حتي اخذ المشاة الرماة من الجيش المصرى يمطرون الفرنسيين وابلا من النار الاغريقية خيل معه للانظار أن الكواكب هوت من أفلاكها فى السماء فامتلأت بها الأجواء . وكان الذين يصيبهم من الجند لهيب تلك النار يركضون على غير هدى ويفرون لايلوون علي شيء صائحين صيحات الفزع والهلع ،

كما كانت الخيل تعدو فى كل ناحية ساحبة سروجها مضرجةً بالدماء ففشا الاختلال لهذا السبب في صفوفهم وانفرط عقدهم على وجه مهد للفرسان المسلمين اختراقها . وقتل جواد الكونت دانجو من تحته فقاتل راجلا قتال المستميت وظل يقاتل حتى فقد جميع رجاله . وبلغ نبأ الكارثة الى لويس التاسع نخشى أن يكون أخوه قد مسه ضرّ فهبّ لنجدته وانقاذه ، اذ امتطي جواداً كريما وانطلق يشق به الحشود المعادية ولم يصبر حتى يصحبه بعض أعوانه ، فتمكن مع هذا من درء الخطر عن أخيه وزحزحة المصريين عن معسكره .

وكانت خلف الفرسان من طائفة الهيكليين أرض ذرعها مائة قصبة تجللت بالسهام والرماح والمزاريق الى حد كان يخيل للرائى معه أنه لايستطيع أن يرى منفذاً من بينها الى الارض ، دليل حسن بلائهم فى القتال . وأصيب عظيمهم بفقد احدى عينيه فى معركة سابقة ففقد فى هذه المعركة العين الأخرى . ثم خرّ صريعاً بعد قتال عنيف .

وعالج المماليك الانسياب فى المعسكر المسيحي لنهب مافى الخيام من المتاع وعدد القتال فاختطفوا الكونت دانجو وبعدوا به عن المعسكر فبرز أخوه الكونت دى بواتييه لاستخلاصه فوقع أسيراً فى أيديهم الا انه كان قد استهوى اليه العمال والباعة الذين يتبعون الجيوش حيث تسير يبيعونها سلعهم المختلفة ، كما

استمال النساء اللاتى كن يتحركن بحركته ، لما كان يظهره لهن من أمارات التودد والعطف والرفق . فلما انتهى الى علمهم نبأ أسره صاحوا جميعا صاخبين ناقمين وتسلح فريق منهم بالخناجر وآخرون بالنبابيت وغيرهم بالاحجار ثم هجموا على المصريين فاستنقذوا الكونت من ايديهم وعادوا به ظافرين .

وكان جوسران دى برانسون وابنه وفرسانه الذين برحوا بلاد الفرنجة ممتطين كرائم الخيل المطهمة ومسلحين بالسيوف والرماح يقاتلون راجلين على مقربة من ذلك المكان ، فسقط اثنى عشر منهم على الرمل مضرجين بدمائهم . وكان جوسران ، على أثر قتال مع الالمان الذين جاءوا الى مدينة ماكون بفرنسا لنهب كنيستها ، قد جثا على ركبته أمام الهيكل ودعا الي المسيح أن يميته مدافعا عن دينه فأجيب الى دعائه فى هذه المرة إذ وافاه الموت بعد أن ظفر في ست وثلاثين معركة .

واستدعى الملك اليه اركان جيشه وثقاة دولته من بارونات وشفالييه وخاطبهم بما يأتى : « معشر الامراء ولفيف الاصدقاء ، لعلكم تبينتم مقدار ما أسبغته العناية الألهية علينا من نعمها الجزيلة فى كل يوم وأنتم تعرفون أننا فى يوم الثلاثاء الأخير قد كسرنا العدو شر كسرة وأجليناه عن مراكزه وها نحن أولاء فى معسكره . ولا يزال نخر واقعة الجمعة وشرفها لاصقين بنا فله الخسران والخزى والخذلان ولنا عكس ذلك . وإنى لأسألكم

أن تحمدوا الأله القدير فلئن تحمدوه ليزيدنكم رعاية وعطفاً »

ولم يمض زمن بعد ذلك حتى خيل للمتأمل فى الحالة أن الله الذى، ضرع أولئك الأمراء من صميم قلوبهم اليه أبى الا أن يمسك عن العطف على جنود الصليب ويضنّ بالأخذ بناصرهم. فأنهم فوق ماتكبدوه من مصائب الحرب قد فشت فيهم الامراض الوبيئة كالاسقربوط والدسنطاريا والحميات المختلفة، وأصيب الأقوياء منهم بما أصاب الضعفاء من نحول الجسم واصفرار البشرة وانتشار اللطع السوداء فيها وتمزق لثة الاسنان لمجرد ملامسة الغذاء. وعمت النكبة فصار لايسمع من جانب المسيحيين الا صلوات الاحتضار أو الجناز. وما كانت الانظار لتقع إلا على وجوه صفراء تشعر بأن الموت من أصحابها قاب قوسين أو أدنى. وكم من قسيس وقف في مصلاه يصلى بالحاضرين أو تلعثم لسانه بتلاوة بعض الآيات على بعض الاموات فيدركه الموت أو يسقط مغشيا عليه ولا يعود الى موقفه الأول ليستأنف صلواته العادية أو الجنازية. وكم من جندى صادق أمين حضره الموت فكان كل ماتطلع اليه من العزاء لنفسه ان يرى ملكه أو يسمع صوته. ولم تخش الأوباء كبيرا كما لم تعطف على صغير، فقد أصيب بأحدها الملك لويس التاسع نفسه.

وكانت المواصلات مع دمياط قد قطعها المصريون، فجاءت

فتكات المجاعة بعد تلك الشدائد المدلهمة ضغثا على إبالة . وعزّ المطلب من الغذاء حتى كان الثور لايباع بأقل من ثمانين ليرة (ليرة ذلك الزمن تعدل من نقود عصرنا فرنكا واحدا) والخروف عشرة ريالات (ريال ذلك الزمن كان يعدل ثلاثة فرنكات) والبيضة باثنى عشر ديناراً (دينار ذلك العهد جزء من اثنى عشر جزءا من الصلدى والصلدى يعدل بنقود زمننا مليمين مصريين) . فتجاه هذا الغلاء الفاحش لجأ الفرنسيون فى دفع المجاعة عنهم الى التغذى بأسماك النيل والحشائش وجذور النباتات . ولقد اشتد الضنك بهم فجرت على لسانهم كلمة الهدنة فالتمسوها من السلطان فاشترط فى منحها أن يتسلم ملك فرنسا رهنا عنده ، فاجابوا بأنهم يوثرون الموت على أن يرهنوا مليكهم المحبوب .

تراجع المسيحيون الى دمياط رجاء الحصول فيها على شيء من الغذاء ، فلم يلبثوا أن رأوا السهل الفسيح المترامى الاطراف حول هذه المدينة قد انبث المسلمون فى أرجائه لقطع خط الرجعة عليهم . ولقد نالوا من المؤخرة الفرنسية نيلا شديداً ، ويئس جى دوشاتل من العودة الى وطنه فألقى بنفسه فى معمعة القتال مع الجنود المصرية التى لم تلبث أن اردته قتيلا وزلزلت اقدام اصحابه فمن لم يلذ بالفرار منهم اختطفه الردى ، وفقد الملك خوذته ودروعه ولم يبق معه من عدة القتال إلا سيفه ، وكان

يمتطى جوادا عربيا كريما يغطيه غشاء رقيق من الحرير فصمد فى مكانه وصبر للقتال ، وكان سرجين الى جانبه يناضل عنه ويقصى العدو من حوله ، وما زال كذلك حتى اتيحت له العودة بالملك الى أحد منازل القرية . وكانت فيه سيدة باريسية فألق بنفسه فى احضانها حتى خيل لمن رآه ساعتئذ ولمح على وجهه أمارات الاعياء وآثار المرض المضنى أنه لابد مفارق الحياة بعد قليل . وانبرى البطل الباسل جوتبيه دوشاتيون للدفاع وحده عن الزقاق الضيق المؤدى الى هذا الموئل المقدس ، اذ امتطى جوادا وثيقا وتسلح بكل ماوصلت يده اليه من عدد القتال . فلما دنا المصريون منه هب للقائهم واندرع نحوهم واقفاً على ركابيه صائحاً بملء فيه : « الى شاتيون ! يامعشر الفرسان الى شاتيون ! » ولقد بدّد أفواج الكفار « اى المسلمين » الذين تدفقوا عليه ثم انقلب بجواده الى الخلف ليقاتل الذين فجأوه منهم فانتزع السهام الناشبة فى جسمه واستأنف الهجوم عليهم ، غير أن الأمر انتهى به الى السقوط على الارض قتيلا مجلل الجسم بالنبال ، كما سقط جواده الذى كان الدم يقطر من جراحاته الكثيرة . ولقد أعجب بعض المصريين ببسالة شاتيون فأخذ يقصها على الناس ويبرز لهم رأسه وسيفه ، وكان قد احتزّها ، مفاخراً بقوله : « لقد قتلت أشجع الجميع »

ووقع لويس وأخواه فى أسر المسلمين فكبلوا بالاغلال ،

ولم يرع سلطان مصر حرمة الملك ولم يعامله بما هو خليق به من الاكرام والعطف . وكان راءول دى وانون لايستطيع منذ قطعت ساقاه فى الوقائع السابقة التنقل من مكان الى مكان . فأشفق بحاله شيخ مصرى اردفه اليه على دابته . وعومل جوانفيل وبعض الفرسان الهيكليين بالغلظة والقسوة إذ كانوا يمرون بحد السيف على رقابهم إخافة لهم وازعاجا . وتفاوض هؤلاء مليا فى أمرهم فاتفقوا على إلقاء السلاح من أيديهم الا مريدا من مريدى الأكليروس كان فى صحبتهم فإنه أبى موثرا الاستمرار على القتال الى أن يقتل طمعا فى الذهاب الى جنة النعيم . وتناول السينيشال صندوقاً صغيراً فاستخرج منه جواهره وتحفه الأثرية الثمينة وألقى بها فى النيل ثم سلم بنفسه . وكان على وشك أن يقتل ذبحا حينما تعرّف عليه فرنسي اعتنق الاسلام فضمه الى صدره صائحا : « هذا ابن عم الملك » . وما وقف المصريون على حقيقة أمره حتى جردوه من درعه وسائر ثيابه ثم وضعوا على رأسه قلنسوة وعلى كتفيه رداء أحمر مبطنا بالفرو وجعلوا حول وسطه حزاما من الجلد وقدموا اليه كوب ماء . وكان لايستطيع الشرب فأخذ يصيح قائلا إنه قد مات ، فحزن عليه اتباعه ولبسوا الحداد . وكان معهم غلام يكثر النحيب والأعوال وهو ابن الأمير مونفكون من السفاح . وكان قد رأى المقاتلة قد فنوا جميعا فاستطير لبه وخشى مغبة امره فالتمس من جوانفيل أن

يحميه ، غير انه عهد الى مصرى حراسته . ولما دنت ساعة فراقه له هو والسينيشال قال هذا الأخير : « خذ بيد هذا الغلام فأن المصريين اذا رأوا رثاثة حالكما وحرج موقفكما رأفوا بكما وتحاموا إلحاق الأذى بكما »

ولقد بلغ عدد قتلى المسيحيين فى هذه الوقائع المتلفة ثلاثين ألفا تولى المماليك إفناء الشطر الأوفى منهم ، وسيق لويس التاسع الى المنصورة حيث اعتقل فى دار فخر الدين كاتب أسرار السلطان وعهدت مراقبته الى صبيح الخصى الذى ذكره بعض المؤرخين من العرب فقالوا إنه تلقى الأمر بجلد الملك المعتقل ثمانين جلدة فى كل صباح . وهو قول ظاهر الكذب والبطلان بلا ريب ، على انه اذا صدقت الرواية فإن عار هذه المعاملة القاسية يرتدّ على الآمرين بها . ولم يستخلص لويس التاسع من كل ما كان فى حوزته من مال وخير ومتاع ثمين سوى نسخة من « كتاب المزامير » الذى تجلو مطالعته الحزن عن القلب اذ كان يطالع فيه وفى كتاب الصلوات ويقضى جملة وقته فى العبادة والتأمل . ولم يكن عنده من الغطاء غير قميص واحد خشن تبرع له به احد عساكره الأسرى ، فأنفذ السلطان له من القاهرة ثوبين من الحرير الأسود محلين بأزرار ذهب فأبى لبسهما قائلا : « انى سيد مملكة أوسع نطاقا وأبعد أطرافا من مصر ، فخليق بمثلى الا يحمل ثوبا أجنبيا » . ودعاه السلطان توران شاه الي وليمة

فلم يجب اعتقاداً منه أن الداعي كان يرمى بدعوته الى عرضه على أنظار المسلمين . ونجاه هذا الامتناع لم يسع السلطان الا أن يعدل فى معاملته عن اللين الى الشدة وعن المحاسنة الى المخاشنة . دع انه ارسل الى لويس التاسع يتهدده بانفاذه الى الخليفة العباسى ببغداد . وهو لابد ساجنه وقاتله أو مشرّد له فى الارجاء البعيدة من آسيا لعرضه على أنظار اهلها والزراية به باعتبار انه ملك مسيحى عظيم الشأن وقع فى ذل الأسر فبقى الملك ساكنا لاتؤثر فيه الاخافة وكل ما خشيه هو أن يمس زملاؤه فى الأسر بضر . ولقد نيط باحد المسلمين احصاء عدد الأسرى فتبين له أنه عشرة آلاف وكانوا جموعا مكدسة يختلط بعضهم ببعض فى فناء واحد معرضين للجوع وعاديات الجو واهانات الملاحظين والحراس . وأمعن القوم فى الاساءة اليهم ومسهم بالأذى فكان الأمير سيف الدين يدخل عليهم فى كل ليلة فيختار مائتين أو ثلاثمائة ليرمى أعناق الذين يأبون منهم اتخاذ الاسلام ديناً لهم ويلقى بجثثهم فى نهر النيل

وحدث ذات مساء ان شهد الفرسان والبارونية الأسرى مصريا أبيض اللحية جايل المنظر مقبلا عليهم فى صيوانهم وحوله شبان مسلحون بالخناجر فما وقع نظرهم عليه حتي أطرقوا برؤوسهم الى الارض لأن حراسهم كثيرا ما كانوا يرهبونهم بقرب حضور نفر اليهم من المدربين على العمل بالسكين لأداء مهمة . فلما

وصل الشيخ الوقور سألهم على لسان مترجمه هل يؤمنون بإله واحد ولدته امرأة وصلب لفداء الجنس البشري ثم أحيي اليوم الثالث من صلبه ، فأجابوه نعم اننا جميعا نعتقد بذلك ومن صميم أفئدتنا . فاستأنف الشيخ : اذا كان ذلك كذلك فلا بأس عليكم ، وخليق بكم الاغتباط بتحمل الألم فى سبيل الحكم ، لأنه تألم من أجلكم اكثر مما تألمتم ، وضعوا فيه ثقتكم ، لأنه اذا خلص نفسه من الموت فهو بلا شك قادر على خلاصكم من الاسر .

وتوارى الشيخ بعد ذلك عن الانظار تاركا بينهم شعاعاً من الأمل فى النجاة . ولسنا ندرى أذلك الشيخ مسيحي اعتنق الاسلام ثم وخزته السريرة فمال الى بث التعزية والسلوان بين اولئك التعساء الذين رأى أنهم مازالوا له إخوة أصفياء أم هو غير ذلك . وقصارى الأمر ان المفاوضات فى إبرام معاهدة بين الفرنسيين وسلطان مصر كانت فى تلك اللحظة قائمة على قدم وساق وكان من نتائجها التي ظهرت بعد عدة أسابيع إطلاق سراح المعتقلين .

على ان سلطان مصر ، وهو ذلك الجلاد الذى عبث بحياة الالوف من المسيحيين ، قد لقى ماكان يستحقه من الجزاء على ماقدمت يداه ، فلقد انتقم لهم منه على ايدى المماليك أنفسهم . وبيان هذا ان المماليك أخذوا على السلطان توران شاه استقلاله بالمفاوضة دونهم ، وهم الذين حملوا أعباء القتال وأنه تخلى عن

الشيوخ المحنكين فى خدمة الدولة ليقرب منه في مناصبهم الشبان المتزلفين ، وانه سلب الصوالج الذهبية والشارات الجليلة المعطاة لمنقذى مصر ليضع من قدرها باهدائها الى المماليك الذين التقطهم على ضفاف نهر الفرات ، وأنه اوقع الخراب بدمياط ونكل بأهلها لأنهم استسلموا الى الفرنسيين وقتل من امرائهم اربعين اميرا بحجة انهم الذين قرروا هذا التسليم . وكان أفق الحوادث متلبداً بالاخطار والكوارث وازدادت المشادّة بين الفريقين وتحركت الأحقاد فى القلوب حتي لقد شوهد السلطان فى ليلة من ليالي أنسه وطربه ، وقد جاء بشموع أوقدها ثم أخذ يبرى رؤوسها بحد السيف صائحا أنه سيبرى رؤوس المماليك كذلك . وتوترت العلائق بين السلطان وأمرائه وأخذ هؤلاء يتربصون به الشر وينتحلون للوصول الى هذا الغرض الأسباب ويتحينون الفرص .

لم يمض زمن بعد ذلك حتى دبرت مؤامرة اشترك فيها ستون أميرا ، واتفق على عقب ابرام المعاهدة بين توران شاه والمسيحيين انه مال الى إحياء ذكرى هذا الحادث العظيم بأفراح يقيمها وولائم يولمها فى ميدان معركة فارسكور دعا اليها كبار الرؤساء من رجال حرسه ، فلما كادت الوليمة تنتهى قام المتآمرون فجأة عن المائدة فانقضوا عليه بسيوفهم وحمل عليه بيبرس بضربة من سيفه تبت يده من معصمها فلاذ ببرج له مشيد على ضفة

النهر وأوصد الباب من الداخل عليه ثم أطل من شرفة فيه وسأل الأمراء عن مرادهم منه . وكان أعوانهم قد أحاطوا بالبرج احاطة السوار بالمعصم ، فجاوبوه بالسباب والشتم ورشقوه بالنبال ثم أضرموا النار بالبرج فتعالى لهيبها حتى كاد يأكل السلطان لولا أنه ألقى بنفسه من النافذة . وحدث فى سقوطه أن تعلق ثوبه بمسمار طويل فظل معلقا بين السماء والارض هنيهة لم يلبث بعدها أن هوى الى الأرض . وعندئذ اصلتوا السيوف من اغمادها وحملوا عليه يريدون قتله . فلما رأى منهم ذلك ولم يبق للخلاص امامه منفذ بسط اليهم كفيه ضارعا ان يعفوا عنه . وكان مما قاله لهم « أما بينكم من رجل واحد وانتم مائة الف ينحاز اليّ ويعطف عليّ ؟ انى لاأسألكم الا ان أنجو بحياتى وهاءنذا انزل لكم عن السلطنة فدعونى أعود الى ديار بكر موطنى ومسقط رأسى » ، فقوبل صياحه وأنينه من السامعين بجلبة الاستهزاء .

ولما يئس من الرحمة به أخذ يحبو على ركبتيه فأدركه بيبرس ، وهو الذى بتر يده فى الوليمة ، فطعنه فى جنبه ثم رشقه بالنبال ، فرمى المسكين بنفسه فى النيل مثخناً بالجراح رجاء ان يجد من كرم المثوى فى قاعه ماضن عليه به بنو الانسان . الا أنه لم يبتعد قليلا عن الشاطىء حتى ألقى تسعة منهم بأنفسهم فى الماء وسبحوا خلفه لمطاردته ومازالوا به تمثيلا حتى أجهزوا عليه وانتزعوا قلبه من بين جنبيه .

انبرى ثلاثون من القتلة بعدئذ متقلدين بالسيوف والخناجر، لأدراك السفن التي كانت تحمل الى دمياط أسرى الفرنسيين. فلما شهد انهم قد ادركوهم أيقنوا بالهلاك فجثوا على ركبهم وسألوا أحد القساوسة من اتباع الكونت دى فلاندر ان يتلقى الاعتراف الأخير منهم، وتزاحموا حول الرجل حتى تعذر عليه سماع اعترافاتهم. وكان جي دى بلان كبير قواد الجند فى جزيرة قبرص من بينهم، فلما جاءته نوبة الاعتراف أخذ يتنصل من غلطاته ملقيا بها على عاتق جوانفيل. وقد سمع جوانفيل قوله فأمسك عن بيان الحقيقة مكتفيا بقوله إنه لا يذكر أن من بين أعماله وتصرفاته ما أفضى الى ضرر ما. ثم جثا على ركبتيه ومد عنقه وقال بعد أن رسم الصليب على صدره: « هاءنذا أموت كما ماتت القديسة أنييس » فقضى المماليك عليه وعلى زملائه وألقوا بجثثهم فى قاع السفن.

ذهب بعض أمرائهم بعد ذلك الى لويس التاسع فى معتقله، فدنا منه ذلك الذى أجهز على سلطان مصر وسيفه بيده يقطر دما وقال له: « لقد خلصتك من عدوك الذى كان لا بد قاتلك يوما ما اذ سفكت دمه، فما جزاء هذا الصنيع عندك؟ »، فانحرف الملك عنه ولم ينبس ببنت شفة. فحنق المملوك ودنا من الملك ممتشقا حسامه وقال: « الظاهر أنك تجهل قدرتي على التصرف فيك بما أهوى. إن كنت تبغي الحياة لنفسك فاجعلني من فرسانك »

قال الملك : «كن مسيحيا قبل أن تكون فارسا» ، فتراجع المملوك معجبا بجلده وثباته وصلابته . وما كاد يبرح معتقله حتى تدفق فيه رهط من الناس مدججين بالاسلحة . وكان فيما يرمون اليه من غاية ويصيحون به من صيحات ويرسلونه من نظرات ماينم على انهم اقترفوا جريمة وانهم يتحفزون لارتكاب اخرى . أما لويس التاسع فقد أخذ يرمق هذا الرهط هنيهة بعين الهدوء والطمأنينة ثم تركهم يزأرون كزئير الحيوانات المفترسة . وكانوا قد اعتادوا منه هذا السكون ، فلم يلبثوا ان تحولوا من المخاشنة الى المحاسنة اذ دنوا منه بادية على وجوههم امارات الخجل وقالوا له إنهم قد تخلصوا من مستبد غاشم اراد أن يسوقهم والجنود الفرنسية الى مهاوى العطب والهلاك وأنهم لا مطلب لهم الآن غير رعاية الأمانة فى تطبيق المعاهدة المبرمة بينه وبين السلطان الراحل . وما كادوا يفوهون بهذه الكلمات حتى الصقوا بالارض جباههم ورفعوا أيديهم الى عمائمهم ثم انصرفوا من حضرته فى سكون وخشوع ، حتى اذا ابتعدوا قليلا عن السجن دقوا الطبول ونفخوا فى الأبواق اعظاما للملك واجلالا . ولبثوا بعد ذلك يتفاوضون فيما اذا كان لهم ان يفكوا عقال الملك الأسير ويبايعوه سلطانا على مصر !

استأنف امراء المماليك مابدأ به توران شاه من مفاوضات الصلح وأقسموا جهد أيمانهم الا يخيسوا بعهودهم وانهم يكونون

أهلا للعنة والنقمة إذا نقضوا شرطا من شروطهم وفى حكم من يستحل أكل الخنزير او يطلق امرأته طلاقا بائنا. ثم طالبوا الملك لويس التاسع ان يبرىء ذمته بأداء يمينين مؤدى اليمين الأولى « اذا نكثت عهدى ولم أف بوعدى كنت كمن رضى بالحرمان فى جنات الخلد من مصاحبة المسيح وأمه والحواريين الاثنى عشر والقديسين والقديسات » ، ومؤدى الثانية : « اذا نقضت عهدى او حنثت فى يمينى كنت كمؤمن يحقر دينه وربه ومعموديته ويبصق على الصليب ويدوسه بقدمه » ، فلاح للقديس لويس ان اليمين الثانية ما هى الا سب فاضح فى قالب قسم ، فأبى ان يلوث لسانه بالنطق بها . عندئذ غضب المماليك وبلغ من غضبهم ان حدثهم وسواسهم بقتله وصلبه ، ولكنهم آثروا العودة اليه وقالوا له بعد ان اتكأوا بأطراف سيوفهم على صدره : « لسنا من يتلقى الأمر والنهى من أسير سجين وانما انت الآن بين أمرين : إما ان تقسم وإما ان تموت » ، فأجاب : « إن جسمى لكم فتصرفوا فيه كيف شئتم اما إرادتى فلى وليس فى طاقتكم ان تتصرفوا فيها فتيلا »

وعزا بعض هؤلاء الاشقياء الى بطريرق القدس الشريف أنه هو الذى بنصائحه حرض الملك على المقاومة وأغراه بالامتناع عن القسم فقبضوا عليه ، وكان شيخا ضعيفا فانيا قد ناهز السادسة والثمانين من عمره وشدوا وثاقه وربطوه الى عمود خشب

فانبجس الدم منهما وعانى المسكين من الآلام ماجعله يصيح بالملك قائلا : « مولاى ! مولاى ! هلم الى الحلف باليمين التى ارادوك عليها » . وكان قلب الملك يتوثب فزعا على الشيخ وخوفا من ان يناله مكروه ، ولكنه أبى ان يقسم باليمين التى طالبوه بها .

يئس الامراء ، بعد هذه التجارب المؤلمة ، من زحزحة لويس التاسع عن عزيمته وزلزلة اركان عقيدته ، فاكتفوا منه بما وعد فى الموضوع وانشأوا يبثون محاسن هذا الأمير الفرنجى ويذيعون مناقبه ، اذ كانوا يقولون إنه أعز الامراء المسيحيين الذين شوهدوا تحت سماء الشرق نفسا وأحماهم أنفا .

وكان الصليبيون يلمحون الخطر فى بقاء ثغر دمياط بأيديهم لأن مرغريت امرأة الملك المشهورة بين قومها بالعفاف والورع كانت تقيم به وكانت حاملا فوضعت فيه غلاما أسمته الأمير جان تريستان . ومن كثير ماينقل عنها فى بيان ما كانت تعانيه من اوصاب الجسم وآلام النفس أن أحد اتباعها ، وهو شيخ فى الثمانين ، كان يحرسها ليلا على مقربة من سريرها وكانت عينها لم تكتحل بنوم لما كانت تتوجسه من خطر على نفسها وترهبه من اعتداء على كرامتها. وقد أحسّ الرجل قلقها وأرقها فخاطبها مواسيا ومطمئنا : « لاتخشى أمراً ياسيدتى فأننى بجوارك » ، فسألته فى توسل وضراعة أن يبادر برمى عنقها اذا وصل العدو الى دمياط ودخلها عنوة ، فقال فى طمأنينة : « هذا مافكرت فيه

من قبل فليهدأ اذن بالك » .

على ان الصليبيين كانوا ، فى مفاوضاتهم الأخيرة ، قد أخذوا على نفسهم الميثاق ان يخلوا ذلك الموقع فى اليوم التالى . فلما شاع بين الاهلين هذا الخبر توجسوا خيفة ووقع في نفوسهم ان الجنود المصريين سيجزونهم على تسليمهم المدينة للفرنسيين شر الجزاء وكان امراؤهم يعتقدون ان الملك لويس التاسع سيواصل الدفاع عنها بالرغم من توقيعه عهدة الصلح ، لكن شيئا من ذلك لم يكن بل أمر الملك بالجلاء ، وقد اخلاها فعلا بدون ان يتكبد صعوبة واستقلت الملكة ، وفى صحبتها الأميرات والدوقة دانجو والكونتس دى بواتييه والكونتس دارتوا التى كانت لاتزال فى حداد على زوجها ، احدى السفن الجنوية . ومابزغت الشمس حتى جاء المماليك فسلم اليهم جيوفروا دى سرجين مفاتيح المدينة ، ولم تكن نفوسهم قد هدأ ثائر غيظها من تواتر الاخبار عن الصليبيين انهم اعتزموا متابعة الدفاع الى النهاية . فلما دخل المماليك المدينة اقتصوا من أهلها بأنكأ العقوبة ونكلوا بهم جزاء ممالأتهم الفرنجة ثم عقدوا مجلسا للمفاوضة علانية فى أمر ملك فرنسا ومن معه أيجوز اخلاء سبيلهم أم القضاء عليهم اجمعين .

فوقف فى موقف الخطابة متحمس منهم وقال : « الآن وقد تملكنا الثغر فمن الحكمة وصواب التدبير قتل ملك الفرنجة

وأمراء جيشه لنضمن لمصر راحة دائمة ونكفيها فى المستقبل شر الغارات . واذا كنا قد استطعنا ان نسفك دماء ملوكنا للخلاص منهم فلم لا نهدر دماء الاعداء الالداء ؟ انه ليكفينا ان نقلب بعض صفحات القرآن لنجد فيها مقنعا بوجوب محاربة اعداء الدين والقضاء عليهم اجمعين » .

فقام على عقبه أمير من المغاربة وقال : حسبك ان تتصفح من القرآن صفحات أخرى لتقرأ فيها مايفرض عليك الطاعة لسلطانك والحرص عليها حرصك على انسان عينك . ولقد مات سلطاننا وفارق هذه الدنيا فليس هو الآن من أهلها . وكان موته ضربةَ لزامٍ لأمتنا وضرورة منحتمة لسلامتنا ، لكن ماالذى وراء اعتدائنا على ملك الفرنجة ورجاله الابطال حلفاء الدول الكبرى من فائدة ترتجى او ثمرة تجتنى ؟ انه لخليق بنا إذن ان نتحامى الظلم لاسيما اذا اقترن بالغدر والجبن وألا نجعل المماليك مضغة في أفواه العالم وعرضة للفضائح واللعنات » .

وكان المسيحيون قد تعهدوا بان يفتدوا أنفسهم بثمانين الف قطعة ذهبا من النقد البيزنطى ، فتراءى للمماليك من هذا وذاك أن من الحكمة ألا يأخذوا بنصيحة من قالوا بوجوب القضاء عليهم وافنائهم عن آخرهم . وقد لاح لهم فوق ماتقدم ان ليس من الكرم والرفق فى المعاملة اخراج اولئك الاسرى من الديار لايملكون مايسدّ الرمق ويقيم الأود فوزعوا عليهم

زادا من الخبز الشمسي وبيضا ملونا ، لأن يوم الافراج عنهم طابق يوم الجمعة التالى لعيد الصعود .

وبعد جلاء الفرنسيين بزمن تراءى للمماليك اعلان الجهاد والزحف على فلسطين فى طلب الفرنجة واجلائهم عنها . وحدث اتفاقا ان شبت النار فى أحد احياء القاهرة وسرت منه الى الاحياء المجاورة فالتهمتها وأتت على ما فيها ، فسرعان ماوجهت الى المسيحيين التهمة بانهم مضرموها كما اتهموا على عهد الامبراطور نيرون فى رومية بانهم هم الذين أضرموا النار فيها عامدين . وقد اصبحوا لذلك السبب عرضة للاضطهاد والمعاملة بالحيف والعسف ، فإن خبر الحريق لم يكد ينتشر في بلاد الشام حتى جنح أهلها الى الثورة واضرموا نارها فى كل مكان ، فدمر أهل دمشق الكنائس . وكان مما أجج نار الثورة والتمرد ما وقع فى وهم الجمهور من ان سلطان مصر لم يلق حتفه بالنار والسيف على الوجه الآنف الا لأنه رضى بمهادنة اشياع المسيح . وقد أستغل" بيبرس قاتل ذلك السلطان وخلفه على سرير الملك هذا الاعتقاد فاذكى نار الثورة وايقظ الى جانبها عاطفة التعصب الدينى فمهد السبيل بهذه التدابير لاعلان الحرب وفى الواقع فإنه ماكاد يبلغ في زحفه الى الناصرة حتى اشعل النار فى كنيستها ونشر الفزع والرعب فى البلاد الممتدة الى جبل تابور وخرب مدينة قيصرية ورفع الاعلام الاسلامية على الكنائس .

ورأى زعيم المماليك رسل الادفونش صاحب أراغون وملك أرمينيا وأولياء الامر فى فلسطين ، وقد انكسرت شوكتهم وامتلأت قلوبهم وصدورهم من الرهبة ، يتقربون اليه بالطاعة والذلة ، تخفق قلبه بشعور العلو والعزة والثقة بمتانة القوة ومناعة الجانب من نفسه ، فكان يخاطب الرسل الذين وفدوا اليه من يافا لمفاوضته بمثل قوله : « نحن لم نخلق للمهانة والذل بل للرفعة والعز فاذا سلبنا العدو كوخا حقيرا سلبناه قصرا منيفا واذا أسر منا فلاحا حقيرا كبلنا بالاغلال منه الف مقاتل كبير » .

ولقد أنفذ وعيده وتهديده اذ تدفق بجيوشه على ارض طرابلس ناهبا مخربا حاصداً الارواح وهدم اسوار مدينة صفد التى أبى ، بعد أن سلمت اليه وأقرت بالطاعة له ، ان يترك لحماة قلعتها من متاعهم الا مايستر اجسادهم من ثياب . ولم يكن ليرضيه كل هذا العسف فنقض ماابرم معهم من عهود اذ كبل بالقيود والاغلال الثقيلة نحو ستمائة من هؤلاء الابطال ثم سيقوا جميعا الى مكان حزّت فيه رقابهم دون أن تأخذ أحدا فيهم رحمة ولا هوادّة ، فأنهم قبل ان يقدموهم الى الموت ضنوا عليهم بكل شيء حتى بتبادل عبارات الوداع . وكانت الليالي مقمرة فباتت أشعة القمر تطرح على تلك الجثث الهامدة رداء من ضوئها الفضيّ لياليَ متتابعة ، وشهد السلطان هذا المنظر الرهيب الذى يقذف الفزع فى القلوب فأجاز فى النهاية مواراتها التراب وأقامة الاسوار

العالية حولها حتى لايبصر أحد بهذا الاثر السىء من آثار الانتقام والتعطش الى سفك الدماء .

وعلى الجملة فقد حرم المسيحيون فى مصر الرحمة والأمن ، وبينما كان الناس يعتقدون ان أولئك المماليك الذين لايعرفون التعب والملال قد عادوا الى مصر إذا بهم قدأوغلوا فى ارمينيا وساقوا منها نحو يافا الاسرى والاسلاب وما كادوا يصلون الى ذلك الثغر حتى سقطت اسواره المنيعة وحصونه التى لاترام كما تساقط اوراق الاشجار بعد الذبول والأذواء .

وكان بوهيمند صاحب هذا الثغر قد ارسل اليهم عندما رآهم مقبلين يسألهم عن علة حضورهم فقالوا : جئنا اليوم لحصد مزروعاتكم وسنأتى مرة أخرى للاستيلاء على عاصمتكم . ثم تقدموا نحو ضفاف نهر العاصى فاستولوا على انطاكية وبعثوا الى الكونت صاحب طرابلس يقولون له : « كان الموت يحف بالمحصورين فى كل مكان ويدركهم من كل طريق . ولقد انحينا على رقاب الذين اخترتهم لحراسة المدينة والدفاع عنها . ولو انك شهدت فرسانك وقد داستهم خيلنا بسنابكها او شهدت بلادك وقد سلبت ونهبت ارزاقها أو خزائنك وقد وزن ما احتوته بالقنطار أو نساء رعيتك وقد سبيت وبيعت في سوق الدلالة أو منابر الكنائس وصلبانها وقد كسرت وهشمت أو ورقات الانجيل وقد بعثرت تذروها الرياح او قبور البطارقة وقد دنست

أو اعداءك المماليك المسلمين وقد وطأوا الهيكل باقدامهم وذبحوا على درجه الكهنة والقساوسة أو قصورك المشيدة وقد التهمتها النار او القتلى من رجالك وقد احرقت جثثهم أو قباب كنائس ماربولص ومار بطرس وقد أصبحت أطلالا دائرة لنبست شفتاك الصفراوان المضطربتان بآية — ياليتنى كنت ترابا — وتمنتا لك الهلاك العاجل »

ولم يكن هذا الارهاب ، باللاسف ، مجرد الفاظ مرصوصة بعضها الى جانب بعض ، فقد علم فيما بعد أن سبعة عشر الف جثة لقتلى من المسيحيين قد انهالت عليها الأطلال ومائة الف مسيحى قد سيقوا مصفدين بالأغلال للرق والاستعباد . ولم يتردد صدى هذه الكارثة فيما يلى البحار حتى طفرت القلوب من بين الجنوب تأثرا واشرأبت الاعناق للأخذ بالثأر . وكان رئيس أساقفة صور وكبار أصحاب الرأى من طائفتى الهيكليين والاسبتاليين قد بثوا فى الغرب مايعانيه أهل فلسطين فانقسمت الآراء فى اوربا تجاه حالتهم السيئة فرقا شتى . فبينا كان بعضهم يرى من الخطأ بل الحمق التحرش بالمسلمين على حين أن يسوعا المسيح لاينازعهم على أمر ما ، وبينا كان البابا لاهمّ له الا بيع المغفرة واستثارة الاحقاد عليه لهذا السبب ، كانت المانيا و بولونيا وملك بوهيميا وماركيز براندبورج يهيئون المعدات لقتال الكفار وكان شارل دانجو ملك صقلية يوصى جماعة المماليك بشعوب الشام

خيرا . ولقد جاوبه سلطانهم على هذه الوصية بقوله : « ان المسيحيين يلقون بأيديهم فى التهلكة ، وان الصغير منهم ينقض مايبرمه الكبير » . ورأى جوانفيل فيما يرى النائم ان ملك فرنسا قد ارتدى برداء القساوسة فى اثناء الصلاة بالكنيسة ففسر هذا الحلم بأنه مقبل على حرب صليبية . والواقع أنه لم ينتصف عيد الفصح حتى عقد البرلمان الأعلى للمملكة ودخل لويس التاسع البهو الكبير فى قصر اللوفر يحمل اكليل الشوك الذى كلل به المسيح وأقسم لفيف من الأمراء والفرسان ، ومنهم جان كونت بريطانيا والفونس دى بريين كونت (أو) ألا يتراجعوا عن الجهاد فى سبيل الدين ، وحمل كل من تيبورت ملك نافار وأخيه هنرى كونت شمبانيا وجاستون دى بيارن والكونت دارتوا بن روبير الذى قتل فى المنصورة وكونتات فلاندر وسان بول ولامارش وسواسون وامراء نيمور ومونمورانسى شارة الجهاد وهى الصليب . وقدم الجنويون اسطولهم لنقل الرجال والاثقال وانعقد المجمع الدينى الانكليزى فى نورثمبتون فقرر تسيير القوات الى الشرق لقتال المسلمين ، وانتظم فى سلكها البرنسان إدوار وإدمون والكونت واورويك والكونت بمبروك وجان دى بايول وملك البرتغال وجاك ملك أراغون . وفى مارس ١٢٧٠ تسلم لويس التاسع فى كنيسة سان دنيس شارات الحج والظعون الى الشرق ، وألقى

بزمام مملكته الى أقطاب فرنسا الربانيين وقديسيها المعظمين . وفى اليوم التالى قصد الى كنيسة نوتردام الباريسية حافيا خاشعا مستدرا منها البركة والعطف . وبات الليلة التالية فى فنسين مودعا وداعا لم تطأ قدماه من بعده ثرى الديار الفرنسية .

وكتب لويس التاسع الى ماتيو راهب سان دنيس وسيمون مولى مقاطعة نيلو وهما اللذان انابهما عنه فى الحكم يوصيهما بصيانة الآداب العامة وإنقاذ الأمة من الاحكام الجائرة ويلفت نظرهما بخاصة الى العناية فى مدة غيابه بالمرضى والمعوزين ، ثم سار فى سبيله للجهاد فى سبيل الدين .

عبر الجيش المسيحى خليج تونس ونزل الى البر للقتال على شواطئها . وكانت تونس يومئذ منيعة الجانب ، فقرأ القس بييردى كونده المكلف بالصلاة بالملك أمرا على الجيش باعلان الحرب للاستيلاء على تلك المدينة . وقد استهل هذا الامر بالجملة الآتية : « اقرأ عليكم امر سيدنا يسوع المسيح ولويس التاسع ملك فرنسا ظله وعونه على الارض » . وبعد التلاوة نصبت الخيام وحفرت الخنادق وأقيمت الاستحكامات فتم للملك الاستيلاء على المرسى وذهب خمسمائة بحرى لرفع العلم الملكى الفرنسى على حصن قرطاجة .

وكان لويس التاسع يلهج لسانه بقوله إنه ليحلو له أن يقضي بقية حياته فى غياهب السجن ، فلا يرى للشمس شعاعا

راضيا بهذا الحظ فى مقابل أن يتحول التونسيون وأميرهم عن الاسلام الى المسيحية . ولقد دعا الملك هذا الامير الى اعتناق النصرانية فى كتاب ارسله اليه فردّ عليه بانه لسوف يوافيه فى مائة الف مقاتل ليطلب اليه أن يعمده فى ميدان القتال . وقد تواردت الكتب فى هذه الاثناء من مصر بلسان المماليك يعانون فيها انهم يتخذون الأهبة للزحف على تونس تعزيزا لها ضد الصليبيين .

وكانت المنطقة التى احتلتها الفرنجة لاتطاق حرارتها، وكانت ريح السموم لاتنفك عن الهبوب عاصفة وشعر الجنود بنقص فى المؤن حاولوا ان يسدوا ثلمته بالحرمان المتلف ، فلم ينقض زمن حتى فشت بينهم الاوبئة المختلفة كالدوسنطاريا والطاعون وازداد عدد الموتى بهذين الداءين حتى امتلأت بجثثهم الخنادق ولم تعد كافية لمواراتها . واصيب الملك نفسه بالحمى وآيس من الشفاء منها فنصب امامه صليبا واتجه اليه باسطا كفيه وضارعا مبتهلا . وقرب منه ، عند ما اشتدت عليه وطأة المرض ، وليّ عهده فيليب وأخذ يفيض عليه انوار التعاليم الطيبة والمبادىء الصحيحة التى اصغى فيليب اليها بوجدانه . وكان لويس لا يكف عن ذكر يسوع المسيح والصلاة لشعبه والاستمداد بالقديس دنيس والتماس المعونة والتأييد منه لجيشه الذى سيصبح من بعده يتيما لا سند له ، ثم شخص فيمن حوله هنيهة وطلب ان يغطى

جسمه وان يطرح على سرير الموت . وما كاد يضع يديه على صدره ويرفع بعينيه الى السماء قائلا : « مولاى ! سأدخل دارك واعبدك فى هيكلك المقدس » حتى اغمض عينيه وفاضت روحه فى مثل الساعة التى صلب المسيح فيها .

وبعد معارك شب ضرامها حول بحيرة تونس عقدت هدنة بين الفرنجة والتونسيين لمدة عشر سنوات . فلما انتهى الى سلطان مصر خبرها ناله كدر شديد . وكان مولاى المستنصر صاحب تونس يوافى السلطان بالاسلحة الجيدة والخيول الكريمة والجنود الشجعان ، فلما عقدت الهدنة توقع سلطان مصر الا شيء منها سيصل اليه من بعدها ، وايقن ان الصليبيين لسوف يأخذون سمتهم الى مصر لشفاء غليلهم واطفاء حزازات نفوسهم من سلطانها وأهلها . وقد صدق المماليك فى حدسهم اذ هبط ارض الشام ستة آلاف صليبي فرفعوا رايتهم على اسوار الناصرة وأفنوا سكانها المسلمين على بكرة ابيهم حتى يكفروا بموتهم عن جناية هدم الكنيسة التى شيدت للعذراء .

وما نمى نبأ هذه المذبحة الى المسلمين حتى هبوا للانتقام فذبحوا فى طرابلس الشام سبعة آلاف صليبي ودمروا كل مافيها من الأبراج والحصون والمبانى والقصور وزلزلت اركان عكا عاصمة المسيحية فى الشام ، بل المدينة الظافرة التى كان امراؤها المسيحيون يمشون على الارض اختيالا مكللي الهامات بأكاليل

الذهب كالملوك ، بستين آلة من المجانيق . ورأى اهلها المماليك يتقدمون نحوها على نقرات الطبول المحمولة على ثلاثمائة جمل حتى اذا دنوا منها ملأوا الخنادق إطاعة لاشارة زعيمهم بأجسام الاحياء من المسيحيين كى يستطيع فرسانهم اجتيازها بالمرور فوقهم للوصول الى الاسوار . وهال غليوم دى كلرمون هذا الأمر فألقى بفرسانه فى المعمعة ضد مائتى الف من اولئك الكفار ، ولقد ضيق عليهم الخناق فلم يلبثوا ان تولاهم الذعر وصاروا أشبه بالنعاج اذا مافجأتها الذئاب . ودب الحماس فى نفس بطريرك او رشليم فابتهل الى الله داعيا : « إلهى أقم حولنا سياجا من عنايتك الالهية لايقدر أحد أن يخرقه » . وحمى وطيس القتال فكان المسيحيون يستصرخون من جهة بيسوع المسيح كما كان المماليك يستمدون بمحمد . وخيل لأعدائنا بسبب ماقذف فى افئدتهم من الرعب أن كل رجل منا رجلان وان كل مقاتل يموت بطعناتهم لايلبث ان ينهض من موتته أشد بأسا واقوى مراسا منه قبل ان يجندل . لكن المسلمين لم يلبثوا أن وافاهم النصر بكثرتهم فأخذت أبكار القديسة كلير يشوّهن اثداءهن تقيةَ عبث الظافرين بهن . واتفقن على هذا الفعل فجعلن دق النواقيس اشعارا بالبداية فى تنفيذه والواقع أنهن ماسمعن دقاتها حتى تناولن الاسلحة القاطعة وشوّهن بها وجوههن واثداءهن . قال مؤرخ مسيحيّ : « وكان مرادهن من هذا التشويه انهن

لسوف يبرزن حينما يزففن الى الزوج السماوى أجمل منهن قبلا » .
وعدّ بالالوف وعشرات الالوف الجنود المسيحيون الذين ماتوا قتلى فى تلك المعركة حتى لقد كان من يشتط سواحل الشام من مبدأها الى منتهاها لايسير إلا على قنطرة من جثثهم واشلائهم .

*
* *

تلك هي معارك الفرنسيين مع مصر فى العصور الوسطى وتلك كانت علائقهم بها للمرة الأولى . فإذا كنا قد تقابلنا وإياها وقتئذ زاحفين صفوفا شاهرين سيوفا فإننا اليوم متصافون متصافحون تتلهب شوقا الى شد أزرها والأخذ بناصرها لتقوى على السير فى سبيل التقدم والحضارة . وما من جندى من جنودنا الذين ننفذهم اليها الآن الا ويستتر رداؤه العسكرى الصانع الماهر والعالم الضليع والفنىّ الحاذق ، ويستحيل سلاحه الى أداة من ادوات العمل النافع المنتج . فعدد التدمير والتخريب الملازمة له ملازمة الظل للشبح لا أيسر من ان تتحول الى أداة حراثة او صناعة . وبمثل هذه الادوات انما نفوز اكثر من فوزنا لو استولينا على بلد واتخذناه مستعمرة لنا .

تجلى للقارىء مما مررنا به مرّ الطيف من تاريخ الحروب الصليبية فى مصر ان هذا العمل الخطير حفت به فيها المصاعب وضعضعته النوائب وأن الذين أدلوا بنصائحهم الحاضة على القتال فيما يلى البحار انما ركبوا متن الشطط وسقطوا فى هوة الغلط

لأن الصليبيين ، لما عادوا الى أوطانهم ، لم يكن النصر رائدهم ولم يكونوا حاملين اكاليل الغار بل بساط الرحمة ينعى مليكهم ، دع انهم فى عودتهم لم يكونوا جيشا بالمعنى المراد من هذه الكلمة بل فلول جيش ممزق يصحبها أمير كان يحمل على كتفه جثة والده ليواريها التراب فى الموضع اللائق أن توارى فيه . والثابت ان ذاك الملك القديس الذى كان فى الايام الأخيرة من حياته يشكو مضض الفشل والاندحار لابد أن يكون قد أرضاه فى قبره قيام جندى عظيم وبطل كريم بعد وفاته بنحو خمسمائة عام يأخذ بثأره من أولئك الذين جرعوه كأس الذلة وألبسوه عار الانكسار .

ولما مالت شمس القرن الثامن عشر الى المغيب كان الجنود الفرنسيون يترنمون بنشيد المرسييز فى سواحل مصر التى كان أجدادهم فيها يترنمون بأناشيد الصليبيين قبل ذلك بنحو خمسمائة عام وأتاحت لهم الظروف مرة أخرى منازلة المماليك فى ميادين القتال وهم الذين جمعوا فى الحياة بين النقيضين من محامد الخصال ومقابح الفعال فسطروا لانفسهم بذلك تاريخا فذا بين تواريخ أمم الارض .

شهدنا فيما تقدم إيراده من سيرتهم أنهم بعد أن قتلوا مولاهم شر قتلة تركوا جثته عرضة للطيور الجارحة على ضفاف النيل ، فلنذكر الآن نتفاً متفرقة من شرورهم ومفاسدهم

وعيهم لبيان مقدار ما ألحقوا بمصر فى أثناء حكمهم من الضرر والفساد فنقول إنهم بعد اسقاطهم آخر السلاطين الأيوبيين وهو السلطان توران شاه ابن سيدهم السلطان نجم الدين أيوب الذى اشتراهم بماله فكان ربّ نعمتهم ورافعهم من أسفل الدرك الى أعلى الدرج وقلدهم السيوف والخناجر وأنشأهم من العدم استولوا على أزمة الاحكام وحلوا فيها محل سادتهم العظام، وقد عرفوا فى التاريخ بوصف البحرية لأن السلطان نجم الدين عهد اليهم حراسة الحصون التى على البحر. وما استقر لهم الحكم حتى تغيرت انظمته من شكلها المعروف على عهد الأيوبيين الى شكل آخر اصبحت فيه أقرب مايكون الى الاستبداد المطلق الذى يوارى سوأته طلاء من الأسلوب الجمهورى. فقد كان للزعيم منهم الحق فى اعلان الحرب وإبرام الصلح بشرط الرجوع الى رأى مجلس كبير يعقد لذلك الغرض. وكان مما يدخل فى دائرة اختصاصه أيضاً تعيين الوزراء والسفراء والولاة وقواد الجند، مادام اختياره لايتعدى طائفة المماليك فى تقليدهم هذه المناصب. فالأمة فى نظرهم لم تكن شيئاً مذكوراً، لكنهم كانوا مع ذلك يحسبون لها حسابا لحاجتهم الى مشايعة المتذمرين والناقين من أفرادها لهم. ومن الغريب أنه لم ينبر من بين المماليك بعد استخلاصهم البلاد من أيدى الأيوبيين من يأخذ بزمام السلطنة ويجعل نفسه رأس الأسرة المملوكية،

إنما استهلت هذه الأسرة بامرأة كانت مثلهم من الجوارى اللاتى اشترين بأموال السلطان نجم الدين ألا وهي السلطانة المعروفة فى التاريخ باسم شجرة الدر .

سبق لمصر أن قبض على دفة شؤونها نساء ككليوبترة ونقل التاريخ عنهن أن حب الشر لم يتغلب فيهن على حب الخير . أما شجرة الدر فالمأثور عنها أنها كانت من سعة الحيلة فى قضاء شهواتها بحيث استهوت إيبك التركماني الجاشنكير الصالحي الى محبتها وزينت له الزواج منها بعد أن استخلص السلطنة من أيدى آخر السلاطين الأيوبيين ابن أستاذه السلطان الصالح نجم الدين أيوب . ثم نصبها سلطانة وخطب لها بالسلطنة ودعا لها على المنابر باسم « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين وأم الملك المنصور خليل » . وتولى هو الاتابكية أى مقاليد الأحكام ، لكنه لم يلبث ان ملّ معاشرتها وجنحت ميوله الى امرأة كان لها سلطان كبير على قلبه ألا وهى ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ونمى اليها أنه خطبها فتحركت فيها عوامل الغيرة وتلهب فى صدرها سعيرها بقدر ما كان يزداد كل يوم صدوداً ونفوراً منها . ولطالما حاولت أن تجذبه الى حيزها وتستدرجه الى حظيرتها بالبكاء مرة والاستعطاف أخرى حتى اذا تأكد لها ان هذه الحيل قصرت عن تحقيق مرادها عمدت الى نكايته بالتنكيل به .

ذلك أنها خبأت في الحمام خمسة من الطواشية البيض ثم استدرجت التركماني، بما أظهرته له من التودد والعطف وتكلفته من البسمات، الى متابعتها فى ذلك المكان الذى لم يكد يدنو منه حتى برز له أولئك الخصيان من مكمنهم وأرادوا به الشر . فرجا وتضرع ألا يمسوه بضر، وما كان له ان يسمع هؤلاء الصمّ النداء وهم المأجورون على قتله من امرأة مصدورة بحب الانتقام. لهذا انقضوا عليه وخنقوه بشال عمامته بينما كانوا يحذّرون سيدتهم من العفو عنه قائلين لها إنها ان تفعل تنكل بهم وبنفسها . وما اقترفوا جريمتهم حتى انطلقوا من فورهم يذيعون على الملأ أنه مات على أثر اصابة فجائية بمرض عادى .

وفى ليلة الحادث استدعت شجرة الدر اليها الامير سيف الدين قطز من مماليك زوجها المعزّ إيبك التركماني وعرضت عليه ان يشاطرها الحياة والتاج . وكانت وقتئذ أشد مايكون استشعارا بالحاجة الى ركن تأوى اليه . وكانت وهى تبادئه بهذا الاقتراح تدوس بقدمها جثة زوجها التى لم تكن قد دبت اليها البرودة بعد، فلما رأى سيف الدين قطز سكونها الرهيب وعدم اكتراثها بما اقترفت من إثم كبير وأن الأريكة التى تطلب منه الجلوس عليها الى جانبها ملطخة بالدماء تولاه فزع شديد، فتراجع مستنكراً مشمئزاً . ولما انصرف من حضرتها واجما كاسف البال عرضت على اثنين آخرين من مماليك زوجها

ما عرضت على سيف الدين فكان منهما ما كان منه استنكارا واستبشاعا .

وما طلعت شمس اليوم التالى حتى كان أهل القاهرة يتداولون أنباء الحادث على أثر ما أذاعه الثلاثة المرشحون للزواج والملك عقب انصرافهم من عند الملكة حانقين ناقمين . وحشد نور الدين علىّ ابن الملك المعز إيبك من زوجته الأولى فريقاً من مماليك والده فقبض بواسطتهم على شجرة الدر وأسلمها الى والدته لتنفث فيها سموم حقدها وانتقامها ، فدفعتها هذه الى جواريها فانهلن عليها ضربا بمناقلهن حتى ماتت وألقين بجثتها فى خنادق البرج ولم تدفن إلا بعد ثلاثة أيام من القائها عارية فى العراء .

وعلى أثر هذا الحادث أقيم نور الدين على بن المعز إيبك فى السلطنة ولقب بالمنصور . وكان فى الخامسة عشرة من عمره فخلعه سيف الدين قطز الذى كان مرتبا له فى الأتابكية ثم قتله وحل محله فى أريكة السلطنة ولم يلبث أن جزي قطز مقترف هذه الجريمة ماهو أهل له من العقاب ، اذ حدث أنه خرج في كوكبة من فرسانه يطلب الرياضة وترويح النفس فإذا بأرنب شارد لاح له فاقتفى السلطان أثره فلم يدركه فأمعن فى ملاحقته حتى اذا لحظ أنه ابتعد عن البقاع العامرة الى صحراء مترامية الاطراف لوى بعنان جواده قاصدا العودة الى فرسانه . وكان بيبرس أحد

هؤلاء الفرسان قد انفصل عنهم متجها صوب السلطان ومدّ يده اليه ، فوقع فى وهمه أنه يبغى لثم يده شكراً له على إهدائه جارية تركمانية جميلة الطلعة ، فلم يجد بأسا أن يمد اليه يده فتناولها بيبرس بيمناه وأخذ يضغطها ضغطا شديدا ويجذبها اليه بينا كان بيده الاخرى يجرد سكينا قضى على حياته بطعنة نجلاء منها . وعلى الأثر توارد الامراء تباعا ليساعدوا بيبرس فى انجاز مهمته ، فقد كانت هناك مؤامرة مدبرة لقتل سيف الدين قطز الذى كان المماليك يحقدون عليه لانحداره من سلالة ملكية ، فقد كان عمه صاحب خوارزم نخلعه ملك المغل من عرشه .

عاد بيبرس الى جيش المماليك فى الصالحية مضرج الثياب بدم مولاه سيف الدين قطز وأخبر أتابك بوفاته فسأله هذا : ومن ذا الذى قتله ؟ (كما لو ان كل سلطان على مصر لاينبغى له أن يموت حتف انفه)

فأجاب بيبرس : أنا .

فسأل اتابك : تسلم أنت إذن مقاليد السلطنة .

هذه المحاورة على قصرها وبساطتها واضحة الدلالة على كنه الاسلوب الذى بمقتضاه كان التغير يقع فى أحوال الناس والاشياء . فقد كان الجانى يكافأ دائما بالاستيلاء على أريكة المجنى عليه ثم لايلبث هو أن يدان بما دان غيره به حتى بات من الحقائق المؤكدة ان تسلم صولجان السلطنة فى مصر عنوان للانتقال من

الحياة الدنيا الى الحياة الأخرى .

نهض بيبرس بأعباء الحكم فكان فى الحروب بطلا مغوارا يقتحم الأخطار والمصاعب مستهترا ويجازف بنفسه، حتى لقد كان جنوده يتفزعون من أجله خيفة أن يناله مكروه. وكان فى السلم نديّ الكفين بالعطايا والمنح شفوقا على الفقراء. فشت المجاعة مرة فأمر بأن توزع عليهم يوميا كل حاجتهم للغذاء وفتح أهراء السلطنة وفرق عليهم ما كانت تحتويه من الغلال، فلم تلبث المجاعة أن حل محلها الرخاء. وهو الذى أعاد بناء دمياط بعد إذ أصبح عاليها سافلها وضيق مدخل بوغازها وأعاد الجنزير الذى كان يغلق به ثغرها دون السفن. ورمم أسوار الاسكندرية وحصونها وأقام برشيد منارة لأضاءة طريق السفن ليلا اليها. وعلى الجملة كانت آثار فضله وكرمه وأعماله النافعة ظاهرة فى كل مكان، وما تاريخ حياته الا تاريخ حياة المماليك جميعا فيما يميزها من آيات البطولة والكرم وعلوّ الهمة.

ومن مفاخرهم التى لا يجوز غمط فضلهم بنكرانها كثرة البذل وإجزال العطية. ومن آيات كرمهم ورفقهم حتى بالحيوانات أنهم جعلوا بأعلى قباب المساجد إناء واسعا كانوا يملأونه بالحبوب لغذاء الطيور. وكان محمد ابو الذهب من متأخرى المماليك كثير البذل وما كنيَ بهذه الكنية إلا لأن الذهب كان يسيل من يديه كما يسيل الماء فى الغدير.

أما المماليك البرجية وسموا كذلك نسبة للأبراج التى يذودون فيها عن حمى البلاد فهم الذين خلفوا فى السلطنة المماليك البحرية، بعد ان قضوا على دولتهم فى سنة ٧٨٤ للهجرة . وفى عهدهم كما فى عهد هؤلاء كانت الكلمة العليا والقول الفصل والنبأ الصادق لقوة السيف المصلت لا لقوة الحق فلا عجب إذا كانت صبغة حوادث الدولة في أيامهم صبغتها فى أيام أسلافهم وهى « الدم المسفوك » فإن السلطان من سلاطينهم كان يرفع قوائم دولته على تدبير المكايد ونصب الشباك لقتل سلفه ، ثم لا يلبث أن يجنى خلفه عليه مثل ماجنى هو على غيره ، حتى لقد قال أحد مؤرخيهم منبئا بمآل دولتهم أنه سيكون كمآل دولة المماليك البحرية حذو النعل بالنعل .

وفى الواقع فأن سليما الأول سلطان العثمانيين استولى على مصر فى سنة ١٥١٧ الموافقة لسنة ٩٢٣ هجرية ، فما كاد يقبض على سلطانها طومان بك حتى صلبه على أحد أبواب القاهرة المعروف بباب زويله إعلاما للملأ باندثار دولة المماليك بموت هذا السلطان الاخير من سلاطينهم . ومنذ تلك السنة عهدت حكومة مصر من الوجهة الرئيسية العامة الى الباشا أى الوالى الذى كان ينفذه الباب العالى، من الاستانة وعهدت الادارة الفرعية للأقاليم المصرية الى أربعة وعشرين زعيما من المماليك أو السناجق الذين كان لهم من السلطان والنفوذ والصولة أكثر مما كان منها

للولاة العثمانيين . فسادت الفوضى بهذا النظام الذى كان الأجدر ان يدعي بالاختلال وعم الفساد ، وتصرف أولئك المماليك فى الشؤون على مقتضى شهواتهم فابتنوا القصور وأقاموا بها العروش وكان اذا ارتقي أصغر أولئك السناجق الى مشيخة البلد وتراءى له خلع الباشا الوالى عقد الديوان وأخذ من اعضائه إقرارا بخلعه ، وعندئذ ينفذون الى الباشا رسولا من عندهم فى ثياب سوداء فيسامه الامر بخلعه ثم يقول له بعد أن يؤدى اليه مراسم التعظيم والاحترام : « إنزل ياباشا » فلا يجد الباشا مناصا من جمع متاعه تأهباً للسفر الى الاستانة فى مهلة من الزمن لا تزيد على اربع وعشرين ساعة .

وفى سنة ١٧٦٦ وهت بسبب هذا الاختلال عرى الاتصال بين الاستانة والقاهرة الى حد جعل على بك يرفض دفع الجزية المربوطة على مصر الى خزانة الباب العالى ويضرب النقود بسكته ويطرد الوالي المعين من قبله وينادى بنفسه سلطانا على مصر بإقرار من شريف مكة .

وفى مساء القرن الثامن عشر وصل اثنان من المماليك ، وهما مراد بك وابراهيم بك ، من الطريق المألوفة اى طريق القتل الى الوَلاية على شؤون مصر بعد أن اقتسماها بينهما . وكان الشعب ينوء بأعباء النزاع الذى لم ينشب ان شجر بينهما ، وأخذ الباب العالى يذكى ناره وفسدت احوال البلاد فاضطربت الزراعة

وفشت الطواعين وانتشرت المجاعات وتوالت المعارك بين الاحزاب ووضعت الفرض الفادحة من الاموال على الأهلين ظلما وعسفا وصودرت تجارات الاجانب وزاد تبجح البكوات واستهتارهم بالدول الاجنبية وتأدى هذا بهم الى اهانة العلم الفرنسى ، فلم يسع القنصل الاول للجمهورية اذن وهو نابليون إلا أن صاح بما صاح المارشال رينو دى بيشييه به من قبل أمام فارسكور : « بسم الله . هلموا الى الامام أيها الرفاق . فلن تستطيع فرنسا الصبر على هذه الاهانات » ، ثم عبر البحار فأسقط ودمر كما رفع وأصلح .

فلندخل الآن فى هذا الدور الجديد !

مصر في القرن التاسع عشر

الباب الاول

حملة الجمهورية الفرنسية على مصر

﴿ من سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١ ﴾

كان فجر القرن التاسع عشر على وشك ان ينبثق حينما ألقت سفن الحرب الفرنسية مراسيها فى المياه المصرية وأخذت زوارقها تنقل الجند الى البر ، فلا تكاد تبتعد عنها حتى تلعب الرياح بها لعب الصوالج بالأكر وتتقاذفها الامواج التي كانت تجيء الصخور المتشعبة على الساحل أرسالا فتذهب بصدمها بددا وتتناثر هباء . فى هذا الوقت بدت لأنظار الفرنسيين على الأفق البعيد أشرعة سفن أخرى مقبلةً فتوجسوا منها خيفة ، اذ وقع فى وهمهم أنها سفن الاسطول البريطانى . وأحسّ بونابرت للمرة الاولى فى حياته بعدوى الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وهى الاصابة التي لم يشفَ من دائها الوبيء بقية عمره فأنه ماتطلع ذلك المرأى واستشرفه هنيهة حتى عبث بنفسه الفلاق وصاح :

« أيها الحظ الموافق ، أبعد أن ازلفتنى عندك وأحظيتنى بما ابتغى تتعمد هجرى وتتخلى عن مساعدتى ! » ثم لكأنه سمع صوتاً منبعثاً من صدور الجند كله يقول : « لاتخفْ فليس ذاك هو الاسطول البريطانى بل هو بعض الفرقاطات الفرنسية أقبلت من مالطه التى افترسها بأسك الشديد لتنضم الى اسطول الحملة ، هذا كل مافى الامر . والواجب ان نحرص الآن على الوقت فلا نقف بالساحل يوما واحدا بل نواصل السير الى الاسكندرية » .

فاعترض فى نفسه على هذا الرأى بالسؤال عن وسائط النقل الى هذا الثغر ، فسمع كأن هاتفاً يقول له : « هذه الوسائط هى مفاصلنا المدمجة وقوانا الشديدة » فاعترض ثانيا : « ومدافع الحصار ! أنحصر المدينة بدونها ؟ » فخيل له ان أحدا يجاوبه :

« لك بالسلالم غنى عنها ، نتسلق بها الاسوار ونحتل الديار »

وفى الحق ان الاسكندرية ، وارثة مجد الاسكندر الكبير وحاملة اسمه ، لم تلبث ان سقطت فى حوزة قواد الحملة الفرنسية ، بعد أن قتل من رجالها اربعون نفساً غيبت جثثهم حول عمود بومبيوس (عمود السوارى) الذى تحلى باسمائهم ، فسلاما عليهم أجمعين وإكبارا لذكراهم الخالدة على مرّ الأيام والسنين ، وحمدا وثناء على قائدهم الذى يكافىء الفضلاء على فضلهم ، ولو كانوا فى بطن الأرض عن الانظار متوارين .

دخل القائد الفرنسيّ المدينة الكبرى ، فكان أول همه بعد

أن استقر بها أن نشر على أهلها باللغة العربية المنشور الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنسوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسوية بونابارته يعرف اهالى مصر جميعا ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الأذى والتعدى ، فحضرت الآن ساعة عقوبتهم . وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازه والجراكسة يفسدون فى الاقليم الحسن الاحسن الذى لايوجد له نظير فى كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم . يأيها المصريون قد قيل لكم اننى مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت اليكم إلا لأخلص حقكم من أيدى الظالمين واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا لهم أيضاً ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يمتلكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى

الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم، لكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم، لكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها . وسابقا كان فى الاراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك . أيها المشائخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد : قولوا لامتكم إن الفرنسوية هم أيضا مسلمون مخلصون . وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللريه الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك فالفرنساوية فى كل وقت من الاوقات صاروا محبين لحضرة السلطان العثمانى مخلصين له وأعداء لأعدائه أدام الله ملكه . ومع هذا فقد امتنع المماليك عن الانقياد للسلطان ومرقوا عن طاعته . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم . طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر تسارعوا الينا بكل

قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر (١)

---

(١) هذا النص العربى وهو التعريب الاصلى لما ورد فى هذا المصنف من منشور القائد العام منقول بحرفه عن « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » للشيخ عبد الرحمن الجبرتى . وقد مهد له بديباجة قال فيها : « وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه وارسلوا منه نسخا الى البلاد التى يقدمون عليها تطمينا لهم . ووصل هذا المكتوب مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم وحضر منهم جملة الى بولاق وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم او بيومين ومعهم منه عدة نسخ ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات » ثم اورد بعد ذلك النص العربى المنقول عن النص الفرنسى واردفه بمواد قانونية لم ترد الاشارة اليها فى هذا المصنف وقد رأينا من باب اتمام الفائدة ايرادها فيما يلى وهى :

« المادة الاولى — جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنسوية واجب عليها ان ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو ابيض وكحلى وأحمر

المادة الثانية — كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوى تحرق بالنار

المادة الثالثة — كل قرية تطيع أمر المعسكر الفرنسوى أيضا تنصب صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه

المادة الرابعة — المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شيء منها

ورتبت بعدئذ اوضاع الحكومة العسكرية فى الاسكندرية فجعل الجنرال كليبر قائدا لحاميتها . وكان قد أصيب بجروح فى اثناء معركة الاستيلاء عليها ثم اوغلت بقية الجنود فى البلاد لتحقيق النبوءة التى قضت بان يرتبط حظ برّ مصر بحظ عاصمته فلا يتيسر فتحه والأخذ بأطرافه مالم يتقدم ذلك فتح العاصمة ذاتها .

سلم بونابرت بهذه الحقيقة فسير رفاقه من الجنود الى القاهرة فى اتجاه خط مستقيم . وقد وصف هذا الزحف بما يأتى: « قضينا تلك الليلة ببلدة البيضا (١) واليوم التالى ببلدة العوجا (٢) ثم ببركة غيطاس (٣) وأمر بونابرت رجاله بجوب فيافى لوبية الجرداء ، ورسم لهم المراحل كما لو كان المراد ان يزحفوا فى

المادة الخامسة — الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من اهالى البلد ان يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى ان يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال السلطان العثمانى ادام الله اجلال العسكر الفرنسوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية ؟

تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٢ شهر مسيدور سنة ١٢١٣ من اقامة الجمهورية الفرنسوية يعنى فى آخر شهر محرم سنة هجرية . انتهى بحروفه

(١) احدى كفور مركز كفر الدوار الآن

(٢) احدى كفور مركز دمنهور الآن

(٣) بمركز أبو حمص

السهول الخصيبة المكسوّة ببساط من سندس أخضر فى مقاطعة بروفانس الفرنسية . وكانت الشمس تضىء لهم الطريق وتهديهم السبيل ، الا انها لم تكن لتشرح صدورهم وتقرّ عيونهم بأشعتها الساطعة المحرقة . ذلك لأنهم كانوا كلما تحركوا بقضهم وقضيضهم شعروا كأنهم يمشون على حمم من نار . وكان الدم يقطر من اقدامهم وملابسهم الصوفية تضايق انفاسهم . ولم يكن ما حملوه من الميرة لغذائهم يكفى لأكثر من اربعة أيام . دع ان سوادهم رأوا فى بادىء الأمر ان يتخلصوا من هذا الزاد بطرحه على الأرض معتقدين أنه حمل ثقيل يبهظ عواتقهم وأنه لافائدة منه مادامت الشقة قريبة والوصول الى الغرض المقصود مضمون فى وقت قصير وأن فى ميسورهم الحصول كلما انتهوا الى مرحلة على مايحتاجون اليه من غذاء وماء . لكن الأمر الواقع خيب فألهم ، لأن مصر لم تكن بالبلد الذى يكرم مثوى الغريب اكرام البلاد الأوربية له .

حفز الجوع احشاءهم وجفف العطش حلوقهم فذاقوا منهما الأمرّين وتجشموا المصاعب وعانوا ما لا يطاق من الآلام . وكانوا كلما مدوا بابصارهم الى الأمام شهدوا ، فيما يتراءى لهم وينطبع فى مخيلاتهم ، الواحات الغناء وبحيرات الماء ، الا أنهم كانوا كلما اقتربوا منها آملين انهم لسوف يسدون نهمهم ويطفئون أوار عطشهم كانت تلك المرائى السرابية تبتعد عنهم

بقدر مايكونون قد دنوا منها . ولم يكن مابهر أنظارهم من تلك المرائى المبشرة بالفرج بعد الضيق الا نتيجة انعكاس الضوء، ذلك الانعكاس الذى هو منشأ السراب . وياليت الصعوبات والآلام وقفت عند هذا الحد ، فقد كان مأمولا أن يجد اولئك الجنود فى الليل الراحة من عناء النهار ، لكن الخيبة لازمتهم فى هذا أيضا إذ كانوا يقضونه في تحمل البرد القارس الذى كانوا يحسونه عاملا فى اركانهم ومفاصلهم عمل المعول فى البناء . وكان اختلاف الجو على هذا المثال من أهم بواعث اصابتهم بمختلف الامراض الرمدية . ومع هذا فلم ينس اولئك الجنود وهم يكابدون المشاق ويعانون صنوف الآلام ماامتاز الفرنسيون به من حب المطايبة والميل الى التنادر حتى فى أحرج اوقاتهم ، فأنهم كانوا لاتمر عليهم لحظة دون ان يبتسم لهم ثغر أو ينطلق اللسان بأغنية أو نكتة لطيفة ، فكان لهم من هذه الكياسة خير عزاء لنفوسهم مما تراكم عليها من آلام وشجون واحزان . وكان البعض منهم فى مزحهم يعللون أنفسهم بالرحيل يوما ما الى مكة ليروا فيها قبر محمد معلقا في الهواء مجذوبا بحجر المغناطيس (كما كانوا يظنون) وينالوا بهذه الزيارة جزاء كدهم، كما كان غيرهم يرجون أن يكون نصيبهم من الغنيمة تلك الناقة البيضاء التى رووا أن مراد بك فر عليها بما خف حمله وغلا ثمنه من الأموال والنفائس أو الاستئثار ببعض نساء ذلك الزعيم

الـكبير .

ومما يحسن ذكره تنويها بشهامة الفرنسيين وعلو همتهم فى حب الخير للانسانية ومبادرتهم الى الاسعاف والنجدة ان رئيس الجراحين (لارّى) كان يدخر لنفسه شيئا قليلا من شراب العرق ، فلما هاله ما صارت حال أصحابه اليه من الشدة والضنك وأيقن ان العطش لابد موردهم موارد الهلاك طفق يخترق صفوفهم ليوزع عليهم ذلك الشراب الكاسر لحدة العطش . وكان فريق منهم فى حشرجة الموت فإذا لم ينشب الموت فيهم أظافره فما هو الا لتأثير هذا الشراب وإيثار صاحبه زملاءه على نفسه .

والتقت طليعة الجيش الفرنسى على مقربة من البيضاء بامرأة عمياء يتبعها غلام صغير . وكانت تتلمس حافة بئر تحسسا بيديها لتطفىء ببعض مائها نار عطشها ، فلما سألها العسكر عن أمرها وسبب عماها قالت إن زوجها أخذته ريبة فى عفافها فسمل عينيها ، فما أن فهموا قولها حتى نزلوا لها عن قليل ما معهم من الماء مع شدة حاجتهم اليه ، ثم زودوها كتابا وصوا الجيش المقتفى لآثارهم بها فيه خيرا . وما بلغت الفرقة الأولى من هذا الجيش الى البئر حتى وجدت بجوارها جثة امرأة ممزقة بطعنات الخناجر ، وعلى مقربة من قدميها جثة طفل قتل بضربة حجر ثقيل ، فاستخلص القوم من هذا الحادث ان المسلمين ظنوا

بالمرأة الظنون فقتلوها وولدها البرىء، ومثلوا بهما هذا التمثيل الفظيع .

اما العساكر الذين تثاقلوا فى مشيتهم فانفصلوا من الجيش متخلفين فى اثناء ذلك الزحف فقد تفاقم خطبهم واشتد كربهم ونزل البلاء بهم اذ كان العربان يتخطفونهم وينكلون بهم وما اهتديَ الى بعضهم فيما بعد الاكان فى ذل الأسر يكابد العذاب والاحتقار او كان جثة هامدة . وممن وردوا هذا المورد الجنرال ميرور الذى حزّت رقبته بينما كان فى ظاهر المعسكر يفرّ جوادا عربيا كان يبغى شراءه لنفسه . وقد ابلغ خبره الى القائد العام فقال : « كان لامفرّ له من هذه الميتة لابتعاده عن المعسكر رغم نصيحة اصدقائه وتحذيرهم والحاحهم ان يكون دائما على مشهد منهم » .

واتفق لدينانو مساعد أركان الحرب (وهو ابن اخت لاسيبيد) أنه وقع فى قبضة العربان على مقربة من بلدة وردان بينما كان يسير فى منخفض جافّ فأنفذ بونابرت اليهم مالا يفتديه به منهم ، فاجتمع رجال القبيلة للتشاور فى الأمر فانقلبت المناقشة الى خصام على مايخص كلا منهم من حصة فمعركة حميَ وطيسها ثم انتهت بأن أمر شيخ القبيلة باعادة السيوف الى اغمادها ودنا من الضابط المسكين فأفرغ فيه رصاصة أودت فى الحال بحياته وأعاد المال الى الرسول الذى جاء به ، وبذا انحسمت

المشكلة وانحلت المعضلة .

وكاد القائد العام مرة يقع فى أسر قطاع الطريق فى الصحراء اذ كان قد أوغل فيها وذهب بعيدا عن الجيش . ولولا انه توارى خلف كثيب من الرمل ، لوقع حتما فى قبضة رهط من العربان كان مارا وقتذاك على مقربة منه . ولما نجا من ايديهم بهذه الحيلة قال : « اذا أنا لم أذهب فريسة للعربان فما ذلك الا لأن وقوعى فى أسرهم لم يكن مقدرا لى فى عالم الغيب » .

وإذ لم يبق بين الجيش وبين بلدة الرحمانية الامسيرة خمسة فراسخ سار الجند مغذّاً فوصل اليها بعد قليل ورأى النيل عندها يجرى ماؤه دافقا . وكانوا فى شوق شديد الى رؤيته فأنساهم منظره ماأضناهم من تعب وأخذوا يخوضون فيه دون ان يفكروا فى خلع ثيابهم ويكرعون من مياهه كما يكرع الخمر من حرمها منذ زمان طويل .

ولكنهم لم يلبثوا ان دعاهم البوق والطبل الى تقلد السلاح ، لأن المماليك كانوا على مرأى منهم متحفزين للوثبة عليهم . فحمل (مورا) عليهم وصدّهم الى الوراء وامتازت الواقعة بينه وبينهم بفعال ترجع بالناظر القهقرى الى عهد البطولة القديمة ، حينما كان ينال البطل خصمه فيصرع الأقوى القويّ . وشوهد أحد الاعداء موغلا فى السهل للاستطلاع ، وكان على مرمى البندقية من طليعتنا وكان هائل الخلقة بدين الجسم ومن تحته فرس من

كرائم الخيل . فصاح قائد الطليعة الفرنسية من منكم يستطيع ان يأتيني بهذا الجواد الكريم . فأجاب الفارس رامورل : أنا .

وكان هذا الشاب فى السادسة عشرة من عمره فاندرع نحو الفارس القوي البدين وحمل عليه حملة صادقة اقعدته عن المصاولة ثم انكفأ ظافرا بالغنيمة ومقدما الى ضابطه جواد خصمه وسيفه .

وكان أربعة آلاف من المماليك ومثل الغمام من العربان امام قرية شبراريس ينتظروننا فحثثنا السير اليهم . وبينا كان الاسطول الفرنسى الصغير يناهض على النيل اسطول المصريين كانت جنودنا تقف فى وسط السهل على شكل مربعات (قلاع) وتجعل من أضلاعها اسوارا منيعة وحصونا لاترام . فأخذ المماليك يتقدمون نحوها بهدوء وسكون ، إلا أنهم كانوا كلما تقدم صف منهم حصدته مدافعنا بقذوفاتها . ولقد استأنفوا الحملة فأصابها من الفشل ما أصاب سابقتها ، فلم يسعهم عندئذ الا ان تدفقوا بخيلهم غير أنهم قصروا عن اختراق تلك الصفوف المتراصة والاسوار البشرية المتينة . وكبر عليهم عجزهم وقصورهم فأخذتهم آخذة من الجنون وطاف بهم طائف من التهور فحاولوا أن يدهموا الصفوف الفرنسية ويستظهروا على البنادق الاوربية ، لكن الرصاص والحديد كان يحصدهم حصدا مئات عديدة . وكانت نار البنادق والمدافع تصيب ملابسهم فتلتهب فيها وتحرق جسومهم . فلما أعيتهم الحيلة فى دفع هذا المصاب وعلموا أنهم

لابد مغلوبون على أمرهم اشتد بهم الحنق فأخذوا يلقون على رؤوس جنودنا سيوفهم وخناجرهم وجميع اسلحتهم التى خانتهم لأول مرة فى حياتهم ولم تساعدهم على الفوز .

وكان المماليك قبل هذه الواقعة ، اذا عنّ لهم الحديث فى الفرنسيين ، يرفعون عقيرتهم قائلين إنه اذا أقدم الفرنسيون على مهاجمتهم عملوا فيهم بسيوفهم عمل السكين بالبطيخ . ولا بد انهم ادركوا بعد هذه الواقعة خطأ حكمهم على بسالة الجنود الغربية وفهموا أنهم كانوا فى ازدرائهم بها مغررين بنفوسهم .

وصل الجيش الفرنسى الى الاهرام فبهت ووقف أمامها وقفة احترام واعجاب ورفع السلاح بتحية الاكبار والاجلال لتلك المعجزات التى أفنت القرون والاجيال ولم تفن بعدُ وشهدت المعركة بين قمبيز ملك الفرس وأهل منفيس القديمة .

وكان بكوات الشراكسة قد انضموا الى الامير مراد واندمجت قواتهم فصارت كتلة واحدة . واقام هذا الامير سرادقه وسط مخيم جيشه على مقربة من شجرة جميز كبيرة . وكان عدد المماليك نحو ستة آلاف وكانت ملابسهم وسروج خيلهم فى اقصى ما يكون إناقة وجمالا وفخامة فحملوا على الفرقتين الفرنسيتين حملة صادقة فتلقتهم مدافعهما بالقنابل على مسافة خمسين خطوة ، غير انهم كانوا لا يعبأون بالرصاص ولا بالقنابل بل كانوا يتدفقون بجموعهم نحو القلاع الموثقة الأركان الوطيدة الجدران من اجسام

الجنود ، فيسقطون عندها قتلى بما كانت ترميهم المدافع والبنادق به من حمم النار ، وكانت الخيل كفرسانها اقداما وبسالة وانبعاثا ، اذ كانت تتهافت على حراب البنادق ولا تنكص أبدا على اعقابها ولا تميل يمنة ولا يسرة بل كانت تترامى علينا فتسحق منا الرؤوس وتهشم الصدور وتخرق الصفوف وتفتح فيها الثلم الواسعة . وكثيرا ما كان البعض منها يثب من فوق رؤوسنا فيصبح بداخل قلاعنا . وعلى أثر وثبة من هذا القبيل وقع فى اسرنا المملوك رستم الذى صار فيما بعد مملوكا وخادما أمينا للجنرال بونابرت .

ولقد جندل ثلاثة آلاف من اولئك الفرسان الأبطال مضرجين بدمائهم وطورد الاسباهية الاتراك والعرب نحو النيل حتى صاروا من شاطئه فى مأزق لم يسعهم للخروج منه الا محاولة عبوره سباحة ، لكنهم باتوا فيه من المغرقين . واستولى الظافرون على اربعين مدفعا وأربعمائة جمل وأمتعة كثيرة غنموها من اولئك المقهورين المجازفين . وصدر أمر القائد العام (السر عسكر) ببقاء الاسلحة والجواهر والثياب والكشامير والمناطق المحلاة بنقود الذهب فى ايدى غانميها من الجند . وأصيب كثير من بكوات المماليك وفى جملتهم مراد بك بجراح خطيرة وأبدى اخوانهم فى اليأس وحبوط الآمال كل ما كان فى مقدورهم ان يبدوه من وسائل الانتقام ونفث الاحقاد الكامنة ، فقد شوهد

الجرحى منهم زاحفين على بطونهم لتمزيق أجسام جنودنا طعنا بالخناجر . وكان هؤلاء اذا نظروهم تخيلوهم اشباحا وحشية أو خيالات شيطانية أو أفاعى دبت لبث الأذى والضرر . وشوهد الفرنسى المثخن بالجراح المتخبط فى الدماء يثب الوثبة ليلتمس بعيدا عن الصفوف خصما ينكل به أو يزحف بيديه على الرمل المصبوغ بالدم فى طلب العدو ليفتك به ، بل شوهد الرجل من الفريقين والموت يدبّ فى جسمه مطارداً خصمه وهو يلفظ النفس الأخير ليجهز عليه . وسمعت أصوات خافتة تتلعثم باناشيد النصر ممتزجة بحشرجة الموت وأنفاس أخيرة منبعثة من مكامن الصدر .

وعلى الجملة فقد كان هول هذا المنظر جديرا بالالتفات والنظر . لاسيما ان الجو فى ذلك اليوم كان ساكنا لم تهيجه الرياح والسماء صافية الأديم لم تشبها كدورة السحب ومظاهر الطبيعة حول هذا المراح ، مراح الموت والفناء ، قد لزمت الصمت والسكون ، وظلت الشمس تضىء السكون وهى فى كبد السماء كثريا من ذهب تبعث أشعتها فيما حولها من الارجاء .

وفى اليوم التالى دخل بونابرت مدينة القاهرة من باب النصر الذى اطلق عليه هذا الاسم تذكارا لدخول السلطان سليم الأول منه ظافرا على المماليك ، فرتب ادارة المدينة ونظم شؤونها . وبينا كان القائد (دوزه) يطارد فى الوجه القبلى وفيما

يلى شلالات النيل مماليك الامير مراد كان القائد العام يقتفى أثر ابراهيم بك اذ أخذ سمته الى الشام ليثير فيها الاحقاد ويحمل الأهلين على معاداة الفرنسيس . وكانت الجنود الفرنسية قد بلغت فى مطاردتها لهم الى بلبيس ، فأنقذت الحجاج الذين كان العرب من اتباع ذلك الامير يتعقبونهم بانواع التعدى من سلب ونهب وتقتيل . وبلغ بونابرت فى ثلاثمائة من رجاله الى الصالحية فأدرك مؤخرة العدو بالقرب من الغابة المجاورة لها .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أتيح فيها لفرسان الفرنسيس أن يقارنوا أنفسهم بفرسان المماليك ، فما من فارس منهم الا ونازل خصمه من هؤلاء جسما لجسم . وأصيب (سالكوسكى) ملازم ركاب القائد العام بثمانية جراح وأصيب (دسترى) قائد كتيبة من الفرسان باحدى وعشرين طعنة سيف ، قبل ان تدوسه الخيل بسنابكها .

وما من نقطة أوجهة فى داخل القطر الا ظهرت بهما فى أجلى مظاهرها شجاعة الاوربيين وبراعتهم فى ضروب القتال ، بفضل نظامهم وجودة تنسيقهم العسكرى وفاقت فوقا عظيما على المماليك فى شجاعتهم وأنظمتهم وتدابيرهم . وبينما كانت اصوات الجيوش ترتفع باناشيد الانتصار فى داخل القطر وتردد الآفاق صداها كانت اصوات الكرب والضيق تتجاوب فى السواحل البحرية . ذلك لأن الدونتمة الفرنسية بقيادة الاميرال (برويس)

كانت قد ألقت مراسيها على مقربة من الشاطىء وجعلت بعد
مابين كل سفينة وتاليتها اربعمائة قدم أى ثمانين قامة ، وهو
بعد سحيق جدا ، فاغتنم الاميرال نلسن أمير البحر الانكليزى
هذه الفرصة لقطع خط الاتصال بينها وبين الشاطىء باندساس
سفنه خلالها . وخيل للفرنسيين بادىء ذى بدء ان هذا الحادث
مستحيل وقوعه لقلة عمق الماء فى هذا المكان ، فكان
من نتائج هذا الخطأ الفادح فى التقدير وتلك المناورة
الحاذقة ان اصبحت سفننا مع قلة عددها فى مواجهة سفن
الاعداء . ولقد استطاعت اربع منها ان تفلت الى جزيرة مالطه
حاملة العلم الوطنى ودمرت السفن الباقية وعددها احدى عشرة
سفينة احراقا او اغراقا او نسفا . وكانت الشمس على وشك
الشروق ولم يكن اطلاق المدافع من مائة مدفع قد انتهى منذ
الساعة السادسة من مساء اليوم السابق ، فما تنفس الصبح حتى
ارسلت الشمس أشعتها الى ساريات مهشمة طافية على وجه الماء
وجثث رجال قد ناءت بحملها سفن مهيضة الجانب .

ولقد كنا فى آونة ما من آونات هذه المعركة العنيفة على
وشك الاستيلاء على السفينة (بلليروفون) وهى السفينة التى
حملت الامبراطور (نابوليون) بعد القائه السلاح وتسليمه
نفسه الى الانكليز ، لاننا كنا قد أسقطنا سارياتها الثلاث وقتلنا
السواد الاعظم من رجالها وطلب الباقون منهم الأمان ، غير

ان تلك الامنية لم تتحقق وا أسفاه . . وجملة القول فقد امتاز هذا الصراع العظيم بالمعجب والمغرب من امثلة البسالة والتفانى فى الأخلاص . فقد كنت تسمع من بحريتنا فى بحران القتال صيحات « لتحي الحرية ! لتحي الجمهورية » بل كنت ترى الذين كان الموت يدبّ فى جسومهم يهبون من مراقدهم وقد عادت اليهم القوى الفانية . واعتبر بذلك الفتى (كازابيانكا) البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، بل ذلك المثل الاعلى للحب البنوى . فأنه أبى ان يلقى بنفسه فى البحر ليسبح ويفرّ من نار الحريق فى السفينة (اوريان) . وما رفض النجاة لنفسه إلالأن أباه المسكين وهو رُبان السفينة قد اصيب بجرح بالغ ألزمه العجز عن الاقتداء برجاله فى مغادرة سفينته المتلظية بنار الوقود .

ولطالما ألح الوالد على ولده ان ينجو بنفسه فأبى الولد الا ان يموت فى احضانه . عندئذ قرر الرّبان ان يلتمس بابا لخلاصهما معاً اذ امتطى مع ابنه قطعة سارية كانت طافية على وجه الماء ، لكن قضت الارادة الألهية ان يتصل اللهب فى هذه الآونة بمستودع البارود فى السفينة فنسفت نسفا هائلا أفضى الى ان يبتلع البحر الوالد والولد المتناظرين فى ميدان الشهامة والبسالة والاخلاص .

واصيب (دويتى توار) رُبان السفينة (تونان) دراكا بقنبلتين فاستحلف زملاءه ألاّ يسلموا بانفسهم وأن يلقوا بجثته

فى اليمّ اذا أسرت السفينة ،وجندل الكونت الاميرال (دوشايلا) مصابا فى وجهه بشظية قنبلة وأصيب الاميرال (نلسون) بأذى فى جسمه فطلب اليه القس ليوافيه بمعونته الدينية .

اما الكونت الاميرال الفرنسى فقد أخذ ، ولما يبق بعد عنده من المدافع الصالحة للقتال سوى ثلاثة فقط ، يصيح فى رجاله ان اطلقوا النار دائما ولا تكفوا « فقد يكون فى الطلقة الأخيرة من طلقاتكم القضاء المبرم على العدو »

وكان (تيفنار) رُبان السفينة (أكيلون) قد شوهت المدفعية الانكليزية جسمه ، فلم يكفّ مع هذا لحظة عن حضّ رجاله على القتال . وما زال بهم حتى فنيت أنفاسه بفناء آخر قطرة من دمه . وبعد ساعتين من المعركة أصيب (برويس) القائد العام فى أحشائه فنقل الى حجرته ليسعف بالعلاج ، لكنه ابى إلا ان يعود الى مكانه قائلا : « لاينبغى لأمير البحر الفرنسى ان يموت بعيدا عن موقف القيادة » . قال هذا ثم عاد الى مكانه وما قضى فيه عشر دقائق حتى قضى نحبه .

انتهت هذه الانباء المحزنة الى علم بونابرت فآسى أهل القتلى واقاربهم بعبارات التعزية ، اذ كتب الى ارملة الاميرال برويس يقول : « سيدتى ، يلوح لى ان المرء اكثر جلدا وأعظم صلفا مما يبدو عليـه فى الحقيقة ، فانه فى موقفه هذا يحسّ ان الموت اولى به اذا لم يكن هناك مايضطره الى الحياة ولكن حسبه

ان يضم اولاده الى صدره بعد تهافت هذه الفكرة على خاطره لتثير دموعه وتنبه عواطف الحنان غريزته النائمة وتنبه طبيعته الخامدة فلا يلبث أن يرى بقاءه على قيد الحياة ضرورة ملحة لصالح ابنائه . نعم أيتها السيدة إنى لأطلب منك ، وقد اهتزّت بهذا الباعث أريحيتك ، ان ترسلى الى ابنائك نظرة عطف من نظراتك لينفتح للحزن قلبك فلا تلبث دموعك ان تمتزج بدموعهم وهمتك ان تنصرف الى تربيتهم وتثقيفهم بجعل سيرة أبيهم أسوة حسنة لهم وتصويرك الأثر المؤلم الذى خلفه لك بموته ومقدار ماخسروه هم والجمهورية بفقده » .

وكتب الى الفيس أميرال تيفنار رسالة قال فيها :

« لقد مات ولدك بقذيفة مدفع وهو في موقف القيادة . وإنى أيها المواطن أقوم بواجب موجع اذ أبلغ هذا الخبر اليك ، انما لاخلاف فى أنه مات ميتة الشرفاء وبدون ان يحسّ ألما . وهذه التعزية هى الوحيدة التى يستطاع بها تلطيف مايحسه والد من الألم الشديد لفقد ولده . ولامراء فى ان مصيرنا جميعا الى الفناء واذا أتيح لأمرىء ان يعيش اكثر مما هو مكتوب له بأيام أفتعدل حياته فى هذه الدنيا سعادة موته لوطنه ، وهل تسوى هذه الحياة الألم الذى يحسه لو رأى نفسه على سرير الموت ، وقد أحيط بمظاهر الكبرياء وحب الذات من الجيل الذى يخلفه ؟ بل هل تجزى حياة تلك الأيام مايتكبده المرء فى مرضه

الطويل من الآلام المبرحة وكراهة الدنيا والزهد فيها ؟ ماأسعد وأهنأ الابطال الذين يموتون فى ميدان القتال : »

ونحن نقول ، وما أشقى حظ نابوليون فأنه لم ينل نتفة من السعادة التي أشار اليها فى كتاب تعزيته .

أحس القائد العام دنوّ الخطر وهو بعيد عن السواحل ، وحدثه وسواسه بقرب وقوع كارثة بحرية فعقد النية على اتقائها أو درئها إذ أنفذ الى الأميرال الفرنسى أحد ملازمى ركابه مزوّداً بأمر يفرض عليه الاقلاع فوراً الى جزيرة كورفو ، اذا لم يستطع اللياذ مع دونتمته بثغر الاسكندرية . وحدث ان قتل العربان ذلك الرسول فى الطريق فلما انتهى هذا النبأ الى بونابرت حزن أشد الحزن وتشعبته الهموم ، لكنه أبقى الحزن كاتما فى صدره فلم يبد على وجهه أثر يشف عما فى قرارة نفسه . وكان لايتخالجه شك في انه إذا خسر اسطوله انقطعت كل صلة بوطنه وحيل بينه وبين كل عون تمد اليه به يد من الخارج ، ومن ثم قصر خطابه الى جنده على مايأتى . « أصدقائى ! لقد ضاعت دونتمتنا ولم تبق عندنا سفينة واحدة ، فأنتم الآن بين أحد أمرين : إما البقاء والاستقرار هنا وإما الخروج برؤوس عالية وانوف شماء » . فتلقى الجنود كلماته بصيحات : الثأر ! الثأر ! ولقد كتب نابوليون الامبراطور فيما بعد على صخرته (يريد بها صخرة المنفى بجزيرة القديسة هيلانة) مايأتي : « كان لخسارتنا فى واقعة

ابو قير اكبر الأثر في حوادث العالم أجمع فلو أن الدونتمة الفرنسية خرجت من هذه الواقعة ظافرة لما وجدت الحملة على سوريا فى طريقها عقبة ولسهل نقل مدافع الحصار فى الصحراء ولما وقفت مدينة عكا حائلا دون تقدم الجيش الفرنسى . أما وقد فنيت الدونتمة عن آخرها فقد دفع فناؤها بالباب العالى الى اعلان الحرب علي فرنسا . أما الجيش البرى فقد خسر أقوى عضد له فلم يلبث ان قنط نابوليون من إقامة نفوذ فرنسا فى الغرب على اساس وطيد » .

وكان لايعترض بونابرت ريب فى ان حبوط آماله وفشل مساعيه كانا نتيجة خذلان الأسطول الفرنسى ، ولكي يصرف الخواطر عن هذا الحادث ويحول دون تسرب اليأس الى النفوس أمر بأعداد المعدات الكبيرة للاحتفال بوفاء النيل . ولبس فى هذا الاحتفال حلة شرقية وحف به الكبار من أركان حربه والعظماء من أرباب الحل والعقد المسلمين . وشهد بعينه الشعائر المتبعة فيه من إلقاء مثالٍ لعروس النيل فى هذا النهر وهي العروس التى تقذف فيه جريا على العادات القديمة والتقاليد المألوفة . وقطع الخليج بمشهد منه ، وحدث فى ذلك العام ان بلغ النيل حد الوفاء المناسب للزراعة وجودة نمائها فانطلق سكان القاهرة فى الطرقات يصيحون صيحات الفرح والسرور ، مسندين الى القائد الظافر فضل هذا الفيضان المبارك . وكانوا كلما التقوا به

يخاطبونه بقولهم : « لقد صدقنا أنك مرسل من الله وان الجدير بك ان تفتخر بفوزك وتستبشر بأوفق فيضان للزراعة شهدناه منذ مائة عام » . ولقد بسط بهذه المناسبة يده بالعطاء للأهلين ، وقدم الهدايا الثمينة للذوات والعظماء فكان هذا وذاك من بواعث انطلاق الألسنة بالثناء عليه وتواطؤ الآراء على وجوب الشكر له .

وبعد يومين كان الاحتفال بالمولد النبوى ، وقد بلغ الى الغاية القصوى فخامة ورواء ، اذ كان الناس في الطرقات يتلون الدعوات وينشدون القصائد . وقد قصد بونابرت في حشد حشيد من كبار ضباطه الى دار السيد البكرى للسلام عليه ، وتناول الطعام في المأدبة الكبرى التى أعدها السيد وبذل فى تنميقها وتنسيقها كل ماعرف عن الشرقيين والمسلمين من الكرم والبذخ . وعلى أثر هذين الاحتفالين كان الاحتفال بعيد الثورة الفرنسية ، فان الفرنسيين فى مصر لم ينسوه بل أقاموا لاحيائه هرما ذا سبعة أوجه نقشت على قواعده اسماء الأبطال الذين قتلوا فى المعارك السابقة ولقد رفع فى وسط ميدان الازبكية واقيمت حوله اعمدة عددها كعدد المقاطعات المكونة للجمهورية واحتشدت جنود حامية القاهرة والجهات المجاورة لها حول ذاك الأثر . فلما وافت الساعة السابعة من صباح يوم الاحتفال وصل القائد العام يحف به أركان حربه وأعيان القاهرة ووجوهها

واختلط دويّ المدافع بصيحات الفرح والسرور منبعثة من صدور الجموع الحاشدة . وألقى نابوليون بونابرت وهو واقف عند قاعدة الهرم خطبة قصيرة قال فيها : « ايها الجند ! الآن نحتفل باليوم الأول من السنة السابعة للجمهورية . كان استقلال الشعب الفرنسى منذ خمس سنوات مهيض الجانب مهدد الاركان إلا أنكم استوليتم على ثغر طولون فكان هذا الاستيلاء رائداً لانقراض أعدائنا وانهيار ركنهم وانثلال عرشهم . ومضى إثر ذلك عام ثم قهرتم النمسويين فى واقعة (ديجو) وبلغتم فى السنة التالية الى قمم جبال الألب وحاربتم منذ سنتين مدينة (منتو) واحرزتم الظفر كاملا فى معركة (سان جورج) . وفى العام الغابر بلغتم الى ينابيع نهرى (دراف) و (ايزونزو) فى اثناء عودتكم من المانيا ، فمن كان يخطر بباله وقتئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل فى وسط القارة القديمة ؟ لقد استرعيتم أنظار العالم ، من الانكليزى المعروف بالبراعة فى الفنون والتجارة الى البدوى المشهور بالقسوة والضراوة . فيا أيها الجند ! إن ثغر السعد مبتسم لكم لانكم خير أهل لما قمتم به من جلائل الأعمال ، ولأنكم عند حسن ظن الناس بكم . إنكم ، إن متم ، متم شرفاء كأولئك الابطال الذين نقشت اسماؤهم في هذا الهرم ، وان عشتم أبتم الي أوطانكم مكللين بغار الانتصار مشيعين بنظرات الاعجاب من جميع الشعوب » .

ماسمع الجند هذه الكلمة الحماسية حتى صفقوا تصفيقا حادًا طويلا وطاروا فرحاً وسروراً وقضوا نهارهم فى التدرب على اطلاق النار والمناورات العسكرية والتسابق على الاقدام والخيل وخرجت فصيلة منهم الى الجيزة فرفعت العلم الفرنسى على قمة الهرم الكبير . وبينما كانت الزينات فى الليل متألقة الأضواء كأنها الثريا فى لألائها ، كان القائد العام ونحو المائتين من عظماء القواد وكبار الاعيان يتناولون الطعام على مائدة أعدها لهم فى قصره بالقاهرة . وكان المنظر مما يقضى بالعجب ، اذ كنت ترى فيه اجتماع اضداد فى الملابس واللهجات ومعارف الوجوه وما الى ذلك كله من فروق بين الجنسين الفرنسى والعثمانى .

لكن ما كاد القوم يفيقون من نشوة هذا التصافى حتى قامت الفتنة المزعجة وثار ثائر الاضطراب المروّع . فأن مدينة القاهرة التى باتت مظهراً ومراحاً لعلائم الوداد وآيات الأخاء لم تعتم ان سالت فيها غدران الدموع والدماء .

وبيان ذلك ان تحريضات رجال الدين والشيوخ فى الوجه البحرى للأهلين كانت قد فعلت فعلها فى نفوسهم فنزعوا الى الثورة والعصيان واقترفوا صنوف الفظائع من السلب والنهب والاعتداء على السابلة ، إذ كانوا لايمر بهم بريد من بردنا الا ازهقوا نفسه . وعجز القواد (لان) و (مورا) و (فيال) و (لانيس) عن اخماد الثورات المتفرقة وانضمت جيوش

نابوليون يخطب فى جنوده بالازبكية
يوم الاحتفال بعيد الجمهورية

القائدين (منو) و (مارمون) فلم تتمكن من اخضاع كفر شباس الا بعد أن احرقوا هذه القرية وتعرضوا للهلاك مراراً. وقد كانت هذه الحركة مقدمة للثورة الكبرى التي شب ضرامها بعد ذلك فى القاهرة بأيام معدودات.

فلقد تسلح الاهلون من الطبقات الدنيا بالنبابيت والاحجار وطفقوا منذ الفجر يفتكون بكل فرنسي يلتقى بهم فى طريقهم، وقتلوا القاضى ابراهيم ادهم افندى بباب داره ونهبوا مسكن الجنرال (دوفلجا)، وكان غائباً عنه، وذبحوا اثنين من ضباط فرقة الهندسة كانا يقيمان به. ولحظ الجنرال (دوبوى) قومندان موقع القاهرة تحرّج الحالة فحمل على الثائرين المخلين بالنظام فى عدد قليل من فرسان الدراغون ورفع ذراعه ليضرب واحداً منهم فطعنه آخر فى ابطه برمح طعنة قطعت شريانه وأودت بحياته. عندئذ اطلقت مدافع الخطر ونفخ فى الأبواق لدعوة الجند الى الاحتشاد والاستعداد، فاحتشدوا وتأهبوا جميعا للقتال ثم انطلقوا يقتفون فى جهات كثيرة أثر الثائرين الذين استفحل أمرهم واستشرى فسادهم فاكتسحوهم أمامهم واضطروا خمسة عشر الفاً منهم الى اللياذ بالجامع الازهر وإقامة المتاريس بأطراف الطرق الموصلة اليه.

وبينا كان الجنرال (ديفو) يصد هجوم خمسة آلاف فلاح زحفوا على المدينة من الارياف والجنرال (دوماس) يكافح البدو

الذين كانوا يستنشقون فى السهل ريح السلب والنهب والتخريب والتدمير ، وبينا كان (سولكوسكى) ياور القائد العام يجهز الثائرون عليه فى قرية من قرى الضاحية بعد ان أنزلوه عن جواده وكان قد خرج اليها فى استطلاع ، كان القائد العام بونابرت مقبلا من روضة المنيل للنظر فى رتق ماتوارد عليه من هذه الفتوق ، فأمر الجنرال (رومارتن) بأن ينصب على سفح المقطم فى جنح الظلام ، بين القلعة والقبة وعلى مسافة ١٥٠ تؤازا من الجامع الازهر ، بطرية مؤلفة من أربعة مدافع . وفى الساعة الثامنة من الصباح أنذر اللائذين به من العصاة أن يلقوا السلاح من أيديهم فتلقوا بالرصاص وفد الشيوخ والعلماء الذين انفذوا اليهم فى هذه المهمة ورفضوا كل اقتراح عليهم للتسليم ، حتى اقتراح العفو عنهم ، معقبين على هذا الرفض بالسب المقذع والشتم الفاضح . فلم يسع القائد العام ساعتئذ إلا ان أمر جنوده بالتنكيل بهم وصب العذاب عليهم . وما هى الا دقائق معدودة حتى هطل على الجامع وابل من القنابل وصنوف المقذوفات قذف فى نفوس اولئك اللائذين الفزع وأذاقهم الموت . وحدث فى الوقت ذاته أن هبّ إعصار هائل فاختلط هياج عناصر الطبيعة فيه بدوىّ المدافع وامتزجت سحب دخان البارود بسحب السماء القاتمة وفنيت القوى والهمم أمام هذه الكارثة التى اهتزت لها الارض والسماء . وأحسّ اللائذون بالمسجد كأن صواعق

الجو قد أخذتهم مع صواعق الارض فاستكانوا واستذلوا وعنت رؤوسهم وصاحوا مذعورين يسألون السلامة والأمان ، لكن القائد العام جاوبهم على سؤالهم بقوله :

« لقد رفضتم رحمتي فحقت عليكم نقمتي ، وقد بدأتم فعليّ الختام » .

وما أتم هذا القول حتى شرعت مدافع البطرية والقلعة تصلي الجامع نارها فهدمت سقوفه وكادت تدفن الثائرين اللاجئين تحت أنقاضها . وحاول بعض هؤلاء التعساء الخروج من الجامع يائسين فكان كلما اقتحم فريق منهم الابواب لقي حتفه في الحال باطراف الحراب المشرّعة لصدورهم . وألقى البعض الآخر السلاح وجثوا مستغفرين وصاحوا بطلب الأمان . فلما شهد القائد العام منظرهم المؤثر في النفس أخذت قلبه الرحمة بهم فأمر بوقف المذبحة ، بعد أن قبض على قواد الفتنة وحكم على أحد عشر بقطع الرقاب . ثم رأى في هذا الحكم شيئاً من الصرامة والشدة فلم ينفذه الا في ستة منهم علقت رؤوسهم باطراف العصيّ وطيف بها في شوارع القاهرة عملا بالعادة المتبعة وقتئذ . وبلغ من قتلته الجنود الفرنسية من اللائذين ثلاثة آلاف فرأى القائد العام في هذا القدر من القتلى كفاية لارضاء العدل العسكري وشفاء الغليل والأخذ بالثار .

قمعت الفتنة بالأرهاب والأخافة وانقلبت كراهة التسلط

الأجنبي الى شبه احترام ممزوج بالعطف على قاهرى المماليك.
وبعد ان خيم السكون على ارجاء البلاد بشهرين أعاد بونابرت تشكيل الديوان ، وكان قد ألغى على أثر الفتنة واحلال الحكم العرفى العسكرى فى البلاد محله ، وصدر لهذه المناسبة منشور يرى القارىء فى غضونه الدليل الناهض على قوة سياسته الحاذقة الحكيمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أمير الجيوش الفرنساوية خطابا الى كافة أهل مصر الخاص والعام نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب سابقاً أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة . والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ولكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولذلك ابطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح احوالكم من مدة شهرين والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الاشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقاً . أيها العلماء والأشراف اعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم ان الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم ولا ينجو من بين

يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى والعاقل يعرف أن مافعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة . (واعلموا أيضاً أمتكم ان الله قدر فى الأزل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدى وقدر فى الأزل أنى أجىء من المغرب الى ارض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذى أمرت به ولايشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه واعلموا أيضاً أمتكم ان القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار فى آيات أخرى الى أمور تقع فى المستقبل وكلام الله فى كتابه صدق وحق لايتخلف . اذا تقرر هذا فلترجع أمتكم جميعا الى صفاء النية وإخلاص الطوية فان منهم من يمتنع عن الغي واظهار عداوتى خوفاً من سلاحي وشدة سطوتى ولم يعلموا ان الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور والذى يفعل ذلك يكون معارضا لاحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا أيضاً انى أقدر على اظهار مافى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف احوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد مارأاه وان كنت لاأتكلم ولا أنطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل مافعلته وحكمت به فهو حكم إلهى لايرد وان اجتهاد الانسان غاية جهده مايمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى فطوبى للذين

يسارعون فى اتحادهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام) » (١)

وفى ذلك الوقت استيقظت الدولة العلية من سباتها فأصدر السلطان فرمانا وزعه على الولايات الشرقية ومما جاء فى ختامه :

« إن سيوفكم بتارة قاطعة ورماحكم حادة النصال ومدافعكم يشبه دويها دوى الرعد وجميع اصناف السلاح القاتل ، اذا وضعت بأيدى الفرسان الأبطال استطاعوا الظفر بمرادهم من العدو الكافر والقذف به فى قرارة الجحيم فلا يداخلكم شك فى أن الله معكم وانه كالئكم بعين عنايته وواق لحياتكم من الاخطار وان أولئك الكفرة سوف يتفرقون أشتاتا بمدد من رسول الله ويذهبون بدداً اذا نظروكم وان ساعتهم لآتية لاريب فيها والحمد لله رب العالمين » .

وكان مقرراً أن تعزز الحكومة الانجليزية القوات

---

(١) قد اوردنا صورة هذا المنشور برمته نقلا عن الجبرتى ولم يرد من اصله بالفرنسية فى المصنف المعرب سوى الشطر الثانى المحصور بين قوسين هكذا ( ) واذا كان المؤلف قد وصف مضمون هذا الشطر بقوله انه أثر من آثار سياسته الحاذقة الحكيمة فقد وصفه الجبرتى بما يدل على ان هذه السياسة كانت مبنية على الغرور والغفلة اذ قال « وقد اوردت ذلك للاطلاع على مافيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر »

العسكرية التى كانت الدولة العلية تحشدها لقتال الفرنسيين . وكان بونابرت واقفا على هذا السر فلكي يحبط هذه الأعمال المهددة لكيان فتوحاته من ناحية الشام ويعاقب فى الوقت نفسه حاكم عكا لاهتمامه بحشد الجيوش وتعبئتها ، زحف على هذا الثغر للاستيلاء عليه عنوة نظراً لأهمية مركزه كمفتاح للحدود . فاجتاز الصحراء فى جيش مؤلف من ثلاثة عشر ألف مقاتل ولقي فى اجتيازها من الصعوبات ما سبق لنا وصف بعضه . إلا أن هذه الصعوبات لم تعقه عن الاستيلاء على العريش فغزة فيافا خيفا ولا عن مواصلة السير بعد ذلك الى الأمام فانه فى اليوم الخامس والعشرين من زحفه تراءت له مدينة عكا فلم يتمالك ان قال : « اذا تمّ لى الاستيلاء على هذا الموقع ، فقد آن لى ان أقلب الدولة العثمانية رأسا على عقب لتأسيس دولة جديدة عظمى فى بلاد المشرق » .

ولكن الله تعالى لم يحقق هذا الأمل ولم يشأ ان يغير به وجه الكون .

على أن المدينة لم تلبث أن سقطت فى يده ، إذ دخلها فى أقل من ربع ساعة مائتان من جنودنا من ثلمة فى الأسوار واستتب الأمر لهم فيها . وقد سقط فى خندقها (كفار يللي) العظيم الذى ماسنحت له فرصة الا اغتنمها ليبلغ الى معالى الرتب حتى برّ فى ذلك الوزراء والأفراد ؛ على الرغم من أنه لم تكن

له سوى ساق واحدة . وكثيرا ما كان يتذكر ساقه الأخرى التى بترت فى عملية جراحيةوتركها على ضفاف نهر الرين ، فكان يقول على سبيل الدعابة وتسرية الهموم عن زملائه واستثارة لضحكهم وصرفا لهم عن التفكر فى أوطانهم والحزن لمفارقتها : « أما أنا فانى أسعد منكم حظاً لأنه لا تزال لى ساق فى فرنسا »

ولولا الأساليب العدائية التى اتخذها الانكليز معنا بانفاذهم الأساطيل تقتفى أثرنا بقيادة (سيدنى سميث) واستيلائهم على مؤننا وذخائرنا ، ولولا خيانة الكولونل المهاجر (فلبو) الذى كان يتولى ادارة بطاريات خصومنا فدمر حصوننا وبذل فى هذه السبيل جهودا أفضت الى موته قبل انتهاء الحصار ، لاستطعنا ان نتوج بالاستيلاء على عكا واقعة جبل تابور التى حوصر فيها ، من الساعة السادسة صباحا الى الساعة الأولي بعد الظهر ، ألفا فرنسي قاوموا بنجاح باهر عشرة آلاف من المشاة وخمسة وعشرين ألفا من فرسان الاتراك .

وقد اضطرت الفرق الجمهورية الى مغادرة سوريا للذود عن مصر ، إلاّ أن الطاعون كان قد فشا فى صفوفها فحصد رجالها حصداً ذريعاً . ولم يكن تأثير انتشار هذا الوباء فى حالتهم المعنوية أقل منه فى حالتهم الحسية ، فلقد همّ نابوليون بتخفيف وطأه الأثر المعنوى الناجم عن هذا الداء الوبيل فأذاع فى الأرجاء أن كثرة الوفيات انما سببها الحمي الالتهابية غير

المدية . وعزّز هذا التعليل الذى كان يرمى به الى محض التسلية والتعزية بالاندفاع نحو المصابين بالطاعون في مستشفى يافا يلمس مواطن الداء منهم على مشهد من الجمهور .

وكان الجيش فى عودته محفوفا بالمصاعب والمتاعب ، وكان القائد العام والضباط يتقدمونه سيراً على الاقدام ، بعد أن تنحوا عن جيادهم ودوابهم للمرضى والجرحى .

وبينما كان هذا الجيش يبهر انظار العالم بجلده وصبره وقوة مراسه ، كان جيش الجنرال (ديزه) على بعد بضع مئات الفراسخ منه فى صعيد مصر صامدا لقتال العدو وواقفا له بالمرصاد فى هيئة مربعات كالحصون المنيعة ، على الرغم من قلة عدده وضعف عدته . ولقد قهر المماليك والعربان فى الواقعة الاولى فعادوا الى محاربته فانقلبوا مسربلين بسربال الخذلان وكان مراد بك كلما هاجم ذلك الجيش بحشوده الكثيفة وعزّز الفرسان بالمدفعية القوية كان ديزه يصيح بملازم ركابه (راب) قائلا : « ان مدافعهم لازمة لنا » فيجاوبه : « إذن تريد أن نقهر أو نموت » فيقول : « أريد أن نقهر » ، فما هى الا فترة قصيرة من الزمن بعد هذه المحاورة حتى تكون المدافع المطموع فيها فى قبضة يدنا . وحدث أن ثلاثمائة من الاعداء أو غلوا فى غابة نخل بإقليم قنا موثرين لنفوسهم الفناء والعفاء فيها على التسليم بأنفسهم ، فأضرمنا فى أشجارها النار التى امتد لهيبها حتى اصاب جسومهم

لكنهم كانوا مع ذلك دائبين على مقاومتنا . ولقد تورّمت جلودهم بتأثير النار وتمزقت تمزقا تنبو عنه الانظار ، فكنت ترى بعضهم لايزال مع ذلك يعمل السيف فى العدو والبعض الآخر يوالى القتال وقد جلل جسمه بطعنات الحراب .

وشوهد غلام فى الثانية عشرة من عمره ليس كمثله أحد فى الجمال ، جىء به الى الجنرال ديزه بتهمة اخفاء بعض البنادق . وكان مصابا فى ذراعه بجرح بالغ . فلما شرعوا يعالجونه أنشأ ينظر الى العملية بسكون وقلة اكتراث فسئل :

— من ذا الذى اغراك بهذا الفعل الذميم .

— لا أحد .

— من حرّضك على الاضرار بالفرنسيين ؟

— الله القادر على كل شىء .

— ألك أهل ؟

— لى أم فقيرة عمياء .

— اخبرنا من ذا الذى دفعك الى هذا . قل ونحن لانمسك باذى ؟

— قلت لك هو الله .

— اذا بقيت على اصرارك فان رأسك . . .

— رأسى ! هاهو فاقطعوه .

قال هذا ثم رفع سكينته عن رأسه وألقى بها الى قدمي القائد

الذى أبت عليه مروءته ان يفصل بين هذا الجسم الصغير وتلك الروح الكبيرة ، فصرفه من حضرته قائلا : اذهب الى سبيلك . فانصرف الغلام العربى ولم تنبس شفتاه حتى بعبارة شكر ، انما لحظت على ثغره ابتسامة هى ابتسامة الدهش مما رأى .

ولما عاد بونابرت من سوريا ترادفت الاخبار اليه بوصول مائة سفينة الى ابى قير بعضها انكليزى والبعض عثمانى بقيادة مصطفى باشا والى الروملى ، وأن (مارمون)حاكم الاسكندرية رآها رأى العين فبعث القائد العام اليه يعاتبه على استخذائه وعدم تحركه للقاء العدو ، فأجاب : « لم يكن تحت قيادتى سوى ألف رجل ومائتين بينما يتألف جيش الاتراك من ثمانية عشر ألفا » . قال بونابرت : «ألا تعلم انى بقدر من معك من الرجال أستطيع الزحف على القسطنطينية ؟ » .

ولم يتلكأ بونابرت حتى يثبت قدرته على هذه المجازفة ، فما هى الا عشية اوضحاها حتى أخذ بثأر رجالنا الذين قتلوا فى واقعة أبى قير اذ تغلب على ذلك الجيش العثمانى الضخم ودحره بعد أن عطل من رجاله ثلاثة عشر ألفاً بين أسير وقتيل وغريق . أما هو فلم تزد خسارته على الألف .

وحدث فى معمعان القتال أن القائد العثماني العام اطلق بندقته على القائد (مورا) فأصابه بجرح خفيف ، فقابل الجريح هذا الفعل بقطع اصبعين من أصابع خصمه ، فلم يسع هذا الأخير

الا ان سلم اليه سيفه طالبا منه أن يأخذه أسيراً . وكان ابن الباشا قد لجأ مع فلول من جنوده الى أحد الحصون ولبث فيه اسبوعا يقاوم الفرنسيين دون أن يصل اليه فى أثنائه مدد من رجال أو ذخيرة . فلما يئس من وصول الامداد وفقد الأمل في النجاة التى السلاح من يديه ، لكن بعد أن أمضى اسبوعا مستميتا فى الدفاع ، وبعد أن سقطت جدران الحصن بفعل المدافع الفرنسية . ثم سأل خصومه الظافرين ان يوافوه واصحابه بما يمسك رمقهم من خبز وماء فبادروا باجابتهم الى سؤالهم . وقد اصيب (فوجيير) قائد المشاة فى هذه الواقعة بقنبلة انتزعت احدى ذراعيه فصغرت فى نظره نفسه وكره ان يعيش اكتع ، فطلب ممن حوله ان يحملوه الى بونابرت فحملوه ، فلما مثل بين يديه قال : « إنى اسلم الروح وأنا فى ميدان القتال فلعل يوما يأتى أيها القائد تتوق فيه نفسك الى مثل هذا الحظ » . وقد كان فى قوله هذا من المتنبئين ، اذ معلوم ان هذه كانت أمنية بونابرت فى منفاه .

وبعد ان تم هذا الفوز الساطع لبونابرت توفر على تذليل الصعوبات التى كانت تعترضه فى القطر المصرى فلقد كان المتوقع ، بعد تمزيق الجيش العثمانى ورحيل الاسطول الانكليزى ، أن يقبض الجيش الفرنسى على صولجان السيادة والنفوذ فى أرجاء القطر . الا انه ما كاد يتحقق هذا الحلم وما كاد السكون ينشر ألويته على أقاليم الوجهين البحرى والقبلى حتى تواردت من فرنسا

انباء الفتوق والاضطرابات وحلول الفوضى فيها محل النظام ووقوف النمسا والروسيا منها فى موقف الخصم اللدود المكشر عن نابه ، فتراءى لبونابرت أن بقاءه فى مصر لم يعد ضرورة منحتمة. واتفق ان وردت عليه رسالة من حكومة الديركتوار تستقدمه اليها ، فبرح مصر سراً حتى لا يتطرق اليأس الى قلوب الجند ، ولكى يكفى نفسه واياهم آلام الحزن ساعة الوداع . ولقد صحبه فى رحيله القادة (برتييه) و (ولان) و (مورا) و (أندريوسى) و (مارمون) ، فلما وصل الى الاسكندرية كتب الى كليبر الذى خلفه على القيادة الأسطر الآتية :

« ان المركز الخطير الذى عهدته الى كفايتك سيتيح لك اظهار المزايا التى خصتك بها الفطرة . وليس بعسير عليك ان تقدر خطورة الاحوال الحاضرة وتدرك مبلغ أثرها فى التجارة والحضارة ، فالوقت الذى تبدأ فيه عملك سيكون عنوان تقلبات عظيمة وإصلاحات جمة . وإذ قد اعتدت أن أرى المرء لايجزى على ما كابد فى حياته من المشاق والمتاعب الا بمقتضى ما تحكم به الاجيال المقبلة فقد اعتزمت مغادرة القطر المصرى بفؤاد مفعم بشعور الأسى والأسف . إن مصلحة الوطن وواجب محبته والطاعة له وما نكب به اخيرا من الحوادث الفادحة كل هذا سيضطرنى الى اقتحام اساطيل العدو ابتغاء الوصول الى أوربا . وبعد فالجيش الذى اعهد قيادته الى كفاءتك مؤلف من جنود أعدهم ابنائى

فقـد أقاموا فى ساعات الحرج والشدة ، بل فى كل الساعات والأوقات الدليل الساطع على صدق اخلاصهم لى وتعلقهم بى ، فأنت وحدك المسئول إذن عن معاملتهم بما كنت أعاملهم به من رحمة ورفق وحسن رعاية . على ان هذا فرض انت مطالب بأدائه نحوهم بحكم ما أستشعره لك من المودة والاحترام وما يربطنى بك من العرى التى لا انفصام لها » .

وقد بعث مع هذه الرسالة بيانا رسميا جاء فيه ما يأتى :

« الجنرال كليبر مأمور بتقلد القيادة العامة لجيش الشرق لأن الحـكومة استدعتنى اليها — بونابرت » .

كانت شمس القرن التاسع عشر وقتئذ على وشك ان تبزغ لخرم الجيش الفرنسي قيادة بطل ملأ ديوان سيرته بحوادث الفوز والانتصار على ضفاف النيـل ، ولبث اهلا للاحتفاظ بالتراث الذى اورثه اياه هذا الانتصار . وكان القائد الذى تسلم منه مقاليد القيادة واصبح حظه فيها متصلا بحظه خير خلف لخير سلف . فلقد تجلت آيات بطولته فى القتال بميادين (شمبانيا) و (فانده) و (فلوروس) و (مايسترشت) و (أولتنكنكن) وغيرها من ميادين مصر ، وجمع الى الجرأة والبسالة فضيلة الروية وبعد النظر فى العواقب ، وظفر من البراعة والقدرة بقسط جعله جديرا بأن يبلغ الشأو الذى بلغ اليـه سلفه . الا ان فرقا طفيفا كان يميز بين الاثنين ، ذلك أن بونابرت كان سريع البديهة

قوي الابتكار بينما كان كليبر طويل الاناءة بعيد التأمل . ومن كان على إرث من هذه الخصال خليق به ، اذا امتد حبل أجله ، أن يجعل ما ابتكره سلفه من الانظمة أثراً جليلا وعملا نافعاً باقيا على وجه الدهر .

ولو أن أهل مصر استشيروا فيمن يكون خلف بونابرت بينهم لقالوا ان هذا المطلب عسير ، بل مستحيل الا ان يكون هذا الخلف كليبر . ذلك لأن المصريين ، بما وقر فى نفوسهم من آثار الهمجية الأولى ، مدفوعون الى تقدير العقول بمقتضى مايشهدونه من ضخامة الأبدان وان فحول الرجال وأقطابهم فى نظرهم هم أصحاب الأبدان الهائلة والجثث الثقيلة والاساطين القوية . فهم لاشك يجهلون ماكان الاسكندر الكبير عليه من ضآلة الجسم ، ولم يكونوا قد رأوا محمدا عليا الذى كان الناظر اليه يحسبه ، بمقتضى صفاته المحسوسة ومميزاته الظاهرة ، أحد من اعتاد رؤيتهم فى الطريق من الناس ، ومن فحول الرجال ونبغائهم اذا اعتمد فى تقرير مميز له على ماتوافر فيه من شمائل النفس وفضائلها . فليس عجبا بعد هذا ان يجهل المصريون سرّ رأى الأمم الأوربية فى بونابرت البطل وعلة مخالفته لرأيهم المبنيّ على الصفات الحسية لا على الفضائل والمزايا النفسية . وكان مما يشق عليهم بلا ريب التسليم بأن من كان مثله ، ضآلةَ جسم وقصرَ قوام ، قادر على أن يقلب العالم رأساً على عقب وأن

يهز بانتصاراته العروش ويزلزل بفتوحاته الأرضين . ولقد حير الألباب أمره اذ استغلق على الفهم التوفيق بين قصر قامته وجلال فتوحاته ، فلم يستطع الا الشعراء الخروج من هذه الحيرة حين قال بعضهم فى وصفه : « لئن قصرت قامة القائد الجمهورى فقد سما رأسه الى كبد السماء » .

وكان كليبر يقذف الرهبة والاحترام فى الروع بمظهره الجثمانى الذى يسترعى الابصار بتناسب الأعضاء فى قوة أساطين ومتانة عضل . فلقد اتفقت الآراء على أنه أجمل جندى فى الجيش الفرنسى ، لهذا هابه الناس جميعا وخشوا بأسه عندما اسندت اليه القيادة العليا بمصر على الجيش الفرنسى وعنت له رؤوسهم وتطأطأت ولقبوه لهذا السبب بلقب (مريخ فرنسا) وكان خليقا حقا بأن يصرف اليه معنى الكلمة التى قالها لبونابرت يوم ضمه الى صدره عقب وقائع ابى قير : « أيها القائد إنك لعظيم كهذا العالم ! »

وإذ كانت الأمة التى تسلم زمامها تحكم على القوة والجاه بمقتضى ماتحسه ببصرها من مظاهر المجد والبذخ والعظمة ، وكانت لهذا السبب تبهت دهشا عند ماترى مرءوسا يطيع رئيسا لم تكن ثيابه افخر من ثياب بعض جنده ، فقد تراءى للقائد كليبر ، صيانة لكرامته ورفعا لقدره وتمكينا لقوته ، أن يأخذ بأسباب الأبهة ومظاهر الجلال الأسيوى فقضى بأن تقام له ، كما

كانت تقام لبكوات المماليك ، مجالي التشريف والتكريم وآيات الاجلال والتعظيم وترتب القواسة فى موكبه بحيث يسيرون أمامه فى صفين متوازيين وبأيديهم العصى والمحاجن يصيحون فى المارة بلسان عربى اشباه الجمل الآتية : « هذا هو السلطان ! هو الحاكم المتسلط ! فطأطئوا رؤوسكم اجلالا له » . وكان السابلة من المشاة متى رأوه مقبلا عليهم رفعوا أيديهم الى صدورهم ثم انحنوا . أما الركبان على متون الدوابّ من افراس وبغال وحمير فكانوا يترجلون أولا ثم يؤدون التحية على النمط المتقدم .

وانتقل كليبر من هذه البسائط ، التى لم تكن حقا من السفاسف ولا من التدابير الخالية من التأثير ، الى التفرغ لشؤون أخر كانت تلتمس منه بخطورتها البالغة جهدا كبيرا وهمة عالية . فلقد أراد أن يوفر للجند من أسباب السعادة ما لم يكن في الطوق التعجيل بتوفيره نظرا لتسلسل الحوادث والفتن وتعاقبها وأخذها بعضها بخناق بعض واستمرار الحاجة فى قمعها الى الجيش ، فأصبحت المستشفيات والمعسكرات متوافرة فيها مع ذلك بفضل جهوده اسباب الراحة والصحة ، كما اصبحت الحصون والاستحكامات أوسع نطاقا واوثق بناء . واتقنت صناعة الخبز وملئت المخازن والمستودعات بالمؤن والاغذية وعومل المضاربون على حساب الجند بالقسوة والصرامة ردعاً لهم عن التمادى فى خططهم الوخيمة وحوسب عمال الحكومة على الفتيل والنقير من

تصرفاتهم ، حتى لقد وقع من بعضهم أن فرض فرضة خارجة عن حدود القانون قدرها ٧٥ ألف فرنك، ثم اختص بها نفسه فألزم بأعادتها الى أربابها وسيق هو الى أحد ميادين المدينة حيث أعدم رميا بالرصاص .

وفى مستهل فندميير من السنة الثامنة للجمهورية أقيمت حفلة باهرة ، احياء لذكرى تأسيس الجمهورية ، ألقى القائد فيها على الجنود خطبة استهلها بقوله :

« أيها الرفاق الابطال : إن بنودكم لتنثنى تحت ماتنوء به من اكاليل الانتصار . ومن يقم مثلكم بجلائل الأعمال أخلق به ان ينال حسن الجزاء . فعليكم بقليل من الصبر والمثابرة لتحصلوا على مكافأتكم وتنالوا متمناكم ، ولن يمضيَ زمن حتى ترفعوا بفعالكم المجيدة بين أمم الأرض كلها صرحا للسلام ثابت الدعائم وطيد الاركان بعد أن حاربتموها جميعا »

وإذا كان فضل استقرار السياسة الحكيمة الرحيمة فى أقاليم الدلتا على الآساس الوطيدة يرجع الى ما اتخذ القائد العام من تدابير قوية واحتياطات رشيدة ، فإن اطمئنان اقاليم الوجه القبلى وتوافر أسباب السعادة والرفاهية والنعيم لها انما يرجعان الى حسن ادارة القائد ديزه وعفته ونزاهته . فانه ما كاد ينتهى من اخضاع اهالى تلك الاقاليم ويستتب له الامر فيها حتى تفرغ لتدبير شؤونها ، جاعلا رائده العدل والاعتدال والمحاسنة ولقد

بلغ من امره فيها أن اطمأن اهلوها اليه فعادوا الى مزاولة أعمالهم الزراعية وأطلقوا عليه لقب السلطان العادل وتبرأوا من كل فتنة اثار المماليك غبارها . وبات هؤلاء الامراء الجراكسة لهذا السبب فى معزل عن النصير والظهير من ابناء مصر فلم يجرؤوا على اختراق الصحراء لقتالنا ولم يبق لهم من حيلة ، بعد أن برحوا مصر يائسين من العودة اليها ، إلا التوفيق بين حركاتهم وحركات القوات الانكليزية لتهديد ثغر القصير والاستيلاء عليه . وكانت قيادة هذا الموقع بيد الادجودانت (دونزلو) فاستطاع أن يبعد الفرقاطتين البريطانيتين اللتين وصلتا اليه ، رغم وابل القنابل الذى ارسلتاه اليه اذ بلغ عددها ٦٠٠٠ قنبلة . أما مراد بك فقد انبرى له (موران) قائد احدى فرق الفرسان ومزق شمله فى سمهود (بمركز نجع حمادى الآن) ، بعد ان اقتفى أثره على مسافة ٥٠ فرسخاً .

واعتزم القائد (ديزه) ، حينما رأى ان ذلك الأمير كان يرجع من كل معركة بالخذلان إلا أنه كان لايخضع أبداً ، ان يقضى عليه القضاء الأخير . فجمع ٩٠٠ من الهجن وعودها جلبة الحرب من صليل سيوف وصهيل خيل وفرقعة بنادق ودوى مدافع ، ودرب مثل هذا العدد من العساكر على سهولة الحركة وسرعة المفاجأة ثم قسم هذا الجيش الى قسمين وكل اليهما ملاحقة ذلك الخصم العنيد والقبض عليه . ولقد اقتصوا أثره حتى ادركوه

باطراف الفيوم ، فترجل الفرنسيون عن هجنهم وألفوا مربعا حمل المراديون عليه ثلاث مرات تباعا فلم ينالوا منه منالا ، بل اضطروا الى النكوص على اعقابهم منهزمين . وعلى أثر هذا الحادث بزمن يسير عبر مراد النيل بالقرب من أطفيح وأوغل فى وادى التيه من جهة السويس ، ثم عاد أدراجه وأخذ يجول جولاته الأولى فى الوجه القبلى .

وكانت فرقتا الهجانة قد بلغتا فى مسراهما الى أسيوط فعرض على مراد بك ان يملك هذا الأقليم الذى هو أغنى أقاليم الصعيد وأوسعها نطاقا وأوفرها خيرا وان يخول الاستقلال التام فيه فأبى ان يعاهد الفرنسيس على الاختصاص بذلك الشطر الصغير ، بينا هو يحسب نفسه امير القطر المصرى كله وصاحبه الشرعى . وكان هذا الزعيم جم الاحترام لقوادنا كما كان هؤلاء كثيرى الاعجاب ببطولته وحركته الدائمة التى لا يأخذه هو ورجاله بسببها تعب أو كلال . ولم يجد مراد من الضيق وحرج الموقف فى قتاله مع الفرنسيس مايحمله على كسر حدته والحط من كبريائه وغطرسته . وكان لابد ان يخنع لهذه الضرورة يوما ، لكن هذا اليوم لم يكن قد حان بعد .

كانت الحكومة العثمانية قد ألفت فى الشام جيشا وزحفت به على مصر لاحتلال الضفة اليمنى من النيل ، فاستدعى (ديزه) لنجدة القائد العام . وكان إزاء هذا الحادث الجلل قد بادر بتعبئة

جيشه وتجهيز مؤنه وإعداد عدته ، وقرر ان يترك لمراد بك الجبل على الغارب ، ليتفرغ لقتال الجيوش العثمانية التى لم تكن شيع الأمير الجركسى بجانبها شيئاً مذكوراً .

وكان أربعة آلاف من جنود الانكشارية العثمانيين يتبعهم جيش احتياطى فى مثل هذا العدد قد نزلوا الى البر تجاه دمياط وانشأوا الاستحكامات على السواحل ، وهى الاستحكامات التى أجلاهم عنها فيما بعد ألف جندى فرنسي فقط ، بقيادة الجنرال (فردييه) ، ولم يجعلوا المقام لهم فيها مستطاعا . فلم تسع البقية الباقية من فلول تلك الجنود الممتازة الا أن نكصت على الاعقاب مختلة النظام مفككة الأوصال ، وفى مقدمتها قائدها سعيد على بك ولجأت الى سفن القومودور (سيدنى سمث) التى جاءت بها من البلاد العثمانية . وكان هؤلاء اللاجئون قليلى العدد لضياع السواد الأعظم من الجيش ، بين قتيل وجريح وأسير ، فى مقابل اثنين وعشرين قتيلا فقط خسرهم الجيش الفرنسى الظافر .

على أن هذا الفوز المتواصل لم يكن بحاجب عن نظر القائد العام للجنود الفرنسية حرج موقفه وقرب حلول الضنك به ، لقلة الرجال والمال وفناء المؤن والذخائر ، وبخاصة لأن القتال لم يعد منحصرا بينه وبين المماليك فحسب بل انه تناول العصابة الدولية التى تألفت آنئذ ضد فرنسا من انكلترا وتركيا والروسيا . لهذا عول كليبر على استئناف المفاوضات التى كان بونابرت قد

بدأ بها قبل رحيله الى فرنسا ، فبعث الى الأتراك مندوبين مفوضين لمفاوضتهم ، هما الجنرال (ديزه) والمدير العام (بوسيلياج). ولكي يؤيد جانب هذين المندوبين ويعزز المهمة الموكولة اليهما ذهب بجيشه الى الصالحية على حدود الشام ، وكان الصدر الاعظم قد تمكن فى أثناء ذلك من استمالة أولياء الأمر فى العريش اليه ودسّ فى هذه المدينة دسائسه واشترى بالأموال بعض الذمم والضمائر ، فلم تلبث أن سلمت اليه وقتما دهمها بجنوده . غير أن جندياً من الفرسان الفرنسيين أبى الا القيام بالواجب والمحافظة على الشرف فأطلق آخر رصاصة من بندقيته على براميل البارود فى الحصن فانفجرت ونسفت في انفجارها جدرانه وأسواره التى دفنت تحتها المحرضين على هذه الخيانة ومرتكبيها .

ولا خلاف في أن هجوم العثمانيين على ذلك الثغر ، فى الوقت الذى كانت الهدنة فيه على وشك ان تبرم ، خيانة صريحة للامانة وخروج صارخ على التقاليد المرعية فى الحروب . على أنه ترك الفصل فى هذه المسئلة الى أولياء الامر الذين لهم حق النظر فيها واستؤنفت المفاوضات من جديد فأسفرت عن اتفاقية ٢٨ يناير سنة ١٨٠٠ التى بمقتضاها تعهدت جنود الجمهورية بالجلاء عن القطر فى مدى ثلاثة أشهر ، بشرط ان تقدم الحكومة العثمانية اليهم وسائل الانتقال الى فرنسا ، بسلاحهم ومتاعهم . وكان الجيش الفرنسي ، تنفيذا لهذه الاتفاقية ، قد تأهب للنزول

فى السفن التى أعدتها تلك الحكومة ، إلا ان الاميرال (كيث) تدخل بين كليبر والصدر الأعظم وأنذر القائد العام الفرنسى بأن بريطانيا العظمى لاتصادق على المعاهدة المبرمة إلا بشرط واحد وهو تسليم الفرنسيين سلاحهم واعتبارهم أسرى حرب وتركهم كل ما يملكون من سفن وذخائر ومهمات . فتبرم كليبر بهذا الشرط ولم يجاوب الرسول البريطانى عليه بكلمة ، بل اكتفى بان طبع رسالة أمير البحر البريطانى وذيلها بالجملة الآتية :

« أيها الجند ! ان هذه الاقوال الوقحة لاجواب عليها الا النصر نخذوا عدّتكم للقتال ! » .

فهبت الجنود من مراقدها ووثبت من مكامنها متعطشة للانتقام صائحة : الى الثأر ! الى الثأر ! وحاول القومودور سيدنى سمث ، بدافع طيب من نفسه ، حقن الدماء ووقاية الانسانية شر الاصطدام الآتى ، لكنه عبثا حاول . لأن الاهانة مست بلوثها الجيش الفرنسى ولأن كليبر آلى على نفسه ان يعاقب مرتكبيها ، فأعلن ان الجمهورية وتركيا اصبحتا فى حالة حرب ثم رسم للقتال خططه وحدّد ميادينه وحشد تحت اسوار القاهرة عشرة آلاف مقاتل لم يلبث ان قذف بهم الثمانين الف عثمانى المعتصمين بأطلال عين شمس (هليوبوليس) ، بقيادة يوسف محمد باشا المشهور باسم كيور باشا ، اى الباشا الأعور ، لأنه فقد احدى عينيه فى واقعة مع الروس .

وفى فجر يوم ٢٩ فنتوز من السنة الثامنة للجمهورية (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) اعتلى كليبر متن جواده الكريم ولبس أفخر ثيابه العسكرية ثم عرض جيوشه فى سهل ممتد على ضفة النيل وصاح فيهم قائلا :

« أصدقائى واخوانى ! اعلموا ان ليس لكم فى مصر الآن غير مواطىء اقدامكم ، فاذا تراجعتم الى الوراء خطوة واحدة فقد حق العفاء عليكم » .

وما ختم هذه الكلمات حتى علت الى عنان السماء صيحات الحمية والحماس وأخذ الجيش سمته الى الأمام .

وما تراءى الجيشان حتى شرعت ميمنة الجيش الفرنسى بقياده الجنرال (فريان) تطلق القذائف من فوهات مدافعها ، فأصابت أولاها احدى نقط العدو فدمرتها تدميرا ومالت الميسرة بقيادة (رينيه) على بقية الطليعة العثمانية بالرصاص والحراب فتوارت خلف المطرية ، وهناك أتت النار على مالم يأت السيف عليه . وكان السواد الاعظم من الجيش العثمانى فى موضعه خلف غابة نخل تحيط بقرية المرج يتخذ منها دريئة له . فاهتدى اليه فريان وزجّ به الى الخانكة ثم الى الصحراء . وكان لايزال يحتل بلبيس وما والاها من البلاد الف فارس من الجيش وعدد كبير من المشاة . فسألوا كليبر ان يشملهم بعفوه ، فأذن لهم باللحاق بالصدر الأعظم كيور باشا الذى كان قد ولى الأدبار فى

خمسمائة فارس وبأن يحتفظوا بأسلحتهم ليصدوا هجمات العربان عليهم فى الطريق .

وبتنحى الجنود العثمانية عن مراكزها الحصينة ، آل الى الظافرين من مخلفاتهم عدد كبير من الخيل والدواب ومقدار وفير من اسرة النقل والسروج والاقمشة الحريرية والروائح العطرية والصناديق والخيام والمدافع . وما كانت احوال داخلية القطر المصرى أقل افتقارا الى المثابرة على الهمة واليقظة والنشاط منها فى الميادين الآنفة ، ذلك لأن شطرا كبيرا من الجنود العثمانية التي لاذت بالفرار انتهزوا نهزة اشتغال الجيشين بالقتال للاندساس بين سكان القاهرة واذاعة الاراجيف عن نتيجته فصدق الأهلون أقوالهم قبل ان يحكموا الروية فى صحتها أو يقيسوها باشباهها ، وتدفقوا بدافع الكراهة وحب الانتقام على الاحياء الاوربية يقذفون سكانها بصنوف السباب الفاضح ويكسرون زجاج نافذاتهم بالاحجار ويخلعون ابواب دورهم ويمعنون فيهم قتلا وتمثيلا ويلقون فى الخليج بجثثهم ، لكنهم ما عتموا ان وصل اليهم المغلوبون على أمرهم والمهزومون فى واقعة عين شمس يجررون ذيول الخيبة والفشل ، فزادهم مرآهم حنقا وحقدا وبقوا على طيتهم يعيثون ويعبثون ، حتى لقد انقضى يومان على البطل (دورانتو) فى القصر الذى لجأ اليه واعتصم به هو ومائة وثمانون رجلا من رجاله ، يقاوم عشرة آلاف تركى

وشيعا كثيرة من الاهلين ملوا بخمرة الحقد وحب الانتقام . وقد ظل عددهم يتزايد حتى بلغ الى خمسين الف نفس تسلحوا بالرماح والسيوف والبنادق العتيقة . ثم وصلت فى النهاية الى المدينة فصائل من الجيش الظافر لتعزيز حاميتها الصغيرة التي تحولت ، منذ وصول هذا المدد اليها ، من ملازمة خطة الهجوم الى خطة الدفاع . وكان الثائرون قد أقاموا المتاريس فى الطرقات بارتفاع اربعة أمتار وجعلوها طبقتين احداهما فوق الأخرى وانشأوا معامل للبارود وصنعوا القذائف من حديد المساجد ورموا اعداءهم بما كان هؤلاء يلقونه اليهم منها . وقفل كليبر راجعا الى القاهرة تخشى ، إن هو قابل الشدة بالشدة ، ان تنفد الذخائر منه ويفنى الجنود . فجنح الى السلم والتسامح وابرم مع الثائرين اتفاقا ارتضوا به ظاهرا ، لكنهم كانوا يبيتون النية على نقضه ، فلم يسعه تجاه نكثهم العهود الا الالتجاء الى ذرائع الاخافة والارهاب فى معاملتهم ، فأحرق وخرّب وأهلك . وكان الامير مراد يمقت الدولة العثمانية ويتوقع ، اذا خلص له الأمر فى مصر ، ان تقتصّ منه بأنكا العقوبة ، فانحاز الى جانب الفرنسيين وناصرهم وأمدهم بالذخائر والمؤن . وفى يوم ١٥ افريل سنة ١٨٠٠ الموافق ٢٥ جرمينال من السنة الثامنة للجمهورية ، احرق الفرنسيون بولاق ، من أرباض القاهرة ، فأكلتها النار وجعلتها آكاما من الرماد . وانعقد فى جوّ العاصمة ضباب من الدخان

الجنرال كليبر يقول لجنوده : « اعلموا أنكم لاتملكون
من مصر الآن سوى مواطىء أقدامكم فاذا تراجعتم
خطوة الى الوراء فعليكم العفاء »

المنبعث من الحريق . واحجم كليبر بعد ذلك عن متابعة هذه الخطة وحاص عن الاستسلام لضغائن صدره إذ عفا عن المذنبين والثائرين على ان يؤدوا من الغرامات الفادحة ما يفى بحاجات الجند فى هذه الأزمة العصيبة .

وبالرغم من نجاح القائد العام فيما نحا اليـه من توقيع العقوبة واخماد الفتنة ، فقد كاشف من حوله بالحاجة الماسة الى عناصر عسكرية جديدة تجمع الى الجلد والصبر فضيلة الجرأة والاقدام فى الهجوم والعلم بأساليبه . ولم يكن ثمة مساغ الى الاعتماد على اى مدد يرسل من فرنسا ولا الى الرجاء فى وصوله ، ان ارسل . ومع هذا فان ما كابده جنوده من رداءة الطقس وشدائد الحرب أحدث فى صفوفه فراغا عظيما توفرت همته على سد ثغرته واتجهت عنايته الى اصلاح ماتأتى عنه من فساد . فأنه ما كاد ينتهى من تنظيم جباية الأموال الأميرية حتى تفرغ لتخفيف اثقالها عن عاتق الجمهور وجعلها مما يطاق حمله من غير تبرم ولا استياء وجدد استحكامات القاهرة وبولاق وعزّز الحصون فى نقط مختلفة من سواحل البحر المتوسط وانكبّ على التجنيد فى الاراضى التى غزتها الجنود بحدّ السيف فاستطاع بهذه الذرائع المختلفة تحويل الاعداء المقهورين الى اصدقاء خلصاء واعوان أمناء . وكان بونابرت قد ألف فرقة من الأجانب وأخرى من الفرسان السوريين فاقتدى كليبر به فى ذلك اذ حشد فرقا كثيفة

من المماليك والفلاحين الذين بهرهم مجدنا العسكرى وانشأ طابورا حشد له خمسمائة قبطى وآخر حشد له تسعمائة يونانى ونظم فى أحد شقي الفرقة الحادية والعشرين الخفيفة طائفة من السودانيين الارقاء اشتراهم من بعض النخاسين الذين وردوا آنئذ من اثيوبيا والنوبة .

وطابت نفسه لتوثيق الروابط التى وصلت مراد بك بالجمهورية الفرنسية فألقى اليه بزمام الحكم فى الصعيد الأعلى وطلب اليه ان يقابله فى جزيرة ترسا القريبة من الجيزة فى موعد موقوت . وهناك فى اليوم الأخير من أفريل سنة ١٨٠٠ تصافح البطلان فى ظل سرادق مدّ لهما وتبادلا عبارات الود والاخلاص ، وما كانت مقابلاتهما قبل هذه المرة الا والحسام مسلول والرمح مشرّع والبنادق مصوّبة والنفوس حافزة للوثبة والهجوم . وكان ينقص هذا الاجتماع خصم ثالث لم يكن أقل من كليبر اعجابا ببطل المماليك واحتراما له ، نريد به القائد ديزه الذى لقى حتفه فى معركة (مارنجو) بأروبا اذ كان قد عاد اليها من قبل .

وفيما يلى سيجد القارىء ان الانتقال من هذا الاجتماع الذى شفّ عن كثير من دلائل الوداد والوئام الى ما يشبه قصص المكايد والحيل والكتمان سيكون انتقالا فجائيا سريعا . وليس فى هذا ما يقضى بالعجب فإن من الحوادث ما تبدو عليه أمارات التناقض والانفراج ثم لاتلبث ان تتلاقى كأنما هى

ترمى الى غرض واحد .

وبيان هذا أن الصدر الاعظم كان ، على عقب معركة عين شمس ، قد ولى مدبراً الى الصحراء يقطر جبينه خزيا وخيبة ويلفظ فمه لعاب الحزازة والغلّ . فلما أمن على نفسه خطر ملاحقة العدوّ له أصدر المناشير بعضها تلو بعض ينفث فيها سم الحقد والكذب ، إذ وصف قائد الجيش الفرنسى الذى لم تكن له من جريرة الا أنه خذله ونكل به والزمه ملازمة الفرار ، بالكافر اللامين الذى دنس بقدميه ارض مصر ، ووعد بمكافآت مالية قدّر قيمتها لمن يجيئه برأسه ذاكراً مالذلك من مثوبة عند الله ونفع جزيل للناس أجمعين . فلم تكن هذه المناشير إذن الاستثارة عامة للمسلمين ان يقوموا على المسيحيين قومة رجل واحد ، فانفتحت لندائه الصاخب المثوّب آذان الناس فى العالم الاسلامى ، إذ انبرى من حلب رجل عرف بين أهلها بالتشدد فى الدين والصرامة فى المشايعة له وآلى على نفسه ألية ان يلبي ذاك النداء فزوده أعوان الصدر الاعظم راحلة للسفر وخنجراً للقتل وثلاثين قطعة من النقد الفضىّ لنفقة الطريق .

وصل سليمان الحلبي ، وهو اسم ذلك الفدائى ، الى القاهرة فقضى ثلاثين يوما يأخذ العدة لانجاز ما وكل اليه ويروض نفسه بالصوم والوعظ ويتفق مع بعض الشيوخ ورجال الدين على قضاء ماحضر من اجله .

وفي الرابع عشر من يونيو سنة ١٨٠٠ ، وهو اليوم نفسه الذى قتل ديزه فيه بواقعة مارنجو ، سالت روح كليبر على يد ذلك الآثم ، عقب ان عرض الجيش فى حزيرة الروضة وتناول طعام الغداء فى ابتهاج ومسرة على مائدة الجنرال (دوماس) ، فأنه مافرغ من الطعام حتى قصد الى دار متصلة بدار ضائفه بدهليز ممدود بينهما . وكان قد استقدم المهندس (بروتان) ليستشيره فى ترميم دار القيادة العامة فسار خلفه يطأ مواقع قدميه . وبينا كانا فى طريقهما لفت نظر القائد العام رجل زريّ الهيئه رثّ الاسمال يدرج نحوه بخطوات الملتمس صاحب الحاجة ، فلما دنا انحنى انحناء الخضوع والاحترام واتخذ وضع من يبغى بث شكوى أو عرض أمر أو بسط حال من الاحوال . فأخذته به الرأفة ومدّ اليه يده بشيء من المال ، فما كان من الخائن الأثيم الا أن وثب عليه فجأة وثبة النمر ومزق قلبه بطعنة شديدة سقط من جرّائها على الارض وهو يصيح : « لقد قتلت » . فهمّ المهندس بروتان ساعتئذ بضرب القاتل بعصا فى يده فهجم هذا عليه وطعنه ست طعنات ألقته على الارض صريعاً ثم عاد وبيده سلاحه يقطر دما ليجهز على فريسته الأولى وقد اوردها فعلا موارد الردى والعدم .

توارى القاتل فى حديقة دار القيادة العامة للجيش خلف شجرة كثيفة الافنان ، فقبض عليه ودفع هو وبعض علماء

الازهر الى لجنة تحقيق عسكرية حكمت على هؤلاء بأن تضرب أعناقهم فى يوم الاحتفال بتشييع جنازة القائد ، بوصف انهم شركاء القاتل فى جنايته ، وعلى القاتل بإحراق يده وخزقه مع ابقاء جسمه معلقا حتى تنهشه الطيور الجارحة .

وكان القاتل شابا فى الحول الرابع والعشرين من عمره ، فسار ثابت الجأش مطمئن الفؤاد نحو مكان التنفيذ ، وأبدى من الجرأة ، مالم يبده واحد من العلماء الثلاثة ، فإنهم كانوا ، الى الساعة التى ضربت فيها اعناقهم ، يبكون بكاء الثكالى والاطفال .

ومدّ سليمان الحلبي يده الى الجمر الموقود ، وكان ينظر لحمه تشويه النار شيا فلا يهتز بألم ولا ينبض له نبض ولا تنبس شفتاه بكلمة . ولم تلمح على وجهه ، عند ما سيق الى الخزوق ، امارة اكتراث بمآل امره ، كما لم يتقلص له عضل ولم يلتو من اعضائه عضو ، بل ظل ساكنا سكون الحجر الاصمّ . وكل مالحظه المشاهدون انه حينما رفعته أكف منفذى الحكم لوضعه على الخزق أجال نظره فى الحاضرين مطمئن الفؤاد هادىء الروع ثم فاه بالشهادتين .

وظل مرفوعا على الخزوق اربع ساعات ونصف ساعة سأل مرارا فى خلالها شربة ماء ، فلم يجبه الى طلبه أحد ، مخافة ان يقف قلبه فيموت ، قبل ان ينال من العذاب ماهو أهل له . لكن أحد رجال النوبة الفرنسيين أخذته الشفقة به فرفع اليه

بطرف بندقته كوب ماء ما كاد يشرب به حتى أسلم الروح . وعظام سليمان الحلبي معروضة بهيكلها فى غرفة التشريح بحديقة النباتات الفرنسية فى فرنسا .

وفى السابع عشر من يونيو اقيمت حفلة جنازية حداداً على الفقيد وتذكارا له . وقد لبثت المدافع منذ ساعة قتله تطلق مرة فى كل نصف ساعة ، ثم اعلن تشييع الجنازة باطلاق المدافع من القلعة وسائر الحصون . وكان الجنود ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، قد تقلدوا سلاحهم متأثرين بعوامل الأسف والحزن على هذه الخسارة الفادحة وتحفزوا لاختراق شوارع القاهرة والجوس خلال ديارها لاضرام النار فيها والتنكيل بأهليها اثئارا لقائدهم وزعيمهم ، الا أن القواد تلافوا هذه الكارثة قبل وقوعها بضرب النفير العام جمعا لشتاتهم ، وبذل كل ما فى طاقتهم من جهود لصدّهم عن المضى فى تيار الانتقام . ولقد ساروا فى حفلة الجنازة مشيعين تقرأ على وجوههم أمارات الأسى والحزن العميق كما سارت كذلك وفود المشيعين من الطوائف المسيحية والاسلامية .

وكانت الجثة مدرجة فى كفن اسود وضعت عليه شارات الفقيد وشارات شرفه . ونقل التابوت الرصاصى على مركبة تجرها ست افراس مجللة بالسواد ، وسار الموكب وئيدا يحف به السمت والوقار الى معسكر ابراهيم بك الحصين . وكانت تتصل به

أرض فسيحة تظللها أشجار الأثل وقد أضيئت بالشموع وشق بها أخدود . فلما أن وقف بها الموكب الرهيب غيبت الجثة فيه بعد ان غطيت بنثار الازهار والأكاليل وبللت بدموع الباكين وتليت عليها الصلوات والدعوات .

اعتلى المسيو (فورييه) كاتم اسرار المجمع العلمى المصرى آنئذ ربوة يشرف منها على الجنود التى اصطفت امام القبر اصطفافها فى ميدان القتال والقى خطبة تأبين مسهبة أطرى فيها شمائل القائد العظيم إذ قال إنه أصيب فى الصميم من قلبه كما أصيب هنرى الرابع والدوق (دوجيز) . وفيما يلى الشطر الاخير من تلك الخطبة المفعمة بآيات الوطنية والحماس ، قال :

« أيها الجيش الذى قرن اسمه باسماء ايطاليا والرين ومصر! لقد وقف الحظ بك فى موقف شاذ غريب ، فبعد ان لفت اليك انظار العالم طرا جعل البلاد تشرئب اعناقها للأعجاب ببسالتك وجلدك وخلد سيرة انتصاراتك مقرونة بالشكر لك والثناء عليك . لاتنس أيها الجيش أنك وأنت هنا مازلت مرموقا بعين ذلك الرجل العظيم الذى اصطفته فرنسا ليدعم أركان حكومتها ، بعد أن ضعضعتها الكوارث العظمى والحوادث المدلهمة . ان عبقرية ذلك الرجل العظيم لاتحدها البحار الفاصلة بيننا وبين الوطن ، لكن أثرها ماثل فيك وممتزج بدمك . ولقد كان يوليك من الحب أخلصه كما كان يحضك على الشهامة

والثقة برؤسائك الثقة التى لولاها لما كانت الشهامة شيئا مذكورا
بل لما أفادت شيئا . كان يحثك على الاتصاف بالفضائل العسكرية
التى خلف لك منها طائفة كبيرة فكنت ، عند الاستمساك بها ،
أعلى مثل لرجالك اجمعين . انا لنبتهل الى البارىء جل وعلا ان
يتوّج جهود الفرنسيين فى تلك السبيل بأقامة حكومة راقية
نامية ثابتة . فإن بمثلها معشر المقاتلين الابطال تتحلون بشرائف
الرتب التى هى حق المخلصين من ابناء الوطن . ولسوف تتحدثون
بينكم فى شؤون هذا القطر البعيد الذى فتحتموه مرّة تلو أخرى
وفيما وقع للجيوش العديدة التى وردت فيه موارد الفناء ،
سواء أجمع بونابرت شتاتها بجرأته الحكيمة فى وسط بلاد
الشام أم بعثرها كليبر ببسالته المنيعة فى داخل القطر المصرى .
ما اكثر الذكريات المجيدة المؤثرة فى النفس وما اغزر جلائل
الاعمال التى ستثيرون كامنها وتحركون ساكنها ، متى انقلبتم الى
اهليكم وعشتم وسط أسراتكم التى تتمنى لها ، من خير المنى ،
مايلطف فى نفوسكم مرارة الأسف والحزن ، بل لسوف
تمزجون وقتئذ سيرة فعال كليبر العزيز بما ستروونه على مسامع
ذويكم من الأقاصيص العجيبة . وانى لواثق أنكم لن تنطقوا
بهذا الاسم أبدا الا وانتم تحسون قلوبكم خافقة بعواطف الحنان ،
بل لن تسمعوا سيرته الا وألسنتكم لاهجة بأنه لقد كان خير
الصديق للجند والرفيق المخلص لهم بل خير الضنين بدمائهم

الثمينة والحريص على تخفيف آلامهم .

« اما أنت يا كليبر ، انت أيها البطل العظيم الكريم ، وهل لى ان اقول البطل التعس ، أنت أيها المقصود بهذا التأبين الذى نرجو ان لايعقبه تأبين مثله ، أما أنت فنم آمنا مطمئنا قريرا بين ما اقمت من آثار المجد ومعالم الفن ! اسكن هذه الارض الشهيرة منذ القدم ، وليدوّن اسمك مع اسماء (جرمانيكوس) و (تيتوس) و (وبوبنيوس) وغيرهم من كبار القادة والحكماء الذين تركوا فى هذا القطر كما تركت تذكارا باقيا على وجه الدهر »

وبعد هذا التأبين اطلقت المدافع والبنادق ، فكان اطلاقها ختاما لما ودع به الخطيب والجيش الفقيد الراحل . وآلت القيادة العامة الى أقدم قائد فى فرق الجيش ، فكان هذا الحادث للجيش الفرنسى من بوائق الاحداث ونكبات الدهر ، لان الجنرال (منو) الذى آلت القيادة العامة اليه كان ممن لايصلحون لميدان القتال صلوحهم لأدارة دفة الأمور . فقد أنفق فى سبيل الاعمال الادارية كل الهمة التى كان ينبغى له ان يصرفها بلا حساب فى المعسكرات او ميادين القتال . وكان يقضى ليله مثقلا بالهموم فيهب من نومه رازحا تحت اعباء التعب والسأم . وكان يقضى نهاره مفكرا يأنس من نفسه الكفاية لكبح جماح الحزازات التى استثار كوامنها فى نفوس خصومه وأنداده ارتقاؤه الى ذلك المنصب الخطير . ومع هذا فقد كان

اول بلاغ سطرته يده ذلك الأمر الرسمى الذى كان خير ما أوحي اليه فى خلال المدة التى تولى القيادة فيها، وها هو :

« أيها الجند ! لقد اقترفت جناية شنعاء حرمتكم قائدا كنتم تحترمونه وتجلونه . وإنى لأطرح مسئولية هذه الجناية أمامكم وأمام العالم أجمع على عاتق قائد ذلك الجيش الهمجيّ الذى أفنيتموه فى سهل المطرية . فهو الذى بتواطؤه مع أغا الانكشارية وضع السلاح فى يد سليمان الحلبى الذى سلبكم ، بارتكابه أشنع جريمة ، رجلا يجب ان تستقر ذكراه خالدة في نفس كل فرنسي محبّ لوطنه . فيا أيها الجند ، لقد تمكن كليبر فى أقلّ من عشرة أيام من تمزيق شمل اولئك المتوحشين الذين انقضت جموعهم على مصر . تمكن بما سنّ من قوانين صالحة حكيمة من تضييق دائرة السرقات والخيانات التى لامفرّ من وقوعها فى كل ادارة واسعة النطاق . دفع المتأخر للجند وأرصد مرتباتهم فى الحساب الجارى وكان متوفرا بهمته واصالة رأيه على رسم خطة للاصلاح العام . فيا أيها الجند ان اعظم ما تستطيعون ان تكرموا به سيرة هذا البطل الكريم كليبر ، هو الخضوع لهذا النظام الذى عليه تتوقف عزة الجيوش ومناعة جانبها ، بل الذى هو عدّتها وعتادها عند الحاجة . وفى تذكركم دواما انكم جمهوريون صادقون مخلصون وان الواجب عليكم حيث حللتم ان تكونوا خير مثال يحتذى في النظام ومتانة الاخلاق ، كما أنتم كذلك فى الجرأة

والثبات عند النضال . فعليكم اذن بطاعة رؤسائكم من جميع الرتب والدرجات . ولتعلموا انه يجب علينا ، اذا كنا جمهوريين صالحين ، التحلي بفضائل الجمهورية ومزاياها . أيها الجند ، إن الاقدمية فى الرتبة زجت بى مؤقتا الى مركز القيادة العامة . وليس لديّ ما أقدمه اليكم سوى التحمس للجمهورية والارتباط بها ارتباطا لا انفصام لعروته الوثقى . انى سأستمد بعبقرية بونابرت وبطولة كليبر ، واذاسرت في طليعتكم فما هو الا لنعمل يدا واحدة على مافيه مصلحة الجمهورية وخيرها » .

الامضاء : عبد الله جاك منو

ومن الحقائق الثابتة انه ليخلف قائد ما الجنرال بونابرت يجب ان يكون بطلا مغوارا ، وليخلف كليبر يجب ان يكون رجلا هماما ومديرا حازما ، لكن على الرغم من ان صاحب المنشور الذى اوردنا فيما تقدم نصه قد وعد بان يقتفى ، فى الطريق الذى سلكه الأول ، الأثر الذى تركه الثانى فقد حاد حيدا كبيرا عن الخطة التى انتهجها كلاهما . ولهذا لم يلبث ان كذب نفسه بنفسه بما لزمه من قلة الاحتياط والتريث فى انتقاد الاجراءات العسكرية التى قام بها بطل عين شمس ، بل فيما وثب اليه منه الى التحامل على اصدقاء ذلك القائد العظيم حينما استعاض منهم فى المراكز التى تقتضى الثقة والامانة اولئك الذين التفوا به من الثرثارين والمتملقين . فكان من نتائج هذه الخطة العوجاء ان

أمسك الرجال النافعون عن معاونته وان تنحى الجنود عن مصادقته ، لاسيما ان ذكرى زعيمهم كانت لاتزال عالقة باذهانهم.

ومن المأثور عن جنودنا الميل الى المطايبة وحب التهكم ، وان اول ما يسخرون منه هو الخطر . والجنرال منو كان ، اذا سار على قدميه ، تبدو عليه أمارات الحيرة والتردد لعجز فيه عن حمل جسمه الضخم وكان ، اذا ركب جواده ، لايتوافر له سبب من أسباب الراحة . فهذا القائد الذى انحصرت مزاياه وفضائله فى بروزه الى جنده فى هذا المظهر المضحك الزري ، لا سيما بعد وفاة أجمل ضابط رأته الجيوش الجمهورية ، هو الذى لطمعه فى استهواء المسلمين اليه واكتسابه حمدهم وثناءهم قد اتخذ له اسما شرقيا واختتن وتزوج بعقد شرعى من فتاة مسلمة لو قيس عمره بعمرها لبدا كأنه أحد جدودها الأعلين . وهو الذى مع كل هذا ، منع المصريين من مباشرة عادات كثيرة ألفوها لأنها مستمدة من يقينهم الديني وكان من المرخص لهم مباشرتها على سبيل التسامح من قواد جيوشنا . فلا عجب اذا رأيتهم وقد ضنوا بالاحترام الواجب لمن كان فى منصبه ، بل كثيراً ما كانوا يقولون : « لسنا نريد شيئاً من جهنمكم الحامية اللظى ولا من جنتكم الزمهريرية البرد . وإذا كان مما لامفر منه اختيار قائدكم مديراً لشؤوننا فإنا نفضل الاقامة في جحيم سلطانكم الفقيد على الاقامة في رضوان سلطانكم الحالى » .

وأوجب من هذا للاعتبار أن تناجى الاهلون فيما بينهم بالشائعات التى تداولها الاروبيون وكانت تسمع خلالها ألفاظ الثورة والسقوط والاعتقال فى القلاع ، بل ادعى منه الى الحذر ماتمهد للشعوب الاجنبية من الاستفادة بما دب بين قوادنا من عقارب الشقاق . فلقد تحسست انجلترا مواطن الضعف منا فاقنعت الباب العالى بضرورة النهوض بعمل حربى يكون خاتمة أعماله ضدنا . وكان الاسطول البريطانى قد اجتمع فى كرامانيا باسطول الدولة العلية ، فلاح الاسطولان امام ثغر الاسكندرية فى ٢٨ فبراير سنة ١٨٠١ (٩ فنتوز سنة ٩ للجمهورية) . وكان السر (رالف أبركرومبي) يقود القوات البريه واللورد (كيث) القوات البحرية ، فما كاد زورق الاستطلاع يدنو من الثغر بقدر تسع عقد حتى استولى الفرنسيون عليه واعتقلوا ركابه وهم ثلاثة ضباط من قسم الهندسة واضطرت السفن السبعون التي كانت تمخر عباب البحر خلفه الى الانحراف عن خطة سيرها قاصدة أعالى البحر ، لرداءة الجو وارتفاع الامواج وتعذر الاتجاه نحو الساحل . وبعد أسبوع قضته تجوالا فى البحر تمكنت من القاء مراسيها فى موردة (ابو قير) . وكانت ريح الشمال الاعتدالية لاتزال فى هبوبها ، فلما كان الثامن من مارس الموافق ١٧ فنتوز هبت هذه الريح من الشمال الغربى وهدأ البحر وقلت أمواجه ، فتمكنت تلك السفن من انزال جنودها الى البر ، اذ تحركت

الزوارق الحاملة لهم وعددها ٣٢ زورقا فى صف واحد منقسمة الى خمسة اقسام ،واتجهت نحو البر تحت قيادة الربان (كوكران)، وفى مقدمة كل منها مدفعية . وكان عدد ما تحمله من الجنود ٦٠٠٠ رجل تحت إمرة كل من الميجر جنرال (مور) والميجر جنرال (لورلو) . وقد أطلقت المدافع المنصوبة على الساحل مقذوفاتها على بحرية الزوارق فسقط بعضهم تلو بعض فوق الجنود التى كانت منبطحة بداخل الزوارق اتقاء القذائف ، إلا أنه كان كلما صرع واحد منهم خلفه غيره على الفور . وبذل المجدفون قصارى ما عندهم من الجهد فى التجديف حتى بلغت الزوارق الى الشطوط ووقفت عندها . وعندئذ نهض الجنود من قيعان الزوارق ووثبوا سراعا الى الارض . وكان الجنرال فريان قد وافى بالنجدة بناء على إشارة المراكز الامامية وأمر بالعمل رجاله الذين لايتجاوز عددهم ألفا وخمسمائة ، بعد أن فرقهم على الرؤوس البارزة فى الموردة . وقضى ثلاث ساعات فى معركة عنيفة لم يسعه بعدها ، تجاه كثرة العدو ووفرة معداته ، إلا الانسحاب . وهو اذا خسر فى هذه الواقعة اربعمائة نفس من رجاله فالخسارة التى ألحقها بالانكليز لم تقل عن ١١٠٠ بين قتيل وجريح . واذا كان العدو قد استولى على الموقع ورفع عليه اعلامه فإن مسئولية هذا الخذلان إنما تقع على عاتق القائد العام عبد الله جاك منو .

ابراهيم يزحف راجلا فى طليعة جيشه

ذلك أنه وصلت الى هذا القائد من مراد بك عشرون رسالة على يد عثمان بك البرديسي تنبئه بتلك التجهيزات العدائية وتدعوه الى الحذر وأخذ الحيطة، فأبى ان يقتنع بأمكان حدوث أمر ما يكون الغرض منه انزال ذلك الجيش الا فى اليوم الذى بدت فيه الدونتمة الانكليزية العثمانية للانظار واعلن خبر وصولها رسميا. وكان الى ذلك الوقت يهزأ بالناصحين أن يهب للعمل معتبراً نصائحهم واستفزازهم تروّعا لامسوغ له. فلما حم القضاء ولم يبق ريب فى وصول العدو وتهيؤه للقتال كنت تراه يجرى فى طلب الوسائل الحقيرة ويلتمس التدابير التى لافائدة من ورائها. فمن ذلك احجامه عن السير فى مقدمة جيشه الى المكان الذى نزل العدو فيه واقتصاره على انفاذ فرقة الجنرال (لانيس) الى ما يلى الرحمانية، فلم يطابق وصولها الوقت المناسب لتلافى واقعة ابى قير واتقاء نتائجها الفاضحة.

انضم الى جيش الجنرال فريان بالقرب من (نيكوبوليس) فاضطر الى النزول فى معركة كان من سوء حظ الجيش الفرنسى فيها ما كان فى الواقعة السابقة. ولقد تساءل الناس أين يقف العدو، بعد أن نزل الى البر. وساد بينهم الخوف وساورهم القلق على وجه اضطر القائد العام الى ان يستيقظ من نومه ويفتح عينيه ويخرج من دائرة حرمه ليقرر الجلاء عن القاهرة. ومعلوم ان الجنرال بونابرت لما برح القاهرة لقتال مصطفى باشا لم يترك فيها

سوى مائتى جندى . وكان فى هذا العدد كفاية لحفظ السلم والأمن ، وكانت هذه امارة من امارات سياسته الحكيمة اراد بها ان يشعر الاهلون بمناعة جانبه وعزة قدرته ، حتى فى الآونة التى يدهمه العدو فيها . اما الجنرال منو فقد حرم نفسه ، وهو يغادر القاهرة ، معونة اربعة الآف جندى تركها فيها من بعده ، فكانت نتيجة هذا التصرف الخاسر عجزه ، بمن معه من جيش صغير ضعيف ، عن مهاجمة العدو وصد عدوانه . ومن ثم اقتصر على مناوشته مناوشة لم تؤد فى النهاية الى نتيجة يحسن الوقوف عليها . ومما لاريب فيه أنه لو أراد ان يضرب الضربة القاضية حتى لايدع العثمانيين الذين كانت جنودهم تصل تباعا من ناحية الشام يندسون بينه وبين الانجليز لتعزيز هؤلاء لأيقن ملازمة الفشل له ، لا لسبب الا قلة الجنود معه .

ولقد حاول عبثاً فى صبيحة ٢١ مارس الموافق ٣٠ فنتوز أن يقذف من آكام (كانوب) الرملية الى الجهة اليمنى من البحر والمعسكر الرومانى القديم ثمانية آلاف وثلاثمائة جندى فرنسي ضد الاستحكامات التى تحصن فيها ستة عشر ألفاً ومائتا انجليزى تحميهم مدفعية هائلة ، وعبثاً أنفذ فرسانه جميعاً لتعزيز نصف الفرقة الحادية والعشرين التى أبدت من آيات البطولة ماهو جدير بان يسجل مقرونا بالفخر فى صفحات التاريخ ، وعبثاً أراد الجنرال الذى ألقى اليه زمام قيادة بعض الجند ، فى وقت غير ملائم ،

استفزاز حماس جيشه بقوله لهم : « أيها الاصدقاء ، إننا مبعوثون إما الى المجد وإما الى الموت فلنتقدم » ، وعبثاً اخترقت خيالته المؤلفة من ألف ومائتى فارس الاستحكامات البريطانية واجتازت الخنادق وتغلبت على الخطين الاول والثانى ، فإن القائد العام ، بدلا من أن يقوم على تدبير حركة حربية بواسطة مشاة جيشه ، أخذ يروح ويغدو فى ميدان القتال ، فكان من نتائج هذه الحركات أن انسدت الثلمة التى فتحها أولئك الجنود عليهم ، فرأوا المجد فى الموت كما قال لهم فى كلمته الحماسية . ومع أن الفوز في هذا النهار لم يكن من نصيبنا فإن العدو لم يجرؤ على التقدم خطوة الى الامام . وحدث ان ترجل أحد ضباط فرساننا عن جواده فاندفع فى صيوان القائد (أبر كرومبي) وأثخنه بجراح لم يعش بعدها أكثر من ثلاثة أيام . ولقد قال هذا القائد وهو يلفظ النفس الأخير إنه يموت منشرح الصدر لتمكنه من صدّ أول جيش فى العالم .

وأصيب الجنرال (رانبون) من قواد أركان حربنا بأكثر من عشرين رصاصة ثقبت ثيابه فجعلتها كالغلالة . وأصيب الجنرال (دينان) بجراح بالغة ونزعت قنبلةٌ ساق الجنرال (سيللى) وأصيب الجنرال (بودو) بجرح مميت وطويت حياة الجنرالين (لانيس) و (رواز) طي السجل للكتاب .

احتجب منو فى الاسكندرية احتجاب المخذول المستخذي

المسربل بالعار وفرق قوات جيشه فى الوقت الذى كان التئامها ألزم مايكون. وجاء انتشار الطاعون فى القطر، على أثر ذلك، ضغثا على إبالة، إذ مات به فى بنى سويف حليفنا الشهم الهمام مراد بك الذى لم يكن اخلاصنا فى التأسى عليه أقل من اخلاص مماليكه الذين كسروا سلاحه على قبره، لاعتقادهم أن ليس فيهم من هو أهل لحمله . وخلفه بعد موته عثمان بك الطنبورجى، لكن هل كان لفرنسا ان تعتمد عليه اعتمادها على سلفه ؟

خلصت رشيد للانجليز، كما خلصت لهم الجهات الواقعة عند مصب النهر فاستولوا فى زحفهم على بلدة « فوه » ثم صعدوا منها الى الرحمانية وظلوا فى زحفهم حتى عسكروا ببلدة (الجيزة). ونزل الجنرال « بيرد » الى برّ « القصير » على رأس ستة آلاف من السيبباى الهنود ونزل النيل مع مماليك مراد بك . أما الصدر الاعظم الذى كانت طليعته تتألف من مماليك ابراهيم بك فقد قدم من الشام فى ثلاثين ألف مقاتل، اشتط عشرة آلاف فارس منهم الضفة اليمنى متقدمين فى طريق بلبيس، وحوصرت القاهرة من كل جانب، وكان الجنرال « بليار » قائدا لها، ولم تكن عنده مؤن ولا ذخيرة للمدافع ولا مال الا ماقتصده زملاؤه من تلقاء أنفسهم . ولم يكن عنده من الجند سوى سبعة آلاف كان يدخل مائة منهم المحجر الصحى يوميا لتفشى الطاعون . وكان يرى أمامه اكثر من ستين الف مقاتل يزحفون لقتاله

ويشهد خلفه قوماً يربو عددهم على الثلاثمائة الف نفس، أوردهم الوباء موارد التلف والجوع، فغضبوا وثارت علينا ثائرتهم حينما رأوا شمس سلطتنا مؤذنة بالأفول وهمّ القائد عبثا بمعالجة هذه الحالة لأن دمياط والبرلس والأقليم كله أفلت من يدنا ووقع فى قبضة العدو.

عندئذ صاح القائد الهمام برجاله : « أيها الجند، إن الأجيال الخالفة ستعطيكم قسطكم من العدل وتنصفكم أيما انصاف، لكن الواجب عليكم الآن ان تموتوا فى مراكزكم، وانكم لمدينون بالطاعة لهذا الامر، ويلزمكم به الشرف وتجعله عهدا فى عنقكم ارواح الذين صرفوا انظارهم نحو الوطن وكان الوطن آخر مافكروا فيه قبل موتهم ».

ان حياة أولئك الأبطال وان بيعت بأغلى ثمن فقد كان مما يحزن الأفئدة تضحيتها فى سبيل المستحيل. لهذا السبب عقد مجلس حربى للنظر فى الأمر واتخاذ مايوافق تجاهه من الوسائل. ومن الغريب أنه مع وضوح الحالة وبروز أخطارها للأنظار قد وقف أعضاء هذا المجلس موقف التردد تجاه الطريق الوحيد الذى كانت تقضى البداهة المؤلمة بالسير فيه. فقد كان الفرنسيون يحاولون الدفاع عن مصر فى جهات متنائية، مجازفين بأنفسهم فى ذلك ومورديها موارد الموت. وكانت البداهة تؤيد جانب المذهب القائل بضرورة حقن

الدماء رفقاً بالانسانية ، إلا أن نعرة الوطنية وعزة البطولة قد ثار ثائرهما فى نفوسهم ، حينما سمعوا أن من القيود والشروط المعروضة عليهم التسليم صاغرين . فأنه لم يسع (دوبا) قائد احدى الفرق ، اذ علم بذلك ، إلا أن صاح فى جنوده قائلا: « أجنود بونابرت وكليبر ! اذا أردتم ان تعملوا بقولى فتخلوا عن استحكاماتكم لمقابلة العدو وجها لوجه فى استحكاماته ، فإن المجد ينتظرنا فيها » ووافق المجلس ، ازاء ماشهده من توقد حماسة الجنود وتلهب غيرتهم ، على قرار فى هذا المعنى . غير ان بعض ذوى الحجى من اعضائه لم يلبثوا أن تمكنوا من تغليب العقل والمصلحة العامة القاضية بصيانة الارواح على تلك الحركة الحماسية المنبعثة من شعور كريم وفطرة طاهرة ، فاستطاعوا أن يثبتوا ببداهة الحساب ما هنالك من الخطأ ، اذا ترك حبل ذلك الحماس على غاربه ، وتقرر فى نهاية الأمر أن دم الجنود الجمهورية لا يصح أن يسفك بعد الآن ، مادام أن الغرض من سفكه لم يكن اكتساب المجد والشرف فى سبيل الوطن .

وصل رسول من جانب الفرنسيين لمقابلة القائد العام للجنود الانجليزية ، وكان هذا معسكراً بالجيزة فى عشرة آلاف من جنوده ، فسرعان ما وافق على الاقتراحات التى كان يحملها الرسول اليه . ولعله كان ، حتى تلك الساعة ، يخشى أن يقلب له الدهر ظهر المجن . وتم الاتفاق على تعيين مفوضين من الجانبين

انتهي الأمر بهم بعد المفاوضات الى التوقيع ، فى السابع والعشرين من يونيو سنة ١٨٠١ الموافق ٨ مسيدور من السنة التاسعة للجمهورية ، على شروط صالحة للفرنسيين ، لأنها جاءت فاسخة لمعاهدة العريش . فالشرط الثانى عشر يجيز لكل مصرى راغب في البقاء على ولاء الفرنسيين مرافقتهم والرحيل معهم عن هذا القطر . وهى تشير بوجه عام الى ما كنا أهلا له من الاحترام ، بما أبديناه من الصدق والاستقامة فى تصرفاتنا . ومما يدل على ذلك دلالة صريحة أن ثمانية آلاف نفر من المصريين والشرقيين المواطنين لهم آثروا الرحيل في السفن من موردة أبي قير يوم رحيلنا النهائى من القطر المصرى الموافق ٩ اغسطس سنة ١٨٠١ و ٢١ ترميدور من السنة التاسعة للجمهورية . والذين لم يهاجروا وطنهم المصري ليعيشوا بفرنسا ويتخذوها وطنا ثانيا لهم فقد تزاحموا على الشواطىء ، وعلامات الحزن بادية على وجوههم ، وتسابقوا الى توديعنا . ولقد كانوا يقولون فى صيحاتهم لنا : « إنا على ثقة من أنكم اذا اضطررتم لمفارقتنا الآن على أثر ما وقع فيه قائدكم من الأغلاط فأنكم لا بد عائدون يوما الينا » .

وبدهىّ ان عساكرنا كانوا لا يستطيعون الابتعاد عن مصر مع تركهم فيها جثة قائدهم الاعظم كليبر . لذا كان أول ما فكروا فيه قبل رحيلهم أن فتحوا قبره واستردوا تلك البقية الكريمة . وقد حيت المدفعية الفرنسية الجثة فى أثناء نقلها من القبر الى

الساحل ، وبلغ الأنجليز والاتراك الخبر فاشتركوا فى التحية بأطلاق مدافعهم أيضاً .

وكان منو لايزال مقيما بالأسكندرية التى تحميها البحيرات والبحر ، فلما بلغ اليه نبأ الاتفاق الذى عقد بالقاهرة ثارت ثائرة غضبه وأقسم ألا يوقعه . على أنه حنث فى يمينه وأمضاه فعلا بعد إبرامه بيسير من الزمن . وكان هو أيضاً تنقصه الوسائل المادية ، فضلا عن استيلاء اليأس عليه لانتشار الأمراض الوبائية . وكان يشعر كل يوم بتضييق الخناق عليه فاضطر ، بعد حصار دام اربعة أشهر ونصف ، أن يعمل نفس العمل الذى جهر بانتقاده وتفنيده . نعم ، قد كان فى نيته أن يجدد فى الاسكندرية سيرة مقاومة الجنرال (ماسينا) فى جنوى ، وكثيراً ما كان يكتب فى هذا الصدد الى الجنرال بونابرت بفرنسا ، لكن من أين كان له أن يحقق هذه الأمنية وهو الذى اتخذ نحو قواد جيشه خطة صارمة بأنفاذه القائدين (دماس) و(رينييه) الى فرنسا ومقابلته الجنرال (رامبون) مقابلة جافة عنيفة ، لا لشىء إلا أنه نقل اليه نبأ المفاوضة فى الصلح الذى قرر الضباط فى مجلس عقدوه ان يلجأوا اليه . ولقد نقل اليه القائد (دارمانياك) عين النبأ فجبهه منو بقوله : « وأنت أيضا الذى أعطيته شهادة الترقى الى رتبة القيادة » . فأجابه دارمانياك على الفور : « لك أن تستردها ياسيدى بل انى لرادّ اليك براءتها اذا كان فى بقائها

معي ما يلزمني بالوقوف بمعزل عن شرف عساكري ومصلحتهم »

ولم يكن الوقت ملائماً للمضيّ في خطة الخشونة والصلابة في المعاملة مع المرءوسين ولا مع الرؤساء الذين تربعوا بيراعتهم في دست الرآسة . وبعد ان جهر الجنرال منو أكثر من عشرين مرة بأنه يؤثر الموت تحت اطلال الموقع الذى يدافع عنه على تسليمه للأعداء كان أول من رضي باقتراح عقد هدنة تجرى في أثنائها مفاوضات الصلح . وفي الثاني من سبتمبر سنة ١٨٠١ الموافق ١٥ فروكتيدور من السنة التاسعة للجمهورية كان هو الذى فاوض الجنرال (هتكنسن) في الجلاء ، وكان هتكنسن كلما تكلم بعد ذلك في الموضوع قال : « لو كنت في مكان بونابرت لأعدمت هذا الرجل رميا بالرصاص ، لأنه بحمقه وغروره أخرج مصر من قبضة فرنسا » .

في آخر سبتمبر السالف الذكر استقلت جيوشنا السفن التى أعدت لها بأسلحتها ومهماتها وأديت اليها التعظيمات العسكرية . وكان الجنرال منو ، على ما ذكره بعض كتاب الوقت ، آخر من صعد في السفينة ، لأنه كان يحسّ بالفارق بينه وبين جنوده بسبب ما توخاه من خطة عوجاء وما ترتب على هذا الشعور من الخزى وكسوف البال ، وبخاصة كلما دعت الحاجة ان يتقدم أولئك الابطال الذين لولاه لما تلقوا جوازات سفرهم الى فرنسا من يد غير يد النصر والفوز المبين .

ماقتي. أولئك الابطال ، وقد ركبوا السفن ، يرمقون بانظارهم الارض التى روَوْها بعرق جبينهم ودم قلوبهم. ذلك لأننا نحب الاماكن التي رأت ماتكبدنا من آلام وعانينا من صعاب ، غير أن طريقا للعزاء والسلوان انفرج عن الطريق الموصل الى وطننا ، فإنه اذا كان من عظائم الامور فتح البلدان واستعباد الشعوب فإن فى حثّ السير فى الطريق المؤدى الى مسقط الرأس مايريح النفس ويرضى الضمير .

مررنا مرّ الطيف ، فيما تقدم ، بحوادث هذه الحملة التى استرعت انظار الامم فى آسيا وأوربا . فانذكر الآن ان اثنين من أساطين الأدب والشعر دوّنا هذه الحوادث فى قصيدة شعرية رائقة . شبها فيها القائد بونابرت برجل أحاطت برأسه هالة الفخر وصوّرا الجيش بجده التالد ومصر بذكرياتها ومعابدها العتيقة وسرابها الزائل وخصبها الموفور وقحولتها العجيبة . ومارددّ مؤرخ ممن تبسطوا فى هذا الموضوع فى الجهر بأن العالم بأسره لم يشهد منظراً أعجب من منظر الحملة الفرنسية فى مصر ، ولا شعباً قام من المعجزات بمثل ماقام به الشعب الفرنسى ، ولا سيفاً نقش فى جبهة الأهرام هـذه الكلمات التى لاتمحي : « لاشىء يستحيل على الفرنسيين » امضى من سيفهم . وربّ معترض يقول إن الأعلام الفرنسية انزلت من فوق المساجد والجواب : « نعم أنزلت ، لكنها بقيت خفاقة بين صحراء آمون وقمم جبل تابور ، وبين رأس البرلس

وبلاد النوبة أى فيما يلى الشلالات وجزيرة بيلاق (فيلة أو أنس الوجود) التى حلق في جوها زمنا ما نسر الأمبراطرة الرومانيين .

لما وصل مراد بك من الصعيد الأعلى ليتصل بالقوات العثمانية فى معسكر أبى قير ، كانت فصائل الجيش الجمهورى تتراجع على الأعقاب للاحتشاد . ؟ وخيل لمعظم قواد العثمانيين ان هذه الحركة مظهر من مظاهر الخوف والاستخذاء ، فلما أبصر بحليفه الجركسى مقبلا من بعيد صاح قائلا له : « اولئك الفرنسيون الذين لم تصمد لهم قد كان كافيا أن ابرز اليهم بنفسى لألزمهم ملازمة الفرار » . فلما سمع مراد بك هذا الكلام غضب وصاح : « ايها الباشا إنه لجدير بك أن تحمد الله وتشكره وتصلى على نبيه لانسحاب الفرنسيين من عندك اذ لو عادوا لتبددت قواك كما يتبدد التراب ولاستخفيت عن انظارهم » .

وذهب بعض قصار النظر فى مغبات الامور الى أن فتح وادى النيل حلم فتان وأمنية مبرقشة ببديع الألوان . فقد زعم المؤرخ (تيير) فى كتابه على (القنصلية والدولة) : « لم يتخيل نابليون ، فيما تخيل ، مشروعا أجل ولا أنفع من ذلك المشروع » . وفى الحق ، ان الغرض الذى رمى اليه بفتح مصر كان أدنى الى الكسر من شرة الانجليز والحط من صلفهم منه الى الرغبة فى معاقبة المماليك لاضطهادهم تجارتنا . فقد كان الانجليز فى معاركهم الحربية الأخيرة قد استولوا على شبه جزيرة القنج

(بالهند) . فكان لا مناص لنا من الاستيلاء على مصر للموازنة بين كفة الفتوحات الانجليزيه وكفة الفتوحات الفرنسية وكيلا يكون لأحداهما الرجحان على الاخرى . وإذا هم وضعوا فى سفنهم بلاد القديس دومنج وجزر الانتيل وثغر كلكته ، فقد وضعنا فى الكفة الثانية أجمل مستعمرة فى العالم . وهى منها نعم البديل وخير العوض ، بأقليمها الملائم للصحة البعيد عن وخامات الحميات وأرضها التى يضرب بها المثل فى الخصب وأهلها المطواعين للحكام الدافعين للجزية صاغرين ومواصلاتها السهلة مع قارات الأرض . واذا نحن أضفنا الى ثغور ايطاليا وكورفو ومالطه ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط فبمَ يوصف البحر المتوسط إلا بأنه بحيرة فرنسية ؟

وماذا كان من الممكن بعد هذا ان يحدث سوى تبدل قوانين الملاحة فى البحار وخروج صولجان السيادة على العالم من قبضة انجلترا واعتراف الملأ باستقلال البحار ، وأنها لم تعد ملكا لدولة بالذات ؟ ذاك هو ما أرست فرنسا قواعده على الآساس المتينة لصالح العالم أجمع . أما ما قامت به لمصر فيتلخص فيما يأتى :

إزالة ظلم المماليك والحط من صلفهم وكبريائهم وعتوهم وتحسين أحوال السكان بترقية معيشتهم وإيقافهم على حقوقهم التى نسوها منذ زمن بعيد وتنوير أذهانهم بما يدعوهم الى التفكر فى تأليف جامعتهم الوطنية وتطبيق مصادر الاقتصاد

السياسى تطبيقا نافعا على الشؤون والمصالح العامة وانشاء ستين ديوانا كانت أشبه بالمجالس البلدية فى بنادر القطر وأمهات مدائنه. ولقد كان ينذب عن كل ديوان واحد من اعضائه فى الديوان المركزى العام الذى كانت القاهرة مقراً له. وكان اشبه بجمعية نيابية يشترك فى مفاوضاتها ومداولاتها مرخص فرنسى له حق الدفاع عن مصالح الجيش ومطالبه والمشاركة فى سن قوانين الملكية التى لم تكن معروفة فى البلاد من قبل واحترام الظافرين لكل ماله اتصال بالقوانين الدينية والشرائع السماوية والعادات المحلية. وما من ينبوع للسعادة والرفاهية نضب معينه بالجهل والاهمال حتى فاضت خيراته وعاد الى سابق مجراه. وما من ميدان أو شارع الا أقيمت فيه الاسبلة لسقاية الحيوانات وبنى الانسان وشقت الترع التى يرجع الفضل اليها فى تعميم الرى بماء النيل، مصدر كل خير وبركة، وانشئت الجسور لصد طغيان الماء، واقتفى أثر اللصوص من العربان وأدبوا بمعرفة جيوشنا تأديبا رادعا فانقطعوا عن السطو والتعدى بالسلب والنهب والتدمير، وأقيمت المعاقل والحصون على شواطىء البحرين المتوسط والاحمر فى الجهات البعيدة والصحارى النائية، وأحيطت القاهرة وثغور الاسكندرية ودمياط ورشيد وبندرا قنا واسوان بسياج من القلاع المبنية بحجر الصوان، وجعل النظام والاعتدال رائدين للجباة فى جباية الأموال، وفرضت العقوبات القاسية على أرباب

المغارم ، وعززت المعاملات التجارية بالكفالات العادلة القوية ، وشيدت المصانع لعمل البارود والمسابك لصهر الحديد وصبه والمعامل للصناعات المختلفة ، وثابت الهمم من خمولها وانشئت طواحين الهواء لأول مرة في حياة مصر الاقتصادية ، ونسقت حدائق البكوات على أجمل الأنماط ، وفتحت الغرف لتعليم الرقص والبايارد ومطالعة الكتب ، وأنشئت المطاعم والقهوات والمحال العامة للعزف بالموسيقي ، ومزق كبد الفضاء بالأسهم النارية ، ونظمت شواطيء النيل بحيث أصبحت بجمالها تذكر الرائى بشواطيء نهر السين .

وصفوة القول أن الحضارة بما دخل عليها من تحسين واتقان ، أنارت بمصباحها الساطع البلاد التى انبعث منها أول شعاع من ضوئها الوهاج وأن ماقامت به مصر من بث مدنيتها فى (أثيكا) قامت فرنسا بمثله نحو مصر . كتب أحد المعاصرين فى هذا الموضوع : « عادت الفنون الى الظهور فى وطنها الأصلى ومنبتها القديم وأخذ امراء العلم والفهم الأوربيون مقاعدهم من مدرسة البطالسة » .

وكانت تلك الحملة كقافلة حجاج يؤمون مكانا مقدسا أو كآخر حرب صليبية انصرفت الى مصر تحمل باحدى يديها عدد القتال وتصافح بالاخرى يد العلم والعرفان . فقد أنزل بونابرت فى سفائنه بثغر تولون رجالا دربتهم الحرب وسلحتهم

بسلاحها مثل : كليبر وديزه وموراً ولان وبرتييه وجونو ودافو وفردييه ولوكلير ودومرتان وفوبوا ورنييه الخ الخ ورجالا آخرين تشمل جباههم العقل والحجي مثل : جومار ودوليل وبارسفال وجرنميزون وفورييه ومونج ودنون وبرتولليه وردوتيه واندريوسي وديجنت ولارّى ودوبوا الخ . وما استولى على قصور المماليك بالقاهرة على أثر فرارهم منها حتى أسكنها رفاقه من الفريقين ، ثم انشأ جمعية للتنقيب عن الآثار القديمة والبحث فى أسباب التقدمات النافعة ، ونشر أنوار العلم فى كل مكان ، وجعل نفسه وكيلا لتلك الطائفة بعد أن عين مونج رئيسا لها وفردييه سكرتيراً أبديا ، ثم رأى ان الشرف كل الشرف له فى تقلد عضوية تلك الجمعية التى لم تلبث أن سميت بالمجمع العلمي المصرى . ولم تكن مكانته كعضو فيه أقل منها لو عين عضواً في المجمع العلمى الفرنسى . ولم يكن اشتغاله بمسائل الحرب على ما فيها من المباغتات مانعة له عن الدرس والبحث . وكثيراً ما كان يعرض على زملائه المسائل والمعضلات العلمية التى تتطلب الحل ليتناولوها بالبحث فيبت فيها على الفور ، بتحكيم الروية والعقل لا بتحكيم النار والسيف . وكانت المناقشات فى الجلسات ترمى الى أسنى المقاصد ولا أثر فيها لحب المراء المألوف فى بعض مجامع العلم . وكان (پرسفال جرنميزون) يقرأ بالشعر الفرنسى قطعا من الشاعرين اللاطينيين (كاموانس) و (لوتاس) كما كان (مارسل)

يترجم الى الفرنسية حكم لقمان الحكيم ، لافونتين العرب ، الذى بيع للعبرانيين فى عهد سليمان وجعل على حراسة الغنم ووهبه الله العقل والحكمه فترك للجنس البشرى ، غير حكاياته الحكيمة الرشيقة ، نحو عشرة الآف حكمة بالغة سرت بين الناس مسرى الامثال . على ان القسم اللغوى الأدبى من اعمال المجمع المصرى كان يتبع فى الأهمية القسم العلمى لاتصال هذا الأخير بالشؤون المحلية ، فقد قرأنا فى أحد محاضر جلسات المجمع لهذا القسم ما يأتى :

« ماهي أحوال النظام القضائى والتعليم بالقطر المصرى ؟

« هل يحتوى هذا القطر الوسائل الكافية لصناعة البارود ؟

« ماهى الوسائل لجر الماء الغزير الى القاهرة والقلعة ؟

« ماهي الطرق التى يمكن اتباعها لحفر الآبار فى الصحراء ؟

وكان كلما عنّ له حل احدى هذه المعضلات ألف لجنة من الاختصاصيين الخبيرين وعهد اليها التفرغ لها والتوفر على حلها وقد جمعت أعمال هذه اللجان فى كتاب ضخم هو والحق يقال من أجل وأجمل الآثار الفكرية فى العالم .

وأنشئت مسارح للتمثيل مثلت عليها روايات باريسية الأصل ، وأسست صحيفتان كانتا تنشران فيما تنشرانه أعمال الجند وأخبار الحرب . ولو بقى الى الآن حكم الفرنسيين على مصر لما اقتصر على نشر هاتين الجريدتين اللتين كانت احداهما

تسمي الديكاد أجبسيين والاخرى لو كوربيه ديجيبت بل لبلغ عدد الصحف الى الألفين .

ومفهوم أن الجزاء على قدر العمل وأن النتيجة بمقدماتها ، فليس التماس الراحة والنعيم فى الحمامات المرمرية أو الجلوس فى غرف الفسيفساء والغضائر القاشانى على الأرائك الحريرية ، مما يمهد للفلكي رصد السماء فى أفق غير أفقه ولا للمهندس مساحة أرض لم تطأها قدمه أو يمكن الجغرافى من وصف ثغر أو ساحل أو بحيرة أو مقاطعة ولا الطبيعي من درس خواص الاقاليم والمناخات ولا الباحث فى المخلوقات من ترتيب المعادن والأزهار الاجنبية ولا المنقب عن الآثار من النظر فى الاطلال القديمة ولا المهندس المعمارى من تنسيق الأبنية وتنجيدها ولا الرسام من تصوير المرائى المختلفة . فلا عجب بعد هذا اذا رأيت الشجعان والمخلصين من أولئك الابطال ، روّاد العلوم والفنون ، يلقون بأيديهم الى التهلكة ويكابدون صنوف الآلام فى الصحارى والقفار . لكن لاعجب ، فشغفهم بحب الاعلاق الجميلة النفيسة مغرٍ لهم بالمجازفات والتحول من ميدان جهاد علمى الى ميدان غيره ، حتى انهم كثيرا ماكانوا يرسمون الأراضى أو يمسحونها تحت وابل من رصاص بنادق العدو ويجففون مايدونونه من الملحوظات فى كناشاتهم بالرمال التى كانت تثيرها المقذوفات ويستعير أحدهم ، بين كتابة صحيفة والصحيفة التالية ، سيف جنديّ لصد هاجم أو دفع معتد

أو يزاول عملا شاقاً للتلهى وقضاء الوقت .

وكانوا اذا انثلمت ظباة سيوفهم لشدة ما عملت فى الرقاب ، يعودون الى تناول البركار للرسم أو الى القلم الرصاص للتدوين والتحرير . وبالجملة فقد كان الفتح الدموي الحربى يحمى ذمار الفتح العلمي السلمي ولم يكن الجندى ولا العالم مديناً أحدهما للآخر بشىء من الواجبات . وكيف يكون لأحدهما دين على الآخر ، إذا كان الاثنان يذودان عن نفسيهما بسلاح واحد ويعيشان مع بعضهما تحت خيمة واحدة ؟ ومما يساق مثلا على هذا التضامن ، فى العملين العسكرى والعلمى ، أنه بينما كان الجنرال « ديزه » والعلامة « دنون » يجوبان الأقاليم القبلية ، الأول واضعاً البتار فى أحشاء المماليك ، والآخر مقتفياً أثره على المهل حاملا آلات العلم وأدواته ، كان العدو فى فراره يمر بهذا الشيخ الجليل متأملا منقبا فيقرطس فيه سهمه أو بندقته ، وهو يعدو على جواده ، فلا يصيبه لحسن الحظ ضرر . وكان الفلاحون ينصبون الشباك والكمائن ويدعون القول للرصاص . لا للسان وقوة الاقناع ، لكن الرصاص كان يحيد عنه حيدة الخجل والاحترام . وكثيراً ما كانت الجنود الفرنسية وقائدها الهمام يسمعون طلقات البنادق ويبادرون بنجدة الشيخ (فيرون) ، وهو شبح رجل حكيم ، كان الموت على وشك أن يغتاله وكان ، إذا أقبلوا عليه ، يرسل

اليهم نظرة مطمئنة ويفوه بعبارات المجاملة والشكر ويرجو منهم فى الآن نفسه أن يوافوه بشىء مما يحتاجه فى أداء مهمته ، ألا وهي رسم العجائب التى امتلأت بها أرض مصر بين الاسكندرية والشلالات .

وكان منوطا بالمهندس (لوبير) تعيين الاقسام الطبوغرافية لهذا الثغر وبالمهندس (نويه) تحديدها لمدينة القاهرة وأمهات مدائن الوجهين القبلي والبحرى ، مع درس التقلبات الجوية واستخراج ارتفاع الأهرام وبالمهندس (نورى) قياس أفطار عمود السوارى وآثار أخر غيره وبـ (ديجنت) الاحصاء الطبي وبـ (بروان) تشخيص الرمد الصديدى وعلاجه وبـ (جودفروا) و (سافني) تحرير قائمة باسماء الحيوانات والنباتات وبـ (برتولليه) و (ديكوتلز) بيان خواص بعض النباتات وما تعطيه من مواد الصباغة و بـ (جيرار) تحقيق أحوال الزراعة والتجارة بالوجه القبلي و بـ (لانكريه) و (شابرول)توسيع نطاق ري المزروعات و بـ (رينو) تحليل طمى النيل المخصب للارض و بـ (كوستاز) تحليل رمال الصحراء و بـ (دينون) تفسير نظرية السراب وبـ (ريبولت) التعريف باحوال الواحات التى نفى اليها قياصرةُ رومية الهراطقةَ الخارجين على المذهب المسيحى والتى زارها اسكندر الاكبر اعتقاداً منه أنه أحد المعبودات وهلك فيها جيش قمبيز المؤلف من ٥٠٠٠٠ مقاتل اذ طمرتهم الرمال و بـ (سفاريزى)

استكشاف الآثار البركانية وبالقائد (أندريوسى) تفتيش بحيرة المنزلة والبحث فى حجر ملح القاق والاحجار الطفلية والجبس واليشب والاخشاب المتحجرة والكائنات المتبلورة المنتشرة فى «بحر بلا ماء» والحشرات المنتشرة بشواطىء وادى النطرون.

وكثيراً ما كان يتردد بخاطر بونابرت الميل الى التغلب فى البحار على السيادة الانكليزية فيها فأراد ان يوصل بين البحر المتوسط والمحيط الهندى بحفر برزخ السويس وان يتخذ هذا الطريق البحرى طريقاً عسكرياً الى بنقالة الهند للقضاء فيها على خصوم الجمهورية، فجاء ذات يوم الى هذا البرزخ يحفّ به أعضاء المجمع العلمى لاستكشاف آثار الترعة التى حفرت قديما، للتوصيل بين البحرين. ووضع بنفسه العلامات على ما استكشف من آثارها بالطرف الشمالى من الخليج العربى، فى موقع مدينة (ارسينوة). ثم سار على الجسور البارزة القريبة من الساحل مدة ثلاثة ارباع الساعة وقطع فى سيره نحو خمسة فراسخ فوصل الى الحد الجنوبى الشرقى من بحيرات عامر (المعروفة بالبحيرات المرة). وحوّل دفة بحثه بعد ذلك الى الطرف الآخر فاجتاز وادى طوميلات، بالجهة الشمالية الغربيةوعلى طول عشرة فراسخ، غير انه اضطر فى اثناء ذلك للعودة الى القاهرة كى يزحف منها على الانجليز وعهد اتمام بحثه الى رفاقه وقد لاحظت الجمعية العلمية ان اطول عرض للترعة القديمة كان لايتجاوز خمسة وثلاثين متراً الى أربعين وأن

عمقها كان يختلف من اربعة امتار الى خمسة . والمعروف ان الخلفاء الفاطميين هم الذين حفروها وأن قائد الجيش الفرنسي هو الذى فكر في اعادة حفرها ليتخذها ، كما كان يقول ، قبرا للتجارة الانجليزية .

وبعد أن عبر بونابرت البحر الأحمر فى مخاضة كانت صالحة للعبور وقتئذ أوغل فى البر الى مسافة فرسخ واحد لزيارة عيون موسى ، وهناك بحث طويلا فى هذه العيون الثمان التى كان ينبثق منها ماء حارّ . وأهل البلاد يعتقدون ان هذا المكان هو الذى ضرب فيه ذلك النبي الحجر فانبجست منه تلك العيون بماء حارّ صافٍ . ولما همّ القائد العام بالرجوع من هذا المكان وجد المخاضة قد علا عليها ماء المدّ فانطلق يطلب مخاضة أخرى واضطر لذلك أن يصعد فى اقصى الخليج ، التماسَ مسلك يؤدى الى الجهة التى كان يقصد اليها . الا أن الأدلاء أخطأوا حساب امتداد المدّ فكاد يفضى به ارتفاعه الى خطر مؤكد . وبيان ذلك أن عسكريا فاجأ الجنرال بونابرته بحمله على كتفيه وحاول عبور المخاضة ، فكاد يقذف به الى قاع اليمّ ويلحقه بفرعون موسى .

ولما تسهل له ذات مساء أن يبتعد عن شطوط مصر ، دون أن يدرى به أحد ، لينجد فرنسا بسيفه ، رافقه فى الفرقاطة (مورون) التى أقلته اليها اثنان من ارفع العلماء فى نفسه مكانة واسماهم قدراً ، وهما (برتوليه) و (مونج) . وقد آثرهما على

غيرهما من اقطاب الحملة وفطاحلها ، وهم جميعا كانوا من أرباب النهى والفضل . لأنه فى إبان الحرب وقعت واقعتان إحداهما على النهر والأخرى فى الوقت نفسه على السهل الممتد أمام بلدة بلبيس ، فاظهر برتولليه ومونج ، وهما فى زورق صغير صبّ العدو عليه جام غضبه وسخطه ، من آيات البراعة والثبات فى القتال ما دعا القائد العام الى التفكر فى ان من كان مثلهما ، رسوخَ قدم فى العلم وشدةَ جلد فى القتال ، لأحق من سواه بالاحترام والتكريم ، ومن ثمّ قدمهما على بقية العلماء ، وخصهما برعايته ومودته وإيثاره . ولما أن بعث القائد البريطانى العام انذاره الاخير الى قائد موقع الاسكندرية صاغ نصّ الفقرة الثالثة من الاقتراحات التى اقترحها فى القالب الآتى : « تتعهد لجنة العلوم والفنون بأن لا تنقل معها فى عودتها الى فرنسا شيئاً ما من الآثار العامة ولا الكتب الخطية العربية ولا المصورات الجغرافية ولا الرسوم ولا المذكرات ولا المجموعات وبان تترك كل هذا تحت تصرف القواد البريطانيين » .

ولقد أبدى الجنرال منو قائد الموقع فى هذه المسألة كل ما استطاع من لين وتواكل وتخاذل ، اذ قبلها بلا شرط ولا قيد . أما أعضاء المجمع العلمى الذين آثروا البقاء فى مصر فكانوا أحرص على كرامتهم وأشد غيرة على شرفهم إذ رفضوا هذه الاقتراحات التى كانت ترمى فى الحقيقة الى استئثار الانجليز ، عسفا واستبدادا ،

بما جمعه الفرنسيون منها بفضل ما اقتحموا من أخطار وعانوا من مشاق وركبوا من أهوال . على ان الجنرال منو سألهم فيما بعد باسم أولئك العلماء ان يلغوا ذلك الشرط وألحّ الحاحا شديدا ، فأخفق فى سعيه ، لأنهم كانوا يوقنون أهمية الغنيمة ومبلغ قيمتها ، فثارت عندئذ ثائرة العلماء واشتد بهم الحنق وأنفذوا الى هتكنسن وفداً منهم ليخبره بأنه إذا ظل مصرّا على مطالبتهم بما عندهم من الرسوم والكتب الخطية والمجموعات الأثرية فأنهم لا يحجمون عن اتلافها بالقائها فى البحر وأنهم لسوف يطالعون الرأى العام الأوروبى فيما بعد بالشدة التى عوملوا بها وأنها سبة فاضحة للعالم المتمدين أجمع . فلم يسع البريطانيين إزاء هذا التهديد إلا التنازل عن طلبهم .

وكان الفرس الذين دربتهم الثورات الكبرى فى بلادهم على القتال قد استولوا على مصر ، قبل الميلاد المسيحي بنحو ستمائة عام ، وشادوا بها حكمهم على الأساس الوطيدة . وكان فى طليعة ماقاموا به من الأعمال تدميرهم ما احتوته الخزائن من النفائس أو نهبهم إياها واتلافهم الآثار الهندسية الكبيرة وتعفيتهم على المدن الكبرى حتى أصبحت أطلالا دارسة ليس فيها ديار ولا نافخ نار واستعبادهم الأهلين وأفراد الأسرات الملكية . ففى القرن السابع من الميلاد ، أى بعد تلك الحوادث بألف وثلاثمائة عام ، ظهر مخرّب جديد اقتدى بقمبيز ملك الفرس فى ظلمه

وعسفه وميله الى الافساد والتخريب ، ذلك هو عمر بن الخطاب .
فلقد سأله قائده عمرو بن العاص ماذا يفعل بالمصنفات التى كانت تحويها دار كتب الاسكندرية ، وكانت تعد بمئات الألوف ، فكتب اليه بما معناه : « ان كانت هذه الكتب تحتوى ما فى القرآن فليس لنا حاجة بها وإلا فلا فائدة لنا فيها وفى الحالين يجب إحراقها » ، فأحرقت كوقود لحمامات الاسكندرية مدة ستة أشهر (١)

(١) فى سنة ١٨٤٧ التى طبع فيه هذا المصنف كان الوهم السائد باوربا هو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر عمرو بن العاص باحراق مكتبة الاسكندرية ، لكن العلماء الاوربيين المحققين اثبتوا فساد هذا الزعم وفى مقدمتهم القس جيبون فقد قالوا انه لم تكن بالاسكندرية ابان الفتح الاسلامى لمصر ولا قبله بنحو ٢٥٠ سنة مكتبة ما . والواقع أنه كانت توجد بالاسكندرية ضمن دائرة المتحف (الموزيوم) مكتبة كبيرة دمرت احتراقا قبل الميلاد المسيحى بنحو ٤٧ سنة فنقل ما استنقذ منها الى هيكل السرابيوم حيث عمود السوارى الآن وضمت اليها مكتبة ملك فرغمة فى آسيا الصغرى واتسع نطاقها على توالى الاعوام حتى اذا كانت أواخر القرن الرابع للميلاد (سنة ٣٨٩) دمرها مسيحيو الاسكندرية مع مادمروا من ذلك الهيكل احراقا بالنار . وقد عثرت بلدية الاسكندرية فى اثناء الحفر حول عمود السوارى على ما يثبت الحريق . ولم تنشأ بعد اندثار هذه المكتبه مكتبة أخرى بدليل أن يوسيفوس الرحالة المؤرخ زار الاسكندرية فيما بين القرنين الرابع والسابع من الميلاد ووصف كل آثارها فلم يكن بينها شىء يقال له مكتبة الاسكندرية . ولقد ألممنا بهذا الموضوع فى كتابنا (المنحة الدهرية فى تخطيط مدينة الاسكندرية) من ص ٩٩ الى ص ١٠١ وألقينا

ومن بواعث الاسف أنه ما منيت مصر مرة بغارة اجنبية إلا تحققت نبوءة الكاهن الأعظم مانيتون الأمين على الكتابات المقدسة ، فقد قال : « فى حكم الملك تيماوس انزل الله بنا غضبه واذاقنا بأسه اذ ساق الى بلادنا جيشاً أجنبياً أخذ يفسد فيها ، إذ غصب أملاكنا ونكل بأمرائنا قتلا وسجنا وأحرق عواصمنا ونسف هيا كلنا وعامل بالقسوة والعنف ابناء بلدنا وكبل بالقيود والأغلال نساءنا وأطفالنا » .

أما الفرنسيون فكانوا لايعرفون طرق التسلط والحكم على نحو ما كان يعرفها البرابرة المتوحشون ، إذ تحاموا عن حمل المشاعل والمطارق للاحراق والتدمير والقضاء فى لحظة على ما حفظته الدهور وأعيا حيل الرجال من جلائل الآثار ، بل لم يجردوا بيوت الأمراء والملوك من مفاخرها العتيقة ولم يسيئوا الى المصريين بالقضاء على تماثيلهم وإتلاف هيا كلهم . وانما كانوا فى معاملتهم أرحب صدرا من قياصرة الروم وأوسع حلما واصح ادرا كا . فقد استعانوا بتلك الاطلال على استطلاع خبايا الماضى ومكنونات المستقبل ، وقبل أن يعجبوا بخصوبة الأرض ووفرة المحصول وكثرة الخير جعلوا أول همهم النظر أمامهم فرأوا شعباً كبيراً وفاقوا الاسكندرفى كرمه فوقا عظيما فلم يكفهم أن شادوا ،

فيه محاضرة مستفيضة بنادى موظفى الحكومة نشرتها جريدة المؤيد برمتها فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٩١١ (١٩رجب١٣٢٩)

بين آسيا وإفريقيا مدينة زاهرة بنور العلم والعرفان فوجهوا عنايتهم الى المدائن المشرفة على الفناء فأقاموا أركانها ورفعوا على الأسس الوطيدة جدرانها ووقف جنودنا فجأة أمام مدينة طيبة ذات المائة باب، وقد تملكتهم الدهشة، فحيوا أطلالها بتصفيقهم الحادّ يعربون به عن اعجابهم ودهشهم. وفتحت دندرة (تنتيرس القديمة) واسنا (لاتوبوليس القديمة) وادفو (أبولينوبوليس القديمة) وجزيرة الفنتين وجزيرة بيلاق (فيله) أبواب هيا كلها وقصورها، لا لتمتدّ اليها يد النهب والتخريب بل لتدخلها موا كب الفنون الجميلة يسير فيها العلماء والفضلاء.

وبهت مصرَ قيامُ مجمع علمى فيها داخل سياج المعسكر الحربي وزادها بهتا وحيرة ان ترى بنات الافكار وثمرات العقول تتابع حوادث الانتصار وتسير فى ركابها. وقد ترك هذا المرأى فى نفسها مايعدّ خير مذكر ومبشر بالمستقبل المجيد الذى هيأه لها، بين صليل السيوف ودويّ المدافع فى الوقائع الماضية، اولئك الذين فتحوها بل اولئك الذين احسنوا اليها بفتحهم إياها. وما زال الذين شهدوا هذه الوقائع من الاهالى الوطنيين وحضروا عهدها يروون عن اولئك الغربيين ما ينهض دليلا على انهم يخلصون لهم الود ويرمقونهم بعين الاحترام والتبجيل، حتى بعد رحيلهم عن بلادهم. ومما يذكرونهم به انهم، على قلة عددهم، شتتوا شمل الشعوب المختلفة ومزقوا من الجيوش كل ممزق

مالا يحصيه العد . وما برح المعمرون من العربان الضاربين على حفاف خليج السويس يتحدثون بما لحقهم من الرعب والارتياع فى طفولتهم عند ما دنا من مضاربهم « الرجل لابس الفرو » ، يريدون به نابوليون العظيم ، ويؤكدون انهم لم يوفقوا لاحصاء جنوده ، وانما يقولون عنهم انهم كانوا اكثر من النمل عددا ، واذا جازفوا اعتباطا بتقدير عددهم قالوا إنه كان لايقل عن ألف ألف رجل ، وربما اغراهم الوهم بالقول على وجه الترجيح أوالتوكيد إنه كان يقود طائفة من الجن وإنه عثر على خاتم سليمان فأصبح به قديرا على فهم لغة الطيور وسائر الكائنات السماوية وإنه من أهل الخطوة اذ كان يرى فى اليوم الواحد بالقاهرة ويافا وإنه كان بوثبة واحدة قديرا على قطع الشقق البعيدة والمسافات التى يفوق بعدها ما بين الثريا والثرى . وكان بعضهم يسمى ذلك الداهية صاحب المعجزات بأبى الفروة والآخرون بيونابردى وغيرهم بسلطان النار وغيرهم بالسلطان الكبير .

وحدث لأحد ابناء جلدتنا أن رحل قبل اثنى عشر عاما الى ثغر السويس فأدى المطاف به الى دار رجل من مروّجى تلك الروايات ، وكان يعرف اهلها العربان من عهد مضى وأكل معهم فيه الخبز والملح . وكان يبغى بزيارته ان يقضى عندهم ساعات فى التماس الراحة فروى موكدا انه لم يلحظ فى البيت تغيرا عنه عندما زاره الجنرال بونابرت ، بل ان صاحب البيت الذى اجتمع

نابليون به فيه لمعاهدته على أمر ما ، كان على قيد الحياة وقد سمعه يكرر بصوت يشف عن إيقان واقتناع قوله : « لم يكن بونابرتة عدوّا للمسلمين ، لأنه كان بسن إبرته قادرا على هدم جميع مساجدنا ، لكنه تحامى هذا الفعل بمحض ارادته ، فليبق خالد الذكر بين الأمم . وقد اتصل بي ان اثنى عشر ملكا من ملوك النصارى غلبوه على امره واعتقلوه فى صخرة من صخور البحر الكبير بعد أن أناموه بالبنج ، لكننى علمت أيضا انه لما حانت ساعة وفاته شهد الذين كانوا حوله من رجال الحرب روحه وهى ترفّ على حدّ الحسام . فلينم فى أمان واطمئنان » .

* * *

كانت روابط المحبة والعطف تربط بعض الفرنسيين بوادى النيل ، فآثروا البقاء فيه بعد جلاء الجيش الفرنسى عنه وجعل احدهم مقامه في احدى القرى فبلغ ، بحسن سيرته ومناصرته للحق ، الى مرتبة القضاء . وكان اسناد هذه الخطة اليه تنقصه الشارة الحسية ومصادقة بعض المتفقهين فى الدين ، فلم يشأ ذلك القاضى ان يلجأ الى الحلف بالقرآن او الانجيل ليقنعهم بالموافقة على قبوله فى المنصب الجديد ، بل لجأ الى شارة اتفق الجميع على اجلالها وتعظيمها ، ألا وهى ثيابه العسكرية التى علقها فى غرفة القضاء ، فكانت خير شارة تذكر المتقاضين بحوادث جمة كانت من أظهر الأمارات على العزة والشوكة ، فكان لا يسعهم متى

رأوها الا اجلال صاحبها والرضاء بقضائه .

ولقد عاد الجنرال بليار ، فيما بعد ، الى مصر فى رداء الرحالة المستكشفين فالتقى بالقاضى الفرنسى قائما بمهام منصبه القضائى ، وهو الذى روى قصته على رجل شهم فاضل ، ألا وهو الكولونيل (مرينيه) ياور الجنرال (راب) قديما .

الباب الثانى

الانجليز والاتراك والمماليك

إذا كان الفرنسيون ، فى مدة احتلالهم لمصر ، رفعوا بأيديهم المعاول فهدموا ودمروا وقلبوا ، فقد شادوا باليد الأخرى ونجدوا ونظموا . ولقد تذكر الشعب المصرى ، فى خلال تسلطهم ، مجده القديم وخفق قلبه لجلال هذا المجد وعظمته السامقة فى ذلك العهد القديم وثارت فى نفسه لواعج الذكرى . فلما شهد آخر شراع من اشرعة سفننا الراحلة بالجند الى فرنسا وقد احتجب بستار الافق ، اضطرب صدره ، لا كما يضطرب لابتعاد عدوّ بل كما يخفق القلب لفراق أخ كبير يميزه الحجى والرشد ، وظهرت على وجهه أمارات القلق والوجوم بما خامر فؤاده من الاكتئاب والحيرة فكان أشبه بمن يستشعر قرب حدوث العاصفة فينتفض انتفاضا مبعثه القلق . ذلك ان الليالى فى مصر كانت ، بعد انصراف الفرنسيين منها ، حبلى بالحوادث

وكانت غيومها تتلبد شيئا فشيئا حول النيل ، فتجلى للمتأمل فى هذه وتلك ان الصاعقة الأجنبية لسوف تتلوها عاصفة أهلية هوجاء وان جلبة الحروب لسوف يعقبها زعيق الفتنة والاختلال.

كانت القاهرة عندما بدأ الفرنسيون بالجلاء عن مصر مركزا لقيادة جيش الصدر الأعظم يوسف باشا المؤلف من ثلاثين الف جندى ، فريق منهم أحراس الوزير والآخر رهط الانكشارية وبعض الشيع السورية التى لانظام ولا ضابط لها . وكان ذاك الجيش يحتل أمهات المراكز فى الصعيد والوجه القبلى وكانت الدونتمة العثمانية راسية فى مياه أبى قير وكان من تقلهم من الغاليونجية اى العساكر المدرّبة على النزول الى البر ، وعددهم ستة آلاف انكشارى واربعة آلاف ارنؤدوى ، يرقبون نواحى الدلتا الاقرب مايكون من مرسى ذلك الاسطول .

وكان عدد الجند البريطانى الذى جىء به من أوربا ١٦٠٠٠ عسكرى تحت امرة الجنرال هتكنسن ، وكان قابضا على زمام الاسكندرية ورشيد ودمنهور ، وعدد الجند الذى انفذ من الهند ٦٠٠٠ من السيبياى بقيادة الميجر جنرال (بيرد) وكان يحتل الجيزه تجاه القاهرة .

وكان المماليك يعترفون بزعامة عثمان بك الطنبورجى ، وهو رجل معروف بالعقل والشجاعة والحزم . وقد اشترك ستمائة منهم فى حصار الاسكندرية ولم يتحركوا من هذا الموقع وأحدق

ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، بعضهم عبيد باعهم النخاسون الذين أتوا بهم من سنار وثلاثمائة فرنسى ، بمراكز مصر القديمة وبولاق وبعض قرى الجزء الاعلى من وادى النيل .

تلك هى النقط الجغرافية التى كانت لا تنام عنها عيون الذين وضعوا ايديهم على مصر ، او بعبارة اخرى الذى ظلموها واستبدوا بها . وقد آلت الخواطر بسببهم الى حالة وصفها الكاتب العربى الاديب عبد الرحمن [١] فيما يلى :

« وقد كثر تعدى العسكر بالأذية على العامة وأرباب الحرف فيأتى الشخص منهم ويجلس على بعض الحوانيت ثم يقوم فيدعى ضياع كيسه او سقوط شيء منه وان امكنه اختلاس شيء فعل او يبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة او يلاقشون النساء فى مجامع الاسواق من غير احتشام ولا حياء واذا صرفوا دراهم أو ابدلوها اختلسوا منها . وانتشروا فى القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح فتذهب الجماعة منهم الى القرية وبيدهم ورقة باللغة التركية ويوهمونهم أنهم حضروا اليهم بأوامر اما برفع الظلم او مايبتدعونه من الكلام المزور ويطلبون حق طريقهم مبلغا عظيما ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الاغنام ويهجمون على

(١) يريد به عبد الرحمن الجبرتى صاحب كتاب عجائب الآثار فى التراجم والاخبار وقد نقلناه عنه بنصه .

النساء وغير ذلك مما لايحيط به العلم فطفشت الفلاحون وحضر اكثرهم الى المدينة حتى امتلأت الطرق والازقة منهم . أو يركب العسكرى حمار المكارى قهراً ويخرج به إلى جهة الخلاء فيقتل المكارى ويذهب بالحمار فيبيعه بساحة الحمير . واذا انفردوا بشخص أو شخصين خارج المدينة أخذوا دراهمهم أو شلحوهم ثيابهم أو قتلوهم بعد ذلك وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ويجعلونهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك وتمنى أكثر الناس خصوصا الفلاحين احكام الفرنساوية وتسبب اكثرهم فى المبيعات وسائر اصناف المأكولات والخضارات يبيعونها بما أحبوا من الاسعار ولايسرى عليهم حكم المحتسب ولا غيره . وكذلك من تولى منهم رياسة حرفة من الحرف قبض من أهل الحرفة معلوم اربع سنوات وتركهم وما يدينون يسعرون كل صنف بمرادهم وليس له هو التفات لشىء سوى ما يأخذه من دراهم الشكاوى»(١)

وروى احد مهاجرى الجمهورية ، وقد عين فيما بعد عضوا لأركان حرب الجنرال الانجليزى (استيوارت) ، أنه رأى الفلاحين يتوعدون الأنجليز ويتهددونهم ويعيرونهم بقولهم :

---

(١) هذه الجملة المترجمة من العربية الى الفرنسية فى المصنف منقولة بنصها الاصلى من كتاب عجائب الآثار (ج ٤ ص ١٩٩ طابعة بولاق) ويلاحظ ان الشطر الأخير الذى يبتدىء بكلمات (وتسبب اكثرهم فى المبيعات الخ) وضعه المؤلف فى صدر الجملة المنقولة بالترجمة وجعل الصدر عجزا

« لقد أعطانا الله الفرنسيس فماذا أعطيتمونا أنتم معشر الانجليز؟ الاتراك ! » . ومع أن الانجليز والبكوات السناجق والعثمانيين قد اجتمعوا تحت لواء واحد وضموا صفوفهم متساندين ضد الفرنسيين ، بعد أن قذف هؤلاء الخوف والذعر فى روعهم فأنهم ماعتموا ان دب بينهم دبيب الاختلاف وثارت ثائرة النزاع على التراث الذى تركه اولئك الفاتحون . فلقد حاول الجنرال هتكنسن ، لكن عبثا ، ان يقدّر للمتنازعين أنصبتهم فى الغنيمة ، لأن الاحقاد الكمينة فى نفوسهم حالت دون ابرام اتفاق ودّى بينهم . وكانت هذه الدولة قد عاملت المماليك بالحيف وسامتهم فى بادىء الأمر خطة خسف بحرمانها إياهم جلبَ الجراكسة من مواطنهم الى القطر المصرى وعدم تمكينها لهم من سد الثغرات التى اصابت صفوفهم ، الا أنها عادت الى محاسنتهم ومداراتهم فوعدتهم بالاقطاعات الواسعة فى أيالاتها الاوربية ، وما كانت ترمى الى شيء من وراء ذلك سوى انامتهم واغراقهم فى لجج الغفلة ، ومن ثمّ توفرت على ترتيب الادارة المصرية ، تحت رعاية الصدر الأعظم ، على نسق جديد من مقتضاه الاستعاضة من سلطة المماليك باربع بشلكيات وتمزيق وحدتهم تلقاء منح فريق منهم اقطاعات لا أهمية لها فى الحقيقة وهى بهذا التدبير لعبت دور الاسد حينما اختص نفسه بالحصة الكبرى فى الفريسة ، وكثيرا ما لا يقنعه هذا الحظ الأكفى فينكفىء عليها لينهشها

الفلاحون يقولون للانجليز : لقد اعطانا الله الفرنسيس فماذا
أعطيتمونا انتم معشر الانجليز؟ الاتراك ! »

بنواجذه الحادة .

وفى يوم الخميس ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٢١٦ هجريه (٩ فندميير سنة ١٠ للجمهوريه و١ أكتوبر سنة ١٨٠١) كتب قبطان باشا الى كبار البكوات من بيت مراد بك ، وهو أرفع بيوت المماليك عمادا وأعزها نفرا واعظمها شوكة ، يدعوهم اليه . فعقدوا على الفور اجتماعا قرروا فيه ، بعد الأخذ والرد والحل والعقد والاقدام والاحجام ، اجابة هذه الدعوة بالقبول لتكون لديه دليلا على ما يسودهم من روح العطف والمجاملة ، لاسيما وقد سبق الى وهمهم ان قبطان باشا انما قصد بتلك الدعوة ايثارهم على ابراهيم بك وانصاره بتخويله اياهم حق الحكم فى مدينة القاهرة . وكان مما أيد هذا الاعتقاد فى نفوسهم العداء الناصب بينه وبين الصدر الاعظم الذى كان ابراهيم بك واشياعه على اتصال دائم به .

وصل البكوات المماليك الى مقر الأسطول فتلقاهم قبطان باشا بالحفاوة ومظاهر التكريم وأمر باقامة خيامهم فى وسط خيام الأتراك المنصوبة على شكل هلال ، فانقضت الايام الأولى فى التزاور وأداء مراسم الحفاوة ، فكانت لاتطلع الشمس إلا على حفلة جديدة يركبون فيها الجياد الصافنات لعرض الجنود او التنزه . غير انه ، فى اثناء هذه المدة ، لم يفاتحهم أحد فى الغرض الذى دعوا لأجله ، فانتابهم من جرّاء ذلك قلق شديد وهجست

فى نفوسهم الهواجس وأخذهم من الريب والشكوك ما حفزهم الى مفاتحة الجنرال هتكنسن فى هذا الأمر ، فهدأ هذا روعهم مؤكدا حسن نية الباب العالى نحوهم . أما من خشوا على انفسهم منهم شر العاقبة وظلوا متوجسين مروّعين فقد تملأوا على العودة الى القاهرة من غير استئذان ولا احتشام .

وعلى أثر ذلك استدعى الجنرال هتكنسن الى لندرة فتنحى عن القيادة لآخر . ودعي قبطان باشا والبكوات المماليك الى شهود حفلة تقليد القائد الانجليزى الجديد ، وهو اللورد (كافان) ، فعقد أمير البحر العثمانى اجتماعا من اولئك الامراء قرأ عليهم فيه فرمانا زعم ان السلطان أرسله بامضاءته الى الصدر الأعظم وانه حرّر بمقتضى التقاليد المرعية فى المابين الهمايونى للعفو عن المماليك عفواً عاماً وتقليد أمرائهم فى الادارة المصرية مناصب تتفق والخدمات التى هم أهل لأدائها ، ثم اقترح عليهم أن يوافوه بجمعهم فى جهة عينها لهم وقال إنه سيدعوهم ، قبل سفرهم بحراً الى الأسكندرية ، الى تناول طعام الغداء على مائدة يهيئها لهم وانه يعدّ نفسه سعيداً إذا مهدوا له السبيل لاكرامهم والحفاوة بهم ، بمناسبة حادث سيؤدى الى تحقيق الامانى والرغائب العامة وتوثيق روابط الوداد توثيقاً لا تنفصم عروته أبد الدهر .

فى صبيحة اليوم التالي اعتلى البكوات جيادهم وساروا بها

نحو الساحل وكان قبطان باشا فى انتظارهم به ، ومعه عدة زوارق يتولى قيادتها فريق من أمهر الجنود البحرية التركية . وما نزلوا فى الزوارق ، بعد أن تركوا الخيل فى عهدة الخدم ، حتى نشرت قلوعها وسارت تشق بحيزومها الماء فى بحيرة المعدية الفاصلة بين المعسكر والموردة التى كانت ترسو السفن العثمانية فيها . وقد أخذ البكوات مقاعدهم فى زورق أمير البحر ، وتفرق احراسه فى الزوارق الأخرى ، فلما دنت هذه الزوارق من الساحل رأى قبطان باشا زورقا يتجه الى ناحيته فقال : « لابد ان هذا الزورق يحمل برسمى مكاتيب من الاستانة » ، فوقف الزورق وخرج منه ضابط وتقدم نحو امير البحر وسلمه رسالة ، فلما فضها بادر بالانتقال اليه ، معتذرا الى ضيوفه بأنه مضطر الى مفارقتهم هنيهة ريثما يطلع على مضمون الرساله .

وكانت الزوارق المقلة للأمراء ما فتئت تشق عباب الماء ، وتثاقل قبطان باشا فى سيره فتخلف فى طريقه عنها وتراخت المسافة بينها وبينه الى حد كبير عند ما خرجت من البحيرة ودخلت الموردة . وما هى الا بضع دقائق بعد ذلك حتى برزت ثلاث سفن غاصة برجال مدججين بالاسلحة ، وقد شهروا فى ايديهم السيوف وأحاطوا بزورق الأمراء ، ففهم هؤلاء عندئذ أن فى الأمر كمينا وخيانة وأن وراء الاكمة ما وراءها ، فتأهبوا للذود عن أنفسهم فعاجلهم أولئك الرجال باطلاق أعيرة النار

فنهض امير منهم وصاح بعبارة تشف عن الغضب والاحتقار قائلا :

« ما الخبر ! أبهذه الحيل الدنيئة تعاملون قوما عزلا مما يدفعون الأذى به عن نفوسهم ، بل ضيوفا قد أمنوكم واستسلموا اليكم واثقين بعهد عاهد تموهم عليه ووعد انطلقت به السنتكم وقد تضمنه فرمان شاهانى متوج بامضاءة ملككم ؟ وهل رأى احد فى العالم باسره خيانة بلغت فى الدناءة والسفال ماتشمئز منه النفس مابلغته هذه او سلوكا لايليق بكرامة قوم يؤمنون بالله كهذا السلوك ؟ وهل لسلطانكم ، بعد هذا الخزى وهذا العار ، ان يتلقب بأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحامى حمى الحرمين الشريفين ؟ ان بطانتكم لاتعرف غير السعاية والكذب ، وما كان شأنها فى كل زمان ومكان الا ان تخيس بعهودها وتحنث فى ايمانها . وما كان اغنا كم ، وقد اعتزمتم الكيد لنا وعقدتم الخناصر على أخذنا غيلة ، عن تسلق اسوار الخيانة والخديعة لشفاء غليلكم منا بل ما أغنا كم عن اتخاذ الجبن والغدر سلاحا لكم فى ذلك كله وهما مما يحط من قدر سلطانكم ويسقط منزلته . ولو كانت تجرى فى عروقكم قطرة من دم الشرف والأباء الذى كان يجرى فى عروق اجدادكم مدوّخى آسيا وأوربا لأتيتم بنا الآن الى سيف البحر ورددتم علينا خيولنا وسلاحنا ثم برزتم الينا بقضكم وقضيضكم ونازلتمونا على مانحن مافيه الآن

من قلة وضعف ، فإن ظفرتم بنا ساغ لكم ان تعللوا قسوتكم الدنيئة فى معاملتنا بما أصبتم من فوز » .

فما كان جواب الاتراك على هذا الاحتجاج الحماسى الا استئناف اطلاق النار عليهم . ولقد بلغ من الأمر ان شهر الغليونجية الذين كانوا يقذفون الزوارق بالمقاذيف ، ما كانوا يخفونه فى طيات ثيابهم من الخناجر والطبنجات وانقضوا بها على المماليك فدارت المعركة ، جسما لجسم ، فى غلالة من نار بنادق الزوارق المحيطة بهذا الميدان النادر المثال .

وكان محمد بك المنفوخ أول متحفز للمقاومة ، وتبعه رفاقه واتباعه الذين انقضوا كالبزاة على الغليونجية والعساكر الذين حاولوا جهدهم ان يصدموا الزورق بزوارقهم لتهشيمه ، فانجلت الملحمة عن سقوط الامراء تحت رصاص العدو ومات سوادهم مثخنين بالجراحات . لكن هذا الفوز الذى قام على الخيانة والغدر قد كلف الاتراك الكلف الفادحة من الارواح ، اذ قتل المماليك منهم جما غفيرا . وكان بين من لقوا حتفهم فى هذه المعركة من الامراء المماليك عثمان بك الطنبورجى ، خليفة مراد بك الكبير وعثمان بك الأشقر وابراهيم بك كتخدا السنارى ومراد بك الصغير . أما سليمان أغا فقد انكسر سيفه فى يده وهو يقاتل به فتستر بجثة احد الهاجمين عليه يتقى بها طغيانهم ، كما يتستر المناجز بترسه يتقى ضربات خصمه . وبعد ان ظل طويلا وراء

الجثة وهنت قوته وخانه صبره فسقط على الارض بلا حراك . وكان سليمان اغا وعثمان البرديسى وحسين بك وابراهيم بك فيمن نجوا من هذه المجزرة ، بعد أن اثخنوا بالجراح ، فأسروا وسيقوا الى السفينة الأميراليه المسماة (سلطان سليم) والمسماة كذلك (ريال قبطان) (١)

وفيها طلب منهم أن يقسموا بالقرآن ألا يستصرخوا بالانجليز ولا يستغيثوهم وأن يفضلوا البقاء مع العثمانيين ، فما أن أقسموا حتى كبلوا بالأغلال . وكان الذين يباشرون تكبيلهم يعربون عن اسفهم من ان الحادث وقع خطأ وأنه نتيجة سوء التفاهم . ولما نمي خبرهم الى الجيش البريطانى استاء وتذمر وتحرك من معسكره الى أبى قير ، وهناك انقسم الى مربعين واتخذ امام الاتراك أوضاع القتال ثم تريث حتى يوافيه هؤلاء معتذرين عن تلك الفعلة الشنعاء . وناط الجنرال هتكنسن بالجنرال (استيوارت) احد قادته ان يبلغ الى قبطان باشا تذميمه اليه ما اقترف من جناية وتقبيحه ماسلك من مسلك شائن وسار عليه من سيرة لاتتفق مع الكرامة والشرف وان يدعوه الى التعجيل باطلاق سراح الاسرى ، مع تسليم الجرحى والقتلى . فرأى قبطان باشا من السداد أن يوجه اليه ترجمانه اسحق بك ليهدىء ثائرة غضبه ، فلما دخل عليه أخذ الجنرال هتكنسن يقذف

---

(١) ورد اسمها فى الجبرتى هكذا : ازج عنبرلى

الاميرال العثمانى بأقذر الأوصاف وأحط المخازى ويرميه بالخيانة والغدر ويسمه بميسم العار والجبن . فقال الترجمان فى تؤدة وسكون : لعل سعادتكم تجهلون ما أقره الباب العالى فى شأن المماليك ومستقبلهم ؟ » . ثم زعم فى حديثه ان الامراء كانوا البادئين بالعدوان وان كل ما أريد بهم توجيههم الى الاستانة .

ونقل المماليك الاسرى الى الاسكندرية فأخذ الانجليز يحققون صحة عددهم فثبت لهم غياب أربعة منهم علله الاتراك بأنهم قتلوا فى المعركة وألقى بجثثهم الى البحر ، فطالب الانجليز تسليمها اليهم وجرت فى الموضوع مفاوضات طويلة بين القائد البريطانى وقبطان باشا تحرك الجنرال هتكنسن عقبها فى فصيلة من جيشه الى معسكر الاميرال العثمانى حيث احدق بسرادقه وتدفق عليه فيه يصحبه لفيف من اركان حربه ، ولم يبادئه بالتحية بل نزل معه فى ميدان مناقشة امتازت بشدة اللهجة والقول المقذع ، فان الجنرال بعد أن وجه الى امير البحر العثمانى صنوف التقريع وأحال عليه بالتعنيف صرف وجهه الى ناحية المترجم ثم أومأ بإصبعه الى الباشا قائلا : « ان هذا المخلوق لا يؤمن اذن بالله ، سله ان كان يؤمن به » . قال المترجم بعد ان جثا أمامه مسترحما : « مولاى ! لقد نقلت اليك كلمات سيدى الاميرال نقلا صحيحا لا تشوبه شائبة ولا يعتوره تبديل ولا تحريف ، فاعفنى اذن من كلفة نقل السؤال الذى تريد أن توجهه

اليه والا هدرت دمى ، فإنه من أين لمثلى ان يسأل مثله ان كان يؤمن او لا يؤمن بالله ؟ ان الافصاح له بما يفيد الشك فى ايمانه سيفضى حتما الى ضرب عنق » . فبرح القائد الانجليزى السرادق بعد أن أقام على حراسته شرذمة من جنده وأعلن قبطان باشا أنه معتقل حتى يردّ اليه الامراء الذين لم يعثر لهم على جثث ، فأمر الغواصين عندئذ باستخراج الجثث من قاع البحر فوراً ، والا ضربت اعناقهم ، فاستخرجوها فى الساعة وسلمت الى الانجليز الذين احتفلوا احتفالا شائقا بتشييعها الى حيث دفنت .

وعلى أثر ذلك تفرغ هتشنسن لأعداد معدّات السفر الى انجلترا متنحيا عن القيادة لخلفه ، فرأى المماليك ان فى سفره خسارة لهم لا تعوض وحرمانا من حماية قادرة على حقن دمائهم . واخذ قبطان باشا من جهته الأهبة للعودة الى البوسفور فرأى المماليك فى هذا الحادث ما يخفف عن نفوسهم وطأة التبرم بالخسارة التى ادركتهم بنقل القائد البريطانى . ومع كل ما تقدم أبى الديوان الاان ينكر فشله فى سياسته . وليس فى هذا مايستثير الدهشة ، لأنه اذا كانت مساعيه قد حبطت فى هذه المرة فأن هذا الفشل لايثنى اعوان القتل عما بيتوا من نيات وعقدوا الخناصر عليه من سيء الغايات .

ذلك ان الباشا وزير الدولة ، لما نمي اليه خبر خطف كبار الامراء المرادية وذبحهم عقد فى يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الثانية ،

الموافق ٢٨ فندميير سنة ١٠ للجمهورية و ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٠١ ، اجتماعا حضره كل المماليك من اتباع ابراهيم بك المقيمين فى القاهرة وضاحيتها ، وخطب فيهم بما يفيد انه التمس لهم رحمة السلطان وعفوه وان الباب العالى بناء على هذا الملتمس تفضل بالعفو عنهم جميعا الى أن قال : « وها كم هو الفرمان المتضمن نصوص العفو الشاهانى » ثم أبرز لهم خطا شريفا قرأه رئيس افندى على الحاضرين بصوته الجهورى فاذا به نسخة طبق الاصل من الفرمان الذى أبلغه قبطان باشا الى المماليك فى معسكر ابو قير . وكل الفرق بينهما ان هناك مادة اضافية تحفظ لابراهيم بك منصبه السابق وهو منصب شيخ البلد أى حاكم القطر المصرى جميعه . وبعد تلاوة الخط الشريف ألبس الصدر الأعظم أمراء المماليك الخلع السنية والقفاطين وأجلسهم بالديوان فى مجالسهم ، غير متصلين بعضهم ببعض كما كانوا عند سماع الفرمان ، بل منفصلين يفرق بينهم الضباط الاتراك ، كل بحسب الرتبة التى منحها والمنصب الذى اسند اليه وفى ختام الاحتفال أمر الصدر الاعظم الحاضرين ان يلزموا الصمت ، ثم أخرج من جيبه فرمانا آخر دفعه الى رئيس افندى ليتلوه جهرة ، فاذا به سابقا على تاريخ الفرمان الأول بأيام وقاضيا بعزل اولئك الامراء من مناصبهم . وذهب السلطان الى أبعد من هذا المدى ، غلظة كبدٍ وقسوة قلبٍ ، فإن المماليك ، بما اقترفوا من عصيان ومروق

عن الطاعة المرة بعد المرة ، استنفدوا أناءة الحكومة العثمانية وصبرها ومالوا بها عن المحاسنة الى المخاشنة فأمر الصدر الأعظم بالقبض عليهم وتوجيههم الى الاستانة مقرنين فى الاصفاد تحت رقابة طائفة من الاحراس .

تحوّل سرور المماليك بالمناصب الى الجزع من شر المنقلب ثم مالوا من السخط والغضب الى رغبة شديدة في الانتقام ، فلقد قام فى خاطرهم ان يمحوا عن نفوسهم وصمة هذا العار بعمل يقوم على اليأس والقنوط ، لكن الصدر الاعظم كان تكهن ماداخل خاطرهم فاحتاط للامر ، ومن ثم فشل الامراء فى مشروعهم الجهنمى . وجلية الخبر ان الجيوش العثمانية كانت منذ الليلة السابقة مدججة بالسلاح ومتفرقة حول القصر تحرس منافذه وتحرم فتحها ، فلما أيقن الامراء انه بات متعذرا بل مستحيلا عليهم الذود عن ارواحهم راضوا أنفسهم على الرضاء بما قدر لهم ، وانقضت هنيهة بعد ذلك فى سكون شامل وصمت عميق فالقى ابراهيم بنفسه على قدمي الوزير ، مسترحما ملتمسا لرفاقه النجاة من الموت . أجاب الصدر الاعظم بأن الاسترحام والاستغفار انما يوجهان الى السلطان ثم اعرب عن اسفه لوقوع الاختيار عليه فى أداء هذه المهمة وبرّر قبوله لها بخوفه من بطش السلطان اذا خلع طاعته برفضه القيام بما عهده اليه . قال هذا وأمر بتجريد الامراء من سلاحهم واعتقالهم فى القلعة .

وعلى اثر ذلك صدر الى طاهر باشا أمر بالشخوص فورا الى الصعيد للقبض على من لاذوا به من المماليك ، ولكيلا يدع لمن آووا منهم الى ضواحى القاهرة واستخفوا فى قراها فرصة التمكن من الفرار ، أمر عساكره بحصر المدينة فانتشروا فى الطرقات وفتشوا المنازل فقاومهم المماليك مقاومة عنيفة صم الآذانَ فى خلالها دويّ البنادق وطرق صدى هذا الدويّ اسماع الحامية الانجليزية فى الجيزة فقصد (ماركو استفانو) ترجمان الوزير الى القائد (رامسى) القائم بقيادة الجيش الانجليزى وسأله القبض على سليم بك ابو الدهب [1] وسائر مماليكه ، فيما لو تخطوا عتبات ابواب العاصمة . وبنى طلبه على اتهامهم بأنهم نهبوا قافلة تركية من الحجاج كانت فى طريقها الى مكة المكرمة . وقبيل نصف الليل جاءت فصيلة من المماليك بقيادة محمد أغا تستغيث الجنود البريطانية وتسألها الحماية لأن فرقة الارنؤود المجمكين بأموال العثمانيين اخذتهم على غرة منهم فى الطريق وانهم اذا نجوا بحياتهم فما ذلك إلا لانصراف افرادها الى السلب والنهب . ولما وصل هؤلاء المماليك الى المعسكر كانوا ملوثين بالطين وتبدو عليهم علامات الاعياء والجوع فتلقاهم الانجليز بالترحاب واكرموا مثواهم . وأنفذ الجنرال رامسى ضابطا الى العثمانيين فى رسالة منه بهذا الصدد ، فتلقاه هؤلاء فى الخليج

---

(١) فى كتاب الجبرتى « ابو دياب » لا « ابو الدهب »

المصرى بنار البنادق ، إلا انه تمكن من الوصول الى الوزير وأبلغه بان مماليك سليم بك ابو الدهب قد لاذوا بالمعسكر الانجليزى وباتوا فى حمايته ورعايته فتصنع الوزير الارتياح لهذا النبأ ، لكنه أعرب للرسول عن امله فى ان المعسكر الانجليزى سيوافيه بهم محفوفين بالأحراس . ولما رأى ان هذا الرجاء لم يتحقق انفذ الى الانجليز احد تراجمته يدعوهم الى بيان الموضع الذى لجأ ذلك الزعيم اليه ، اذ المعلوم أنه كان لايزال ، منذ اصيب ببعض الجراح فى واقعة الاهرام ، ملازما للفراش فى احدى قرى الوجه البحرى . فاستنكر الانجليز هذه الدعوة التى تلقوها من الترجمان وقابلوها بالازدراء وجهر الجنرال رامسى بأنه لن يخفر ذمة أولئك اللاجئين ولن يسلمهم الى الصدر الاعظم على الرغم من الحافه فى السؤال عنهم . وفى ١٦ جمادى الثانية ، الموافق ٢ بروميير من السنة العاشرة للجمهورية و ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٠١ ، ظهر سليم بك ابو الدهب صباحا على مقربة من النقط الأمامية البريطانية ، وكان منهك القوى بالحمّى والضعف لأنه قضى أياما هائما على وجهه فى الصحراء ليفلت من ايدى الذين كانوا يلاحقونه بظلمهم واستبدادهم وكان يرافقه أحد شيوخ قبيلة العيايدة ، فلما مثل امام الجنرال رامسى طرح سلاحه على منضدة واقتدى به اصحابه ثم دنا من القائد قائلا إنه يسلم بنفسه اليه فرجا منه القائد كما رجا من رجاله ان يتقلدوا سلاحهم وقال

لهم : « لستم أسرى بل اصدقاء » .

ووصل من بعده محمد اغا ومماليكه فعانقوا اخوانهم عناقا طويلا وأخذوا يقبلون أقدام زعيمهم سليم ويعرضون عليه طاعتهم ويعاهدونه على الوفاء والامانة . وكان الوزير العثماني لايزال يمنى نفسه بالقبض عليهم ، فلما وقعت الحوادث السابقة اشتد فى نفسه الطموح الى اخذهم وضاعف فى هذه السبيل جهوده وقرطس فى هذا الغرض سهام حيلته ودهائه . ومن الذرائع التى توسل بها فى ذلك ارساله الهدايا تلو الهدايا الى القائد العام . وكان هذا يرفضها في كل مرة ويردها اليه فلما يئس من اقناعه بصواب مراده وسط لديه المسيو (روزتى) قنصل جنرال النمسا وضابطا من المماليك اصطنعه بالمال وضابطا تركيا كبيرا ، فذهب هذا الوفد يحمل الدليل الناطق بصواب مطالب الوزير ، وهو كتاب حرره الامراء الاسرى الى السلطان يستعطفونه فى الاذن لهم بالسفر الى الاستانة لتقديم فروض الاخلاص الى العتبات الشاهانية . وفى الحق ان هذا الكتاب كان صادراً منهم ، لكنهم لم يكتبوه الا وهم تحت حكم القهر والتهديد .

وحدث أن اتصلت بأولئك التعساء ، اصحاب الكتاب ، انباء سليم بك وما لقيه هو واعوانه من حسن اللقاء وكرم المثوى في الجيش الانجليزى ، فاستعملوا فى السر والخفاء بعض الرسل من العربان لأبلاغ الجنرال رامسي شكرهم له انحيازه الى جانب

اخوانهم المظلومين وتأييده لقضيتهم راجين منه فى الوقت نفسه ألا يكترث بما ابدوه او قد يبدونه من مظاهر الخضوع والطاعة للعثمانيين ، لأنهم انما فعلوا ذلك أو يفعلونه مرهقين بألحاح العثمانيين الذين يستغلون فى هذا عجزهم وذلتهم ليزعموا ان المماليك راضون عن أعمالهم . وحينما وصل وفد الصدر الأعظم الى اللورد هتشنسن ومثل فى حضرته ، وصل من عند الجنرال رامسى ضابط يحمل اليه كتبا سرية يدافع فيها عن المماليك ويؤيد قضيتهم .

وفى يوم ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢١٦ هجرية ، الموافق ١٠ للجمهورية واول نوفمبر سنة ١٨٠١ ، وصلت الى الجنرال رامسى بالاسكندرية تعليمات واوامر بأن يطلب من الصدر الأعظم اطلاق الحرية للمماليك ورد املاكهم المغصوبة اليهم . ووردت على الصدر الأعظم فى هذا المعنى ، رسالة منه صريحة العبارة شديدة اللهجة تتخللها صيغ الامر المقرون بالتهديد ورسالة ثانية أشد من هذه لهجةً الى قبطان باشا وفيها انذار له بالرحيل فورا من مياه مصر ، وإلا كبل بالحديد وارسل مخفوراً الى لندره . فصدع قبطان باشا بهذا الأمر إذ رفع مراسيه وتحرك من فوره صوب الاستانة . وقبل ان يبلغ الجنرال رامسى الصدر الأعظم اوامر القائد البريطانى العام حشد بالجيزة قوة كبيرة من الجند ليعارض بها التجهيزات العدائية التى باشرها ذلك الوزير ، اذ أمر

بنقل المؤن والذخائر الى قلعة القاهرة وملء الصهاريج بالماء وطلب المدد من النواحى وتسليح السكان . وبعد أن أمدّ الجنرال رامسى جيشه فى الجيزة بالاورطة السادسة والثمانين ومدافعها تراءى له انه بات فى استطاعته ان يرسل الى الصدر الأعظم ذاك البلاغ الشديد اللهجة الذى امره القائد العام للجنود البريطانية بتقديمه اليه . ورام العثمانيون المفاوضة مرارا لاكتساب الوقت فرفضت طلباتهم رفضا جازما .

وفى يوم ١٣ نوفمبر حضر من الاسكندرية الجنرال استيوارت يحمل أمرا بحسم هذه المسألة ، فأنذر الصدر الأعظم بأنه اذا لم يفرج عن المماليك فى اليوم التالى فلا محيص للجنود البريطانية عن الزحف للقتال .

وكان تفوق الجنود الاوربية قد ظهر فى اسمى مظاهره أيام الحملة الفرنسية وبلغ من ثقة الناس مبلغا لايظن معه أن يجرؤ زعيم الشيع البسفورية المفككة العرى المختلة النظام على التقدم لمنازلتها . لذا لم تطلع شمس اليوم التالى حتى أفرج عن الاسرى جميعا ، وعددهم ٢٥٠٠ ، وما استروحوا نسيم الحرية حتى قصدوا الى الجيزة ، وفى طليعتهم اثنى عشر اميرا بزعامة الامير ابراهيم بك ، فتلقتهم الحامية الانجليزية بالتحية العسكرية ، وعز على نائب الباب العالى ان يخول اولئك الاسرى نعمة الخروج من ظلمات السجون الى نور الحرية دون اتخاذ تدبير حيال

الخطة التي سيسلكونها بعد الافراج عنهم فزودهم عددا من الضباط الاتراك وكلت اليهم المحافظة على الوفاء بما وعدوا به من العودة الى القاهرة بعد الاعراب عن رغباتهم للانجليز .

ولما تنصف النهار ، ولم يعرف عن هذه العودة شيء ، لفت اولئك الضباط نظر الامراء الى ان وقت العودة قد حان . وما اتصل هذا الكلام بعلم الجنرال استيوارت حتى صاح قائلا : « هؤلاء الرجال صادقون فيما يقولونه من تأهب السفينة العثمانية منذ زمن طويل لنقلهم الى الاستانة ولذا كان وجوبا بقاؤهم معي »

وما سمع الاتراك تصريحات القائد الانجليزي حتى قرروا العودة الى السفينة التي كانت في انتظارهم ولقد آبوا اليها فعلا بينما كان الامراء الجراكسة في معسكر الجيش الذي حرّر رقابهم يقومون بمظاهر الفرح والابتهاج بخلاصهم . ومما ضاعف سرورهم وبالغ في شكرهم لمنقذيهم اجتماعهم بسليم بك ورجاله الذين نجوا بحياتهم في مذبحة ابو قير وارسلوا الى الاسكندرية ، واغتباطهم برؤيتهم بعد فراق طويل .

ورأى قواد الجيش البريطاني انه ، ليقوموا بالمهمة الحازمة التي أخذوها على أنفسهم ، يجب ان يعيدوا جيش المماليك الى عزته الأولى وقوته التي سارت مسرى الامثال ، بعد ان قرر الباب العالي ضربه الضربة القاضية . وكان هذا ماسعى الى تحقيقه الجنرال استيوارت حينما وردت من انجلترا الاوامر بتحويل

دفة الكرم والتسامح الى غير وجهتها الأولى .

وكانت العلاقات الودية بين فرنسا والباب العالى لاتزال متصلة لأنها لم تنقطع الا فى مدة الحملة الفرنسية على مصر ، وبانجلائها عادت هذه العلاقات سيرتها الاولى . وكان المسيو تاليران وزير العلاقات الخارجية قد اتفق بتاريخ ١٧ فندميير من السنة العاشرة للجمهورية ، الموافق ١٧ اكتوبر سنة ١٨٠١ ، على مقدمات الصلح مع سعيد على افندى سفير الدولة العلية بفرنسا . وقد تناولت هذه المقدمات فيما تناولته ، تجديد المعاهدات القديمة واعادة الحقوق التجارية والبحرية بالاقاليم والولايات العثمانية الى ما كانت عليه قبلا مع الأمة الفرنسية . وبعد يومين من امضاء تلك المقدمات سافر الكولونيل (هوراس سيبستيانى) الى الاستانه لأخذ الموافقه عليها من السلطات المختصة فيها . ولقد تفزع سفراء الدول فى تلك العاصمة ليلة اليوم الذى عين للمفاوضة فيها ، فواصل السفير الانجليزى العمل لاستكناه السر واحباط السياسة الفرنسية ودأب على ذلك حتي أدى الأمر به الى دفع الباب العالى فى مأزق وقف فيه موقف المتردّد فى انفاذ ماانتواه ، فلم يسع السواس الفرنسيين لدى الباب العالى إلا أن ابرزوا شكاوى الصدر الأعظم وقبطان باشا الى حكومتهم من تحيز القواد البريطانيين الى جانب المماليك تحيزا أدى الى الحط من كرامة الدولة . وحينما تبين لانجلترا عجزها عن ادحاض هذه

الأدلة الناهضة على تحيزها المتمردين على الدولة عمدت الى أقرب الوسائل لتذليل الصعوبة التى زل فيها سعيها، فجهرت باستنكارها تصرفات القائدين هتكنسن واستيوارت واعدة بأنها لن تالق العثرات منذ الآن فصاعدا في سبيل تنفيذ قرار الباب العالى القاضى بأبادة المماليك. ومن ثم استدعى الجنرال هتكنسن كما قلنا وخلفه فى القيادة العامة الميجر جنرال اللورد (كافان) الذى قصد الى الاسكندرية فوراً مع المستر (ستراتان) سكرتير السفارة البريطانية. وكان مما عهد اليه القيام على تنفيذ المواثيق التى أخذتها بريطانيا على نفسها. وفى ١٩ يناير سنة١٨٠٢ نزل ذانك الموظفان الكبيران الى بر الجيزة فقدم امراء المماليك اليهما دارا لأقامتهما فرشت بأفخر الامتعة وأثمن الأثاث فرفضا هذه الضيافة رفضا أثار فى نفوسهم الريب. غير ان اللورد كافان، في خلال المفاوضة مع ابراهيم بك، حاول جهده تبديد هذه الريب اذ قال لهذا لزعيم ان الواجب على بريطانيا العظمى، حليفة الباب العالى، معاونته وشد أزره فى تنفيذ قراراته وانها لهذا السبب تنصح له ولأصحابه باعتبار أنهم اصدقاؤها المخلصون بقبول مااقترحه الصدر الأعظم عليهم منذ حين.

شاعت انباء هذه المفاوضة بين الجنود البريطانيين فتلقوها بالامتعاض والتهجين، واضطر الجنرال استيورات الذى كان آنئذ فى فراشه يعانى آلام المرض ان يفضى الى اللورد كافان بأنه

اصبح حتما عليه ، تجاه نقض الوعود الصريحة التى اعطيت للمماليك بمد رواق الحماية عليهم ، ان يحض" هؤلاء على الحذر وأخذ الحيطة وأنه اذا محضهم هذا النصح يقوم بواجب الرجل الشريف الذى أخذ على نفسه عهدا فاصبح هذا العهد دينا فى عنقه

وما سمع الامراء هذه النصيحة واستقرت فى اخلادهم وقدروا لها عواقبها حتى نفروا جميعا فامتطوا صهوات جيادهم وخيموا خارج أحد ابواب الجيزة . وفى اليوم التالى ، الموافق ٢٥ يناير ، افترق المماليك والعساكر الانجليز بعد ان تبادلوا عبارات الوداع ، فى أجل" ما يكون من مظاهر الود والوفاء ، واخبروا الجنرال استيوارت بأنهم قد قرروا لأعلان احترامهم لدولته وامته ألا يهاجموا الاتراك ابدا ، اذا بلغوا فى رحيلهم الى اسيوط وتابعهم هؤلاء اليها .

يفهم من هذا ان مصر السفلى ومصر الوسطى بقيتا منذ هذا الحين فى حوزة العثمانيين . وكان الوزير قد أضجرته الفظائع التى انساق الى اقترافها بدافع منصبه المحفوف بالمكاره وآلمه وخز الضمير لقيامه على تنفيذ مقاصد الباب العالى ، وهى مقاصد تنافى ميله الفطرى الى التسامح ، فاغتنم الفرصة السانحة للسفر الى الاستانة العلية عن طريق الشام يوم ٥ شوال سنة ١٢١٦ ، الموافق ٨ فبراير ١٨٠٢ ، بفريق من الجنود العثمانية . وفى مايو غادر الجيش الهندى المحتل معسكراته الى ثغر السويس ومنه فى ٦ يونيو الى

الاقطار الهندية .

وعهدت ادارة البلاد عندئذ الى محمد خسرو باشا فقبض على زمام ولايتها فِي أواخر رمضان سنة ١٢١٦ ، الموافق اوائل فبراير ١٨٠٢ ، وكان هذا الوالى احد مماليك قبطان باشا فترقى الى هذا المنصب الجليل بعون من سيده . وهو جركسي الاصل ، الا انه كان كريم السجايا نبيل المقاصد كثير الهشاشة فى وجوه الاجانب ، لكنه مع هذه الفضائل كان شديد الصلف والكبرياء مع عشيرته الاقربين . وكان لقصر نظره فى السياسة قليل الخبرة باحوال الناس ومن كان مثله لايليق طبعا للحكم وسياسة العباد وادارة دفة البلاد .

وعهد الى ٧٠٠٠ جندى تأييد جانب الوالى الجديد فى جهات متفرقة من القطر وتغليبه على خصومه الذين كانوا ، مع قلة عددهم ، على شيء كثير من مضاء العزيمة والجلد وانكار الذات فى الذود عن حياضهم . وكان خسرو باشا كبير الثقة بجنوده الالبان لما امتازوا به من حب المغامرة واقتحام الاهوال ، على الرغم من رداءة سلاحهم واختلال نظامهم . وكانت ثقته بالنوبيين والسودانيين ، الذين ابتيعوا من النخاسين ودُرّبوا على اساليب القتال بقيادة مائة وخمسين من الفرنسيين ، ثقة لاحدّ لها .

اما المماليك فكانت تتألف صفوفهم ، فيما عدا الفرسان البالغ عددهم ٣٥٠٠ فارس ، مما يعدل هذا العدد من عربان

العبابدة و ٢٥٠٠ من عربان اولاد على . وكان الشقاق مستحكما بين هذه العناصر المتباينة فكانت قوتهم المعنوية لهذا السبب فى حكم العدم .

وخلف مراد بك فى الزعامة العامة على المماليك عثمان بك الطنبورجى الذى ذكرنا فيما تقدم خبر سقوطه قتيلا فى مذبحة ابو قير ، فلما مات توزّع زعامة المماليك عثمان البرديسى ومحمد الالفى . وكانا لبعضهما ، فى ألدّ الخصام ، لتزاحمهما على السيدة نفيسة أرملة الامير مراد بك يريدها كلاهما زوجا له ، وتنافسهما فى بعض الأطماع العسكرية . وكان عثمان البرديسى ينزع الى جانب فرنسا على حين ان الالفى كان يجنح الى بريطانيا وينقاد لارادة قوادها ونصائح وكلائها . وكان بيت الأمير ابراهيم بك يعارض كلا من بيتى هذين الاميرين فى منازعهما ومراميهما الا أن هذا الامير كان فاتر الهمة واهى العزيمة لطعونه فى السن ، فلم يكن له من النفوذ والجاه الا بمقدار ماهو أهل له منهما بحكم شيخوخته وسابق خدمته ولم يكن للمماليك مع كل هذا خطة معينة للقتال ولا وسيلة للصناعة ولا اسلحة ولا ذخائر حربية ، إذ كان جيشهم متفرق الشمل مبدّد الاعضاء لانقسامه الي عشرين جماعة لا رابط لها من نظام مرسوم فى كل الجهات التى يحتلونها بين الشلالات والدلتا . وكانوا مع هذه العيوب والمثالب لايخافون الخروج من الصعيد للهجوم على الفيوم والعيث فى

اطرافها سلبا ونهبا ولم تضعف قط ثقتهم بأنفسهم ليقينهم أن مددا قويا سيصل اليهم . ولما كان بونابرتة شديد الميل اليهم والاعجاب بهم فقد لاذوا به فى طلب المعاونة على ترقية شؤونهم، إذ انفذ عثمان البرديسى وابراهيم بك الى (ليفورنة) مندوبا عنهما ليرجو من الجنرال (برون) قومندان هذه الدائرة العسكرية ان يبلغ الى القنصل الأول بواسطة الوزير تاليران الرسالة الآتية :

« بما انك هدمت صرح شوكتنا وعفيت على آثار مجدنا فإنا نرتقب الآن من فضلك ومحض كرمك ان تعيد كل شيء الى نصابه . ان وفاة مراد بك القت بيننا بذور الشقاق واضطرتنا الى الاحتماء بالبريطانيين ، غير ان الاتراك مابرحوا يحاربوننا حربا جائرة غاشمة شعارها الخيانة والغدر . ولا يغيب عنك أننا من البأس وشدة المراس بحيث نستطيع الوقوف فى وجههم والتعرض لمشاريعهم ، الا اننا مفتقرون الى من يشد إزرنا فى الخارج ويعزّز جانبنا ، ونعم الوزر أنت والسند الذى اليه نطمئن والموئل الذى اليه نلجأ وبه نثق وعليه نعتمد . واعلم اننا راضون بكل شرط يروق لك أن تفرضه علينا . ولكى نعرب عن شكرنا لك فى مقابل مانسأله من وساطتك نعطيك العهد والميثاق ان نخص تجارة وطنك بأوسع مايمكن ان تخص تجارة أمةٍ به من المنح والامتيازات » .

هذا الالتماس ، موجها من قوم عرفوا بنفوسهم الأبية

وأنوفهم الحمية الى رجل وقف وحده على سرّ الظفر بهم ، لجدير بوصف العظمة والجلال ، وان شفّ عن مقدار ما كان يخامرهم من ألم الشدة والحرج . لكن مقدمات الصلح التى كانت انجلترا قد حصلت ، منذ سبعة أشهر ، على موافقة الدولة العلية عليها ، مضحية فى سبيلها قضية المماليك إيثارا لمصالحها التجارية ، كانت قد تحولت فى الوقت الذى بث الامير ان فيه بكتابهما السابق الى بونابرتة الى معاهدة دفاعية وهجومية بين الباب العالى وفرنسا . وبيان ذلك ان السفير العثمانى الجديد ، وهو السيد محمد سعيد خالد افندى ، وصل الى باريس فى ٦ مسيدور سنة ١٠ من الجمهورية ، الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٠٢ للتوقيع على اتفاقية فى الموضوع تقرر ان يصدق السلطان عليها فى مدى شهرين يمضيان من هذا التاريخ ، فكان متوقعا ان يضيع التماس الامراء فى وسط هذه التقلبات وان يبقى عديم الجدوى بالنسبة لهم أو تشب نار الحرب بين الدولتين المتعاقدتين .

اما محمد خسرو باشا الذى كان يتوقف اول فوز له على التفريق بين الاحزاب المؤتلفة ، فقد فتح باب الكفاح بينه وبين المماليك بتدبير الدسائس ونصب الشراك وبث الكمائن . وكان عثمان بك حسن من اغنى أمراء المماليك وأسماهم منزلة فى نظر الناس . وقد عاش طول عمره بعيدا عن المنازعات الحزبية التى كثيرا مافرقت بين ابناء جنسه ، فعرضت عليه جملة اقتراحات

غادر هو واتباعه على أثرها الصعيد الأعلى للاقامة بالقاهرة . أما بقية الامراء فكانوا أقل منه ميلا الى السكون والوئام . وقد بغتتهم فى المؤخرة فرقة مؤلفة من ستة آلاف رجل بقيادة طاهر باشا الذى كان يجوب البلاد للبحث عن محمد الالفى ، دون ان يقف له على أثر . وقصد حسن باشا من رجال الحملة التى سيرها الصدر الأعظم بجيش مؤلف من ٨٠٠ رجل الى جرجا لاحتلالها واخضاع اهلها ، لأهمية موقعها فى نقل المؤن وجباية الاموال . وكان الامراء قد نفدت من عندهم الأموال والمؤن والذخائر ، فلما ضايقتهم الجنود اقترحوا هدنة خمسة أشهر ليكاتبوا فى خلالها الباب العالى ويحصلوا على صلح شريف دائم . فاستشفّ الباشا من عبارتهم حرج موقفهم فرفض ملتمسهم مخبرا إياهم بأن أقصى مايسمح لهم به هو الاقتداء بعثمان بك حسن فى الأقامة بالقاهرة كفرد من افراد سكانها ، مستثنيا من هذه الاجازة كلا من عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى وسليم بك أبو الدهب. فلما وصلت الاجابة اليهم على هذا النمط اشتدّ بهم الغضب فجمعوا فى الحال جموعهم وهجموا بها ، فى ضاحيه بلدة اطفيح ، على الف جندي عثماني بقيادة حاجدار ثم تدفقوا من وراء هذه الجهة على الوجه البحرى فارضين الأموال الفادحة فى طريقهم على اهل القرى الذين يعجزون عن مقاومتهم وصدّهم .

وبدهي ان تكرار هذه الجبايات كان لابد ان يضعف

احوال الريف ، باستنزاف ثروته وتضييق موارد الحكومة منه . فلما أمعن الوالى النظر فى هذه المسألة وما يحسن ان يتخذه من التدابير لحسمها رأى ألا مناص له من أحد أمرين : إما مخابرة القوم فى السلم او ابادتهم جميعا بضربة قاضية ، لكنه فضل اصابة الغرضين والسير فى الطريقين ففى مخابرات الصلح عرض على الامراء إقطاعهم من الاراضى مابين اسنا والحدود ، فرضوا بذلك على ان يمنحوا أيضا اقليم جرجا ، إلا ان الوالى رفض هذا الشرط وأمر حاكم القاهرة بتعبئة فرقتين من الجند فوراً وتسييرهما لكبح جماح الامراء . وكان يوسف بك كيخيا على قيادة احدى الفرقتين فأدركه طاهر باشا بالوجه القبلى لتعزيزه . أما الفرقة الأخرى فكانت بقيادة عثمان بك حسن ثم جعلت بقيادة محمد على صارى جشمه عقب فرار عثمان بك حسن الى الصحراء ، حتى لايقال عنه إنه خان اصحابه .

وكان الصارى محمد على يناهز الثلاثين من العمر ، وقد أوصى به حسن اغا الذى عين فيما بعد أغا الانكشارية ، عند قبطان باشا كما أوصى به هذا الأخير أيضا محمد خسرو باشا الذى لم يلبث ان رفعه الى رتبة طوفنجى باشا ، اى حامل القربينة ، لرغبته الشديدة فى الاستفادة بشجاعته .

وكان نحو ٨٠٠ مملوك معسكرين بدمنهور وفى اتصال تام مع الاسكندرية والسواحل ويتهددون بذلك القاهرة . فتقدم

نحرهم الجيش العثمانى الذى علم الناس قوته العددية وما عزم على اجرائه من الحركات الحربية ضد اقليم البحيرة . وكان فشل سياسة الانجليز فى العهد الأخير ، لدى المابين الهمايونى ، قد عاد بهم الى النظر فى مستقبل المماليك بعين الرفق وشمولهم بعواطف المودة والأخاء ، فسعوا بنصائحهم لدى ألفى بك حتى لايتعرض لأية معركة جدية مؤكدين له أنه لايستطيع الانسحاب من مواقعه اذا تغلب ذلك الجيش عليـه ، وهو المنتظر وقوعه بالنظر الى كثرة عدده . واكدت بريطانيا العظمى له حسن نيتها فآمن بقولها ، ولما لم يشاركه احد من الأمراء فى رأيه عجل بمغادرة دمنهور ليلا . وأجمع هؤلاء على المجازفة باقتحام القتال فى واقعة حاسمة فأمر عثمان بك البرديسى رجاله بالانقضاض على الاتراك ممتشقى الحسام ، فتحركت جيوش يوسف بك فى وسط السهل بترتيب القتال مرتكزة الجناح الايمن على ترعة الاسكندرية ، وفى مقدمتها المدافع تحمى الصفوف الأولى منها وانفتحت افواه النار . وما هى الا دقائق معدودة حتى لمح عثمان بك ان الخطر لسوف يحدق بفرسانه ، اذا هى التحمت بتلك الصفوف الكثيفة وادرك ان لا مخلص له من هذه الورطة الا بتوحيد حركة هؤلاء الفرسان فى انقضاضهم الصاعق على العدوّ . ولـكى ينفذ هذه الخطة تقدم رجاله وطار نحو واجهة العدو ، بيد أنه لم يلبث أن أنس فى نفسه العجز عن الالتحام به فتحول من

الهجوم مواجهةً الى مداهمة الجناح الأيسر الذى لم يكن مرتكزا على شيء . وقد أفلح فى هذه الحركة اذ صدّ الصفوف الاولى منه وفتك بالمشاة فتكا ذريعا وتم له الفوز بذلك على العثمانيين .

غنم المماليك كل ما تركه هؤلاء من ذخيرة وميرة وسلاح ومتاع . على أنهم لم يخسروا سوى ستين رجلا من رجالهم فى مقابل ٧٠٠٠ عثمانى منهم خمسة آلاف قتيل وأسير . واذ كان المغلوب فى القتال لايعترف بالخطأ الذى اورده موارد الخذلان وأفضى الى الفتك برجاله ، فقد تراءى ليوسف بك كيخيا قائد الجيش ان الوسيلة لخلاصه من مسئولية الفشل انما فى القائها على عواهن محمد على ، بحجة انه ظل بعيدا عن موطن القتال وأنه تخلف عن انقاذه من موقفه الحرج . ولم يكن خسرو باشا من صدق النظر والفطنة وسرعة الخاطر بحيث يكشف هذه الوشاية . دع أن هناك أسبابا عديدة كانت تحمله على الخوف من محمد علي ففسر امساكه عن امداد الجيش العثمانى بالرغبة فى الاحتفاظ بالالبانيين ليساعدوه فى المستقبل على قضاء مآربه ، ومن ثمّ عقد النية على التنكيل به . لكن محمداعليا كان أشد دهاءوأوسع حيلة منه ، فأنه حينما تلقى من الوالى أمرا بالمثول بين يديه بعد الغروب أجاب بانه لن يحضر الا فى رابعة النهار بين جنوده البواسل ، فلم يجرؤ خسرو باشا على استئناف الدعوة بل لزم تجاه اجابة محمد علي عليها ملازمة السكوت .

الباب الثالث

الفوضى

من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٥

فى غضون شهر اكتوبر وصل الكولونيل (هوراس سيبستيانى) مع المسيو (اميديه جوبير) الى الاسكندرية قادمين من فرنسا للبحث فى احوال مصر والمطالبة بتنفيذ شرط معاهدة صلح (أميان) القاضى بجلاء ٤٤٣٠ جنديا انجليزيا كانوا لايزالون بالديار المصرية ، فقوبل المعتمد المومأ اليه فى كل مكان بمظاهر الحفاوة والتكريم . وقد رأى ماصار الشعب المصرى المسكين اليه من فوضى واختباط واحوال لاتسر القلوب وشهد الوالى العثمانى والاتراك والمماليك والعربان يتبارون فى استنزاف ثروته بما يفرضونه عليه من الفرض والمكوس الفادحة . وما كاد ينتشر فى طول البلاد وعرضها خبر المهمة الموكولة اليه حتى تكهن الناس بقرب وقوع حادث سيؤدى الى طرد الانجليز والاتراك من البلاد ، فدب الحماس فى نفوسهم ولهج فريق منهم بان عودة

بونابرته اليهم قاب قوسين أو أدنى وصاح فريق آخر يطالبون بعودته واعربوا بمظاهراتهم عن حسن تقديرهم لقوة جيشه ومناعة جانبه وتعلقهم المتين بابناء جلدته وشاموا من خلال السحب المتلبدة فى الأفق البعيد طيف الراية المثلثة الألوان .

وكان الكولونيل سيبستيانى اذا مرّ بمن معه فى ميدان أو طريق او سوق تقاطر اليه الشيوخ والعلماء والقضاة والفلاحون ونسلوا من كل حدب وقاموا من مقاعدهم أو وقفوا فى اثناء سيرهم لتحيته بالتعظيم والأعزاز والاخلاص . وكان الضابط الفرنسى قد جاء بصورة للقنصل الاول بونابرتة ، فلا نغالى اذ نقول ان الزحام على شهودها والتنافس فى اقتنائها كانا لايقلان عنهما لو أن هذه الصورة كانت تمثل بعض مقدسات المسلمين كالمخلفات النبوية . وقد أخذ يوزع هذه الصورة الثمينة على الجمهور فأقبل الناس أيما اقبال على الاحتفاظ بها . وفى وصوله الى القاهرة استقبله حاكمها بمظاهر الاعتبار والتكريم وغمره بالهدايا النفيسة . وكان كلما زار محمد خسرو باشا يقصر همه على الدفاع عن المماليك بل يؤيد جانبهم وينتصر لهم ، فكان هذا الوالى يقيم الدليل على سلامة نياته نحوهم ، وانما كان يبرر الخطة التى سلكها معهم بما كانوا يلقونه من العثرات فى سبيل مايبغيه من الوقوف فى الوسط بين النقيضين ، نقيض الاوامر المتطرفة الواردة عليه من الباب العالى ونقيض الشدة التى كان المماليك يجعلونها أساس مطالبهم .

وكان حظ الجنرال استيوارت من الفشل فى مساعيه كحظ المبعوث الفرنسي ، فأنه عين بدلا من الميجر جنرال كافان ، منذ أحست الوزارة الانجليزية بعجزها ، بأساليب السياسة، عن تأييد شوكتها فى البحار ، فعادت الى مسالمة المماليك ومهادنتهم . وكان الجنرال استيوارت ، قبل ان يتم له هذا التعيين ويتولي قيادة حامية الاسكندرية ، قد ذهب الى الاستانة لحسم المشاكل التى القت بمصر فى مخالب الفوضى والفتنة ، إلا أن الباب العالى لم يعبأ بهذا السعى ولا بما ذكر فى غضونه من أقوال مبرقشة بألوان الشفقة والرفق . فلما عاد اللورد استيوارت من رحلته والفشل رائده اتخذ فى مخاطباته مع والى مصر لهجة خالية من كل أثر للمجاملة وتعجله فى قضاء مطالبه ، فاعترض الوالى بأن السلطة الممنوحة له محدودة . ثم ساءه ان يرى فشل الجهود التى بذلها ، على الرغم من انتصار المماليك على الحشود العثمانية فى خمس معارك متعاقبة ، وان يتلقى من الكولونيل سيبستيانى الانذار تلو الانذار بالرحيل عن مصر أرسل الى الباشا قبل رحيله الرسالة الآتية :

« لقد استطاع المماليك ان ينقضوا كل ما أبرم من المشاريع للنكاية بهم ، بل انهم فعلوا أكثر من ذلك اذ جاسوا خلال الوجه البحرى متنقلين من فوز الى فوز وقطعوا طولا وعرضا تلك البلاد التى اصبحت ملطخة بدماء القتلي . فإن أكثر من ثلاثة

آلاف جثة لا تزال طريحة الثرى فى المسافة القصيرة بين دمنهور والصحراء ومازالت القبائل القوية من العرب الذين تبعوا الامراء وانضموا الى حزبهم يفرضون الضرائب والأموال على جميع بلاد الضفة الغربية للنيل ، بينا قائدكم مرغم على البقاء محصورا فى معسكره يرمق ، ولا يتحرك ، حوادث التخريب والتدمير .

« واذ كنت ، بالرغم من ذلك ، شديد الرغبة فى عضد الباب العالى ومناصرته فى سبيل المحافظة على مصالحه بمصر ووقايتها من الاخطار الجسام التى تهددها ، فقد قررت للمرة الأخيرة ان أعرض وساطتى لحل هذه المشكلة . ولقد أتيح لى اقناع الامراء بالعودة الى الوجه القبلى ، فى سلام وسكون ، إلا أنهم يشترطون لذلك شرطا وهو وضعهم الايدي على بعض المخازن العسكرية فى الاسكندرية . وانى لأرى أن المساعدة الجليلة التى وافونا بها فى سبيل اخذ هذه المخازن العظيمة الشأن من العدو المشترك تجعل لهم حقا قانونيا فى مراعاة جانبهم وعدم الاجحاف بحقهم » الخ

واصطدم اقتراح الوساطة بصخرة الخيبة والفشل فكان حظه حظ الاقتراحات السابقة عليه وايقن القائد الانجليزى ان الالحاح فى صدده قد يبعث على تحقير شأنه والسخر منه ، فضلا عن عدم ملاءمة الظروف له مع وجوب المبادرة بالرحيل . وفى يوم ١٠ من ذى القعدة سنة ١٢١٧ ، الموافق ٢٣ فنتوز سنة ١١ من

الجمهورية و ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، سلم الانجليز الى الاتراك حصون الاسكندرية وعهد خسرو باشا المحافظة على هذه المدينة الى خورشد باشا بعد ان قلده رتبة الباشوية . وعقب ذلك بيومين ركب الجنرال استيوارت سفينته قاصدا بأسطوله الى انجلترا .

ولا خلاف فى أن المماليك وقعوا فى خطأ فادح اذ ضربوا صفحا ، فى واقعة دمنهور ، عن توسيع نطاق انتصارهم والحاق فوزهم فيها بفوز آخر . فأنهم بدلا من الزحف على القاهرة التى كانت مفتوحة الابواب أمامهم قضوا ثلاثة أشهر فى الروَحات والغدَوات حول ثغر الاسكندرية دون ان يأتوا بعمل باتّ فى مصيرها . فلما احتلها الاتراك اصبحت مركزا قويا من مراكز الهجوم . ولقد استشعروا خطأهم بعد أن سبق السيف العذل اذ رحلوا عن الدلتا ميممين الوجه القبلى كى ينضموا فيه الى الامير ابراهيم بك . ولقد فرضوا فى رحلتهم هذه الفرَضَ المالية على جميع القرى الواقعة على الضفة اليسرى من النهر حتى المنيا . ومعلوم ان هذا البندر من المواقع المهمة فى الوجه القبلى ، فإن ضيق النيل أمامه يعرض لنار الحصون السفن المارة فيه على مقربة منه . غير أن معدّات الدفاع كانت ، من ناحية الريف شمالا ، لا تعدو ان تكون استحكامات أقيمت على عجل ولم تجهز مدافعها بما يكفى من الذخيرة ولا بمن يقوم على اطلاقها القيام الحسن . دع أن رجال الحامية كانوا متذمرين لقلة ما لديهم من

الذخائر والمؤن ومستائين لتأخير مرتباتهم وتحرّش العربان المجاورين بهم فى كل آن . وعلى الرغم من صعوبات حصار يرجع كل الجهد فيه الى فعال الفرسان واجراءاتهم فإن المدينة لم تلبث ان سقطت فى اليوم الرابع من تطويقها وكان لهذا الحادث دويّ كبير فى الآفاق اذ انشطرت مصر بسببه شطرين ، فانقطعت المواصلات بين القاهرة والصعيد وأصبح اقليما اسيوط وجرجا بحيث لا يستطيعان التعويل ، فى الذود عن حياضهما ، إلا على القوات المستقرة فيهما ، وهو ما ألزمه ملازمة الحذر ، من جهة ضد المماليك ومن الاخرى ضد العربان الذين جاءت هذه الظروف وفق مرادهم .

وكان بدهيا ان يستدعي تفاقم الخطب على المثال الآنف إعمال الروية والتماس الذرائع لدفعه ، فقد اصدر الباشا أمره باستدعاء جيوش محمد على وطاهر باشا ، فتحركت هذه الجيوش من معسكراتها بالبحيرة يوم ٨ محرم سنة ١٢١٨ ، الموافق ٣٠ افريل سنة ١٨٠٣ ، فاستقر جيش محمد على فى ضاحية القاهرة وجيش طاهر باشا داخلها .

وكان جنود الجيش الثانى قد اضناهم التعب وأمضهم بعد الشقة ، وكان ينقصهم كل ماينبغى ان يتوافر من مهمات الجيوش . فلما طلب اليهم السفر الى قبلى لمطاردة المماليك طالبوا بتأخر أجورهم ولجوا فى الطلب ، فبعث الوالى بهم الى الدفتردار

خليل افندى المعين من قبل السلطان حديثا فى هذا المنصب، فلما سأله العسكر دفع متأخراتهم أحالهم على محمد على. ولم يكن هو كذلك بحيث يستطيع سداد حقوقهم، لأنه لم يكن استولى على شىء من المال برسمهم. فازداد الجنود تذمرا وتنمرا وسادت بينهم الفوضى حتى كادت تنقلب الى ثورة. وفى يوم ١٠ محرم، الموافق ٢ مايو، حصروا بيت الدفتردار صائحين صاخبين، فسألهم امهاله أياما ريثما تصل الأموال اليه لدفع حقوقهم، فرفض المتمرّدون الانتظار وتجلى لخسرو باشا حرج موقفه فمال، فى حل المشكلة، الى جانب الشدة والصرامة، نابذا من وراء ظهره كل وسيلة للصلح والمحاسنة: اذ أطلق المدافع على جموع المتمردين لاخضاعهم بالقهر والغلبة فلم تزدهم هذه المعاملة الا تمردا، حتى لقد اطلقوا بنادقهم صوب الجانب الغربى من ميدان الازبكية حيث قصر الوالي. ونفرت جنود محمد على الى تعزيز المتمردين وشد أزرهم وحمى وطيس القتال بينهم وبين القوات المسوقة لتأديبهم.

وفى الأثناء كان طاهر باشا يقترح على الوالى الوساطة لدفع النازلة فلم يجبه الى ما طلب بل اتخذ الجفاء والغلظة فى رفضه. فاندرع طاهر باشا يحرض جنوده على الفساد والفتنة خدمةً لمقاصده وتحقيقا لمطامعه. وماهى الا فترة قصيرة من الزمن حتى استقدم الدفتردار وألزمه عرض دفاتر الحساب عليه لفحصها.

وفى اليوم التالى كشف القناع عن وجه مقاصده ومراميه فأخذ سمته الى القلعة على رأس طائفة من رجاله . وقد تمكن فريق منهم بالحيلة والفريق الآخر بتسلق الاسوار من اجتياز المنفذ الاول ، فما هى الا ساعة حتى سقطت فى يدهم . وكان خازندار الوالى قائد حاميتها فعوقب على ما اظهره من الجبانة والتردد فى الدفاع عنها وكان الذى يطالبه بتسليمها هو نفسه الذى اوقع به العقوبة . ولم يتصل بمحمد خسرو باشا خبر الاستيلاء على القلعة الا وقيما سمع دويّ القنابل التى كانت شظاياها تهطل كوابل المطر على سقف قصره وفى حدائقه الغناء .

وقد أبدى المدافعون عنه من آيات الأمانة والوفاء للوالى فى دفاعهم ماالستوجب شكره لهم ، على أنهم اضطروا فى يوم ١٢ محرم الموافق ٤ مايو الى الخضوع والتسليم عقب هجمة صادقة كان المهاجمون فيها أوفر عدداً وأوفى عدة فرحلوا عن ذلك القصر وتركوه اطلالا وهو القصر الذى شاده محمد بك الألفى واقام به القائد العام للحملة الفرنسية فى عهد احتلالها لمصر .

خرج خسرو باشا من القاهرة يحيط به الموالون من ضباطه وعساكره ويتبعه نساؤه وأخذ سمته الى المنصورة متبعا فى سيره الضفة اليمنى من النهر ويحميه فى هذا الانسحاب الفرنسيون الذين كانوا فى خدمته والعبيد المدرّبون على الأنظمة الفرنسية بمعرفة هؤلاء الضباط وتسعة وتسعون من الحرس الاتراك .

وفى المساء جمع طاهر باشا حوله كبار الموظفين واصحاب المقامات الرفيعه لاختيار زعيم يلقون اليه بزمام ادارة شؤون البلاد . وكانوا يعرفون جميعا ان المرشح لهذا المنصب هو ذلك الذى دعاهم الى الاجتماع ، فدنا القاضى منه وألبسه خلعة القائمقامية الى ان ترد أوامر الباب العالى فى هذا الصدد . ولم يغب عنه فى الوقت نفسه ان من أعضل المسائل التى يتوقف على حصافته حلها واكثرها التواء بذله كل مافى طاقته من الجهود والوسائل للاحتفاظ بالمنصب الذى آل عفوا اليه ، فكان أول مامر بخاطره من التدابير أن يتخذ مايكفل له منع خسرو باشا من العودة الى تقلد الولاية . فأنفذ اليه ، لكى يقنعه بالزهد فيها ، جيشا من الألبانيين بقيادة ابن اخيه حسن بك وتعقبه هذا الجيش مغذا فى سيره حتى التقى بثلاثمائة رجل من اتباعه يقومون بحماية خط فارسكور ففتك بهم جميعا كما فتك بقائدهم احمد أغا . وكان خسرو باشا ومن بقى من رجالهقد برحوا المنصورة يوالون سيرهم الى شبه جزيرة دمياط ، ووقفوا يرتقبون نتيجة الحوادث فى هذا المكان الوفير الخيرات الطيب المناخ بطبيعته .

ولم ينس طاهر باشا ، مع هذا كله ، ان يتخذ الوسائل اللازمة لاقرار الامن والنظام فى نصابهما بداخل البلاد فكان فى طليعة ماتوجهت عنايته اليه أن أصدر منشورا يعيد به الطمأنينة العامة فى النفوس واعطى للمسيو روزتى قنصل النمسا والروسيا

العهد باحترام الافرنج والمسيحيين واليهود ورعايا الدولة العلية وصيانة حقوقهم بلا فارق بينهم ، بيد ان القدر أراد ألا تتحقق هذه الأماني كغيرها مما سبقها . فلقد ضربت الضرائب الفادحة على التجارة وسيم الناس جميعا خطة خسف ، فاذا توانى احدهم فى تنفيذ ارادة ذلك المستبد الغاشم ، ولو لم تكن فى شىء من العدل والصواب ، عوقب بالالقاء فى غياهب السجن او بتعذيبه والتنكيل به . وحدث ان رجلين من القبط وثالثا من أهل دمشق كان كل جرمهم أنهم من اصحاب الثروات الواسعة والجاه العريض وانهم حركوا بثروتهم ووجاهتهم عوامل الحسد فى نفسه فأسلمهم الى الجلاد . على أن عهد هذا الظالم الغاشم لم يطل اذ لم يبق فى الولاية اكثر من اثنين وعشرين يوماً .

وحدث أيضا ان الامراء المماليك وجهوا برسالة الى الوالى السابق خسرو باشا فتسلمها القائمقام طاهر باشا وفض ختامها ، وما أن جاء على آخرها حتى فكر فى استمالتهم الى جانبه . وكان على علم بما احرزوه من النجاح الساطع فى كل مكان ، فكتب اليهم ليخبرهم بما عقد من نية على اسناد المناصب العليا اليهم ودعاهم بلهجة الحب والاخلاص الى التعجيل بالحضور الى القاهرة ، فأصفقت آراء الامراء على قبول هذا الاقتراح وساروا من فورهم ، فلما دنوا من الجيزة حطوا برحالهم وأقاموا معسكرهم . وكان طاهر باشا ، لشدة رغبته فى مفاوضتهم ، يتأهب

لعبور النيل الى الضفة اليسرى . بيد ان الليالى كانت حبلى بالحوادث فقد تمخضت منها بما لم يكن يتوقعه وبما حال دون تنفيذه تلك النية . ذلك ان العثمانيين ، وان لم يشاركوا الالبانيين فى ثورتهم ، كانوا لايقلون عنهم تذمرا واستياء إذ طالبوا طاهر باشا مرارا ، لكن بلا جدوى ، بدفع مرتباتهم فقرروا استئناف المطالبة لآخر مرة . ففى يوم ٣ صفر سنة ١٢١٨ ، الموافق ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ ، تقدم البكباشيان اسماعيل أغا وموسى أغا لعرض مطالب الجيش ورفع رجائه ، فلم يشأ طاهر باشا ان يسمع لهما قولا فلجا فى مطالبهما وأصرّ هو على رفضها واشتد بين الفريقين اللجاج وعلا الصياح بما جمل طاهر باشا يلجأ الى تهديدهما فانقض الضابطان عليه وقطعا رأسه وألقياه من نافذة كان جالسا بجوارها. ولما كان الشر يجرّ الشرّ والدم يجذب الدم فقد وقعت معركة عنيفة بين فريق الاتراك الذين يتألف الوفد منهم وبين الالبانيين الذين فى خدمة القائمقام ، وقد انتهت باحراق القصر الذى اتخذه مقرّا له .

ولما بلغت الامور الى هذا الحد من الشدة والحرج بادر بعض الرؤساء العثمانيين فعينوا فى الولاية رجلا اسمه احمد باشا كان قد وصل الى القاهرة فى طريقه الى ينبع لتسلم قيادة الحامية التركية فيها . ومثل هذا التقليد لم يكن ، لاهميته وخطورة شأنه مما تزهده النفس او تتورّع عنه الاطماع ، فقبله طبعا . ومنذ

مساء اليوم الذى تسلم فيه زمام الامر أبلغ الى محمد علي ، بوساطة كبار الشيوخ ، نبأ تقلده الولاية وتسلمه مقاليدها . فأجاب الزعيم الألبانى بأنه لايعرف فى شخص احمد باشا الا انه رجل أجنبيّ وليَ ولاية إقليم عربي وأنه غير أهل للاضطلاع بأعباء شؤون مصر لجهله بدخائل امورها . ثم بادر من فوره فقصد الى معسكر المماليك وفاوضهم فى الأمر وما زال بهم حتى استمالهم الى رأيه . وكتب ابراهيم بك ، بوحي منه ، الى احمد باشا يدعوه الى مغادرة القطر حالا وتسليمه قتلة طاهر باشا فلم يسع احمد باشا إلا أن تنازل عن الولاية ، وهو ما كان لا محيص عنه لفقده العضد والنصير . وقد اشترط لذلك ان يوفروا له اسباب الرحيل الى بلاد العرب ، لكن سبق الى خاطره ان القوم سوف لايكترثون بهذا الشرط فعدل عنه وآثر ان يلوذ مع شرذمة من الجنود التركية بجامع الظاهر بيبرس بظاهر المدينة ، وهو الجامع الذى كان الفرنسيون قد حولوه الى قلعة أسموها قلعة شولكوسكى الضابط البولونى ملازم ركاب (ياور) القائد بونابرتة . واقتفى الالبانيون أثر احمد باشا فلما أدركوه اتخذ اوضاع الدفاع ، لكنه لم يلبث ان أذعن لقلة مامعه من الرجال وعدة القتال ، فسيق أسيرًا كما سيق البكباشيان موسى واسماعيل أغا الى ضفة الخليج بالقرب من قصر العينى ، مصيف ابراهيم بك ، حيث رمى عنقهما . وأذيع فى المدينة أمر باسم محمد علي

وابراهيم بك بالعفو العام عن المذنبين وخلصت أزمة الحكومة، منذ هذا اليوم ، للالبانيين والمماليك فاحتل الاولون القاهرة والآخرون قلعتها . وكان هينا ان يتكدر صفاء هذا الحكم الثنائي ، لأن خسرو باشا ما كاد يعلم بمآل المغتصب طاهر باشا حتى اعتزم العودة الى القاهرة موقنا ان الفرصة قد تهيأت لتسلمه زمام الحكم من جديد ، بيد أنه لم يلبث ان فوجىء بقوة من المماليك والارنؤود فعاد ادراجه الى دمياط .

وشرح ذلك ان محمدا عليا كان قد زحف على دمياط في جيش من المشاة الالبانيين بلغ عدده ، بانضمام مماليك عثمان بك البرديسي وعربان حسن بك ، الى عشرة آلاف مقاتل . ففى ٦ ربيع الثانى سنة ١٢١٨ ، الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٨٠٣ ، وقف هذا الجيش امام الاسوار التى تحصن الاتراك فيها وبدأ الحصار . وكان (أيسن) احد ضباط فرقة الهندسة الانجليز قد حصن نقط الدفاع المختلفة كما كان (سليم كومب) احد المماليك الفرنسيين يقوم على مدفعية المتحالفين . فقضى الفريقان أربعة أيام وصالا يتبادلان الضرب بالمدافع دون نتيجة يحسن الوقوف عليها وكانت البنادق لاتصيب اهدافها لقصر مرماها ولانغمار مابين المدينة والمحاصرين بماء ترعة كبيرة هناك ، وهو ما اضطر المحاصرين الى التدبر في عبورها . وقد أخذ جندى على عاتقه سبر غورها فتزيا بزيّ الفلاحين وأخذ معه بضاعة من البطيخ بحجة ظاهرها نية

بيعها فى السوق ، لكنه اخذ يسبر الاغوار حتى اهتدى الى مكان لايزيد عمق الماء فيه على ثلاث أقدام . وفى الليلة التالية رأى الزعيمان المتحالفان ان قد حان الوقت للاستفادة بحيلة الجندي المتنكر فكان هو فى مقدمة من حاولوا عبور الترعة ، ودفع التيار محمدا عليا الى بعيد ، لكنه لم يلبث ان عاد الى رفاقه وبلغ بهم الى الشاطىء فاستولى على الحصون والمدافع ثم على المدينة فى فجر اليوم التالى ، على الرغم من شدة نار الاتراك . ولم يسع خسرو باشا تجاه هذا الخذلان الا ان ينسحب الى العزبة الواقعة على نهاية الفرع الشرقى من النيـل حيث قاوم مقاومة عنيفة اضطر بعدها الى التسليم . وضرع الى محمد على ان يعامله بالحلم وسعة الصدر فعامله هذا بما كان يرجوه منهما ثم بعث به اسيرا الى القاهرة فلم يقصر ابراهيم بك فى مقابلته بالعطف والمجاملة علما منه بأن اللقاء الحسن حق من حقوق العظماء الذين أخنى عليهم الدهر ونزلت بهم بوائق الزمان . قصد محمد علي وعثمان بك البرديسى ، بعد ذلك ، الى الرحمانية حيث صرفا جهودهما الى جمع الزوارق وحمل الذخائر وتداولا فى الاجراءات الحربية المقبلة وهناك مر بهما المسيو (دولسبس) قنصل فرنسا ، وكان فى طريقه الى القاهرة ليرفع رايتنا فيها عالية .

وكان من نتائج انتصار المماليك ان هاجت خواطر اعضاء الديوان العثمانى ، فبادر بارسال والٍ جديد الى مصر لمنع اعداء

الدولة العلية من الاستقرار فى حكومتها . ولقد كان فى وسعهم اختيار رجل مثقف مدّرب بصير بالامور ، فى هذا المنصب الخطير ، الا أنهم عينوا فيه على باشا الجزائرلى من المماليك الجراكسة ،وكان قد بيع فى نضارة شبابه الى محمد باشا داي الجزائر ثم اهدى الى امير البحر حسن باشا فلم يلبث ان رفعه الى اسنى المراتب وحلاه بالالقاب . والمأثور عنه انه من ذوى الدّربة فى السلب والنهب والخيانة والغدر وانه عوقب بالضرب والنفى مرارا وصدرت عليه احكام فاضحة شاع امرها بين مواطنيه .

وصل هذا الرجل الى الاسكندرية فى ٨ يوليو سنة ١٨٠٣ حاملا لقب الباشوية ومعه الف جندى من المشاة . ولا مشاحة فى ان ضعف هذه القوة يبعث حتما على فشل الاجراءات الحربية فعول الوالى على سدّ هذه الثلمة بالدهاء والمكر والخديعة ، غير أنه لم يكن موفقا كذلك فى هذه السياسة ، لأن الأمراء ، بعد أن أصبحوا أصحاب الحل والعقد فى القاهرة ، قرروا البقاء بها ولو ليثأروا لأنفسهم من الوالى لمعاملته اياهم بالاحتقار حينما أبى الاصغاء الى اى شكوى تصدر عنهم . وفى ١٢ اغسطس استولوا على قلعة رشيد وأسروا قائدها السيد على أغا على باشا الجزائرلى ثم ألقوا على بحيرة المعدية قنطرة من الزوارق لعبور الجنود ونقل المدافع وزحفوا على الاسكندرية التى أخذ الوالى الجديد يحصنها ويقوي مواطن الضعف فيها ، واتخذوا دمنهور معسكرا

لهم . وكان فريق من الالبانيين والمماليك قد سبقوا اليها .

وحدث أن زار أحد شيوخ الجوربجية عثمان البرديسي في سرادقه فلثم هذا الزعيم يده واجلسه الى جانبه وسأله رأيه في المحالفة بين المماليك والالبانيين وكان هذا الشيخ في السادسة بعد المائة من عمره وكان معروفا بالتقوى واصالة الرأى وبشيء من العلم بأنباء المستقبل فأجاب بما يؤخذ منه ان هرجا شديدا يتخلله سفك دماء سيحدث قبيل عيد الأضحى . فسأله عثمان بك من أين يأتي هذا الهرج ومن الذى يسفك الدم والى جانب من سيكون الظفر : أجاب الشيخ ان الذئاب ستفترس الأجانب . ثم أمسك عن الكلام لرشف كأس قهوة قدمت اليه . وتذكر البك في الاثناء ان أهل البلد كانوا يسمون المماليك بالجنس الاجنبي ، فتوجس ان يكون الالبانيون هم المقصودين بالذئاب في عبارته . وقضى نحو الساعة واجما كاسف البال تائها في بيداء الفكر والتأمل مارًّا بيده دراكا على لحيته .

وكأن حوادث الطبيعة جاءت تؤيد ماتفاءل به الشيخ من شرّ فلم يبلغ فيضان النيل حدّ الوفاء الملائم للزراعة فارتفعت اسعار الاغذية ارتفاعا فاحشا ووقفت المجاعة بالأبواب . وكان المال الضرورى لقضاء حاجات الجند قد نفد من يده ونفد من هؤلاء الصبر فقاموا يتهددون ويصخبون . وكانت نبوءة الشيخ قد تركت في نفسه أثرا مزعجا فعجل بالعودة الى القاهرة بعد

أن سبقه اليها بسبعة أيام ، أى فى شهر فروكتيدور سنة ١١ للجمهورية و٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢١٨ و ١٦ سبتمبر سنة ١٨٠٣ ، قائد الالبانيين محمد على الذى قرر ألا يغامر برجاله فى حرب جديدة مادام أنهم لم يتقاضوا أجرة أتعابهم فى الحروب الأخيرة .

وكان محمد على متسلطا على ارادة البرديسى دون أن يتنبه لهذه الهيمنة ، فلما وصل الى القاهرة اتفق على ادارة الشؤون العامة مع ابراهيم بك الذى اعتمد فى تحصيل المال لدفع متأخرات العسكر على ضرب الفرض الباهظة فتبرم الاهلون بهذا الارهاق الذى جاء ، بعد ان ذاقوا الويل من عبث رجاله وافسادهم ، ضغثا على إبالة . ولقد رؤى ألفى بك الصغير الذى تلقب بلقب استاذه وهو يأمر وينهى ويحل ويعقد دون ان يوجه احد اليه اعتراضا أو يعقب عليه معقب ، حتى لقد أمر بقتل قاضى الجمارك لأنه لم يجبه الى ما طلبه من حطب الوقود ، كما شوهد حسين أغا والى (أغا مستحفظان) يأمر بسجن احد الشيوخ ، لكى يصيب منه المال الذى سيفتدى نفسه به . وطالبه ابراهيم بك بردّ الرجل الى اهله فبعث اليه برأسه يقطر دما . وهذا حسين بك الزنطى ، رسول مراد بك سابقا الى الجنرال كليبر ، ألم يرتب عصابات الناهبين والقتلة ويتولّ قيادتها ليستولى بواسطتها على قلعة المقياس ويخطف الاهالى والجنود الاتراك من عرض الطريق

ويقذف بهم فى النيل من اعلى سلم ويسير الزوارق المدفعية لضبط السفن الآتية من الوجه القبلى ونهب مشحونها ويخنق اغنياء الحجاج والمسافرين ويطرح جثثهم فى النيل بعد سلبهم ما يملكون .

وما من فرصة لاحت لعلى باشا الجزائرلى إلا انتهزها للسير بين الناس بالظلم والعسف ، فهو لم يرع الامتيازات الممنوحة للافرنج ولم ينظر فى شكاوى قناصلهم بل حرض جنوده على الاقتداء به فكانوا اذا عادوا من التدريب العسكرى اطلقوا بنادقهم على نافذات منازل الافرنج . وحدث ان نفذت رصاصة الى داخل القنصلية النمسوية فكادت تقتل نائب القنصل ، ولم تنج اعلام الفرنسيين والسويديين والروس من هذه الاهانة حتى أصبح من المتحتم الزام مرتكبى هذه الجرائم والموعزين اليهم بها بالترضية التامة واضطر الافرنج الى اغلاق مخازنهم وختمها وجعلها تحت نظر خورشد باشا (حاكم الاسكندرية) . ونزع القناصل رايات دولهم من فوق دورهم ثم هجروها ليلتجئوا مع فريق من رعاياهم الى الاسطول العثمانى الراسى فى الميناء القديمة . ولم يسع الوالى ، وقد شعر بحرج مركزه ، إلا أن يعرض على القناصل صلحا فلم يرضوا بشروطه ، لكن خورشد باشا قد وفق لامضائه بما أنسته الجاليات من شرف طباعه ونبالة مقاصده . وكان أساس الصلح المعروض ، هو التعهد لها كتابة بألا يصيبها

منذ الآن ضيم ولا يلحق بحقوقها وكرامتها مساس ، فعاد القناصل فى ٢٠ شعبان سنة ١٢١٨ الموافق ٦ ديسمبر سنة ١٨٠٢، الى الاسكندرية ورفعوا الرايات فوق دورهم فحيتها القلاع والسفن الراسية فى الميناء . وحدث ان رجلا يدعى خليل عطا ، وهو شيخ طائفة الشيالين ، عاقب رجلين من اتباعه نيط بهما عمل ما فى قنصلية فرنسا ضربا بالعصى بلا وجه حق ، فعوقب بمثل ما عاقبهما به والزم برد ما غصبه منهما من المال وهو تسعون قرشا .

ووضح للدولة ، على أثر هذه الحوادث ، ان المماليك أضحوا بمناصرة الارنؤود لهم اصحاب الحل والعقد ، وانه لاضير عليها اذا هى جذبتهم الى حيزها بالمعروف والحسنى ، فأظهرت لهم الاحترام والمودة وجارتهم فى أهوائهم . وكان أحدهم بالاستانة يرتقب رد الباب العالى على اقتراحات اقترحوها قبل عام ، ففى صباح أحد الأيام وجهت اليه على غير انتظار رتبة البكوية وأعطى خطا شريفا يخول زعماء المماليك جميعا حق البقاء والاستقرار فى القطر المصرى ويمنح كلا منهم مرتبا سنويا قدره ١٥ كيسا ويخص رفاقهم المرءوسين لهم بالاموال المفروضة على بعض القرى ، على شريطة ألا يتدخلوا فى شؤون البلاد ولا فى جباية أموالها .

فوافق البكوات على ماتقدم معربين عن ارتياحهم ورضائهم . ورخص لعلى باشا الجزائرلى بالحضور الى القاهرة

للاقامة فيها، على ألا يتجاوز عدد عساكره ألفا، على أن يتبع فى حضوره طريق دمنهور البحيرة والطرانة على ضفة النيل اليسرى. ومع ان هذا الشرط كان مفرغا فى قالب الكياسة والادب، الا أنه من جهة أخرى كان مصوغا فى قالب الامر والازدراء. ومع ذلك فأن الوالى لم يكترث بهذا الأمر اذ قال إن بوده ان يمالىء اصدقاءه على تحقيق هذه الامنية التى ليس وراءها مايخشى منه. ولم تطلع شمس يوم ٨ رمضان ١٢١٨، الموافق ٢٢ دسمبر ١٨٠٢، حتى تحرك برجاله قاصدا الى القاهرة، بعد ان سبقته اليها باربعة ايام طليعة صغيرة من جنده وكان عدد العساكر الذين ساروا فى معيته لايقلّ فى الواقع عن ٢٥٠٠ من المشاة و ٥٠٠ من الفرسان، وجميعهم حديث عهد بالحضور من الاستانة، فما ان وصل هذا الجيش الى ظاهر الاسكندرية حتى أخذ سمته الى دمنهور، ثم عاج على مقربة منها عن الاتجاه الأصلىّ فعبر الترعة قاصدا الى رشيد وأصبح الاتفاق المبرم بين الطرفين، بهذه المخالفة، كأنه لم يكن.

وكانت حامية المماليك واقفة بالمرصاد وعلى تمام الأهبة لأجباره على السير فى الطريق المتفق عليه وأنس هو منها التحفز للوثبة عليه فتراجع الى طريقه الأول. ولقد أوغر هذا الفشل صدره وثارت بسببه حفيظته فلم يجد ما يبرد غليله الا الأنحاء على القرى والكفور التى مر بها بالتخريب والاحراق والنهب.

ثم عبر النيل تجاه بلدة شلقان وحط رحاله فى كفر الشرفاء القريب من القاهرة لالتماس الراحة . وفى ٦ شوال ١٢١٨ الموافق ١٩ يناير ١٨٠٤ ظهر محمد على وحسن بك والالفى الصغير وسليم بك، الاول والثانى فى طليعة الالبانيين والثالث والرابع فى مقدمة المماليك . وكان العربان يؤدون لهذين الجيشين مهمة الاستطلاع للجناح الايمن بينما كان الجناح الأيسر مرتكزا على النيل . ووقف الفريقان احدهما قبالة الآخر مدة ثلاثة ايام دون ان تبدو حركة من احدهما . وكتب على باشا الجزائرلى فى غضونها الى زعماء الارنؤود ومشائخ العربان والعلماء والناس اجمعين كتبا أراد بها بث الشقاق بينهم ، فأخذ قادة الجيوش ومنهم محمد على يعدونه بالأقامة على الاخلاص والولاء له . ويستدرجونه اليهم بكل الوسائل فآمن بأقوالهم واقبل نحوهم ليلقى بنفسه فى الشرك المنصوب له ، حتى اذا عسعس الليل واحتلكت الظلمة اقبل حسين بك الزنطى فى زورقين مسلحين يقلان رهطا من عساكر الأغريق . ووضع أمتعة العدو وذخائره فى زوارق أخرى فاستولى المماليك والارنؤود عليها جميعا واسروا من كانت تقلهم من الجند . فاحتج على باشا بشدة على هذا الفعل وعده نقضا للاتفاق المبرم فكان جواب الفريقين المتحالفين على هذا الاحتجاج مواصلتهما الهجوم على صاحبه . وفى ١٢ شوال ، الموافق ٢٥ يناير ، قام المماليك والعربان بحركة حصروا الوالى بها

فى معسكره فلم يستطع الخروج منه ، وبعد مخابرات ظلت عقيمة النتيجة اعتزم على باشا المجازفة باقتحام العدو رجاء ان يظفر به فيستتب له الأمر ويستأثر بالحكم . فأبى رجاله ان يحملوا بنادقهم محتجين بقلة عددهم وبالخوف من مخالفة اوامر الديوان القاضية بأن يكون أخذ الاهالى ، لتأييد سلطة الدولة فى مصر ، بالمعروف والحسنى . وجاء امتناع الجنود عن القتال ضربة قاضية على الباشا فاختبل فى امره ولم يدر الى من يلتجىء فى هذه الازمة ، إلا أنه عول على مواصلة السير فى طريق الواجب . فقصد فى ١٤ شوال ، الموافق ٢٧ يناير ، الى مخيم المماليك فى خاصة من رجال حاشيته ، ومنهم ابن اخيه حسن بك فقوبل فيه بمظاهر الحفاوة والتكريم . وبينا كان ألفى بك الصغير يجرد الاتراك من سلاحهم ويرمى اعناق ستة من زعمائهم ويبعث بالعسكر الى حدود صحراء الشام تحت حراسة العربان ، كان على باشا ، وهو فى ضيافة عثمان بك البرديسى ، يحيك الدسائس ويدبر الكمائن ، فقد انشأ يراسل فى السرائنين من كبار زعماء الثورة في القاهرة ، وهما عثمان بك حسن والشيخ السادات ، فضبطت رسائله اليهما وعرضها الـكيخيا زعيم المماليك على الباشا موجها اليه الاسئلة الآتية .

— أتعرف هذه الاوراق ؟

فأطرق على باشا الجزائلى برأسه ولزم الصمت . فقال له

الكيخيا .

— لقد حان وقت رحيلك فان الخيل تنتظرك .

— والى أين اذهب ؟

— الى المنفى لأنك لم تعد اهلا للبقاء بيننا .

وفي الحال ألفت ، لحراسة الوالى ، شرذمة من الجند بقيادة محمد بك المنفوخ وسليمان بك ابراهيم فسارت به ورجال حاشيته الى المنفى . وفى رواية ان البرديسي صعد فى هذه الساعة الى قمة أكمة ورفع الى عينيه منظارا ليشيع الباشا المسكين بنظرات السرور والابتهاج وشعور ارتياح النفس فلما توارى عن نظره صاح : « لقد أخذت بثأرى » . وعلى مسيرة ساعتين من المعسكر ترجل على باشا للاستراحة مع رفقته ، فما كادوا يأخذون مجالسهم حتى أحاطت بهم فصيلة من المماليك وضيقت عليهم الحصار وأحاطت بهم احاطة السوار بالمعصم . وأخذ رجالها يطلقون الرصاص عليهم وجها لوجه فأصيب الوالى بطلقين ناريين ، كما اصيب ابن اخيه الذى ما كاد يشهد جرحه حتى نظر الى عمه وصاح قائلا :

— لقد دنت الساعة ياباشا فهيا بنا نذود عن أنفسنا .

فوضع على باشا ساعديه على صدره وقال :

— ان واليا مسلما يجب ان يعرف كيف يموت فهو لا يلوث يده بلمس العصاة .

ثم نشر امام قاتليه قطعة من القماش الأبيض كانت معه وقال لهم : « ايها الجند ان هذا القماش كفنى وانى مذ عرفت انى من بنى الانسان اى مخلوق زائل لم يفارقنى هذا الكفن . واعلموا انى لن أسألكم عفوا فاضربوا ماشئتم ، لكننى استحلفكم برسول الله وبصحابته ان لاتحرموا جثتى هذا الكفن » .

عندئذ مال العساكر عليه بالسيوف والمدى ومن لم يمت من رفاقه بنار البنادق حزّت رأسه بالسيف .

وفى اليوم التالى للمذبحة عاد الى القاهرة عثمان بك البرديسى ومحمد على وغيرهما من الزعماء فأقيمت الزينات والتعاليق فرحا بعودتهم وانزل سعيد على بك اخو على باشا الجزائرلى من القلعة ، وكان معتقلا فيها ، ودار البحث فى المدينة عن رسل الباشا وجواسيسه . وكان على أغا من كبار ضباطه وشريكه الاكبر فى دس الدسائس مستخفيا بالقنصلية الفرنسيةفاتفق مع القنصل على حمايته وتسهيل السفر له من الاسكندرية . ونبهه الترجمان الى انه ، وقد قام القنصل له بهذه الخدمة الجليلة ، أصبح مدينا بالشكر له ، فما كان من هذا الكنود الكافر بالنعمة إلا أن أجاب بما يأتى : « أنا ! انى لست مدينا بشىء لأحد غير الله فأنه هو الذى خلصنى من أيدى الاعداء . واذا كنت الآن حرا طليقا فماذلك إلا لأن خلاصى كان مقدرا فى الأزل » .

ولاح فى بادىء الأمر ان النظام والأمن أوشكا ان يعودا

الى مصر وان ينشرا أعلامهما على ارجائها فإن الارياف كانت قد أقرت بالطاعة للمماليك والالبانيين وذاعت فيها شهرة ثلاثة رجال وهم البرديسى بشجاعته وابراهيم بك بعجزه وضعفه ومحمد على بحذقه وحصافته ، وانضم الى هذه العناصر الثلاثة عنصر رابع هو الشقاق . فأنه لم يمض زمن طويل حتى ظهر بسواحل ابو قير أحد الزعماء الاقدمين للمماليك ، ستره عن الانظار ردحاً من الزمن ، ضباب نهر التاميز ، نريد به المختال الفخور محمد بك الألفى الذى رافق الحامية الانجليزية فى رحيلها من الاسكندرية ، رجاء ان يستميل الأمة البريطانية الى مؤازرة الامراء ، فأعيد الى ضفاف النيل فى الوقت الذى انفتحت فيه على مصاريعها ابواب المطامع السياسية . وكان قد قضى فى انجلترا أحد عشر شهرا سار فى معيشته خلالها على النهج الذى رسمته له الوزارة الانجليزية فكانت ترمقه هذه الوزارة بعين عنايتها تارة وتهمله أخرى ، وذلك مجاراة لما يتصل بعلمها من ارتفاع صولة المماليك فى مصر أو سقوطها فلما ألقت الحوادث الأخيرة بأزمة الحكم فى قبضة رفاقه واخوانه وأصبح هو رجلا حديث الطراز ومقربا من الاعيان والعظماء ومحبوبا من ولى عهد الدولة البريطانية ومرموقا بعين الاعجاب من السيدات اللائى كان يفتتهن منه جمال ثيابه ورشاقة قده وكحل عينيه ، أقبل ارباب الاموال والمضاربون عليه يقدمون اليه المال جزافا . وكان قد

باع الى بعضهم شطراً من الايراد الذى كان يتوقع تحصيله فى المستقبل واشترى بثمنه أثاثا جميلا على الطراز الاوربى لقصر شاهق كانت الامانى تداعبه بانه سيشيده فى مصر يوما ، فلما عاد فى مستهل القعدة سنة ١٢١٨ الموافق ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ نقله فرقاطة انجليزية مسلحة باربعة واربعين مدفعا وتحمل معه لفيفا من الانجليز الذين وعدهم بأن يسند اليهم مناصب الحراس الشرفيين له وجوقة موسيقية للعزف بمختلف الآلات لم تلبث هذه الأشياء ان ذهبت بددًا فيما بعد اذ تقاسمتها ايدى عساكر محمد على كما ذهبت هذه الاحلام اللذيذة هباء منثورا .

وفى السادس من ذى القعدة الموافق ١٧ من فبراير انتشر فى القاهرة خبر نزوله الى البر . ولم يكن البرديسى تطيب نفسه بالتنازل لهذا القادم عن سلطة استقرّت له بحد السيف ، وكان شأن محمد على كشأنه سواء فقضى هذان الرجلان ثمانى واربعين ساعة فى المفاوضة فى امره وفيما يجب ان تكون خطتهما للمستقبل فعقدا النية فيما بينهما على حذفه من صحيفة الوجود . وكان اتباعه واشياعه من المماليك قد سافروا للقائه ، لكن تعذر عليهم الوصول اليه اذ باغتهم خصومهم فى الليلة التالية من رحيلهم بقرب الجيزة وامبابة وأفنوهم عن آخرهم فذهبوا كأمس الدابر تاركين أمتعتهم الثمينة غنيمة لخصومهم . وكاد محمد الالفى يقع فى قبضة نوتية أحد الزوارق الالبانيه فى قنجته . ولولا انه ترك ما كان معه من

الأثاث ونفائس الاعلاق لما وجد الى النجاة سبيلا . ولقد ألقت هذه الوقائع فى يقينه أنه لم يعد محبوبا وان الوسائل قد اتخذت من قبل للفتك به . ثم تولاه الفزع والارتياع فعول ، بعد خروجه الى الضفة اليمنى من النهر ، على الاستخفاء وواصل السير الى ان بلغ الى قرية قرنفيل على مسافة فرسخ ونصف . وكان يخيم بها جماعة من عرب الحويطات فسأل امرأة من نسائهم ان تكرم مثواه فأجابته الى سؤله ولما تنفس الصبح جهزته بفرس واثنين من الهجانة لارشاده وحراسته . إلا أن العربان الموالين للبرديسى اقتصوا أثره وكادوا يدركونه ويقبضون عليه لولا أنه ألقى اليهم بما بقى معه من الخلع الثمينة والجواهر الكريمة فدفعهم الشره الى المال الى التهافت عليه وتركوا ملاحقته فنجا بنفسه من قسوتهم وغلظة أكبادهم . وكان محمد على ، فى خلال ذلك ، عاملا على تشتيت انصار الالفى حيث يجدهم ويضيق الخناق عليهم . ومن ذلك أنه عاقب سليمان بك البواب كاشف منوف واستصفى املاكه لانه احتفى بذلك الأمير وانزله عنده وضافه . اما الانجليز فقد فطنوا لخطأ سياستهم وعلموا ان المعاملة السيئة التى لقيها الألفى منذ وصوله انما هى موجهة اليهم فى شخصه ، فأخذ قنصلهم الجنرال يصيح ويصخب ويحتج ويعترض ، لكن البرديسى كان لا يعير لهذه الصيحات أذنه فذهبت فى تضاعيف الرياح .

وكان البرديسى قد نقل الى مخازنه السجاجيد العجمية والفرش والفضيات والجواهر وجميع ماغنمه الالبانيون من النفائس ، الا انه لم يعجل بدفع المتأخرات المستحقة لهم عن ثمانية أشهر فاستاءوا وتبرموا ورأوا فى هذا المطل نكاية مضاعفة بهم فقصدوا من فورهم فى صحبة زعيمهم محمد على الى قصر البرديسى مطالبين بتلك الحقوق متظاهرين بالصلف ومجاهرين بالتهديد والوعيد ، فوعدوا بأنهم ستابى مطالبهم فى اليوم التالى ، وتدخل محمد على فى الأمر حاضا إياهم على قبول هذا التأجيل ورأى البرديسى ألا محيص له عن فرض فرضة كبيرة على الجالية الاجنبية من اهل الاساكل الشرقية ومن الاوربيين أنفسهم للوفاء بعهده ، فاحتج القناصل على هذا الفعل وعدوه افتياتا على حقوقهم وامتهانا لكرامتهم وفتحا لباب جديد من ابواب الابتزاز وحثوا السواد الأعظم من مواطنيهم على الهجرة الى الاسكندرية ولم يكن الارنؤود قد حصلوا على كل مؤخراتهم فزمروا وتذمروا وكشروا عن انيابهم ففرض البرديسى ضريبة على الأهلين .

امتعض سكان القاهرة من هذه الضرائب المتوالية وقامت ضجتهم وثارت ثائرتهم فأنحوا على رقاب الجباة وظهر من حركاتهم أنهم عقدوا النية المرة الأخيرة على وقاية أنفسهم من قهر الارنؤود وعسفهم ومن ظلم المماليك وابتزازهم .

وقد فطن محمد على آنئذ ان هذه خير فرصة لاقتناص قنيصته فأعمل رويته وصدق نظره واضطلاعه بعظائم الامور ليحول مجرى الحوادث الى ناحيته فقصد بشخصه الى الجامع الأزهر الذى كانت فكرة الاضطراب والثورة مختمرة فيه فواسى الناس بكلماته الطيبة وكفل للشيوخ العدول عن طلب الغرامة واخذ قضاء هذه المسئلة على عهدته فسكنت ثائرتهم وهدأ اضطرابهم ثقة منهم بهذا الوعد . والواقع انه التقى بكل من عثمان البرديسى وابراهيم بك وفاوضهما مليا فى الأمر وبذل ما فى وسعه من جهد لاقناعهما بالاعتماد على وسائل اخرى لجمع المال لاتستثير الخواطر ولاتحرك الاحقاد ، الا انهما منحاه كتفيهما ولم يعيرا سمعهما الى نصائحه الحكيمة بل ذهبا الى ابعد من ذلك اذ نبذاها نبذا . وكان المتبرمون المتمردون يتوقعون الانصاف فى حقهم فأخذوا يتساءلون عما اذا كان الرجل الذى تمكن بكلمات معدودات من تسكين ثائرتهم واقناعهم بالتزام جانب الروية اراد ان يسخر منهم ويهزأ بهم . ولعلهم بلغوا من سوء الظن به الى اقصى مدى فاضطرب حبل السلام ثانيا بما اضرموا من فتنة تناولت اطراف المدينة وسرت فيها سريان النار فى الهشيم .

وفى اول ذى الحجة سنة ١٢١٨ ، الموافق ١٢ مارس سنة ١٨٠٤ ، ذهب حشد حشيد من الالبانيين قبيل الظهر الى البرديسى ، وكان محتميا باحد حصون المجمع العلمى فالتفوا به

فجأة كما التفوا بالجهات المجاورة لدار الصنعة (الترسانة) القائمة تجاهه وبيطارية المدافع التى ركبت بعرض الشارع الكبير . وكان البك كبير الثقة بمناعة موقعه ، الا ان القائمين على المدافع استهواهم المحاصرون اليهم بالمصانعات فما ان اطلقوا عليهم خمس طلقات حتى حوّلوا ، نحو الاسوار التى نيط بهم الدفاع عنها ، فوّهات مدافعهم وتسهل للأرنؤود الاستيلاء بذلك على الترسانة فأخذوا يطلقون البنادق من نافذاتها وسطوحها . وتلقى جميع الجنود أمرا بالحملة على القصر فانفتحت ابوابه على مصاريعها فإذا بزعيم المماليك يمرق منها مروق السهم على جواده ووراءه بعض أعوانه الأمناء وجماله المحملة بأمواله ونفائسه ، واذا به ينتضى سيفه ويضرب يمنة ويسرة ولقد أصيب بجرح فانصرف منسحبا نحو البساتين .

وفى الوقت نفسه كان فريق من الالبانيين يحصر دار ابراهيم بك فقضى هذا الشيخ ليله يتأهب للرحيل ، فلما لاح الفجر خرج فى رهط من كشافه الى الرميلة تحت وابل من رصاص البنادق وفرّ منها الى الصحراء

أما حسين بك الزنطى الذى كان معسكرا بالمقياس فى مائتين من جنود البرديسى اليونانيين فقد أقلع فى سفنه ليدرك ذلك الزعيم ، فأضحى الارنؤود بذلك فى بعض يوم واحد اصحاب الحل والعقد فى العاصمة والمتصرفين فى شؤون القطر . وبلغ عدد القتلى من المماليك بالقاهرة يومئذ ٣٥٠ مملوكا . وهم اذا وقف

خفقان قلوبهم فلم يعودوا يخافون شيئا فان مماليك دمياط ورشيد والمواقع العسكرية فى الوجه البحرى كانت قلوبهم لاتزال تخفق خوفا مما قد يلاقونه فى الغد فأركنوا الى الفرار ولم يلووا فى طريقهم على شيء .

ولقد حان لذلك الذى أسماه الناس بالمسترد للحقوق المغصوبة ان يحقق أحلامه ويقضى اوطاره ، الا انه لم يخدع نفسه بهذا النجاح المحفوف بالاخطار كما لم يستنم الى الشهرة التى أحرزها والثقة التى فاز بها، بل رأى ان يتريث ويتئد ليقيم اركان سلطته على الأساس الوثيقة وقد جعل كل همه صرف الملأ المصرى عن الاعتقاد بأنه نكل بالولاة والمماليك ليحل محلهم ويقبض على أموالهم فرأى أن خير وسيلة للظفر باعجاب الناس به وشكرهم وباطمئنان الباب العالى اليه وثقته به ان يغفل شؤونه الخاصة بعد أن أدى ما أداه للمصلحة العامة وتنفيذا لهذه السياسة الحكيمة قصد الى القلعة فاستخرج خسرو باشا من السجن ونادى به واليا على مصر .

على ان ولايته كانت قصيرة الأجل فان ابناء أخى طاهر باشا أغروا الالبانيين بخلعه فخلع للمرة الثانية فى يوم ٣ الحجه ، الموافق ١٥ مارس ، وارسل من رشيد فى سفينة الى الاستانة . ثم عقد الرؤساء والزعماء اجتماعا اختاروا للولاية فيه خورشد باشا حاكم الاسكندريه ، فوصل الى القاهرة فى ٢١ الحجة ،

الموافق ٢ أفريل ، وكان زمامها فى الثمانية عشر يوما التى خات في يد محمد على اذ أسندت الولاية اليه بلقب قائمقام .

صدر فرمان التولية الى خورشد باشا بعد تقلده اياها بثلاثة اسابيع ، فكان الفرمان الرابع من نوعه فى أقل من عام . وحينما شهد الامراء تقلب الاحوال على هذا المثال حشدوا جموعهم تحت اسوار القاهرة لمنع الوارد عنها واغرقوا المراكب المشحونة بمواد الغذاء لتتفشى المجاعة بين أهلها . واقتدى العربان بهم فى العيث والفساد لاعتقادهم أن يد الانتقام لن تصل اليهم اذ انطلقوا يتلفون المزارع وينهبون المحاصيل حتى لقد اصاب سكان العاصمة من ذلك شر عظيم وجاءت تصرفات الاتراك وعيثهم وافسادهم بعد ذلك ضغثا على إبالة ، فلقد صبغوا الطرقات بدماء الابرياء اذ كانوا يقتلونهم فى الطريق بغير ما سبب وتطاولت ايديهم الى النساء ينتهكون حرمتهن وينسابون عليهن فى الحمامات العامة واشتد الحرج والكرب بالناس حتى شعروا جميعا بالحاجة الى رجل يستقر فى الولاية اكثر مما استقر الوالى الجديد ويعرف كيف يقف عند حد الوسط بين الشدة المفرطه والخور الدال على ضعف الرأى . حقا لقد كان خورشد باشا رجلا ورعا مستقيما ، الا أن الاستقامة خصلة قليلا مايعترف لها بفضل فى عالم السياسة ، فلا عجب اذا لم يبد فى المواطن المفتقرة الى الشدة والصلابة شيئا من أصالة الرأى وبعد النظر فى العواقب .

ومنذ ولاية خورشد باشا على مصر أيدت الحوادث أنه لم يكن بالحاكم الرشيد السديد الرأى ولا بالادارى اللبق الذى يستعين بكتمان الاسرار على قضاء الحاجات ونيل المآرب فقد أمر بتحصيل اموال الميرى من الأقاليم عن سنة لم تستحق بعد مع نضوب مواردها لكثرة ما دفعه الناس بطريق العسف والابتزاز. كل ذلك ليسد مطالب جنود لاحدّ لشراهتهم الى المال ولا لسوء تصرفاتهم. وقد فرض مائة وخمسين كيسا على نصارى دمشق النازلين بالقاهرة وخمسمائة على الاقباط والفين على الشيوخ والوجاقلية واخذ منهم الرهائن من الأشخاص لضمانة سداد هذه المبالغ. ولحق جوره وعسفه نساء أمراء المماليك اذ فرض عليهن ١٢٠٠ كيس. وبهذه الوسائل الجائرة واشباهها أثار فى نفوس الناس جميعا كامن الكراهة له واستفزها للانتقام منه لسوء تصرفه مع تلك النساء. ومضت ثلاثة أشهر كان الاصطدام بالمماليك فى غضونها لايعدوان يكون مجرد مناوشات بسيطة، ولقد حاربهم محمد على بنفسه اربع ساعات أو خمسا بالقرب من بلدة المعتمدية ثم عاد برجاله حاملين رؤوس القتلى اشارة الى الفوز عليهم. وكانت حامية بلبيس مؤلفة من ٣٠٠ جندى فضربت اعناقهم جميعا الا ثلاثة وهم الكاشف واثنان من البكباشية. وصدّ المماليك بالقرب من بهتيم وأخذت استحكاماتهم فى باقس، غير ان محمدا عليا قد ضاقت به الحيل الاحقهم وأخذ

الآفاق عليهم ، والتنكيل بهم فى عمل حاسم ،فتعقبهم فى القليوبية وأنزل بهم الخسائر الفادحة ثم عاد الى القاهرة . وكان عساكره تنقصهم المؤن والملابس فشكوا اليه كثرة المتأخر لهم فقبض فى الحال على اثنين من المثرين ولم يطلق سراحهما الا بعد ان أخذ من مالهما ثلاثين كيسا ولم يكترث لوجاهتهما وجاههما ولا لانهما من المحسوبين على الوالى ، عملا بقاعدة ان الضرورات تبيح المحظورات ولان عمله انما هو لسدّ الخلة وعلاج العلة .

وكان المماليك يجدون من كل ضيق يحيط بهم مخرجا الى الفرج ، فلقد استمالوا اليهم جماعة من انصار الارنؤود وعلموا منهم ما استقر عليه رأى خصومهم فى أمرهم . وكان عبيدهم يذهبون الى المعسكر ثم يعودون باوراق مكتوبة ومخبأة فى انابيب « شبكات » التدخين او فى لحاهم الكثيفة . ولقد ضبط احد اليونانيين حاملا رسالة من هذا القبيل فضرب عنقه فى فناء الديوان .

وكان محمد علي ، وهو على رأس الجنود المعسكرة بشلقان ، قد نكل بالمماليك شر تنكيل واقتفى أثرهم الى طنطا ثم عاد الى قرافة مصر لمطاردة دعّار العربان الذين يزعجون المترددين اليها لزيارة الموتى . وبعد ان قطع من هذه الجهة دابرهم احتل البساتين بثمانمائة من المشاة فما كاد يطأ ارضها بقدميه حتى برزت له من كمائن زمر كثيرة من اخلاط المماليك ودهمت جيشه فتفزع الجنود

وتراجعوا فى بادىء الأمر عن مراكزهم فاعترضهم وأخذ يحثهم على الثبات والاستبسال ويستنفرهم لاستئناف القتال فأصموا آذانهم عن سماع اقواله . واتفق الالبانيون والاتراك عقيب ذلك على مداهمة الامراء ليلا فى خيامهم ، فسار محمد على فى ألف من المشاة منقسمين الى ثلاث فرق قاصداً دير التين فوصلوا اليه قبيل الفجر . وحدث ان اطلق بعض المتحمسين منهم البنادق قبل الشروع فى حصر هذه القرية فاستيقظ عدد كبير من المماليك على دويّ البنادق وامتطوا خيولهم وفروا تاركين من ورائهم الامتعة والمدافع . واستولى الارنؤود على طرة من غير قتال ، وكان نبأ قدومهم قد وصل الى أحراسها ففزعوا الى الجبال وآب محمد على برؤوس أربعة مماليك ضرب اعناقهم بسيفه فألبسه الباشا فروة سمور جزاء شجاعته ، وهى ثانى خلعة أصابها فى أقل من ثلاثة اسابيع .

وفى ٢٢ ربيع الثانى ١٢١٩ ، الموافق ٣١ يوليو ١٨٠٤ ، رأى المماليك ألا فائدة من استمرارهم على حصر القاهرة فرفعوا الحصار عنها . أما محمد الألفى فقد عاد ، بعد ان استخفى ردحا من الزمن فى خيمة احد عربان الشرقية ، الى صفوف اخوانه وشاركهم فى معاركهم الأخيرة ثم انتقل مع ابراهيم بك الى الضفة اليسرى بينما كان البرديسى وعثمان بك حسن بالضفة اليمنى يقيمان الاستحكامات والحصون . وقد استطاعت السفن ،

على أثر هذه الحوادث ، ان تسافر بين ثغري رشيد ودمياط وبين القاهرة وتوارد الفلاحون تباعا الى العاصمة ليبيعوا اهلها مابقي من حاصلاتهم بعد الذى نهب المتحاربون أو أتلفوا .

وما انقضى على انسحاب الامراء الى الصعيد عشرة ايام حتى لمع لأهل مصر فى افق المستقبل بريق الأمل فى تحسن الاحوال ، اذ كان فيضان النيل قد ارتفع الى الدرجة الصالحة للزراعة واحتفل الاهلون بجبر الخليج ، فى مشهد من الوالى ومحمد على والقاضى والاعيان ، ووقعت حوالى هذا الوقت بالعاصمة حادثة كادت تتحول الى كارثة تذهب بحياة الاوربيين القاطنين بمصر .

وبيانها أن اثنين من الارنؤود كانت الخمر قد لعبت برأسهما دخلا على طبيب يونانى فى حيّ النصارى . وكان مسيو (روايبه) كبير صيادلة جيش الشرق وأحد الذين آثروا البقاء بمصر بعد الجلاء لمزاولة مهنة الطب واقفا أمام بيته وبيده عصا تبطن شيشا فلما مر به الرجلان طلبا منه ان يدفع العصا اليهما فأبى فأمسك احدهما بطرفها الأسفل وجذبها اليه فلم يجد بيده غير جفير الشيش وبقى الشيش نفسه بيد المسيو روايبه . فلما وقع نظره عليه أخذه الدهش والاستغراب اذ لم يسبق له عهد برؤية عصا من هذا النوع واشتد به ، الغيظ فتسلح هو وزميله بما كان معهما من السيوف والغدارات وهجما على الصيدلى يبغيان الفتك به ، فاعترضهما الخدم وبعض الافرنج المجاورين وتوسطوا بين

الفريقين حقنا للدماء ، فاصيب اثنان منهم بجراح خفيفة وثقبت رصاصة ثياب مسيو روابيه وأحرقت جزءا منها . وكان أحد الالبانيين شديد التحمس والحدّة فأصيب فى جنبه بطعنة سيف ثم بعيارين ناريين صرعاه . اما صاحبه فأصيب بطلقين وطعنة سيف ، فلما انتشر الخبر توجس اهل الحي خيفة وتفزعوا وأخذت كل عائلة تطلب لنفسها مفرا أو ملاذا . وأغلق باب الحي وتسلقت الأمهات بابنائهن الاسوار المحيطة بدار الشيخ المهدى ودخلن بيته فآواهن عنده وهدأ جأشهن وطيب خاطرهن وما هي الا ساعة حتى حضر قنصل فرنسا ، وكان يسكن حيّ البنادقة وأبلغ الخبر الى محمد على ترجمان قنصل النمسا فجاء الى مكان الحادثة سيرا على الاقدام ، يتبعه بعض رجاله ، فتمكن بلطف حيلته من تهدئة ثائرة الارنؤود الذين كانوا انتشروا فى الطرقات القريبة وتحفزوا للأخذ بالثأر . ثم فتح باب الحي ورتب عليه الاحراس واتخذ التدابير لمنع الارنؤود من طلب الانتقام ، مقنعا إياهم بأخذ الدية عن القتيل وهى اربعة آلاف أربعينية اى قرش عثمانى ، فتسلم هذا المبلغ أخوه . وسار خورشد باشا على سنن محمد على فى المصالحة بين الفريقين فأحال قنصل فرنسا على جمارك الاسكندرية ليقبض منها مبلغا يعدل مبلغ الدية . وكان القتيل بكباشيا تابعا لحسن بك فتشدد هذا فى الأمر ورفض البحث ، فى فض الخلاف قبل ان يسلمه الوكيل الفرنسى رهينة

عنده فعرض المسيو (هلد برند) نفسه ولبث ثلاثة أيام تحت رحمة حسن بك أظهر فى خلالها الشهامة والشمم وحب التضحية وقد سأله هذا الزعيم :

— لعلك كغيرك لاتدرى من القاتل للبكباشى واين مخبأه .

— نعم لا أدرى .

— صدق ما تقول اذ لو كنت تعرفه لبادرت الى ايقافى على الحقيقة حرصا على حياتك .

— كلا . . فإنى اذا عرفتها لن أوقفك ابداعليها .

— ستضطرنى اذا لم تعرفنى بالمجرم لشد وثاقك واعدامك فى صحن دارى رميا بالرصاص .

— افعل ماتشاء فلسوف تسمع حكومتى طلقات النار فلا يلبث القاتل أن يتبع القتيل .

وكان الباب العالى ، على أثر ما ترافد اليه من التقارير المستفاضة فى أحوال مصر ، ينظر بعين القلق الى تعاظم شوكة الارنؤود وتفاقم نفوذ زعيمهم . وكان السلطان جدّ راغب فى وقاية القطر من السقوط فى ايديهم فبعث الى محمد علي وبعض قواد جيشه الفرمان التالى : « تعلمون انه لما أقام الفرنسيون أركان حكمهم فى مصر بذل الباب العالى المال والرجال لاعادة فتح هذا القطر وتنظيمه . ومنذ هذا الوقت وجد بينكم من ساءت نياتهم وفسدت ضمائرهم فألقوه فى مخالب المماليك وسلموا زمامه

اليهم . وليس من قصد الباب العالى ان يتهمكم جميعا بهذه الغلطة ، لكن حيث ان الماضى قد دخل فى خبر كان وارتفعت المسئولية وانمحت الجرائم بالعفو السلطانى فان الباب العالى يدعوكم الى مغادرة القطر والعودة الى اوطانكم أنتم ورجالكم الشجعان . ولعلكم لا ترفضون العودة الى أسراتكم وأهلكم الذين يبسطون اليكم الاكف ليتلقوكم فى أحضانهم . وكونوا على ثقة من ان حوادث الماضى قد اسدل عليها ستار النسيان والغفران وأنه لن ينظر أبدا فى حوادث ولاية خسرو باشا . وان الباب العالى واثق كل الوثوق من انكم ستقدرون تسامحه وعفوه حق قدرهما فتمتثلون أوامره ولا تخرجون عن طاعته » .

لم يستطع محمد على الاجابة على هذا الأمر بالامتثال مادام حصار القاهرة قائما ، فلما انتهى الحصار آثر بعض الزعماء الذين أثروا على حساب الجمهور الاستمرار فى الفتنة ليستأنفوا النهب والسلب ويزدادوا بهما بسطة فى العيش على ان يعودوا الى اوطانهم فتسلب أموالهم .

ومن الذين طلبوا العودة الى وطنهم صادق أغا واحمد بك ، فقد أجابهما الوالى الى طلبهما ومهد لهما سبيل العودة ، إلا أنهما ما كادا يركبان القنجة بموردة بولاق حتى فجأهما الارنؤود ومنعوهما من الرحيل قبل أن يدفعا اليهم المتأخر من حقوقهم .

وشاع نبأ هذا الحادث بالمدينة فاهتزت له الحامية وتوجس

خورشد باشا خيفة فوافاهم بشهر من متأخراتهم ، ثم وزع عليهم بعد ذلك بايام ١٥٠٠ كيس جمعها من الوجاقلية وأنفذهم الى الوجه القبلى لاقتفاء أثر المماليك متهددا بمعاقبة المخالفين منهم لأمره بالطرد فى الحال من القطر المصرى .

اما محمد على فلم يكن رأيه قد استقر على شيء فى موضوع بلاغ الديوان السلطانى . وانما اغتنم هذه الفرصة ليسبر الرأى العام فى امره ويعلم مقدار مايمكن ان تحرزه مشاريعه المنوية من القبول لدى رفاقه ، فذهب من فوره الى الوالى وقال له إن ايراد الحكومة لايفى بنفقات الجند وان اختلال النظام والتمرد لا يقفان لهذا السبب عند حد وأنه يرى من أجل ذلك ألا فائدة ترجى من خدمته فهو يفضل العودة الى وطنه ليقضى به بقية ايام حياته . وبدهى ان الوالى كان يخشى أن يكون مؤيد الجانب من ذى قوة وجاه ومال ، فسرعان ما أجابه الى طلبه وعين سلحداره على جرجا بدلا منه . غير أن خورشد باشا لم يحسب حسابا لرأى الشعب كعادته فى قصر نظره ، فلما كان اليوم الذى شرع محمد على فيه ببيع املاكه تأهبا للرحيل من مصر وانتشر هذا الخبر بين الجمهور الذى طالما كان محمد على ظهيرا له ونصيرا فى الملمات اغلقوا الدور والحوانيت للأعراب عن استيائهم واندرعوا زمرا وشتى الى الميادين العامة والطرقات يصيحون صيحات اليأس والحزن وتألفت من العساكر عصابات للسلب

والنهب فنصحهم محمد على بالسير فى طريق الواجب وعدم الحيد عن جادة الاستقامة . ثم طاف بالاسواق ومعه حسن بك وأغا الانكشارية لاعادة النظام الى نصابه وعانى فى ذلك صنوف المشاق . وجاء ببعض ارباب الفتن فقطع رقابهم وعرض رؤوسهم وجثثهم للأرهاب والعبرة . وفى اليوم التالى قصد مائتا ألبانى ، بقيادة احمد بك ، الى الاسكندرية ودمياط قانطين من تحقيق أمانيهم . وما كان لمحمد على ان يقتدى بهم لما كان يشعر فى نفسه به من انه لو أتى مثل هذا الفعل لكان لفضل مصر عليه جاحدا ولجميلها ناكرا .

عرض الوالى الجنود وألف منهم ثلاثة جيوش وجهها الى الاقاليم القبلية ، أحدها الى جرجا بقيادة السلحدار ، وقد عبر النهر وسار صاعدا على الضفة اليسرى وكان مؤلفا من اربعة آلاف جندي ، وتلاه الثانى فى نفس الطريق يوم ١٢ رجب الموافق ١٧ اكتوبر وكان مؤلفا من ثلاثة آلاف راجل وفارس . وقد سلم خورشد باشا قيادته الى محمد على وخلع عليه كركا من السمور . أما الثالث وكان مؤلفا من الف ومائتى جندى فقد اسندت قيادته الى حسن باشا واعتبر جيشا احتياطيا وكان زحفه على الضفة اليمنى كطابور استطلاعى للطابورين السابقين .

التق السلحدار قريبا من الفشن بجيش من المماليك والعربان فانضم الى سكان هذا البندر فى مقاتلة الجيش الزاحف فقاتلوه بثبات

واقدام . على ان هذا الجيش ظفر بهم فى آخر الأمر وبلغت خسارة الالبانيين مائة وعشرين رجلا بين قتيل وجريح وأرسل أسرى العدو الى قلعة القاهرة . وعلق فى ميدان الرميلة واحد وعشرون رأسا من رؤوس اعيان القتلى وطورد الأمراء الى قرب المنيا . وفيها كان الفوز لهم اذ غنموا من الاتراك أربعة مدافع وقتلوا عددا عظيما منهم ولم تتجاوز خسارتهم اثنين من الكشاف وثلاثة من الامراء . فعزز محمد على قوة السلحدار وحصر الموقع فى منتصف رمضان سنة ١٢١٩ الموافق غاية ديسمبر سنة ١٨٠٤ وكان المماليك قد حصنوا البلدة بالاستحكامات ووضعوا المدافع من مختلف العيارات فى المراكز الضعيفة واقاموا عليها المدفعيين اليونان والعساكر المعروفين لهم بالصدق والاخلاص . وأقام الاتراك استحكاماتهم ونصبوا بطارياتهم تجاه المراكز الأمامية للمماليك وجعلوا مركز فرسانهم بعيدا عن مرمى المدافع فى غابة من النخل واوقفوا المشاة فى خندق يوصل الى الخنادق المحفورة حول المكان المحصور . فبعد ان قضى الفريقان أياما فى المناوشات خرج المماليك من الباب الجنوبى الى الخلاء لقطع المواصلات على الجيش المهاجم ثم اتجهوا نحو بنى سويف وحاولوا عبثا الاستيلاء عليها ، فاغتنم محمد على هذه الفرصة للحملة على المنيا وزحف فى ألفين من رجاله وانتشر ضباب خفيف فساعده على مواصلة الزحف . وما أن وصل الى حافة خندق العدو حتى

تظاهر الفرسان بالهجوم على نقطة فى مواجهة مصر العليا . وكانت السلالم التى نقلها العساكر معهم لاتصل لقصر فيها الى متن الاستحكامات فأمطر الأمراء محمـدا عليا ورجاله وابلا من الرصاص فحضهم على الصبر والتماسك ففعلوا ، لكن عدد القتلى منهم بلغ فى هذه الواقعة الى ٢٦٠ نفسا .

وفى ١٩ القعدة ، الموافق ١٩ فبراير أى عقب هذا الهجوم باثنى عشر يوما ، حاول حسن باشا الاستيلاء على الموقع فلقي من الفشل مالقيه محمد على رغم أن الجبان حسين بك الزنطى تخلى عن جنوده الاغريق والسودانيين فى اول القتال وانضم الى المهاجمين وكان الدعار وقطاع الطرق منتشرين وقتئذ فى الوجه القبلى فاتفق ان رئيس منسر منهم يكنونه بـ (ابو ليلة) اقترح على البرديسى ان يحرق له سفن الاتراك فتهلل وجه البرديسى سرورا واستبشارا وأمر بالعمل فأتى بقربٍ صغيرة وملأها بمادة مركبة من القار وروح العرق . ولما كان ليل ٣٠ القعدة ، الموافق ٢ مارس ، سبح جماعة من اعوانه فى النيل يحملون القرب على اكتافهم حتى اذا دنوا من السفن والشلنبات ربطوها بها واشعلوا النار فيها بالأسطبة (المشاق) وضعوها فى القناديل فسرى اللهب فى السفن قبل أن يستشعر بها احراسها ولما شهد هؤلاء ماالحق بها ذعروا وارتاعوا فبدلا من ان يكافحوا النار التمسوا النجاة لانفسهم بالفرار الى المعسكر . أما محمد علي فعجل

بالذهاب الى الشاطىء وامر بعزل السفن التى دبت النار فيها عن التى لم يصبها أذى فأنقذ بحضور ذهنه ومضاء عزيمته جانبا عظيما من المؤن والذخائر. وكان المماليك، لاعتيادهم القتال فى بسيط الارض، قد ملوا الاقامة خلف الاسوار فبرحوا مراكزهم بلا استئذان كى ينضموا الى الامراء الذين تخفق راياتهم كل يوم فى مكان، ولم تلبث بقية رجال الحامية ان اقتفوا آثارهم إذ قوضوا خيامهم وساروا تتقاذفهم الاقدار الى حيث لايعلمون فدخل الالبانيون والاتراك بلدة المنيا بلا قتال بعد حصار دام ٥٦ يوما.

وفى خلال هذه الحوادث وقعت فى القاهرة جريمة ثارت لها الخواطر وبيانها ان كاشفا من الارنؤود اسمه الدالى عثمان كان يسكن بالقرب من جامع السلطان حسن. وكان يختلف الى بيته لتلاوة القرآن شيخ اسمه احمد البرانى فرأى على فراشه مارابه فطعنه بالخنجر وضربه بالنبابيت ضربا أفضى الى موته بعد ساعات قلائل. ونمي الى العلماء نبأ الحادث فأضربوا عن الحضور الى الجامع الازهر والتدريس فيه بحجة انه لاجدوى من تعليم الآداب والاخلاق، اذا لم يعمل بها، وحمل المشائخ القتيل الى المحكمة حيث وقف القاتل وابن القتيل للتقاضى فصاح الأخير فى وجه الالبانى بعد ان اومأ باصبعه اليه قائلا: «هذا الرجل قتل أبى بلاجريرة. وهو بوشايته الفاضحة انما يبغى ان يستر جريمته ويخلص من الجزاء الذى يستحقه. فإن والدى أكد قبل أن يلفظ

النفس الأخير انه يموت طاهر الذيل نقي الصحيفة » .

وافتى مالك باعتبار كلام القتيل فى مثل هذه الحالة صدقا، لأنه فى حالة يستحيل عليه الكذب فيها وأيد المشائخ هذا النص، فقال القاضى لابد من بينة تشهد على قوله فتقدم واحد للشهادة، لكن انفضّ المجلس وأهملت المسألة حتى يأتوا بالبينة، ثم برئت ساحة الدالى عثمان الذى لم يلبث ان عين كاشفا للجيزة.

واتفق ان جاء المماليك الى هذا البلد وعاثوا فيه فسادا فخرج الدالى عثمان فى طائفة من رجاله لطردهم، لكنه وقع فى كمين نصبوه له فقبضوا عليه وحزوا رأسه.

وكان خورشد باشا قد استشعر ضرورة معادلة القوة الالبانية بقوة أخرى سأل الباب العالى امداده بها. ففى ١٩ القعدة، الموافق ٢٩ فبراير، وصل الى مصر ٣٠٠٠ جندى عثمانى على ان يكونوا تحت تصرفه وطوع اشارته فيما يأمرهم به فاتخذ لهم معسكرا بمصر القديمة والضاحية. وكانوا جميعا من الفرسان السوريين الذين تتألف منهم فرقة الدلاة او الدالاتية، سموا بهذا الاسم الذى معناه الجنون والهوس لتحمسهم فى القتال واقتحامهم الأخطار. وكان خورشد باشا يرمقهم على الدوام بعين العطف والتسامح ويغضى عن زلاتهم اعتقاداً منه انهم سيكونون له نعم الوزر والعضد فى الملمات. ولم يكفه أن خصص ستمائة كيس لدفع مرتباتهم الشهرية بل اباح لهم المغيّ فيما ألفوه ودرجوا

عليه من عدوان على الخلق بالسلب والنهب . وفطن محمد على وحسن باشا حقيقة القصد الذى كان الوالي يرمى اليه بجلب هذا الجيش فقررا التعجيل بالأوبة من الوجه القبلى الى العاصمة . وكانت عودتهما على هذا الوجه من المفاجأة تنذر بقرب نشوب القتال بين الفريقين . ورأى محمد على انه لامناص له من امتلاك القاهرة ليمنع الوالى من اغلاق ابوابها فى وجه اصحابه الالبانيين ونمى الى خورشدباشا خبر تحرك هؤلاء من الوجه القبلى فجمع اليه الشيوخ والعلماء والوجاقلية وأطلعهم على الأمر ناسبا الى محمد على وحسن باشا العصيان والفتنة يقصدان بهما الى تحقيق مقاصدهما الذاتية . ولكي يقنعهم بصدق قوله أبرز لهم من كيس حرير أخضر كان فى يده ورقة قال « انها خط شريف يبيح لي نفى هذين الشقيين الى اى مكان اختاره ، فهما الآن بين امرين اما مواصلة قتال المماليك واما العودة الى اوطانهم الاصلية . أما انتم معشر الحاضرين فالواجب عليكم ان تخلصوا فى خدمة وطنكم وان تشدوا إزرى وتأخذوا بساعدى بكل ما يحضركم من مال وجهد ورأى » فوعده الحاضرون خيرا وقرروا أن يلازمه على التناوب فى كل يوم شيخان واثنان من الوجاقلية وأقام خورشد باشا على تدبير شؤون القلعة البكباشى صالح كوش من المعروفين بالولاء المتين له ومعه مائتا جندي للدفاع عنها وأقرّ الدلاة فى الجيزة وطرة وانشأ بها الحصون والمتاريس ونصب المدافع

وزودهم فيها كل ما يحتاجون اليه من ميرة وذخيرة .

وأما محمد على وحسن باشا فكانا يحثان المسير على الضفة اليمنى من النيل فى أربعة آلاف جندى حتى اذا اقتربا من القاهرة جعلا طلائعهما فى الصف ومعسكراتهما فى التبين ثم ظهرا أمام طره فافتحها أبوابها فأبدى الدلاة شيئا من المقاومة ، الا أن محمدا عليا طلب اليه رؤساءهم للمفاوضة معهم فجاءوه وتفاوضوا فألبس كلا منهم كرك سمور وغمره بالهدايا النفيسة . وكان محمد على ذلق اللسان حسن البيان قادرا على قرع الحجة بالحجة فأقنعهم بأنه لم يكن قط عاصيا وان حضوره انما هو للمطالبة بما لرجاله من الحقوق المتأخرة فى عنق الوالى . وكان مثل هذا الطلب الخيرى العادل جديرا بأن يقابل بالعطف والحمد والثناء على صاحبه وهو مالهجت به ألسنة الدلاة الذين توثقت منذ هذه اللحظة بينهم وبين الارنؤود عرى المودة والاخاء فساروا معهم فى طريقهم الى القاهرة .

وما كاد الالبانيون يمرون من ابوابها حتى انصرفوا الى مساكنهم القديمة ووقف الدلاة عند دير التين ومصر القديمة فارسل الباشا يسألهم عما دار بينهم والارنؤود من المحادثات فأجابوا بان الالبانيين محقون فى افعالهم « ولسنا نحن من نشهر السلاح فى وجوههم لنحول بينهم وبين التماس حقوقهم ولا ندرى ماذا نقول غدا اذا أمسكت عن دفع مرتباتنا الينا وارهقتنا

لتسكت عن المطالبة بها » .

وقف محمد على وخورشد باشا كلاهما تجاه الآخر كما يقف اللاعبان بالشطرنج ، لايكون الرابح منهما سوى الغالب بذكائه وصدق فراسته وسرعة بديهته . وكانت خزائن الولاية صفرا من المال على شدة حاجة الوالى اليه ، والضرائب يكاد يكون من المستحيل تحصيلها من الفلاحين لما انتابهم من ظلم المماليك والعربان وتعاقب مغارمهم . وكانت ادارة البلاد لهذا السبب مشلولة الحركة والدلاة يعيثون فى مصر القديمة فسادا اذ كانوا يغشون المنازل عنوة ويطردون أصحابها ويتسقطون على النساء ويخطفون الغلمان حتى لقد انزعج اهل القاهرة وارتاعت قلوبهم فأغلقوا الحوانيت وعطلوا الاسواق فاشتد الضنك بالعامة فانطلقوا فى الطرقات صاخبين طالبين من الحكومة معاقبة المعتدين . وكانت الحكومة من ضعف العزيمة وخمود الرأى وسوء التدبير بحيث لاتستطيع النهوض بعمل نافع فبرز للمتذمرين كيخيا الوالى وحاول الكلام بلسانه فتلقوه بالسب المقذع وقذف الاحجار . وهنا تجلى للخواطر الفرق الواضح بين الوالى فى عجزه واستكانته والرأى العام فى قوته المستمدة من نفوذ محمد على وحرصه على أوامر الدين واحترامه العلماء والشيوخ وزيارته لهم وتسلطه على الارنؤود وتحكمه فيهم وضبطه لحركاتهم.

وقد تأكد للوالى ماوراء بقاء الزعيم الألبانى من هدم

لنفوذه وحط من مكانته فى أعين الناس فأبلغ اليه ان خطا شريفا وصل اليه من السلطان أمس قاضيا بتعيينه واليا على جدة ودعاه الى مقابلته ليطلعه عليه ثم يتسلم منه التقاليد فى قلعة القاهرة وكان محمد على شديد الحذر بطبيعته فلم يلب نداء خورشد باشا ولم يحفل به وبلغ من امره فى ذلك ان اضطر الوالى الى وساطة لفيف من الاحظياء بثقته اذ ناط بهم السعى لدى محمد علي ليحملوه على اجابة طلبه فاجتمعوا واتفقوا معه على الاجتماع فى دار سعيد اغا للبت فى الموضوع . وقصد محمد علي الى هذه الدار يرافقه كل من حسن باشا وعابدين بك ثم حضر الوالى اليها يتبعه كبار ضباطه وقرأ على مسمع من القاضى والعلماء الفرمان الوارد اليه من الباب العالى بتولية محمد علي على جدة وألبسه كرك السمور والقاووق . وهمّ الوالى الجديد عندئذ بالانصراف فاعترضه العساكر وأوقفوه وطالبوه بمتأخراتهم فأشار الى خورشد باشا وصاح بهم : « هذا هو واليكم فطالبوه بحقوقكم وقد اصبح وحده المطالب بقضائها » ثم أخذ ينثر على الجموع الحاشدة من الاهلين نثار النقود الذهبية والفضية وركض بجواده حتى توارى عن الانظار .

وما غاب عن أعين الارنؤود حتى ثارت ثائرتهم وطفقوا يتهمون الوالى بسرقة اموال الولاية ويتهددونه بالأسر اذا لم يوافهم بحقوقهم ، فبذل حسن باشا كل جهده لتسكين ثائرتهم

وتطمين خواطرهم . وقبل ان يرخى الليل سداله عاد الوالى الى سرايه بالقلعة ، وما كادت تنقضى ايام قلائل حتى علت اصوات الارنؤود والاهلين ، بعضهم بالتذمر من الحالة العامة والبعض الآخر بالشكوى من الدلاة وحيفهم ومغارمهم أو من توالى فرض الضرائب الفادحة عليهم . وفى يوم ٢٤ صفر الموافق ١٤ مايو ، تدفقت جموع الحانقين والمتذمرين الى ساحة المحكمة ورأى القاضى تفاقم الأمر واستفحال الشر فأغلق ابوابها وقصد سعيد أغا وكبار المشائخ الى محمد على وصارحوه بما يأتى :

— ان الخطة التى سلكها خورشد باشا أثارت غضب الأمة وتذمرها وها نحن أولاء الآن لا نقرّ له بالطاعة لظلمه وجهله وفساد رأيه ومقت الناس له ونحن جميعا نسأل المولى القدير ان ينتقم منه وينزل به غضبه وسخطه .

وعقب السيد عمر مكرم نقيب الاشراف على ذلك بقوله :

— ولا بد لنا من عزله .

فسأل محمد على :

— ومن تولون اذن فى مكانه ؟

— نوليك انت لأنك محب للخير

فسألهم محمد على إقالته من قبول هذا المنصب ، وكان ذلك على سبيل التواضع والتأدب ، فألحّ الشيوخ والاعيان عليه بالقبول ، فلم يسعه تجاه إلحاحهم الا تحقيق رجائهم ووقف السيد

عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى عند ذلك وألبساه كرك السمور وانطلق الحاضرون على الأثر فى طرقات القاهرة ينادون بولايته ، فكانت الجماهير تتلقى هذا النداء بصيحات السرور والاستبشار . وقبض محمد على منذ هذا اليوم ١٤ صفر ١٢٢٠ ، الموافق ٤ مايو ١٨٠٥ ، على زمام الاحكام فى مصر وأصبح المتصرف فى شؤونها .

وغير لائق بالحق والسداد أن يدعى مغتصبا من يختاره الشعب على بكرة ابيه لولاية اموره وتدبير احواله ، لأن الوالى الذى تمالأ الآراء على تقليده زمام الأمر لايختلف اثنان فى أن ولايته طابقت الشروط المنصوص عليها شرعا . وفى نوادر التاريخ ان رجلا سأل المعز لدين الله الفاطمي عن حسبه ونسبه فاستل الخليفة سيفه من غمده وقال لسائله :

— هذا حسبي .

ثم ملأ قبضته بدنانير الذهب ونثرها على الناس وقال :

— هذا نسبي .

اما الرجل العظيم الذى أشرنا الآن الى تقلده منصب الولاية على مصر فإنا نجاوب السائل الجرىء عن حسبه ونسبه بما هو موضوع الباب الآتى بعد .

أهل القاهرة يتبعون محمدا عليا فى الطرقات وينادون به
واليا على القطر المصرى

الباب الرابع

قوله

من سنة ١٧٦٩ الى سنة ١٨٠٥

يسمون بالروملي في عهدنا الشاهد بعض ولايات تركية اروبا المعروفة قديما بـ (مقدونية). والرتبة المقررة لمن يتقلد الولاية عليها هي رتبة (بكلر بك) اى بك البكوات. وتتألف الروملي من خمس ولايات (باشالك). وباحدى هذه الولايات الى الغرب من رأس (اسبيروز) وعلى الشاطىء الشمالي من خليج (كونتسا) وتجاه جزيرة (طاسو) المعروفة عند الفرنسيين باسم (تاس) وعند اليونان باسم (خريز الذهبية) لما تحتويه من كنوز الاحجار ولذيذ الاعناب ومتين الاخشاب الصالحة لانشاء السفن، وفيما بين (الهيبر) و (الاستريمون) بالنهاية القصوى من سهول (سرس) على مسافة ١٢٨ كيلو مترا شرق (سلانيك) و ٣٢٠ كيلو مترا غربي الآستانة وفرسخين من

القارة ، صخرة عالية مشرفة على البحر وموغلة فيه ، يخيل لناظرها انها جواد ، وفوق هذه الصخرة مدينة تملكها الجنويون والبنادقة دُولةً فى ردح طويل من الزمن هى بلدة لا كوال (الجواد ، الفرس) أو قوله .

كانت قوله فى الحقب الماضية مستعمرة لجزيرة طاشيوز ، وكان اسمها (جالبسوس) وسميت كذلك (يوسفالا) ، اختطها وشادها ابن احد ملوك مقدونيا تذكارا لجواده . ويحيط بقوله سور يصونها وبها قلعة يحرسها بعض الاجناد ، وفيها غير الدسدار أى قائمقام الباشا قائد لحمايتها وقاض للقضاء بين الناس وقائمقام لأدارة شؤونها وهو تابع لولاية سلانيك .

وهناك طريق مفض اليها من هذا السنجق يخترق أطلال (أيون) ثم بلدة (أرفانو) مقرّ احد الاغوات وبها سوق لبيع مايزرع حولها من القطن. وهذا الطريق يجانب من ناحيته اليسرى الآكام وسفوح الجبال التى كان يقطنها أقوام (البيير) ثم يتجه نحو قمم جبل (بانجه) الذى يحتوى مناجم النحاس والحديدوالفضة والذهب التى أورد هيرودوتس سيرتها فى تاريخه ، إذ قال إن (توسيديد) كان يدير شؤونها فى وقت ما . ويمر السائر بالسفوح الجنوبية الأولى من ذلك الجبل فإذا به فى شعب يكاد يكون مستقيما بين سلسلتى جبلين وينتثر على عطفيه عدد كبير من القرى . وفيما يلى هذا الوادى الذى يبلغ عرضه أربعة كيلو

مترات وطوله اربعة وعشرين كيلو مترا منحدر شديد ينتهى عند قرية (بروستا) . ذاك الوادى هو الذى اخترقه إكزرسيس ملك العجم على رأس جيوشه الكثيفة زاحفا على (امتيبوليس) وفيه انقسمت هذه الجيوش شطرين ليسهل عليها الأيغال فى مقدونية . ومن ثمّ يجتاز الراجل سهل (فيلبس) الذى عسكر الاعجام فيه ويمر بقرية (رستشا) موغلا كما أوغل اولئك الجنود فى منافذ جبال (سابيان) . وبعد مسيرة نصف ساعة فى هذا المضيق المعروف اليوم باسم (دربند) ، أى الطريق بين جبلين عالبين ، يصل الى مرتفع تتراءى له فيه المرائى البديعة : برزخ جبل (آثوس) وجزائر (طاشيوز) و (ساموتراس) و (امبروس) و (لمنوس) وشطوط تراقية وجبالها ثم أفق البحر الذاهب الى أبعد مدى .

ومن هنالك يصل السائر من منحدر كثير الملتويات والتعاريج الى قوله التى حلي بابها الوحيد بتابوت عظيم أبيض اللون بشكل الحوض وفيه نقوش لاطينية تتضمن سيرة احدى سيدات رومية . وتمتد اليها من قمم الجبال المجاورة قنطرة لجلب الماء الصافى اللازم لسقيا سكان المدينة البالغ عددهم ثمانية آلاف نفس ، السواد الأعظم منهم مسلمون . وهناك موردة صالحة لرسو السفن التى ترد اليها وتصدر عنها مشحونة بمختلف البضائع .

وبمقتضى الامتيازات الأجنبية الأولى احرزت فرنسا

الحق فى تعيين قنصل لها للذود عن مصالحها فى هذه البقعة المعروفة بخصب أرضها . وفى سنة ١٧٧١ أنشىء بها محل فرنسي للتجارة كان لأحد مديريه ، وهو المسيو ليون ، نفوذ أدبي بين أهل المدينة فاغتنم هذه الفرصة لتوثيق عرى المودة والوئام بين الاوربيين والوطنيين . ومنذ هذا الوقت أخذ اصحاب السفن فى ثغر مرسيليا ، مسقط رأس المسيو ليون ، يصدرون البضائع والمصنوعات الى قوله ويعودون منها بالتبغ والقطن والأرز والشمع والزيت .

وهناك سبب آخر كان من شأنه أن يوثق بيننا وبين قوله روابط المودة والولاء . ذلك أن القلعة المشرفة على الرأس الممتدّ فى البحر تحتوى ثمانية مدافع او عشرة منها مدفع نحاس من عيار ٢٤ نقشت فيه كلمة Vandômes وهذه العبارة اللاطينية

ultima ratio regum

ويحيط بتلك الرقعة احاطة الاطار بالصورة جبل (سمبول) الذى قال (ديون كاسيوس) انه يصل جبل (بانجه) بالآكام الداخلية وقال (أبيانوس) ان فرق جيوش الجمهورية الرومانية جاست خلالها بقيادة (كاسيوس) و (بروتوس) فى زحفها على (نوربانوس) و (ديسديوس) قائدى جيوش حكومة (التريومفيرا) الرومانية . ثم جبل (هيموس) الممتد الى نهر (هستوس) على مدى عشرين كيلو مترا .

وفى وسط هذين الجبلين قطع كبيرة من المرمر الشبيه فى نعومته بمرمر (باروس) ، لأن مياه الامطار مابرحت تصقله بوابلها الهتان ولأن أشعة الشمس مافتئت تكسبه بريقا وبياضا ناصعا منذ الوقت الذى كان الرومان فيه يقتطعون منه الاحجار لنحت التماثيل المخلدة لذكرى ابطالهم . وفى بطون تلك الآكام الوفيرة المعادن يعمل العمال لتزويد المصانع ماتصنعه من المقذوفات برسم البحرية والقلاع العثمانية .

تعيش فى تلك البقاع الرائعة أمة مابرحت على الفطرة التى فطرت عليها . وهى فى عاداتها وأخلاقها كالصخر الصلد أو أشد قسوة ، تساكن البزاة فى أوكارها وتشارك الجوارح فى بطشها وفتكها . اولئك القوم هم سلالة الذين اسماهم المؤرخ هيردوتس (السـتريين) . وقد هبط الغزاة الفاتحون الاراضى المجاورة لهم ولـكنهم ظلوا كأجدادهم بعيدين عن ذل الاستعباد والخضوع للأجنبي ولم يختلطوا من الأجانب الا بقوم التزيجان البوهيميين (الشنجان) لحاجتهم اليهم فى صناعة الآلات اللازمة لهم . وكان من عاداتهم متى اقبل فصل الربيع أن يدعو الزعماء ، وكلهم من الشيوخ ، الشبيبة الحربية الى الانكباب على الملاذ والتفرغ للطعام والشراب قبل قدومهم على سنة سيقضونها فى القتال وان يسلبوا أهل القرى الأطعمة والأنبذة قوة واقتدارا ويأخذوا من الرعاة مايروق لهم من الأغنام ومن خيام البوهيميين من شاءوا من

النساء . فاذا ماهيئت الاطعمة جلسوا متربعين حلقات حول الخراف التى تقلب فوق نار هادئة ، مثبتة فى محور من الخشب يستند طرفاه الى رافعتين ، فيتناولون منها ومن ألوان الأطعمة الحلوية المصفوفة على مرتفع من اغصان الأشجار يقوم لديهم مقام الخوان ، ويتعاطون اكواب الشراب وبعد أن يصيب كل منهم ما يريد تمثل أمامهم بالحركات والاشارات المناظر المثيرة للاشواق فمن كان راغبا منهم فى الخطران بالسلاح فعل ومن أحبّ اللحاق بالراقصات اللائى أثرن فى نفسه لواعج الاشواق اقتفى آثارهن فى الغابات الكثيفة المتصلة بالمكان . ومن ثم ترى أن إحياء طقوس (باكوس) اله الخمر التى كانت شائعة فى سالف الأزمان مابرحت مرعية فى هذا الأوان . وعلى أثر ذلك ينقسم المحتفلون فرقا وجماعات كل فرقة او جماعة خمسون نفسا ثم يدأبون فى اليوم التالى على السير فلا يقفون الا عند حدود (رودوب) .

يسمى اولئك الرجال الآن بالجوفندجية وهى كلمة فارسية معناها الوثابون ، لأنهم على أهبة دائمة للقتال والفرار والعيث . ترى الواحد منهم يكتفى لاتقاء زمهرير البرد بالكبوت وللقتال بحملقة العينين والوقوف وقفة الكبرياء والصلف والتحرك بحركة التهديد والارهاب وحمل البندقية الطويلة لايضعها عن كتفه ليلا ولانهارا واناء البارود الذى يسع منه مازنته رطلان ونطاق الخرطوش والرصاص والخنجر الشبيه بخناجر الاجداد . واعتبر

توسيديد اولئك الجبليين من قوم (السيتاسيس) الذين كانوا أعوانا للملوك البلغار خصوما للعالم الرومانى . فعلى مسرح هذه الحوادث الجليلة وتحت سماء اولئك الرجال الاقوياء وبين تلك الغرائز الخشنة والطبائع الجافة ولد المهيج العظيم والممدن الكبير للشرق ، ولد محمد على سنة ١١٨٢ هجرية الموافقة لسنة ١٧٦٩ ميلادية اى السنة التى أخرجت للعالم الغربى (بونابرتة) و (شاتوبريان) و (كوفييه) و (سولت) و (بليار) و (نى) و (لان) و (وهمبولدت) و (شيلر) و (ولترسكوت) و (بروغام) و (كانن) و (ولنجتون) وغيرهم من فحول الرجال .

كان والد محمد على ، وهو تركى الأصل ، رئيسا للحرس المنوط به تأمين الطرقات ، وكان اسمه ابراهيم أغا . واتفق ان رأت والدته قبل وضعه فيما يرى النائم مافسره لها البوهيميون بانها ستلد ولدا يتم له الغنى والجاه والشوكة . فلما كبر ابنها وترعرع اخبرته بما رأت ، فظل حافظا فى ذاكرته هذه النبوءة الصالحة التى بثت فيه روح الأمل فرجا وأملا . وليس بغريب أن يسمو مثله الى الآمال الكبار فإنما وطنه وطن الاسكندر الكبير ووطن بطليموس . دع أن اسمه كاسم النبي مشتق من الحمد . وليس فى هذا وذاك الا ما يفيد معنى السمو والعظمة .
والآن ، وقد فاز بهذه المزايا وجاءت له الأمانى منقادة ، فلنترك والى مصر الجديد يترجم بلسانه ماسلف من حياته . قال :

« رزق والدى سبعة عشر ولدا لم يبق له منهم سواى ، إذ مات تسعة منهم وهم الذين قبلى فى إبان العمر ، وهو ما جعل والدى يحوطنى بحنانه وحبه . وكان رفاقى فى الطفولة يهزأون بى فى أغلب الاحيان ويلقون فى أذنى الجملة الآتية التى ان أنس لا أنسى قط مرارتها . كانوا يقولون إننى إذا فقدت والدى فمن ذا الذى يعولنى وماذا يكون مصيرى وأنا لا أملك شيئا ولا أصلح لشىء ؟ فأثرت هذه الكلمات فى نفسى تأثيرا جعلنى أعقد النية على اصلاح شأنى بالتسلط المطلق على نفسى . واتفق لى أكثر من مرة ان أقضى يومين متعاقبين فى الركض وتحمل العناء فلا أصيب فيهما إلا القليل من النوم والغذاء . وما زلت كذلك لا أذوق للراحة طعما حتى فقت أقرانى فوقا عظيما وسبقتهم سبقا محسوسا فى صنوف الرياضة البدنية . واذكر انه كانت هناك مسابقة بالقذف فى وقت كان البحر فيه مضطربا بالأمواج وكان موضوع المسابقة الوصول فى زورق الى جزيرة قريبة من الساحل . فلم يسع المناظرين لى ، وقد أعياهم التعب ، الا العدول عن مسابقتى . ولقد سال الدم من كفّىّ فى سبيل الوصول الى الغرض ومازلت جاهدا دون ان افطن الى ذلك حتى أحرزت قصب السبق . وهذه الجزيرة هى الآن بعض املاكى » (وهى جزيرة طاشيوز) .

ولما توفى ابراهيم والد محمد على كفله عمه طوسن أغا . وحدث

ان مات هذا العم على أثر مانفسه الباب العالى عليه فى أمر ما ، فبات محمد على يتيم الأب ومحروما من كفالة العم ، فاحتضنه جوربجى المدينة ورباه مع ابنه . وكان مسيو ليون الآنف الذكر فى قوله فأعجب بذكاء ذلك الغلام وأحبه كحب الوالد لولده ، ولعل هذا سبب ميل محمد علي للفرنسيين واخلاصه لهم طول حياته . على ان محمداً علياً لم ينس قط أحدا ممن واسوه فى كربته ، فلقد بعث فى سنة ١٨٢٠ برسالة ودية الى المسيو ليون يدعوه فيها الى زيارة مصر فاتفق لمعاكسة القدر ان وافته المنية فى اليوم الموقوت لمغادرته ثغر مرسيليا ،فلم يسع الباشاعندئذ الا ان يعزى اخته تعزية جميلة ويساعدها بمبلغ وافر من المال .

وما من فرصة سنحت لمحمد علي منذ طفولته إلا اقتنصها ليظهر علي الملأ ما ميزه الله به من سعة الحيلة وقوة الارادة ومضاء العزيمة . ومن ذلك أن احدى القرى التابعة لقوله عصت عن دفع المستحق من المال عليها للجوربجى الذى كفله بعد عمه فطلب محمد علي ان يعهد هذه المهمة اليه وقال : « لا اطلب منك سوى عشرة عساكر يأتمرون بأمرى » .

فأجابه الجوربجى الى طلبه ، وقد بهره منه مارآه من الثبات وصدق العزيمة ، وحرره من كل قيد فى تحصيل المال المتأخر . فما أن تزود بهذه الاجازة حتى قصد من فوره فى ذلك النفر القليل الى مسجد بروستا . وفيه ، بعد أن أدى فريضة الصلاة ،

أرسل فى طلب أعيان البلدة الأربعة وانتحل لهذا الاستدعاء سببا حفزهم الى التعجيل بتلبية الدعوة ، فما كادوا يصلون اليه حتى شدّ وثاقهم وعاد بهم الى قوله متهدّدا بخنجره كل من حدثته نفسه بالانبراء لاستخلاص الأسرى من قبضته . وما أسفر صبح اليوم التالى حتى كان المال المطلوب مدفوعا ، فأطلق سراحهم وأعجب الجوربجى بهذه الحيلة التى تشف عن جرأة نادرة وحضور ذهن . فرفعه الى رتبة بلوك باشا وزوجه من قريبة ثيب له ذات حسب ونشب . وتم له الزواج فى سنة ١٧٨٧ فأعقب منها خمسة أولاد ثلاثة ذكور وهم ابراهيم وطوسن واسماعيل ، فكان ميلاد أولهم فى سنة ١٧٨٩ المعروفة بحوادثها السياسية الكبرى فى فرنسا . وكان الزوج الأول لوالدة ابراهيم على قيد الحياة فأذاع الحسدة واللاحون لهذه المناسبة أقاويل زعموا فيها انه ابنه لا ابن محمد على وان كل مافى الأمر ان محمدا عليا تبناه بعد زواجه من والدته . ولقد بلغ من قحتهم وسماجتهم وسفال طبعهم فى ذلك الزعم الباطل انهم حددوا لهذا الزواج تاريخا سابقا عليه بثلاثة عشر عاما فى قول بعضهم او بسبعة وعشرين في قول الآخرين . وأصحاب الزعم الأخير يؤيدونه بأن محمدا عليا أراد فى سنة ١٨١٦ أن يسد الفراغ الذى تركه طوسن باشا بموته فتبنى ابراهيم على اعتبار أنه أقرب الناس اليه بعد ابنائه . وذهب فريق من المتخرصين واصحاب الغرض الى أبعد من ذلك فقالوا إن

الوالى لم يرزق بولد قط على حين انه رزق سبعة ذكور غير الاناث .

وعلى أثر زواج محمد علي تفرغ لتجارة الدخان فأفاد منها مالا كثيرا وارتاش . وألهم لهذا السبب حب التجارة والافتتان بها افتتانا بقى متأصلا فى نفسه طول حياته . إلا أن الحرب من ناحية أخرى كانت تستهويه وتستدرجه اليها . وكان كلما وجد من الوقت فراغا صرفه فى الاهتمام بها .

وحينما حشد الباب العالى الجنود لأجلاء الفرنسيين عن مصر كان جوربجى قوله ممن طولبوا بتقديم بعض الاجناد فحشد ثلاثمائه منهم ووجههم الى (مرمريس) لركوب السفن . وقد قلد ابنه علي اغا القيادة العليا على هذه الفصيلة وجعل محمدا عليا نائبا له ، فلما وصلت السفن المقلة لهم الى ابو قير ونزل الاجناد منها رأى على أغا ، بعد أن عانى أهوال السفر فى البحر ومشاق الحرمان المهلك في رمال أبو قير ، ان فى هذه المكابدة مايكفى لكي يقال عنه انه قام بحرمة الواجب فعجل بالأوبة الى الروملى تاركا قيادة الفصيلة لمحمد على نائبه الذى استشعر أن الارض المغنطيسية التى جذبته اليها لسوف تكرم مثواه وتقدر قيمته . ولقد اتيح له ، بعد وقائع ابو قير ، ان ينازل الجنرال (لاجرانج) فى ميدان القتال على مقربة من الرحمانية ورأى اجناده يجندلهم العدوّ بعضهم تلو بعض من حوله ، بيد أن هذه الخسارة الفادحة

لم تثلم حده ولم تفت" عضده فوالى حملاته الصادقة ببسالة عاد منها مكللا بالظفر . ولقد عهد اليه قبطان باشا مهاجمة حصن الفرنسيين فتستر بالظلام فى آخر الليل للانفلات فى استحكاماتهم متسمعا متحسسا فلم يطرق اذنه همس فغشيها ولشد" ما أسف حينما علم أنهم غادروها .

وفى أوائل سنة ١٨٠١ رقاه قبطان باشا الى رتبة القيادة (صارى جشمه) . وقد عرفنا ما هى الحوادث التى تلت هذا التعيين فلا حاجة الى تكرارها ، لكننا نقول إنه كان على الدوام مسد"د الخطوات نحو غايات الفوز والنجاح ، مما كان نتيجة لازمة لجرأته وبسالته وصدق نظره ومضاء عزيمته . ولا عجب فهو الذى قلب العثمانيين فى مصر بالمماليك والمماليك بالارنؤود والارنؤود بالمصريين ، فتم الفوز للاخيرين . وقد بهرت براعته أربعة من الولاة أسقطهم جميعا من كرسي الولاية وخلفهم فيه بلا خوف ، على الرغم من ضعف قوته وتزلزل ركنه . وقد قال أحدهم فى هذا الصدد : « اذا كان الجلوس على كرسي مصر ملحة طريفة فالمكث فيه معجزة نادرة » . ولقد سبق لنا ان تكلمنا على الملحة الطريفة فلنتكلم الآن على المعجزة النادرة .

الباب الخامس

محمد على واليا

سنة ١٨٠٥ — ١٨٠٦

قصد وفد الى خورشد باشا ليبلغ اليه تعيين محمد علي واليا على مصر ، فأجاب .

— ليس فى مصر بمقتضى الفرمانات الشاهانية والخطوط الشريفة ، والٍ سواى ، لهذا لن أصادق على العزل الذى قرره الفلاحون فى حق ولن ابرح القلعة الا بأمر من الباب العالى .

ثم عكف على تموين القلعة بالماء والحبوب والبقسماط وكل ماستطاع ان يجمعه من الميرة والعلوفة فلما تمت له هذه الاهبة اغلق على نفسه الابواب وفى معيته المخلصون من اجناده وكان عددهم ١٥٠٠ جندي .

واحتشد الاهلون بسلاحهم فى ميدان الازبكية بينما كان المشائخ يحررون بالمحكمة وثيقة بتعليل ماأقرّوه ضد خورشد

باشا لصالح محمد علي . وكلف تتريّ بحمل هذه الرسالة الى الاستانة بعد أن صادق القاضى عليها . وشرع أهل القاهرة وحاميتها بعد ذلك يحصرون القلعة ويقيمون الاستحكامات ويضعون الرماة فى مآذن مسجد السلطان حسن المواجه للقلعة. وطاف الاعيان والشيوخ الذين حذوْا مثال السيد عمر مكرم فى همته ونشاطه بشوارع المدينة وأحيائها المختلفة لتوطيد الأمن وبث السكون وتهدئة الخواطر . وأذاع محمد على باللغتين العربية والتركية أمرا الى أعوانه الارنؤود ان يكونوا فى بيوتهم ليلا على يقظة وأهبة وألا يزعجوا الناس ولا يقابلوا القوة بالقوة إلا فى حالات الاعتداء التى لاتجدى فى صرفها وسائل الحسنى . ولقد وقع عند باب زويلة اعتداء من هذا القبيل بين فريق من الالبانيين ورهط من العمال استعملت الشدة فى دفعه بعد فشل المساعى الودية فلم يستفحل خطره .

أما خورشد باشا فلم يغفل لحظة فى هذه المحنة عن تدبير الوسائل المعزّزة لمركزه ، فكتب الى زعيم الدلاة فى القليوبية يخبره بنفاد مؤنه وذخائره التى كان كدسها فى القلعة وبما أصبح فيه من عجز وقلة حول ويدعوه ، باعتبار انه الممثل للحضرة الشاهانية ، الى نجدته والاثئار له فحمل الرسالة من فوره الى محمد على وعرض عليه خضوعه هو وكبار طائفته ، فغمرهم جميعا بأنعمه وألبسهم السمور وأتحفهم بنفيس الهدايا . واتخذ الوسائل بعدذلك

لأرغام القلعة على التسليم وعزز الاستحكامات بالجندرمة وضاعف عدد الحماة فى المراكز الضعيفة ونصب مدفع هاون على المقطم ونقل من حصن (كامين)، وهو اسم ضابط فرنسى قتله العربان، مدفعا من عيار ١٨ نصب امام باب الوزير، واطلقت المدافع بعد ذلك فجاوبتها القلعة بالمثل. وكان همّ المعتصمين بها، فى خلال خمسة عشر يوما، إلقاء المقذوفات على قصر محمد على وبيت حسن باشا والجامع الازهر.

وكان خورشد باشا من عزة الجانب ومناعة القوة بحيث يستطيع المقاومة زمنا طويلا لاسيما وقد بلغت الجرأة بعساكره الى تسلق الاسوار بسلالم من الحبال لنهب المأكولات من المساكن المجاورة. وكان سلحدار خورشد باشا معسكرا بمصر القديمة والقرى المجاورة لها، وكان مهيمنا بمركزه هذا على المراكب النيلية فاستطاع تموين القلعة من ناحية السور الصغير المواجه للصحراء. واتفق فى ليلة ١٨ صفر، الموافق ١٨ يونيو، ان فوجئت قافلة مؤلفة من خمسين جملا كانت تحمل الميرة الى القلعة من ذلك الطريق فاستولى عليها واحد من ابطال المحاصرين يدعى حجاج الخضرى، اذ قتل رجلين من حراسها وأسر ثلاثة ساقهم الى محمد على فأمر هذا برمى أعناقهم ليكونوا عبرة لغيرهم. وكان محمد على يعلم ان الالبانيين ميالون بفطرتهم الى الغرض الذاتي ومتشددون في استنجاز حاجاتهم ومصدقون للوشايات

والشائعات ، فأيقن أنهم غير أهل لثقته.وجاءت الحوادث مؤيدة لتكهنه وسوء ظنه فى خلقهم فإن بعض القائمين منهم على المدافع بميدان الرميلة توقفوا فجأة فى صبيحة أحد الأيام عن إطلاق النار بحجة المتأخر من مرتباتهم . ولم يكن فى خزينته يومئذ مال فاقترض من مسيو (مانجن) الفرنسى عشرة اكياس أى ٢٥٠٠ فرنك ودفعها اليهم فاستأنفوا عملهم .

وأيدت الحوادث التالية هذا الانقلاب ، فقد وصل فى فجر ٣٠ ربيع الأول الموافق ٢٨ يونيو قاصد وعلى يده مكتوب يفيد ان القابجى باشا صالح أغا كبير أمناء جلالة السلطان وصل الى الاسكندرية فتفاءل أهل القاهرة خيرا بما وقع من الحوادث وأعربوا عن سرورهم باطلاق المدافع التى ماسمع خورشد باشا وسلحداره دويها الشديد حتى اعتقدا أن معركة هائلة قد شب ضرامها بين سكان القاهرة والاجناد فسيرا فى الحال فرقتين من العسكر لم تلبثا، بعد اصطدامهما بالجموع، أن تراجعتا منهزمتين . وفى ١٢ ربيع الثانى الموافق ٩ يوليو دخل القابجى باشا مدينة القاهرة وكذلك سلحدار الصدر الأعظم المنوط به تحقيق الحوادث وكتابة تقرير دقيق بها . فعقد مجلس من الشيوخ قرئت فيه عليهم الرسائل التى يحملها القابجى باشا فإذا بها تقلد محمدا عليا ولاية مصر التى تقلدها من قبل على يد العلماء والأهلين وصدر فى الوقت نفسه الى خورشد باشا أمر بالسفر الى الاسكندرية

وانتظار أوامر الباب العالى فى شأنه . فلما اطلع عليها أجاب أنه تولى منصبه بخط شريف فلا يتنحى عنه إلا بخط مثله ، لابفرمان بسيط . ومع هذا فقد عقدت هدنة بين الطرفين وفتح الازهر واستأنف العلماء والطلبة الدرس ودعا محمد على الأهلين الى مزاولة اعمالهم .

غير ان خورشد باشا استدعى اليه الأمراء المصرلية ، أى المماليك ، ووعدهم بتقريرهم فى امتيازاتهم القديمة واتفق معهم بواسطة سلحداره المعسكر بالجيزة على بعض الشؤون فنقل السلحدار معسكره الى دير التين ليتصل به مباشرة ، فسار محمد على بمشاته وفرسانه وتبعه حسن باشا وعابدين بك وعسكر بالبساتين . فما أن شهده المماليك فى حشده حتى تراجعوا ، البعض الى طره والآخرون الى الجيزة ، وتحرك هو بجيشه الى مصر العتيقة . وقد رأى جنوده هناك فارساً يسير فى الطريق الموصل الى القلعة فقبضوا عليه ، فاذا به يحمل رسالة ببيان الخطة المرسومة للهجوم المقبل على محمد على . ومما جاء فيه : « فى الغد سنرسل فى الفضاء سبعة أسهم نارية فمتى شهدها صاحب السمو نائب الباب العالى فى مصر أمر بضرب المدينة بالمدافع ورمى سراى محمد على بقنابلها وعبرنا نحن النيل الى مصر العتيقة وسار البرديسى من وراء المقطم ليدخل القاهرة من طريق العدلية وتعاقب الامراء سراعا من طره . وهناك ما يدعو الى الامل فى

أن الأهالى سيجنحون الى الثورة إنجاحاً لمشروعنا العادل » .

وكانت الرسالة الى خورشد باشا ممضاة من سلحداره ومن يس أحد بكباشيته . فلما وقف محمد علي على مضمونها غضب وأمر برمى عنق الفارس ، وهو رجل كردى ، رغم شفاعة القاضى فيه . أما مماليك الوجه القبلي فقد انضموا الى جيش خورشد باشا وأمسكوا عن العداء إلا واحدا منهم وهو يس بك ، فإنه أوغل فى جزيرة الروضة فى مائة من رجاله فاستولى على ثلاثة مدافع لم يلبث الالبانيون المعسكرون بمصر القديمة ان استردوها منه .

ومنذ ٢٠ ربيع الثانى الموافق ١٧ يوليو كان اسطول قبطان باشا المؤلف من ثلاث سفن وثلاث فرقاطات وحراقة تقل ٢٥٠٠ جندى برّي مازال راسيا فى مياه ابو قير ، فوصل سلحدار أمير البحر العثمانى فى هذه القوة الى العاصمة ومعه فرمان بتقليد محمد علي ولاية مصر ورسالة تفرض على خورشد باشا مغادرة القلعة والسفر فورا الى الاسكندرية . لهذا لم يبق فى نفسه ريب فى نية الباب العالى نحوه ، فعقد اجتماعا حضره سلحدار قبطان باشا . وكان قد ذهب اليه مع القابجى باشا صالح أغا فأكد انه يطيع الامر السلطانى اذا دفع اليه ٥٠٠ كيس كان اقترضها من كبار جنوده ، وقال إنه بغير هذا المبلغ لايستطيع سداد دينه ، اذ لايملك من الدنيا سوى الثوب الذى يستر عورته .

فأخذ محمد علي الدين على عهدته ، غير أنه لم يأت الموعد الموقوت لتسليم القلعة وخروج الوالى المخلوع منها حتى قال هذا إنه لن يبرحها ولن يخرج سوى النساء والاطفال من ساكنيها . وفى فجر اليوم التالى أطلقت ثلاثة مدافع منها ما رنّ دويّ طلقاتها فى أذن حامية الجيزة حتى تحركت الى امبابه ومعها اربعة مدافع . وحينما وصلت تجاه بولاق أطلقت القنابل على مكان الجمرك فيها فبادر محمد على عندئذ بالتوجه الى امبابه في شرذمة من رجاله واحتلها قبـل وصول العدوّ اليها . وصعد سلحدار القبطان باشا والقابجي باشا مرة أخرى فى القلعة ، فوعد خورشد باشا ، بعد مفاوضات طويلة ، بالجلاء عنها فى ثلاثة ايام . وفى يوم ٧ جمادى الأولى الموافق ٣ اغسطس تولى حسن أغا قيادة الجيش بالنيابة عن محمد على وبرح الوالى المخلوع القلعة فى اليوم التالى من باب الجبل وأوغل فى ضاحية المدينة حتى بلغ الى بولاق حيث نزل مع أسرته فى قنجات أقلعت الى رشيد . وكانت مدة ولايته ستة أشهر ونصف ، وولي وخلع على يد خلفه في كرسي الولاية .

ولقد كان فرض الضرائب والمغارم فى غير أوانها والسير بين الناس بوسائل الاكراه والشدة فى تحصيلها من الاسباب التى خضدت شوكة المماليك وزعزعت خورشد باشا . وكان محمد على يوقن هذه الحقيقة ولا تداخله ريبة فى شأنها كما كان يعلم ما هنالك من حاجة الى خلق موارد ثابتة للأيراد يغترف منها المال اللازم

لأدارة شؤون البلاد ، فرأى أن أول شرط لأصابة هذا الغرض رعاية الانصاف فى جباية الاموال فعوّل على ألا يقرّر ضريبة إلا بعد ان يأخذ رأى العلماء فيها وقرر ان تكون معاقبة المذنبين وشركائهم فى الجرائم العادية بالغرامات الفادحة ومصادرة الاموال . وقبض بيد من حديد على نواصى الجباة والقيمين على الاموال الذين جعلوا همهم استغلال مايحيق من المصائب بالجمهور وألزم الاقباط والاغريق بأن يطلعوه على حساباتهم وفرض على الملاحظ جرجس الجوهرى دفع ٤٨٠٠ كيس أى ١٢٠٠٠٠٠ فرنك كان قد استولى عليها بغير حق . ولكى يبث في نفوس العسكر الشعور بالواجب واحترام كرامة الوطن عذب ضابطا ثبتت عليه تهمة التجسس لحساب العدو ومثل به شر تمثيل فى ميدان الرميله الذى اتخذ مكانا لأعدام المجرمين من الأجناد. وكان المماليك يجوسون ، من آن الى آخر ، خلال ضواحى العاصمة فاتفقوا على حصرها ثانياً ، غير ان محمدا عليا نصب لهم كمينا ساقهم الغفلة والطيش الى السقوط فيه .

فقد كان بعض الشيوخ والقواد يراسلون الامراء سراً ويجهرون فى كتاباتهم بأقوال لم يراعوا فيها احتياطا ولا تحفظا . من ذلك وعدهم بادخالهم المدينـة وإثارة الجمهور وحضه على مناصرتهم والمطالبة بأقامة ملكهم . وعينوا لتنفيذ هذه المؤامرة نفس اليوم الذى قرر فيه الباشا الخروج فى هيئة جليلة من الجند

للاحتفال بقطع الخليج . فلما كان ٢١ جمادى الأولى الموافق ١٨ اغسطس تقدم ٤٠٠ من المماليك بقيادة ستة من البكوات نحو باب الفتوح . وكان بعض العامة قائمين على حراسة هذا الباب . ففتحوه لهم دون مشقة . ورأى المماليك أن ليس بالباب من يصدّهم بالقوة عن المرور فساروا فى الطرقات فى مظهر المنتصر الظافر تتقدمهم الطبول والابواق ، لكنهم ما كادوا يصلون الى باب زويله حتى اطاق المغاربة عليهم النار فارتدوا على أعقابهم والتمسوا الخروج من الباب الذى دخلوا منه . وخاب أملهم فى ذلك إذ ألفوا المسالك كلها مسدودة فى وجوههم وانه مامن طريق ولا زقاق إلا وهو غاصّ بالجند من اتباع محمد على وبدا لهم الخطر فى شبحه المروّع فضاع صوابهم وخانتهم بسالتهم المعهودة ، فترجلوا عن جيادهم وحاولوا تسلق الأسوار أو التماس المساجد لللياذ بها . وتيسر لاثنين منهم الالتجاء الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى فوجدا بها اربعة من البكوات وكاشفاً كانوا قد قصدوا اليه قبلهما على اعتقاد انه من حزبهم فاستطاعوا بما قدم اليهم من الجياد النجاة بحياتهم وتركوا المدينة من خلفهم بعد فرارهم من باب الغريب . أما الباقون فقد وقعوا جميعاً بين قتيل وأسير .

ولم يشهد محمد علي هذه المذبحة ولم يشترك فيها بنفسه ، فلما جىء اليه بالأسرى وليس عليهم من الثياب الا مايستر عوراتهم ، وكان من بينهم احمد بك محافظ دمياط السابق ، أخذ يتأمل فى

هذا الرجل الذى كان من ألد خصومه وقال فى هشاشة وابتهاج وبصوت يشف عن التهكم والاستخفاف :

— ها قد وقعت فى الفخ !

فلم يجاوبه بل رمقه ببصره ثم سأل شربة ماء ، ففك الحراس وثاقه وقدموا اليه قلة ماء ، فلم يتلق احمد بك القلة بل اختطف بيده خنجر أقرب الأغوات اليه وانقض به على الوالي يبغى قتله ، ولم يفلت هذا من الطعنة الا بعناية من الله . وحاول الجنود تسكين ثائرة الرجل وكبح جماحه فلم يوفقوا حتى استطاع أن يقتل أربعة أو خمسة منهم . ولما رأى محمد على هذا الغدر كبل زملاءه الاسرى بالقيود والاغلال وزج بهم فى سجن تحت الارض . وفى اليوم التالى جىء بالجزارين فأخذوا يحشون بالتبن جماجم قتلى المماليك على مرأى من هؤلاء الاسرى حتى اذا انتهت هذه العملية حزّت رؤوسهم على مشهد من بعضهم بعضا ولم يستثن منهم غير حسن بك شبكه وكاشفين اذ افتدوا أرواحهم باموالهم المخبوءة فى منازلهم وتلقت حكومة الاستانة الرؤوس المحشوة برهانا على فوز الوالى فعلقت بأسوار السراى السلطانية.

وكان المماليك ، بعد هذه الكارثة ، متعطشين للأخذ بالثأر كما كان محمد علي يرتقب بشوق عظيم انتهاء العمل الذى بدأه فى ١٨ اغسطس بأبادة المماليك جميعا فسير لهذا الغرض ٢٥٠٠ ارنؤودى بقيادة عابدين بك لمهاجمة ابراهيم بك وابنه مرزوق

بك فى طره وما حواليها . ولقد صدّ الاثنان هجومهم فتقهقروا متراجعين الى مصر القديمة وتاركين نحو الثلث منهم بين قتيل وجريح . على ان هذا الفشل لم يؤثر فى الحوادث التالية فلقد أعقبته سلسلة غير منقطعة الحلقات من الانتصارات الباهرة .

وتراءى للوالى وجوب التعجيل بسقوط الجيزة ، فنصبت المدافع لتنفيذ هذا التدبير فى جزيرة الروضة وأصلت المماليك ناراً حامية ، الا أنها قاومت بمنتهى الشدة والعنف . وكانت كارثة المماليك فى القاهرة قد زعزعت ايمان سلحدارهم فى الجيزة بالفوز فألقى السلاح من يده فى ٢٧ جمادى الثانية ، الموافق ٢٢ سبتمبر ، وانطلق يروى على الأمراء خبر فشله . ثم قصد الى الاسكندرية ليدرك سيده خورشد باشا . أما جنود الحامية فقد عفا محمد على عنهم جميعاً وتحوّل يس بك وبقية الزعماء طواعية واختياراً من خدمة المماليك الى خدمة الوالي .

وكان بقاء الدلاة على ضفاف النيل من بواعث الفتن والسرقات فلما اتصل بهم نبأ تسيير حسن باشا اليهم فى ألفى مقاتل عادوا بقضهم وقضيضهم الى بلاد الشام مذعورين ، بعد أن أخذوا معهم بضع مئات من النساء والأطفال والجمال .

وما كادوا ينصرفون الى أوطانهم حتى تبددت من سماء الحوادث فى مصر سحب طال تلبدها وبان أديم السماء عند الأفق نقياً صافياً . ذلك أن قبطان باشا استهوته دلالات

الاخلاص وآيات صدق الانتماء والأنعم المترادفة من الوالى الجديد نخرج من دائرة الشك الى دائرة اليقين ومن التردد الى الجزم وأخبر الديوان باعتدال الأمور فى مصر واستقرار الأمن فى نصابه وتجلى أمارات السعادة والهناء فى البلاد ، بما وضعه ذلك الوالى من الأنظمة الحكيمة كجباية الأموال بلا إرهاق ولا إزهاق . فلما وثق الباب العالي بصدق بلاغه أمره فى أول شعبان الموافق آخر اكتوبر بالعودة الى الاستانة فتحرك أسطوله يقل خورشد باشا الذى كان التقليد قد جاءه بقيادة أحد فيالق الجيش المحارب لروسيا . ولقد عين عقب هذه الحرب والياً على حلب فطرده الأهلون منها ، فعاد اليها بعد أن حصرها ونكل بأهلها . وعهد السلطان اليه قمع الثورة التى أضرم نارها والى (يانيا) فأدى مهمته على خير وجه غير أن السلطان ارتاب فى أمانته فرمى عنقه بتهمة أنه غصب لنفسه أموال هذا الوالى .

ولا يفوتنا أن نذكر النبوءة الخطيرة التى تكهن بها قبطان باشا قبل رحيله بستة أيام ، فقد كتب فى مذكراته مايأتي :

« اترك من بعدى رجلا سيكون أكبر زعماء الدولة وأجلهم خطراً . وما رأيت من سلاطيننا فى حياتي دهاء كدهائهم فى السياسة الحاضرة ولا نشاطاً وهمة من حاكم كنشاط محمد على وهمته » .

وكان المماليك قد استولوا فى هذه الاثناء على أسيوط وهزم

ألفى بك فى الفيوم يس بك أحد رفاقه الأقدمين فى الجندية، وكان قد وصل اليها فى ١٥٠٠ عسكرى لاحتلالها والقبض على زمام إدارتها ككاشف لها من قبل الوالى الجديد. وقد غاظه هذا الفشل ففاجأ فى جنح الظلام عند قنطرة اللاهون رتلا من الجمال الخاصة بشاهين بك أحد أتباع ألفى بك، محملة بالأمتعة، لكنه لم يلبث أن عرته هزة حب الاستقلال فانضم الى سليمان بك كاشف جرجا وحارب معه بالقرب من ملوى. وما نمى هذا الخبر الى الباشا حتى غضب غضباً شديداً واستولى على الأمتعة وطرد والد يس بك الذى ثبت عليه الغدر مرتين وقبض على اثنين من أرباب الدسائس والفتن وهما اسماعيل بك أحد ضباط الباب العالى وعثمان أغا خازندار خسرو باشا سابقاً ثم قصد الى الاهرام فى ألفى جندى مات ستون منهم فى أثناء عبور ترعة كثيرة الطين. وهناك طهر أنحاء الجيزة من المماليك ولصوص العربان واستولى على بنى سويف على يد البكباشيين عابدين وصالح كوش.

وأنشأ محمد على معسكرين أحدهما بالجيزة والآخر بطرة، وبعد أن قضى بضعة أسابيع بالقاهرة فى التماس الراحة انقضّ على الضفة اليسرى من النيل ليحمى الفلاحين من غارات شاهين بك مملوك الألفى الكبير وخليفة الألفى الصغير الذى توفى مصدوراً فى المدينة، وتلقى طاهر باشا الأمر بالزحف على امبابة، أما حسن باشا فسار بأمر الوالى الى الصعيد فى ألفى ألباني وألف

فارس من الدلاة بعث بهم الى القاهرة يوسف باشا والى دمشق فالتقى قريباً من الرقة بقوى ألفى بك المؤلفة من ٣٠٠ مملوك وفصيلة من المشاة العثمانيين و٦٠٠٠ من العربان فانكشفت المعركة عن خذلان حسن باشا إذ قتل من جيشه ٣٠٠ رجل ورئيس الدلاة وكيور يوسف أشجع بكباشى فى جيش الوالي وتحرك ألفى بك بعد ذلك الى كرداسة حيث خيم بعسكره فاستأنف حسن باشا الزحف فى طريقه الى بنى سويف دون أن يعترضه أحد، وهناك بعث بمن معه من الدلاة الى معسكر طاهر باشا .

وانزعجت الخواطر فى القاهرة لفوز العدو ، إذ كان يكفيه لدخولها أن يعبر النيل . وقد قوى جانبه تواتر الهزيمة فى صفوف الارنؤود ، لكن لم يلبث أن برز له الفرسان الباقون فى القاهرة والوجاقلية وأغا الانكشارية فكان من نتائج هذه الحركة أن ارتد ألفى بك على أعقابه الى اقليم البحيرة . واحتل كل من ابراهيم بك البرديسى وعثمان بك حسن مدينة أسيوط وحصرت طلائعها المنيا ، فبعث عابدين بك الى حامية هذا الموقع بالمدد من الجند والمؤن والذخائر . وما وافتها الأخبار بدنوهم حتى بادرت بالخروج اليهم فأقصتهم عنه ومكنت المدد من الانضمام اليها . وحدث أن بكباشياً من الألبانيين اسمه رجب انضم الى معسكر ألفى بك مع أربعمائة من رجاله طمعاً فى مال وعد به ، غير أن هذه الخيانة جاءت بأجزل الفوائد اذ بثت روح الحماس والهمة فى الجنود

الموالين الذين لم تؤثر فى نفوسهم الوعود الخلابة ولم يبيعوا ذممهم بالمال . فمن ذلك أن طبوزاوغلو الذى رفعه محمد على باشا الى رتبة كيخيا أراد أن يقوم بشكر هذه النعمة فسحب جنوده من امبابة واقتفى مع طاهر باشا أثر ألفى بك وناوشه وعاقه عن الزحف على الطرانة وحوش عيسى ودمنهور . ووقعت فى خلال ذلك حوادث وجدّت ظروف طرحت بسببها على بساط البحث مسئلة نفوذ الباشا ومدى سلطته . لانريد بهذه الظروف المخجلة التى أيقظها البكباشى عبد الله وعساكره المتشردون بارتكابهم القبائح والمخازى ضد نساء بولاق وسلبهم الناس أموالهم وقطعهم الطرقات فى رابعة النهار وجناياتهم التى اقترفوها فى ضاحية المنصورة . كلا ، فإن الوالي اكتفى بنفى هؤلاء العائثين العابثين ونثر عليهم خزنداره ملء كفيه مالا ليقذف بهم الى ما وراء الحدود السورية ، فكان شأنهم شأن الكلاب التى تلقى اليها بكسرة الخبز لتتقى شرها ، وانما نريد مانحن مسطروه فيما يلى وهو من الأهمية على ماسيبدو جلياً للقراء .

غير خاف أن الأسرة الجديدة التى تسلمت مقاليد الأمور قد ألقت الخوف فى روع الباب العالي الذى أصبح تجاه هذا الانقلاب الخطير لايجرؤ على الأمل فى إخضاع رأس تلك الأسرة إخضاع التابع الذى يؤدى الجزية صاغراً . فإنه اذا صادق الباب العالي على اختيار محمد علي للولاية على مصر فما ذلك الا

لعجزه عن النزول معه فى ميدان . وبالرغم من أن الحكومة العثمانية أرسلت الى مصر مع القابجى باشا سبعين تتريًا وصلوا اليها فى أول ابريل سنة ١٨٠٦ ليقدموا الى محمد علي الأذناب الثلاثة وشارات الولاية وعلاماتها والهدايا النفيسة وخلعة التقليد، فأنها بما عرف عن سياستها من الدهاء والعمل فى الخفاء كانت تعمل على تقويض سلطة مابرح المماليك يحاربونها علانية والى أجل غير مسمى ويدسون لها الدسائس بدافع الحسد والغيرة . وكانت انجلترا تؤيد المماليك منذ وعدها الألفى بثغور مصر فى مقابل مساعدتها له على الجلوس فى منصة الحكم وخدع وعده فريق المتجرين بالسياسة من الانجليز لأيثارهم الحصول على طريق الى الهند لاينازعهم فيه منازع على التفاوض مع رجل صادق محنك كمحمد على باشا لايرضى المماكسة فيما له مساس بمستقبل البلد الذى بيده زمامه ، حتى انهم كانوا فى مذكراتهم الى رئيس افندى اى مشير السلطنة لايكفون عن نسبة والى مصر الى العصيان والمروق عن طاعة السلطان وتصويرهم ألفى بك فى صورة الرجل الوحيد القادر على توطيد دعائم الامن والراحة وشدّ أواخى المعاملات التجارية معهم . وكانوا اذا لم يأبه الباب العالى لنصائحهم لايحجمون عن تهديد السلطان وارهابه بسلاحهم واسطولهم .

أما فرنسا التى لم تهتم قط بمصالحها التجارية فى مصر فقد

سارت في هذا القطر على سياسة مناقضة لهذه ، اذ كانت تذود باخلاص وهمة عن مركز الأسرة المحمدية العلوية وتحارب الفوضى التى يمثلها ألفى بك فى شخصه . على ان هذا الامير الذى كان يسبر باحدى يديه أعماق التاميز ويجس بالأخرى مخاضات البسفور أوفد خازنداره الى الاستانة العلية ليتمرغ على الاعتاب الشاهانية ويقترح عليها دفع جزية قدرها ١٥٠٠ كيس بضمانة الحكومة الانجليزية ، فى مقابل اعترافها به . فقبل الديوان الهمايونى هذا الاقتراح ووجه الى الاسكندرية أسطولا مؤلفا من اربع سفن وفرقاطتين وكورفيت ويقل ثلاثة آلاف جندى بقيادة صالح باشا الذى رقى فيما بعد الى رتبة قبطان باشا . فلما ألقى الاسطول العثمانى مراسيه فى مياه ذلك الثغر قصد أحد القابجية توا الى القاهرة ليأمر محمدا عليا بمغادرة القطر المصرى فورا الى سلانيك ، ليتقلد ولايتها بدلا من موسى باشا الذى عين على مصر بدلا منه .

وكان محمد على موقنا بالعاقبة التى هو ملاقيها اذا أطاع هذا الامر ، فأجاب القابجى على لسان سليم أغا بأنه مدين لجنوده بعشرين الف كيس وان تمردهم يحول دون مبارحته الديار نزولا على الارادة السلطانية . ثم بادر بعقد مجلس من أمراء جنده وأبلغهم مطالب الباب العالى ، فصاحوا جميعا أنهم لن يرضوا منه بديلا فى مباشرة شؤون الحكومة وانهم يأبون ان

يفارقهم . وكان محمد على موقنا صدق لهجتهم وواثقا باخلاصهم الا أنه اراد ان يثير فيهم الحماس والهمة فقال :

« أتدعوننى الى مخالفة السلطان بالبقاء فى هذا المكان ! إذن ماذا تكون الحال اذا دهمتنا جنوده وبأية قوة نقاوم ؟ ان جنودكم لاتعرف للنظام اسما ولا معنى ولا تدرى من احوال الدنيا غير السلب والنهب ومعاملة الناس بالخسف والعسف ومعاملتى أنا بالالحاف فى طلب أجورهم ومرتباتهم . وانتم معشر الرؤساء القائمين على تدبيرهم ، كيف تستطيعون اقناعهم باتباع طريق الصواب وعدم الانحراف عن جادة الواجب ؟ أنتم تكرهون الحرب وتستثقلونها بما ترك العكوف على اللهو فى اعصابكم وأثر به فى نفوسكم . إنكم وقد تقلبتم فى نعيم الثروة ورغد الحياة أصبحتم ولا اهتمام لكم إلا بجمع المال وادخاره. ولقد تركتم انفسكم غرقى فى بحار النوم اللذيذ . أما انا الذى مازال كالجندي واقفا على قدم الاستعداد ومتحفزا للوثبة على الفرص السانحة ومتقدما الى الامام على الدوام ، فأنا وحدى أحمل أعباء العمل والقلق ، وأنا وحدى الدريئة التى يقرطس الاعداء فيها سهامهم المسمومة ! وليت هذا هو كل ما أشكوه ويضنينى. كلا . . فإنه يحزننى ألا أستطيع الاعتماد على وعودكم . ولطالما ضحيت راحتى فى سبيل هناءتكم وجعلت نفسى هدفا لغضب السلطان ونقمته . وهاءنذا مابرحت الى اليوم مقيما على عهدى

معكم ، فأنا الزميـل الصادق والرفيق الأمين ، وها كم خنجرى وساعدى ورأسى وقلبى ، كل ذلك مازال يعمل على مافيـه صلاحكم وهناءتكم كأخوة صلحاء ورفقة أمناء ، فاقسموا على هذه الصفحات المقدسة صفحات القرآن الكريم ألا تتخلوا عنى وألا تتركونى وحدى وأن تدافعوا عن قضيتى التى هى قضيتكم الى آخر نقطة من دمكم » .

أثر هذا البيان البليغ فى نفوس السامعين وكانوا سبعين عدّا ، فأقسموا جميعاً على المصحف الكريم ثم مرّ بعضهم تلو بعض فوق سيف أمسك بطرفيه اثنان كانا أكبرهم سناً وقالوا إن الحانث فى هذه اليمين غادر وخائن لا يستحق الكرامة ولا الحياة . ثم فرض كل منهم على نفسه مالا وقدمه الى الوالى فاجتمع بهذه الطريقة ألفا كيس ودفعوا نفقات السفر لقاصد يسافر الى الاستانة حاملا أماني الوالى وآمال الأمة المصرية .

وكان محمد بك الألفى لايزال معسكراً أمام دمنهور وكانت تصل اليه على يد أعوان الانجليز أخبار الجهود المبذولة من أجله ، فأمل خيرا من ورائها وانتفخت أوداجه وتراءى له هذا الأمل كبيرا كما لو كان مرئيا من خلال بلورة المجهر . ولذا كان واثقا بتحقيق أمانيه يوما ما بعضد انجلترا . وما اتصـل به نبأ تحرك الأسطول العثمانى من الدردنيل قاصداً الاسكندرية حتى أذاع فى دمنهور منشوراً جاء فيه : « أرسل الباب العالى فرمانا

بتقليدى ولاية مصر . ومتى تسلمته قصدت الى القاهرة للعمل بمضمونه ، فعليكم أن تفتحوا لى ابواب مدينتكم لتبرهنوا على اخلاصكم وطاعتكم » . فلم يجاوبه الدمنهوريون بكلمة على هذا البلاغ بل بعثوا به الى محمد على باشا واقتدى الدلاة بهم عندما وصل اليهم بلاغ من هذا القبيل فكتب محمد على الى الفريقين يقول : « لم يكن محمد الألفى إلا رجلا خبيثا منافقاً وسيلاقى شر العقاب جزاء خبثه ونفاقه . وانى لمعتمد على طاعتكم وواثق باخلاصكم » . وكانت طبقات الاهاين كافة قد تلقت بلاغات من طراز البلاغين المتقدمين ، فبعث بها كلها الى الوالى وساء فأل الألفى وطاش سهمه ، غير ان عزيمته لم تفتر مع ذلك فقد استمال اليه قبطان باشا بهدية أدلى اليه بها وهى عبارة عن اربعة آلاف كبش وثلاثين جوادا ومائة جمل محملة بالارزاق ومبلغ جسيم من المال وأقمشة فاخرة ، فشكر له قبطان باشا هذه الهدية وبعث اليه بمدفعين من الهاون و ٥٠٠ بندقية وكمية وافرة من ذخائر الحرب .

وكان محمد على فى اثناء ذلك يتخذ الحيطة لنفسه ، كى يدرأ عنها الحوادث الطرآنية ويعمل لذلك سعة حيلته وبعد نظره ، فقد موّن القلعـة بالبقسماط والبارود والقنابل وعكف على استقراء الاحوال فى المدينة متنكرا بمختلف الأزياء ليقف على حقيقة شعور الناس نحوه وميلهم اليه ، أو غير متنكر تتبعه

شراذم الجنود لتعزيز هيبته ومقامه فى نظرهم . وقد طلب اليه العلماء وسألهم الجهر برأيهم فى شخصه فكشفوا له الغطاء عن حقيقة ضمائرهم ، ثم كتبوا بعد انصرافهم من عنده عرضا بمقاصدهم الى الباب العالى أشاروا فيه الى المهمة الموكولة الى قبطان باشا ، وقالوا : « إن السلطان لم يعد الأمراء بالمساعدة وشد الأزر إلا اذا ضمن العلماء استقامتهم وحسن سلوكهم بين الرعية ، لكن العلماء لايأخذون على عاتقهم مثل هذه المسئولية » ثم قالوا بعد ما تقدم :

« إن لولي أمرنا وحده وهو جلالة السلطان حق الأمر والنهي ، بيد أن سوء سلوك الامراء وسيرهم بين الناس بالظلم معروفان للناس طرا ، فهم رأس المصائب التى حاقت بمصر وأصل الاحزان والآلام التى نكابدها . وكنا بعد وفاة طاهر باشا واستيلائهم على القاهرة نسأل الله ان يوفقهم للخير ويهديهم صراطا مستقيما ، إلا أنهم اتبعوا غوايات الشيطان وأطاعوا نفسهم الأمارة بالسوء فازداد عيثهم وإفسادهم وأذاهم ألف مرة ، فشملهم بذلك العار والشنار وأصبح الرؤساء منهم لا يستطيعون الحكم على مرءوسيهم والسادة عاجزين عن اخضاع مواليهم . ومن أساليبهم المذمومة فى أثناء قيامهم بالعاصمة اجترائهم على قتل حجاج بيت الله وتجريدهم الأهلين من أملاكهم واستصفاؤهم اموالهم واذاقتهم اياهم المرّ والحنظل ، ولا تزال خيانتهم لعلى

باشا حاضرة فى الاذهان ماثلة للانظار . وفى السنة الحاضرة قاسى الحجاج والتجار والفقراء الحاضرون من القصير صنوف العذاب وتجرعوا كؤوس الشدائد ، فمن أين لنا ضمانة قوم شيمتهم الوعود الكاذبة وقولهم بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم . أما القروض التى اقترضها محمد على باشا والفروض التى فرضها على ابناء مصر فليس الغرض منها سوى طرد الاشقياء والمفسدين ، على ان فرضها كان بموافقة سابقة من الاعيان والعلماء فى اجتماع تفاوضوا فيه طويلا. إن مصر ملك جلالة السلطان ولا يسعنا إلا الطاعة لمن يوليه علينا ، لكننا نأبى أن نحمل أنفسنا المسئولية بضمان الامراء إذ أننا لاثقة لنا الآن بهم لمعاملتهم بالقسوة والاحتقار ضعاف الناس من العبيد والنساء والفقراء ، على حين ان الرعية أمانة فى عهدة السلطان ورعايته وظله . ونحن نسأل الله القادر على كل شيء ان يطيل حياته ويهلك أعداءه » .

فكان جواب قبطان باشا على هذا العرض أن رجا من الشيوخ على لسان سلحداره الاعتماد على الثقة الموضوعة فيهم لحمل الوالى على الاقرار بالطاعة للباب العالى ، فتلقوا رجاءه بالاحترام ونزل الرسول الذى حمل اليهم رسالته وهو شاكر أغا فى دار محمد على باشا فلم يحصل من العلماء ولا من الوالى على اجابة ما ينقلها الى قبطان باشا سوى الكلمات الآتية :

« تلقينا رسالة سموكم بالطاعة والاحترام الواجبين لمثلها

ورداً عليها نقول إن أهل القطر المصرى ضعاف وفقراء. وقد يحدث أن يأبى الجنود الطاعة لوالٍ جديد وينزعوا لذلك الى الفتنة حتى لايضطرهم أحد الى مبارحة البلاد، وعندئذ لايكون من وراء ذلك إلا تخريب الدور ونهب القصور وهتك الحريم. ولما كان الشرف لكم عنواناً والخير غاية فنحن ننتظر الرحمة والرعاية منكم ان شاء الله».

وفى اليوم نفسه، أى ٢٠ ربيع الثانى ١٢٢١ الموافق ١٤ يوليو ١٨٠٦، قال محمد على باشا لبعض أخصائه ومنهم تلقينا ماقاله: «ما أخذته بقوة السيف لن أعطيه الا بقوة السيف. أو يصح أن تصبح القاهرة كالحمام يباح لكل قاصد أن يدخله بلا استئذان ولا احتشام؟ انى أعلم من أمر الترك ما أعلمه وأنهم ممن يبيعون ذممهم وسأشتريها! واذا كنت قد تمكنت بخمسمائة رجل من إتمام هذا الانقلاب العظيم فبأقل من الاجناد الألف والخمسمائة الذين هم الآن حولى أستطيع صيانة الأثر الجليل الذى أقمته من عادية الفساد والتلف. وانما السيد القدير وصاحب الكلمة النافذة هو الاكثر بذلا من غيره للمال والابرع فى إيصال صليل السيوف الى أبعد مدى».

وفى الاسبوع التالى طلب قبطان باشا من الوالى أن يوافيه كتابة بأنه يرفض الطاعة للباب العالى فلم يأبه محمد على لطلبه ولم ترتعد من أجله فريصته، وانما عكف على تحصين المدينة داخلا

وخارجاً . على أنه كان ينقصه المال والسلاح ففرض على الملاك والمستأجرين بالوجه البحرى فرضة يدفعونها بالمناصفة وحشد فى امبابة من أقام على طاعته من الجند وكان مشائخ الحارات يذهبون اليها مع الوجاقلية والسكان القادرين على حمل السلاح ، وخرج الوالى نفسه اليها واتخذها معسكراً له . وتحرك الكيخيا من الرحمانية التى كان يتولى أمورها مع طاهر باشا فصعد فى الضفة اليسرى للنهر ، فرفع ألفى بك الحصار عن دمنهور وزحف زحفاً حثيثاً للقاء الألبانيين وخيم بالقرب من النجيلة على مسافة فرسخين من معسكرهما . وكان الكخيا موسى باشا الذى ولى على مصر بدلا من محمد على باشا يمد الألفى بنصائحه وآرائه فى الأعمال الحربية ، ففى ١٧ جمادى الاولى الموافق ١٢ أغسطس هجم المماليك على طاهر باشا هجوماً عنيفاً من الجهة اليمنى لتلك البلدة ، والزموه الفرار ولحق به رجاله إذ ألقوا السلاح من أيديهم ونزلوا فى القوارب الراسية على الشاطىء . وقد غرق قاربان منها لازدحامهما الشديد بالركاب الفارين وغنم عربان الألفى ماتركه الالبانيون وراءهم من خيام وسلاح ومتاع . أما الكيخيا بك فقد ثبت فى مكانه ثباتاً محموداً وصمد ساعتين لقتال المماليك كان الجلاد فى أثنائهما عنيفاً ، إلا أنه اضطر فى ختام المعركة الى الانسحاب نحو النجيلة . وفى فجر اليوم التالى عبر النيل ولجأت فلول جيشه الى بلدة منوف . وخسر الألبانيون فى هذه

المعركة سمائة عسكرى وثلاثة مدافع والخيام والأمتعة . أما الألفى الذى كان فى أثناء المعركة واقفاً خلف عساكره وشاهراً سيفه يحضهم على القتال ، فقد أرسل الأسرى ورؤوس القتلى الى قبطان باشا .

وعاد الارنؤود المدبرون الى العاصمة فلولاً ممزقة وشيماً متفرقة تبدو على وجوههم أمارات الخزى والذلة . وما اتصل بالوالى خبرهم وما نزل بهم حتى غضب عليهم . وكان كيخيا بك قد أبدى من آيات البسالة مايستحق عليه الحمد وحسن الجزاء . فقد أقره فى منصبه وشجعه ، ثم التفت الى بكباشى ممن ولو الادبار لجبنهم وصغار نفسهم فحنق عليه حنقاً شديداً وهمّ ليفتك به ، وهو فى بهو الاستقبال ، لكنه كظم غيظه ولم يلحق به أذى . ورغم مابينه وبين طاهر باشا من صلات الرحم وأواصر القرابة فانه أبى العفو عنه وحظر عليه دخول القاهرة ومقابلته بعد الآن لكن طاهرا عمد الى التماس رضائه باصلاح خطأه فتحول الى الضفة اليسرى من النيل وأخذ عنوة من المماليك موقع الرحمانية الخطير ، وكانوا قد استولوا عليه قبل ذلك بيوم واحد . وما طرق هذا الخبر سمع محمد علي باشا حتى صفح عنه وغمره بأحسانه وهداياه .

وكان من نتائج الهزيمة فى معركة النجيلة أن انتشرت حول القاهرة شراذم كثيرة من المماليك والعربان فتقرب منهم

الناقمون على محمد علي وحكمه وضاعف الحذر واليقظة فكان يتنكر في اليوم الواحد فى صور وأزياء شتى ويجوس خلال الاحياء الآهلة بالسكان ، وواصل أعوانه الحركة والتنقل ليلاً نهاراً لاتقاء ماعساه أن يطرأ من الحوادث ، فدل بذلك على استشعاره خطر الثورة وسوء المنقلب اذا باغتته حوادثها ، قبل أن يتخذ الحيطة لدرئها . وكان فوق هذا وذاك يعلم أن قبطان باشا والألفى يعملان عملا متواصلا لدى الاهلين لاستمالتهم اليهما ضد محمد على. ولم يغب عنه قط أنه اذا لم يسعده اليمن ولم يؤيده السعد فان السلاح الذى شرّعه خصومه الى صدره من وراء ستار لابدّ قاتله . ولكى يمنع الناس من الاحتشاد بقصد التآمر وبث الفتن جبر الخليج قبل موعده الموقوت ففاضت مياهه على الميادين العامة والطرقات الكبيرة حتى لم يعد المرور منها ميسوراً وساعدته هذه الحيلة على نقض ما أبرمه بعض أرباب الفتن فى الخفاء من تآمر فى مصلحة العاملين على تقويض الحكم المحمدى العلوى فى مصر .

وكان الألفى قد وضع الحصار مرة أخرى على دمنهور فثار فى نفوسهم من الحمية والغيرة مافد ثار فيها منذ شهرين حينما اعترضوا الحملة الفرنسية ووقفوا فى طريقها . وكان قاضى الاسكندرية وعلماؤها قد أفتوا ، بناء على طلب قبطان باشا ، بمروقهم عن طاعة الخلافة وجهرهم بالعصيان فلم يعبأوا بفتواهم

بل ظلوا ثابتين فى مراكزهم يتلقون من القاهرة التعليمات والاوامر ويعتمدون عليها فى إحراز النصر .

وكان مما حرك الحماس فى صدرهم اعتمادهم على وصول المدد واقتراف المماليك الجرائم الفظيعة فى حق الاسرى منهم إذ كانوا يعلقونهم بأغصان الأشجار ويتخذون لهذا الغرض قطعاً حادة من الحديد يغرزونها تحت أذقانهم ، فآلوا على أنفسهم أن يموتوا قبل تمكين العدو من تدنيس مدينتهم . وحمل المماليك عليهم حملتين عنيفتين فى مدى خمسة أيام فقصروا عن اختراق اسوارهم وكثيراً ما تستر المحصورون بالظلام فألقوا الفزع فى أفئدة المحاصرين بصراخهم الشديد وأتلفوا أمتعتهم وأطلقوا النار عليهم ثم عادوا على ضوء المشاعل مترنمين بأناشيد الانتصار ساحبين من ورائهم عدداً لايستهان به من الأسارى .

انقضت أشهر طوال دون أن يتم قبطان باشا المهمة التى حضر من أجلها . وكان الباب العالى قد أرسل فى طلبه لتوتر العلاقات السياسية بين الروسيا والدولة فلم يعجل بل تعمد البطء والتثاقل صارفاً كل جهوده الى الحصول على مبلغ ١٥٠٠ كيس كان المماليك قد واثقوه على دفعه سنوياً لخزينة السلطنة . أما السبب فى أنهم خاسوا بعهودهم فيرجع الى ما دب بينهم من التحاسد والتخاذل وإيثارهم مصالحهم الذاتية على المصلحة العامة ، وهو ما أعجزهم عن الوفاء فخنق قبطان باشا عليهم حنقاً شديداً

وقال لهم انهم إنما يهزأون بلحية الصدر الاعظم ويسخرون من لحيته وأن محمدا علياً لن تخطئه الفرصة لقهرهم واذلالهم . وكان محمد علي جريئاً ندى" الكف" محباً لمظاهر الجاه فعرض عليه أن يدفع الى الخزينة ٤٠٠٠ كيس لا ١٥٠٠ وأن يجعل ابنه ابراهيم بك الذى وصل الى مصر منذ عهد قريب رهينة لدى الدولة ضماناً للسداد . وفى الاثناء ورد من الدولة ردّ على العرض الذى رفعه العلماء اليها بتفويض النظر فى مسائل مصر وحسمها الى قبطان باشا . وكان كبار ضباطه الذين فتنهم محمد على بكرم الوفادة ووفرة العطاء قد نقلوا الشىء الكثير من خصال الوالى وفضائله الى قبطان باشا فجنح اليه بميوله واستعد لمفاوضته فيما يريد وحرر المشائخ والوجاقلية على أثر ذلك عرضاً التمسوا فيه من الدولة إقرار محمد على فى الولاية . وكان ابراهيم قد تلقى الاوامر من والده بان يجعل نفسه فى تصرف قبطان باشا ، فقصد الى الاسكندرية وبيده العرض مذيلا بإمضاءات لاعداد لها ، ومعه الهدايا الكثيرة من الاقمشة الهندية والخيول المطهمة ، ثم قدم نفسه اليه رهينة على ماعاهده عليه . وعند ماتم هذا الاتفاق أبحر الاسطول العثمانى فى ١٢ اكتوبر ١٨٠٦ قاصدا الى الاستانة وفيه موسى باشا الذى كان مظهره فى كل هذه الحوادث لا يتفق مع الكرامة ومركزه الأدبى فى حرج شديد .

وترك قبطان باشا بالقاهرة كيخياه لتسلم المال الذى تعهد

الوالى بأدائه . ولقد أداه على عجل ، وما انقضت ثلاثة أسابيع على سفر الاسطول حتى وصلت الى بولاق سفينة تقل القابجى باشا يحمل فرمانين أحدهما بالاعتراف لمحمد على بباشوية مصر مع اقراره فى الولاية والآخر بتسيير قافلة الحج وتصدير ستة آلاف أردب من القمح الى جدة مع توصيته بالرفق بالامة وبالمماليك أيضاً .

وفى الوقت نفسه عقد محمد علي النية على قلب الحكومة واجراء تغييرات ذات بال . ذلك ان رجال الدين فى مصر كانوا على عهده ، كما كانوا على عهد الفراعنة الاولين ، على جانب كبير من الصلف والكبرياء والطمع والميل الى تدبير الدسائس والفتن . وكانت الحكومة لهذا السبب لاتتدخل فى اختصاصهم فيدفعهم الطمع وحب الاستئثار بالنفوذ الى محاولة الاطلاع على شؤون الحكومة والتدخل فى تصرفاتها . ولقد عادت هذه النزعة بالوبال عليهم كما ستراه بعد ، إذ بلغ بهم حب الاستقلال بتصرفاتهم والاستئثار بالنفوذ والسلطة الى اقامة قضاء استثنائي فى دورهم بل محاكم تفصل فى أهم المسائل وأعضلها ثم اتخذوا من مصالح الرعية ووجوب السهر على صيانتها مساغا للتدخل فى كليات الادارة وجزئياتها ، يتناولونها كلما لاحت لهم الفرصة بالنقد الشديد المأثور عن الاتقياء والصالحين ، واللوم القارص الذى لايطاق من غيرهم وكانوا يمعنون فى النقد واللوم كلما توهموا ان أوامرهم

طرحت فى زوايا النسيان ، وكان السيد عمر مكرم مرموقاً من أولياء الأمر بعين التجلة والاحترام ملحوظاً على الدوام بتوجهاتهم ، فأثار هذا الأيثار فى نفوس مناظريه من العلماء والاعيان الحسد والغيظ وتاقوا جميعا الى أن يكون لهم مثل منزلته .

وكان السيد قد كلف النظر على أوقاف الجامع الأزهر ، فكان من البداهة ان تضطرم نار الخلاف بينه وبين الحاسدين والناقين فلم تلبث الخصومات لهذا السبب ان اضطرمت نارها واندلع لهيبها . وكان العلماء يقفون من محمد على موقفا يشعره بأنهم اصحاب الفضل والمنة عليه لما قدموه اليه من العون فيما شجر بينه والمابين الهمايونى ، فاغتنم فرصة تفشى الخلاف بينهم وبين السيد عمر مكرم للقبض على ثلاثة من أولئك الناقين واعتقالهم وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ الدواخلى والشيخ سعيد الشامى .

ونزعت حامية المنيا فى تلك الآونة الى العصيان بحجة المتأخر من مرتباتها وكانت مؤلفة من تسعمائة تركى فأنفذ محمد علي لاخضاعها والضرب على يدها جماعة من الألبانيين بقيادة حسن باشا ، ولم تلجأ هذه القوة الى استعمال السلاح ، لأن اسماعيل أغا كاشف منوف كان قد نجح فى المهمة التى عهدت اليه لديها وهى بذل الوسائل السلمية لكى تثوب الى الطاعة والسكون .

وفى الساعة الثامنة من صبيحة ٢٠ اكتوبر وصل الى الاسكندرية من الأراضى المقدسة زورق حاملا رجلا من كبار الفرنسيس وأبعدهم صيتاً فى العالم كله وهو الكاتب الشهير (شاتوبريان). وانه لمن دواعى الغبطة لنا ان نثبت هنا وصفاً لمصر فى أواخر سنة ١٨٠٦ بقلم هذا الكاتب الألمعي. قال :

« ما كدت اصل الى الاسكندرية حتى يممت نحو دار مسيو دروفتى قنصل فرنسا فيها. ومسيو دروفتى هذا جندى امتاز بالبسالة والهمة وهو من ابناء ايطاليا الجميلة، فتلقانى بالهشاشة التى هى أس الصفات الفاضلة فى الجندى الشهم وحيانى بحرارة شوق مستمدة من حرارة شمس مصر. وكنت أجهل أيكون من حظ كتابى اليه ان يقع فى يده وهو ساكن فى وسط الصحراء، لكنى أتمنى من صميم فؤادى ان يكون ذلك الكتاب قد وصل اليه ليعلم منه ان مضىّ الزمن لن يضعف فى نفسى قوة العواطف المستكنة فيها. وان أنس لا انسى قط ما أبداه لى من شعور الحنان والرفق، حينما ودعنى على الساحل، وهو شعور شريف راقٍ لايحسّ أثره إلا من صافحت يده يد ذلك الرجل وشهد مالحقها من العطف وهو قائم بخدمة وطنه. نعم انى لست من ارباب الجاه والغنى وليس لى من أحد سند ولا إزر بل لست من ثقة الناس بى فى كثير ولا قليل، لكن اذا أتيح لى يوما أن اكون علي قسط من ذلك فلن تطيب نفسي ويرتاح وجداني لبذله

الى أحد غير المسيو دروفتى .

« . . وصلنا الى بولاق فى ٣١ اكتوبر فاستأجرنا خيلا وحميرا لنذهب بها الى القاهرة . هذه المدينة ، التى يشرف عليها قصر بابل القديم ويحكمها جبل المقطم ، مدينة غريبة المنظر ءا ينبثق فى جوها من اشجار النخل والجميز ومنارات المساجد . دخلناها من طرقات عديدة فاذا بها قرية كلها اطلال دارسة تجوس خلالها الحداء والطيور الجارحة تلتمس فريسة تنهشها ، فنزلنا بحيّ الافرنج وهو زقاق لا منفذ له يغلق مدخله كل مساء كما يغلق الباب الخارجى لأحد الاديرة فاستقبلنا الوكيل الذى عهد مسيو دروفتى اليه رعاية شؤون الفرنسيين ومصالحهم بالقاهرة فأظلنا بحمايته وأخطر الباشا من فوره بوصولنا كما أخطر في الآن نفسه المماليك الفرنسيين ليصحبونا فى غدواتنا وروحاتنا .

« وقد بقي هؤلاء المماليك فى خدمة الوالى . ومن العادة فى الحروب الكبيرة ان تترك وراءها بعض المتخلفين وقد تركت حروبنا فى مصر نحو ثلثمائة عسكرى فانتشروا فى أرجائها موثرين البقاء فيها على العودة الى فرنسا . ومنهم من انحاز الى حزب الامراء فاشتهروا عندهم بالشجاعة والاقدام . وآراء الناس جميعا متفقة على انه لو كان هؤلاء المتخلفون قد اجتمعوا واتحدوا بدلا من اختلافهم وتبددهم وعينوا عليهم بيكا فرنسيا لتم لهم الاستيلاء على القطر من قاصيته الى قاصيته ، لكنهم لم ينصبوا من الأسف

ابراهيم يحمل على احزاب العدو ويمزق شملهم

رئيسا عليهم ، بل ماتوا جميعا فى خدمة الامراء الذين اختاروهم لخدمتهم . وكان محمد علي فى اثناء مقامى بالقاهرة لايزال يبكى أحد أولئك الشجعان ويأسف لفقده . وقد علمت من خبره انه كان جنديا يقرع الطبل الصغير في أحد طوابيرنا ثم وقع فى ايدى الاتراك أسيراً ، وكان حديث السن جدا فلما بلغ أشده أخذ ضمن من أخذوا للتجنيد فى جيوش الباشا الذى لم يكن يعرفه من قبل . فلما رآه وهو يحمل على جمع كثيف من الاعداء صاح قائلا : « من هذا الرجل ! لايمكن لمثله الا أن يكون فرنسيا » وكان الجندى الهمام فرنسيا فعلا فلم يلبث ان اصبح منذ هذه اللحظة من المقربين للوالى ولم يكن حديث الخاصة والعامة الا فى شجاعته وبسالته وقد قتل قبل وصولنا الى مصر بقليل فى معركة فقد فيها المماليك الفرنسيون الخمسة خيولهم من تحتهم .

« وكان هؤلاء من مقاطعات (غـقونيا) (ولنجدوك) و (بيكارديا) وكان رئيسهم ابن اسكافي فى (تولوز) وكان الذى يليه في الرتبة يترجم لزملائه ويتوسط فى تفاهمهم مع الغير ، لأنه كان يجيد التركية والعربية . أما الثالث وهو شاب طويل القامة شاحب اللون فى سمرة فقد ساكن العربان طويلا فى الصحراء وكان كثيرا مايصبو الى المعيشة فيها ويذكر بالأسف الأيام التى قضاها بها . ولقد روى لى أنه كان اذا رأى نفسه وحيدا

وسط رمال الصحراء ممتطيا ناقته ارتاحت نفسه وانشرح صدره وتهلل وجهه بالغبطة والسرور . وكان الباشا شديد الاهتمام باحوال أولئك المماليك الخمسة حتى انه كثيرا ما كان يفضلهم على بقية الأسباهية لفوقهم فى الاقدام والبسالة على هؤلاء الفرسان الذين ابادهم الجيش الفرنسي فى واقعة الاهرام . ولامراء فى أننا نعيش الآن فى عصر العجائب والغرائب ، إذ يبدو للناظر أنه مامن فرنسي الا وفى عنقه اليوم واجب خطير، فان العساكر الخمسة الذين خرجوا من الصفوف الدنيا فى جيشنا كانوا في القاهرة سنة ١٨٠٦ أصحاب الحل والعقد . وليس من المناظر ما هو أدعى الى العجب من منظر عبد الله التولوزى اذا استجمع اشرطة قفطانه وضرب بها وجوه الملحفين من العربان والألبانيين او فتح مسلكا فى الطرقات الغاصة بالسابلة بينهم . على أن المأثور عن الملوك فى اغترابهم حب الاقتداء بالاسكندر الكبير في التخلق باخلاق الشعوب المغلوبة والانطباع على غرارها فى عاداتها ومألوفاتها ، فهم عملا بهذه القدوة يلبسون الثياب الحريرية الطويلة ويحملون فى مناطقهم الاسلحة الجميلة ويعتمون بالعمائم الكبيرة . وقد اتخذوا لهم حرما وعبيدا واقتنوا الجياد الصافنات وادخروا من الاعلاق والنفائس مالم يكن لآبائهم فى غسقونيا وبيكارديا ، لكننى رأيت بين أمتعتهم وسجاداتهم وأرائك جلوسهم في بيوتهم تراثا من تراث الوطن ألا وهو لباسهم

العسكري ، وقد فري فريا بطعنات السيوف . وهم لا ينفكون عن وضع هذا التراث فى ركن من أركان أسرّتهم التى ينامون عليها .

« ولقد راقنى المقام فى القاهرة وطاب كثيرا الى نفسى ، لأنها المدينة الوحيدة التى أوحت الى ذهنى فكرة كاملة عن شكل المدن الشرقية البحت . ومع هذا فهي لاتزال حافظة من الآثار والدلائل ما ينطق بمرور الفرنسيين بها ، فإن نساءها أصبحن بسفورهن أقل احتفاظا بالتحجب ، ولا أحد فيها إلا وهو مالك لحريته فى حركته يروح ويغدو بحسب مشيئته ويغشى مايحب من الاماكن واذا آثر اللبس على الزي الأروبى واتخذه شعارا له فلا أحد يجد غضاضة فى فعله ولا ما يستوجب الازدراء به ، بل ان هناك من يعدون هذا الزيّ رمزا للرعاية والحماية . وفى المدينة حديقة جيدة التنسيق الى حد محدود وقد غرس بها النخل ومدت فيها المسالك فى اشكال مستديرة . وعامة الناس يترددون عليها طلبا للتنزه وتبديل الهواء والذين نسقوها إنما هم الجنود الفرنسيون .

« وقبل أن أبرح القاهرة أهديت عبد الله بندقة صيد بروحين من صناعة مصنع (لوباج) فوعدنى باستعمالها فى أول فرصة تسنح له .

« ولاح لى أن مصر أجمل أقطار الارض وقد أحببت فيها

كل شيء حتى الصحارى التى تحف بها من جانبيها وتفتح للتصور مجالا لاحدّ لنهايته » اه

قال هذا دى شاتوبريان مؤلف كتاب (الرحلة من باريس الى اورشليم) وقد أضاف اليه فى احدى مذكراته قوله : « من معاكسات القدر ان اسم ضائفى بالقاهرة انمحى من صحيفة مذكراتى اليومية وأخشى ان يكون ، على ما أنطقه به ، محرفا عن أصله ولهذا لم أجرؤ على إيراده هنا . لست أغفر لنفسى فرطتها هذه إذا كانت ذاكرتى تخطىء بهذا القدر الاحتفاظ بالخدم التى هي مدينة بها لأدب ذلك الضائف وكرمه ونبله » .

وانه ليسرنا ان ننبه ذاكرة بلغ الضعف بها هذا المبلغ فأن الوكيل الفرنسى الذى اكرم مثوى السائح الكاتب الشهير ولازمه فى جولاته ملازمة الظل للشبح ، فرافقه الى مسلة عين شمس وأطلال المطرية وبئر يوسف وسائر الأمكنة والمعالم الجديرة بالنظر والبحث انما هو مسيو (فيلكس مانجن) . وفى مقابل ماقمنا به من التنبيه والتذكير نرى بحق أنه لمما يدعو ولو الى قليل من الدهش والاستغراب ألا يعنى شاتوبريان باستدراك مافاته عندما أعاد فى سنة ١٨٢٦ طبع مؤلفاته اذ لم يكن مما يقره العقل ان يظل جاهلا اسم مسيو فيلكس مانجن وقد بعث اليه فى سنة ١٨٢٣ ، اى قبل صدور الطبعة الجديدة من مؤلفاته بثلاث سنوات ، بكتاب يروق لنا ان نثبته هنا بنصه ، لما تضمنه

من بيانات ومعلومات تصور للقارىء التقدم الباهر الذى احرزته مصر بين سنتى ١٨٠٦ و ١٨٢٣ قال :

«سيدى ! إن اسم مصر يثير فى نفسك بحق اشرف الذكريات وأجلها وأحبها الى نفسك ، فلقد زرت من سنوات غبرت مهد المدنية القديمة وأطلال الدولة العظيمة وشهدت المعالم والمعاهد والمواطن التى خرج منها شعب اسرائيل للقيام بما رسم له من جلائل الاعمال .

« لقد حييت ، وانت خير مدافع عن حياض المسيحية بمنطقك المفحم وبيانك الشائق ، المعابد التى شادها المسيحيون الأول على ضفاف النيل وما برحت الى الآن مقرا لأحياء شعائر هذا الدين العظيم .

« وشهدت أطلال عين شمس التى اشتهرت بما أحرزته جيوشنا فيها منذ سنوات من آيات الفوز ، فأسفت جدّ الاسف لحرمان هذا الوطن ، وطن الفراعنة القديم ، مزايا حملةٍ تفنى الأجيال وتزول الجبال وتبقى ذكراها على وجه الدهر . رأيت بعينيك مامزق الانشقاق بين سكانها من احشائها فدعوتَ لها بمستقبل تكون فيه أوفى حظا وأوفر سعادة . . تلك الأمنية التى تمنيتها قد تحققت الآن .

« ذلك ان رجلا عظيما ورد من سواحل الروملي على مصر وظهر فجأة على أفقها . وكان من ذوى العبقرية فى الاصلاح ،

فانقاد لحسن سمعته كل شيء اذ تفرقت الاحزاب وخمدت الفتن والاضطرابات وحلت السلطة المنظمة محل الفوضى وعادت الثقة الى القلوب باستقرار الأمن فى نصابه وبدأت الصناعة تشق لها طريقا تخطو فيه الى الامام بخطوات حثيثة . ولا ريب فى أن ذلك الامير الذى جمع الى مضاء العزيمة والبسالة النادرة فضيلة التسامح وأخذ النـاس بالرفق سيسمو بمصر الى اعلى مما بلغت اليه فى عهد صلاح الدين قوة وشوكة واقتدارا » .

وكان عثمان بك البرديسي، وهو أشجع زعماء المماليك وأرفعهم همة وأمضاهم عزيمة ، مصابا منذ توفى مراد بك بداء الصفراء . ولم يهنأ قط براحة يلتمس فى ظلالها الشفاء من مرضه والصحة لبدنه ، لأنه كان بذكائه المتوقد وهمته الوثابة لايكف عن العمل والحركة وبما يكابده من آلام جسمه المثخن بالجراح ومضض نفسه المثقلة باعباء الاحزان والأشجان ، على اثر ما رآه من تدهور شوكة المماليك وأفول نجمهم ، دائبا على التفكير فى مآل امرهم ومصير دولتهم . ومن معاكسات الأقدار له أن الأطباء فى معسكره كانوا طغمة من المشعوذين والمحتالين والأدعياء المتطفلين على مائدة الطب فلم يكن فى مقدور احدهم ان يعالج داء ما ، حتى الصداع البسيط . فخطر ببال واحد منهم ، وهو الذى تصدى لعلاجه ، ان يضيف الى شراب قام بتحضيره له ، وهو ضارب اللون الى الزرقة ، قطرات من حمض الـكبريتيك (ماء

النار) فأثر هذا الدواء فى المريض تأثيراً أودى بحياته فى يوم ٨ رمضان سنة ١٢٢١ ، الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، قبل ان يناهز التاسعة والعشرين بعد . وكان البرديسي بنظراته الحادة وقده الرشيق وقدمه الثابتة ومشيته المتناسقة الخطوات وآيات النبل والشرف الساطعة على محياه يقذف الخوف فى القلوب ، لاسيما إذا امتطى جواده وامتشق حسامه الذى كان بضربة واحدة منه يفرى رقبة الثور الضخم فريا ويعقر ركبتيه أو يكاد .

ولقد كان فى طليعة المماليك الذين انقضوا علينا كالبزاة فى معركة الاهرام ، اذ كان يبرى بسيفه أنابيب البنادق ويقذف بجواده على المشاة من عساكرنا ويحاول، ببندقيته القصيرة الواسعة الفوّهة ، التماسَ طريق له بين البنادق والرماح المتشابكة حتى لقد عاد أصحابه به ذات مرة مضرجاً بالدماء . وكان البرديسي مملوكا بيع الى مراد بك فجعله أولا على خزنته (خازندارا) ثم رقاه بالتدريج حتى صار بيكا ، فاقتفى فى الصعيد أثر مولاه وظل يشاطره الأهوال والاخطار الى ان أبرم الصلح مع الجنرال كليبر . ونيطت به بعد ذلك مهمات عديدة لدى قواد جيشنا ، فكان يقابل منهم بالاجلال والاكبار تقديرا لشجاعته وبسالته . ومع مكانته الرفيعة كان الجنرال (منو) لايحتفل به ، ولذا كان اذا ذكر هذا القائد فى حضرته قال إنه الفرنسي الوحيد الذى يضمر له البغضاء . ولقد أصيب فى مذبحة أبو قير بأربعة عشر

جرحا ثم وقع أسيراً فى يد الاتراك ، فلم يستطع هؤلاء تجريده من سلاحه إلا بعد ان تألب عليه جماعة منهم وطرحوه أرضاً ، وما صادمه أحد او شيء فى حصار دمنهور إلا فنيَ وذاب أمام قدرته وبطشه . وكان فى آخر ليلة من حياته يعلل سقوط دولة المماليك بانهم اتكلوا على بريطانيا وألقوا مقاليدهم اليها . وكان حزن المماليك لوفاته عظيما حتى كسروا على قبره كل سلاحه وأنحوا على رقاب جياده اجلالا لذكره وإعظاما لقدره .

ومع أن محمد بك الألفى كان خصمه اللدود ، فقد حزن عليه حزنا شديدا . وقد ظل الاثنان فى عداء متواصل سنوات طويلة ثم اتفقا على صلح لم يتم فى اليوم الموقوت له ، لأن الألفى لقي فى طريقه ثعبانا مقطوعا فتطير منه وتم فى يوم آخر لم يسنح له فيه ما يدعو الى التشاؤم . على ان بيت البرديسى لم يشأ ، بعد وفاته ، أن يلتحم وبيت الألفى بلحمة النسب ، فاضطر الاخير الى مصاهرة بيتى ابراهيم بك وعثمان بك حسن واختار لقيادة أعوانه شاهين بك المرادى على كره منه وحقد كمين فى النفس ، لانه هو الذى قتل حسين بك الوشاش أحد مماليكه المقربين فحقد عليه وقاطعه لمنزلة ذلك الرجل منه ودالته عليه . ولما تسلم شاهين بك زمام المماليك وضع كل آماله فى الانجليز لأنهم كانوا وعدوه بتأييد اسطولهم له واعلنوا الحرب لأجله على الدولة العلية وبذل فى سبيل الاحتفاظ بمواقعه فى البحيرة جهده ، مرتقبا

نتيجة هذا التأييد . لكن كانت تنقصه الجنود والمؤن والذخائر وكان العربان الموالون له وعددهم ثمانية آلاف يأتون على الأرياف خضراءها وغضراءها ، حتى لم يبق من العمران فى الاقليم كله سوى شبح أسوار دمنهور التى تحيفها الخراب وفشت فيها المجاعة ، فقام اصحاب الألفى يتهددونه بالعصيان إذا لم ينتجع مكانا آخر كثير الخير وفير الرزق ، فرفع الحصار من فوره عن المدينة وانسحب الى الوجه القبلى يوم ١٧ شوال ، الموافق ٢٨ ديسمبر ، وظل صاعدا فيه حزينا كاسف البال فلم يجد مايسكن به ثائرة غضبه ويعزّى خاطره المتعب إلا الانقضاض على القرى التى مر بها والتنكيل بأهلها قتلا وسلبا ونهبا .

أما محمد على فتقدم فى آخر شوال ١٢٢١ ، الموافق أول يناير ١٨٠٧ ، الى ناحية شبرى (١) فشلقان حيث عبر النيل واتخذ من ضواحي امبابه معسكرا عاما له . وفى ٢٠ القعدة ، الموافق ٢٩ يناير ، نقل معسكره الى جوار الجسر الاسود عند سفح الاهرام ، وكانت تحتله طلائع الألفي بقيادة شاهين بك . وكانت الترعة فاصلة بين المعسكرين فشرع الالبانيون يطلقون النار وعكفوا على ذلك النهار كله بلا نتيجة يحسن السكوت عليها . ولم يستطع المماليك الحملة بفرسانهم عليهم لاعتراض الترعة

---

(١) فى القاموس شبرى كسكرى وهى اسم لتسعة وثمانين موضعا فى مصر . ومعنى شبرى باللغة المصرية القديمة المكان المرتفع

دونهم فانثنوا على أعقابهم نحو جيشهم الأساسى لمواصلة السير معه فى اليوم التالى من طريق السهل . وكان محمد على يرقبهم من بعيد بالمنظار المقرب ، وقد رآهم يدنون فى تراجعهم من شبرى . وكان الألفى ، كلما ابتعد عن شاطىء النيل ، لعبت به الهواجس وساوره القلق ، فلما وصل الى قنطرة ممدودة على أحد الجسور وقف مع أعوانه ورمق ببصره مدينة القاهرة وبكى بكاء طويلا .

ولقد زادت به الحال حتى ان المقربين اليه لم يجسروا على الدنو منه ومواجهته لما كان فى أفئدتهم من رهبته .

وفى عصر يوم ٢١ ذى القعدة ١٢٢١ ، الموافق ٣٠ يناير ١٨٠٧ ، خرج الألفى بك الى النزهة ممتطيا جواده ويحف به حرس من المشاة ، فرأى فى مزرعة قمح قريبة جمالا قد انسابت فيها واخذت تعيث فيها فأحنقه هذا المنظر واتجه نحو الحراس ، وكانوا من عربان جيشه ، فقتل أربعة منهم رميا بالرصاص وطعنا بالسيف . وكان أحد الأربعة زعيم قبيلة ، فلما عاد الى سرادقه أخذته الآخذة فتصلبت عضلاته وتشنجت اعضاؤه وقاء قيئا كثيرا ظهرت فيه كمية كبيرة من الصفراء والدم . واجتمع حوله البكوات من أمراء بيته فعين خلفاً لهم فى حضرته شاهين بك قائد الطليعة فقبل هذا يده وسمعه يقول له بصوت خافت : « انى أعهد اليك ياشاهين العناية باخوانك وأجعلهم فى رعايتك وأقدمهم اليك لتحل مودتهم من نفسك محلها فى نفسى فكن واياهم يدا

واحدة . وأوصيكم بدفن جثتى فى البهنسا ، مستقر الشهداء ومثواهم » . وكان الليل قد أرخى سدوله ، فطال على محمد الألفى فى آلام شديدة وأخذ الدم يرتشح من مسامه ثم لم تلبث جثته ، بعد أن لفظ النفس الاخير ، أن امتقع لونها فاتجهت الظنون فى بادىء الامر الى ان موته كان بمؤامرة سرية ، انما تأكد بعدُ أنه كان بالهيضة . وما غلب محمدا الألفي على أمره وذهب بحياته إلا تسلط الطمع على نفسه فلقد تلعثم ، وهو فى حشرجة الموت ، بالكلمات الآتية : « لقد حمّ القضاء وأصبحت مصر لمحمد على » .

وبعد غسل الجثة نقلت الى مقرها الأخير فى تحتروان . وكان النساء ، قبل تشييع الجنازة ، يقبلن زرافات وشتى للبكاء والعويل والندب حول سرادقه . ذلك لأنه كان فى حياته قد اعتاد سبي الفتيات الجميلات والاحتفاظ بذوات الجمال الفتان منهن وردّ الباقيات الى أهليهن . وكانت عادته المألوفة ، وهو فى البحيرة ، أن يتزوج فى كل يوم جمعة من فتاة عربية جميلة . وكانت له هنات كثيرة تستوجب النقد ، منها انه كان يتجمل ويتبرج على مثال لايليق بالرجال ولا يتفق وشهامة الأبطال . وكان شديد الكلف بمظاهر الأبهة والبذخ لا يكف عن الاستزادة من جواريه سوداوات وبيضاوات ومن المماليك كذلك ، حتى لقد بلغ عدد من ملكته يمينه منهم ألف مملوك وأربعين كاشفا . وكان يشيد القصور الفخمه والمبانى المنجدة .

وأحد هذه القصور هو الذى اتخذه سكنا كبار قواد الجيش الفرنسي بالازبكية [١] وكان فى سياحاته ورحلاته ينقل معه أجزاء كشك من الخشب ، اذا ركبت صارت غرفة كبيرة ذات أربع واجهات في كل واجهة منها نافذة يصعد اليها بثلاث درجات . وكان على إلمام يسير ببسائط علم الفلك وعلى معرفة واسعة بالسحر الابيض . وكان بصيرا بأنباء الغيب يستخرجها استخراجا مما بينها من الاتصال والارتباط كاستنتاج النتيجة من المقدمات فى القياس المنطق . فانه لما وصل الى مصر عائدا من الديار البريطانية خط رسما بالقلم الرصاص لم ينته منه حتى ارتعدت فرائصه وقال لرفاقه : « أرى مصائب كثيرة على وشك ان تنزل بنا وسأضطر الى مفارقتكم أربعين يوما » . ولقد تحققت هذه النبوءة بشطريها . وإن لنا أن نسمي هذه المعجزة بما تشاء كبرياؤنا ان نسميها به ، لكن الحقيقة التى لاجدال فيها هى ان العقل البشرى لايسعه الا الاعتراف بها تجاه مايسوقه القدر من الحوادث المبنية في الغالب على المصادفة والجزاف .

وكان ألفي بك على كثير من الاخلاق الفاضلة اذ كان بصيرا بالامور نشيطا فى العمل . ومع عجزه الفاضح فى الشؤون الأدارية كان بلا شك جنديا باسلا وكان كريما الى حد السفه فى السرف اذ كان يكره المساومة والمماكسة . وما رؤى قط مساوما ولا

(١) حيث فندق شبرد الآن

مما كسا بل كان يدفع مايطلب منه دفعه بلا بحث ولا تدقيق . وكان شغوفاً بالعلم والاستفادة به ، فكان لهذا السبب يتحرى ذوى الفهم والحجى لقضاء الوقت فى محادثتهم . والخلاصة ان حياته كانت تتلخص فى ثلاثة مقاصد لم يثنه عن حبها والشغف بها أحد وهى : النساء والكتب والأسلحة .

بيع محمد الألفي الى مراد بك صغيراً بألف أردب من القمح ولذا سمى بالألفى . وقد ترق كعثمان بك البرديسى الى أسمى المناصب ونال الحظوة عند استاذه مراد بك وحارب الفرنسيين في واقعة الاهرام ثم انسحب معه الى الصعيد .

ساعدت المنون محمداً علياً مساعدة جليلة لاشك فيها ، فقد اختطفت من ميدان التنافس فى الاستئثار بالحكم فى مصر الخصمين الوحيدين القديرين على منازلته فيه . وكان محمد علي يلتمس الراحة بالنوم فى صيوانه القريب من الجيزة حينما وصل أحد عربان الهنادى يبشره بوفاة الالفي ، فما استقر هذا النبأ فى سمعه حتى أمر للبشير بجائزة خمسة اكياس . ولم يبق من زعماء المماليك أمامه سوى ابراهيم بك ، غير أن طعونه فى السن قد أغلق أمامه ابواب الأمل فى الفوز والاعتماد عليه بقوته ومحا من نفسه كل رغبة فى العود الى ميدان النضال . دع أن نشاطه كان مقتصراً على إمداد الزعماء الشبان بنصائحه وخبرته . وكانت أمانيه منصرفة من جهة أخرى الى امر واحد ، هو قضاء البقية الباقية

من عمره فى ظلال الراحة والسكون بين اهله واقربائه . إلا انه كان لايزال يوجد قائد آخر من المماليك وهو شاهين بك المرادى الذى كانت تؤيده ، منذ قلد الامارة على بيت الألفي ، قوة مؤلفة من ٨٠٠ مملوك من الفرسان الكاملى العدة و ٨٠٠ من المشاة الاتراك والنوبيين وعشرة مدافع . وكان يصحبه حيث سار قطعان من الماشية مؤلفة من ستة آلاف جمل وأربعين الف رأس من الغنم . ومن كان مثله فى هذا الحشد العظيم من الجنود والاتباع والمؤن قدير على دفع الغارات العنيفة ، لكنه لم يكن ملما كخصمه بالفنون العسكرية ولا قديرا على الزام عسكره رعاية النظام والطاعة وأداء الواجب . وكان لايمضى يوم إلا ويفر فيه بعض الجنود لينضموا الى معسكر الوالى . وبالرغم من هذا الانشقاق كان شاهين لايكف عن تكرار الجملة الآتية لمن حوله : « لقد مات ألفى بك وسيعرف ابناؤه كيف ينتقمون له ويحكمون السيف فى رقاب اعدائه » .

وقد لاح لمحمد على ان الفرصة سانحة لامتشاق الحسام فأمر الدلاة بالتجهز للقتال وخلط جيش عابدين بك بجيش عمر بك وجعلهما جيشا واحدا وشحن ثمانمائة قارب بالامتعة والمؤن ، لكنه أصيب فجأة فى أثناء ذلك بمرض أوجب القلق على حياته وتوافد المشايخ لعيادته ثم تحسنت صحته بالتدريج الى ان أبلّ من مرضه . وكان (يوزارى) الطبيب قائما بعلاجه . وفي اليومين الاولين من نقاهته اشتغل بترتيب المالية وناط بادارة شؤون

الولاية الى كيخياه طبوز اوغلو . وفي ٤ ذو الحجة ، الموافق ١٨ فبراير ، قد تحرك فى جيش مؤلف من ٣٠٠٠ راجل و ٣٠٠٠ فارس وأرصد ستة زوارق مسلحة لحماية القوارب الحاملة للمؤن والذخائر .

وعلم شاهين بك بهذه التجهيزات فهاله أمرها ونقل الى مخيم سليمان بك بضواحي المنيا . وكان الوالى قد تمكن من استمالة العربان المكلفين بحراسة هذا المعسكر الى حزبه فاتفقوا معه على ان يدخلوا ألفا من فرسانه الى معسكر المماليك وهم نيام ، فلما دخلوه أخذوا يضربون بالسيوف جميع من التقوا بهم من المماليك واخذوا الاطراف على الفارّين منهم بالمطاردة العنيفة حتى بلغت خسارتهم ثلاثمائة رجل وجميع المدافع وابلغ خبر هذه الحادثة الى اهل القاهرة باطلاق المدافع من القلعة . وتوالت الاخبار فى الايام السابقة بما كدر النفوس من شبوب نار الحرب بين الدولة العلية وبريطانيا العظمى ومبارحة السفير الانجليزى ضفاف البسفور . غير ان وكلاء انجلترا السياسيين فى الاسكندرية ودمياط ورشيد لبثوا فى مراكزهم ، فاستنتجوا من ذلك ان اسطولا أروبيا سوف يصل الى القطر المصرى ، فأخذت الحكومة الأهبة للقائه بتعزيز الحاميات المتعرضة اكثر من غيرها للخطر وحصنت الشواطىء ، ووقف الجنود ينتظرون وصول ذلك الاسطول للاشتباك معه فى ميدان القتال .

الباب السادس

الحملة الانجليزية فى مصر

سنة ١٨٠٧

فى الساعة السابعة من صبيحة ٧ محرم ١٢٢٢ ، الموافق ١٧ مارس ١٨٠٧ ، وصلت الى الاسكندرية دونتمة انجليزية مؤلفة من ٢٥ سفينة ، فبعث أميرالها (لويس) ببلاغ الى القائمقام امين بك حاكم الثغر يسأله ان يمهد له احتلاله لحمايته من غارة جديدة عزم الفرنسيون على القيام بها قريبا . وفى مساء ذلك اليوم نزل الى البر فى مريوط ١٥٠٠ جندى انجليزى قدموا من (مسينه) بقيادة الجنرال (فريزر) وزحف هذا الجيش فى اليوم التالى على المدينة فعسكر تحت أسوارها . وكان امين بك حاكمها المؤقت المذكور قد استماله الانجليز اليهم بالاصفر الرنان فأباح لهم الدخول فيها فاستولوا عليها فى ٢١ مارس . وكانت حامية الاسكندرية مؤلفة من ٣٠٠ جندى اعتبرهم الانجليز أسرى حرب

وأرسلوهم الى مالطه واعتقلوهم فيها . أما أمين الخائن فقد عامله بالرفق والمعروف اولئك الذين اشتروا ذمته بثمن بخس دراهم معدودة . وطلب فى غضون المخابرات التى دارت بين الانجليز وأمين أغا أن يؤذن له بالعودة الى وطنه حتى لا يقع أسيرا فى ايدى هؤلاء . فقوبل طلبه بالرفض حتى لا يتسهل له العمل على مناوأة السياسة الانجليزية فى الخارج ، لكنه لم يكترث بهذا الرفض . واتفق ان كان فى الاسكندرية ١٥ بحريا فرنسيا مسلحين بالغدارات فاقتحموا أحد ابواب المدينة بعد ان اكرهوا الاحراس على فتحه وانطلقوا منه قاصدين الى رشيد .

وفى ٢٧ مارس أوعز القائد الانجليزى الجنرال (واكوب) الى أحد ضباطه ان يزحف فى جيش مؤلف من ألفى جندى على ثغر رشيد وان يحتله ليتسهل له بذلك إمداد الجيش بحاجته من المؤن اذ قد اوشك المدخر منها عنده ان ينفد وكادت المجاعة تنشب أظفارها فى الجنود .

وفى ٢٩ مارس احتل الجيش ثغر رشيد وغرته الأمانى فخال أنه اصبح المتصرف فى شؤونها والمتحكم فى مصيرها . وكانت الجنود قد أعياها الحر الشديد ومعاناة السير فى الطريق على الرمال المتحركة فما كادوا يصلون الى المدينة حتى انتشروا فى طرقاتها وتجردوا من سلاحهم لالتماس الراحة بالجلوس او النوم على اعطافها . وتوقع على بك حاكم الثغر انهم سيفعلون ذلك ،

فلكى يبث الشجاعة فى رجاله وييئسهم من الطمع فى النجاة نقل السفن والقوارب الراسية على ساحل رشيد الى الضفة المقابلة لها من النهر ثم دعا أجناده ، من ترك وأرنؤود . وكان قد فرقهم على الدور وأمرهم ، منذ شروق الشمس بالاستخفاء فيها ، والوقوف خلف عتباتها ونوافذها ومن وراء ذروات سطوحها ثم انطلق فى فئة صغيرة يرود الطرقات ، فما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى دوت البنادق فى كل مكان مصوبة الانابيب نحو الانجليز النائمين فلما هبوا من نومهم اركنوا الى الفرار لا يلوون على شىء وسقط الجنرال واكوب مصابا برصاصتين . ولو ان الاتراك توفروا فى ذلك اليوم على الرمي بالرصاص ولم يقصروا هممهم على حزّ رؤوس القتلى واقتفاء أثر الفارين لما نجا منهم جندى واحد أو تمكن من العودة الى الاسكندرية لينقل خبر الكارثة الى القائد العام . وقد لحقت بفرقة المشاة البريطانيين خسائر فادحة . وكان بين القتلى من ضباطها بعض المهاجرين الفرنسيين مثل (ديتو) و (دى لافيت) و (دى سومريكور) و (دوبلاتل) و (سان جورج) و (لومتر) . وخسر الانجليز فضلا عن الرجال مدفعا عاديا ومدفع هاون واطعمة وليمة فاخرة كان قنصل انجلترا فى رشيد قد أعدها لضيافة ضباط اركان الحرب واكرامهم فأكلها جنود الحامية الظافرة متلذذين . واسر من الانجليز مائة وعشرون سيقوا الى القاهرة فى القوارب وشحنت معهم رؤوس تسعين من

زملائهم القتلى ووضعت عند وصولها باطراف الحراب وطيف بها فى الشوارع المارة بميدان الازبكية على صفين متآزين .

وكان محمد علي فى هذا الحين يضيق الخناق على المماليك بالوجه القبلى فاستولى على اسيوط بعد معركة فاصلة بالقرب من (منقباد) قتل فيها ثلاثة امراء وأربعة كشاف وخمسة عشر فارسا . ووصل اليه فى الأثناء قصاد على الهجن فأخبروه بما شرع به الجيش الانجليزى من فتح البلاد فخابر من فوره المماليك فى الصلح على ان يقبل مطالبهم جميعا بشرط التحالف معه على صد غارة الانجليز عن مصر . واقترح ان يكون توقيع هذه المعاهدة بالقاهرة فى حضرة الشيوخ والوجاقلية وأعيان البلاد ، فتقدم المماليك على الضفة اليسرى حتى بلغوا الى الجيزة وتقدم الباشا على الضفة اليمنى محاذيا لهم . وفى مستهل صفر الموافق ١٠ أفريل وصل الباشا الى القلعة فى منتصف الساعة الثانية عشرة ، فما ذاع خبر وصوله حتى اهتز السكان فرحا ودبّ فى صدورهم الحماس وطلبوا الى العلماء والشيوخ التوسط لديه فى قبولهم لمحاربة الانجليز فخاطبوه فى هذا الشأن فقال :

أشكر لأهل القاهرة الكرماء غضبتهم للحق ، لكن عندى من الجنود الشجعان العدد الكفيل بالانتصار وحسبهم أن يقدموا من الأموال والاعانات ما يقدرون عليه .

على أن محمدا عليا لم يلبث ان استخدمهم فى تحصين المدينة

ورمّ الاسوار وتعزيز الاستحكامات التى شادها الفرنسيون ووصل بين أجزائها من قلعة (كامين) الى بولاق وبنى حصنين جديدين جهزهما بالمدافع الضخمة لوقاية النقط الاكثر تعرضا من غيرها لهجمات العدو ونصب بطريات المدافع على وجه الماء فوق جسر من قوارب اغرقت عمداً فى النهر بين ضفتيه ، بعد أن ثبتها فى مواضعها بقوائم من خشب غرزت فى القاع . وكان مسيو دورفيتى يمد العاملين فى اعداد وسائل الدفاع بنصائحه الرشيدة ويشاركهم فى انجازها على الوجه الأليق لصد هجمات المغيرين . وكان يرافق الباشا فى جولات استطلاعه ويستفز همم الرؤساء والزعماء الذين عرفوا هم وزعيمهم الاكبر السيد عمر مكرم كيف يستثيرون الحمية ويوقظون النعرة الوطنية من سباتها الطويل ويبثون الجرأة والاقدام فى القلوب . ووضعت الجيوش كلها تحت قيادة كيخيا بك فلما وردت عليها أوامر التأهب للقتال اتجه ٤٠٠٠ راجل و١٥٠٠ فارس منها الى البقعة الجنوبية من منوف حيث انقسموا شطرين عبر أحدهما النهر ثم استأنفا الزحف أحدهما على احدى الضفتين والثانى على الأخرى.

وكان فريزر القائد العام يتسعر شوقا الى الأخذ بثأر قتلى رشيد فأنفذ اليها حملة ثانية بقيادة الجنرال (استيوارت) مؤلفة من ٤٠٠٠ جندى ومعززة بستة مدافع ومدفعى هاون وضيق عليها الحصار وواصل اطلاق القنابل عليها ، ففى اليوم الثالث عشر من

الحصار لاح للناظرين على مسافة سبعة كيلو مترات أو ثمانية جيش حسن باشا على مقربة من قرية (الحماد) التى كان الميجر (فوجلسند) على رأس حاميتها . وما كاد هذا الجيش يدنو منها حتى انبرت فصيلة من مشاته وفرسانه وحملت على تلك الحامية التى كانت مؤلفة من فصائل فرقة (رول) الجرمانيه . فتمكنت احدى هذه الفصائل من صد المهاجمين واقتفاء أثرهم والامعان فى مطاردتهم على وجه انقلب الخير الذى كانت ترجوه من ورائه الى شر . ذلك أنه بالغ فى الايغال والابتعاد عن معسكره وقاعدة اجراءاته . فاغتنم حسن باشا هذه الفرصة فسير اليه كوكبة من فرسانه لمضايقته اخذت عليه المسالك فقتلت عشرين من رجاله وأسرت خمسة عشر .

وكان كيخيا بك فى برنبال متردّدا بين الزحف على رشيد والاشتراك فى الهجوم على حماد ، فلما شهد رؤوس القتلى العشرين من الانجليز آثر الانضمام الى حسن باشا ليشدّ أزره ويشاطره مجد الانتصار ولما جنّ الليل عبر النهر ولم تطلع الشمس حتى كان جيشه قد انضم الى جيش حسن باشا . وكان الميجر فوجلسند قد ارسل فى طلب المدد من الجنرال استيوارت فأمر الكولونيل (مكاود) بالزحف على تلك النقطة فى فصيلتين من الفرقة التاسعة والسبعين الايقوسية وثلاث فصائل من الفرقة الخامسة والثلاثين الانجليزية . وفى الساعة السابعة من صبيحة ٢٢ افريل رأى ذلك

الضابط ان قوات العدو تزحف نحوهم فلجأ الى التقهقر خيفة العجز عن مقاومتهم ومع هذا فقد انقض فرسان الاتراك على ميمنته للحيلولة بينها والانضمام اليه ، وكان هذا الانضمام غير ميسور ولا ممكن لأن حامية تلك الميمنة كانت مقسمة الى ثلاث فرق متباعدة بعضها عن بعض ، فالمائتا جندى الذين كانوا فى الطليعة تحت قيادة الميجر (مور) أبيدوا عن آخرهم ووقع هو وبعض الخاصة من رجاله فى أسر الاتراك . أما الكولونيل مكلود قائد القلب فقد ألف من المائة إيقوسى الذين كانوا تحت قيادته قلعة اضطرت الاتراك الى الاحتماء بالآكام والروابى القريبة . إلا أن المشاة الالبانيين ابتدروا الضابط البريطانى بالهجوم فى الوقت الذى كان فيه على وشك ان ينضم الى الميجر (فوجلسند) وكان الكولونيل (مكلود) قد قتل جواده من تحته فسقط مهشم الجمجمة فتولى الكابتن (ما كى) القيادة بعده ونظم جيشه الصغير على هيئة طابور اخذت بنادقه تحصد نفوس اعدائه وحاول ان يقطع به ، مقاتلا بالحراب ، مسافة ما بينه وبين الجنود الاحتياطية ، وهى قدر مرمى المدفع مرتين ، وعزز الاتراك بسيوفهم بنادق الألبانيين ، فما كاد الكابتن (ما كى) يدرك المؤخرة حتى فني رجاله اذ نظر حوله فلم يجد منهم سوى سبعة فقط . وكان الميجر فوجلسند قد نظم الفصائل الألمانية الخمس التى كانت قيادتها معهودة اليه وجعلها على هيئة قلعة فى أرض

غير ممهدة لكثرة مايتخللها ويحيط بها من كثبان الرمل ، فلما هجم عليه الاتراك قاوم مقاومة عنيفة قتل فيها نصف عساكره ويئس من النجاة فاضطر الى التسليم .

ونمي خبر الكارثة الى الجنرال استيوارت . وكان يستشعر من نفسه العجز عن اقتحام صفوف عدوّ يتقد قلبه بنار الهمة والحماس ويمتاز بالتفوق فى المدد والثقة بالنجاح ، فأتلف مدافعه الكبيرة وأحرق ما كان باقيا عنده من الذخائر والامتعة حتى اذا تمّ له كل ذلك أصدر امره بالانسحاب العام . ورأى الأتراك والالبانيون ذلك فانطلقوا فى ٤٠٠٠ رجل من العربان والفلاحين يطاردون الجيش البريطانى ويأخذون عليه المسالك . وكان مع حرج مركزه يدافع من نفسه ، بين آن وآخر ، بالمدافع الرشاشة حتى اضطرت الشراذم المطاردة له الى التراجع نحو بلدة الحماد التى كان الكيخيا معسكراً فيها . أما هو فلم يكد يقف على سرّ تراجع تلك الشراذم حتى جرّد من جيشه فصيلة اخرى لمطاردة الجنود الانجليزية المنسحبة . وكان الجنرال استيوارت قد بلغ فى تراجعه الى بحيرة ادكو عند ما لاحت له طلائع الجنود المطاردة فرتب جيشه ثلاث مرات فى ذلك اليوم لقتال الاتراك ، ثم استأنف المسير ليلا فلم يعترضه فى طريقه أحد . وعند ما وصل الى ابو قير أنزل جنوده فى السفن وسار بها نحو الاسكندرية .

أما الأسرى الانجليز فقد قذف بهم فى القوارب راسفين

فى الاغلال وارسلوا الى القاهرة ، وكان سوادهم الاعظم قد فشت فيه الجراح المنهكة ، ولم يسعفوا فى اثناء السفر بعلاج ما لأن الأحراس الذين أقيموا عليهم لم يكن لهم من همّ الا العمل على مضاعفة آلامهم . وكانت قواهم قد وهنت بما نال منهم التعب والاعياء وقاسوا من شدة القيظ ونكاية الامراض كالحمى مع الحرمان المهلك من ضرورات الحياة . وقد قضوا فى هذه الحالة ، حالة البؤس والشقاء ، خمسة ايام وصلوا الى بولاق فى الاخير منها . ومن هناك ساروا الى القاهرة مثنى مثنى وكانوا لاينقلون اقدامهم فى الطريق الا بعناء كبير . وكانوا فى كل آونة يسألون شيئا من الماء وفتات الخبز يقيمون به أودهم أو أن يجهز عليهم انقاذا لهم من ألم العطش والجوع . وقد أركبوا الذين اقعدهم الضعف منهم عن مواصلة السير الحمير وحملوا رؤوس القتلى بأطراف الرماح ودخل القاهرة هذا الموكب المحزن ظهر يوم ٢٠ صفر الموافق ٢٩ افريل .وكان الاهلون قد نسلوا من كل فج وحدب ووقفوا متزاحمين متلاحمين فى الطرقات ، فكانوا كلما مرت تجاههم طائفة من الاسرى قذفوها بالشتائم المقذعة وخضبوا ايديهم بالدم السائل من جراحاتهم . وكان المنظر مما يفطر القلوب ويفتت الاكباد حقا ويدعو الى الكثير من الحزن والوجوم والأسف . ومرّ الاسرى بميدان الازبكية بين صفين من الجماهير كانوا يحملون باطراف رماحهم رؤوس القتلى فى واقعة رشيد وظلوا

سائرين على هذا المثال حتى وصلوا الى القلعة حيث أنزلوا فى غرف رطبة ضارة بالصحة وقد أحصى عددهم فاذا بهم ٤٦٦ اسيرا .

وفيما بعد عومل هؤلاء الاسرى بغير ماعوملوا به من قبل ، فإن محمدا عليا اراد ، فيما جبلت عليه نفسه الكريمة من الرفق والاحسان ، ان يعوض عليهم مما أصابهم من قسوة الجند وشماتة الأهلين فعني بأمر الجرحى ولبى كل مطالبهم وحقق أمانيهم ، فجعل لكل من الميجر (مور) والميجر (فوجلسند) فى القلعة مسكنا يلائم راحتهما ويتفق مع كرامتهما كضابطين كبيرين ، واذن لفريق من المرضى بالاقامة فى القاهرة عند جماعة من الفرنسيين بذلوا كل مافى طاقتهم لاكرام مثواهم واحاطوهم بصنوف العناية والرعاية . واهتم قنصلنا باستدعاء الجراحين والأدوية اللازمة للعلاج . وأخذ من الاوربيين والدمشقيين الاقمشة والثياب لكسوتهم ، وكان يطوف عليهم كل يوم متفقدا أحوالهم . وكتب القائد العام الجنرال فريزر الى الباشا يوصيه خيرا بابناء جلدته ، وأرسل مع هذه التوصية بعض الآلات الجراحية التى كانت القاهرة فى ذلك الحين خالية منها وأمر الصراف الانجليزى بصرف كل تحويل يسحبه الضباط لافتداء أنفسهم من الأسر . ولعله يجد من عطفه هذا على الجنود مايخفف عن عاتقه امام التاريخ عبء مسئوليته عن الغلطات والفرطات التى وقع فيها حينما وضع الخطط للقتال .

وكان بكباشي من الالبانيين قد أسر ضابطا انجليزيا فأصبح هذا الضابط بحكم التقاليد الشرقية مملوكا له فأخذ البكباشي يضايقه ويشدّد المراقبة عليه حتى لا يفلت من يده ، فلما ملّ المملوك هذه الحالة واضجرته الحياة فى هذا الضيم التمس النجاة بحيلة احكم تدبيرها اذ قال يوما لمولاه ان معه سفتجة بألف قرش اسبانى يجوز له ان يقبضها من القنصل الفرنسى ، فأخذ الألبانى هذه الورقة المالية وذهب مع اسيره الى الوالى ملتمسا وساطته لدى القنصل فى دفع القيمة . وقد خاطب محمد على باشا مسيو دروفيتى فى الأمر فأجاب بأن السفتجة مزورة وان الضابط الأسير انما اراد الاحتيال بها على الخلاص من ورطة الأسر فتأثر فؤاد الوالى بهذا الحادث وفك رقبة الأسير بماله .

وكانت اعمال الدفاع عن العاصمة وضواحيها لاتزال قائمة على قدم وساق اذ حفر حول الحصون خندق واسع عميق وأحيطت هذه بالاسوار وحفر حول الاستحكامات خندق ثان وصل بينه وبين النهر لجر الماء فيه بسهولة عند الحاجة . وكان الاهلون يخرجون فى الصباح لحفر الارض ونقل الاحجار فيذهب الوالى ليتفقدهم ويطالع اعمالهم . وقد امر بجمع الخيل حيطةً وترميم اسوار رشيد وقلعة جوليان . ولم يكن الجنرال فريزر بعد الذى حل به من الفشل واليأس من جرّاء تينك الكارثتين ، يفكر فى وضع خطة للقتال أو اتخاذ تدبير من أى نوع

ما ، اذ اقتصر على تحصين الاسكندرية التى كان يحميها البحر من ناحية والماء الذى طغى على الارض عقب كسر جسر بحيرة مريوط وفصله مابين الثغر واراضى القطر المصرى من ناحية أخرى .

وكان الميجر (ميست) قنصل جنرال انجلترا قد أنفذ فى اليوم الرابع لوصول الحملة الانجليزية الى الاسكندرية رسلا الى المماليك يسألهم مناصرته على قتال محمد علي باشا فى مقابل تقليدهم الحكم على مصر مما أيد فى النفوس الاعتقاد بأن هذا التقليد هو التكأة الوحيدة التى استندت السياسة الانجليزية وقتئذ عليها لتحقيق آمالهم . ولهذا لم يكد الانجليز يطأون ارض الاسكندرية حتى بعثوا اليهم بالاقتراح الآنف على يد معتمدهم الذى زاد عليه ان استفزهم للزحف على دمنهور واعدا بانه لسوف يمدهم ويعزز جانبهم بجيش قوي لم يبق على وصوله من انجلترا الا القليل ، ثم ذكرهم فى الآن نفسه بالعهود التى قطعها محمد بك الألفى على نفسه ، إلا ان المماليك تثاقلوا فى تلبية هذا الطلب ولم يبادروا الى الاجابة عليه كما كان يرجو حلفاؤهم ويتوقعون .

وكان محمد بك المنفوخ والكثيرون من صحبه واعوانه قد استعجم عليهم فهم السبب الذى هيأ للاتراك الاسباب لقهر الاوربيين ودحرهم على الوجه الآنف . والراجح أنهم كانوا ينزعون الى امدادهم وشد أزرهم ، لكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا لما نجم بينهم من اسباب الخلاف والتدابر التى يتعذر معها

توحيد الاجراءات الحربية فى المعارك المنظمة .أضف الى ماسبق أنهم كانوا يخشون بأس محمد علي لأنه ، منذ وقوع الصلح بينه وبينهم ، كان لايكف عن وصفهم بوصف الاصدقاء والحلفاء ودعوتهم الى الاقتراب من القاهرة ومكاتبتهم بواسطة المشايخ يهنئهم بجنوحهم الى السلم ويحمد لهم هذه النزعة الكريمة الحكيمة التى جعلتهم جديرين باحترام مواطنيهم وإكبارهم . وقد عكف هؤلاء على ايفاد الكشاف ليقدموا اليه بالنيابة عنهم فروض الاحترام وشعائر الولاء ويؤكدوا له صفاء نيتهم وصادق رغبتهم فى الاتفاق والسلام .

وعلى أثر ذلك تفاقم الخلاف بين زعماء المماليك واستشرى النزاع فاضطرب حبلهم وتفرقوا أيدى سبا فرحل رهط منهم الى بنى سويف ونزح الآخرون الى الصعيد والفيوم ، فأيقن محمد على باشا بإزاء هذا التخاذل انه اصبح ولا منازع له على الحكم وانهم باتوا تجاهه فى حالة حيدة مطلقة . ولم ينقض على هذه الحالة زمن حتى وافاه ولاة الشام بخمسمائة من الدلاة تعزيزا لقوته وعندئذ قرر الزحف بنفسه لقتال الانجليز بدمنهور فأرسل فى السفن مقادير هائلة من الذخائر والمدافع ثم تحرك بجيشه فعسكر به فى امبابة وفيها كانت قوته العسكرية مؤلفة من ٣٠٠٠ راجل و ١٠٠٠ فارس وعقد لطبوزأوغلو وعمر بك وعابدين بك على قيادة فرق هذا الجيش محتفظا لنفسه بالقيادة العامة ، الا أنه

ما كاد ينتهى من هذه المعدات حتى جاءه احد ضباط أركان حرب الجنرال فريزر يحمل رسالة باقتراح عقد اتفاق أساسه الجلاء عن الاسكندرية . لأن الحكومة الانجليزية أمرته بالرحيل عنها فوراً . والمفهوم ان هذه الحكومة ، وقد أمضت معاهدة (تلسيت) أصبحت فى حاجة الى حشد الشطر الاكبر من جنودها فى جزيرة صقلية ، فلما وقف الباشا على مهمة الرسول البريطانى استقبله بمظاهر الحفاوة والتكريم وأخبره بأنه كان على وشك الزحف على دمنهور وأنه سيتحرك فى جيشه فعلا ، ومتى وافاها بحث فى اقتراح قائد الجنود الانجليزية . وعلى أثر ذلك اناب محمد على عنه فى الولاية محمد أغا لاظ بدلا من طبوز اوغلو . ومحمد أغا لاظ هذا هو الذى رافق ابراهيم ، بكريّ ابناء الوالى ، الى الاسكندرية ليكون لدى قبطان باشا رهنا على الوفاء بالعهد الذى قطعه والده على نفسه .

وفى هذه المدينة التقى بالجنرال (شربروك) الذى ندبه للمفاوضة معه من قبل الجنرال فريزر فى الجلاء عن الاسكندرية فاذا به يشترط فى مقابل هذا الجلاء تسليم الاسرى اليه . فوافق الباشا على هذا الشرط بغير تردّد وأهدى الجنرال شربروك كركا من السمور وجوادا كريما كما اهدى ضباطه سيوفا قيمة ، ثم امر بترحيل جميع الاسرى من القاهرة الى رشيد . وفى ١١ رجب الموافق ١٤ سبتمبر اقلع الاسطول الانجليزى من الميناء القديم

وعاد الوالى من دمنهور فى ألفى رجل واصلوا السرى طول الليل وفى الفجر نصب خيامه بسواحل بحيرة المعدية حيث أقبل الكونتر اميرال (هالوول) فى زورقه . وهو الذى خلصت له قيادة الاسطول ، منذ ان مات الأميرال لويس بالحمى الخبيثة وحفظت جثته فى برميل ممتلىء بشراب الروم لتدفن فى انجلترا . واستأنف محمد علي سيره حثيثا الى الاسكندرية فوصل اليها فى ١٥ سبتمبر ، وكان متولى أمورها طبوز أوغلو . واغتنم محمد على فرصة وجوده فى هذا الثغر ليوطد نفوذه فيه على اعتبار أنه أمنع المواقع الحربية فى مصر بل على اعتبار انه الباب الحربى الوحيد لها . وما استقرّ به المقام حتي وفد عليه القناصل والقواد والشيوخ واعيان التجار للسلام عليه وتفرغ لتنظيم الترسانة (دار الصناعة) التي كانت تصنع أدوات المدفعية وراجع سجلات الجمارك وأوفد الى القاهرة مصطفى أغا الكردى لأخبار الديوان بانسحاب الجنود الانجليزية . وعلى أثر هذا الجلاء ارسل الباب العالى الى محمد علي باشا خلعا من السمور وسيفا مرصعا بالاحجار الكريمة إشعارا برضاء السلطان عنه وتهنئة له بفوزه الباهر كما ارسل خلعا أخرى وهدايا ثمينة الى كل من حسن باشا وطاهر باشا وعابدين بك وعمر بك وصالح قوج .

ومع هذا فقد كانت خير مكافأة جزي بها محمد على ، وهو ثمل بخمر الانتصارات المتوالية ، ان قد طرق سمعه دويّ المدافع

فى ٢٣ رجب الموافق ٢٦ سبتمبر ١٨٠٧ تعلن أوبة ابراهيم الى القاهرة بعد فكاكه من الاعتقال الذى كان فيه رهنا على وفاء والده بعهوده التى قطعها على نفسه تجاه الباب العالى .

اما الدونتمة البريطانية التى كانت يوم وصولها الى مياه مصر رافعة اعلام الاستخفاف بهذا البلد والاستهتار بأهله فقد عادت من حيث أتت بصفقة المغبون ووصلت الى مراسيها تجاه تلك الشطوط النائية يقطر جبينها خزيا وعارا . وكثيرا ما أنذر القنصل البريطانى والى مصر بصواعق غضب انجلترا توشك أن تقذفه بها فكان يقتصر فى جوابه على هذا التهديد بقوله : « انى لا اخشى أحدا فلك ان تنبىء حزبك من الاروبيين انى هنا فى انتظارهم رابط الجأش ثابت القدم . ولقد اقام الجيش الانجليزى الدليل على بسالته ، الا أن عجز قواده استهدفه مرتين للخذلان أمام شراذم من جنود غير منتظمة . واذا كان الانجليز قد مدّوا رواق حكمهم على الاسكندرية فترة مامن الزمن ، واذا كانوا قد لزموا فى اجراء احكامهم خطة الاعتدال والعدل وتجنبوا كل مافيه مظنة للعسف والأخذ بالشدة واحترزوا بخاصة من التعرض للعادات المحلية بتغيير أو نسخ ، واذا كان الاهلون لم يرفعوا اصواتهم بشكوى ولم تنبس شفاههم بكلمة سخط اواستنزال لعنة ، واذا كانت تجارة المسلمين بقيت محتفظة بحريتها فى البر والبحر فهل من قرائن شبه بين وجوه هذه المعاملة

الحكيمة التى عامل الانجليز بها اهل مدينة احتلوها وهى الاسكندرية وبين الفتح الفرنسى للقطر المصرى كله ؟ لقد كانت انجلترا عند احتلالها الاسكندرية ترمى بهذا الاحتلال معارضة الفتح الفرنسى ومحاولة الحصول على نتائج كالتى أحرزتها فرنسا من هذا الفتح ، لكن كم بين مشروع قصد به الانجليز الى وصل نهر التاميز ونهر القنج بوادى النيل وانتهى الأمر فيه بالاجهاض اى بالفشل وبين مشروع آخر رفع لنفوذ فرنسا ومقدرتها وعزة جانبها راية فى بلاد الشرق ، من فارق كبير ومرحلة بعيدة المدى !

الباب السابع

الوقائع الاهلية الاخيرة

١٨٠٧ — ١٨١١

امتنع توافد العربان والفلاحين على السوق بما يحملونه كعادتهم من الحاصلات الغذائية وانقطع عن الاسكندرية ماء النيل الذى تملأ به الصهاريج منذ أن قطع الانجليز السدّ وغمروا به الاراضى وشحت الواردات وفسد فى الذوق طعم ماء الآبار فاستاءت حامية الثغر بهذا الحرمان وبلغت اخبار استيائها الى حامية القاهرة فاقتدت بها . ومضى الالبانيون منهم بالعاصمة في تيار التمرد والهياج حتى بلغ من امرهم ان طردوا السكان من منازلهم وخطفوا النساء من أعطاف الطرقات واتصلت بالباشا في نهاية الامر أنباء هذه الحوادث فغادر الاسكندرية فى ١٥ شعبان الموافق ٨ اكتوبر متبعا طريق البر . وقد قصد الى رشيد اولا يصحبه حسن باشا وبعض ضباط الجيش والقواد وأقام بها

بضع ساعات أمر في خلالها باقامة سياج حول المدينة ثم سافر بحرا. وكانت الريح مؤاتية فسارت قنجته سيرا متواصلا حثيثا فلما ظهرت تجاه وردان هبت ريح عاصفة فانقلبت فلم يأبه محمد علي لهذا الحادث ولم يفقد إزاءه الجلد وثبات الجأش بل صاح بالنوتية ان يهموا بانقاذ بطانته وألا يعنوا بأمره. قال هذا وألقى بنفسه فى النيل فوصل الى الضفة الأخرى سباحةً. وحدث عند وصوله الى القاهرة أن كبا جواده فتطير من هذا الحادث وحادث القنجة وارتقب ما سيرتفع عنه ستار المستقبل من حوادث مكدرة.

وفى ٢١ شعبان، الموافق ١٤ اكتوبر، وصل الى داره فى الازبكية فتهافت عليها الشيوخ والأعيان للسلام عليه وتهنئته بنتيجة الحملة، وشكوا اليه فى الآن نفسه عبث الألبانيين والدلاة وقالوا له ان ليس من الصواب القاء حبل هؤلاء الناس على غاربهم فأجاب بانه سيحل شكواهم المحل الاول من عنايته وعطفه وشدد على الموكلين بحفظ النظام والأمن فى مواصلة السهر واليقظة وآلى أليةً ان يتولى هذه المهمة بنفسه فكان، يجوب مختلف أحياء المدينة. وحدث ذات ليلة أن مرّ بمكان اجتمع فيه نسوة للرقص وأحاط بهن بعض ذوى البطالة والكسل يتلهون برأى خلاعتهن، فلما دنا من مكانهن حيينه بدقّ الساجات دقا شديدا فهمّ بعض الحراس بمنعهن ولفتهنّ الى ما يجب من

الاحترام والتعظيم لولى الأمر . وكان بعض الجند يمتعون انفسهم بالنظر الى هذا المرأى من سطوح احد البيوت ، فلما سكتت الراقصات انقيادا لأمر الحراس ساء اولئك الجنود ان يجرؤ أحد على تكدير صفوهم فأطاق بعضهم عيارين ناريين قتل بهما جواد ضابط . وما أن رأى الوالى بعينيه هذا الاعتداء الفظيع حتى أمر باحراق البيت الذى اطلقت منه الرصاصتان ، الا ان كبير اولئك الجند دنا منه ملتمسا العفو عنهم ومعتذرا بان ما اقترفوه من جريمة كان على أثر افراطهم فى الشراب وفقدهم الصواب فعفا عنهم .

وكان الجيش كله ، اى عشرة آلاف جندى ، موجودا بالعاصمة وكان الاستياء يتفشى بينهم ويسرى سريان النار فى الهشيم ، ففى الخامس من نوفمبر طالب الالبانيون بدفع متأخر مرتباتهم فرفض الوالى طلبهم فاصطفوا أمام قصره واطلقوا الرصاص عليه فأمر الوالى بعدم مقابلة عملهم هذا بالمثل فانصرفوا بالخيبة . وعلى أثر انصرافهم تقدم الدلاة وفعلوا فعلهم فأمر باستخدام القوة فى صدّهم وقتل اربعة من المهاجمين وجرح سبعة او ثمانية وتراجع الباقون على نية التأهب والعودة للأخذ بثأر اخوانهم وشاع الخبر فى المدينة فأغلق التجار الأسواق والحوانيت وساد الرعب والانزعاج الليل كله .

وفى اليوم التالى أحسّ محمد علي نقص وسائل الدفاع فى

قصره فانتقل الى القلعة وحمل اليها خزائنه بحراسة المماليك الفرنسيين وقيادة عبد الله ديرو ، ثم ارسل خازنداره الى القصر الذى غادره لنقل مايحتويه من آثاث ورياش فوجد أنه قد نهب ولم يبق فيه شىء ، ولبث الهرج ثمانية أيام دون ان يشترك فيه واحد من الأهلين . وتخلف المشائخ وأرباب الاشارات والطرق عن الاحتفال برؤية هلال رمضان خلافا للعادة المألوفة ، وكان أوله يوافق مستهل نوفبر ، اتقاء لما عساه أن يقع من مكروه ولم يقف أغوات الانكشارية ورجال الضبط فى نوافذ المحكمة الشرعية لرصد الهلال ولم يؤلف ارباب الحرف والطوائف مواكبهم المعتادة فى مثل هذا اليوم إيذانا بالصيام وتوجه الشيوخ مرارا الى الوالى وكلموه فى صرف المرتبات المتأخرة للجند كى يكفوا عن عبثهم وافسادهم ، وكان مجموعها ألفا كيس فاتفق معهم على أن يتحمل التجار نصف هذا المبلغ وارباب الحرف والملاك النصف الآخر .

وكانت هذه الفتنة قد خضدت شوكة محمد علي باشا وزلزلت اركان سلطته . فلما استتب له الامر عقد النية على التخلص من الثائرين دفعا لوقوع الفتن فى المستقبل . وكان من اكبر زعماء هؤلاء الثائرين البانى اسمه رجب أغا ، وهو ممن تولوا قيادة المشاة فى جيش ألفى بك ، فأمر الوالى بنفيه وأنذره بمغادرة القطر فلم يصدع بالأمر فعهد محمد علي الى حسن أغا القبض عليه

ونفيه وكان رجب أغا قاطنا فى احد الاحياء العامرة على مقربة من باب الخرق (باب الخلق الآن) ، فانحلب اليه الناقمون والمتذمرون من كل فج وتأهب لمقاومة الحصار المنظم الذى توقع ان تطوق به داره وأعدّ لهذه الدار مايلزم عادة للدفاع عن الحصون فدق الاوتاد الكبيرة فى الطريق وجعلها سنادا للمتاريس . أما حسن أغا فقد اقام تجاه هذه المتاريس متاريس مثلها ، ولكى يتسهل له الزحف نحو الدار وحصرها والقبض على صاحبها نقب المنازل الفاصلة بين متاريسه وبين الدار واقترنت عملية النقب بالسلب والنهب لان الجندي كان فى ذلك الزمن لايطأ مكانا إلا اختص بزبدة مايحتويه من مال ومتاع . وفى اليوم الرابع ، حيث كان رجب أغا على شفاجرف الخطر ، توسل كل من صالح قوج وعمر بك ببعض الحيل لاستنقاذه من ورطته فذهبابه الى بولاق واركباه السفينة الى دمياط .

وكانت لتلك الفتنة فى الاصل صلة ببعض الحوادث التى من شأنها ان تؤدى فى أغلب الاحوال الى الخلط والأبهام . ذلك ان الباشا عند ماكان فى الاسكندرية ظهر فى بنها العسل رجل من مدعى المشيخة والولاية فالتف حوله جمع كبير من الهمل والسذج والنوكى ، وهو مايقع غالبا فى اشباه هذا الحادث ، وحمدوا طريقته ودعوا الناس الى الأخذ بها حتى ضاق رحب البلدة بهم فاضطروا الى ضرب الخيام والسرادقات حولها لأيواء

ألوف الوافدين من كل صقع لالتماس بركات الشيخ . وكانوا جميعا فى افتقار شديد لأيسر اسباب المعيشة من طعام وشراب ولمح من ظاهر أمرهم مايطوون عليه الجوانح من مرارة الجوع فتولى امر تغذيتهم والانفاق عليهم ليحرز رضاءهم وطفق يفرض الفرض والعادات على اهل الأقليم زاعما أنه لايحق لغيره أخذ حصة ما من محصولاتهم ، ومن ثم فقد وجب عليهم منذ الآن فصاعدا ، ألا يدفعوا شيئاما من المال الى اعوان الظلمة والمتحكمين الذين يجبون الأموال وينهبون المحاصيل . وجاء هذا التحريض بما وراء أمنية الدعىّ الكذاب . فان العساكر الذين نيطت بهم . جباية الاموال قوبلوا من الاهلين بالخشونة والأذى فلم يجبوا منهم شيئا . واستفز الشيخ مالقيه من رواج دعوته الى توسيع دائرة عمله فدعا الاحزاب الى الالتفاف به وتواردت الانباء عليه باستعداد أهل القاهرة لمشايعته فى طريقته فانطلق اليها معللا النفس بكبار الأمانى ، ودخلها تتقدمه الطبول والبازات وتخفق فوق رأسه الرايات والاشارات ويحف به مائه وستون من الصحب والانصار وفى اعناقهم الخرز الملون . وسار فى موكبه هذا الى مسجد الحسين وهو الوحيد من مساجد القاهرة الذى تباح للنساء زيارته فى يوم السبت فتوجه حملة الفرقعات (الفرقلات) من رجال الدعىّ الى دار السيد عمر مكرم وأخذوا يفرقعون باسواطهم فرقعة تصم الآذان ثم عادوا الى المسجد . وكان كيخيا

الوالى قائما مقامه فى الحكم يومئذ لغيابه فأمر باحضار الشيخ سليمان ، وهو ذلك المتنبي ، فلما ابلغ الأمر الى شيوخ المسجد أبوا ان يكون القبض عليه فى حرمه فأصرّ الكيخيا على طلبه وشرع أعوانه يهدمون منزلا لجأ اليه جملة من اولئك الانصار وحرض بعضهم الرجل على النجاة بالاستخفاء فى مكان حريز خارج اسوار القلعة ، بقرب الامام الشافعى ، فعمل بنصيحتهم لكنه لم ينج من أعوان الكيخيا لأنهم قبضوا عليه وجاءوا به اليه ، فلما مثل بين يديه لزم الصمت فأنحى عليه بالتقريع والتعنيف لكذبه وغشه وفساد مذهبه . ومما قاله له إنه لو كان عاقلا رشيدا لفضل العودة الى قريته لممارسة الحرث والزرع وكسب العيش بالكد وعرق الجبين . ثم ترفق فى معاملته وبالغ فى اكرامه الى حد أنه أمر بقارب لسفره الى بلده وعين له حراسا لمرافقته الى قريته وأوصاهم ان يقطعوه فيها من الارض مايكفى ليعيش عيشة راضية .

لكن ما كاد هؤلاء الحراس يبعدون عن القاهرة حتى ألقوا الشيخ وصحابته فى البحر فغرقوا إلا واحدا منهم كان خبيرا بالسباحة فإنه مازال يسبح حتى بلغ سالما الى احدى الضفتين ثم اركن الى الفرار .

وحدث أن جاءت امرأة تدعى السحر و « مخاواة » الجن الى دمنهور وقالت إن عفريتها لا يسمع له صوت الا فى الظلام وانه

يخيل للسامع كأنه آت من باطن الارض وأنه يمد يده الى من شاء ليلثمها فاذا مدّها بدت كأنها بارزة من جدار ، الخ ما زعمته من الخزعبلات . ولقد غرّرت بعقول الكثيرين من السذج فصدقوها وآمنوا بها ومن بينهم جماعة من الارنؤود ثم حضرت الى القاهرة فأخذت تخترق الطرقات والأزقة ممتطية فرسا. وكان الناس يقفون لها صفوفا ألوفا إجلالا لها وتقديرا لكراماتها، وخشى الباشا ان تكون هذه المرأة أداة دسها اعداؤه لتفسد مايتخذه من التدابير بتأثيرها فى عقول العامة وافسادها لأفهامهم فآلى على نفسه الا أن يفضح سر تلك المرأة ، فدعا اليه أربعة من ذوى البراعة فى الالعاب البهلوانية ووعدهم بعشرة اكياس ذهبا إن هم جاءوه بالساحرة المزعومة ، فتغلب حب المال فى نفوسهم على الخوف من غضب العامة فانطلقوا من فورهم يستقصون اخبارها ويقصون آثارها ، الى ان اهتدوا اليها فى دار الباش أغا رئيس العسس فى جم غفير من المؤمنين بخزعبلاتها. فلما شرعوا فى القبض عليها غضب هؤلاء وهموا بإخراج البهلوانية الأربعة من الدار قائلين ان البيت ليتقوض بنيانه اذا لمست تلك المرأة الصالحة ايديهم المدنسة . وقد عادوا من هذه المحاولة بخيبة المسعى فترتب على فشلهم ان امتد للمرأة صيت فى المدينة وأقبل الناس عليها من كل فج ، ورأى الوالى ان استفحال امرها يستدعى اتخاذ الوسائل الصارمة لاتقاء شرها

فطلب اليه الباش أغا وأطلعه على رغبته فى رؤية المعجزات التى تأتى بها المرأة ليشارك الجمهور فى اعجابه بها ، فذهب الباش أغا بالمرأة الى ميدان الازبكية عند ما مالت الشمس الى الغروب . وكان الباشا فى هذا الميدان يدخن النارجيلة تحت شجرة جميز على مقربة من الساقية ، فلما أقبلت المرأة عليه رجا منها ان تسمعه صوت الجنّ ثم ذكر لها انه يعتقد بالجن ويعظم شأنها ويعرف لها مقامها . فقالت المرأة فى جرأة وثبات ان الحديث مع الجن لا يكون إلا ليلا وأن الجنى الذى تؤاخيه انصرف منذ ساعة الى المقام الحسينى ولا بد من انتظاره حتى يعود ، فسألها الوالى وهل يتأخر طويلا . أجابت : كلا فأنه لن يتأخر .

دارت هذه المحادثة على مسمع جم غفير من المغرمين بالاطلاع على حقائق الاشياء وكان محمد على جاهلا باللغة العربية، كما كانت محدثته لا تعرف اللغة التركية . وكان طبيبه الخاص بوزارى يتولى الترجمة بينهما ، لأنه كان يجيد اللغتين بدرجة واحدة .

عاد الباشا الى قصره يحفّ به الأغوات والبكباشية الذين اخذوا يعللون أنفسهم بتحقيق ما كانوا يتمنونه من شهود معجزات المرأة فجلسوا فى المنظرة وصعد محمد على فى الحرم لتناول بعض الطعام فوصلت الساحرة فى غضون ذلك واخذت تطلع اولئك الرجال من حشم الوالى وبطانته على بعض فعالها

العجيبة التى استرعت انظارهم وسلبت عقولهم · ونزل محمد على من الحرم فجىء بها اليه فما ان أبصر بها حتى سألها عن الجنى هل عاد من المشهد الحسينى . أجابت نعم ، فأمر باطفاء الانوار وكان الجني يسعى الشيخ على فنادته باسمه ووجهت اليه اسئلة فأجاب بصوت أجوف يخيل للسامع أنه منبعث من بعيد . فاستأذنه الباشا فى لثم يده تبركا به فأبى الشيخ متجنيا ، لكنه رضى فى آخر الأمر تجاه إلحاحه ومد اليه ذراعه فأمسك الوالى بها وصاح بالأتباع ان يحضروا النور فأحضر فاذا بالذراع ذراع المرأة عينها ففهم للحال أنها ممن يتكلمون من بطونهم ، وهى خاصية فى بعض الناس . فلما انكشفت الحيلة وعلمت المرأة حرج مركزها سألته ان يعفو عنها وأخذت تصيح بملء شدقيها قائلة : « سيبنى انا امرأة غلبانة مسكينة » وكان الباشا على وشك أن يصفح عنها ويطلق سراحها ، لولا ان بعض الحاضرين كانوا قد غاظتهم حيلته فأخذوا يقولون إنها ضرب من التحدى لكرامة الاولياء والصالحين ويرمرمون بالفاظ الكافر والزنديق والملحد وما أشبه وحينما لاح للباشا منهم هذا الامتعاض صاح فيهم قائلا :

— انكم لأغبياء وجهلاء ، أتحبون ان تخدعوا أنفسكم بخزعبلاتها وتصدقوا حيلتها وأكاذيبها ؟ انتم اذن ممن لا يمكن اقناعهم بكذب اولئك الدجاجلة الادعياء ! خذوا هذه المرأة والقوها فى بحر النيل حالا .

فما طرقت هذه العبارة اسماع الحاضرين حتى تمادوا فى التذمر والاستياء فأخذت الباشا عزة الكبرياء والحق، فوقف فى مكان أشرف منه عليهم وقال :

— ماذا تريدون ؟ أتريدون ان تسخر منكم متشردة كهذه وتضحك عليكم حتى النهاية ؟ لقد قررت ان يكون النيل قبرا لها فهى فيه بلا جدال من المغرقين . واذا كان الجنىّ الذى تدعيه قادرا على إمدادها بعونه فليخلصها من بين ايدينا أو فليطفُ بها بعد غرقها على وجه الماء وحيث إنه عاجز عن امدادها فى الحالتين فلن تكون حكاية الجني الا اكذوبة فاضحة وقصة ملفقة . ومن ثم اصبح واجبا عقاب المرأة عقاب من يجرؤ على غش الأمة وخدعها .

سيقت المرأة فى جموع حشيدة من الناس الى شاطىء النيل لتلق جزاء مازعمته من باطل ولفقته من كذب ، وكانوا فى اثناء تشييعهم لها يتحدثون فى صرامة هذا الحكم ويقولون إنه حكم جائر ، وغالى بعضهم فوصف المحكوم عليها بأنها شهيدة . فلما وصل الجند بها الى حافة النيل ألقوها فيه ثم انتظروا وانتظروا طويلا فلم يطف الجني بها على وجه الماء .

ولا خلاف فى ان الحكم كان صارما ، انما كان مساغه فى نظر السياسة ، ان المرأة التى تستطيع بمكرها ودهائها ان تجمع حولها ذلك النفر من الاعوان قديرة على استدراجهم هم وامثالهم

الى اقتراف الاعمال الضارة ، فكان حتما على الوالى ، على سبيل الاخذ بالاحوط ، ان يعلن استخفافه بكل ما من شأنه إفساد اذهان العامة وسوقهم الى ارتكاب المنكرات .

وبعد ان قضى الباشا قضاء حاسما على هاتين الحركتين لم يبق أمامه ما يدعو الى قلقه سوى تطهير البلاد من آثار المماليك والوصول الى هذا الغرض من اى طريق وما من حيلة تفتق عنها ذهنه لتحقيق مراده من هذه الناحية الا اعتمدها وسار على دربها مستعينا باللين تارة والشدة أخرى ، فكان من نتائج هذه السياسة الحكيمة ان لفيفا من المماليك ، وعلى رأسه شاهين بك ، آثروا الجنوح اليه بمودتهم واخلاصهم كما جنح هو أيضا الى كسب ثقتهم والحرص على ولائهم حتى لقد اصدر أوامره للحرس وفرقة الموسيقى بالسير فى موكبه يوم ان جاء من مصر القديمة الى القلعة . ولقد اكرم الباشا وفادته فيها اذ أنزله قصر ابنه طوسن باشا وأدب له مأدبة فاخرة وألبسه أثمن كرك من السمور فى خزانات تحفه ونفائسه واهداه الخيل المسوّمة والشيلان الكشميرية والخناجر المرصعة بالالماس والجوارى الحسان . كل ذلك فى مقابل هدية اهداها اليه مؤلفة من عشرين جارية سوداء واربعة أغوات وثلاثين جوادا ومائتى قنطار من السكر والبن اشترك فيها معه ابراهيم بك ومحمد بك المنفوخ . وقد اجاز الباشا لشاهين بك الأقامة بالجيزة وامتلاك عشر من

القرى فى ضاحيتها مع اقليم الفيوم برمته وثلاثين قرية من البهنسا . وعلى اثر هذه الرعاية السنية توارد للسلام على الباشا ولثم اطراف ثوبه ، جميع البكوات من بيت شاهين بك وهم نعمان ومراد واحمد وحسين فعادوا من حضرته محملين بالهدايا والتحف الثمينة . وكان سليمان بك البواب واربعة من الكشاف ولفيف من المماليك قد سئموا حياة المعسكر فتواردوا تباعا على قصر الوالي وسلموا بانفسهم اليه . وأوفد ابراهيم بك ابنه مرزوقا لينوب عنه فى اداء هذا الواجب فقلده محمد على ولاية جرجا . وفيما تقدم قلنا إن الباشا كان شديد التذمر والاستياء من الدلاة فمحا ستمائة منهم من بيان اسماء العساكر الحقيقيين بتقاضى المرتبات وأشخصهم الى سوريا مع قائدهم الكردى .

وفى ٢٤ دسمبر ١٨٠٧ وصل من الاستانة قابجى وعلى يده فرمان بإسناد ولاية مصر الى محمد على عن السنة التالية ودفترداريتها الى ابنه ابراهيم بك ، فسارت الأحوال على أحسن منوال . ولقد كانت كذلك وقتما برز من بين المماليك زعيم اسمه يس بك سبق ان تقلد كشوفية الفيوم من البرديسى ثم أخذ يجوب أنحاء مصر الوسطى ، فزحزحه الباشا عن ضاحية القاهرة بالمطاردة العنيفة على يد الالبانيين وعرب الحويطات ووالد يس بك نفسه ، وأجلاه الى شرق إطفيح . وقد اتفق المماليك الذين تعددت سطوات يس بك عليهم بالسلب والنهب والقتل على ان

يكونوا يدا واحدة فى مقاومته واندرجوا لهذا الغرض فى سلك جيش الباشا . وتضافر الجميع عليه وتألبوا فما زالوا به حتى يئس من كل سند ومدد وعندئذ تنحى لخازندار الوالي عن المنيا ، التى كانت آخر ما اعتصم به من البلاد . ثم جيء به الى القاهرة ومنها أرسل الى دمياط فى ١٨ فبراير سنة ١٨٠٨ لجزيرة قبرص.

وكانت قبائل العربان فى ذلك الحين منشقة بعضها على بعض ودارت بينها رحى القتال ، فقبيلة الهنادى وقبيلة جامع أخرجتهما من البحيره بغير حق قبيلة أولاد علي ، فحضرتا الى العاصمة تستصرخان الباشا وتسألان إغاثته فأمر جنده بتأديب القبيلة العادية وصدها الى الصحراء ، وقد انتصروا عليها مرتين نصرا مبينا . وشاعت فى القاهرة فى غضون ذلك شائعات جمة عن الثورة التى ختمت بجلوس السلطان محمود على عرش تركيا . فلم يحفل محمد على بهذا الحادث الخطير ، بل أمر بأن تكون الصلاة باسم السلطان الجديد غير مقيدة لمن يريد الصلاة باسم السلطان الفقيد ، سليم الثالث الملقب بمحب الاصلاح . ولم يمنعه موت هذا السلطان من مواصلة العمل لتحقيق اغراضه وتنفيذ مشروعاته فيما له مساس بالتجديد فى مصر . فقد احتفل باتمام اعمال كثيرة ستخلد ذكراه على مر الادهار . وكان فيما تصدى لقمعه من الحوادث والفتن صارفٌ للحكومة عن مباشرة الاصلاحات التى تقتضى التعجيل . اما الآن ، وقد تفرقت فلول

أعداء محمد علي بدَداً فى اطراف الصعيد فلا عليه أن يتولى اصلاحها . وقد كان فى مقدمة اصلاحاته ترميمه عيون مصر العتيقة وهى العيون الممتدة بين النهر والقلعة واغلاقه بحر منوف لما كان يستنفده من الماء الكثير ويسببه من انخفاض منسوبه بفرع دمياط فيترتب عليه حرمان أغلب الاراضى الزراعية من الري وانشاؤه الأسبلة فى المدن لارواء السابلة بالماء النقى وحفره الصهاريج لادخار ماء الشرب فى الجهات التى يندر وجوده فيها وتسييره الادارة والجباية على مقتضى الانظمة الجديدة العادلة .

وحدث أن محوبك كاشف دمنهور ، وكان رجلا مستبدا غشوما ، قبض على واحد من اغنياء تجارها وفرض عليه مبلغا كبيرا من المال فى مقابل الافراج عنه من السجن فلم يسع المسكين إلا أن باع كل مايملك لأداء المطلوب ، غير ان مبلغ الثمن لم يف به فألقاه فى غيابة السجن ثانيا حتى مات ، وطلب أهله تسليم جثته اليهم فكان جوابه أنه لايفرط فى الرجل حيا ولا ميتا إلا إذا حل ابنه فى السجن محله أو يؤدى ماكان مطلوبا من أبيه ، فلما اتصل بمحمد على هذا النبأ سخط على محوبك وصادر املاكه ونفاه .

وحدث أيضا فى ٢٣ جمادى الثانية ١٢٢٣ ، الموافق ١٦ اغسطس ١٨٠٨ ، ان انخفض النيل فجأة بدلا من ارتفاعه بالاطراد المألوف فى هذا الحين فتوجس الناس خيفة وتوقعوا

القحط والمجاعة . والواقع انه لم يمض زمن حتى استخفى القمح من الاسواق وخبأ المضاربون اصناف الحبوب وانزعج الشعب واستغاث . وتوافد الشيوخ على محمد علي فلم يروا لتفريج الأزمة منفذا الا بسط اكف الضراعة للمولى القدير ، فى صلاة اقاموها للاستسقاء ، أن يرفع النيل الى القياس الملائم للزراعة . فاجتمع الرجال والنساء والاطفال لهذا الغرض فى مسجد عمرو حتى غص بهم داخلا وخارجا . وأقام السيد عمر مكرم نقيب الاشراف تلك الصلاة التى حضرها العلماء والطلاب واقطاب الشريعـة ، عربا واترا كا ، وكذا جميع من كانوا بالقاهرة من الحاخامات والربانيـة والبطارقة الاقباط واليونان والأرمن والقساوسـة ومبعوثى « الارض المقدسة » اللاطينيين والمبعوثين الايطاليين لنشر المذهب المسيحى والقسوس والموارنة الخ ، فكان منظر هذا الاحتفال جليلا مهيبا اذ تسابق اليه جميع الناس ، على اختلاف الاعمار والطبقات والمذاهب واللغات ، والتقوا فى مكان واحد هو أول مسجد بنى للاسلام فى مصر . وللتاريخ ان يتمسك بهذا الدليل لاقامة الحجة ، بمسمع من الناس ومرأى ، على تسامح المسلمين وبعدهم عن التعصب وافتراء من يتهمونهم به . وقضت المشيئة الربانية ان تقبل هذا الدعاء فقد انفرجت ازمة الكرب والضيق وتبددت سحب الحزن المتلبدة اذ لم تطلع شمس اليوم التالى لهذه الصلاة حتى ارتفع النهر الى المستوى الذى كان قد

صلاة الاستسقاء فى جامع عمرو

هبط منه ، وفى الثانى والعشرين من الشهر قطع الخليج وجرت مياهه باحتفال عظيم .

وبعد الاحتفال بيومين شخص الباشا الى دمياط ورشيد فالاسكندرية لجمع البيانات والوقائع التى كان اعتزم ان يسترشد بها في وضع أسلوب جديد لجباية الاموال . وكان مما أبرمه من التدابير السياسية أن يستميل الى جانبه رجال المابين الهمايونى فأوفد مهرداره أمين افندى الى الاستانة ليقدم اليهم على سبيل الهدية مانقله معه من المقادير الوافرة من الأرز والبن والسكر والأقمشة الهندية النفيسة الخ .

ولدى عودة محمد على الى القاهرة استشف من الشيوخ ورؤساء الجند فى افعالهم واقوالهم مايستشعر منه الانحراف عنه والميل الى معارضته وأن هذا التغيير إنما حدث فى اثناء غيبته القصيرة عن العاصمة . وقد وضح له بجلاء أنه أصاب شاكلة الحق بحدسه فدعا عمر بك الارنؤودى الى التخلى عن منصبه . وكان محمد على فى حاجة ملحة الى المال فتناول من أموال الاوقاف ما كان فى حاجة اليه ، وكثر لغط العلماء فى ذلك حتى آل الأمر الى تعطيل الدروس ونفخوا فى الجمهور روح التذمر والتمرد وطلبوا من نقيب الأشراف الوساطة فى الأمر فجمع اليه المشائخ واستكتبهم عرضاً طلبوا من الباشا فيه اعفاء الاملاك والاوقاف من الفرض والضرائب وآلوا على أنفسهم أن يبقوا على اتحادهم

وتساندهم حماية لحقوقهم وصيانة لامتيازاتهم . وقدم العرض الى ديوان افندى وقصد الى قصر الوالى لفيف من الموقعين بخطوطهم عليه وعاتبوه وفندوا تصرفه فأجاب على العتب بقوله : « أأنا وحدى الذى ينتفع من فرض الضريبة ! أما أنتم الذين يبهظون كاهل الأمة بأثقل الأعباء ويكبدونها الفرض الفادحة ؟ اذن يامعشر الحاضرين هنا أنتم سبب شقاء الأمة وآلامها لانكم مع إيثار الحكومة لكم بإعفاء أملاككم من الضرائب لاتزالون تتقاضون من الفلاحين هذه الضرائب التى لاتقل ، بمقتضى مافى يدى من المستندات ، عن ألفى كيس . ولسوف أفحص هذه المستندات وأبيع من الأملاك الموضحة فيها مايكون اصحابه قد أقدموا على جباية الضرائب الملغاة . ولقد سبق لى أن انذرتكم منذ شهر او أقل بأن ساعة الحق آتية لاريب فيها . والآن أضيف على ماتقدم أنه متى تم لى فحص مستنداتكم وحججكم قررت فسخ مالم يكن منها مؤيداً بالشهادات الصحيحة . إنكم الآن تعقدون المجالس بالمساجد وتتكلمون عن والى مصر بلهجة تكاد تكون لهجة الآمر . وهذه نزعة باطلة لايمكن استقبالها بغير الازدراء والاستخفاف ولا أحب أن تتكرر مرة أخرى . واذا كان بعض المماليك الذين يتزيون بأزيائكم قد تراءى لهم تحريك العامة واثارتها علىّ فلتكونوا على علم بأن أمثال هذه الخزعبلات لن تحرك مني ساكناً . فامن يريد منكم الفتنة والعصيان أن يرفع

لواءهما فأنى رام بسيف نقمتى عنق من يستظل بهذا اللواء » .

وجاءت الكتابة من الصدر الاعظم بطلب المال السنوى فأمر محمد على بوضع بيان بما انفق على مصر . وقد رفض السيد عمر مكرم توقيعه فدعاه الوالى اليه ليسأله عن سبب امتناعه . فأجاب بانه لاسبيل له الى مقابلته الا فى بيت السادات ، فصاح محمد على : « ما هذا ! أو يريد ذلك الرجل أن اترك ديوانى لأقابله فى دار فرد من افراد الامة ؟ » . ثم أرسل فى طلبه مرتين قابلهما السيد عمر مكرم بالرفض فلكأنه كان يمنى نفسه بأن يستنزل من أريكة الولاية الى داره ذلك الذى أصعده بكلتا يديه اليها . عندئذ لم يسع محمدا عليا ، إزاء هذا الاصرار ، إلا أن ألبس الشيخ السادات كسوة نقيب الاشراف فى حضرة القاضى والشيوخ مجتمعين بحديقة قصر ابنه ابراهيم بك القريب من ميدان الازبكية ، وأمر فى الآن نفسه بنفي السيد عمر مكرم. قال شاهد عيان : « ورافق الشيوخ وجم غفير من الاعيان السيد عمر مكرم الى دمياط لمواساته فى نكبته لكنهم كانوا جميعا على رأى واحد فى استهجان سلوكه مع الوالى » .

وكانت العهود مأخوذة على الامراء والمماليك ان يؤدوا فى مقابل الاراضى التى أقطعهم الوالى إياها مالا وأرادب من القمح معينة فى كل سنة ، الا أنهم نكثوا هذه العهود فانفسخت الهدنة المبرمة معهم فى يناير ١٨٠٨ لمدة تنتهى فى سبتمبر ١٨٠٩ وكان

الالبانيون والدلاة قداتفقوا على المطالبة بمتأخر مرتباتهم واستيلائهم عليها قبل ان يرحلوا عن بنى سويف فساء محمدا عليا تمردهم وخروجهم . وبعد ان وافاهم بشطر مما دفعه التجار غير الافرنج تحرك فى ألفى رجل ومعه ولداه ابراهيم وطوسن وبعض اركان حربه فما اتصل بالدلاة والارنؤود هذا النبأ حتى فاءوا الى السكينة ولم ينبس أحد منهم بكلمة .

رأى المماليك ان الجيش الزاحف عليهم يتألف من ٦٠٠٠ مقاتل وان وجود الباشا معه او على مقربة منه سيعزز من جانبه ويضاعف قوته فتولاهم الفزع الشديد وادركوا سوء مغبتهم فقرروا المفاوضة فى الصلح والاتفاق على أمر تتوافر به راحتهم فاتفق الفريقان على ان يدفع المماليك مال الميرى ويقيموا بالقاهرة وأوفوا بعهودهم فأقاموا بها وألبسهم محمد على ، لدى عودته اليها فى ٢٥ اكتوبر ، الخلع السنية من كرك السمور وأجرى عليهم الارزاق . ومن ذلك انه منح محمد بك المنفوخ إيراد جمرك بولاق أو مايؤازيه اى ٦٠٠ كيس .

أما ابراهيم بك وزملاؤه فلم يطمئنوا للباشا ، بل اكتفوا بمبادلته الهدايا . وكانوا فى رحيلهم الى القاهرة يتمهلون فى سيرهم ويكلفون العربان استطلاع الطريق لهم . وفى منتصف يونيو ١٨١٠ انشق شاهين بك على حزب الأرنؤود وهشم كل مايملك من متاع ورياش للانضمام هو واتباعه الى اخوانه الذين اختاروه

لزعامة مماليك الأمير مراد بك . واتصل بالوالى نبأ هذا الحادث فى شبرى ، وقتما كان متفرغا فيها لحشد فرقتى المشاة الفرسان . ولكى يدرأ عن نفسه ما قد يكون وراءه من نتائج لاترضى عجل بالعدوان فضرب خيامه فى الفضاء المجاور للجيزة ثم قصد الى كرداسة فقطع الطريق على العربان الذين تحركوا للانضمام الى المماليك وأمر بنهب احدى القبائل لتكون عبرة لغيرها . ثم عاد الى الجيزة فالقاهرة وكان الأمراء وقتئذ فى دهشور لأنهم أقاموا معسكرهم فى سهولها الرملية على مقربة من الرقة الغربية وعززوا هذا المعسكر بعربان الهنادى الذين ساقهم الأمل فى الغنيمة اليه ، وتلقى الوالى من عربان اولاد على طلبا بالانضمام اليه ضدهم فأجابهم الى طلبهم وقد حققوا حسن ظنه فيهم اذ أدوا له خدما جليلة كافأهم عليها بتوزيع ٨٠ كشميرا و ١٥ سمورا و ١٥٠ كيسا من المال على رؤسائهم . وسير على الضفة اليمنى بعد ذلك فرقة من الجيش وعلى النيل فرقة أخرى للاستيلاء على المواقع المهمة فى الصعيد . وكان حسن باشا قائد الفرقة الأولى يأمل أخذهم فى الليل على غرة منهم وتم له بعض ما أمله ، اذ قتل أحد الكشاف وبعض الفرسان وبعث برؤوسهم الى القاهرة ، فلم يترك منظرها فى نفوس الاهلين مثل الأثر الذى تركه فيها منظر جثث الأرنؤود يدفعها تيار النيل الى الشمال ، على أثر معركة ليلة ١٤ يوليو التى قصد المماليك بها الى

الأخذ بثأرهم منهم .

وقد كان من نتائج خذلان الارنؤود فى هذه المعركة ان أصرّ الفلاحون على الامتناع عن دفع « الميرى » ، إلا أن خسارة الوالى من هذه الناحية قد تم له ربح اضعافها من الناحية السياسية . فقد انحاز الى جانبه أربعة بكوات وستة عشر كاشفا ومائتا فارس من معسكر شاهين بك ، فأغدق عليهم النعم اذ فرق عليهم ٢٠٠ كيس من المال غير الهدايا . وورد من الشام عليه بعد ذلك بأيام ألفان من الدلاة ، وعن طريق دمياط ستمائة من الارنؤود

ونورد بهذه المناسبة ما كان حقنا إيراده فيما تقدم من وصف الفريقين وصفا يرتبط باحوالهم العسكرية فنقول إن جميع الدلاة من الأكراد وان سلاحهم هو السيف وغدارتان وأنهم كانوا يتخذون للباس الرأس قلنسوة اسطوانية من اللبد الاسود بارتفاع عشرة إبهامات لاحافة لها ، إنما يحيط بأسفلها شريط من التيل أنبوبىّ الشكل . أما الارنؤود فقد وصفهم الكاتب (دى شوازول) بأنهم عصبيو المزاج تبدو عليهم علامات الكبرياء والأنفة وأنهم يجمعون بين النقيضين ، البراعة فى التلصص وقطع الطريق ، واللياقة لأن يكونوا أبطالا باسلين . وكان شوارهم المعاطف المشغولة بالشرائط المتراكبة المزخرفة بالألوان المختلفة والسروال الفضفاض والصدار المكلف بصفائح المعدن والسلاسل والزيتونات الفضية الكبيرة وطربوش أحمر كانوا اذا شرعوا فى

القتال أزاحوه الى الوراء فتبرز جباههم ساطعة لامعة .

وقد تولى محمد علي قيادة الجيش بنفسه . ففى ٢٥ جمادى الثانية، الموافق ٢٨ يوليو ، تحرك فيه الى بنى سويف ومنها الى بلفيا . وكان المماليك قد انسحبوا الى قنطرة اللاهون ووقفوا فى مصاف القتال على ضفاف البحر اليوسفى فصدّهم الباشا الى مايلى القنطرة وتمّ له بهذا الفوز الاستيلاء على اقليم الفيوم الشهير بحيراته الوفيرة ، ثم اقتفى أثرهم فى اتجاه البهنسا فظفر بهم ثانيا على مقربة من البدرمون وأظهر الخصمان فى هذه المعركة آيات البسالة النادرة والثبات الذى لانظير له . ويعود فضل هذا الظفر الى حسن القيام على المدافع كما يعود الى التنسيقات الحديثة التى أدخلها على أساليب القتال . وقد نشر خبر هذا الفوز فى بلاغ قصير بالعبارة الآتية :

من المعسكر المصرى بين بنى عدى ومنفلوط فى ٢٥ رجب ١٢٢٥ الموافق ٢٤ اغسطس ١٨١٠ .

عقب ان استطلعنا قوى الفصائل والفرق المملوكية ، هجمنا فى مقدمة فرساننا . وكانت المدفعية تعزز هذه الحركة وكان ابننا العزيز ابراهيم بك دفتردار الحكومة فى معيتنا ، فما كدنا نتم الحملة الاولى حتى تفرق العدو أيدى سبا ، فطاردناه فى الجبال الى عقبة بنى عدى وقد تجاوز عدد الاسرى والقتلى منه ستمائة نفس وفرّ نحو الالف طلبا للنجاة وقصدوا الى منفلوط واسيوط وغيرهما . وعلى أثر القتال دخل منفلوط واسيوط ثلاثة من بكوات عثمان بك حسن واحد البكوات من حزب آخر . وطلب ستة من البكوات وعدد عظيم من

الكشاف وبعض الفرسان الأمان . أما ابراهيم وسليم بك الاعمى وعثمان بك حسن وشاهين بك فقد ذهبوا الى ابريم والسودان مثخنين بالجراح تصحبهم فلول جيوشهم فالحمد لله على زوال ظلم المماليك » .

وكانت الضربة التى حلت بالمماليك قاسية ولسوف تتلوها الضربة القاضية . فإن ابراهيم بك وعثمان بك حسن واتباعهما فرّوا الى ماوراء الشلالات . أما السواد الأعظم من الأمراء فقدموا اليه فروض الطاعة والخضوع . وحضر شاهين بك للاعتراف بسلطته والمصادقة على ولايته فغمره بالهدايا النفيسة والنعم الجزيلة وخصص منزلا لسكناه على مقربة من ميدان الازبكية . أما الأمراء والفرسان الذين لاذوا باطراف الصعيد فقد أتوا فى قنا من القبائح والفضائح مااضطر احمد أغا لاظ حاكمها الى تجريد فصيلة قوية من الجنود الاتراك لتأديبهم ولم يكن الذين بلغوا الى القاهرة منهم عدلوا عن فكرة الاخلال بالنظام ونشر اعلام الفتنة . فلما أنس الوالى هذه النزعة الشريرة منهم عقد النية على التنكيل بهم وإبادتهم عن آخرهم .

وفى غضون هذه الحوادث خاطبت الدولة العلية محمدا عليا ثلاث مرات تدعوه الى الزحف على الوهابية لما ارتكبوه من ضروب العبث فى بلاد العرب وتخريبهم بلاد الحجاز والاماكن المقدسة . ولجّ الباب العالى فى هذا الطلب ثم شجر الخلاف ، فى اكتوبر ١٨١٠ ، بينه وبين حكومة مصر على الضرائب

الجمركية المفروضة على البضائع العثمانية . فإن محمدا عليا لم يعبأ باحتجاج الباب العالى فى هذا الموضوع لأصراره على التملص من السيادة العثمانية . وقد استشفت حكومتا باريس ولوندرة حقيقة نياته من خلال ميله الى معاملة البضائع التركية كالبضائع الأجنبية سواء فرفضتا ، بسبب الحروب التى شب ضرامها وقتئذ بانحاء أوربا ولحاجتهما الى مخالفة الباب العالى ، أن يشدا إزر مصر وممالأتها على نيل متمناها من جعل مصر فى استقلالها كبلاد الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس . ولما كان غير ميسور لمحمد على باشا ان يحارب السلطان دون عضد من الدول الأجنبية فقد عقد النية على محاربة الوهابيين . وكانت حكومة الاستانة ترى ان خير سياسة واكثرها ملاءمة لمصلحتها فى ملاينته ومداراته وكتمان غضبها عليه فتظاهرت بادىء ذى بدء بتناسى اغفاله العمل فى شؤون كثيرة بما وضعته من شروط وفرضته من قيود . ثم انتقلت من التناسى الى التسامح والكرم فانفذت اليه كبير الأغاوات ليوصل اليه هدية سلطانية مؤلفة من خنجر وسيف مرصعين بالاحجار الكريمة ويسلمه تقليدا برفع طوسن بك أصغر ابنائه الى رتبة الباشوية . فقطعت هذه الهدايا الثمينة والنعم المترادفة على مصر سبيل اللجوء الى اساليب التنصل والتسويف . وحدث ان استقبل محمد علي بالقاهرة صديقه يوسف باشا المعزول من ولاية دمشق والمحكوم عليه

بالنفى لامتناعه عن محاربة الوهابية لأسباب لم يوافق الباب العالى عليها ، فلم يمنعه مسلك صديقه المعزول من التفكر جديا فى حشد جنود الحملة المقبلة . وقد حشدها بالفعل تحت قبة العزب وقلد طوسن بك المرفوع الى رتبة الباشوية قيادتها . وللاحتفال بهذا الحادث التاريخى دعا كبار القطر واعيانه والعساكر الى تحية القائد الشاب وشهود مراسم إلباسه ، فى يوم الجمعة التالى ، فروة التقليد والطواف به فى موكب جليل يخترق طرقات المدينة. وكان ممن وجهت اليهم الدعوة الخاصة فى ذلك جماعة المماليك المقيمين بالقاهرة ، فلبس كل منهم أفخر ما عنده من الحلل وامتطى أكرم ما يملك من الخيل العتاق وتقلد أمضى ما لديه من السلاح للاشتراك فى هذا الاحتفال الفخم .

فلما وافت الساعه الثانية على الاصطلاح العربى من صبيحة ٥ صفر ١٢٢٦ ، الموافق ١ مارس ١٨١١ ، صعد المدعوون جميعا فى القلعة وفى طليعتهم شاهين بك واتباعه . وكان الوالى يستقبل بكوات المماليك بمظاهر الاكرام والتعظيم ويقضى مع كل فريق منهم فترة تعاطى قهوة البن فى حديث يسيل رقة ومجاملة ، ثم ينصرف من لدنه ويضرب النفير إيذانا بانصرافه للانتظام فى سلك موكب الاحتفال . اما الموكب فقد جعل ترتيبه على الوضع الآتى : فى الطليعة فرقة الدلاة بقيادة أوزون على فالوالى وأغا الانكشارية والمحتسب فالوجاقلية فالألداشات المصرية

فالألبانيون بقيادة صالح قوج فالمماليك ، وفى طليعتهم سليمان بك البواب ، فالمشاة والفرسان وأرباب المناصب . وحينما تم نظام الموكب على هذا المثال او بعضه تحرك للمسير صوب ميدان الرميلة من نقب كثير الملتويات والمنعرجات وما زال فى سيره حتى اجتاز الدلاة والاغوات والوجاقلية والألداشات باب العزب وهناك أمر صالح قوج باغلاق الباب الحديدى الكبير الذى اجتازه هؤلاء ، ثم اطلع طائفته على حقيقة المراد من هذا التدبير وأمر الجنود الالبانيين بتسلق الصخور القائمة على اعطاف ذلك النقب وبأخذ مواضعهم لاطلاق النار ، وتحصنت المؤخرة ايضا للاشتراك مع المقدمة فى الضرب . فما أن وصل المماليك الى الباب حتى وجدوه مغلقا فأدركوا الحيلة على الفور وحاولوا التقهقر كى يصلوا الى الرحبة الوسطى من القلعة . لكن تعذرت هذه الحركة عليهم لأن الخيل كانت فى اتجاه واحد وتكاد تحتك بعضها ببعض لضيق المكان ولأنهم أخذوا بغتة باطلاق البنادق والقربينات عليهم من وراء ظهورهم ومن العساكر الواقفين بالاعالى فلما نظر الامراء ماحل بهم سقط فى أيديهم وانفرط عقد نظامهم واخذوا يهوون الى الارض صرعى فى غدير من الدماء . ولقد خلع بعضهم ما كانوا يلبسونه من الفراء والثياب الثقيلة بعد ان ترجلوا عن جيادهم وامتشقوا سيوفهم يخطرون بها ثملين بخمرة الحنق والغيظ وتملكهم جنون اليأس فالتمسوا من

يناز لونهم فلم يجدوا من يقضى لبانتهم أو يلبى نداءهم ، بل وجدوا وابلا من الرصاص يهطل عليهم من اعلى الاسوار الحافة بالطريق والنافذات القريبة ويأخذهم من الخلف . وصرع شاهين بك المرادى مثقوب الجسم بالرصاص كالغربال ، فقطع احدهم رأسه وانطلق به الى الباشا لينال عليه البخشيش أو البشارة . وبلغ سليمان بك البواب الى باب الحرم يكاد لايستره شيء من الثياب وصاح : « فى عرض الحرم » . والعادة فى الشرق ان المستنجد بالحرم ينجد بسبب مايتركه الاستنجاد من الأثر العميق فى النفس اذا وجه الى تلك الناحية ، لكن كيف يكون للنجدة فى هذا المقام أثر وقد تحولت محاريب الرحمة الى مذابح تفاض فيها الارواح ، بل كيف يجاب نداء المستغيث وقد قطعت رؤوس المستغيثين جميعا وسحبت جثثهم على الارض بالحبال وسلبت ثيابهم . ووصل ثمانية من المماليك فى فرارهم الى حيث كان طوسن باشا واقفا وسألاه النجدة ، إلا أنه كان أشد من ابيه قسوة اذ لم يلن لهم بل تركهم يذهبون طعما للنار والسيف واضحت القلعة ميدانا للقتل والذبح فكانت الباصرة لاتقع إلا على جثث امراء اختلطت برمم الخيل وجثث سواس وثياب ممزقة وأسلحة مكسورة . وقذف بأسلاب القتلى بعدئذ الى الجنود فتهافتوا عليها تهافت الكلاب المسعورة على الجيف المنتنة[1]

---

(١) زاد الجبرتى على ذلك « ج ٤ ص ١٢٧ » مايأتى : « وقد

ونذكر هنا ان الكاتب القصصي اسكندر دوماس كان قد نشر عن رحلته بمصر كتابا لاندرى لِمَ أسماه (خمسة عشر يوما فى سيناء) . ومما ورد فيه ان خمسة عشر فارسا من المماليك ألقوا بأنفسهم من حالق فماتوا مع دوابهم ، غير ان اثنين منهم نهضوا من سقطتهم ففروا من المدينة راكضين . وزعم ذلك الكاتب الطائر الصيت أنه شهد أحدهما قائما بأعباء الولاية على أورشليم .

ولسنا نعارض الكاتب فيما كتبه ولكننا لانستطيع التسليم بمارواه تحت تأثير الحماس والغرض اللذين جعلاه يذكر استعمال المدافع الحاصدة والمدافع العادية فى حادثة لم يسمع فيها سوى نار البنادق . هذا فضلا عن انه جعل زمن الحادثة سنة ١٨١٨ فى حين انها حدثت سنة ١٨١١ ومما لايغفر للكاتب ادعاؤه كثرة عدد المماليك الذين ألقوا بأنفسهم من حالق وأن اثنين منهم استطاعا بعد نهوضهما من سقطتهما الفرار الى الشام حيث أسندت الى احدهما ولاية مدينة من مدنه . فإن هذا الزعم من مخترعاته وأوضاعه الروائية وليس من الحقيقة فى شيء . والحقيقة التي لاريب فيها ان

أسرف العسكر فى قتل المصريين — يريد بالمصريين امراء المماليك — ولم يرحموا أحدا وأظهروا كامن حقدهم وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملا معهم من أولاد الناس وأهالى البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب وهم يصرخون ويستغيثون ومنهم من يقول أنا لست جنديا ولامملوكا وآخر يقول أنا لست من قبيلتهم فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث .

٤٧٠ مملوكا دخلوا القلعة للاشتراك فى الاحتفال بتقليد طسن باشا السر عسكرية ، فلم ينج منهم سوى واحد بدليل ما كتبته جريدة (المونيتور اجبسيان) بالعدد ٢٦ من السنة الثانية حيث قالت :

« ولم ينج من المماليك سوى واحد هو امين بك أخو ألفى بك لأنه تخلف هنيهة فى عمل هام فلم يدرك الا الصف الأخير من الموكب فلما سمع صرير الباب وهو ينغلق ودوىّ البنادق عاد بجواده الى داخل القلعة وانشأ يبحث عن منفذ ينجو منه بنفسه فلم يجد امامه إلا سورا فى ارتفاع عشرين مترا فانطلق بجواده الى قمة مرتفعة فوقف عليها وأوفز الجواد للوثوب به فى الهاوية الفاغرة فاها تحت قدميه ، فما هى إلا لمعة البرق حتى كان الاثنان فى قاعها ، الجواد صريعا الاحراك به وفارسه مطروحا على الارض لم يصبه الا اغماء خفيف لم يلبث ان أفاق منه ، فلم يتمالك ان أطلق ساقيه للريح وما زال مغذا فى سيره حتى وصل الى اقليم الشرقية حيث آوى الى بيت لأحد كرام عربانها . وقد لبث فى ضيافته أياما شخص من بعدها فى بعض من اتباعه الى الشام .

ومما يتناقله الناس هناك من الروايات فى هذا الصدد ان الأدلاء جردوا أمين بك ، وهو يخترق الصحراء ، وأساءوا اليه ، لكن بعض العربان التقوا به فرأفوا بحاله وعالجوه ثم أوصلوه الى صديقه والى عكا . وأكد لنا بعض ذوى الفضل

والعقل الراجح نزيد به مسيو (دى فولابل) أن أمين بك مازال على قيد الحياة وأنه أقام بطرابلس الشام زمناً ثم ترقى فى خدمة السلطان الى منصب قبطان باشا وانه مابرح قائماً بأعبائه . أما الجهة التى وثب عندها من القلعة فمعروفة باسم « نطة المملوك » .

وكان محمـد على باشا لايرمى بالتدابير التى اتخذها لأبادة الأمراء المصرلية ان تنسحب على المماليك الفرنسيين فتندرجهم عداد هؤلاء ، كلا ولهذا وجه اليهم عبارات اللوم يوم الاحتفال بتقليد طوسن باشا لأنهم حضروا لشهوده بداعٍ من انفسهم . ولهذا أمر الكيخيا بك بأن يحجزهم فى غرفة محمد بك ناظر الحرب ولا يدعهم ينتظمون فى سلك الموكب . وقد ابقى محمد على سر تلك التدابير كاتماً فى نفسه ولم يطالع به غير اربعة من اخص خاصته وهم كيخيا بك والسلحدار سليمان أغا وحسن باشا وصالح قوج . وفى الساعة التى كانت فيها ارواح المماليك تسيل على ظباة السيوف لم يكن محمد على يتمتع نفسه ، كما زعم بعضهم ، بتدخين النارجيلة فى مكان لايبصره فيه أحد وانما يبصر هو منه كل شىء بل انه كان جالسا فى بهو الديوان الكبير المشرف على باحة التشريفات وهذا الديوان لا يفضى الى منظرة عالية أو سطوح اياكانت . وانما كان المبصر به ساعتئذ لايعتوره ابدا الشك فى ان حركاته كلها كان يسودها الاضطراب والتحير ومعارف وجهه كانت تنم على كثير من القلق والارتياب اذ كان يعرف أن ما كانت

الجنود تقوم به خارجا من عمل حاسم ضد خصومه اللدودين ستكون نتيجته إما حياة له فى القطر المصرى وإما ممات . وقد ذكر الذين شهدوه حينما اطلقت العيارات الأولى وسمعوا دويها انهم شهدوا تقاصا ظاهرا فى وجهه تغيرت به معالمه وان هذا التغير نمّ عن اضطراب فى نفسه جعله يسلم فى هذه الآونة باحتمال حصول معركة بين الارنؤود والمماليك وجواز نشل الأولين فى تدبيرهم ضد الآخرين . بل لعل ذلك التقاص كان اثرا انعكاسيا فى الوجه لما انتاب النفس من وخز الضمير أو غشيها من الاسف لأنه لم يجعل القول الفصل بينه وبين اعدائه لميدان القتال وحد الحسام . وقد لبث الباشا فترة من الزمن طويلة وهو واجم لاينبس ببنت شفة حتى دنامنه الاستاذ (ديشى) طبيبه الخاص ، وعلامات السرور والارتياح بادية على وجهه وصاح : « لقد انتهت المسألة على خير وهذا اليوم يوم عيد لسموكم » . فلم يرد محمد على بكلمة على هذه البشرى بل رمى الطبيب بنظرة قاسية ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة استهزاء واحتقار وطلب قليلا من الماء فشربه .

وبينما كانت المذبحة رائجة السوق بداخل القلعة ، كان سكان القاهرة بحشودهم الكثيفة وقوفا صفوفا على اعطاف الطرقات يرتقبون مرور الموكب الجليل بهم ليمتعوا انظارهم بمظاهره البهيجة وكانوا لايكفون عن التوارد والتوافد افواجا وفرادى

يصيحون صيحات الفرح والاستبشار ، ثم يقفون لاستشراف طليعته . وما هى الا دقائق حتى ظهرت صفوف الدلاة والأغوات ومر من بعدهم الوجاقلية والألداشية ثم ... لا أحد ! وهنا خامر الشك افئدة الناس لانهم لم يقفوا على سر انقطاع الموكب هذا الانقطاع الفجائى وتجمهروا فرقا كثيرة وذهبوا فى تأويل هذا الحادث كل مذهب . ولطالما حاولوا استخراج السر الدفين وعلت المناقشات بينهم فيـه الى عنان السماء وعالجوا كل اسلوب من اساليب الاستنتاج المألوفة فى استقصاء الحقيقة فلم يتقدموا خطوة واحدة فى سبيل الغاية التى جعلوها نصب عيونهم ، ذلك لأن دويّ الطلقات النارية التى فتكت بمئات الارواح لم يكن بلغ الى اسماعهم . ومضى زمن وهم فى هذه الحال فاذا بجماعة من ملازمى ركاب المماليك وسواس خيلهم فى المواكب يهيمون على وجوههم فى الطرقات صامتين باهتين ظاهرة على وجوههم علائم الوجل والتروّع . وصاح منهم صائح فقال : « لقد قتل شاهين بك » . فما استقر هذا الصياح فى الاسماع حتى اغلقت المنازل والحوانيت وانصرف الناس وخلت الميادين والطرقات من تلك الحشود الحشيدة التى توافدت اليها من كل صوب وحدب لشهود الحفلة ولم تلبث المدينة التى كانت آهلة بالناس منذ دقائق تلوح على وجوههم نضرة الفرح والسرور أن صارت كالصحراء المقفرة ، ولم تمض دقائق بعد ذلك حتى تدفقت جموع العساكر فأغاروا على

دور المماليك ورموا أعناق من فيها من الرجال وجردوا النساء من ثيابهن انتقاما منهن لايثارهن المماليك عليهم وهتكوا أعراضهن وسلبوا حليهن . وكانت بيدى احداهن أساور ذهب فتبهما أحد الجنود الاتراك من معصميها حتى لايجد عناء فى انتزاعها منهما. وظلت القاهرة يومين كانت فيهما كمدينة غزاها العدو عنوة وأباح ارواح اهلها وأعراضهم واموالهم . أما الاسلاب والمنهوبات التى خطفها الجنود من بيوت المماليك فلا حصر لها ، لأنهم بعد إيثارهم المقام بالقاهرة واتفاقهم مع الوالى على ذلك وتركهم مواصلة الرحل شادوا القصور الباذخة وأثثوها بالفراش الفاخر والرياش الجميل ولم ينج جيرانهم من الهلاك الذى وقعوا هم فيه فقد عاملهم الجنود كما لو كانوا من المماليك ، حتى لقد بلغ عدد البيوت التى دمروها ونهبوها اكثر من خمسمائة بيت .

وان البصر ليرتد خاسئا وهو حسير اذا نظر ما وقع بمصر من غرائب المصائب وان الفكر ليحار اذا بحث فى اسبابه . ولو ان الباشا لم يأمر فى اليوم التالى للمذبحة بوقف سيل الفظائع والجرائم عند حده لساء المصير وأعضل الداء وانقطع فى علاجه الرجاء . فلقد نزل من القلعة فى اليوم التالى للمذبحة فى عدد من الحرس وجاس خلال الأحياء الكبيرة وتفقد مراكز الجند وأنب رؤساءهم وعزرهم التعزير الشديد لاقترافهم الفظائع وتلويثهم ايديهم بما تلوثت به ايدى جنودهم . والتقى فى جولته عند باب

زويلة برجل مغربى شكا اليه اعتداء الجند على بيته وتخريبهم إياه ، وقال إنه لم يكن من الاجناد ولا من المماليك وقد حقق شكواه فظهر له صدقها فأمر برمى رقبتى التركى والفلاح اللذين وجدهما فى دار المشتكى .

وبعث الشيوخ وفودا لمقابلة محمد علي فى طريقه وتقديم التهانىء له بظفره فأجاب بانه سيذهب اليهم بنفسه ليتلقى التهانىء منهم . وقد ذهب فعلا الى دار الشيخ عبد الله الشرقاوى ولبث بينهم ساعة ثم خرج عائدا الى القلعة .

ومنذ اليوم التالى وجه طوسن باشا همته الى توطيد دعائم الأمن واقرار النظام فى نصابه ، وأذن الكيخيا بتفتيش بعض الدور على أن لايمس أحد بسوء الا اذا كان مملوكا مستخفيا أو غير معروف ، وان من يؤتى به اليه من المماليك يرمى عنقه ، شابا كان أو شيخا بريئا أو مذنبا . اما الذين مهد الحظ الميمون لهم سبيل النجاة من هذه المجزرة فقد عولوا على الفرار الى الشام متنكرين بملابس الدلاة ، او الى الوجه القبلى متزيين بزى النساء .

وأبلغت الأوامر الى كشاف الأقاليم بالقضاء على من يجدونه من المماليك مشتتين أو مستخفين ، فاغتنموا هذه الفرصة ليضموا الى من تنطبق هذه الأوامر عليهم من لارغبة لهم فيه من خصومهم أو مناظريهم أو معارضيهم ، ولو كانوا من ابناء البلاد . وأرسلت الاكياس الى الباشا مملوءة برؤوس القتلى فأمر

بان يصدر الى الاستانة منها ما كان محتويا رؤوس بعض البكوات والزعماء .

أما الجثث التى حزّت تلك الرؤوس من سكناتها فقد حفرت لأيوائها الحفائر العميقة بميدان القلعة . وجىء من الصعيد بأربعة وستين مملوكا على قيد الحياة ، فلما جنّ الليل أعدموا جميعا على ضوء المشاعل وألقيت جثثهم فى النهر وعرضت رؤوسهم على باب زويلة الذى شنق تحته طومان باى ، آخر ملوك المماليك الجراكسة قبل ذلك العهد بمائة عام . ومع فداحة المصاب الذى نزل بأهل القتلى وأقاربهم من النساء ، فقد تحاموا الاستئذان بأداء ماهو مفروض عليهم نحو قتلاهم من الواجبات الاخيرة ، الا والدة مرزوق بك فقد سألت اولياء الأمر تسليم جثته اليها فبحثوا عنها بحثا دقيقا يومين كاملين الى أن وفقوا للعثور عليها فتولت دفنها بالاحتفال اللائق بها فى مدفن أسرتها . وتلقت أيامى المماليك من الباشا اجازات تبيح للبعض منهن الانتقال من جهة الى أخرى وللبعض الآخر تقاضى مرتبات للمعاش ، ومنحت الرتب الادارية والعسكرية لابنائهم اليتامى .

أما ابراهيم بك وعثمان بك حسن واتباعهما فقد التمسوا العفو عنهم فكان جواب الوالى عليهم ان أصدر الى مصطفى بك الاوامر بمطاردتهم الى ماوراء قلعة أبريم . وخسر المماليك فى اسوان عدداً غير قليل من رجالهم ، فلما استشعروا العجز

من انفسهم بما أصابهم من نقص فى العدد وضعف فى القوة وتفكك فى الاوصال ، اضطروا الى مزايلة تلك المدينة بعد أن تركوا فيها خيلهم وعبيدهم قاصدين عن طريق الصحراء الى بلاد النوبة ، التماس العيش فيها بعيدا عن ضوضاء الخصومات والمنافسات أو تحينا لفرصة جديدة يزعزعون بها اركان حكومة او يثلون عرشا من العروش .

وقبل أن نختم هذا الباب لابد لنا من كلمة نبين فيها أنه ليس بهين علينا التدرج من ذكر المذابح والمجازر الى إطرائها وتمجيد من يباشرونها . كلا ! فإن من أحب الاشياء الينا ، لو استطعنا ، أن نمحو من صفحات حكم محمد علي سيرة المجزرة التى ألممنا الآن ببعض اطرافها . بيد أن التاريخ واقف لنا بالمرصاد ومستوفز للحكم حكما لاقبل لقوة فى العالم بنقضه بالغة مابلغت . فليأخذ عدل التاريخ إذن مجراه وليس علينا إلا الاذعان . أما أولئك الذين شبوا على حسن الظن والتفاؤل دائما بالخير واعتادوا قياس فداحة الكوارث على مقدار مايضحى فى سبيلها من الارواح ، فإنهم لاريب آسفون لانتهاء أمر المماليك الى ما انتهى اليه من القضاء عليهم . ذلك لأنهم ، على مايقول اولئك المتفائلون ، كانوا أشد فرسان العالم كله بأساً ثم تدهوروا فى حضيض من الفساد لاقرار له. وهم يزيدون على هذا الرأى ، تفسيرا لهذا التدهور ، وصفهم لحاشية الامراء الجراكسة بأنها كانت فى ذلك العهد مثال النظام

وعنوان الأخاء الصادق والاخلاق الفاضلة وأنها لم تلبث فى العهد الشاهد أن انقلبت فاصبحت مثال الفوضى والفتنة والرذائل المخزية. وما أن تضع زمام امرك فى ايدى اولئك الواصفين حتى يوغلوا بك فى معسكر المماليك على عهدهم الأول ويدخلوك فى خيامهم ليطلعوك على ما كان فيها من مظاهر الحذر العسكرى من وقوف الأحراس ليلا عند أقدامهم ممسكين بمقابض الخناجر، وينتقلون بك بعد ذلك الى الخيام نفسها على عهدهم الثانى ليطلعوك على ما انتاب أبدانهم من ضعف وعزائمهم من خور بما التزموا من الدعة وارتكبوا من المذمات وعكفوا عليه من البطالة وتفرغوا له من شهود رقص «الغوازى» وسماع غناء «العوالم».

ولسائل ان يسأل هنا عن إفراطهم فى المخزيات وتفريطهم فى الواجبات أيكون مقترفهما، بالغة مابلغت آثارهما الضارة فى الأفراد والجماعات بما تفقدانهم من الفضائل السياسية والمزايا البدنية، أهلا لمثل هذا التنكيل البالغ من مبالغ القسوة والعنف الى أقصاها؟ بل له أن يسأل كذلك عن الكفاية العقلية التى تبيح فى مثل ذلك العهد تقدير العقاب وتتصرف فى توقيعه على الجانى. واذا كان من أغرب العلاج ان يعدّ موت الفجاة دواء من داء الضعف والهزال أفلا يحسن ان يترك المريض الى أن يحين حينه ويزول بفناء قوته؟ لقد جاءنا التاريخ بأمثلة لطائفة من التدابير العنيفة التى دبرها كبار الملوك والعظماء.

فبطرس الكبير ، ذلك العاهل الذى لقبه التاريخ بمصلح الدولة المسكوبية أفنى جماعة (الاستريلتز) فى مذبحة أفظع وأشنع من مذبحة المماليك اذ فتك بنحو الالفين منهم شنقا وبريَ رقاب وعرض جثثهم فى الطرقات وزاد على ذلك ان وأد النساء . ومع ما فى هذه المذبحة من قسوة وخشونة يقشعر البدن من هولهما فان (فولتير) اقتصر حينما تصدى لذكرها أن وصفها بوصف العقوبة الصارمة . وفى عهد السلطان محمود ذبح بضعة آلاف من الانكشارية بلا رحمة ولا شفقة ، ولم يكونوا مع هذا بالجنود الأجانب بل كانوا ، كالاستريلتز فى الروسيا والمماليك فى مصر ، من ابناء الشعب القائمين بواجب الذود عن حياض الوطن .

ونحن فى هذا المقام نقول جوابا على ما تقدم ، إن ضرب الامثال لايعد مبررا للقسوة ، فلقد نسب الى محمد علي باشا انه قال ذات يوم : « على الاعقاب الخالفة ان تحكم أى الحادثين أحوج الى التسويغ والتبرير ، حادث إبادة المماليك ام حادث قتل الدوق دانجن ! » . وفى نظرنا أن هذه المقارنة يعوزها السند المنطقى ، ولا نظن أن مثلها يخطر ببال رجل بصير رصين كالباشا . اذ ما الصلة بين المصاب الذى نزل بفرد من الناس وبين الكارثة التى تحيفت الفا وخمسمائة نسمة ، خصوصا اذا كان ذلك الأمير الفرنسى لم يفاجئه أحد بمكروه فى خلال السكون السائد على حفلة كان المرتقب ان تكون باعثا من بواعث الغبطة والسرور . دع أنه قبل أن

يساق الى ساحة الاعدام حوكم امام قضاة نطقوا بهذا الحكم فى حقه ؟ والراجح عندنا ان الذى قاله الباشا فى المقارنة بين الحادثين كان بالأضافة الى ما ذكر له عن صورة رقشها قلم المصور البارع (هوراس فرنيه)، وهاك ماقاله : « فى استطاعة هذا المصوّر أن يجعل لصورته هذه ملحقا يصور فيه منظر الفتك بمماليك بونابرت فى مرسيليا » .

والأمر الذى نحن منه على يقين ثابت هو أن والى مصر ، وشهرته بالاعتدال والتسامح وشرف العواطف لايختلف فيها اثنان ، لم يلجأ الى تدبيره الخطير إلا بعد إجهاد الفكر وإمعان الروية وطول البحث ، فلما ثبت لديه أن الحاجة اليه حائجة لمصلحة مصر وفائدة بنيها ، لم يسعه إلا الأقدام عليه . وكل مافى الأمر أن مانبديه نحن معشر الأوربيين من رقة الشعور وسرعة التأثر بالحوادث يعد من المظاهرات ذات الشأن فى نظر السياسة الشرقية ، لأن هذه السياسة لاترى فى سفك الدماء إلا أنه من التدابير المألوفة مادام نفعه للجمهور مؤكداً . وليس بعازب علينا أننا ، ونحن نعيش فى المناطق المعتدلة ، لسنا فى أوفق المراكز وأليقها للحكم حكما صحيحاً على مايقع فى منطقة أخرى من حادثات مصدرها شهوات النفس ومطامحها . ويقول حكماء الأخلاق إن المبادىء الطيبة تختلف عن المبادىء الخبيثة باختلاف الشعوب والأقاليم التى يسكنونها . أما نحن ففى استطاعتنا أن نبنى تدليلنا

المنطق على حقوق الانسانية فاذا فعلنا فإ نا لا نلبث أن نسوغ فى كلمات قليلة بل فى كلمات ثلاث ، الخطة التى سلكها الباشا حيال المماليك ونعاها عليه الكثيرون .

وردت على الباشا من الباب العالى أوامر صريحة بالقضاء على المماليك . هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد كان على وشك الدخول فى حرب ضروس فى بلاد نائية عن مصر ، فإذا غاب الجيش عنها استيقظ ذوو المقاصد والأطماع الشريرة من سباتهم وبثوا الفتن لتحقيق أمانيهم . وكان الوالى ، فوق هذا وذاك ، يهمه أمران : وقاية مستقبل مصر من عبث الحوادث الطرآنية وقاية مقرونة بتعزيز شوكته ثم العمل لإحباط المساعى المبذولة ضده والدسائس المدبرة للتنكيل به والتفكر في إحاطته هو وأسرته وأعوانه بسياج من الأمن على أرواحهم والسبق الى الفتك بأعدائه قبل أن يفتكوا هم به . ومن بدائه العقول التى لا يجحدها إلا المكابرون أن المؤامرات كانت تدبر ضده بترتيب محكم ، وكان لابد لمدبريها فى يوم من الأيام أن يفتكوا به ويتسلموا بأيديهم المخضبة بدمه ودماء المصريين الابرياء ، زمام الحكم عليهم . وكان على رأس هؤلاء المتآمرين حسن بك اليهودى الذى طالما افتخر بأنه قتل فى بضعة أسابيع أكثر من خمسمائة حاج ، وهم فى طريقهم الى الحجاز . وكان ثمة دليلان ناهضان على وجود أولئك المتآمرين وعلى أنهم يضعون التدابير

المحكمة لتنفيذ نياتهم البغيضة ، الدليل الأول أنهم فى سفر الوالى الى السويس حاولوا خطفه من بين أحراسه ففشلت محاولتهم الآثمة . والدليل الثاني أنه كان يجوب يوماً ضواحى القاهرة فأطلق أحدهم رصاصة عليه عامداً قتله فأصابت ضابطاً كان معه . وحيث انهم البادئون بالشر ويجب أن تدور على رؤوسهم الدوائر وأن يحصدوا مازرعوا كما يحصد العواصف من زرع الريح كما يقولون ، فهم إذن أهل لما حلّ بهم من العقوبة .

وقد كان القنصل الأول (بونابرت) يرى من قبل أن الاخناء على دولتهم ضربةَ لزامٍ لأقامة السلام والنظام فى مصر وتحقيق السعادة والراحة لبنيها . وقال المسيو (دلابورت) عضو اللجنة التى ألفها بونابرتة قبل وقوع كارثة المماليك بأيام ، وقد كان مبعث أقواله الشعور الصادق بمستقبل الحوادث ، ان الفتك بالمماليك خير ذريعة لقطع سلسلة الفتن والاضطرابات والجرائم التى لانهاية لتتابع حلقاتها فى مصر . وقد جاءت الحوادث مؤيدة لقوله ، فانه ما كادت الفتن والحروب الأهلية تنتهى فى سنة ١٨١١ حتى جاء دور الحرب الخارجية التى حركت القوى الخامدة وأيقظت الهمم النائمة وكانت ينبوعاً غزيراً لتقدم مصر فى جميع نواحى الحياة السياسية والمدنية .

الباب الثامن

الوهابية والوهابيون

١٨١١ — ١٨١٩

وقعت في الحجاز تباعا منا كر ضد الدين أثارت خواطر المسلمين فى مصر وتركيا وفارس وسائر جزيرة العرب . ذلك ان الدين الاسلامى يفرض على كل مسلم حج البيت الحرام ، ولو مرة واحدة فى العمر ، إذا استطاع اليه سبيلا . ووجه الاستطاعة ألا يكون فقيرا أو به مرض . وفى مذهب ابى حنيفة ما يبيح للمسلم الاستعفاء من الحج إذا قام على نفقة من يحج بدلا منه . والحجاج يتواردون فى كل عام على الحجاز من اطراف الشرق ، وتمر قوافلهم بالبلاد فيزداد عددهم بانضمام غيرهم من الحجاج اليهم . وذوو اليسار والسعة منهم يحملون معهم الهدايا برسم المسجد الحرام . وجرت العادة بأن يرسل السلطان ووالى مصر صرّة من المال فى كل سنة ، فيقوم المحمل بالكسوة وبالهدايا

قاصدا الى الحجاز بحراسة شرذمة من الجند ، ويرافق الحجاج والتجار المحملَ مدججين بالسلاح ، ويأخذ بمقوده أحد بكوات مصر ، إذا كان هو المحمل المصرى أو والى الشام اذا كان هو المحمل الشامى . وكانت السفن تشتط السواحل لحماية ماينقل على البر . وكان سواد النوتية الأتراك لايلمون بفن الملاحة فكانت مراكب الصيد تجرؤ على ضبط سفنهم وتأسر ربابنتها وتنهب مشحونها من الاقمشة والبن ومواد العطارة . وكانت الآبار فى الطريق تحميها حاميات صغيرة من الجند ثم خربت بانسداد فوّهاتها ولم تعدصالحة لشىء . وكان الاشقياء تبلغ الجرأة بهم الى حد ان يطالبوا الناس بأداء مايفرضونه عليهم من ضريبة النفوس او إتاوة مال أو أقمشة أو ثياب فى مقابل السماح لهم بحرية الطريق . فاذا لقوا معارضة منهم فى ذلك اشتبك الفريقان فى معركة كثيرا ماتنجلى عن خذلان القافلة الواردة من القاهرة أو دمشق أو بغداد وحرمانها بذلك من أداء الفريضة التى من اجلها جاءت الى هذا المكان .

على أن الحرمين الشريفين ذاتهما كثيرا ما كانا يتركان فى نفوس الطامعين أثرا كان يحفزهم فى الغالب للمساس بهما ويفضى الى استطالة الايدى نحوهما بالسلب والنهب . فان مكة المكرمة وهى بيضة الاسلام والمدينة المشرفة وهى مهبط الخلافة كانتا تحتويان من المخلفات النبوية والنفائس النادرة مالا يثمن بثمن ، فكانتا

عرضة لاعتداء العادين وعبث العابثين . ولقد اقترفوا بالفعل هذا العدوان ، اذ دمروا أضرحة الكثيرين من آل بيت النبوة فى العراق والطائف والمدينة وهدموا القباب . وكانت القبة الكبرى التى فوق الضريح النبويّ على وشك ان تتناولها المعاول بالهدم ، لولا رؤيا ازعجت المجترىء على انتواء هذه الجريمة فعدل عنها . واقتصر المعتدون الاشقياء على انتزاع الزينة والزخارف ونهب الهدايا والنذور الواردة من جميع الاصقاع او التى وردت منذ وفاة النبي الى ذلك العهد ، كالآنية الفنية الثمينة من قناديل وماثلات (شمعدانات) مصنوعة من الذهب الخالص وحولوها الى سبائك وكذا صفائح الذهب التى كسيت بها الجدران والاخشاب وخمسمائة لوح من النحاس مصفحة بالذهب وعشرون سيفا مرصعا بالجواهر ومقدار جسيم من السجاجيد الطهرانية والاصبهانية والأرضرومية واللآلىء الكبيرة ومنها لؤلؤة بحجم بيضة الحمام معلقة فوق الضريح الشريف ومشهورة باسم الكوكب الدرى . كل ذلك سلبوه بلا حياء ولا خوف وباعوه علنا . فاشترى الشريف غالب منه مالا تقل قيمته عن مائة الف قرش وحمل المفسدون مالم يبع فاقتسموه بينهم بالقرب من كربلاء ، بعد ان حسبوا حسابه .

وهنا محل للسؤال هل ، حب السلب والنهب وحده هو الذى أغرى أولئك المفسدين بالتخريب والتدمير ؟ إنهم كانوا

وهم يخربون ويدمرون لايكفون عن قولهم : « ان الله يغفر لمن يهدم هذه المبانى الشاهقة ويجردها مما تحتويه ولا يغفر لمن بناها ولا لمن زخرفها». ثم انهم كانوا يقولون ، من باب تقرير المبادى ، إن حجرا واحداً يوضع على قبر الميت ، بمثابة الشارة ، خير من الضريح المزخرف ، وان القبر من غير زخرفة خير منه بها ، وهو مايؤخذ منه أن السطو والنهب يستران تحتهما شعورا دينيا تذكيه حرارة المشايعة للمذهب والتعصب له والدعوة الى حقيقته المجردة . ومن هم أولئك الاشقياء الذين قطعوا السبل بين جدة والبصرة وبين البحر الأحمر والخليج الفارسى ؟ الجواب على ذلك تتضمنه الأسطر التالية .

فى القرن الأخير من الميلاد ظهر بجزيرة العرب شيخ اسمه محمد بن عبد الوهاب بمذهبٍ محدَث فى الاسلام يقضى بتأييد الأيمان بالسيف والرجوع بالعقائد والمعاملات الى صراحتها الأولى من غير تعقد ولا إبهام . ولم يقتصر الشيخ على ذلك بل ذهب الى نبذ الاحاديث النبوية والقول بأن لا كتاب من الكتب المنزلة أبلغ بالوحى الالهى على لسان جبريل وان قوة الله تشمل الكون بأسره ولا قوة فيه الا قوته تعالى وأن محمدا لم يكن إلا بشرا عرف بالخير والدعوة اليه وأنه كموسى وعيسى من المصطفين عند الله ، وان الاعتقاد بالأئمة والتوجه بالدعاء اليهم ونسبة مالم يكن فى طوق البشر من القوة لهم كالكرامات

وغيرها فى حياتهم ومماتهم كفر بالأيمان وانحراف عن الطريق القويم وأن النساء لاينبغى لهن التحلى بالذهب والفضة ولبس الحرير كما لايجب إقامة الأضرحة ولا القباب ولا الزخارف المفضية الى عبادة الاصنام. وتفرض تعاليم الوهابية، فيما عدا ماتقدم، إيتاء الزكاة والجهاد فى سبيل الله والقناعة فى الشهوات وإقامة العدل بين الناس (١)

---

(١) ورد بيان التعاليم الوهابية فى تاريخ الجبرتى (ج ٤ ص ٥) فى ذكر مسألة الشريف غالب شريف مكة لدعاء الوهابيين بسبب ماحصل لأهلها من المضايقة الشديدة وانقطاع الجلوبات عنهم حتى وصل ثمن الاردب المصرى من الارز ٥٠٠ ريال وأردب البر ٣١٠ وسلوكه طريقتهم وأخذه العهد على كبيرهم بداخل الكعبة ما يأتى: «انه — اى الكبير» — امر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الأراجيل (النارجيل) بالتنباك فى السعى بين الصفا والمروة وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وابطال المكوس والمظالم. وكانوا خرجوا عن الحدود فى ذلك حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة حسب حاله وان لم يدفع اهله القدر الذى تقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ولا يتقرب اليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التى أحدثوها على المبيعات والمشتروات على البائع والمشترى ومصادرات الناس فى اموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة منه الاوالاعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ويقولون إن سيد الجميع محتاج اليها فاما ان يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشريف واما ان يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل او اكثر فعاهده على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله تعالى به

وهذه التعاليم تجمع الى الشدة والصرامة المهابة والاستقامة.
فالوهابيون ليسوا اذن بالنسبة للاسلام الا كالبرتستانت بالنسبة للمسيحية من جهة العقيدة وكالبورتيان الانجليز الذين يذهبون مذهب التشدّد والصلابة في الاخلاق من جهة الفضائل. وانما يؤخذ عليهم أنهم كانوا لايتسامحون مع مخالفيهم فى المذهب، إذ كان لايزعهم وزاع عن إيذائهم ومعاملتهم بالعسف والشدة،

فى كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والائمة المجتهدون الى آخر القرن الثالث وترك ماحدث فى الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقات الاحياء والأموات فى الشدائد والملمات وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف وتقبيل الاعتاب والخضوع والتذال والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الاعياد والمواسم لها واجتماع اصناف الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقى الاشياء التى فيها شركة المخلوقين مع الخالق فى توحيد الألوهية التى بعثت بها الرسل الى مقاتلة من خالفها ليكون الدين كله لله وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لانها من الامور المحدثة التى لم تكن فى عهده بعد المناظرة مع علماء تلك الناحية واقامة الحجة عليهم بالادلة القطعية التى لاتقبل التأويل من الكتاب والسنة واذعانهم لذلك فعند ذلك أمنت السبل وسلكت الطريق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف وانحلت الاسعار وكثر وجود الطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والاغنام والاسمان والاعسال حتى بيع الاردب من الحنطة باربعة ريالات واستمر الشريف غالب يأخذ العشور من التجار واذا نوقش فى ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين

كلما تحينوا الفرصة لذلك. فقد كانوا يتعدون على الحجاج ويسلبون السابلة ويريقون دماءهم، وبعد ان ينهبوا السفينة يلقون بنوتيتها في البحر ثم يمضون، كما لو كانوا عائدين من مصاد لؤلؤ أو غرس نخل، لبث دعوتهم والوقوف بين الناس موقف الوعظ أو الصلاة لحمد الله على ما أولاهم من نعمة القناعة والتطهر من أرجاس العبث والأفساد. وكان اذا عارضهم أحد أو وقف فى سبيل نشر دعوتهم أو أنكر خطتهم فى غاراتهم ذبح بلا رحمة. ولولا تحكيمهم البتار فى الرقاب لما استطاعوا نشر عقيدتهم أو قذفوا الفزع الى القلوب تمهيدا لقبولها، وهاك مثالا من الدعوة التى كانوا يدعون بها جيرانهم الى مذهبهم (معنى لا مبنى):

« بسم الله الرحمن الرحيم، من خير القبائل الى فلان او فلان من اعيان البلد الفلانى ان الاسلام هو الايمان حقا بالله وبرسالة نبيه وبه يتميز المسلم الصادق من الكافر والذين يتولون الحكم عليكم وتأتمرون بأوامرهم قد ملأ الفساد والظلم وارتكاب المنكر قلوبهم. أما نحن فعلى غير ذلك ننصح اليكم بالعودة الى الايمان والاسلام وقدجئنا اليكم بجيوش من المؤمنين فمن منكم أراد الاسلام فليكتب لنا بما أراد فاننا نترك له املاكه ونقيمه فيما تحتويه من عرض الدنيا. واعلموا اننا وصلنا بسلامة الله وسنجىء اليكم بحشد حشيد من الجنود للجهاد على بركة الله وحسن معونته وهذا بلاغ اليكم فمن منكم تخلف عن الكتابة الينا بموافقتنا جرد مما يملكه ولا يعترف به احد منا وسنصل اليكم ان شاء الله فى هلال الشهر المقبل وهذه آخر مرة ندعوكم فيها الى الدين الصحيح فتكون بلادنا وبلادكم سواء والسلام على من اتبع الهدى »

فاذا بقى البلاغ الاول والذي يليه بلا إجابة بعث الوهابيون

بيلاغ ثالث كهذا جعلوه عنوانا على فتح باب الخصومة التى لا واقي من شرها . واذا كبير الوهابيين أخبر جنده وقتئذ بأنه لم يبق مجال للتسامح واطلق لهم حرية النهب والقتل ، واذا كانت ثمة وسيلة واحدة لافتداء الحياة وصيانة شيء من المال فهى دفع الزكاة الى جباة معينين لهذا العمل يباشرونه فى كل شتاء بالبلاد الخاضعة للوهابية وجبايتها بنسبة رأس واحد من المعز عن كل اربعين رأسا وقرش وافٍ عن كل خمسة جمال وما يعدل ثمانية فرنكات عن كل رأس من الخيل. ويجب على دافع الزكاة الاقرار فى عهد يؤخذ عليه بأنه قد تحول عن عقيدته الأولى ويجهر فيه بأنه كان الى وقت تحوله على ضلال وغواية وأن القبور التى تضم رفات آبائه واجداده انما تحتوى بقية قوم كانوا على غير هدى.

وقال نيبور (١) الذى زار بلاد الاسلام ووصفها فى سنة ١٧٧٣ :

(١) نيبور Niebuhr كارشنس رحالة ألمانى ولد فى لودنجورت (هانوفر) سنة ١٧٣٣ ومات فى ملدورف (هولستين) سنة ١٨١٥ وظف فى سنة ١٧٦١ كعالم رياضى فى البعثة التى أنفذها ملك الدنمرك الى بلاد العرب وقدمت اليها جميع الاكاذيميات العلمية فى اروباما كان لديها من معلومات وبيانات عن هذه البلاد وقد عاد الى كوبنهاجن عاصمة الدنمرك فى سنة ١٧٦٦ بعد ان جمع بيانات وتحقيقات قيمة عن الاقطار التى جاس خلالها فى آسيا وكانت تعد فى نظر اوربا من البلاد المجهولة . وعين على أثر عودته اى فى سنة ١٧٦٨ مهندسا فى اركان الحرب ثم مستشارا حقوقيا فى ملدوف سنة ١٨٠٨ — وله من المصنفات كتاب (وصف بلاد العرب) وكتاب (رحلة فى الشام وفلسطين) وغيرهما

« منذ زمن قريب ظهر فى اقليم العرب مذهب جديد سيقلب هذه البلاد رأسا على عقب ». وكان نظر نيبور ثاقبا فان الوهابيين بدأوا باخضاع ست وعشرين قبيلة كبيرة من قبائل البدو التى تنتجع نجدا فى كل خريف، ثم ثنوا بالولايات المجاورة فانهالوا على حكامها وشعوبها بالقدح المقذع والتعزير فلم يلبثوا أن استولوا بهذه الوسيلة على الحجاز واليمن، ثم أخذوا يتهددون ولايتى دمشق وبغداد. وكان العالم الاسلامى حينئذ بحالة يرثى اليها من الضعف والانقسام، فلم يسع بلاده التى فتحت ابواب حدودها لأولئك الادعياء الاشداء بما ساد فيها من الفوضى، إلا أن صاحت مستصرخة طالبة اعلان الحرب على أولئك المبتدعة. وهذه الحرب هى التى قام محمد على وابناه ابراهيم وطوسن فيها بمثل ماقام به (جودفروا) و (تنكريد) و (رينو) فى الحروب الصليبية.

وكانت مصر أوفق موقع للزحف منها استخلاصا للحرمين الشريفين من ايدى الوهابيين. وكان هؤلاء يستوردون منها حاجاتهم المعيشية عن طريق البحر الى ثغرى جدّة وينبع. وهناك اعتبارات مهمة حفزت الباب العالى، عقيب موافقته على معاهدة (بخارست)، الى الاستمداد بالباشا فى قمع الوهابيين، منها أنه أقوى ولاة الدولة وأقدرهم بمواهبه الذاتية على تأديبهم وإيقافهم عند حدهم. وكان السلطان سليم الأول، بعد أن تم له

الظفر بالمماليك الشراكسة وقتل آخر ملوكهم ، أسمى نفسه فى خطبة الجمعة « خادم الحرمين الشريفين » وتلقب السلاطين من بعده بهذا اللقب . ثم تلقب بألقاب الخلافة فكان المفروض على سلطان آل عثمان ان يكون أول مايهتم به قمع أعداء الدين والقضاء على بدعهم .

وكان يدخل فى اختصاصه طبعا النظر فى أمور الدين ، إلا أن سياسته كانت لاتخلو من التردّد ، رهبة وتهيبا من رسوخ شوكة محمد على ونماء قوته ونفوذ سلطانه على وجه يدعو الى الحذر . فكانت تلك السياسة فى ذلك الوقت تقضى بأن تزجّ ، فى حرب محفوفة بالصعوبات والأوعار مع أولئك الثوار والخوارج المبتدعين ، واليا تخشى نزعاته الاستقلالية ليكون لها من ذلك مساغ الى ايهان قوته واستنزاف امواله واخضاعه بذلك لسلطانها وجبروتها .

تولى محمد على بنفسه الأشراف على تعبئة الجيش لمحاربة الوهابيين ، وقد رأى أن هذه المحاربة تستدعى بناء دونتمة لنقل الجنود والذخيرة والمؤن فى البحر الأحمر . وكانت الوسائل متوافرة عنده لبنائها ، دع أنه كان من قوة الأرادة وشدة العارضة بحيث يستطيع التغلب على ما يعترضه من العقبات ، فلقد جلب فى زمن قصير من موانىء بلاد الترك الاخشاب والحبال والحديد وكل مايلزم لتشييد السفائن . وما أتم تفصيل أجزائها حتى أمر

بنقلها الى السويس على متون الجمال . وكان نقل القطعة الواحدة منها كثيرا مايستدعى تسخير جملين وأحيانا اربعة جمال تسير على صف واحد ، فليس بمستنكر بعد هذا أن ينفق الكثير منها تحت عبئها الثقيل . وكان من جانبه يتوقع هذا العارض ولم يغب عن ذهنه،فعمل على درء مغبته اذ استعاض من الجمال عربان البادية فاستخدم عشرة آلاف منهم لنقلها،وتمكن بذلك من تركيب ثمانى عشرة سفينة فى مدة شهرين يختلف محمول كل منها من مائة طن الى مائتين وخمسين طنا ، واستعمل فى انجاز هذا العمل ألف عامل كان منهم فريق من الاروام والفرنجة . ثم أقام بالقصير مستودعات للحبوب وغيرها بالسويس للبقسماط وبقية اصناف الغذاء . وقام بنفسه على تصدير هذه المهمات حتى اذا تمّ تصديرها عاد من السويس الى القاهرة فى ثمانى عشرة ساعة بينما القوافل الحثيثة السير كانت لاتجوب هذه المسافة فى أقل من ثلاثة أيام . ولقد قصرت همة المرافقين له عن ادراك شأوه الا واحدا منهم ماتت هجينه من تحته فأردفه الباشا حتى وصل به الى سرايه .

وكان قد عين يوم ٥ صفر الموافق اول مارس لتولية طوسن باشا قيادة الحملة ، فأجل هذا الموعد الى ٨ ربيع الأول الموافق ٢ افريل ، وانقضى هذا اليوم كله فى اطلاق المدافع (الشنك) وعزف الموسيقى . وكان طوسن باشا فى موكب التقليد متحليا بخلعة القيادة تسبقه الدواب المطهمة يمسك بأعنتها التتر ويرافقه

كخياه ويتبعه حرسه . وكان محمد على وحسن باشا يقيمان بأحد المساجد لشهود مظاهر الموكب الفخم . وفى الاسبوع التالى قصد الوالى الى الاسكندرية حيث باع للانجليز أربعين ألف أردب قمحا ، وفى طريقه اليها قبض على أحد مشائخ العربان من قبيلة أولاد على وفرض عليها فرضة كبيرة من المال . وعلى أثر عودته الى القاهرة فى ٢٥ مايو فرض على المياسير من اهلها أن يقدموا اليه إما بغلا وإما خمسمائة قرش وجند من ارباب الحرف والصناعات جيشا برسم الحملة .

وفى ٢٤ شعبان الموافق ٣ سبتمبر نزل فى السفن تحت اشراف الباشا ٦٠٠٠ عسكرى اغلبهم من الارنؤود ومعهم ذخائر الحرب ، فأقلعت قاصدة الى ثغر ينبع . أما فرسان الترك والعربان وكان عددهم ألفين ، فقد تحركوا براً فى ١٩ شوال الموافق ٦ نوفمبر وكان طوسن باشا فى الجيش البرى تتبعه قافلة عظيمة تحمل الماء والمؤن والخيام والأمتعة . وكان آنئذ لا تتجاوز سنه السادسة عشرة ، غير أنه جاءمع فتاء السن فى حروب المماليك بالدليل المقنع على قوته وشدة بأسه . وقد ضم اليه احمد أغا الخازندار الذى كان يلقب بيونابرته لبسالته وصدق نظره . وكان السيد محمد المحروقى اكبر تجار القاهرة واوسعهم ثروة فنيط به جانب من اعمال الحملة ومنها الاتفاق مع العربان النازلين على شواطىء البحر . ورافقه شيوخ من المذاهب الاربعة لوعظ الناس وحضهم على الدفاع

عن حومة الحرمين الشريفين والذود عن السلطان والوالى .

أما الوهابيون فقد جمع سعود زعيمهم ، وكان جنديا باسلا هماما وسياسيا حازما محنكا ، خمسة عشر ألف مقاتل عهد قيادتهم الى ابنه عبد الله وعثمان المضايفى وناط بالشريف غالب الدفاع عن جدة وينبع . وكان بين هذا الشريف ووالى مصر اتفاقات سرية أراد الأول بها الاثئار من الوهابيين لقهرهم اياه وغلبتهم على أمره واهانتهم له ، فكان أول همه عند ما وصل الاسطول المصرى الجلاء بجنوده عن ينبع . وكانت حاميتها من الوهابيين لاتزيد على ثلاثمائة رجل فقتل بعضهم وأسر الآخرون وتمّ بذلك للحملة المصرية الاستيلاء عليها . ثم وصل طوسن باشا بخيله فأجهز على بقية الوهابيين وتم هذا الاستيلاء وعززه ، لأنه كان يكفل للحملة ملجأ أمينا للسفن ومستودعا حريزا للمؤن والذخائر ويبشر بالنجاح المأمول . وقد سقطت بيد الأمير بعد ذلك قريتان فشجعه هذا الفوز على الزحف فى يناير ١٨١٢ صوب المدينة . ولقد واصل الزحف فى مدى عشرة فراسخ فوصل الى بدر التي كانت تظللها اشجار النخل والليمون والموز وفيها التقى المرة الأولى بالوهابيين فاضطرهم فى معركة لبثت ساعتين الى التقهقر تاركين من ورائهم ٦٠ قتيلا . وكانوا فى صيحاتهم يصفون المصريين بالكفار ويرمونهم بالزندقة والشرك .

ولم يلبث طوسن أن اغتنم هذه الفرصة للزحف فورا

صوب الصفراء التى كان العدو قد لجأ اليها وامتنع فيها. وكان يشق الصخور الصلدة المتشعبة دونها مضيق لايزيد عرضه على ٤٠ متراً ويبلغ امتداده مسيرة ساعة ونصف. وكانت قوة الوهابيين تتألف من عشرين الف مقاتل بقيادة عبد الله وفيصل ابنى سعود فسدوا حلق المضيق باهداف ودكاكين كبيرة من الحجر. فلما شهد طوسن هذا العارض ازداد تحمسا واشتد شوقه للهجوم فنادى فى جيشه بالحملة على العدو فهجموا عليه هجمة صادقة صدوه بها الى منتصف الحلق، غير ان شرذمة كثيفة من الوهابيين كانت قد وصلت من نجد فانتشرت فى أعالى الروابى الصخرية الحافة بجانبى المضيق والزمت المصريين التقهقر، وقد نالهم الشىء الكثير من الأذى. وكثيرا ماحض الأمير مؤخرتهم على الثبات والاقدام وخاض بنفسه صفوف الوهابيين لايصحبه من رجاله سوى فارسين ليقتدوا به فى بسالته واقدامه، بل كثيرا ما كان يسألهم ودموعه منهملة من عينيه: « أما منكم من يقتدى بقائده؟ » فكان لايجاوبه أحد على ندائه الحماسى. وخيل له آنئذ ان نوعا من الخبل انتاب عقولهم جميعا فتركوا وراءهم الجمال والمهمات والمدافع وكل ما كان معهم، وفدحت النكبة الى حد لم يتيسر معه لقواد الجيش، ان يجمعوا من فلوله المشتتة فى بضعة اسابيع اكثر من ثلاثة آلاف جندى، مع انه كان مؤلفا من ثمانية آلاف. ذلك لأن قتلاه قد بلغ عددهم ستمائة، وضل

الباقون الطريق فى ظلام الليل فماتوا جميعا تعبا وعطشا وجوعا وتقتيلا بسيوف الوهابيين الذين انتشروا لمطاردتهم . ولا مراء فى انه لو كان الوهابيون تركوا مواقعهم لاقتفاء أثر تلك الفلول ومطاردتها لما أبقوا منها من ينعى الى محمد على هذا المصاب الأليم. وكثيرا ما كان هذا الوالى يحنق على عساكره الذين يتبرمون بالحرب ويتنصلون منها أو ينكصون على الاعقاب فيها فينفيهم الى الصعيد أو يمحو أسماءهم من سجلات الجيش والمرتبات او يقصى كبار القواد خارج الديار ، لما يكونون ارتكبوه من تقصير فى أداء الواجب عليهم . وقد كان فى مقدمة هؤلاء قائد من اكبر قواده ومساعد من اخلص مساعديه ألا وهو صالح قوج

واعتقد الوهابيون على أثر هذه الهزيمة أن المصريين لن تقوم لهم قومة بعد ذلك فثابوا الى بيوتهم بعد ان تركوا حامية من رجالهم فى قلعة المدينة . أما ذلك المضيق فقد اقاموا عليه جماعة من أهل الجهة وظنوا أنهم قد اتخذوا بذلك كل التدابير التى تقيهم شر الغوائل فى المستقبل . وعاد طوسن الى ينبع فاهتم بتحصينها واخضاع مشائخ القبائل الضاربة حولها بقوة السيف تارة وفعل المال أخرى ، وتلقى من والده على أثر ذلك الفرق الأولى من الحملة الجديدة . وفى اكتوبر سنة ١٨١٢ أنس فى نفسه الكفاية لأخذ المدينة . وكان الوهابيون غافلين مستنيمين بل نائمين فى ظل انتصارهم السابق . وكانت قبائل بنى صبح وبنى

سالم ، وهم أفخاذ من قبيلتى حرب وجديدة ، والعربان الذين فى الطريق التى اعتزم سلوكها قد أقسموا فى حضرة طوسن باشا ان يقيموا على متين الولاء له وان يظلوا أعداء لأعدائه فنقل طوسن معسكره الى بدر واجتاز بلا عناء مضيق الصفراء وواصل السير حتى بلغ الى أسوار المدينة . وكان يحميها جيش من الوهابيين يرابط على اسوارها الرفيعة وفى قلعتها الحصينة ، وكانت تحتوى من المؤن مايكفى لمقاومة الحصر طويلا . ولم يكن مع المصريين لفتح الثغرات فى الاسوار غير مدافع الميدان الخفيفة . وكانوا خوفا على الحرم النبوى الشريف من ان يصيبه تصدع أو ضرر لايجرؤون ، كلما شرعوا فى ضرب تلك الاسوار والقلاع ، على العمل بها عملا جديا . ومع هذا فكثيرا ماتمكن طوسن باشا من صد الوهابيين والنيل منهم بها كلما التمسوا مخرجا من المدينة الى ظاهرها . وقد لجأ مراراً الى بث الألغام لنسف الأسوار وأرسل الى السكان ينذرهم بوجوب ملازمتهم المساكن وحملهم الثياب العادية حتى لاينالهم الجند بأذى ، اذ يستطيعون بهذه الوسيلة التفرقة بينهم وبين الجنود المدافعين . وفى اليوم التالى ، بينما كان الوهابيون يؤدون فريضة صلاة الظهر اذا جزء من الاسوار قد انقض فانساب المحاصرون فى المدينة من خلال الثغرات التى نشأت عن انقضاضها ، وانتشروا فى جميع ارجائها فأنحوا على فريق من الحامية وفتكوا به بينما كان الفريق الآخر

يلجأ الى القلعة للاعتصام بها . واضطر هؤلاء فيما بعد الى التسليم لانقطاع المدد عنهم وتفشى المجاعة فيهم ، فأذن الظافرون لهم بأخذ اسلحتهم ومتاعهم معهم عند مبارحتهم المدينة ، وبالغوا فى اكرامهم ومجاملتهم حتى لقد أعطوهم من الجمال والدواب الكفاية لنقل المرضى والجرحى منهم . وعنى احمد بونابرته (اوبونابرته الخازندار كما يسميه الجبرتى) بجمع ألف رأس من قتلى المدينة وشاد بها برجا على الطريق الموصل الى ينبع . وكان أهل هذا الثغر قد ملوا الحصار ، وقد لبث قائما خمسة وسبعين يوما ، فتلقوا المصريين كما يتلقى المكروب منقذه من الكرب . واهتم طوسن باشا بالبلاد التى فتحها فصرف فى تدبير امورها كل عنايته وأعاد الامن الى ربوعها واختار لحكومتها واليا حازما نظم فيها الجند وأمر بالمثابرة على استطلاع العدو وأقام فصيلة من الجند فى الحناكية ، ثم سار الى البركة بجيش من المشاة وعرج على جدة فاستقبل فيها استقبال الظافر واحتفل الشريف بقدمه ثم جعل مقره فى مكة .

وكان محمد علي قد استكشف فى غضون هذه الحوادث مؤامرة للفتك به ، فحكم بالاعدام على مدبريها ، وهم طغمة من زعماء الارنؤود منهم احمد أغا لاظ وسليمان أغا لاظ وصالح قوج وبيان ذلك أنه كان فى السويس مكبا على تنظيم المدد للجيش المصرى فى بلاد العرب ، فوردت عليه رسالة تدعوه الى التعجيل

بالأوبة . وكان قد انتهى اليه خبر الاستيلاء على المدينة فى ٥ نوفبر ١٨١٢ ، فبعد العشرين منه وفد عليه قصاد يحملون مفاتيح قلعتها فبادر بارسالها الى الآستانة . وفى ٩ ديسمبر وصلت أنباء باحتلال جدة ومكة فأرسل الباشا الى الآستانة قاصدا يحمل هذه البشرى ، وأطلقت المدافع وأقيمت الحفلات والأعياد فى أنحاء مصر وتركيا فرحا بخلاص الحرمين الشريفين من أيدى الخوارج .

وتلا وصول الشريف غالب الى مكة قيام سكانها بطرد الوهابيين منها فلما زحف عليها طوسن باشا وجد أبوابها مفتوحة وبدا من جانب المضايفى ، وهو صهر الشريف غالب ، فتور فى معاونة المصريين لم يلبث ان تحول الى عداء استعان فيه بالفرسان الخفيفة على إبادة المتخلفين ومضايقة حامية الطائف . وكان ذلك فى صيف ١٨١٢ فلما كان شهر يناير سنة ١٨١٣ عول طوسن باشا على ملاحقته واستصحب مصطفى بك الذى وصل من مصر فى فرقة من الدلاة وطلب الشريف غالب الاشتراك فى هذه الحملة والمعاونة عليها ، لما كان بينه وبين المضايفى صهره من عداوة نشأت عن محاولة قام بها لخلعه من الامارة والحلول محله . فلما دنا طوسن باشا من الطائف فرّ المضايفى منها تاركا كل مافيها من ذخيرة ومؤن واعتصم بمكان على مسيرة أربع ساعات أو خمس فى صحراء أنشأ بها لنفسه قلعة في احدى بقاعها الجبلية ، فحصرت هذا الموقع

فرقة كبيرة من الجند وأطلقت عليه النار ، فخرج المضايفي ليلا في ثلاثين متنكرين من رجاله واخترق بهم صفوف اعدائه فأصابت فرسه رصاصة صرعتها ، فركض يصحبه شاب من العربان ، إلا أنه لم يلبث ان قبض عليه في الصباح على مقربة من عتيبة وجيء به الى الشريف غالب ونال من أحضره المكافأة الموعودة وهي ٥٠٠٠ قرش واف . وأرسل المضايفي الى القاهرة أسيرا فاستقبله كيخيا الوالي استقبالا حسنا ثم أشخصه الى الآستانة حيث رميت عنقه على أثر وصوله بأيام . وكان عثمان المضايفي أكبر نصير للوهابيين وكان شديد الحرص مفرطا في الصرامة والعنف ولولاه لما استطاعوا فتح الحرمين الشريفين.

ولما تم هذا الفوز لمحمد على أنفذ الى الآستانة اسماعيل ثالث ابنائه ليحمل الى الباب العالي بشرى الاستيلاء على الطائف ، سوق مكة ومستورد حاجاتها، فأنعم السلطان عليه برتبة الباشوية ذات الذيلين وأصحبه في عودته بقهوجيه يحمل الى محمد علي هدية فاخرة سيفا وخنجرا وثلاث ريشات مرصعة بالالماس وكرك سمور وجملة شيلان كشميرية، والى الشريف غالب هدية ثمينة . والى طوسن باشا كرك سمور وريشة الماس . وقد كان محمد علي أندى كفا واكثر بذلا اذ أهدى الى السلطان ٧٠٠٠٠ محبوب ذهبا (٤٩٠٠٠ فرنك) و ٥٠٠ فرد بن (١٧٥٠ قنطارا) و ٣٠٠ قنطار سكر مكرر و ١٠٠ قنطار سكر من مكرر المكرر أي المكرر اربع

مرات و١٠٠ آنية صينية مملوءة باصناف المربى النادرة و ١٠٠ من كرائم الخيل خمسون منها مسرجة . وكانت السروج محلاة باللؤلؤ والمرجان ، وبالات كثيرة من أنخر الاقمشة الهندية وكمية وافرة من الاعطار الزكية .

وبينما كان المليكان يتبادلان الهدايا والتحف النفيسة اذا بسعود الوهابي يعهد الى فيصل مهاجمة الحملة المصرية ، فأقام هذا مشاته فى المواقع الحصينة وفرسانه فى حلوق الجبال بحيث تسهل عليه مفاجأة العدو والفتك بفصائله متي اراد . وكان تدبير هذه الخطة الحربية محكما ، فحاول طوسن باشا افسادها على مدبريها بان يحشد جنوده ويؤهبهم للقتال جميعا فانشق عليه العربان الموالون ليقطعوا المواصلات بين الطائف وترابه على مسافة ٨٠ ميلا منها. وفى اوائل نوفمبر ١٨١٢ أنفذ مصطفى بك فى قوة مصرية الى هذا الموقع الذى يكفل الاتصال بين الوهابيين فى نجد وبين اخوانهم فى اليمن وكانت تحميه الاسوار المنيعة والخنادق وتستره عن الانظار غابة كثيفة من النخل تمتد على مسافة ثمانية كيلو مترات وكان مقر القيادة العامة لجيش سعود فى ذلك الموقع .فلم تلق عناء فى صد القوة المصرية التي كان قد انهكها التعب والسير الحثيث . وكان المهاجمون تحت قيادة أرملة شيخ من قبيلة صبيح اسمها غالية امتد لها صيت بالبسالة والبطولة فى ميادين القتال .

فقرر مصطفى بك استئناف الهجوم فى اليوم التالى ، فنبهه

ضباطه الى ماوراء هذه الخطة من الخطر لقلة المؤن والذخائر على اثر نفاد معظمها فيما نشب من المعارك العنيفة فى اثناء الزحف ضد قبيلة عتيبة ومطاردتها فى الجبال ، دع ان العساكر أبوا منازلة امرأة رسخ فى اعتقادهم انها من السحرة وانها تؤيد الوهابيين بسحرها المبين . وحقيقة الأمر أن هذه العجوز كانت تبث الحماس فى نفوس القبائل بما كانت تغدقه عليهم من مالها وتؤثره فيهم بصدق نظرها وبسالتها ، وكفى بالمال سلاحا ماضيا ورأيا نافذا . وعند مارأى الوهابيون ان المصريين آثروا النكول عن القتال وأنهم أخذوا فى التراجع عن موقعهم ، ألحوا في مطاردتهم والتضييق عليهم وغنموا أمتعتهم وخيامهم ومدافعهم فآل الأمر الى ان سمائة رجل من الالفين قتلوا فى أثنا الانسحاب ، رغم الجهود التى بذلها الفرسان فى تلك الاصقاع الجبلية لصد المهاجمين عن المصريين. ولم ينثن الوهابيون من ملاحقة هذا الجيش إلا على مسيرة نهار من الطائف . وادرك مصطفى بك طوسن باشا فى مكة وهو فى أسوأ حال ، ولم يكن حظ الجيش المصرى فى الجانب الآخر من الحجاز أسعد منه فى هذا الجانب فإن حامية الحناكية سلمت بنفسها الى سعود الذى بادر بالزحف على المدينة فى جيش مؤلف من ٢٠٠٠ مقاتل . وقد استفز الجند حب الاقتداء بهذا الزعيم بل تحريضه اياهم على أخذ المراكز الضعيفة والتعرض للسابلة الذين يقصدون الى مكة وجدة .

ونشأ عن شدة القيظ فى الحجاز ورداءة الماء وقلة الغذاء وشدة التعب والعناء ان خسر المصريون فى هذه الحوادث ۸۰۰۰ جندى و ۲۵۰۰۰ دابة و ۵۰۰۰۰ كيس من المال . وكان طوسن باشا قد أقام فى النقط المعرضة لمداهمة الاعداء فصائل من الجند لمعاقبة العربان ، كلما بدت من ناحيتهم نزعة الى الشر او الخيانة او اقتحموا هذه النقط . غير ان هذه الانتصارات الحقيرة لم تكن الا كالدواء الملطف يسكن الألم زمنا لكنه لايستأصل داء.

ولقد نظر الوالى فى هذه الحوادث نظرة بصير ، فأدرك اول وهلة ان دفع الاخطار المقبلة يستدعى الاستعانة بوسائل للقتال أنكأ من سابقتها فأرسل فوراً من القاهرة الى السويس على يد القوافل ۵۰۰ جندى ومالا كثيرا وثيابا وذخائر ثم الى جدة فى السفن . وكان طوسن مقيما فى هذا الثغر فصدر له الأمر بان يحشد فى المدينة كل قواته العسكرية . واذ كان يعلم بما لمغبة هذه الحرب من التأثير فى موقف الباب العالى حياله ، رضاء وغضبا ، وكان شديد الرغبة فى تأبيد نفوذه الذى طالما تنازعته الشهوات وحامت حوله المطامع ، بمجد يكسبه بحد السنان ، أراد أن يجمع الى حسن سمعته كقائد همام احتفاظه بمحبة الناس واحترامهم ووقاية مصر من عبث الجنود بأبعاد الدلاة والارنؤود ، فعقد النية على التوجه بنفسه الى موطن القتال وحضور الوقائع التى ستنشب بينه وبين أولئك الاعداء البواسل .

سلم محمد علي زمام الحكم فى الوجه القبلى الى ابنه ابراهيم باشا وفى البحرى الى حسين بك ، ثم أبحر من السويس فى ستين من رجال حاشيته وألفين من مشاته ، بينما كان ألفا فارس يتبعهم ثمانية آلاف جمل محملة بالاثقال يزحفون بطريق البر . فلما وصل الى جدة فى ٣٠ شعبان ١٢٢٨ الموافق ٢٨ أغسطس ١٨١٢ حياه فى السفينة الشريف غالب وطوسن باشا ودخل المدينة على دويّ المدافع ونزل قصرا كان ابنه ابتناه بسيف البحر . وفى ٦ اكتوبر قصد الى مكة وزار الحرم واستقبل ، فى قصر أعده له الشريف ، وفود الأعيان فألبسهم الخلع من السمور . وحافظ محمد على فى مدة إقامته على أداء الشعائر وألزم عساكره بقضاء الفروض فى أوقاتها . وكان يصلى الاوقات فى مواعيدها بالحرم المكى ويجود بالاموال الوفيرة لترميمه وزخرفته ودفع أجور القائمين على خدمته. وكان يسهر حتى السحر ، باحثا فى آي القرآن مستوضحا غوامض معانيها ، فى مجلس العلماء الذين أغدق عليهم النعم وأجزل لهم العطاء وأتحفهم بالهدايا الثمينة . وكان فيما عدا ذلك يبدى الشغف الشديد بمعاشرة العلماء والصالحين .

وكان الشريف غالب يقابله مرتين فى الأسبوع زائرا ومتفقدا . وحدث أن قلل من زيارته على التدريج مستصحبا فى كل زيارة بضع مئات من رجاله ثم قطعها بتاتا فلم يعد يقصد اليه . اما سبب هذا الجفاء فهو ان خلافا ثار بينهما ثائره على جمارك

جدّة . ولم يكن هذا السبب فى الواقع مما يؤبه له فان الباشا كان قد ناط بالشريف غالب توزيع مبلغ كبير من المال على مشائخ العرب المجاورين تشجيعا لهم على تقديم الجمال وسأله ان يتوسل الى ذلك بجاهه ونفوذه ، غير أنه لم يعر هذا الطلب أذنا واعية ولم يعن به العناية المرموقة منه ، لا لأنه كان يربأ بنفسه ان يوهن مايجمعه بالعرب من قديم الزمان من وثيق الروابط ، بل لأنه كان يحاول ان يخون ذاك الذى دأب على البروز له فى حلة الاخلاص والولاء ولم يكف عن مناصرته . وقد نمى الى محمد علي خبر الخطة المدبرة ضده ، ففكر فى وسائل اتقائها ودفع شرها عنه وعن أعوانه فذهب الى الشريف غالب مرتين يعاتبه متلطفا ومترفقا على طرحه الوفاء بعهده . ولم يصحبه أكثر من عشرين ضابطا آملا بذلك ان يحمل الشريف اذا مارد اليه الزيارة على ألا تحف به حاشية كبيرة كما اعتاد ان يفعل . ولم يكن الشريف غالب قد اغفل الاحتياط لوقاية نفسه لما داخله من الشك والخوف، فكان يغلق على نفسه داره ولا يخرج منها إلا في أيام الجمعة لأداء الصلاة فى الحرم حيث لايستطيع أحد ان يمسه بسوء. وكان يسكن بسفح الجبل قصرا وثيق الأركان رفيع البنيان يتصل بقلعة حصينة تشرف على المدينة وبينه وبينها نفق يمتد منه اليها وفى القلعة من الصهاريج المملوءة بالماء والمؤن الوفيرة والذخائر الكثيرة والمدافع (وعددها ثمانية) والحامية (وعدد رجالها ٨٠٠)

مايكفي للدفاع عند الحاجة . وكان الأجنادمن أهل اليمن والعبيد المسلحين ، دع أن زملاء الشريف فى مكة وخدمه وأصدقاءه من البدو وجنوده فى الطائف وجدة كانوا على تمام الأهبة لتأييده وشد أزره اذا ضرب الحصار عليـه . وكان يمكنه الاستمداد بعون ألف وخمسمائة رجل فى مكة وحدها . فلما شهد محمد على ماصار اليـه موقفه لجأ الى ذكائه الفطرى وحضور ذهنه فى استنباط حيلة للخلاص من هذا المأزق ، فاقنع غالبا بان يدعو طوسن الى الحضور لأداء فريضة الحج قبل وصول القوافل تفاديا من زحام الناس ، وقدكان وبرح طوسن جدة . فلما كان مساء ٦ الحجة الموافق أول دسمبر دخل مكة فكاشفه أبوه فى ليلة وصوله بما بيته للشريف من النيات ثم أمر فخصر في الحال مئة عسكرى أقامهم فى الحجرات المطلة على صحن دار طوسن . وكان من الأدب المتبع وقتئذ مايقضى على الشريف بمبارحة داره للقاء الزائر الكريم ، اذ لو خالف هذه السنة فلزم داره لكانت المخالفة بمثابة مصارحة بالعداء . وعلى هذا برح الشريف داره فى اليوم التالى في نفر قليل من حاشيته ليقدم تهانئه إلى طوسن باشا . وقد تعمد الحضور في البكور حتى لايتسع الوقت لتدبير المكايد ونصب الشباك له . وما أن تعاطى القهوة حتى أشار طوسن الى الحاضرين ان ينصرفوا . فنزل حراس غالب الى صحن الدار ولبث يتفاوض مع زائره مفاوضة استغرقت نحو عشر دقائق صدر

الامر بعدها بتقديم شراب مرطب اليهما وكان هذا الامر رمزا متفقا عليه للقيام بعمل معين . وهمّ الشريف بالانصراف بعد ان تعاطي الشراب فبرزله عابدين بك أحد كبار الارنؤود من حجرة قريبة واعترضه ودعاه الى تسليم جنبيته قائلا له بانه وقع فى أسره، فلم يبد غالب مقاومة ما واعتذر طوسن بأن ما أتاه معه إنما كان بأمر شاهانى وان ليس هنـاك ما يخشاه على حياته لأن والده سيتوسط له لدى الباب العالى وأكد أنه لن يصيبه مكروه . فلما سمع الشريف هذا القول تقدم نحو النافذة وأمر رجاله الذين بصحن الدار ان ينصرفوا الى بيوتهم، قائلا لهم إنه فى أمان وانه لايخشى عليه سوء . وذهب أحد أتباعه ليبلغ الحادث الى ابنائه وعبيده الذين كانوا معتصمين بالقلعة للدفاع عنها عنـد الحاجة. وذهب ابراهيم افندى مهر دار الباشا الى الشريف غالب ليطلعه من قبل الوالى على الخط الهمايونى القاضى باعتقاله وارساله الى الاستانة ، فقال الشريف له : إن الله هو الحكم العدل وأن من قضى حياته كلها مثله فى تأييد عرش السلطان والاخلاص له لايخشى الوقوف أمام هذا العرش . وبناء على ماوعد به من حسن المعاملة كتب الى ابنائه يحضهم على الاخلاد الى السكون والطاعة للباشا ولقد خرجوا يوما لزيارته فبيناهم فى بعض الطريق إذا بعابدين بك ينقضّ عليهم ويمسك بتلابيبهم ويسوقهم جميعا الى السجن . وفى اليوم التالى استولى العسكر على قلعة غالب فلاذ

بعض حاميتها بالقبائل المجاورة وانضم الآخرون الى الوهابيين.
وبث الوالى العيون والحراس في جميع المنافذ ليمنعوا النساء من الفرار خشية ان ينقلن شيئا ما معهن الى ظاهر المدينة وعهد الى القاضى وبعض الضباط والكتبة حصر املاك الشريف ومقتنياته من المتاع والجواهر، فباشروا هذا العمل إلا أنهم لم يهتدوا الى الخزائن التي تواتر على الألسنة أنه يكنز فيها ما جمعه من مال كثير فى مدة حكمه أى في مدة ثمانية وعشرين عاما ببخله وتدنيقه وجشعه وابتزازه اموال الناس بغير الحق وفرضه الضرائب الفادحة عليهم وجبايته للغرامات الباهظة عن المخالفات الصغيرة والهفوات التى لا تقابل عادة الا بالتسامح. والراجح أن احدى سفنه الكثيرة التى تسير باسمه فى الخليج الفارسى نقلت أوفى شطر من هذا المال الى الهند الشرقية أو بومباى التي كان له بها منذ عهد بعيد تجارة ومعاملات. أما ماضبط عنده واحصى قدره فقد بلغ ٩١٠٠٠ محبوب بندقى و ٢١٠٠٠ ريال وكمية وافرة من الجواهر والبن والاقمشة ومختلف العروض، فحملت هذه الموجودات على الدواب بحراسة فرقة من الدلاة وقيادة مصطفى بك وأخذت هذه القافلة الكبيرة سمتها الى القاهرة. وكان المقصود من ارجاع مصطفى بك الى مصر ازال العقاب به على اندحاره أمام المرأة غالية ولأنه عندما أمر باخلاء دار الشريف غالب من ساكنيها، وهم أهله وقرابته وخدمه، عاملهم بالشدة

والغلظة . وكان فيمن اخرجهن من النساء مائتاجارية حبشية . أما زوجته فقد عادت الى دار والدها السيد محمد نقيب الاشراف ، وارسل محمد على الى اهله من يعزيهم على ما نزل بهم من الخطب الفادح ويبلغهم أنه سيرتب لهم المرتبات السنوية الكفيلة بمعاشهم ثم اختار خلفا للشريف غالب أخاه يحي بن سرور . وكان يحي رفيع المنزلة جمّ الاعتبار ، ولم يخصه محمد علي بهذا المنصب الا لأنه كان منذ عهد طويل يناصب عمه العداء . وقد رتب له معاشا شهريا عشرين كيسا .

ولم يلبث الشريف غالب أن ارسل مخفورا الى جدة . وما أبيح له ان ينقل معه شيئا من متاعه فلم يحمل سوى ما كان عليه من الثياب عند ما ألقى القبض عليه . والظاهر ان الموكلين بحراسته أرادوا تخفيف أعبائها عنه فسلبوا نطاقه ورقعة شطرنج جاء بها لتزجية الوقت فى اللعب مع أحد خصيانه . وكان يرافقه اثنى عشر من هؤلاء الرجال ، اذا صح ان نسميهم كذلك . وأنشأ الشريف غالب فى أثناء الطريق يروى على كنج أغا كبير الدلاة ان ابنته سألته ملحة فى ليلة القبض عليه ألا يبرح داره ، بانية هذا السؤال على رؤيا تنبىء بالشر . وابث الشريف ورفاقه بجدة أياما سافر بعدها بحرا الى القصير وبرّا الى القاهرة فوصل اليها يوم ٤ دسمبر ١٨١٣ ، وكان نساؤه قد سبقنه اليها عن طريق السويس ، فحيته المدافع بطلقاتها واستقبله كيخيا بك الوالى والسيد

محمد المحروق بمظاهر التبجيل والتكريم . ودعاهما الشريف يوما الى تناول الطعام على مائدته فقال لهما فى حديث : « كنت على اعتقاد راسخ ان محمدا عليا سيدبر لى مكيدة ، الا انه لم يخطر قط ببالى أنه سيعجل بها » . وعامل الوالى الشريف بادىء ذى بدء بشىء من الشدة والعنف ثم تغلبت عليه فطرة الكرم والمعروف فأمر كيخياه بأرخاء العنان له وبذا تمكن أحد ابنائه من الفرار متنكرا ، لكنه لم يلبث ان جىء به من حلوان الى السيد محمد المحروق ، وكان قد بلغ اليها فى فراره ، فعين كيخيا بك الارصاد والرقباء عليه وعلى أبيه وأخيه . وقيل عن عبد الله بن سرور من ابناء عمومة الشريف غالب ، وكان سجينا بمكة ثم جىء به الى القاهرة ، أنه حاول الفرار على أثر وصوله اليها .

على أن محمدا عليا لم يعامل الشريف وابناءه على الوجه الآنف إلا فى دائرة الحقوق المخولة له بمقتضى الفرمان السلطانى الذى ترك له الخيار فى أمر إقراره فى إمارة مكة أو ابعاده عنها . ولقد ألقى نظرة الى صحفه السابقة فى خدمة الاسلام والمسلمين ، فالتمس له العفو من السلطان فورد عليه وهو فى الحجاز على يد أحد القابجية أمر برد أملاكه اليه . ولم يكتف محمد على باشا بهذه الرعاية ، اذ وافاه بخمسمائة كيس من خالص ماله واختار له الاقامة بسلانيك ، فسافر الشريف غالب اليها مع أحد ولديه لوفاة الآخر في معتقله بالاسكندرية . ولم يعش الشريف غالب

وأعضاء اسرته بالبلاد الاجنبية اكثر من اربع سنوات لاختلاف المناخ والحنين الى الوطن وشدة الأسى على ما فقدوا من جاه وكرامة . وهذه كلها عوامل لايستهان بها وقد كان لها اثرها فى تدهور صحتهم وفى موت الشريف مصابا بالطاعون الذى تحيف البلاد فى سنة ١٨١٦

وكان لعارف افندى من كتبة السر فى الديوان مملوك اسمه لطيف ، فأهداه الى محمد على باشا الذى شمله بعطفه وأفاض عليه نعمته ومنحه ثقته اذ أقامه على ماله وسلمه مفاتيح خزائنه ثم اختاره لمرافقة ابراهيم باشا فى سفره الى الآستانة لتقديم مفاتيح مكة والمدينة الى السلطان . وقد تفضل السلطان فأنعم عليه بالباشوية ذات الذنبين فانتفخت أوداجه كبرياء وصلفا وانفتحت فى وجهه أبواب المطامع والآمال . وما عاد الى مصر حتى أذاع على الملأ أنباء بوفاة محمد على واجتذب الى حيزه فريقا من الجند بما كان يبذله من العطاء . وجعل داره ملتقى الندماء يتذاكرون علنا فى شؤون السياسة ، فحامت حوله الشبهات وتطابقت الشهادات على انه طامح الى السيادة والحكم فى البلاد . واشتهر ان شيخا كان قد عمل له استخارة ذكر له فيها انه سيرقى الى أعلى المناصب ، فلما وقف كيخيا بك الوالى على جلية الأمر أمر بذلك الشيخ فألقى فى النيل وسيق لطيف الى الجلاد فرمى عنقه .

لم يكن هذا الحادث وأشباهه كل ما اهتم به محمد على فى

أثناء وجوده بمكة فلقد بذل جهدا جهيدا فى مصالحة أهل الحجاز واستمالتهم اليه بتوزيع النقود والغلال وتخفيض الرسوم الجمركية التى فرضها غالب على وارداتهم ، وألغى الضرائب والمكوس التي أبهظ هذا الشريف بها ظهور الاهلين وعاقب بالشدة والصرامة كل معتدٍ عليهم ونظر بعين الانصاف فيما يقدم اليه من الشكاوى . وبالجملة فقد أخذ بناصر العرب وشد أزرهم فقات بالتدريج أسباب الشكوى والتذمر وامتدّ رواق العدل ، ولم يقتصر على ما تقدم من جلائل الاعمال بل وقف عنايته على جعل ثغر جدة اكبر مستودع لذخائر الجيش ومؤنه ورتب الوسائل الكفيلة بنقلها الى الداخل فى أحسن حال واستأجر من إمام مسقط عشرين سفينة لمدة سنة ورتب للعربان الموكول اليهم حفظ الأمن فى الطريق الرواتب الشهرية وأقام الحاميات العسكرية فى الجهات المعرضة اكثر من غيرها لخطر المداهمة ثم سير ابنه طوسن فى ٥٠٠٠ راجل و ١٠٠٠ فارس وستة مدافع الى ترابه التي تحولت بذلك الى قاعدة لأجراءات العدو منذ اليوم الذى تراءى لسعود الوهابى فيه ان يعدل عن الزحف على المدينة.
وقام الوالى من مكة الى العميلة ليجعل فيها فرقة احتياطية من الفرسان فقصد طوسن الى الطائف وأنشأ المخازن فيها والمستودعات للجيش ، ثم الى كلاخ فترابه فبلغ اليها بعد عناء شديد ومشاق سببها له عنت شيخ العربان ودليلهم المعروف

بالشريف راجح ، فان هذا الرجل لم يلبث ان انشق على المصريين وقاتلهم فى سهل (بسل) فى حشد حشيد من الوهابيين . وكانت المؤن عند وصوله الى ترابه قد نفدت عن آخرها فاضطر الى تغذية عساكره بنخاع النخل ثم عقد مجلسا من رؤساء جنده تقرر فيه الاحجام عن الهجوم والارتداد الى الطائف ، فرفع طوسن الحصار ليلا فطارده الوهابيون وغنموا منه مدفعين ، لكنه استردهما بعد أن قتل خمسين رجلا منهم . وأرسل من الطائف بعد ذلك الى والده تقريرا بالاسباب التى اضطرته الى التراجع . وكان محمد على يشعر بما هناك من حاجة الى تسكين الخواطر واستفزاز الهمم فخاطب قواد الجيش بما يأتى : « لقد تأكدت لى براءتكم من تبعة الانكسار الاخير وان المسئولين عنه انما هم العربان الذين سوف يحل بهم النكال . وليس عندى مايحملنى على الشك فى بسالتكم وحسن سلوككم الذى تستحقون من أجله وافر شكرى وجميل ثنائى . وقد أصبح لزاما عليكم أن لاتدعوا لليأس سبيلا الى أفئدتكم فان الحرب ادوار ودول فيوما لكم ويوما عليكم . ولقد ثبت عندى ان نفاد الذخائر والمؤن هو الذى جعلكم ترجعون الى الطائف أما الخائن فسيلقى جزاء ما قدمت يداه » .

وكان عربان اليمن يناوشون المراكز العسكرية المتفرقة ويلحقون الأذى بها فرأى محمد على لتأديبهم وزجرهم ان يرسم

خطة جديدة يحول الانظار بها من ناحية الى أخرى فعهد الى والى جدة قيادة ٢٠٠٠ راجل و١١٠٠ فارس وجهز اسطولا من السفن الخفيفة لحمل الذخائر ، فبعد مناوشات يسيرة وصلت الجنود الى قنفذة دون أن يهدر دم فاستولت عليها فى ١٤ مارس ١٨١٤ وكان طامى شيخ عرب العسير المعروفين فى جنوب مكة بشدة البأس والمشايعة للوهابيين يحتلها منذ خمس سنوات ، فلما بلغ نبأ هذا الفوز الى محمد على باشا كتب الى والى جدة بتحصين الموقع واقامة حامية فيه واستئناف الزحف ، إلا أن فرطة فرطت ذهبت هذه الاحتياطات معها ادراج الرياح . ذلك ان بلدة قنفذة كانت تنقصها مياه الشرب وكان أهلوها يجلبون ماءهم من مكان على مسيرة ثلاث ساعات منها ، فكان من الواجب ان تقام الاستحكامات حول الآبار التى يستقون منها الماء ، وان يؤمن الطريق بينها والبلدة بخط من الأبراج او البطريات . ولم تمر ضرورة هذا الاحتياط بخاطر والى جدة فاقتصر على تخصيص ١٥٠ ألبانيا لحراستها ، وقد استطاع هؤلاء منع قطعان الاغنام عن ورودها ، إلا أنهم عجزوا عن صد الاعداء عندما هجموا للاستيلاء عليها.

وقضى المصريون شهراً فى قنفذة معطلين لا يستطيعون القيام بحركة ما ، الى أن فجأهم فى اوائل مايو جيش من الوهابيين مؤلف من ٨٠٠٠ مقاتل بقيادة طامى فصمد حراس الآبار له حتى المساء ثم تراجعوا الى داخل الأسوار فلم يجدوا حاكمهم ، لأنه كان

قد آثر الفرار للنجاة بنفسه على البقاء فى هذا المأزق الحرج والتعرض فيه للأخطار المهلكة واستقل سفينة كان قد هيأها لهذا الغرض ، تاركا جيشه كالقطيع بلا راع . وكان الجنود من مشاة وفرسان ورؤساء ومرءوسين قد روّعهم فرار قائدهم فانقضوا على القطائر الراسية وتزاحموا على ركوبها التماس النجاة . ومن تعذر عليه النزول فيها لعدم درايته بالسباحة فتك الوهابيون به ، ومن لم يمت بصوارمهم البتارة مات غرقا أو بحد السيف أيضا لأن أولئك الاعداء ادركوه فى القطيرة أو على طوف من الخشب وما زالوا يفتكون بكل من كان هذا شأنه حتى أفنوهم عن آخرهم وصبغوا ماء البحر بدمائهم . وقد غنم الوهابيون فى هذه الحادثة ٤٠٠ حصان وعددا كبيرا من الجمال وقدرا وافرا من المدافع والامتعة . اما الذين نجوا فى السفن فقد مات اكثرهم جوعا وعطشا فى الطريق .

اما ذلك الحاكم ، فمما يروى عن حطة نفسه ولؤم طبعه أنه كان لايغسل يديه إلا بالماء العذب غزيرا ، بينما كان العطاش يتلهفون على قطرة منه ويلهثون كما تلهث الكلاب . وكان محمد على باشا لايترك مقترف هذه الفعلة بلا عقوبة ، ولذا كان مرجحا عندنا ان تكون كذبا مفترى على من أسندت اليه ، كما كان لا يمنع المكافأة عن مستحقها . ولقد كافأ اثنى عشر من الجنود صمدوا للهاجمين ليلة دفاعهم وأبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن البلد بأحسن

ما يكافأ به الابطال المخلصون .

ومما ضاعف المصاب وفتّ فى العضد ، أنه فضلا عن الامراض كالحمى المتقطعة والدوسنطاريا والايدروبيزيا (داء الاستسقاء) وغيرها من الأدواء التى يرجع سبب انتشارها الى فساد الماء والهواء ، أن أخذ العربان يعيثون فى الارض فسادا فقطعوا الطرقات على السابلة وداهموا القوافل فلم تقدر واحدة منهن على مواصلة السير الى جدة أو الاياب منها الا اذا قام على حفظها الاحراس الكثيرون ثم انتهى بالوهابيين الامر الى حصر الجنود المصرية بمكة وما يلى ضاحيتها الى مسافة بضعة فراسخ منها

وكانت حالة الجيش فى الحجاز تبعث على القنوط ولا تدع مجالا للأمل ، إلا أن محمدا عليا كان ماضى العزيمة قويّ الايمان لاتزلزل ركنه الحوادث ولا تذهب بصبره الكوارث ، فلقد ارسل الى كيخياه يتعجله فى توجيه ما طلبه قبلا من المدد وهو ٧٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠٠ كيس ، وناط بالشريف يحيي أداء مهمة فيما وراء الجبال وأرسل معه ما لا حصر لعدده من رؤوس الأغنام والجمال ، وفى الآن نفسه استدرج للاستظلال برايته قبائل أخرى وعامل الاسرى بالكرم والتسامح فأطلق سراحهم يروحون ويغدون كما يشاءون ، على ان يجتنبوا الوقوع فى مثل ما أوجب اعتقالهم . وحالف عربان هذيل وثقيف وبنى سعد وعتيبة ، وكلها من القبائل المطنبة بين مكة والطائف . ثم قصد الى الطائف

لا ليتمتع بمناخها الحسن وهوائها العليل بل لتوكيد الروابط معهم. وحضرت للقائه زمرة من مشائخهم فى نحو ٥٠٠ رجل ، فأهداهم ما لا مطمع بعده من الثياب والنقود وأجرى عليهم من الارزاق والمرتبات مايعدل ضعف مرتب الجندى المصري . وكان يصغي الى اعتراضاتهم ويكابد انتقالهم الفجائى من حديث الى حديث بأناءة وصبر جذبا اليه أفئدتهم . وجاءه رجل من عتيبة ذات يوم، فما ان دنا منه حتى تناول لحيته بيده مغتبطا وقال : « كنت هجرت مذهبي الأول وهو المذهب الصحيح مستمسكا بمذهب الوهابى الخارج المبتدع والآن اعتنق مذهب محمد على » ، فأجابه الباشا : « انى افضل ان تبقى مبتدعا ثابت اليقين فى ابتداعك على أن تعتنق مذهبا لم أضعه » . وكان الشريف راجح الذى ذكرنا خبر انضمامه الى الوهابيين قد عين على أثر ذلك شيخا لمشائخ الحجاز ، بيد انه لم يلبث ان انتقض عليهم وعاد الى موالاة الوالى الذى قلده قيادة العربان الموالين له رغبة منه فى الانتفاع بجاهه ونفوذه بين القبائل العربية . وورد فى الاثناء نبأ على مكان مكين من الخطورة ، إذ ترتب عليه تغيير محسوس فى طبيعة القتال وخططه ونتائجه ، ألا هو وفاة سعود فى الدرعية ، عاصمة ملكه ، بالغا الثامنة والستين ووافقت وفاته الثامن من جمادى الأولى سنة ١٢٢٩ الموافقة ١٨١٤ ، وكان معروفاً بالبسالة والهمة والكرم ، فخلفه على زعامة الوهابيين ابنه الاكبر عبد الله .

وكانت الجنود المصرية موزعة وقتئذ فى الحجاز كما يلى : ٤٠٠ جندى فى الطائف بقيادة محمد على باشا و ٣٥٠ بين المدينة وينبع بقيادة طوسن باشا و٢٠٠ ألبانى فى مكة بقيادة ابراهيم أغا مهردار الوالى و ١٥٠ بدويا بقيادة يحيى و ٤٠٠ فى المدينة بقيادة ديوان افندى و١٠٠ فى ينبع و٢٠٠ فى جدة و ١٠٠٠ فى كلاخ بقيادة حسن باشا . وكان قد وصل حديثا من مصر ٤٠٠من الدلاة و١٢٠٠ من الارنؤود بقيادة عابدين بك أخى حسن باشا . وكان وصول عابدين بك بطريق البحر ، فما عتم بعد وصوله ان اشترك مع اخيه فى حفظ النقط الامامية الواقعة على مسيرة أربعة ايام من جنوب الطائف على حفاف اراضى زهران التى يضرب فيها بخروج شيخ عربان غامد وألد عدو للمصريين . وبذا بلغ عدد جنود الجيش المصرى فى مراكز مختلفة من جزيرة العرب ٣٥٠٠ بينما كان لايوجد بالقطر المصري من الجند سوى ١٥٠٠٠ فقط . وكان الغرض الذى يرمى اليه بتبديد تلك القوة ونشرها فى الآفاق ايهام العدو بكثرة العساكر المصريين وقذف الخوف فى روعه وحمله على القنوط من الظفر به . والواقع ان الجيش كان مؤلفا من ٤٠٠٠ عسكرى يعززه ٤٠٠ من العربان وكان كافيا باعتبار ان الغرض الذى يرمى اليه هو محض الذود عن الحرمين واخضاع البلاد المجاورة لهما وغير كاف باعتبار أن يكون المراد منه قهر الوهابيين والتغلب عليهم . وكان مما أضر الاجراءات

والتدابير الحربية وأقام فى طريقها العقبات قلة الجمال للنقل، ذلك لأنه منذ البدء بمحاربة الوهابيين نفق من هذه الحيوانات ٣٠٠٠٠ رأس . ومع فداحة هذه الخسارة، أخذ الوالى على سبيل العارية من عربان حرب ٥٠٠ جمل لنقل الذخائر بين جدة والطائف، وكان المرتقب ان يصل اليه عدد عظيم منها مع القوافل الواردة من دمشق وسنار . وكان ابراهيم باشا قد حصل على عدد منها بوساطة قبائل صحراء ليبية لنقل أمير الحج المصرى الى الحجاز . وكانت حامية الطائف لامؤن لديها فكانت كلما وصلت القوافل بشىء من الحبوب وزعته على الجنود غير مدخرة منه شيئا . وكان الجندى فى النقط الامامية ككلاخ وزهران لاسبيل له الى طحن الحب الذى يخصه، فكان يتحيل على جرشه بدق مايكفيه يوميا منه بين حجرين وانضاجه بعد ذلك فى الرماد. وفى الوقت عينه أخذ عربان اليمن يواصلون الهجوم على المصريين، فسير محمد على اليهم جيشا بقيادة عابدين بك فاستولى على اقليم زهران بعد قتال يومين وطرد منه فريقا من السكان وأسر الباقين . وكان الوادى الفاصل بين اليمن والحجاز الاعلى جم الخيرات وافر الارزاق، من الفواكه والكروم وغابات اللوز وعيون الماء العذب النقى، فكانت هذه النعم فى الظروف التى هو فيها بمثابة الكنز الثمين، لكن ابت إرادة الزعيم الأرنؤودى إلا العيث والافساد والتدمير فى تلك المنطقة الخصبة التى كان

لايقل طولها عن أربعين ميلا ، اذ خيل له أن خير وسيلة لوقاية نفسه وجيشه بأزالة مايعترض الجيش فى زحفه . فكانت نتيجة سوء تدبيره وقصر نظره أن حفر بيده حفرة عميقة فى المكان الذى كان يعده بالاضافة الى حالته كأرض المعاد لبنى اسرائيل . وقد اضطر على أثر هذا التخريب ان يبث فرسانه فى كل مكان فى طلب المؤن والأغذية ، فكانت النتيجة أن دهمه العدو فى نقطته التى لم يعن باقامة استحكامات حولها ولا بوضع الحراس عليها ، اعتقادا منه أن فى يباب الأرض بعد التخريب خير معاض عن التحصين بل هو التحصين المنيع ذاته . وبيان ذلك ان بخروجا انقض بعربانه صباح احد الايام على المعسكر المصرى ، وحاول طامي أن يقطع بجيشه المؤلف من ٣٠٠٠ وهابي خط المواصلات بين مشاة عابدين بك والفرسان إلا ان هؤلاء اخترقوا صفوف العدو لادراك اخوانهم والانضمام اليهم وتمكن المشاة من صد الهجمات واستولوا على منصيرة فلم يفت هذا الفشل فى عضد الوهابيين ولم يثنهم عن عزيمتهم ، فعادوا فى حشد اكبر من الأول فحاول عابدين بك التماس طريق بين الهاجمين للخلاص من حصرهم ، غير ان بخروجا قام بحركات حربية أراد بها غير مايضمره فاستدرجه بذلك الى الحزن حيث نصب الكمائن والشراك . فلما وصل المصريون الى هذا المكان أصلوا من البنادق بنار حامية انتهت بها تلك الخدعة . أما

الروملليون ، وكان قائدهم أنشط قواد الباشا فى الحجاز واقدرهم ، فقد قاوموا مقاومة اليأس وأصاب الأرنؤود شىء من الخبل فتركوا ذخائرهم وخيامهم ومدافعهم ، وحمى حسين بك رئيس الدلاة انسحابهم فصان الجيش من الفناء اذ بلغ عدد القتلى ٨٠٠ من المشاة و ٨٠٠ من الفرسان . واقتفى بخروج أثر المنسحبين يومين بليلتيهما فلجأوا الى بلدة (لية) وتلقى عابدين بك الامداد من الطائف وكلاخ ، لكن فريقا من عساكره انشقوا عليه اذ رأوا ان من المجازفة على غير جدوى إلقاءهم بأنفسهم فى التهلكة ، ومن ثم انصرفوا قاصدين الى الطائف .

أما الاعمال الحربية التى تولاها الوالى ووضع الخطط لها بنفسه فقد ظهرت بوادر نجاحها إذ عادت الى سابق عهدها الصلات التجارية مع موانى الخليج العربى وتوافد عليه القصاد من الشريف حمود ابو مسمار وامام صنعاء . ووجه الى ابنه طوسن باشا ٤٠٠ من عربان استجاشهم ابراهيم باشا فى ليبية وعهد الى بقيتهم مهمة الاستطلاع والهجوم فى جهات متفرقة . وكان لكل فارس منهم جواد أصيل وبندقة وطبنجتان وجمل يحمل مؤونته وذخيرته . وكان الأعداء يخشون بأس هؤلاء العربان لبسالتهم وعلمهم بأساليب الحرب ولأنهم اذا خرجوا للقتال لايعودون منه الا بأكاليل الانتصار . ولقد أوغلوا مرة شرق ترابه مستترشدين بعربانها فغنموا من الوهابيين ٨٠٠٠ رأس

من الضأن .

وطارد بخروجه وطامى جيش عابدين بك فلم يصدهما عنه الا اسوار الطائف غير انهما حصرا هذا الموقع وضيقا عليه حتى خيف على طوسن باشا ان يصيبه منه أذى فسيرت سرايا الحاميات اليه لاستنقاذه . ورأى محمد علي ان الافضل له الانقياد لوحي الوجدان الأبوى فبرح جدة ممتطيا جوادا كريما وانطلق في طريق الطائف لا يصحبه غير عشرين جنديا . فلما وصل الى قمة جبل خراع استكشف معسكر العدو ووقف على سر تدابيره الحربية . وبيان ذلك ان بعض أحراسه قبضوا على وهابي كان يلهو بالصيد والقنص فسأله الوالى عن مواقع المحاصرين والتدابير التى دبروها والخطط التى رسموها فأجاب الأسير إجابة صريحة سرّت الوالى فأهدى اليه هدية ثمينة واخذ العهد عليه الا يفشى ما دار بينهما إلا فى الغد وان يوصل الى حاكم الطائف ورقة كتبها برسمه ، وأقسم الرجل فأطلق سراحه . وكان الليل قد أرخى سداله فتعشى محمد على ودخن التنباك ثم نام . ولم يحنث حامل الرسالة فى يمينه إذ قام بما عهد اليه خير قيام . وكانت الرسالة تحتوى الجملة الآتية : « انا الآن بجبل خراع فهلمّ الىّ » فطفر طوسن باشا سرورا بتلاوة هذا السطر وأمر باطلاق المدافع للاعراب عن فرحه وابتهاجه ثم امتطى جوادا وسار فى رجاله نحو المكان الذى كان والده موجودا به فلما سمع الوهابيون

دويّ المدافع ورأوا الجنود خارجة من المدينة اعتقدوا صدق ما أبلغه الوهابى اليهم من قرب وصول الوالى في طليعة جيش عرم لاستنقاذ الطائف والقضاء عليهم. وخافوا الوقوع بين نارين فعجلوا بالانسحاب الذى كان الباشا كلما أشار اليه فى حديثه ضحك ضحكا عاليا وقال إنه تغلب على العدو من غير ان يطلق طلقا واحدا من بندقة او مدفع أو ان يجرد سيفا. وانصرف محمد علي وابنه بعد ذلك الى مكة فجدّة وصرفا كل عنايتهما الى تموين الحاميات العسكرية بالبلاد الحجازية.

وكان ابن مدين، شيخ عربان حرب، قد سار الى المدينة لمقابلة ديوان افندى فى أمر ما فالتقى به فى المجلس ودار بينهما حديث جهر ديوان افندى فى اثنائه بعبارات تنم على مقدار ماكان فى نفسه من الصلف والكبرياء. وكان الشيخ جريئا حاضر البديهة فقال له: «الزم الصمت فأن هذا السيف (ثم ضرب على سيفه بيده) هو الذى فتح للمصريين أبواب الحرم»، فخنق ديوان افندى وأمر فى الحال بشد وثاقه وتفتيشه، فوجدت معه كتب كثيرة تدل على تواطؤه مع الوهابيين، وقد استند عليها فى التخلص منه اذ أعدمه بيده خنقا فى اعماق السجن. وما اتصل نبأ قتله بقبائله وعربانه حتى قطعوا الطريق على القوافل وتعدوا على مراكز الجنود المصرية، وأيقن محمد على فداحة الخطر وسوء العاقبة فعقد النية على قمع هذه الفتنة فى اقرب

وقت منعا لوقوع القحط بانقطاع الوارد ، فأطلق لطوسن باشا حرية التصرف . ثم قصد الى ينبع فحصل بمساعيه السامية وكرم سجاياه على مالم يكن يحصل عليه لو استعان بالأربعمائة راجل والخمسمائة فارس والمدفعية على تعزيز جانبه وانفاذ ارادته فلقد استطاع ، وهو فى ينبع وبدر ، أن يستميل اليه شيوخ العربان ويستدرجهم الى مخالطته والأنس به وأهداهم الهدايا الثمينة من السمور والشيلان الكشميرية . وأكد في تصريحاته لهم انه يعد نفسه ضيفا على قبائل العربان لاخصما لهم . وبعد أن وعد بعقاب المسيء ومكافأة المحسن سار بجنده الى المضائق وقال إن كل مايبتغيه منهم تسليمها اليه . وكان عليها محافظون من العربان آلوا على أنفسهم الا يتنحوا قيدَ شبر عنها . فلما لاح لهم طوسن باشا وجنوده أطلقوا الرصاص عليه ، فلم يعبأ بهم بل اهتم بنقل خيامه الى قمم جبل الصفراء وجديدة ونصبها فيهما . وكانا هما مخرجا حلق الوادى ، فشاد فى كل منهما طابية ورمم طابية ثالثة بداخل أسوار القرية ، وجعل بها فصيلة من المشاة ومستودعا للذخائر . ومن محاسن المصادفات أن توفى ديوان افندى متأثرا بضعف الشيخوخة ومعاناة متاعب الحرب ، فى الوقت الذى كانت صيحات المحتجين عليه من العرب تطالب برأسه . فأبلغ الامير طوسن نعيه الى العربان مدعيا أنه أمر بقتله لقتله شيخهم ففاضت قلوبهم بالفرح لأيقانهم صحة هذا

الادعاء وتم الصلح بذلك ، فضمن المرور لسرايا الجيوش المصرية وتجريداتها واخترق طوسن الجبل ، فدخل المدينة فى اكتوبر ١٨١٤ تتبعه قافلة مؤلفة من الف جمل محملة بالمؤن للاهلين . وترك فى الحناكية بجوار المدينة خاصة فرسانه ليخرجوا صباح كل يوم فى طلب الوهابيين ومناوشتهم بالأراضى الواقعة فى شمالها.

وكان موسم الحج قريبا فوصل من الحجاج فى نوفمبر نحو ٨٠٠٠٠ ، بينهم فريق كبير من عظماء الآستانة وأعيانها . وكانت أولى زوجة لمحمد على ، وهى التى خصها بحظوته واسكنها القلعة ، قد وصلت الى مصر فى أخريات سنة ١٨٠٨ آتية من الروملى مع ابنتيها واسماعيل ثالث الذكور من ابنائها . وكان ابراهيم وطوسن قد حضرا الى مصر فى ٧ سبتمبر ١٨٠٥ قبل وصول أمهما ، فلما وردت الانباء بقرب وصولها ذهبا الى شبرى لاستقبالها وحيتها مدافع القلاع عند وصولها ورافقتها الى القاهرة ٥٠٠ سيدة راكبات الحمير ، وفى مقدمتهن أرملة مراد بك . وقد شاءت أداء فريضة الحج لذلك العام فوصلت الى جدة فى سنة ١٨١٤ وحملت الى مكة فى عربة مقفلة يجرها جوادان ، ونقلت امتعتها الى مكة على خمسمائة جمل فكان مظهر هذه الامتعة مما يليق بالملوك فخامة وجلالا . ونصب سرادقها فى سهل عرفات فكان أفخم واجمل مانصب فى هذا المكان من السرادقات ، وضربت بالقرب منها اثنتا عشرة خيمة لاقامة السيدات اللاتى صحبنها . وكان يحيط بهذه السرادقات

سياج من قماش الكتان محيطه ٨٠٠ خطوة ويقف الأغوات ببابه بملابسهم المزركشة الجميلة . أما رجال حاشيتها فقد نصبوا خيامهم حول هذا السياج وكانت السرادقات بنقوشها البديعة وألوانها الزاهية تسترعى الانظار وتحير الافكار . وانتوى محمد على قضاء فريضة الحج فأحرم بشالين كبيرين من الكشمير الأبيض ثم امتطى جوادا وهو مكشوف الرأس للسعى بين الصفا والمروة وكان أحد كبار الجند يظله من وهج الشمس بظلة ، وسرّ الناس بفخامة المحمل المصرى وما أحاط به من مظاهر الأبهة والجلال وأعجبوا بحسن منظر جنود الحرس . وعلق مائة مصباح كبير فى وادى منى للارشاد الى مكان مخيمه وأنشأ أمام صيوانه حوضين كبيرين ليستقى الحجاج الماء منهما وصف اثنى عشر مدفعاً لاطلاق النار وعلق جثتى اثنين من البدو سلبا أحد الحجاج ثلاثمائة قرش واثنى عشر جملا . وزاره سليمان باشا والى دمشق فى موكب جليل سارت فيه الجنود بالملابس المزركشة بالذهب والف وخمسمائة من الدلاة ركبانا على الجياد الصافنات وستون مدفعيا على الهجن وبأيديهم المقاليع . وأدى اليه قاضى مكة وكبار تجارها ووجوه الحجاج من جميع الأقطار فروض التعظيم والاجلال ، وتشرف رؤساء الجند وكبار القواد بلثم يده . وكانت قافلة حجاج مصر مؤلفة بعضها من رجال الجيش وبعضها من المصالح التابعة له ، فطلب الوالى منهم مصادرة الخيول والجمال حتى

بلغ ماتوافر عنده من الجمال وحدها ١٢٠٠ جمل وكان يرمى بهذه المصادرة الى إعداد معدات الحملة المقبلة .

ولما حشد جميع قواه بين مكة والطائف وتفقد مخازن الذخيرة والأقوات والاعلاف وعين المراكز والنقط لأقامة الجند ورتب مدفعيته المؤلفة من اثنى عشر مدفعا أذاع فى الناس عزمه على قيادة الجيوش فأيقن الجند بالظفر . ولكى يبقى هذا الاعتقاد راسخا فى القلوب جىء من وادى فاطمة بحمل من بذور البطيخ طافوا به فى شوارع مكة فى موكب عظيم ، منادين بأن هذه البذور ستبذر فى موضع بلدة ترابه بعد هدمها والاخناء على معالمها . وكان الاستيلاء على هذه البلدة من الصعوبة بحيث دعت الضرورة الى اتخاذ مثل هذه الوسيلة للحث عليه والترغيب فيه . وقبض في طريق جدة على ثلاثة عشر من العربان بتهمة الاتصال سراً بالوهابيين فرميت أعناقهم على مشهد من جماهير الناس . ولما انتهت التعبئة وجهزت المعدات الحربية سير محمد على فى ١٥ دسمبر ١٨١٥ السرايا من جند الارنؤود بقيادة حسن باشا للانقضاض على جناحى العدو ومؤخرته طبقا لخطة مرسومة . وتأهب محمد على بعد ذلك بتسعة أيام للانضمام اليه فى ١٢٠٠ فارس فاذا بالاخبار الواردة تفيد وصول جيش من الوهابيين الى قنفذة متجها نحو جدة . وعلم أهل هذا الثغر ذلك فانذعروا وتروعوا لقلة الماء فيه منذ اشهر واستحالة الحصول عليه اذا

انقطعت المواصلات مع مكة ومما ضاعف الاحزان وزاد الكروب ارتفاع اسعار الاغذية بنسبة الثلث لمجرد شيوع تلك الاخبار ، فاضطرت الحكومة الى ختم الصهاريج للانتفاع بمياهها عند الحاجة وألزمت الأهلين الاستقاء من الآبار التى تبعد عن الثغر بثمانية كيلو مترات ، غير ان العربان المنوط بهم الاستطلاع وضعوا لذلك الفزع حدا . لأن الوهابيين الذين خيل فى بادىء الأمر انهم كثيرو العدد لم يكونوا سوى شرذمة صغيرة جدا من جنود طامى نزلت على مقربة من قنفذة وانها ليست من القوة بحيث تلقى الرهبة فى النفوس . وعقب ذلك بأيام تواردت على الوالى أنباء تفيد أن بخروجا سام حلفاءه ، من عربان قبيلة ناصر ، خطة خسف بما اقترفه ضدهم من المناكر وارتكبه من قتل ونهب وتخريب ، وذلك رغم ما أتاه الارنؤود من البسالة فى دفاعهم عن بلدة بجيلة عاصمتهم والاستماتة فى الذود عن حياضها .

ونمي الى الوالى أن ترابه لاتكف الامدادات عن الورود اليها ، فرأى أن من الحكمة التعجيل بالزحف عليها . والواقع انه فى يوم ٢٨ محرم ١٢٣٠ الموافق ١٠ يناير ١٨١٥ برح مكة الى كلاخ حيث كان حسن باشا وعابدين بك وطبوز أوغلو ومحو بك وبونابرته الخازندار والشريف راجح ينتظرونه ومعهم من المؤن كفاية شهرين ، فما أن وصل اليها حتى أشخص الشريف راجحا الى عتيبة لأمدادها . وكان الوهابيون يضيقون عليها الحصار

فسار فى جيش من الفرسان الى بسل التى كان العدو قد استولي عليها . وقد جعل الوهابيون معسكرهم بسفوح الجبال المؤدية الى السهول المقابلة للطائف . وكانت توجد حيث عسكروا آبار كثيرة ذات مياه غزيرة ، على خلاف المصريين الذين كانوا مضطرين الى جلب مياههم من كلاخ محملة على الدواب . وكان عدد الوهابيين فى الجنوب لايتجاوز ٢٥٠٠٠ راجل مسلحين بالطبنجات و ٥٠٠٠ هجان . أما الفرسان فكانوا قليلى العدد ، لأن مناورات طوسن باشا حول المدينة عرقلت حركاتهم وأصابتهم بالفشل . ولم يكن مع هذا الجيش العظيم مدفع واحد ، فانضم اليه الابطال المعروفون بالبسالة من زعماء شمال اليمن والسهل الجنوبى الشرقى . وكان الغرض الذى رمي اليه بتوجيه شرذمة منه الى قنفذة تحويل انظار محمد على عن المعسكر الأساسى ، فتمكنوا بهذه الخدعة من كسب الوقت لمفاجأة بسل واختيار الميدان الملائم لأساليبهم فى القتال . وقد اعتصموا بأعالى جبالهم لاتبدو منهم حركة إلا لمنع المصريين من نصب بطرياتهم فى السهل . ووقعت بين الفريقين مناوشات عديدة ظهر للباشا منها ان نجاحه لايكون موفورا ولا موثوقا به إلا اذا أعمل الحيلة على استخراج العدوّ من الجبال التى اعتصم بذراها وامتنع فيها على من يحاول ان يرومه فأرسل ليلا فى طلب المدد من كلاخ ونصب مدافعه فى المواقع الملائمة وأرصد ألفين من الارنؤود على

أحد جناحيه ، حتى اذا بزغ فجر اليوم التالى أمر بالقتال ، فتقدم القواد كل منهم بجيشه حتى بلغوا ، بناء على التعليمات الصادرة اليهم ، الى منتصف مرمي الطبنجة . واطلقت المدافع قذائفها فى الحال ثم انثنوا فجأة على الاعقاب متظاهرين بوقوع خلل فى صفوفهم . وظن الوهابيون أنهم ولوا منهزمين ورأوا الفرصة سانحة لمطاردتهم والقضاء عليهم والقبض على محمد علي نفسه ، نابذين بهذا الاندفاع وهذا التهور وصايا شيخهم سعود الوهابى ساعة ان حضرته الوفاة اذ سألهم أن يعاهدوه على اتقاء القتال في بسيط الارض لتفوق اعدائهم عليهم فيه وقلة خبرتهم بأصوله ، فغادروا مواقعهم الحصينة البعيدة المرام وانطلقوا فى السهل يقتفون أثر المصريين . فلما رأى الباشا نجاح حيلته نجاحا فوق المأمول وان الوهابيين قد ابتعدوا عن معتصمهم ابتعادا يكفل له تكايل حيلته بفوز باهر أمر فرسانه بالانقلاب على اعقابهم وصرف وجوههم شطر الجهة التى جاءوا منها ومقابلة الأعداء وجها لوجه . وما بدأوا بتنفيذ هذه الحركة حتى لاحت لهم لوائح الفوز ، واشترك محمد على باشا في المعركة فأردى بيده أحد الوهابيين ، وكان المشاة المصريون فى الآن نفسه يقومون بحركة التفاف بالوهابيين لحصرهم ومنعهم من التسرب الى الجبال . وكان الشريف راجح قد عاد من قبيلة عتيبة بعد أن مدّها بالرجال والمؤن والذخائر وانتشر عربانه فى الوادي الذي كان لا مناص

للوهابيين من اجتيازه فى انسحابهم ، فأوقع الخلل فى صفوفهم . وكان راجح يمتطى فرسا من كرائم الخيل ويحمل رمحا ، فحمل على العدو وحده حملة صادقة وتغلغل فيه فاذا به يقف عند خيمة جمعت الى جودة الصنع جمال الترتيب وحسن التنسيق ، فترجل وغرس أمامها فى الارض رمحه ثم وقف يصدّ عن نفسه بسيفه جمهور المهاجمين .

ولبث كذلك حتى أدركه محمد على فانقذه من موقفه الحرج ثم سأله بعد أن أشار الى الخيمة : لمن هذا البيت ؟ أجاب : هو لفيصل بن سعود . قال الوالى : « لك ان تقول الآن أنه لك لاله » . ولقد دخله الاثنان فوجدا به ألفى قرش وافٍ . وارسل راجح فريقا من فرسانه لمطاردة الهاربين فانضم اليه العربان المجاورون ، لا لعداوة بينهم وبين الوهابيين بل لالتماس مايسدون به الرمق فتمكنوا من حصر ١٥٠٠٠ وهابى ضربت اعناقهم جميعاً واستطاع ابن شبقان منهم ان يشق لنفسه فى مئة من اعوانه طريقا بين صفوف المصريين . وقتل بخروج ، وهو اصلب زعماء العدو عودا واوثقهم ركنا واكثرهم تحمسا وتهوّرا ، ضابطين مصريين وقتل جواده من تحته فتيسر له الاندساس فى الفرسان المصريين وأرغم بالقوة أحدهم على التخلى عن جواده وركبه وفرّ به . أما طامى فلم يعد من المعركة في بعض رجاله إلا بعد اهوال ومشاق تشق المرائر ، ذلك لاستماتة الوهابيين فى القتال

ولانهم نادرا ما كانوا يطلبون الأمان او الصفح . وهذا ماحدا بالوالى الى توصية قواده ورجاله بتأمينهم والصفح عنهم من تلقاء انفسهم . وقد بلغ عدد الذين أسروا منهم ثلاثمائة ، أما الغنائم فقد شملت قدرا كبيرا من الخيام ومهمات القتال . وكان مقررا منح ستة ريالات لكل جندى من المصريين يجىء برأس وهابى فاجتمع بهذه الطريقة ٥٠٠٠ رأس . وعثر فى الجبال على جماعة من أهل العسير وقد شد وثاقهم لأنهم كانوا ليلة رحيلهم للقتال أقسموا لزوجاتهم بالطلاق ألا يولوا ظهورهم للأعداء ، فلما نفدت منهم الذخائر ورأوا أنهم اذا رجعوا وقعت هذه اليمين شدوا بعضهم وثاق بعض حتى يأتى العدو فيأخذهم أسرى .

وقضى محمد على مع جنده الليلة فى كلاخ . واذا كانت عينه قد غفت لحظة فأن همته التى لا تعرف الكلال لم تنم ، إذ لم تمض أربعة أيام بعد هذه الحوادث حتى وصل الى أسوار تربه فانسحب فيصل منها بلا مقاومة . ولما لم يجد السكان من يصد عنهم العدو طلبوا الامان وقدموا فروض الطاعة . ومنذ هذا الحين اتخذها الباشا معسكرا عاما له . وحاول المصريون نهب بعض المساكن وتدميرها واغتصاب النساء الجميلات فكبح محمد على جماحهم وأوقفهم عند حدهم وألزمهم ملازمة الأدب ثم صرف همه الى تعزيز الشريف يحيى بقوة من الجنود تحت قيادة محو بك . وكان الشريف يزحف برا على قنفذة فى عربانه بينما كانت الذخائر

والمؤن تصدر اليـه بحرا من ثغر جدة . واعتزم الباشا ، تلقاء ما اظهره العدو من العجز عن تخطي مواقعه الجنوبية ، الذهاب اليه فيها ليلقي الروع والرهبة فى قلوب رجاله ، فحمل ما جمعه فى كلاخ من المؤن والذخائر على ١١٠٠٠ جمل ، أى الجمال التى أصبحت ملك يمينه منذ ضاعف بما أحرزه من النصر عدد دوابه ، على أنه رأى قبل ارتحاله ان يخبر بفوزه كبار أهل المدينة كما أخبر به أهل القاهرة والآستانة . وكانت الرسالة التى ضمنها هذا الخبر بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٣٠ وقد قرئت فى المساجد الكبرى بالمدينة ، وهى تتضمن شرح الوقائع وطلب الدعاء فى الحرم المدنى أمام الضريح الشريف ، بتحقيق آماله والفوز على أعدائه وتطهير الحجاز من أدران الخوارج بالقضاء عليهم أجمعين .

واخترق محمد على بجيشه ، كما رسمه من بادىء الأمر ، أراضى عربان أكلب متجها نحو الجنوب قاصدا رنية وكان ابن كتنان شيخهم قد أقام حصنا صغيرا دخله المصريون ثم واصلوا السير أربعة أيام حتى بلغوا الى أرض بيشه لبنى سالم وهم قبيلة ابن شقبان . وكان بها حصنان شادهما سعود الوهابى ، وكان فرسان محمد علي معسكرين فى نقطة بالجنوب ذات أشجار باسقة ، مع مشاة من الأرنؤود بقيادة حسن باشا فأقاموا خمسة عشر يوما بتلك الجهة التى يعتبرها عربان الشمال المفتاح الشرقى لليمن . وفى اثناء اقامتهم كان العربان يتواردون على محمد علي يستصرخونه

على سعود لما اقترف من جرائم فى حقهم وأبهظ عواهنهم به من اعباء ، فاغتنم الوالى هذه الفرصة لينال من خصمه بضم فريق من خصومه الى الموالين له ، فعزل الولاة الذين ولاهم الأمير الوهابى من صنائعه . وهناك تواردت عليه الأخبار بأن طاميا مجدّ فى تعبئة الجند لقتاله ، فقال الوالى انه سيوفر عليه عناء الطريق بتوجهه اليه . وقد زحف فى جيشه فعلا صوب الغرب لمحاربته فاصاب عساكره من الجوع والتعب مالا يوصف ، لأن أهل القبائل كان يفزعهم منظر الجنود الظافرة فيهجرون مساكنهم حاملين معهم مايملكون من ماشية وأغذية .

ولما قطع الجنود المرحلة الاخيرة من هذه الرحلة الشاقة ، وكانوا قد استنفدوا فى الطريق أزوادهم وأعلافهم ، لم يجدوا أمامهم ما يسدون به الرمق سوى لحوم الجمال التى كانت تنوء بأثقالها فتشرف على الهلاك . وساهم محمد على جنوده فى هذا الضنك فتغذى بهذا الطعام وأراد ان يسهل عليهم شراء الغلال لعمل الخبز فزاد مرتبهم قرشا واحدا ، وقضوا أياما استراحوا خلالها من عناء الاثقال . وأعاد الوالى زمام مشيخة جبل شمران الى الشيخ حسن السلسان مع الحقوق والامتيازات التى خولها السلطان سليم الأول أسرته منذ ثلاثة قرون وهى حصر الأمارة فيها . وقد نفق مائة جواد فى يوم واحد فقلق العساكر لهذا الحادث وتوجسوا خيفة ، الا أن عزيمتهم لم تثبط اذ كانوا يعلمون

علم اليقين انهم ، اذا نكصوا على اعقابهم قيدَ خطوة واحدة ، قضوا على أنفسهم بالهلاك . وقد ترجل محمد على وقواد جيشه جميعا عن دوابهم وساروا راجلين فى مقدمة جيوشهم فشجعت هذه الحركة المشاة على مواصلة السير بهمة وثبات ، دع أن الباشا كان قد عللهم بغنيمة كبيرة إذا فتحت اليمن لهم أبوابها وقد قابل بمظاهر التكريم والرعاية عليا المضايفى الذى كان ركنا من أوثق أركان الوهابيين . وحضر فى التماس العفو من الوالى فأقطعه قرية تبعد عن الطائف بعشرين كيلو مترا . وتعذر على العساكر المصريين نقل مدافعهم خلال الصخور الصلدة التى تحمي قبائل العسير فلما وصلوا الى أراضيهم بعدمعاناة الاهوال والمشاق وبعد أن مضى خمسة عشريوما على ارتحالهم من بيشة ، هاجموا قصر الطور المشيد على رابية عالية والذى يعتقد اليمانيون أنه أمنع من عقاب الجو . وكان لطامى فى هذا المكان ١٠٠٠٠ مقاتل فبرز للقتال فى طليعتهم يبث الحماسة فى نفوسهم بانشاد قصائد الفخر وعلو الهمة . وفى اليوم التالى نصب المحاصرون مدافعهم فى النقط الملائمة فاضطروا الوهابيين الى الادبار وألزموهم الجلاء عن القصر الذى احتله المصريون ، فوجدوا به من الذخائر والمؤن والادوات ما لا حصر لعدده ، وكان من بينها المدافع التى خسرها المصريون فى العام السابق بقنفذة وبضعة آلاف من البنادق الجيدة ذات الأنابيب الفارسية القديمة . وبعد ان عين محمد على ابن مدرى

شيخا على قبائل العسير انحدر الى السواحل من الحلوق الصخرية للجبال واتجه منها الى قنفذة التى كانت الاقوات والاعلاف الكثيرة قد وردت من جدة اليها .

وسيق الى المعسكر العام في الآن نفسه اثنان من كبار الأسرى أحدهما طامى الذى لاذ بعد الهزيمة بأحد الاشراف فسلمه الى المصريين والآخر بخروجٌ الذى أسر فى زهران إذ دهمته فصيلتان مصريتان فوقع منهما بين نارين . وجعل محمد على الاسيرين فى خيمتين مجاورتين لسرادقه وكان يحادث طاميا ويعطف عليه لأنه ، مع طعونه فى السن وبياض لحيته ، كان فى فى مصابه ساكن الروع ثبت الجنان . أما بخروجٌ فقد كان محمد على ينقم عليه مجاوزته حدود الايقان فيما وجه من الرسائل اليه اذ كتب فى احداها : « لقد خبرت بنفسك صلابة الوهابيين وعجمت عودهم فأولى بك ، ان كنت عاقلا ، ان تعود الى مصر لتطفىء أوار عطشك بماء النيل » وقد انتهز بخروج فى الليل غفلة من حراسه فمد يده الى جنبية (خنجر) قطع بها وثاقه ثم لاذ بالفرار ، غير انه لم يلبث أن قبض عليه بعد مقاومة عنيفة ونضال جرح فيهما رجلا وقتل آخرين فدعاه الوالى اليه وسأله : « بأى حق تقتل عساكرى ؟ » فأجاب : « مادمت مطلق اليدين فأنى أعمل ما تشتهيه نفسى » قال الباشا : « كما قتلت عساكرى ستقتل أنت أيضا » وقد قتل بخروج فعلا وأرسل رأسه الى

القاهرة ومنها الى الآستانة ، وتلاه طامى إذ ارسل الى العاصمتين تباعا وفى الأخيرة منهما حز رأسه .

وكانت خسارة المصريين فى معاركهم الأخيرة ١٨٠ قتيلا و ٣٠٠ جريح ، غير عدد كبير من المرضى . وكان التعب قد أنهك قوى العساكر فعاد معهم الى جدة حيث انزلوا بالسفن والقطائر عائدين الى مصر ، الا بضع مئات من الألبانيين بقوا هناك بقيادة حسن باشا . وفى ٢١ مارس ١٨١٥ عاد محمد على الى مكة حيث قضى أياما قلد حسن بك فى اثنائها ولاية هذه المدينة وحسين بك قيادة الفرسان والشريف راجح حامية ترابه وبيشه . ثم اتجه صوب المدينة في قوة لا تزيد على ٤٠ هجانا فبلغ اليها فى ١٤ أفريل . وكان يرمى بهذه الحركة الى غرضين الوقوف على الاحوال فى شمال الحجاز وزيارة القبر النبوي .

وكان عبد الله بن سعود جاثما فى القسيم يرجو الحيلولة بين طوسن باشا والمدينة . فلما انتهت اليه أنباء فوز الوالى فيما ذكرنا من وقائعه خشى أن يصيب الدرعية سوء فانثنى من فوره اليها وعمل دائبا على تحصينها . واذ نمي الى طوسن باشا هذ الخبر عوّل على الذهاب اليه لقتاله فيها . وبعد أن عاد الوالى من حروبه مكللا بالفوز تحرك طوسن فى ٢٥٠٠ فارس وجمع كثيف من العربان الموالية ومعه ثلاثة مدافع فهاجم عربان حطين فى فرقة من رجاله فغنم منهم ٥٠٠ جمل استخدمها فى نقل الأزواد وتحفز أهل

قرية شنانه للمقاومة ، فحاصرهم فلم يلبثوا بعد يومين أن ألقوا السلاح . وفي غضون هذه الحوادث لم ينس عبد الله الواجب عليه كأمير أمة وقائد جيش فبرز الى عربان نجد بدواً وحضراً ليستجيش منهم ، ثم اتجه بحشوده الى القسيم فنصب مخيمه على مقربة من شنارة على مسيرة خمس ساعات من معسكر طوسن . وكان الجيشان يطمحان الى أخذ بلدة الرس المتصلة بالمدينة يمنة وبالدرعية يسرة ، فسار كلاهما اليها مغذ"ا ، فأحرز طوسن قصب السبق اذ بلغ اليها قبل خصمه واستولى عليها في جنح الظلام ، فتقدم اليه المشايخ مقرين بالطاعة فأتحفهم بالهدايا الثمينة وألبسهم الفراء من السمور وطلب اليهم ان تكون صلاة الجمعة باسم السلطان . ولم ير عبد الله ، تجاه هذا الفشل ، الا ان يهجم على قافلة تحمل الازواد من المدينة ورمى رقاب حراسها ولاح لطوسن باشا أن الـ ٢٠٠٠٠ جمل والـ ٢٠٠٠٠ رأس من الغنم التي للعربان المخالفين ستأتي على المراعي الخصيبة الحافة بضواحي الرس وأن هذه المدينة تنقصها المؤن فبادر باتخاذ الوسائل الواقية من المجاعة . وليمنع الوهابيين من البقاء بهذه الجهة هدم بعض القلاع والاسوار ثم ذهب الى جهة الشبيبية فاحتل عبد الله بن سعود ورجاله اراضي عربان عنيزة البعيدة عنها بأربعة فراسخ واستمرت المناوشات عشرين يوما بين العربان القائمين على النقط الامامية من الجيشين وكادت آخر مناوشة منها تفضي الى معركة عامة أو

حاسمة يحتل الظافر فيها الارض المتنازع عليها .

وحدث أن اشتد القيظ اشتدادا جعل أشعته كسهام نارية ترشق الأبدان ، وتعذر ، لهذا السبب ولما حل بالجنود من التعب ، الزحف بها الى الامام . وازداد التضييق على معسكر طوسن وتناقصت أقواته تناقصا محسوسا فاضطر ان ينقل مخيمه الى الرس ويرسل منه الى الهلالية فالبكيرية بعض فصائل من جنده لتوافيه منهما بما يسدّ الخلة . أما أهل البكيرية فقد تلقوا الراغبين فى ابتياع الاقوات منهم بالرصاص ، واذ نمى هذا الخبر الى طوسن باشا حنق حنقا شديدا فهدم اسوارهم وعاملهم بما عامل به اهالى شنانة اذ حاصرهم أربعة أيام وقتل منهم ٢٠٠ نفس وهدم منازلهم وشتت شملهم ، وانما أنزل بهم هذه النكبات الفادحة لأنه ثبت له ائتمارهم مع اهالى الرس على الفتك بالحامية المصرية .

وكان طوسن باشا فى ضيق محرج وكرب شديد ، لانقطاع أخبار مصر عنه وقلة الذخائر والأقوات والاموال عنده لدفع مرتبات الجنود ، ولأن ثقته بالعربان الموالين قد ضعفت لاستيائهم من ان ينال الوهابيون منهم فى كل وقت بالسلب والثلب ، حتى لقد وصفوهم بالكلاب وخدم الكفرة والمشركين ، بدون أن يثأروا لانفسهم من هذا العدوان الفاضح . وكل هذا فضلا عن وجوده فى مكان يبعد عن المدينة بنحو ١٠٠ فرسخ

والاعداء يحفون به من كل جانب . وكان خازنداره احمد أغا قد تمكن ، فى غفلة من الوهابيين، من مغادرة المدينة فى مدد مؤلف من ٦٠٠ رجل و ٢٠٠ جمل محملة بالاقوات والذخائر وأدوات المدافع .

وكان عبد الله يرى من ناحيته أنه اذا أسعفته الاقدار ففتك بالجيش المصرى كله فأن الدائرة ستدور عليه ، لأنه على فرض أن امانيه تحققت فلن يقف محمد علي ازاءه مكتوف اليدين ، بل كان لا بد له من انزال صواعقه بنجد وسكانها . وكان عبد الله لايجهل ماعليه مصر من الرخاء وسعة الثروة وما لمحمد على من القدرة بهذه الوسائل على الاكثار من القبائل الموالية وإكمال النقص فى جيشه وسد الثلم التي تصدعت بها اركانه ، كما كان يفقه أيضا ان مصائب الحروب وكوارثها ستنصب لهذه الاسباب على الحجاز سنوات طويلة بلا جدوى وان الكثيرين من اعوانه يرتقبون بذاهب الصبر الساعة التى يتاح لهم فيها الخروج عن طاعته ، فرأى احتفاظا بمودة القبائل وتمسكا بولائهم التعويل على طلب الصلح . فقرر ان ينفذ الى مصر وفدا ليلتمس هذا الصلح من محمد على ووقف الوهابى بباب طوسن باشا يسأله الصفح عنه وقبوله فى عداد رعايا السلطان آخذا على نفسه العمل بأوامره والدعاء له فى خطبة الجمعة . ثم قدم اليه هدية جليلة من كرائم الخيل والهجن فاكرمه طوسن بتقديم القهوة اليه ثم عرض عليه

شروطا لقبول الصلح الذى اقترحه منها العدول عن بدعة الوهابية والتعهد بتنفيذ أوامر السلطان وسفر الوهابى الى الآستانة اذا طلب ذلك منه وتسليمه مفاتيح عاصمته واقتصاره فى التلقب على لقب «شيخ البلد» ورده الى الحجرة النبوية ماسلبه من النفائس والمخلفات وضمانه المواصلات للحجاج واقراره بالتبعية لوالى المدينة . فقبل أعضاء الوفد باسم زعيمهم هذه الشروط على الرغم من صرامتها ونيط بضابط من الجيش المصرى الذهاب الى مخيم العدو لتلاوتها عليه ولقد قوبل هذا الضابط فيه بمظاهر التعظيم والتكريم والتصفيق والهتاف ثم بالقسم من الجميع ان يراعوا هذه الشروط ويوفوا بما تضمنته من العهود ووقف الامير الوهابى فى زي فاخر وشارة حسنة إعظاما المندوب المصرى وتوقيرا لمكانته فقدم المندوب اليه سيفا وقال له «ان هذا السيف هو الضمانة لخضوعك وسيكون لك سنادا إذا وفيت بعهدك ونقمة اذا خالفت أوامر السلطان » وانطلق المنادون بين الناس بعد ذلك يعلنون الصلح ويبشرون به . وفى مساء ذلك اليوم ذهب الوهابيون بالمؤن والاعلاف الى معسكر طوسن ، ولكي يمحو الرئيس الوهابى كل ريبة فى أمانته ووفائه وولائه جهر بأن أثمان هذه الاشياء ستدفع من خاصة ماله .

وما جلت الجنود المصرية عن البلاد حتى همّ الوهابيّ بتعيين الحكام للقسيم والعارض ، خلافا للعهد الذى عاهد طوسن باشا

عليه ، وأنزل نقمته بكل مشايع للسلطان وحرض القبائل الموالية من العربان بعضها على بعض وحصن المدائن الكبرى فى نجد .
وما أن عاد طوسن باشا الى المدينة حتى كتب اليه ينبهه الى مافى هذا المسلك من اخلاف للوعد ونقض للعهد وخفر للذمة ، وهو ماربما يفضى الى خراب البلاد فلا تعود تقوم لها قائمة ، فلجأ الى مألوف عادته من التوسل والضراعة فعفا عنه طوسن منذراً إياه بصارم العقاب وأليم العذاب اذا هو عاد فنكث عهده وأمر بالافراج عن رجاله الذين كانوا معتقلين عنده بمثابة الرهائن وأجاز لهم الرجوع الى قبائلهم بعد ان أقاموا زمنا فى مكة ، فتوافدت الوفود من اهليهم ليؤدوا اليه مفروض الشكر على هذه الاريحية .

وفى أواخر يونيو ١٨١٥ قفل طوسن راجعا الى المدينة للاستراحة من عناء تلك الحرب الطويلة فلم يجد والده فيها ، لأن سليم اغا والى ينبع كان قد تلقى منه أمرا فى ١٩ مايو بإعداد سفينة تقلع به ليلا ، ففى اليوم التالى وصل محمد على الى جدة على ناقة وفى معيته بعض الأحراس ونزل فى السفينة وامر رُبانها أن تقلع فورا وألا يشتط بها السواحل كالمعتاد ، مع انه كان على علم بقلة مافيها من الماء وأنه لايفى بحاجة الركاب مدة السفر ، بل يوغل بها فى البحر على خط مستقيم فوصلت السفينة به الى القصير فلم يجد بها من الدواب للركوب غير الحمير

فامتطى أحدها وهكذا فعل حراسه واخترقوا الصحراء جميعا على متونها . وفى قنا نزل فى قارب وصل به الى القاهرة فى ١٩ اكتوبر ١٨١٥ وما أن استقر فى قصره حتى توارد العظماء والاعيان والقناصل والقواد يهنئونه بسلامة العودة وبالفوز على الوهابيين. أما هذه العودة الفجائية فترجع الى اسباب ثلاثة أولها ظهور شأن نابليون فى أوروبا وثانيها وجود مؤامرة بمصر لقلب الحكومة وثالثها تخوف أهل الاسكندرية من حركات الاسطول العثمانى الذى أخذ، بعد خروجه من بحر مرمرة، يجوب بحر الأرخبيل ويجوس خلال جزره .

وقضى طوسن باشا شهر رمضان بالمدينة وفيها اتصلت به الشائعات بوقوع فتنة خطيرة بالقاهرة وان الجنود قتلوا أباه غيلة وعاثوا فى المدينة فسادا وانسابوا فى دورها وقصورها للنهب والسلب . وبدهيٌّ ان هذه الانباء واشباهها، متى تداولتها الألسنة، أحدثت فى النفوس أثرها وأحرجت مركز الجيوش المعسكرة فى أرجاء الحجاز واحاطتها بالأخطار، فرأى طوسن باشا ان يوقى البلاد وخامة هذه العاقبة بالاستفهام من والى جدة عن حقيقة الأخبار وأمره بان يذكر فى إجابته أن قاصدا سيقوم وشيكا الى المدينة وعلى يده رسالة بشرح الواقع . وقد وصل هذا القاصد وقرئت رسالته فى جمع من الناس، وفيها ما يبعث على الاطمئنان والاستبشار، فأمر باطلاق المدافع إيذانا بذلك . بل

فيها أن السكون لايزال شاملا لمصر والهناء ناشرا عليها لواءه . وكان درجَ هذه الرسالة رسالة أخرى تفيد الواقع على حقيقته وهو ان فتنة فشت فى مصر على أثر ادخال النظام الجديد فى الجيش ، وسنتناول هذه المسألة بالبحث الوافى . وعلى كل حال فقد جازت حيلة طوسن باشا على الناس ولكي يجنى ثمارها أرسل الى نقطة قريبة من ينبع بعض الفرق من جيشه للارتحال الى مصر ثم قصد بنفسه الى هذا الثغر وابحر منه اليها فوصل فى ٤ ذى الحجة ١٢٣٠ الموافق ٧ نوفمبر ١٨١٥ الى بركة الحاج ، وكان في استقباله بها الكبار من رجال حاشية الوالى وقواد الجند وأعيان القاهرة . وما استتب له المقام فيها حتى برحها الى الاسكندرية حيث كان يقيم ابوه منذ ١٩ اكتوبر سنة ١٨١٥ فزاره وزار والدته ، وحظي لأول مرة بمشاهدة عباس بك ابنه الذى رزق به فى أثناء غيابه بالحجاز . وكان يبلغ العامين من عمره وقد صحبه فى عودته الى القاهرة كما صحب جده فى سفره من القاهرة الى الاسكندرية

وقبل هذه الحوادث بثلاثة أسابيع رجع من مصر الى نجد وفد عبد الله بن سعود وهو الوفد الذى حضر للتصديق من محمد على باشا على الاتفاق المعقود مع طوسن باشا . وقد زود الوالى هذا الوفد قبل سفره رسائل الى عبد الله يأخذ عليه فيها سيره بين الاهالى بالظلم والجور وقتله الحجاج المسلمين من غير حق

ومحاربته أهل الحرمين الشريفين وقدحه فى الحضرة السلطانية ونهبه الحجرة النبوية ويدعوه الى رد المسلوبات وتسليم أمير المدينة زمام إمارة الدرعية عاصمة الوهابيين . وأضاف الى ماتقدم ان ليس فى قدرته ولا من اختصاصه اعفاؤه من محاسبة الديوان السلطانى له على تصرفاته السابقة . فأجاب الامير الوهابى بأن النفائس المسلوبة لم يبق شىء منها عنده لوقوع البيع أو الاقتسام عليها ثم تنصل من السفر الى الآستانة بانتحال بعض الاعذار . فلما اطلع محمد على باشا على هذه الأجابة ، وكان قد سئم مطل الوهابى وخداعه ، أخذ يرفض الهدايا التي كانت ترد عليه تباعا من عنده وأنذره بأنه سيسير اليه فى القريب العاجل جيشا جرارا لايفهم معنى الشفقة والرحمة . ومما ذكره في انذاره هذا بالنص : « سيصل الى قطركم ولدنا العزيز ابراهيم فينزل به الهلاك والخراب ويرمى أعناقكم بسيفه ولايدع فى حاضرتكم حجرا على حجر ويوجه بكم الى اعتاب جلالة السلطان » الخ . وسيعرف مما يلى كيف ان ابراهيم استطاع ان ينفذ إنذار أبيه بالحزم والعزم وكيف حقق بالفعل ما أعرب عنه والده بالقول .

ويؤخذ من أقوال شيخ عربان أوس ، وهو ممن شهدوا هذه الحوادث بالعيان ورووها على الناس ، أن محمداً بن سعود واضع سياسة الوهابيين ومؤسس مذهبهم والمحرك الأول لهذه الحرب الشعواء دعى الى جوار ربه فى أفريل سنة ١٨١٤ تاركا

اثنى عشر ولدا خلفه أكبرهم وهو عبد الله فى الزعامة والحكم على الوهابيين . فلنذكر الآن طرفا من أحوال هذا الزعيم الذى يتجهز ابراهيم للاحتكاك به فى الحرب المقبلة .

كان عبد الله اذا انتهى من طعام العشاء اجتمع اليه اعضاء أسرته فى حلقة كبيرة فيشرح لهم الاحاديث النبوية ، لأنه كان ضليعا فى العلوم الشرعية متفوقا فيها على أهل عصره . وكان العرب يضربون المثل بفصاحته وقوة حجته ودامغ برهانه فى المناظرات والمناقشات . وكان كأبيه جهوَريّ الصوت فى سلاسة ورقة ، حتى ان السامع له وهو يتكلم كان يحسّ كلماته وقد وصلت الى اعماق قلبه . وكان ، مع براعته وسعة علمه ، شديد التواضع حتى أنه كان اذا ناقش خصمه فأفحمه وألزمه الحجة ، استأنف مسترسلا فى بيانه وشرحه وختمهما بقوله : « والله أعلم » . وكان ابوه على عهده يبيح له مجالسة العلماء على موائد الطعام ليأخذ حصته من اللحم والأرز ، كما كان يوليه النظر فى شؤون الأمة لمساعدته على القيام بأعبائها . وكان بين اخوته الوحيد الذى يطالبه الاسهام برأيه فيما هو دائر من المفاوضات او المناقشات لامتيازه عنده بأصالة الرأى وصدق النظر ، حتى لقد خصص له ٣٠٠ فارس على حين أنه لم يخصص لكل من ابنائه الآخرين اكثر من ١٥٠ فارسا . وكان جميل الطلعة طلق المحيا كفيصل أصغر اخوته الذى اشتهر فى الدرعية بوسامة الوجه وبسامة الثغر

ويأنه أجمل فتيانها . وقد زوّجه أبوه ، عند ما بلغ الحلم ، من ابنة شيخ قبيلة الزاب ونحر ٣٥٠ قعودا و ٢٥٠٠ رأس من الغنم اكراما له وهيأ لحومها طعاما لأهل الدرعية اجمعين والغرباء ثلاثة ايام وصالا . وكان يملك ألفين من كرائم الخيل تأكل الشعير والكلأ في مرابطها او البرسيم في مراعيها . أما الذلول من نياقه فكان لا يحصى له عدّ كما كان عدد السود من عبيده غير مقدر لكثرته . وكان سعود يكره الترفع على الناس بمظاهر الأناقة فى اللباس ، اذ لم يلبس قط سوى العباءة والقميص والكوفية ، وهى ثياب الأفراد من متوسطى الحال . وكان لا يأذن لأحد ان ينهض واقفا إجلالا له . وكان الحقير كالجليل يغشى مجلسه فيحييه ويصافحه . وفرض على الناس ألا يلقبوه او يكنوه عند ندائهم له بغير « يا ابا عبد الله » . وكانوا مجمعين على اسناد المعجزات الكثيرة الى رب هذه النفس العالية والخصال الكريمة ، كما كانوا يقولون عن ولده عبد الله أنه الينبوع الدافق بهذه الفضائل والخصائص ، لما عرف عنه من أصالة الرأى وبعد النظر وصواب الحكم . وكان سعود كثّ اللحية والشاربين ، فكنى لهذا السبب بأبى الشوارب . واشتهر منذ نعومة أظفاره بالبسالة لأنه ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، خاض غمار معركة كان الخطر فيها منه قاب قوسين أو أدنى فلم يعبأ به . وكان احراسه ستة من الهجانة فلما قلد الامارة اكتفى ، عند شبوب

القتال ، بالتزام المؤخرة للاشراف على الحركات والأمر بتوجيهها على مايرى فيه الضمانة للنجاح والفوز .

أما ابراهيم باشا فقد نقلت عنه حوادث جمة تنطق ببسالته واقدامه . وكان من قوة البدن وانفتال الساعدين بحيث اذا ضرب الجمل الصغير بحسامه ضربة واحدة شطره شطرين . وفيما أظهره من ضروب البسالة فى حروبه مع البكوات الشراكسة واقتفائه اثر العربان اللصوص بالصعيد ماهو مضرب الامثال وقدوة الابطال . وكان مع شدة بأسه كريم النفس رحيم القلب ، فهو الذى بوساطته أجل انفاذ حكم الاعدام في أبي كريم شيخ قبيلة طرحونة رجاء ان يعفو السلطان عنه .

ولما قرأ عبد الله بن سعود الوهابي انذار محمد على باشا اطرق مليا وارسل النظر فى العواقب وقاس الحاضر بالغابر فاستقر رأيه على أن يجمع اليه شيوخ القبائل وأكابر الزعماء في الاقاليم للاستهداء بآرائهم ودفع المسئولية عن نفسه تجاههم اذا دارت الدائرة على الوهابيين ، فأصفقت آراء الجميع على وجوب استئناف القتال مع المصريين فأرسل الى عربان القبائل يستفزهم للحرب وختم خطابه اليهم بقوله : « ونحن نحارب للدفاع عن مذهبنا والذود عن حياض وطننا وعن الأمم والشعوب الكبيرة المقرة بوحدانية الله . نحارب الكفرة والمشركين وانما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء »

وأخذ أئمة المساجد يخطبون فى الناس حثاً على الجهاد حتى أضرموا فى نفوسهم نار الحمية والغيرة على الدين والوطن يذكرونهم بما ينتظر المجاهدين من الثواب والمتخلفين من العقاب والعذاب ، وباع الأمرا الوهابيون كل ما ملكت أيمانهم لدفع نفقات الحرب وسد ضرورتها واقتدى الناس بهم فى ذلك إذ قاموا قومة رجل واحد وتقلدوا السلاح وتنادوا بالدعوة الى الكفاح وانطلق عبد الله يعمل للدفاع ويتخذ وسائله فنصب المدافع فى المعاقل والحصون المحيطة بعاصمته والمدن التى على طريق المدينة وموّن المواقع الحصينة بالزاد والذخائر ونفى الى الجهات القصية القواد المشتبه فى أمانتهم وصدق ولائهم وأحل المخلصين محلهم وطلب من الزعماء والمشائخ يمين الطاعة والاخلاص له وحشد ثلاثين ألف مقاتل جعل بعضهم للدفاع عن الدرعية والآخرين للقتال متنقلين أو لقطع خط الرجعة على الاعداء.

ولم تكن هذه الاحتياطات بالامر الذى لايؤبه له اذ ما من جيش أو جمع من جيوش الوهابيين وجموعهم الا نهض للذود عن حمى الوطن المقدس ، كيف لا والأمير الوهابى كان شديد الحرص على مكافأة العاملين فلم ير جنديا امتاز فى الحرب الماضية بالبسالة والاخلاص إلا أجزل له العطاء فوق ما هو مقرر له من المخصصات .

وكان عبد الله بن سعود يتوخى الحكمة والتؤدة فى اتخاذ

هذه التدابير ويستعين فى تنفيذها بسياسة صريحة حاذقة لايجرأ غير الذين اعتادوا غمط الحقوق والغض من كرامة ذوى الفضل انكار الغاية الشريفة التى ترمى اليها . ولما اجتمعت الى عبد الله ابن سعود تلك الجموع الحشيدة أخذ يشحذ حماسها ويستثير نشاطها بفصيح عبارته ، وتجاوبت الاصداء فى انحاء آسيا كلها بسيرة هذه النهضة العامة والحركة المباركة للذود عن حياض الدين والوطن ، لكن الأدعى الى الدهشة والعجب ان يلتجىء الزعيم الوهابى ، مع شرف هذه النزعة ، الى الحيلة الدنيئة والاسفاف فى التنصل ، بمحاولته شراء ذمة أميرى الحرمين بالمال وتوكيده لمحمد على ان نجداً تحب الخير له وللسلطان وأنها لاتقتصر على الاجازة للقوافل بالمرور بل تتعهد بحمايتها كذلك من الاشقياء وأن العربان الذين أوقفهم ابناء سعود عند حدهم قد عاهدوه على الصدق والاستقامة وأنه لن يتوانى فى اداء العشور والمكوس الى من يعتمدهم الباشا فى قبضها منه وأن امنيته القصوى ان يكون هو وآله وأتباعه من رعاياه المخلصين المماثلين له على الخوارج وأنه يرجو منه العفو والغفران عن فرطاته السابقة ويسأل الله ان يبارك فى عمره ويتقبل منه صالح اعماله .

وصل الى مصر من طرف الوهابى قصاد يحملون هذه الرسالة ، وكان الغرض الصحيح من حضورهم الوقوف على العدات التى تجهز لقتاله ، ولم يكن محمد على ممن تجوز عليهم هذه

الخدعة. على انه استقبلهم، متجاهلا غرض التجسس الذى يرمون اليه، ومضى فى التسامح معهم الى حد أنه سهل عليهم قضاء المهمة التى جاءوا فى الحقيقة من أجلها، اذ أرسلهم يتفقدون المعسكرات والثكنات ومخازن معدات الحرب، قبل أن يفصحوا عن مرادهم. وبدهيّ أنهم لم يغتبطوا بما شهدوه من كثرة المعدات والجنود، فعادوا من زيارتهم قلقين واجمين وظلوا فى قلق ووجوم حتى إذا حان وقت سفرهم قال لهم محمد على: «هاأنتم قد حصنتم المدن وحشدتم الجند وتأهبتم للقتال وهو ماأنا موقن به، فأخبروا مولاكم أنى أوقظه من غفلته وأدعوه الى اتخاذ الحيطة لنفسه لأنى سأرسل اليه الامير ابراهيم الذى سينزل به وبحزبه العقوبه الصارمة ويدمر عاصمتكم ويجيء بأهلها الى هنا أسرى أو قتلى. على انه لو حاسب عبد الله نفسه وحثها على الطاعة وحفظ العهود واحترم الايمان لكان هذا أولى به وأحرى. أما وقد حنث فى يمينه وخاس بعهده وأخلف وعده فسوف تحطمه جنودى. والأخلق به ان يبادر بالحضور ليصون شرفه ويحفظ من الدمار بلاده ومن الفضح عرضه ومن الهلاك نفوسا بريئة لاحصر لعددها. وانى أمهله كل مايريد من الوقت للتروى، فلا يضيعن هذه المهلة فيما لاطائل تحته ولا جدوى منه. واعلموا انى اذا صبرت وامهلت عند الانتقام فليس مايعوقنى عن الصرامة والشدة اذا انقضت المهلة وحان الحين».

محمد على باشا يقول لوفد الوهابى : « انى مرسل اليكم ابراهيم ابنى
وسيأتى بكم موتى أو أسرى »

وكتب محمد علي الى ابن سعود رسالة بهذا المعنى وأخرى الى العربان يدعوهم فيها الى الطاعة لابراهيم باشا اذ انذرهم بقرب وصوله اليهم ودعاهم الى معاونته وتأييده واسعافه بكل مايحتاج اليه من مؤن ووسائل نقل . فلما عاد القاصدان الى نجد أمرهما عبد الله ألا يبوحا لأحد بسر النتيجة التى انتهت اليها مهمتهما ، ثم تناول الرسالتين الموجهتين احداهما اليه والأخرى الى العربان فمزقهما ولفق رسالة من عنده ووضع عليها عنوانه ولم يضمنها بالطبع شيئا مما وجهه الوالى اليه فى رسالته الممزقة من تأنيب وتقريع ، وما تركه منهما جعل الخطاب فيه موجها الى أحزابه واشياعه كما جعل المطاعن التى احتواها موجهة الى العقيدة الوهابية لا الى ما ارتكبه فى سياسته من خيانة وغدر . ولم ينس بعد ذلك ان يكيل لنفسه المدح كيلا على لسان الوالى والقدح المقذع لكل وهابي تلقاء ما اقترفه من الجرائم والآثام الموجبة للعار اللهم اذا عدل عن مذهبه فيجهر علنا بأنه نكل عنه ولم يعد متمسكا به . ولقد بلغت الجرأة به بعد هذا ان تلا رسالته الملفقة فى مجلس حفيل بالكبار والأعيان فكان جوابهم جواب من تحركت فى نفوسهم عوامل الغيرة على الدين والتفانى فى الذود عن مذهبهم والتمالؤ على الاستمساك بمبادئه وقالوا اذا اعتمد محمد علي فى قتالهم على ابنه فأنهم يعتمدون على مولى الوهابيين ، وهو الله جل شأنه . واستأنف عبد الله العدد بعد ذلك على إقامة

الحصون والاستحكامات وتفقد الاقاليم للاستيثاق من توافر الذخائر والمؤن فيها وكفاية الجيوش المحشودة واخلاص الزعماء والرؤساء وتعيين الفرق المخصصة لمهاجمة القوافل او قطع خط الرجعة على العدوّ او الترصد له فى مكان مرورهم .

وفى أوائل سنة ١٨١٦ بث الزعيم الوهابى رسله فى انحاء الحجاز يستصرخ بشيوخه على ابراهيم باشا ويستمد منهم العون . وكانت عيون الناظرين لاتقع خلال الاشهر الثمانية التى تلت إلا على جمال تنوء بأحمالها من الدقيق والغلال ومهمات الجيش قاصدة الى السويس وعلى السفن صاعدة فى النيل الى قنا مشحونة بالمدافع والقرب والبقسماط والذخائر . ولقد عين القواد للحملة نخيموا بعساكرهم بين مصر القديمة وطره ونزل المشاة منهم وعددهم ألفان فى القوارب والسفن تحت إمرة البكباشية قاسم وبابا مصطفى واسماعيل اغا وسار حسن كاشف الى بلاد العرب براً فى خمسمائة فارس من المغاربة ، على ان ينتظر فى ينبع وصول الامير ابراهيم . واشتبه فى الشريف راجح أنه يدس الدسائس تاييدا للوهابيين فأرسله تحت الحفظ الى القاهرة فى سبتمبر ١٨١٥ ، الا أن محمداً علياً لم يلبث ان تأكدت له براءته فأجزل له العطاء واغدق عليه النعم . وطلب الشريف على أثر ذلك أن يرافق ابراهيم الى المدينة ليؤثر بنفوذه الشخصى فى القبائل واندرج فى سلك الجيش المصرى كثيرون من الافرنج ، وهم على الارجح

أول من وطأت اقدامهم ثرى البلاد النجدية ، نذكر منهم فيسيير الضابط الفرنسي الذى ألفت به على ضفاف النيل حوادث سنة ١٨٠٥ التى هبت عواصفها فى أروبا ، وكان ملازما لركاب ابراهيم باشا وانطون اسكوتو طبيبه واندرى جنتيلى وتودسكينى وسوشيو الجراحين الصيدليين . وقد عهدت الى بعضهم مهمة اسعاف المرضى والجرحى . وفى ١٠ شوال ١٢٣١ الموافق ٥ ستمبر ١٨١٦ ودع ابراهيم باشا أسرته ورجال الحكومة والعظماء فعلقت والدته برقبته عقداً من الجوهر سألته ألا ينتزعه إلا فى الحجرة النبوية وأن يضعه على الضريح الشريف هدية منها اليه ، فوعدها بقضاء رغبتها واطاعة أمرها وتعهد لها بألا يقص شعر رأسه عملا بوصيتها الا بعد ظفره بالعدو ثم نزل مع أتباعه فى القنجات بساحل مصر القديمة فأقلعت به نحو الجنوب .

قضى ابراهيم ثلاثة أيام صاعدا فى النيل حتى بلغ الى موردة الحمراء بالضفة اليسرى منه ، وكان بينها واسيوط جسر يفضى بالسائر الى هذا البندر بلاعناء . ولأهمية موقع هذه المدينة وكثرة سكانها البالغ عددهم ١٥٠٠٠ نسمة ولأنها ملتقى القوافل الآتية من النوبة والسودان ولاتساع نطاق تجارتها ووفرة فواكهها وثمارها وغلالها وكتانها وقطنها ونيلتها كانت عاصمة الصعيد كله. وكان كل مافيها من أشجار المشمش والتين والرمان والنبق والجميز ، بل المقابر المظلمة المنقورة فى الجبال حيث كانت تقام

مراسم الجنازات على الموتى فى عهد الوثنية الأولى وحيث كان النساك فى عهد المسيحية يتفرغون للعبادة ، كل اولئك كان يعرفه ابراهيم باشا منذ كان واليا على الصعيد . فاختار من أهل هذه الجهة على اعتبار أنه القائد العام لجيوش الحملة على الوهابيين ألفى نفس رأى فيهم الصلوح للخدمة فى معسكره ويمم بهم وبجيشه الى قنا ، وهى المدينة الواقعة على الضفة اليمنى والمشهورة بآنيتها الصلصالية وفيها دبر الوسائل لتصدير الأمتعة والمهمات ففرغ مشحون القوارب منها وحمل به ستة آلاف جمل جمعها من عربان قبيلة العبابدة فسارت الى القصير . وقطع المشاة هذه الشقة سيراً على الاقدام ، وزار ابراهيم باشا فى قنا ضريحين لشيخين معروفين وتصدق فيهما على الفقراء ثم سار على الجمال ليدرك جيوشه فشيعه الأهلون بتصفيق الاستحسان وهتاف الحمد والثناء . ورأى فى سيره أسراب الاوز البرى والطيور تصيح بصيحاتها المألوفة فتفاءل بها خيراً . ولم يقم بالقصير إلا ما كفى من الزمن لشحن السفن بالرجال والمؤن والمهمات والمدافع والذخائر ، وتحركت هذه السفن فى أول القعدة الموافق ٢٣ سبتمبر قاصدة الأقطار الحجازية .

وما ترك سواحل مصر حتى مر بجزر جبل الحسنى المحفوفة بكثبان الرمل وصخور المرجان التى تكسب الماء ، مرئيا من كثب ، ألوان قوس قزح . وفى هذه الجهة مكان يعتقد ربابنة

السفن وملاحوها أنه مسكون بشياطين من خصيانهم إيذاء السفن فكانوا لاتقاء شرها ينثرون عليها الدقيق كلما قاموا لتناول الطعام ، وهذا الاعتقاد فاشٍ بين طبقات الناس فى تلك الجهات .
فلما مرت السفن المقلة للحملة ومهماتها تجاه تلك الجزر لم يعبأ ابراهيم باشا بالاسطورة الآنفة غير أنه بعث بكمية وافية من البقسماط والسمن والبن الى "قبيلة الموكول اليها حراسة قبر الشيخ حسن ، ولى" هذه البقعة وقطبها ، عملا بعادة قديمة لا تزال مرعية وفى ٨ القعدة الموافق ٣٠ سبتمبر ألقت السفن مراسيها فى مياه ينبع ، فنزل مع كبار ضباطه قصر الحاكم واتخذ معسكره خارج أسوارها . ولقد كان مجيدا فى اختياره لأن بعد ينبع عن الحدود الغربية لنجد يعدل مسيرة أربع ليال فضلا عن ان لها أبراجا تحيط بها ، وأن المواصلات بينها وبين القاهرة والاسكندرية ميسورة وهى تستورد من هاتين المدينتين كل ما يلزمها من ضرورات الطعام وغيره . ولقد أصبحت منذ افتتحها المصريون فى خريف ١٨١١ المستودع العام لمهماتهم العسكرية ، دع ان هناك ذراعا من الماء تشقها من الوسط يكفى عمق الماء فيها لرسو السفن الضخمة ووقايتها من الامواج . وكانت مع هذه المحاسن والمزايا لا تخلو من عيب تأذى ابراهيم به تأذيا شديدا ، ألا وهو انتشار الذباب فيها انتشاراً يوجب الحيرة والتبرم فان هذا الذباب تغشى السفن المقبلة أسرابه الكثيفة ويقيم بها ويصحبها فى كل مكان تقصد

اليه . وهذه خاصة فيه تضجر أهل البلد أيضاً لأنه ، حيثما ساروا وأينما حلوا ، يحفّ بهم كما يحفّ الحرس والجند بالأمراء واذا جلسوا الى الطعام انتشر على موائدهم وتساقط فى الاطباق واذا صدّوه عنهم بالمراوح والمذبات عاد فى أقل من طرفة العين . ولقد عيل منه صبر ابراهيم وازداد به تأذيا وتبرما بعد أن تضاعف عدده الى مالا يحصى من المرات فى السنوات الاربع التى زاد فيها بسبب الحرب عدد الموتى وتفشت الامراض ، انما خفف من ضجره انكبابه على البحث فى احوال أهل ينبع واهتمامه بأخلاقهم وعاداتهم وتوجيهه اياهم صوب الوجهة التى رآها اكثر ملاءمة لما هو مقبل عليه من حروب عنيفة . فكانت باكورة أعماله وهو فى ينبع ان عرض الجيوش عرضا أحرز رضاءه وارتياحه بحسن منظر الجنود وسهولة حركاتهم . وكان لهذا العرض أثر بالغ فى نفوس الأهلين اذ لم تمض أيام حتى أقبلت على المدينة وفود القرى المجاورة والقبائل المتحابة يقدمون اليه ماتجاوز سؤله من وسائل النقل التى ما كادت تتوافر لديه حتى عجل بالقيام في جيشه الى المدينة . وكان قد سبق الجيش فى حرس قليل فوصل اليها فى ٢٧ القعدة الموافق ٦ اكتوبر ١٨١٦ .

وبيان هذه الرحلة انه ، عقب اجتيازه الخليج الممتد فى ينبع ، أوغل في سهل فسيح كانت تنبثق فيه هنا وهناك شجيرات تذهب بشيء من جفوة لونه الطبيعي ، ثم مرّ بأشجار لبخ تلق

أفنانها الملتفة ظلا يخفف من وطأة القيظ ، ودأب على السير حتى وصل الي بريكة الواقعة الى جنوب ينبع واجتاز كثبان الرمل المتحركة التى يأوى اليها طير الرخم . وهناك ثمة تنسب الى على بن أبي طالب ، لأنه وقف عليها فى واقعة بدر ، وهى على مسيرة يومين من الساحل و٣٥ ساعة من ينبع وفيها يلتقى حجاج مصر والشام ويتجهون معا الى مكة . وقف ابراهيم باشا على تلك الربوة وتراجع بالفكر الى ماضى التاريخ فتأمل مليا فى مواقف الجيشين المتحاربين ، جيش قريش على السفوح الجنوبية وجيش النبيّ في السهل وعلى المرتفعات الغربية ثم وقف خاشعا أمام أضرحة الصحابة الثلاثة عشر الذين قتلوا فى أول صدمة بين الجيشين ثم أمام أطلال القباب التى هدمها الوهابيون وزار بعد ذلك مسجد الغمامة التى أظلت النبي فى المكان الذى بنى هذا المسجد عليه . وبرح ابراهيم باشا بدراً فاجتاز أودية عريضة متعرجة ينبت فيها السنا والحشائش العطرية التى اشتهرت مكة بها . ومرّ بقرية جديد وصعد فى صخور ثنية واسط متقدماً نحو العيون والينابيع التى تروى مياهها حدائق واسط ومضى بعد ذلك بين صفين من النخل ينتهيان الى الصفراء ، وهى سوق القبائل المجاورة . وعلى مسيرة أربع ساعات من الدار الحمراء فالجديدة ، المكان الذى طالما دفع الحجاج فيه الاموال لقبائل بنى حرب تأمينا للطريق . وافضى ابراهيم بعد أن فرى هذه الفدافد

الى الخيف فوادى مدك حيث زار قبور الشهداء من الصحابة ثم صعد في منحدر الفريش والسلسلة وذهب هابطا بعد ذلك الى ضفاف وادى العقيق التى يضوع فيه شذا النباتات العطرية . واخترق هذا المسيل الذى يترنم شعراء العرب بذكره فسار حتى لم يبق بينه وبين المكان الذى يريده سوى ثلاثة ارباع الساعة . والارض فى هذا الطريق قحلاء كثيرة الحزون ولا نبت فيها على خلاف الاراضى الموصلة الى المدينة ، فأنها خصبة فيما حولها شمالا وجنوباً وشرقاً اذ يكثر فيها النخل وتمتد حقول الشعير والحنطة الى مدى بعيد تتخللها فيه مساكن الزراع والبيوت الخلوية التى يقصدها اصحابها للرياضة وترويح النفس .

وقد استقبل ابراهيم باشا هناك بطلقات البنادق وحياه عند وصوله أغا الحرم فى ثمانين من الحرس ، ووفد للسلام عليه وفد مؤلف من القاضى والسادات والشرفاء والشيوخ ثم دخل من باب القاهرة ، وهو اكبر الابواب وأحسنها بناء وإن يكن من الخشب كبقية الابواب ، واجتاز الأسوار السميكة التى تحتوى خمسة واربعين برجاً ويحيط بها خندق من عمل الوهابيين وقلعة مشيدة على الصخر تسع ٨٠٠ مقاتل وفيها بئر صالحة وغرف عديدة مسقوفة لا تؤثر فيها القنابل واجتاز سوق العنبرية ثم المناخ الذى تقف عنده القوافل ، وفيه الحوانيت الصغيرة لبيع السلع المختلفة . وكان مروره بهذا المكان

بين صفوف متزاحمة متلاحمة من العربان والهجانة ، بل خيل للرائين أن سطوح القهوات توشك أن تهوى الى الارض بمن عليها من المتفرجين وامتد نظر ابراهيم وهو مارّ الى بيت النبي ووقف عليه أكثر مما وقف على الدور الجميلة ذات الأحواض المرمرية التي يلذ للانسان النوم بجوارها فى حمارّة القيظ وحارة العنبرية ذات الطرقات الواسعة المستقيمة المبلطة بالبلاط الكبير.

وواصل السير على خط مستقيم حتى بلغ الى الحرم المدنى الذى كانت تلوح له فوق قبته الرصاصية العالية كرة مذهبة يعلوها هلال مذهب . فقام بالمفروض على كل مسلم في العالم أن يقوم به من شعائر الزيارة وكان رجال حرسه قبل وصولهم قد تطهروا وتوضأوا وتضمخوا بالمواد العطرية . وأطال ابراهيم النظر فى جهة من الحرم بها مئذنة كان بلال الحبشى يدعو المؤمنين منها الى الصلاة ثم صعد فى الدرج المؤدى الى الباب المسمى الآن بباب السلام الذى ذكر السمهودي أنه كان يسمى قبلا بباب مروان فشهد جوانبه المكسوة بالمرمر ونقوشه البارزة . وتخطى بقدمه اليمنى عتبة من الرخام الجميل ثم اتجه متحرك الشفتين بالأدعية والصلوات فى طريق فرش بالسمر وحفت به أعمدة من الحجر متصلة الاسطوانات بالأرض متجهاً صوب الروضة الشريفة فركع أربع ركعات على سجادة صوف فى الصف الأول من الحاجز المؤازى للجدار الجنوبى . وعلى مقربة من الأمام الذى

لايدنو منه فى أثناء الصلاة إلا الكبار والعظماء ، وبعـد أن قرأ السورتين التاسعة بعد المائة والثانية عشرة بعد المائة من القرآن الشريف تقـدم ، في تؤدة وسكون ، نحو الشباك الحـديدى الأخضر الذى يليـه الضريح النبوى فوقف أمامه باسـطاً يديه مسلماً بقوله : « السلام عليك يامحمد السلام عليك يارسول الله » ثم طفق يذكر أسماء الرسول وبعد أن قضى بضع دقائق فى التأمل تراجع الى الخلف ثلاث خطوات وركع أربع ركعـات أخرى ثم تقدم نحو الشباك الأيسر الذى يرى منه ضريح أبي بكر الصديق ثم الى الثالث من الشمال أيضاً تجاه ضريح سيدنا عمر بن الخطاب. وقرأ أمام الضريحين ماتيسر من الآيات والدعوات ومن ثم اتجه الى قبر مجلل بقماش اسود مشغول هو القبر الذى يضم اليه رفات فاطمة الزهراء ، ويذهب بعضهم الى أنها دفنت فى ظاهر المدينة على بعـد نصف كيلو متر من باب الجمعة . وبعد أن صلى أربع ركعات وقف أمام المدخل الجنوبي الذى كتب عليه (لا إله الا الله الملك الحق المبين) فنفذ منه الى المكان المخصص للباشوات ورؤساء قوافل الحج فإذا به أمام تابوت مصفح بالفضة فتوسل بالنبي داعياً الى الله أن يشتت شمل الأعداء ويجعل جهنم مأواهم ولبس الأغوات أفخر ماعندهم من الشيلان الكشميرية والثياب الحريرية وأحاطوا بمائدتهم ولبس رئيسهم ، وهو شيخ الحرم ، رداء مزركشاً وتسلح بجنبية مرصعة بالالماس ووضع على رأسه

القاووق ثم وقف بين الفراشين ، الذين كانوا يحملون العصىّ الطويلة ، باسطاً كفيه بالدعاء الى الله أن يكلأ بعين عنايته ابراهيم باشا كبير ابناء محمد على وأن يلهمه الحكمة والصواب ويوفقه لتمزيق شمل أعداء الدين وأعدائه وتأييد الشرع ونصرة الكتاب الكريم . وتلاه ابراهيم باشا فدعا اليه تعالى أن يشد أزره ويقوى ساعده للبطش باعداء الدين وتمزيق شملهم وتشتيت جموعهم ، وأقسم ألا يعيد السيف الى غمده إلا اذا فتك بهم وأفناهم وأن يعتق جميع ماملكت يمينه من الارقاء بيضاً وسوداً ، إذا كللت حروبه بالنصر المبين ، وألا يشرب ، مادام على قيد الحياة ، خمراً ولا شراباً حرمه الله وأن يذبح ثلاثة آلاف كبش على جبل عرفات . ثم مدّ يده فوضع على الضريح العقد الثمين الذى سلمته والدته اليه فخرج بذلك من عهدة أمانته .

وظل فى الحرم طويلا مصلياً داعياً تارة ومتأملا طوراً فى الشموع الكبيرة التى توقد كل ليلة الى جانبي المنبر وأمام المحراب وهى مما بعث به قائد بك من الاسكندرية وسليمان بن سليم من الآستانة . وكان ابراهيم كريماً ندىّ الكف بالعطاء فإنه لم يدع جالساً فى الحرم إلا وألقى فى منديله شيئاً من المال وأغدق العطاء على النساء اللائى كنّ يجلسن على مقربة من شباك السيدة فاطمة والأئمة والمؤذنين والمطوّفين والأغوات حراس الحرم . ومن ثم لهجت الألسنة بآى الثناء على هذا الزائر الكريم . وما من

فقير أو مسكين فى خارج الحرم إلا أصاب حصته من تلك التبرعات وأطلق لسانه بصالح الدعوات . ولما انتهى من الزيارة وعاد الى داره أوفى مقدماً بعهده إذ أمر بتحرير أوراق العتق لأرقائه جميعاً على شرط أن يلبثوا فى خدمته الى نهاية الحرب . ثم عمد الى زجاجات الخمر التى جاء بها من مصر فيما أحضره معه من لوازم طعامه وشرابه فكسرها وأهرق ما فيها . وبعد أن قام بالفروض وأوفى بالعهود زار البقيع فى ضاحية المدينة ، وهى مقبرتها ورأس الطريق المؤدى الى نجد ، ودعا وصلى امام قبور آل البيت النبوى ومنها قبر ابراهيم بن النبيّ وقبور بعض نسائه وقريباته وفاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ثم الأمام مالك بن أنس وعثمان بن عفان والحسين ابن على الذى رأسه مدفون فى القاهرة وقبور الشهداء الذين قتلهم الخوارج فى هذا المكان سنة ٦٢ للهجرة على عهد يزيد بن معاوية . ودعا ابراهيم باشا لكل منهم امام قبره بدعاء قصير وبرح المدينة بعد ذلك من شمالها فوصل الى جبل أحد الذى انتصر فيه النبي بجيشه الصغير على قريش واستشهد فيه حمزة عمه وخمسة وسبعون من الصحابة . ولما اجتاز المكان الذى ينصب الحجاج السوريون فيه مخيمهم وبه الآبار التى يسقون الماء منها صلى عند الاطلال التى لبس محمد بجوارها الدرع قبل النزول الى ميدان القتال ، ثم استند الى حجر قريب منها بضع دقائق

عبد الله بن سعود فى خيمة ابراهيم

قرأ في أثنائها سورة الفاتحة واستأنف السير الى الشرق في طريق وعر حتى وصل الى مسجد صغير بالقرب من صهريج ماء وفى صحن المسجد قبر سيدنا حمزة وقبور من استشهدوا معه من الصحابة فابتهل ابراهيم الى الله تعالى أن يبث فى نفوس رجاله الايمان والبسالة وقرأ سورة الاخلاص مكررا اياها أربعين مرة.

وعلى مرمى البندقة من هذا المكان ركع بعض ركعات فوق اطلال قبة هدمت وكانت تدل على الموقع الذى قذف محمد فيه بحجر ظن أصحابه انه مات به ولم يكن إلا أن كسر بعض اسنانه.

وتلا ابراهيم بعد ذلك على قبور الاثنى عشر صحابيا الذين ماتوا فى الواقعة ماتيسر من آي القرآن الكريم وخطا خطوات على منحدر جبل أحد فاذا به أمام المكان الذى انتهت تلك الواقعة فيه بنصرة الدين وستبعث قممها الصخرية الثلاث مع الاحياء يوم الدين. وما برح يتنقل من زيارة موضع الى زيارة موضع حتى بلغ الى قبا من سهول رملية بيضاء تحف بها حدائق ذات فواكه واعناب. وتتابعت مرائى النباتات الناضرة والأشجار المثمرة حتى لكأن هذه البقاع أرادت ألا تقع العين منها إلا على مايثير فى نفسه ذكرى مصر ذات المزارع الواسعة والاشجار الباسقة.

وكان مما استرعي نظره مصلى على بن ابى طالب تتضوع من حوله الارواح الزكية والمسجد الذى اسسه النبي بيده وزار مناخ الناقة التى هاجر عليها من مكة ولم تبرحه للدلالة على أنه

أفضل من غيره ، فالبئر المعروفة بالعين الزرقاء . وبالجملة لم يمر ابراهيم ببناية أو قبة أو قبر إلا رأى ان الوهابيين قد عبثوا به تدميرا وهدما ، ذلك لأن مذهبهم يقول بتساوى الخلائق امام الله وينكر كل أثر لهم ولو بلغوا الغاية من الولاية والكرامة ، فكان بدهيا ان يحرم التزويق والنقش فى المقابر وكل مايتصل بالموتى . وكان فى مقدمة ما تناولوه بيد التدمير قبور الاولياء والصالحين التي لاتخلو منها قرية وتقام لهم فى كل سنة حفلات الموالد يشترك فيها الأهلون نساء ورجالا كبارا واطفالا .

وكان متوقعا أن يحول فساد النظام في الجيش وجهل العسكر بما يترتب على الطاعة من استقرار الاحوال واستقامتها دون معاقبة المجرمين الذين دنسوا تلك الاماكن المقدسة بعيثهم وافسادهم ، فقد كان فى الجيش المصرى فريق من الارنؤود لايفقهون معنى الطاعة واستشعر محمد على ما ينشأ عن وجودهم من الضرر فعجل بتطهير البلاد منهم حتي لا يسرى فسادهم الى غيرهم . وقد كان ابراهيم باشا على علم بهذه الحقيقة يوم امر بمعاقبة جماعة من المجرمين بعضهم بالضرب المبرح والبعض بالاعدام فأبى أولئك الجنود تنفيذها مع مطابقتها للعدل . ولقد نفذت وأنوفهم راغمة فكان من نتائجها النافعة ان بادر أهل المدينة بالانحياز الى جانبه كما انحاز سكان ينبع من قبل حينما طلعت عليهم دو نتمته . وقد امتاز أهل الجهات المغروسة بالنخل فى تلك

الأرجاء بمناهضة الوهابيين دفاعا عن أموالهم واظهروا من الهمة والصلابة فى ذلك ما حفزهم اليه اختلاف المذهب وتناقض المرافق، لأنهم، وان انتحلوا السنة وتظاهروا بها، من اهل الشيعة باطنا فاغتنم ابراهيم فرصة هذا التباين لتوطيد مركزه فى الحجاز بالقيام على صيانة الحدود الفاصلة بين الفريقين من شر الغارات الوهابية والاذن لحجاج الشام بالمرور آمنين. وفى ١٣ الحجة اى فى رابع أيام عيد الاضحى كاشف ابراهيم باشا أغا حراس الحرم برغبته في قضاء الليلة بطولها فى حظيرة المسجد فأقفل أبوابه عليه فى الساعة الثالثة بعد الغروب حتى اذا انقضت ساعة بعد الفجر برح المدينة للحاق معسكره.

أما الأوربيون الذين اندرجوا في سلك أركان حرب ابراهيم باشا فقد اضطروا الى البقاء فى ينبع كما بقي اليونان الكاثوليك وبقية المسيحيين الذين كانوا فى خدمة الجيش خارج اسوارها قبل أربع سنوات فى غضون الحملة السابقة. وذلك لان الدين الاسلامى يحرم على غير المسلم دخول المدينة كما يحرم عليهم دخول مكة. ومن العقائد الراسخة فى اذهان القوم أن غير المسلم اذا وقع بصره على احدى المدينتين، لايلبث أن يصاب بالعمى وإذا اجتاز باباً من أبوابها ان يدركه الموت على فجأة منه مالم يلهمه الله بترك دينه لاعتناق الاسلام فانه عندئذ يوقى العمى أو الموت. وتعتبر البقعة المحيطة بالمدينة فى دائرة ذرعها ١٢ ميلا

وتحف" بها الجبال جنوباً وشمالا ، من الحرم فلا يهدر فيها دم الكافر الذى يحاول أن يطأها بقدميه أو دم العدو الذى يريد بها الشر على ألا يمس الاشجار والاطيار بأذى . ولقد حدث فى جمادى الثانية من عام ٦٥٤ للهجرة ان زلزلت الارض زلزالها فهدمت البيوت وتداعت الأسوار واندلع من جوف الأرض لهب ساطع يمثل مدينة تتجه أسوارها ومناراتها نحو السماء ويتخلله ، مع تحول لونه الى الارجوانى تارة واللازوردى أخرى، دوى" قاصف ، وقد انقشعت ظلمات الليل به بشدة سنائه فصار نهارا اسطع مايكون نورا بل من الشمس فى كبد السماء وان هذه الحالة لبثت خمسة أيام حتى لقد استطاع احد البدو من تيماء ان يكتب على ضوء ذلك اللهب ماشاء وهو سائر على مسافة ثمانين فرسخا فى بطن الصحراء . وخيل للناس ان القيامة قد قامت وانهم مبعوثون ليوم عظيم ، اذ جاء فى حديث نبوى وصف علامات الساعة بأنها تكون اذا ظهر فى الحجاز ضوء يضىء أعناق الجمال ، وأن طول ذلك اللهب كان اربعة فراسخ أى اثنى عشر ميلا فى عرض اكثر من فرسخ وسمك ثلاثة أمتار وأن بسببه تدهورت الصخور وانقلبت الكثبان والآكام . واذ كان النبي قد حرم اتلاف الشجر فى حدود الحرم فان لسان ذلك اللهب لم يتناول الاشجار التى فى داخل هذه الحدود . وكان أهل المدينة يرون في وصول المسيحيين اليها طامة كبرى وخطبا مدلهما

فلم تفت المسيحيين الذين كانوا فى الجيش مراعاة مايجب حيال هذا الاعتقاد اذ تحاشوا دخولها احتراما له .

ولما لحق ابراهيم بجيشه جعل معسكره فى نقطة تبعد عن مركزه الأول بستين كيلو مترا على مقربة من قرية سوبدره بين ينبع وجدة واتخذها مستودعا للمؤن والذخائر وسير منها الى الحنا كية من القوى ما لم تكن فى حاجة الى بقائه بها .
وكان المصريون قد استولوا على السويدرة منذ بضع سنوات دون أن يسفكوا قطرة دم ، لأن شيوخ العربان الذين خدعهم عبد الله بحيلته ونفاقه احجموا عن موافاة ابراهيم باشا بما طلبه منهم من الجمال و المؤن بل منحوه اكتافهم وأخذوا يعيثون فى البلاد ويرتكبون الفساد بقطع المواصلات وساب القوافل بين ينبع ومكة والمدينة . وكان منحتما ، فى بداية حملة عسكرية كهذه ، استئصال جرثومة القدوة السيئه باستعمال الشدة والصرامة فبادر ابراهيم باشا بانفاذ ألفى رجل من المشاة والفرسان لمعاقبة أولئك العصاة الذين كانوا قد تأهبوا للدفاع على أثر وصول الانباء اليهم بتحرك الجيوش لقتالهم .

وعلى مسيرة يومين من المعسكر المصرى انتشر عربان طلوا اجسامهم وعيونهم بزيت مزج به مسحوق اسود ووضعوا على جباههم طاسا حديدية وشدوا رؤوسهم بسيور من الجلد تسدل من تحتها على اكتافهم شعورهم السوداء وحملوا فى نطاقهم

ذخيرة الخرطوش والجنبية والسيف الذى لايفارقهم حتى فى شرب القهوة ، وقبضوا على (الكانج) أى الكتلة ذات المقبض الخشبي والرأس الحديدى والقطاعة وهى رمح خفيف قصير محلى الطرف الأعلى عند مأخذ السنان بعقدتين تنبعث منهما أشرطة قماش أحمر مضفور . وكان يسير ، فى الصفوف الأولى من جيش العدو ، الملابيس وهم فرسان يلبسون الدروع أو القنابيز وكان مع كل منهم حاجته من الماء والغذاء ويتبع هؤلاء الفرسان أو الخيالة ، (الركوب) أى العساكر الهجانة . وكانوا يحدون إبلهم حثا لها على السير باناشيد تفيد معنى الدعاء الى الله أن يصونها من الأخطار ويقوى قوائمها حتى تكون فى صلابتها كقضبان النحاس . وكانت هذه الدواب كلما سمعت الحداء ازدادت نشاطاً وتحفزا واندفاعا الى الأمام ، وكانت نساء المحاربين على ظهور الأبل يطحنّ الحنطة بالرحى ويعجنّ الدقيق ويخبزن الخبز فى فرن صغير من الطين يوقدنه بالقصل . أما المؤخرة فكان يتألف منها المتراس وهم المشاة مسلحين بالطبنجات الكبيرة وبأيديهم الدرق كل درقة قطر دائرها ١٨ إبهاماً وهى متخذة من اهاب الجاموس المقوّى بصفائح الحديد . وما أن أبصروا بالعدو حتى صاحوا صيحات حادة وضربوا الطبل وتغنوا بأناشيد الجند التى من أشهرها انشودة (الحدو) ومما جاء فيها : « أيها الموت ارفع غضبك عنا : أيها الموت صبرا حتى

تنتقم للدم المسفوك ! » الخ ، وكان المشاة يتلظون شوقاً للقتال فاندفعوا نحو المقدمة وبعد أن أخذوا فيها المواقع الملائمة لهم بين صفوف الفرسان اخذوا يثبتون سلاحهم على الاحجار البارزة كيلا يخطئوا المرمى ، وانسلخت منهم فصيلة طيارة للتنقل يسمونها فصيلة الغزو اخذت تناوش المصريين وقد اشتد القتال وحمى وطيسه فاشتبكت فيه فرق الجيشين وتلاحمت وظلت على هذه الحال زمناً لجأ العرب بعده الى الفرار مشرّعين أطراف الأسنة من خلفهم ، ليرهبوا بها الظافرين الذين كانوا يقتفون آثارهم وظلوا مدبرين نصف ساعة التقوا بعدها بالزاملة التي كانت فى أحد الأودية عند نقطة من النقط الثلاث التي اتفق على الارتداد اليها فى حالة الانسحاب او الهزيمة . ولما رأى النساء رجالهم المحاربين وقد ارتدوا على اعقابهم لم يتلقينهم بزغاريد الفرح وصيحات الابتهاج كعادتهن بل لزمن الصمت تبدو عليهن علامات الحيرة واليأس . اما المصريون فما زالو بالمنهزمين مطاردة وملاحقة حتى بلغوا الى دورهم حيث تفرغوا للنهب والتخريب زمنا عادوا بعده الى المعسكر بقطعان الأغنام وجم غفير من النساء والأطفال ، لكن لم يلبث ابراهيم باشا أن ردهم على أهليهم . ولم يجرؤ العربان بعد هذه المعركة العنيفة على استئناف القتال ولا على النهب والسلب فجاءوا يسترحمون القائد المصرى ويخضعون للتكاليف التي يفرضها عليهم مهما بلغت .

وبعد مضى ١٥ يوماً والجنود فى السويدرة استأنفوا السير فى الطريق المؤدى الى القسم القريب من يثرب التي سميت منذ ظهور الاسلام بالمدينة فقط إشعارا بجلالها وبيانا لأهميتها وعلوّ قدرها. وكان العرب فى الاندلس يسمون بالمدينة كثيرا من المدائن التى يميلون اليها ويؤثرونها على غيرها ولا تزال تسمى حتى الآن بهذا الاسم مثل (مدينة كلى) و (مدينة دلريوسكو) و (مدينة سيدونيا) وكما كان قدماء المصريين يسمون طيبة وهى الأقصر الآن (طبا كى) أى المدينة والرومانيون يسمون روميه (أوريس) اى المدينة ويونان الدولة الاخيرة يسمون القسطنطينية (بوليبس) أى المدينة

وبوصول الجيش الى المدينة لاحت فرصة للعساكر ان يضرعوا الى الله بطلب التأييد لهم فى حرمه الذى اختاره لنصرة دينه . نعم إن زيارة هـذا الحرم لم تكن من الفروض الدينيـة المحتومة كالحج الى بيت الله الحرام ، لكنها عمل محمود لدلالته على الورع والتقوى . قال محمد أديب فى كتابه (دليل الحاج) إن الصلاة فى الحرم المدنى أفضل منها فى سائر الأماكن المقدسة.. لذا ترى قوافل الحجاج تقضى بالقرب من الضريح النبوى أربعة أيام أو خمسة فى ذهابها الى مكة أو فى عودتها منها. وما من مسلم صادق الأيمان من رجال الجيش إلا ويحفظ عن ظهر قلب الاربعين حديثاً التى تدخل حافظها في شـفاعة النبيّ وتنقذه من

نار الجحيم. وامتاز المغاربة بالاخلاص فى التعبد، لاسيما أن المدينة يضم ثراها قبر الامام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى الذى يتمسكون به هم والدكارنة من أهل السودان . وأقام ابراهيم بالمدينة اسبوعين كاملين انفذ بعدها لاحتلال الحناكية ٤٠٠ فارس من طلائعه وكان الوهابيون قد دمروها تدميرا قبل انسحابهم الى نجد. وكان المصريون فى حملتهم الأولى قد حصنوها تحصيناً وثيقاً.

وفى أول دسمبر بدىء بانشاء استحكامات وقلاع فى هذا الوادى الملائم لأعمال القتال لأنه يحتوى عددا كبيرا من النخل وبعض المستنقعات وعيون الماء العذب التى تروى ماحولها من الأراضى الخصبة. ولما حصن ابراهيم باشا هذا المكان لبث ينتظر فيه ورود المدد من الفرسان والمدافع أى المدد الذى أخذ والده يرسله اليه تباعاً كى يحل محل الفصائل التى تقضى التدابير العسكرية بأقامتها على حراسة النقط الخلفية للاحتفاظ بخط الاتصال. وكان الزعيم الوهابى قد عقد النية على الدفاع عن المدن وإزعاج القوافل على يد حلفائه العربان، لكن هؤلاء كانت تبدو عليهم علامات الامتعاض والتذمر والاحجام عن اقتحام مدفعية علموا مبلغ تأثيرها فيهم من قبل فنشأ عن ترددهم هذا شقاق جاء الى الباشا على أثره غانم شيخ قبيلة حرب ليفاوضه. وقبيلة حرب هذه معروفة ببسالتها وثباتها فى القتال ومع أنها

أقل نفرا من قبيلة عنيزة وأضعف جانباً إلا أنها منتشرة فى الاراضى الواقعة بين القسيم والمدينة ومكة إلا البقعة الضيقة التى تشغلها قبائل مطير وحطيم . ويجتمع من رجالها ، إذا هبت للقتال، أربعون الف مقاتل . والفرسان منها فيما يلى جنوب المدينة قليلون ، غير انها اعتادت ان تسلح الشطر الاكبر من شبانها وتخرجهم الى ميدان القتال فقلما يقع البصر على شاب لم يكن مسلحاً ببندقة . وكانت ثروتها مكفولة بمرور قوافل مصر والشام بارضها ووجود مفتاح الحجاز الشمالى فى يدها ، ولم يتفق لها ، قبل غارة الوهابيين عليها وخضوعها لسلطانهم كما خضعت قبائل الصحراء أجمعين، أن تنحت لا حد عن شبر واحد من اراضيها . ومع أن هذه الأراضى تتاخم أراضى جهينة التى استمالها طوسن باشا فى سنة ١٨١٢ فقد كانت على الدوام تنبذ كل اقتراح يقترحه هذا الامير عليها فى شأن ما الى اليوم الذى عقدت فيه معاهدة الرس . وكان الشيخ غانم ، عند ماعرض خدمته على ابراهيم باشا، يطمح الى استردادالأراضى التى اكرهته الدولة العلية على التنازل لها عنها . ورأى ابراهيم أن الفرصة متاحة للايغال فى داخلية البلاد ، فكان أول ماصرف اليه عنايته اجتذاب اصحاب النفوذ والجاه من عربان القبائل الى مصادقته واكتساب مودتهم بالملاينة تارة والهدايا النفيسة تارة اخرى . فلما أن ظفر بمراده من ذلك تحرك يوم ٢٧ دسمبر فى جيش مؤلف من ١٨٠٠ فارس مزودين

بالمؤن لعشرة ايام وانضم الشيخ غانم اليهم فى ٥٠٠ من عربانه استجاشهم فى الطريق . وسار فى الطليعة لفيف من اهل نجد الغربية ليرتادوا الطريق ويتلقطوا الأخبار فوصلت هذه القوة الى نجد فى ١٧ يناير ١٨١٧ بعد مشاق مضـنية وحرمان متلف انتهى بسرور الفوز . ولم يتجاوز عدد الذين فقدوا فى الطريق عشرين رجلا فوصل الجيش الى الموقع الذى وصل اليه في ذلك اليوم كاملا تقريباً يصحبه ٨٠٠ جمل و ٤٠٠٠ رأس من الضأن ومقدار كبير من المهمات

وقد بهت أولياء الوهابيون وأشياعهم لهذه المجازفة واستقر فى أخلادهم بعد أن ظنوا بفرسان المصريين العجز عن تكبد المشاق وتذليل المصاعب أنهم جديرون بالمدح والاعجاب . ولم يلبث مشائخهم بعد أن حسبوا لهذه الغارة عواقبها أن سارعوا الى قيادة الجيش يلتمسون المفاوضة فاشترط ابراهيم عليهم أن يتعهدوا له بتقديم وسائل النقل كلما دعت اليها الضرورة وانتهز نهزة حضورهم فعرض الفرسان والمشاة فقاموا أمامهم بمختلف الحركات العسكرية وإطلاق المدافع والضرب بالسلاح . ومن آيات لباقته فى ترويج حيلته عليهم أن جعل الفرقة الواحدة تقوم أمامهم بصنوف شتى من التمرينات العسكرية فى أدوار وأوقات متفاوتة فألقى فى وهمهم بذلك أن هناك فرقاً بعدد التمارين التى رأوها فاسقطوا فى ايديهم لكثرة فرق الجيش وبهتوا لحسن المامه

بالفنون العسكرية .

وفى ١٩ يناير ١٨١٧ تلقى ابراهيم باشا من القاهرة نبأ بإنعام السلطان عليه بالباشوية ذات الثلاثة أذناب أى بالرتبة التي تخوله الحق فى حمل ثلاث خصلات من شعر الخيل لا خصلتين . فأوفدت المدينة الوفود من عظمائها لتهنئته وعاد معهم بعد هذه التهانيء الى المدينة حيث اقيمت الأفراح ومعالم الزينات إيذاناً بذلك والبسه المفتي شارة الترقية . وبعد الاحتفال الذى رفع منزلته فى العيون وألقى هيبته فى النفوس عاد الى معسكره . وكان قد وقع فى غيابه فيه من الحوادث ما اضطره الى تعجيل الاوبة ، إذ ثبت أن فى الجيش زمرة تتجسس لحساب العدو ، فحكم بالاعدام على أفرادها . وتواترت بعد ذلك شائعات بانقطاع الصلات السياسية بين الروسيا وتركيا فجزع الجنود لهذا الخبر اذ أيقنوا أن مركزهم فى الجيش أصبح مزعزعا فأخذوا يطالبون برتباتهم . ورتق ابراهيم هذا الفتق قبل استنهاره فدفع لهم حقوقهم . وكانت حمارّة القيظ فى النهار وشدة الرطوبة فى الليل مع قلة الملابس والماء الصالح للشرب والحرمان من ملاذ الحياة وتفشى الحميات والدوسنطاريا بشكل وبائى مما دفع الجند الى التبرم والجزع وأضعف عزيمتهم وضيع رجاءهم ، فوجه المرضى والضعفاء منهم الى الحناكية . وكان الاطباء على الرغم من نشاطهم وهمتهم واخلاصهم غير قادرين على استئصال شأفة تلك الادواء القتالة فازداد عدد

الوفيات . ولم تهن عزيمة الباشا ازاء هذه الكوارث بل ابدى من الجلد والصبر ماأوجب العجب . وكان قد وصل اليه فى الايام الاخيرة ثلاثة مدافع احدهما من طراز الهاون والآخران من المدافع العادية ، وهى مما تركه الفرنسيون قبل جلائهم عن مصر اذ كان مكتوبا على مؤخراتها (صب فى دار صناعة باريس سنة ٢ من الجمهورية . حرية ومساواة) ووصل معها مائتان من رجال المدفعية ، لكن الحالة التى صار اليها الجيش كانت تستدعى كثرة العساكر المشاة لا كثرة المدفعيين لأن كثرة هؤلاء لاتسد النقص الذى يحدثه مرض اولئك وموتهم . وقد طلب ابراهيم من والده ان يوافيه بألفى مقاتل وابرم معاهدات جديدة مع العربان وفرض على الاصحاء حمل السلاح ليحول بذلك دون سريان العدوى بتلك الامراض فى معسكره ووحد الجيش فادمج العربان والمصريين بعضهم فى بعض ، وعدد الأولين ١٢٠٠ والآخرين ١٥٠٠ ، فلما كان يوم ٥ ربيع الثانى ١٢٣٢ الموافق ٢٢ فبراير ١٨١٧ زحف على الرس" عاقدا النية على أخذها مداهمةً ، غير أن توالى هطول الامطار حال دون وصول جيشه اليها فاضطر الى التراجع به ، وقد نفدت منه الميرة والعلوفة واجتزأ بأكل الشعير مجروشا لسد الرمق ليس غير . ومع ما كان فيه من حرج وضنك شديدين فقد تمكن من اخضاع القبائل التى فى طريقه وأسر الكثيرين من رجالها وغنم من الجمال ما لايقع تحت حصر . وكان الجيش فى حاجة ماسة الى الراحة فقرر الباشا

الاستقرار فى الحناكية الى ان يحين الخريف واتخذ ، بما فطر عليه من حب الخير وايتاء المعروف ، كل ما فى مقدوره من الوسائط لوقاية الجنود من شر الأمراض وتوفير الراحة والرفاهية لهم ، فأمر بانشاء بيوت كبيرة من الخشب تفاديا من ضرر الاختلافات الجوية . وما من يد عاملة إلا اشتركت فى اتمام هذا العمل المجيد وفى مقدمتها يد الأمير نفسه . واستغرق انجاز هذه الاعمال شهرين لم تلبث ان تجلت فوائدها بعدها للناظرين اذ زالت الامراض الفاشية وخفت الآلام عن المرضى بتماثلهم الى الشفاء .

أما عبد الله بن سعود الذى كان اولياؤه ومشايعوه من العربان قد انفضوا بالتدريج من حوله، على أثر تروّعهم من خروج الباشا مرتين على النحو الآنف ، فقد أمر باضرام نار الحرب لقتالهم قبل ان تصل الامداد من مصر واتصل هذا الخبر بابراهيم باشا فهبّ من فوره للقتال كى يحول دون احتشاد الأعداء وانضمام القبائل اليهم ويستميل اليه العربان الرابطين بحدود الصحراء بحجة الحياد ، وما كانوا فى الحقيقة من المحايدين بل كانوا متريثين متربصين يستروحون نسيم الفرصة يغتنمونها للانضمام الى الفريق الغالب . ولقد كللت تلك المعارك بفوز الفرسان المصريين كما كللت المعارك السابقة اذ قتلوا من العدو اكثر من ٨٠٠ نفس وغنموا ٢٠٠٠ جمل ومقدارا من الماشية .

وكان مما وضعه ابراهيم باشا نصب عينيه الاستعانه بالمظاهر الدينية فى حرب صبغت بصبغة القداسة . ولهذا بادر بالذهاب الى المدينة ليحمد الله فيها على ماأولاد وجيوشه من التوفيق للظفر ، وما ان قام بهذا الواجب حتى قفل راجعا من المدينة فى ٢٠ ابريل وكان مما دفع العربان المصادقين للوهابيين الى موالاته أنه اكرم مثوى غانم شيخ قبيلة حرب وغيره من الشيوخ ووعدهم الا يفرض الجزية أو الكلف عليهم وبان يدفع لهم ثمن مايوردونه اليه من العروض بلا مماكسة ؛ دع أنه كان لايلقى الناس الا بالبشاشة وسعة الصدر والسخاء . ولقد ترامى اليه ان عبدالله بن سعود ينهب القبائل التى ترفض الذهاب الى الرس ويزحف فى ألفى مقاتل لمهاجمة المصريين ويدعو جميع رعاياه الى شد أزره بمالهم وسلاحهم ويمنع الذين فرض عليهم القتال ان يبدلوا من أنفسهم من يقوم مقامهم مدّة التدرب على القتال وهى اربعون يوما فى مقابل عشرة قروش وافية ويلغى الاجازات مهما قصرت مدتها ويسرح الذين انقضت مدة خدمتهم فى الجيش وهى اثنى عشر شهرا ويلزم بها العزب والمتزوج ورب العائلة مادامت سنه لاتقل عن الثامنة عشرة ولا تتجاوز الستين ، حتى لقد قال بمناسبة حشد هذا الجيش : « لسنا نرغب فى احصاء المندرجين فى سلك الجيش بل احصاء المعرضين عنه » ويزود المحارب الفقير على نفقة بيت المال دابته وسلاحه ويلزم الغني بهما من

ماله ويوزع من بيت المال كذلك على الجنود البارود والرصاص ومعدات القتال ، ويعين لكل فارس مرتبا شهريا ولجواده العلف الكافى . أما المشاة والركوب (أى راكبو الهجن) فكان لاحق لهم فى مرتب ولا علف . وجعل مؤونة المحارب قاصرة على قربة ماء و ١٠٠ رطل دقيق و ٦٠ رطل تمر و ٢٠ رطل سمن وغرارة حنطة أوشعير للجواد أوالجمل ، وجهز كل مقاتل بمؤونة تكفيه خمسين يوما على نفقته وجعل سلاحه الخنجر والسيف والجبيرة على نفقته والبندقة ذات الشريط اذا كان من المشاة أو بالرمح والطبنجتين ، على ان يكون ذلك من ماله فى مقابل أن يكون له الحق في مايغنمه من الأعداء بعد اسقاط الخمس منه وهذا الخمس هو حق بيت المال . وبعد ان سار الأمراء تتقدمهم الاعلام والبيارق ويصحبهم كاتبان وامام للوعظ وحسم المنازعات اجتمعوا على سبيل الخدعة فى نقطة مضادة لاتجاه العدوّ حتى اذا سار فى أثرهم واصلوا الزحف الحثيث للانقضاض عليه . وكانت طليعتهم شرذمة مؤلفة من أربعين فارسا ، سبق الجيش الأصلى منهم خمسة وعشرون حتى صار بعد مابينهم وبينه ٨٠ كيلو مترا . وفى ليلة الزحف للقتال جهزت كل أسرة من أسر الجنود لرجلها طعاما من التمر المحمر فى السمن لفطور الصباح وطعاما آخر للعشاء من التمر المعجون بالدقيق والمنضج على وميض النار بعد قطعه قطعا مستديرة كالرغيف . وقرر الوهابى حفر الآبار

اذا شح الماء فاذا لم تأت بالماء الصالح شربت ألبان النوق ونحر الجمال اذا قلت الاطعمة مع مراعاة البدء بالأضعف فالضعيف وان يحمل كل جمل رجلين من المشاة لكي يظل الجنود اذا خاضوا غمار المعارك محتفظين بقوتهم ونشاطهم قادرين على معاناتها.

وقد وصل الوهابيون ، بمقتضى الترتيب الآنف ، الى احدى الآبار وكان عددهم عشرة آلاف ونيف فنصبوا الخيام وبيوت الشعر السوداء وأقاموا فى الوسط سرادق زعيمهم وانزلت الاحمال الثقيلة عن متون مائتى دابة خصصت للنقل ونشرت راية الامير على سرادقه ووقف الفرسان حول المخيم على شكل الدائرة واصطف حراس الشريف ، وهم الفرقة الوحيدة الدائمة فى الجيش الوهابى وتؤلف من ٣٠٠ عربى يشترط فى قبولهم أن يكونوا ممن امتازوا بعمل جليل . والعادة ان يعطى كل منهم مايحتاجه سنويا من القمح والسمن والتمر وجوادا اصيلا بما عليه من اللبس أى الصوف الذى لاتنفذ فيه الرماح ولا تعمل فيه السيوف . وما من واقعة اشتركوا فيها او عمل دعوا لأدائه إلا وكان التوفيق رائدهم ، وهذا مادعا الأمير الى الاحتفاظ بهم احتفاظ المرء بأنفس ماعنده واتخاذه اياهم جندا احتياطيا للقتال لايرسل منه إلا فصائل قليلة لتعزيز النقط الضعيفة . وكان الجيش الوهابى قد عين مراكز الحرس والتربص الأمامية ووافاها بكلمة «سر الليل» وقرر ألا يخلفها غيرها فى العمل إلا بعد أربع

وعشرين ساعة وجعلها على مسافة أربعة كيلو مترات منه . وكان لزاما على رجال هذه المراكز ألا يناموا الا فى النهار وألا يتناوبوا الحراسة إلا خمس مرات فقط فمن تنتهى منهم نوباتهم يبرحون المعسكر لأداء فروضهم الدينية حيث شاءوا ، وكان وضوءهم تيمما يباشرون الصلاة بعده . وفيما بين غروب الشمس وشروقها كان العساكر يتلون القرآن أو يتسامرون بذكر الحوادث الماضية . وكان اكثر حديث عبد الله اهتمامه بحوادث المستقبل فلقد انتهى اليه ان الباشا أنفذ فى ٢٦ افريل جيشا بقيادة أزون على مؤلفا من الف راجل واربعمائة فارس ومدفع واحد وشراذم من البدو لاحتلال (المهوية) فاستولوا عليها فقرر عندئذ الزحف عليها لطرد البدو منها ومضى فى نيته الى أبعد من ذلك حيث جزم بضرورة الانقضاض على المدينة فى ثلاثين الف مقاتل ورمي أعناق أهلها جميعا . وحصر ابراهيم باشا فى الحناكية بذلك بين نارين بينما كان فيصل أخو عبد الله بن سعود يزحف على مكة وجدة وينبع لقطع خطوط المواصلات دونه وسلب من يصادفه فى الطريق من القوافل . وهذا التصميم يدل على جراة الوهابي وحذقه . وقد تعاهد أعوانه على انجاح المشروع فاشتغل فريق بصناعة البارود وآخر بتكرير نترات البوتاسا المستخرج من الجبال . وعقد الأمير النية على معاقبة المقصر فى عمله بدفع غرامة فادحة للمرة الأولى وبالطرد والعزل فى حالة العود

ومعاقبة من يخالف الرؤساء بالجلد ومن يولى الأدبار برمى العنق وأثارت الثقة بالنجاح الحماس والشجاعة فى النفوس.

ومما لاشك فيه ان مدفعية ابراهيم باشا كانت أقوى من مدفعية الوهابيين وان عساكره كانوا أمضى سلاحا، لكن عبد الله كان يرجح الفوز مع ذلك لعساكره لتفوقهم فى العدد، دع أنه كان لايسلم بوجود شعب على وجه الأرض متفوقا فى الحرب بالرماح والسيوف غير العرب، حتى لقد كان كثيرا ما يقول: «البدوى ابو سيف والفرنجى ابو مدفع» وكان ابراهيم باشا يعتمد من جهة على تفوقه الفنى فى القتال ومن أخرى على ما كان يتوقعه من الخلاف والشقاق والتدابر فى دولة حديثة العهد بالوجود كدولة الوهابيين وعلى ماينتاب الاخلاق والمصالح المتماكسة من اختلاف تكون فيه كالبحر فى حالتى المدّ والجزر فيها وعلى تبرم سكان ثغور الحجاز ومدنه بانقطاع السبل على الحجاج والقوافل الذين هم مصدر ثروتها ثم على احتفاظ الأهلين سراً بعقائدهم السنية الأولى، الا أن هناك محلا للسؤال هل قد كان الوقت الذى مضى كافياً لكشف حقيقة المواقع العسكرية فى تلك الأرجاء ودربة جيوشه على القتال فى أرض كأرضها وجو كجوها واعتماد مايلائم القتال من اسلوب وميدان؟ انه بفرض استيلاء ابراهيم باشا على جميع المدن والقرى الواقعة على سواحل البحر الاحمر أفما كان خليقا بالوهابيين ملازمة السكون ريثما

تتاح لهم فرصة الاستيلاء على المواقع الأخرى ؟ ثم من يستطيع اقتحامهم فى ارض غير ممهدة لا يتيسر لغيرهم ان يعيش فيها بقرص ذرة أو شعير وقبضة يد من التمر كما يعيشون ، وليس لغير خيلهم ان يعيش بنوى هذا التمر وبعض الحشائش الطفيلية أو لغير جمالهم ان يقتصر فى غذائه على شوك القتاد والعوسج او يرتوى بما لا يتجاوز رطلا من الماء فى اليوم ؟ كانت هذه الفروض والتخمينات تتوارد على خاطر الزعيم الوهابى فى اثناء زحفه على المهوبة فيقلبها على وجوهها ويزنها بميزان الروية والتبصر .

وفي فجر ٢ مايو اطلقت البنادق ورميت النبال فدل ذلك على دنو المهاجمين ثم لمعت الرماح فى ضوء الشمس تحركها سواعد الوهابيين المتحمسين ، وسمع من بعيد صليل السيوف ووقعها على الدرق . فما هى إلا فترة من الزمن حتى شوهدت اشباحهم النحيلة مختلطة بعضها ببعض فى تدفقهم على المعسكر المصرى مترنمين بأناشيد القتال راقصين رقص الحرب . وكان النظر السطحى على تلك الكائنات التى يكاد يلتصق جلدها بعظمها ضؤولة ونحولا ، وقد حملت فى مناطقها الخناجر ، كافيا للاعتقاد بأنها اشباح عجائز فانيات أفلتن من جهنم ، فاذا ارسلت تلك النظرة من جهة أخرى الى الأجسام العضلية النشيطة ذات الأساطين القوية والعيون التى تقدح شرراً والشعور السوداء والوجه الذى تلوح عليه لوائح الحماس ، وقد حملت السيوف الطويلة

وقبضت بيدها على مقابضها وطرحت الأردية على الأكتاف أيقنت انها كأجسام أبطال اليونان الأقدمين كلهم وثيق الاركان مدمج المفاصل. تلك كانت صفة عساكر ابراهيم باشا الذين شرع الوهابيون يهاجمونهم بدون ان يرسموا لانفسهم خطة أو يأخذوا أهبة. وغاية مافعلوه أن أخذوا يلتمسون المكان الذى يحتشدون فيه دون ان يهتدوا اليه وما برحوا متخبطين حتى كونوا من انفسهم خطا دائرا جاء تكوينه اعتباطا لا دخل فيه لأرادتهم ثم حاولوا الحملة على المصريين فأمر أوزون على بأطلاق البنادق بشدة، وما زال بهم حتى ألزمهم الفرار واقتفى آثار هجانتهم ففرق شملهم واطلق فيهم يده بالضرب والتنكيل وأحسّ عبد الله حرج مركزه وتضعضع احواله فاتجه بفريق من فرسانه نحو معسكر المصريين. وكانت المدافع تعزز جانب المشاة المحاربين بالبنادق فأمر الوهابى رجاله بالانبطاح على الأرض فاغتنم فرسان المصريين فرصة اضطرابهم وترددهم وقلما بدأوا بهذه الحركة للانقضاض على صفوفهم المفككة الاوصال. وكان أحلاف عبد الله من العربان قد ولوا الادبار فأخرج الأمير اشجع هجانته مع فصيلة من العرب المجندين بنجد واليمن فى مقابل أجر قدره سبعة قروش وافية شهريا غير الغذاء من السمن والدقيق، لكنه عبثا حاول الظفر بمراده فقد زاد على فشله أنه أفنى تلك القوة التى طالما احتفظ بها للحوادث الطارئة الخطيرة

ولم يبق أمامه نصيانة حياته من الخطر الا اقتفاء أثر الهاربين .
ولقد زاد به وبرجاله الحرج وعظم خطبهم فما هو إلا كصرة الحالب حتى سمعت تكبيرة تلاها انهم اختطفوا قبل ركونهم الى الفرار ثلاثمائة من جثث قتلاهم ليتولوا دفنها ، اذ من العار العظيم الذى يظل لاصقا بهم ان يتركوا جثث اخوانهم فى العراء وقد اخذ المصريون مائتى أسير كان من بينهم بعض اقرباء عبد الله ولفيف من الاتراك الذين كانوا يقومون على مدافعه وغنموا عدداً وافرا من الجمال والارز والشعير وذخائر الحرب . أما خسارة المصريين فلم تزد على ١٢٠ قتيلا و١٦٨ جريحا على حين ان الوهابيين كانوا من جهة الكثرة عشرة امثال المصريين .

وبينما كان ابراهيم يحافظ على خط الحناكية عملا بأمر والده ريثما ترد اليه الامدادات أرسل فيصل شيخ قبيلة مطير ، وهو الذى قتل زعيم الوهابيين أخاه ، ينبىء الباشا بأنه متى وصل المصريون الى المهوية انضم اليهم وعاهدهم على إبادة الوهابيين وقتل بيده زعيمهم اخذا بثأر أخيه ، فهشّ ابراهيم لهذا النبأ وسارع فى يوم ٣٠ أفريل الى المكان المعين لاجتماعه بفيصل يصحبه اربعمائة من الفرسان ومن مشاة يركبون الهجن وثلاثة آلاف جمل تحمل ما يكفى من المؤن والذخائر لمدة شهر . وفى ٢ مايو جاءه قبيل المساء قاصد ثم ثلاثة عساكر ليخبروه بانهزام الوهابيين فى الواقعة السالفة فأنعم على القاصد الاول الذى حمل

البشرى بمائة ريال وكسوة كاملة . ورأى ابراهيم بعد ذلك ان يحث السير . ولكي يأمن غدر الاعداء ومفاجأتهم جعل للجيش طلائع تقوم بحراسة جناحيه ، فلما وصل الى النقطة المقصودة تهلل الجند فرحا واطلقوا البنادق إيذانا بسرورهم ونزل فى خيمة أوزون على وهنأه هو وغانما شيخ عربان حرب ببسالتهما ، وكان جواد هذا الشيخ قد جرح فى أثناء المعركة كما أصيب أخوه بطعنة رمح . وبعد الاستراحة ساعات تفقد ابراهيم المعسكر فأمر بجمل الاسرى السودانيين خدما فى الجيش . ولما رأى الوهابى ان الدائرة قد دارت عليه عدل عن الزحف على الحجاز وجمع فلوله فى ضاحية عنيزة ثم أرسل الى الرس مددا مؤلفا من مائتى رجل وذخائر كثيرة وقصر همته على إعداد وسائل الدفاع عن عاصمته وعن الولايات الوسطى من مملكته .

أما ابراهيم باشا ففكر ، ويحق له ان يفكر ، فى الاستفادة بمزايا انتصاره فاستقدم حامية الحناكية كلها الا اربعين رجلا منها وكتب الى المدينة فى طلب المؤن والذخائر الحربية والى مكة يستقدم الفرسان الذين كانوا قد وصلوا اليها من مصر منذ أمد قريب لأمداده وترأس فى أثناء ذلك على الحملة التى جردت لمطاردة القبائل المعادية فاجتاز أوعار الجبال ثم عاد بشىء كثير من الجمال والماشية فوزعه على قواد جيشه . وكان التعب قد أنهك

الفرسان وخيلهم فتقرر إمضاء شهر فى التماس الراحة للتقوّى من الضعف والضنى ، وقد وصلت فى خلاله حامية الحناكية والالف ومائتا فارس الذين برحوا مكة.

وفى أوائل يوليو غادر ابراهيم باشا المهوية فى اربعة آلاف راجل والف ومائتى فارس غير العربان وكان ابراهيم قد نهكه الضعف وأدنفته أوصاب الحرب واتعابها فلزم الفراش ستة ايام كاملة ، لكن علته لم تقعده عن العمل ، لأنه أمر أوزون على بالتقدم فى جيش مؤلف من ألفى عسكرى ومساح بثلاثة مدافع ، وما أبل من مرضه حتى استوفز للسير فى أثره .

وكانت الشقة طويلة جمة الأوعار فكان لا يخطو خطوة الا اذا قدّر لها عواقبها تقية المفاجأة ودفعا للحوادث الطرآنية . وكان الماء نادرا آسنا اذا شربه أحد ، بعد بذل العناء وتحمل المشاق فى الاهتداء اليه ، زاده عطشا وألما . وقد حرمت الجمال والنوق الارتواء به ، فحدث أنها كثيرا ما كانت تقضى ثلاثة أيام دون ان تنقع به غلتها . أما فيصل فقد برّ بوعده اذ قابل ابراهيم ووافاه بالمؤن الوافرة والدواب للنقل واندمج هو ورجاله فى الجيش المصرى فصاروا جزءا من الحملة المصرية لا يتجزأ . وكان ابراهيم قد وجه الباشا اليه بكثير من الهدايا فلم يقبلها إلا بعد ان قبل مثلها مشائخ العربان بين المدينة والقسيم . وقد حشد ألفا من المشاة وألفين من الفرسان بعد أن عانى المشاق فى اقناع قبائله

بفائدة البقاء على ولاء المصريين . وكان نفوذه ممتدا الى ما يلى تلك البلاد نظرا لقرابته من الزعيم الوهابى وحسن سمعته فى نجد الوسطى فاستمال الكثيرين من الشيوخ الى مؤازرته والاقتداء به .

وكان منظر بلدة شنانة ، وقد اكتنفتها الاشجار ، ينمّ على وفرة خيراتها . فلما دنا الجيش المصرى منها وجدها قفرا بلقعا ، لأن الذكور القادرين من أهلها على حمل السلاح سيقوا لتعزيز الرسّ البعيدة بمسيرة اثنى عشر يوما عن المدينة . أما الشيوخ والنساء والأطفال فقد فروا الى الشقراء بما ملكت أيمانهم من الماشية والمتاع . وكان التعب والأعياء قد نالا من العساكر فأقاموا أسبوعا فى هذه الواحة الناضرة ثم تحركوا نحو تلك البلدة وتقدمهم الباشا للاستطلاع فى خمسمائة فارس فقتل رجلين وجرح خمسة . وفى اليوم التالى بدأ الحصار ونصب مدافعه فى المواقع الملائمة وعكف على ضرب المدينة ستة أيام ، لكن القدر شاء أن تنجو منازلها واسوارها من ضرر القذائف لجهل القائمين على المدافع بسر الضرب بها فكانت قذائفها تنفجر قبل ان تكمل سيرها فى خطوطها المنحنية . وما وقف الباشا على الحقيقة ، وكانت الساعة الثانية بعد الغروب ، حتى صاح فى رجاله بالحملة وتسلق الأسوار وقد أطلق المدفع إيذانا للمشاة بذلك فركضت الفصائل لاستطلاع مواقع المحصورين ومنعهم من مبارحتها ، وخدع أوزون على العدوّ بتواطئه مع الدلاة والمغاربة اذ تظاهر

بالهجوم عليها فصرف انظارهم بذلك الى غير الذى كان يجب ان تنصرف اليه ، غير ان الاهلين كانوا يتسمعون دويّ المدافع لمعرفة مصدرها فلما عرفوه نهضوا الى الاسوار ولبثوا اربع ساعات يصدون المصريين برماحهم وبنادقهم والمدفعين الوحيدين اللذين كانا تحت ايديهم عندما جاء دور الهجمة الحقيقية . وكان النساء والشيوخ يشجعون المدافعين من خلف الاسوار ويحضونهم على الثبات والاستماتة ويعاونون الجرحى ويضيئون ميدان القتال بسعف النخل الجاف المطلى بالصمغ . وأبدى الفريقان من ضروب البسالة ماقضى بالعجب وانتهى بالمصريين الأمر الى الموافقة على وقف القتال لما أصابهم فيه من الخسائر الفادحة التى بلغت ثمانمائة قتيل وجريح ، ولم تكن خسارة العدو تنقص عن هذا القدر .

وقد عزز ابراهيم جيشه بتسعمائة جندى بقيادة البكباشى ياور على فقرر استئناف الهجوم عند طلوع الفجر . وكان قد أمر بقطع النخل الكبير ليقيم به المتاريس فى جهات متفرقة وجعلها بارتفاع بضعة أمتار بعد اذ ثبت له ان فشل الهجمة السابقة يرجع الى قلة المرتفعات التى تمكن الجنود من ضبط مرمى القذائف . غير أن المهندس لم يفهم مراده على وجهه ، فبدلا من ان يحتفظ بتلك الاشجار كاملة قطعها قطعا صغيرة ورتبها اكواما ، وكان حقه أن يجعلها صفوفا باتجاه طولها لتسند ما سيوضع من التراب خلفها . دع ان وضعها على الترتيب الأول كان لايكفل متانتها ،

ولهذا لم يبدأ اطلاق المدافع حتى نشأ عن تراجعها الى الخلف ، وهو مالامناص منه كلما ضربت ، سقوط تلك الأخشاب من مكانها فبث هذا الحادث فى نفوس المحصورين بريقا من الأمل تعزز به جانبهم فى صد المراكز الامامية والانقضاض على المدافع ، غير انهم بدلا من أن يسدوا ثقوبها بالمسامير لتصبح غير صالحة للاستعمال أخذوا يدوسونها بالاقدام ،وكان رجال ياور على فى أثناء القتال يتقدمون الى الأمام فأصيب بجرح بالغ ، فلما رأى المصريون ماحل بهم بثوا ثلاثة ألغام فلم تف بالمراد لتيقظ الحامية الوهابية وذهبت حيل المصريين للاستيلاء على الموقع هباء ولم يبق لهم من وسيله يعتمدون عليها الا الهجوم عنوة فقاموا به ، لكنه كان ، كالهجومين السابقين ، على غير جدوى .

وكان موقف ابراهيم حرجا لأن ثلاثة آلاف من رجاله هلكوا أمام الرس ونفدت ذخائره وتهددت المجاعه بقية جيشه ولم يبق له أمل فى عون ولا مدد ، فضلا عن انه صار فى عزلة بالصحراء ، على بعد سحيق من مصادر النجدة . وكان معسكر عبد الله بن سعود بين عنيزة و (رودة) ، فوالى اخوه فيصل الاستطلاع حول الرس فلم يجد مايحول دون امدادها وتعزيزها . ولو ان غير ابراهيم وقف فى مثل موقفه ، ولم يكن مثله على إرث من الجلد والثبات وحضور البديهة ، بل كان سريع الجزع والتروع سريع الفيئة الى اليأس امام الحوادث خصوصا اذا

قلبت له ظهر المجن، لترك ميدان القتال يائسا وانقلب من فوره الى الحجاز . اما وهو ابراهيم بذاته فقد بقى، على الرغم من فداحة الكارثة التى نزلت به وبجيشه ،ثبت الجنان صلب الارادة ثقب الرأى فلم يأبه لها، غير أن الكارثة لم تقف عند هذا الحد . فقد ثارت عليه أيضا عناصر الطبيعة واتحدت ضده مع العدو، لأن الزوابع والعواصف ثار ثائرها على وجه لم يكن لأحد عهد به من قبل فهبت الرياح الشديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المضارب والخيام وتقف تنفس الانسان والحيوان وتعطل حركتهما وسقط الجرحى على الارض بلا حراك والاصحاء بلا قوة وحل اليأس من النفوس محل الأمل وبدأت الامراض تعتور الاجسام وتصيبها بأشد الآلام. أما الوهابيون فقد أخذت فصائلهم تنتشر فى البلاد فتسلب الجمال وتأسر قادتها وحراسها . ومع اشتداد تلك العواصف التى كانت تهز طبيعة الكون كما تهز الآخذة من يصاب بها فان ابراهيم كان لايزال ثابتا كالصخر الصلد، لأنه وقد أحدقت به الاخطار، كان لايفكر فى غير الفتح والانتصار . ولقد امتطي جواده فى أحد هذه الأيام العصيبة وسار فى ألف فارس فانقضّ على شراذم العدو فمزق شملها كل ممزق وأثخن فيهم فقتل وجرح ثلاثمائة من رجاله، وحزّ رؤوس الجرحى وعرضها مرفوعة على العصى أمام الرسّ . وكان يرمى بهذا الفعل الى التأثير فى نفوس المحصورين والقاء الفزع

فى روعهم، إلا أنه لم يظفر بمراده لأنه بث بفعله فى نفوسهم النشاط والهمة وحفزها للأخذ بالثأر فاندفعوا خارج الأسوار واشتبكوا برجاله فى معركة سالت الدماء فيها غدرانا .

وكانت ماجريات الاحوال الى هنا ملائمة لمقاصد الزعيم الوهابى ومؤاتية لأمانيه ومساعدة على التمهيد لانقاذ بلاده من خطر كان منها قاب قوسين أو أدنى ، لكنه بدلا من ان يأتي بعمل حاسم تواطأت البوادر على نجاحه بما توافر له حينئذ من همة وثابة وارادة قوية انزوى فى عقر داره واستنام الى حوادث ظفره مضحيا المصلحة العامة فى سبيل تجارته تاركا قواده وشأنهم يقتحمون غمار الحرب ضد المصريين مكتفيا من اعبائها وتكاليفها والتزاماتها بايفاد اثنين من مقربيه للمفاوضة فى الصلح ، وهما الشيخ محمد الحنبلى والشيخ عبد العزيز بن محمد . ولقد سألا ابراهيم أن يبرمه لهما واشترطا فى مقابل الموافقة عليه رفع الحصار فورا ، فكان جوابه أن انذر محمدا بن مزران ، حاكم الرس ، بوجوب تسليم المدينة اليه فرد عليه هذا بقوله : « تعال خذها » فاستؤنف القتال بين الفريقين . وتابع عبد الله مخابرات الصلح التى بدأ بها ، رجاء التسويف والمطاولة فيها حتى يتوافر لاخوانه الوقت اللازم للاحتشاد . ولم تغب هذه الحيلة عن خاطر الباشا فطلب منه فى مقابل ابرامه ان يسدد له نفقات الحرب ويدفع متأخر الرواتب لجنده ويقدم ألفى جواد وثلاثة آلاف هجينة وما

يحتاجه الجيش من المؤنة والعلوفة لستة اشهر ويضع اثنين من ابنائه عنده رهنا على هذه الشروط الفادحة التى ترجع فداحتها الى ما أظهره عبد الله من الذلة والاستكانة على وجه مهد لخصمه الطريق لفرض مايبغى من الشروط والكلام بلهجة الغالب لا المغلوب ، فقال صالح بن الرشيد المندوب الوهابى أن خصم الامير المصرى لم يكن فلاحا ولا من رعايا محمد على وإنما هو أمير نجد وصاحبها وحاكمها . وظهرت طلائع المشاة من الطرفين ، فلم يبتّ شىء فى الصلح المنشود .

وكان سكان الرس قد ملوا انتظار وصول المدد اليهم ولم تعد لهم طاقة برؤية البيوت تمتد لها يد التخريب وأرواح الاهلين يحصدها الموت منذ ثلاثة عشر شهراً وسبعة عشر يوماً وتولاهم اليأس فعولوا هم وحاكمهم على أن يسألوا ابراهيم هدنة شريفة ، فتم الاتفاق بين الطرفين على رفع الحصار وإطلاق الحرية للحاكم فى الذهاب بجيشه الى حيث يريد إلا الى داخل الرس وإعفاء الأهلين من المغارم المختلفة كالمؤن والأموال وما جرى مجراهما من مطالب الحرب وفروضها ، وقبل الوهابيون ازاء هذه الشروط وضع حامية مصرية فى مدينتهم إذا وقعت عنيزة فى أيدى المصريين .

ولقد بلغ عدد الذين قتلوا ودفنوا حول أسوار الرس ثلاثة آلاف وأربعمائة على الأقل ، إلا أن هذه الخسارة البالغة لم تفتّ

فى عضد ابراهيم ولم تزعزع عزيمته ، لأنه كان جريئاً لاتصده العقبات عن ملاحقة أغراضه حتى النهاية . فقد زحف بمن بقى معه من الجنود فكان الانتصار معقوداً بحركاته . وقد وصل الى (الخبراء) فلم تلبث ، بعد مقاومة ضعيفة ، أن فتحت أبوابها لجنوده الذين كانوا فى افتقار شديد الى الراحة فأركنوا اليها أحد عشر يوماً كان السكان فى خلالها يقدمون اليهم حاجتهم من الشعير والقمح وما اليهما من حاجيات المعيشة التى بادر الباشا بدفع أثمانها عن سعة ، لتذهب له بين قبائل العرب شهرة بالبذل والانصاف والأمانة وليضرب الناس به المثل فى هذه الفضائل . وأبرم زعيم الوهابيين اتفاقية الرس ثم عطف على جهة بوريدة ، وكان قد نصب خيامه فى عنيزة ومضت عليه بها ثمانى ساعات تمكن المصريون فى خلالها من إقامة معسكرهم ، لان مدداً مؤلفاً من ثلاثمائة فارس بقيادة رشوان أغا كان قد وصل اليها فهيأ ابراهيم مدافعه للقتال . وكان ذلك الموقع تحت قيادة محمد بن حسن وبه قلعة منظمة مشيدة على بعد ربع فرسخ من السور فسلمت القلعة بعد ضرب عنيف بالمدافع ستة أيام تباعا وانتهى الضرب بانفجار مستودع للبارود . وقد تروع الجنود لهذا الحادث وداخلهم الجزع فلاذوا بالفرار دون أن ينتظروا عقد التسليم الذى وقع الرؤساء عليه . وقد أبان ابراهيم لهم أنه كان الاولى بهم اللياذ به والاعتماد على رحمته وعطفه بدلا من أن يلوذوا بالفرار . ثم أباح لهم الذهاب

الى حيث يشاءون على شريطة ألا يحملوا معهم سلاحاً ولا يأخذوا مدفعاً ولا شيء من المؤن والأمتعة . وألزمت المدينة بأحد أمرين اما تموين الجيش المصرى بما يحتاج اليه من المؤن والعلوفة وإما دفع المال الكافى لشراء ذلك . ونشأ عن الاستيلاء على عنيزة التى كان يضاعف أهميتها فى نظر الطرفين المتحاربين أنها فى منتصف الطريق بين البحرين أن اضطر الزعيم الوهابى الى الانسحاب نحو الشقراء والاشتغال بتحصين الدرعية . وتنفيذا للاتفاق الذى عقد مع أهالي الرس أقيمت بها حامية مصرية فقد كان من شروطه ، كما تقدم ، إقامة هذه الحامية بها إذا سقطت عنيزة .

ولما شهد أهل القسيم ، وهى مقاطعة غنية بالحاصلات وآهلة بالسكان ، ماحل بعنيزة ، أقروا بالطاعة لأبراهيم الذى باستيلائه على هذه البلاد أصبح الطريق الموصل الى عاصمة الوهابيين مفتوحاً أمامهم . ولم يكن فيه مايعترض سيره أو يصعبه سوى مقاطقة وشم وسلسلة من الصحارى متصل بعضها ببعض وجملة من المدن .

وكان ابراهيم ببلوغه الى هذا المكان قد تجاوز الحدود التى هى أقصى مابلغ اليه أخوه طوسن فى حملته من الحدود ، فرأى ان من الحكمة قبل الايغال فى نجد الاحتفاظ بموقع حصين للاعتصام به عند الحاجة فأمر بترميم قلعة عنيزة وقطع نحو ستة آلاف نخله لنصب بطاريات المدافع من ورائها واقامة سياج

لمسكر حصين ثم أرسل الرسل الى مصر ليذيع بين أهلها بشرى الفوز على الوهابيين . وكان مما عقدالنية عليه الانتظار ريثما تصل اليه الامدادات والمؤن ليستأنف الاجراءات الحربية ، غير ان من كان مثله فى الهمة والجد فى العمل لايحب التريث والانتظار ، ولذا بادر بالزحف على بوريدة وظل يطلق القنابل عليها حتى هدم اسوارها واستولى على احدى قلاعها ورمى اعناق حاميتها المؤلفة من مائتى مقاتل .

وكان سعدون قد حصر حاكمها (عجيلا) مدة خمسة أشهر فقاومه هذا مقاومة عنيفة وصد فى سنة ١٧٨٠ بسيفه أهل الاحساء وأحرق معاقلهم وأخذ خيامهم وألقى الروع فى أفئدتهم وهزمهم وبدد شملهم وأعجزهم عن اخذ جثث قتلاهم ليتولوا دفنها بانفسهم كعادتهم . ذاك البطل الباسل هو الذى أرغمته حظوظ القتال على ان يوفد ابنه الى ابراهيم باشا ليستميحه الاذن له بالاقامة فى المدينة ، فأجابه الى طلبه وذهب اليها للاقامة بها ، لكنه لم يكد يظفر بهذه الأمنية حتى عاجلته المنية فيها . وعلى اثر سقوط بوريدة دمرت ابراجها وحصونها وتفرغ الباشا لتدبير الأغذية والمؤن وتقوية مواطن الضعف في جيشه بما تكبد من خسائر أو اضطر اليه اضطرارا من ترك بعض فصائله فى الرس وعنيزة . وقد كان وقتئذ على وشك ان يترك فصائل اخرى منه فى بوريدة لدى مبارحته لها لصد الغارات عنها .

ولقد كتب الى والده فى هذا الشأن يسأله التعجيل بالمدد فلبي على الفور نداءه وتحرك هذا المدد مع قافلة محملة بالمؤن والذخائر بقيادة كيخيا ابراهيم باشا ، غير أن هذا القائد ما كاد يبتعد عن القاهرة بمسيرة يومين حتى ترك حملته فجأة وفر قاصدا الى الشام آخذا معه الاربعة وعشرين الف كيس من النقود التي كلف توصيلها الى ابراهيم باشا ، وكان هذا المبلغ كل ماجمع من فرضة ضربت على أراضى القطر المصرى بعضها بنسبة سبعة قروش عن كل فدان من الارض الجيدة وستة عن المتوسطة لينفق منها على الحملة ، وحدثت فى بوريدة حوادث ليست أقل من تلك أثرا فى الحالة النفسية للجنود المصرية .

من ذلك ان البكباشية اعتادوا كلما تسلموا مرتبات جنودهم تقديم احصاء عنهم يتجاوز عددهم الحقيقى ، فراب ابراهيم من هذا الامر شيء باديء ذى بدء . ولكى يستجلى الحقيقة أخذ ، كلما عرض الجنود ، يحصى عددهم فى سره ويقدرهم تقديرا دقيقا واستشعر البكباشية مايجرى فى نفسه من سوء الظن بهم فاسقطوا فى ايديهم . وكان العرض للمناورات والتدريبات الحربية لا يلائم امزجتهم ولا يتفق مع ميول العساكر لما جبلوا عليه من الخمول وحب الدعة ، فحدث يوما ان ضجر ابراهيم باشا من قضاء النهار فى مقابلة مشايخ القبائل والقرى فاستدعى لفيفا من الملمين بالسير ووقائع التاريخ ليجلو بمسامراتهم صدأ الملال عن نفسه ،

وبينا كان يقطع الوقت فى سماع طرائفهم ، اذا بسرادقه يضطرم نارا ويذهب هباء قبل أن يتمكن أحد من استنقاذ شيء من محتوياته الغالية النفيسة . وكانت دلائل سوء النية فى هذا الحادث محسوسة ملموسة ، اذ ثبت ان الذين اقترفوه إنما كانوا يدبرون فى الخفاء منذ زمن وسيلة للخلاص من القائد . فلما طاش سهمهم وخاب في المكيدة فألهم عمدوا الى غيرها وسنتبين كوامن اسرارها مما يلى : بينما كان الفرسان يقومون بالتدريباب النارية فى وقت الظهيرة اذا برصاصة اخترقت عمة ابراهيم فثبت بعد التحقيق ان مطلقها مغربى أطلق ساقيه للريح بعد قذفها . على ان الامدادت المنتظرة وصلت بعد ذلك بقليل مؤلفة من ثمانمائة رجل ومدفعين من مدافع الحصار وجمال كثيرة ومؤن وذخائر ، فاصبح الجيش المصرى بها مؤلفاً من اربعة آلاف ألبانى ومصرى وخمسمائة مغربى تحت قيادة حسن كاشف ثم من عربان قبائل مطير وحرب وبنى خالد وعتيبة الذين كان مشائخهم يقيمون فى المعسكر المصرى العام ويقومون بالاستطلاع للجيش المصرى وحراسة قوافل الميرة والعلوفة والذخيرة . وكان مع هذا الجيش غير المدافع المتقدمة اثنى عشر مدفعاً وبضعة آلاف من الخدم وعشرة آلاف دابة للنقل . وكانت معدات هذه الكائنات المختلفة تهضم طبعا المؤن المدخرة بتعاقب الأيام .

ونمى الى ابراهيم باشا خبر اهتمام الوهابيين بتشييد الحصون

والاستحكامات حول الشقراء للدفاع عنها فأمر فرسانه بالزحف عليها وسار هو في أثرهم يوم ١٨ صفر ١٢٣٣ الموافق ٢٨ دسمبر ١٨١٧ تاركا بوريدة التى أقام فيها شهرين كاملين فبلغ الى أسوار المذنب واستولى عليه وأصبح من عاصمة الوهابيين بذلك قيد مائتي كيلو متر كلها جبال صخرية وفياف قاحلة . ولقد رسم لجيشه خطة الزحف عليها كما يأتى : الفرسان فى الطليعة والمشاة والمدفعية ودواب النقل فى الوسط والمغاربة فى المؤخرة على مسافة سحيقة منه . وكانت الجيوش تسير سيرا وئيدا بمتوسط ست ساعات فى كل ٢٤ ساعة تفاديا من مشاق الرحلة . وكانت تتراءى للانظار بين حين وآخر فى تلك القفار الواسعة نخلة أو كوخ منفرد فيخيل للرائى ان وراء الاكمة ماوراءها ، وتنازع الجند مقدما على من هو الاحق بالاستئثار بثمار الشجرة أو أوراقها أو الماء الذى يرجى أن يكون بجوارها ، ولكم خاب رجاؤهم كلما وصلوا فوجدوا الكوخ شاغرا من السكان والنخل بلا ثمر والآبار بلا ماء . وكانت الانظار بعد ذلك لا تقع إلا على صورة مجسمة من صور الخراب المحزن بل على نتيجة من نتائج استبداد الأمير الوهابي وعنته . ولقد حشد عربان القبائل الموالية له حول درامة والدرعية للذود عنهما فخرب منازلهم وأتلف مزارعهم . وكانت الشمس فى أثناء زحف الجيش ترشق الجباه بسهام أشعتها المحرقة واقدام الزاحفين تهوى فى اخاديد الارض أو تنغرز فى الرمال

المتحركة . وكان كلما قضت الضرورة بالصعود من اكمة أو جبل أو هضبة ركب العساكر الجمال مثنى مثنى ، بينما كان ابراهيم باشا فى مقدمة الجميع يسير على قدميه ليكون لهم قدوة حسنة فى الصبر والاقدام .

ولما لاحت له الشقراء نصب مخيمه على ١٦ كيلو متراً منها بين قريتين أذعن سكانهما له بالطاعة ، ثم تواردت الأنباء بأن حسن باشا والى مكة أدّب عرب اليمن تأديباً زاجراً اذ كانت شراذمهم تغير على الاقطار الحجازية بين آن وآن فتلحق بها الاذى وقتل ثلاثمائة من رجال الشريف حموده ابو مسمار . وفى ٥ ربيع الاول سنة ١٢٣٣ الموافق ١٣ يناير سنة ١٨١٨ خرج ابراهيم فى ثلاثمائة فارس للاستطلاع حول الشقراء واختيار الموقع المناسب لأقامة معسكره فحدثت بينه وبين حاميتها مناوشات جرح فيها بعض عساكره . فلما كان المساء عاد الى معسكره وابلغ الى القواد ان يتأهبوا للزحف فأخذوا له عدتهم بحيث إنه لم تشرق شمس اليوم التالى حتى كان جيشه المؤلف من اربعة آلاف وخمسمائة فارس وراجل وستة آلاف جمل محمل بالمؤن والذخائر قد استأنف المسير . ومما هو جدير بالذكر أن المدفعية لقيت فى سيرها على الرمال أشد العناء ، فلم يمنعها هذا من الوصول فى أحسن حال الى الموقع الذى اختاره ابراهيم للقتال فنصبوا مدافعهم على مرتفع من الارض ثم بدأوا باطلاق القنابل منه

وساعدهم المشاة باطلاق البنادق من جنوب المدينة وشرقها واستمر القتال الى ليل ٨ ربيع الموافق ١٦ يناير سنة ١٨١٨ وفى هـذا اليوم فتحت القذائف ثلمة فى اسوار الحـدائق المحيطة بالشقراء فحمل المصريون على المنازل القائمة خارج السور فصدهم الوهابيون بعنف وبسالة ، الا أن التلف الذى احدثته كان قد افزعهم وقذف الرعب فى نفوسهم فانسحبوا الى داخل المدينة. وبلغت خسائر الجيش المصرى فى هذه المعركة مائة جريح واثنين واربعين قتيلا وأسيرين . ولم يلبث أن وردت عليه أعلام كثيره مما خسره العدو وآذان مائة وثمانية وستين قتيلا و بادر الباشا بعد ذلك فضرب حول المواقع الخارجية نطاقا من الجنود وعهد باعمال الحصر الى مسيحي ، وهو الضابط الفرنسى فيسيير ، على الرغم من تذمر العساكر واحتجاج القواد ، فشيدت جملة معاقل وأطلقت القنابل منها فى الوقت الذى كان فرسان المغاربة فيه يعودون من غزوة ضد قبائل العدو مثقلين بالغنائم الوافرة من الماشية والجمال والامتعة. وفي مساء ١٩ يناير اختار السكان والحامية الوهابية رجلا من بينهم لمفاوضة القائد المصرى فذهب هذا الرجل الى المعسكر العام للمصريين ووقف القتال ساعتين ، فلما لم تنجل المفاوضة فيهما عن نتيجة استؤنف القتال واستمر الى ١٣ ربيع الأول الموافق ٢١ يناير . وفى هذا اليوم ندب قائد وهابى لمفاوضة ابراهيم باشا فى الصلح فوقع الاختيار على احمد بن يحيي

صهر عبد الله بن سعود وهو حاكم الموقع ، فسلم ابراهيم اليه شارة الأمان ، وهى منديل ابيض ، وفتحت الابواب بناء على ذلك في ساعة الظهر . وفى ١٤ ربيع الاول الموافق ٢٢ يناير ألقى رجال الحامية السلاح ، وكان عددهم ألفا واربعمائة ، عملا بالاتفاق الذى أدت المفاوضة اليه وانصرفوا الى بلادهم بعد ان تعهدوا بالعدول عن حمل السلاح ومحاربة المصريين به ، منذ الآن فصاعدا . وتسلم ابراهيم معدات القتال التى كانت فى البلدة ، وهى خمسة مدافع كان يقوم على ادارتها رجل خائن من جيش طوسن باشا وأمتعة العسكر والذخائر والاسلحة ففرق ابراهيم الرماح والبنادق والبارود على القبائل الموالية له فى نجد وأرسل الى والده بالقاهرة مقدارا وافرا من الآذان المصلومة واخبره بقرب الزحف على الدرعية .

وقد كفى ما كان بالبلدة من القمح والشعير والأرز لمؤونة الجيش شهرا كاملا . وكان استيلاء الباشا عليها بالشراء لا بالمصادرة أو الغصب ، فكان سلوكه على هذا الوجه نقيض سلوك عبد الله بن سعود الذى انشأ الحصون وحفر الخنادق تسخيرا ، لم يدفع فى مقابله أجرا للعمال ولم يزوّدهم طعاما . وبلغت خسارة المحصورين فى الايام الستة التى قاوموا فيها مائة وسبعين قتيلا ومائتين واربعين جريحا ومن هؤلاء خمس وثلاثون امرأة واثنى عشر طفلا .

أما خسارة المصريين فلم تتجاوز مائة وثلاثين قتيلا وجريحا، وهذا بلا شك ثمن بخس لمثل ذلك الموقع الحصين، مفتاح العاصمة الوهابية. ومن مزايا الشقراء غير ما تقدم أنها قاعدة اقليم الوشم وأنها قائمة فى سهل لايبعد عن المدينة بأكثر من ١١٢ كيلو مترا وأنها خط الاتصال بالجهات الغربية التى يخترقها الطريق بين الرس والدرعية، دع ان جبال الطريق تحيط بها من جميع الجهات. ولها تجارة رائجة مع دمشق وبغداد والبصرة فى الماشية والأصواف والسجاجيد. وفيها مساجد عديدة وشوارع عريضة تحف بها من الجانبين اشجار باسقة. أما رجالها فقد امتازوا بالنشاط واكرام الغريب، وأما نساؤها فمن الجمال والعفاف بما يصح ان يكون مضرب الامثال وجوّها من الاعتدال وأخلاق أهلها من الدماثة والسكون على جانب كبير. ولتوافر هذه المزايا فيهم تجدهم يعمرون طويلا، فقد رأى المصريون بها امرأة فى السابعة عشرة بعد المائة من عمرها لم تفقد شعرة من شعرها ولم يتغير شىء من معالم جسمها وحسن ضبطها لمخارج الحروف فى عذوبة لفظ ورخامة صوت. وقد استرعاهم مرة منظر فتاة فى الثانية عشرة من عمرها صهباء شعر الرأس كالفتاة الانجليزية فرجحوا أن تكون فارسية الأصل من فارس الشمالية وأن أباها تركها فى هذا المكان بعد أن قضى فريضة الحج.

فكر ابراهيم فى الزحف على الشقراء لكنه قبل ارتحاله اليها عنى بانشاء مستشفى عهد ادارته الى الطبيب جنتيلى ليباشر فيه علاج ثلاثمائة من المرضى والجرحى الذين كان مضطرا الى ان يتركهم حيث هم . وعلى اثر مغادرته للشقراء هطلت أمطار غزيرة فاضت بسببها الاودية وطغت المياه فأتلفت جزءا من المؤن وألزمته نصب مخيمه على سفح الجبل المجاور ، ولم تكد الارض تجف بعد ذلك وتصلح لسير المدافع عليها حتى أمر الجيش باستئناف الزحف فعنت لطاعته فى الطريق قرى كثيرة وقد وجد قرى اخرى خالية من ساكنيها لأن الزعيم الوهابى كان قد أمر باخراجهم من دورهم واحضارهم الى الاحساء مع مايملكون من قطعان ماشية واغنام ، اذ فى الاحساء صرف كل جهوده الى حشد اكثر مايستطيع من الجند . وكانت درامة التى تحميها أسوار الحدائق والحقول النسيحة المغروسة بالأشجار ومختلف النباتات فى مدخل المضيق المؤدى الى جبل الطويق على مسافة ٤٠ كيلومترا ، فأنها الموقع المقابل للدرعية . وما ان وصلت طلائع الجيش المصرى اليها حتى تلقاها الأهلون بنار حامية فثارت فى العساكر ثائرة الغضب وركبوا رؤوسهم فانقضوا على المدينة ينهبون ويسلبون وينتهكون الاعراض ويرمون اعناق الرجال حتى ارتوت الارض بالدماء فى المنازل والطرقات . والذين منهم نجوا من الموت قد ابيح لهم المقام بين هذه الاطلال الدارسة

على مقربة من جثة أب او أخ او أشلاء زوج . وكان والى البلدة
سعود بن عبد الله ، قد اعتصم ، مع من يثق بهم من رجاله ،
ببناء فسيح نقل معه اليه اسلحته وخيوله ووضع امام البناء
مدفعين . فلما شهد ابراهيم ذلك أمر بوقف الهجوم وقال إن
فيما وقع من حوادث التشفى والانتقام مايوجب الامساك عن
هدر الدماء وانه يعفو عمن لايزالون يدافعون عن درامة اذا هم
تعهدوا بالقاء السلاح وبأن لاينقلوا معهم متاعا اذا رحلوا ولا
يشتركوا فى قتال ضد المصريين . وقد وجد هؤلاء من المؤن
والأغذية فى درامة ماعوضوا به المستنفد من مؤونتهم ، فان
الارض فى هذه البقعة شديدة الخصب وفيرة الخيرات وفيها
تتزود القوافل الذاهبة الى فارس ومكة كل ماتفتقر اليه فى
سفرها فضلا عن كفايتها لسد حاجات سكانها الذين كانوا يبلغون
٧٥٠٠ نسمة عدًّا ، أما سكان الدرعية فكان عددهم غير الاطفال
يبلغ ١٣٠٠٠ نسمة . وقد اتفق ان هطلت الامطار وهبت
العواصف فعاقت ابراهيم عن المسير اذ أنه لم يبرح تلك البلدة
الا يوم ١٤ جمادى الاولى الموافق ٢٢ مارس . وكان جيشه مؤلفا
من ٥٥٠٠ فارس وراجل و ١٢ مدفعا منها اثنان من مدافع
الهاون ومثلهما لقذف القنابل المستطيلة ، فوصل بهذا الجيش
الكثيف الى الملكه القريبة من الدرعية واضطر فى قطع شطر
من هذا الطريق الى السير فى الجبال والمضائق الوعرة . وفى

اليوم التالى خرج ابراهيم فى ثمانمائة فارس ومدفع واحد فبلغ الى استحكامات العاصمة الوهابية . وحدثت مناوشات بين الفريقين انجلت عن قتل بعض الجند من الطرفين ، وعاد الامير إلى معسكره بعد ان عجم عود العدو ووقف على مايجب ان يتخذه من التدابير والاجراءات فى قتاله . ففى جمادى الاولى الموافق ٦ افريل ١٨١٨ أقام حصونه الامامية أمام مواقع العدو بعيدا عن مرمى المدافع منها . فعين الوهابيون النقط التى ارتأوا انها أوفق مايكون لهم فى القتال وخرج جيش منهم مؤلف من ألفى رجل بقيادة فيصل أخى عبد الله فشيد ، على مرمى البندقة من الاستحكامات المصرية ، استحكامات موازية لها ورأى المصريون ذلك فشيدوا جملة معاقل واتخذوا الوسائط لاكراه العدو على ترك القلاع والآكام التى كان فيها .

أما الدرعية وهى قاعدة ارتكاز الوهابيين ومركز حشدهم وتعبئتهم وعاصمة اقليم نجد وقاعدة (العارض) فموقعها في الجزء الشرقى من بلاد العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من ينبع فى خط مستقيم ينتهى بواد معروف بالخصب بين جبلين فيهما عيون دافقة بالماء ويمر بها مسيل الباتن الذى يجف طول السنة إلا فى فصل الشتاء ويروى على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا حقول القمح وكروم العنب وغابات النخل . وهنالك مروج واسعة ترعاها قطعان الماشية والاغنام فتدر اللبن وتعطى الجبن واللحم .

وتؤخذ بقية حاجات المعيشة والحبوب الضرورية لغذاء الطيور والحيوانات الداجنة من الاراضى الأخرى الصالحة للزرع . اما التجارة فنافقة السوق ؛ ومن صناعاتها الرائجة صناعة القلنسوات السوداء الطويلة الشائعة الاستعمال فى الشرق . أما موقع المدينة فحسن ومناخها . طيب وكان الناس يعتقدون انه من أمنع المواقع لأنه لايفضى من الغرب اليه سوى حلق ضيق من حلوق الجبل ، وفيه الخطر كله على من يريد الهجوم . أما الجهات الباقية فتحميها النفود الواقعة على مسافات بعيدة منها ، والنفود هى الفيافى الرملية التى لاماء فيها على الاطلاق .

ومما هو خليق بالذكر ان الدرعية تتألف من خمس مدن صغيرة ، لكل مدينة منها أبواب وأسوار خاصة تتخللها الحصون والابراج . وكان من بين قلاعها فى مدة الحرب قلعة تحمى حىّ الطرفية وحىّ العسيبة المستندين الى القلعة وأكمة عالية بجوارها . وكان مقام زعيم الوهابيين فى حى الطرفية الذى تفصله عن السهل قناة لماء السيل . أما حى القصرين فيمتد بين الحدائق الغناء ، وقد هجره سكانه منذ بداية الحصار الى الاحياء الأخرى للاحتماء بمنازلها . ومحيط هذه الاحياء اثنا عشر كيلو مترا ، وهى دائرة كان من المتعذر حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل اى باربعة أضعاف جيش ابراهيم باشا . لهذا كان اول ما انصرفت عنايته اليه حشد قواه كلها فى نقطة واحدة للهجوم بها على

حصن هناك سناده أكمة مرتفعة . ففى ليلة ١٢ افريل ١٨١٨ نصب ابراهيم تحت جنح الظلام مدافع بطريتين فى الاماكن الملائمة للقتال . وما أسفر صبح ١٤ افريل حتى بدأت هذه المدافع تقذف حممها وأمر البكباشية بتعزيز جانبها فقام الدلاة والايشاغاسية بحراسة مضيق المسيل وأخذ رشوان أغا يعزز مواقع العربان المصريين على خط الصحراء وأحدثت قذائف المدفعية ثلمة فى القلعة السالفة الذكر فانقض برج من ابراجها وفرّ حماته تاركين جرحاهم ومدفعين وكثيرا من المؤن وذخائر الحرب وامتعة العساكر ، فطوردوا مطاردة عنيفة حتى بلغوا حدائق المدينة وأسر منهم كثيرون . ولبث ابراهيم بعد ذلك ينتظر ورود الامدادات اليه ليتوّج براعة هذا الاستهلال المجيد بحسن الختام .

أما الزعيم الوهابى فلم يدع وسيلة الا اتخذها لبث الحماس فى نفوس رجاله ، فكان يوزع الذهب عليهم والثياب ويعين للمشايخ المواقع المهمة . وأخذ صنائعه يكررون على المسامع انه لا ينبغى الاصغاء منذ الآن لصوت غير صوت الانتقام من عدو بنى خطته فى قتالهم على نهب المدن وهدم المساجد وذبح الرجال وسبي النساء . وعول الباشا بعد أن قضى الايام السابقة فى مناوشة النقط الامامية على الاشتغال فى ساعات فراغه بالاعمال المنتجة فمن ذلك انه كشف مدفعين للعدوّ وضعا على قمة

أكمة ، وكان يخشى ضررها ، فأمر رجاله بأخذها عنوة فحمل كل من أوزون على ورشوان أغا حملة جانبية صادقة على الوهابيين فقاوموا مقاومة عنيفة نحو نصف الساعة ثم تقهقروا الى المدينة للاعتصام بها وقد قتل فى هذه المعركة سليم أغا خازندار ابراهيم.

وتروّى فيصل بن سعود مليا فى نتائج هذا الفوز الباهر فأيقن ان استحكاماته أصبحت معرضة للخطر وأن وصول المدد اليه من الخارج متعذر ان لم يكن مستحيلا ، فانسحب فى قوته وحشده الى وسط الحدائق مستعصما بما فيها من الاستحكامات.

وقد ضاعف نشاط المصريين وحفز هممهم وقوّى رجاءهم فى النجاح وصول ١٥٠٠ جمل اليهم محملة بالارز والشعير والدقيق ، كان والى البصرة قد بعث بها اليه . واتصل بالباشا فى الآن نفسه ان والده ارسل اليه فرقة من المغاربة ومدافع وأدوات للقتال ، فضلا عن أن المرضى والجرحى الذين تركهم فى مستشفى الشقراء كانوا قد أبلوا من امراضهم فعادوا الى صفوفهم ووصلت بعد هذا وذاك قوافل من المدينة وعنيزه ومعها ٥٠٠ رأس من الضأن وشيء كثير من البقسماط والقمح والشعير والسمن والبارود والقنابل ، فلما شهد الجنود ذلك بدت عليهم آيات السرور والبشر .

وحاول الوهابيون الخروج لمهاجمة معسكر رشوان اغا فى الجناح الأيسر فصدوا بعنف وخافوا ان يهجم المصريون

عليهم لمقابلة المثل بالمثل فأقاموا الاسوار وحفروا الخنادق. ولقد تركهم المصريون يعملون فى اقامتها دون ان يتعرضوا لهم. وقد أتموها على احسن وجه واتقنه، وكان لا يمضى يوم الا ازداد المصريون فيه اعتقادا بوجوب الضن بدمائهم وارواحهم لما انتابهم فى هذه الفترة من الامراض التى أضعفت جانبهم ولما فى بروزهم الى القتال، وهم فى مثل هذه الحالة من انتهاك القوى، من المجازفة بهم فى اخطار لا ثمرة من ورائها، دع ما فى بقائهم تحت السلاح ست ساعات يوميا لا لغرض الا الاشتباك بالعدو فى مناوشات لا نتيجة لها ورد غاراته الفجائية من إيهان قواهم المعنوية وتسلط الملل على نفوسهم تسلطا يفتح لليأس ابوابا الى قلوبهم. وقد بدا من الجانب المصرى للاسباب المتقدمة تساهل كبير فى معاملة اعدائهم حتى كانوا يدعون لمشايخ العربان الذين يقصدون الى الدرعية لتلقى الاوامر من زعيمهم ويؤثرون على مقابلته بيع قطعانهم ومؤنهم للمصريين، حرية الدخول فى معسكرهم للاتجار بها. واكثر من هذا فقد اباحوا للواردين من اقاصى الاحساء بالامدادات اللازمة للوهابيين الدخول فى الدرعية دون ان يتعرضوا لهم بأذى. وعلى الجملة فقد عمد المصريون الى معاملة اعدائهم بمثل هذا التساهل لغرضين احدهما ما كانوا فيه من ضعف وقلة والثانى كسب الوقت لتلافى ما يكون وراء هذه الحالة من اخطار واضرار. ولأنجاح الحيلة

التى اخذ بتدبيرها منذ وضع الحصار على الدرعية . فانه ناط بالفرنسى فيسيير انشاء جملة من المعاقل ليتمكن بواسطتها من تدمير البرج المطل على الحدائق والمجاور لاستحكامات حي غسيبة . وقد كان من نتائج هذا التدبير ان تمكن المصريون، على الرغم من يقظة الوهابيين وتحفزهم لصد الغارة عنهم، من احداث ثلم عديدة فى حصونهم ومن زحزحتهم بذلك عن مواقعهم. وكانت الظروف ملائمة لمواصلة الهجوم، غير ان الضباط أبوا القيام به بحجة تمرد العساكر وامتناعهم عن الانقياد لأوامرهم، الا أن العساكر كذبوا هذا الادعاء اذ صاحوا بملء افواههم ان رؤساءهم هم الممتنعون عن الهجوم لاهم . فلما سمع ابراهيم ذلك اشتد حنقه وترك ميمنة المعسكر عائدا الى خيمته وكتب الى والده بما يقذف الحزن والاستياء فى قلبه وقبل ان يسلم الرسالة الى القاصد، وهو خاله احمد أغا، تردد هنيهة متسائلا أعقله أوقلمه أضل السبيل بتأثير حلم مزعج . ولكنها كانت الحقيقة التى لا ريب فيها فقد حدث بعد ظهر ١٦ شعبان الموافق ٢١ يونيه ان اشتبك الوهابيون بالمصريين فى معركة قتل وجرح فيها من هؤلاء مائة وستون ، من بينهم ضباط امتازوا بالبسالة والكفاءة . فلما عادوا الى المعسكر لالتماس الراحة من عناء هذه المعركة هبت ريح جنوبية من التى يندر هبوبها فى بلاد العرب ولم تكن مصحوبة بزوابع التراب والرمل

فحدث ان حملت فيما حملته معها جذوة نار من موقد كان عسكرى يصلح عليه طعامه فالقتها على خيمة كبيرة منصوبة بين ربوتين عاليتين وفيها مستودع القذائف ومائتا برميل بارود ومائتان وثمانون صندوقا من الخرطوش والقذائف الكروية والاسطوانية، فلما احترقت الخيمة اتصل اللهب بالذخائر فانفجرت كلها واحترقت بسببها أكداس هائلة من الشعير والقمح، وتتابع الانفجار باتصاله من برميل الى برميل ومن صندوق الى صندوق مدة عشر دقائق وانقلبت الخيام على ساكنيها او احترقت وصارت رمادا وشويت الاجسام حتى استحالت الى فحم أسود وطارت اشلاء اجسام أخر فتناثرت هنا وثم وامتلأت افئدة الذين نجوا من هذه الكارثة هلعا وارتياعا . واصبح ابراهيم الذى كان لايتجاوز عمره عامئذ التاسعة والعشرين بلا مؤن ولا ذخيرة وهو فى بطن الصحراء بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الاساسية بنحو مائتى كيلو متر وعاجزا عن الوقوف امام عدو متفوق عليه فى العدد اضعافا كثيرة . وكل مابقى عنده من ذلك هو ما احتوته جبائر العساكر وما نجا من نار الحريق، وهو لايزيد على ثلاثمائة قذيفة هى ما كانت الى جانب البطريات المدفعية . فالرزء كان ساحقا والمصاب جالا والفتق متعذر الرتق . غير ان ابراهيم تلقى تلك النكبات بالصبر والثبات وسرعة البديهة وقوة الارادة ومضاء العزيمة فكأنه لم يشعر بوقع الكارثة .

وكان أوزون على قيادة النقط الأمامية فاشخص الى الباشا رجلا ليسأله هل استطاع أن يستخلص شيئا من الذخائر فأجاب: لقد فقدت كل شيء الا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع الهجوم والانتصار . أما الانفجار فقد زلزلت الأرض من جرائه ، وأحسه الناس من أبعاد قصية ، ومنهم اهل الدرعية وأراد عبد الله تقصى الاخبار فبعث ثمانية أو عشرة من كشافته لتسقط الاخبار وتعرف سبب الرجة الهائلة ومدى فائدته من الفاجعة التي تكون قد نزلت ، فصدّهم المصريون الى الوراء بعد عراك عنيف ، على ان الزعيم الوهابى وقف على الحقيقة فعقد مجلسا كان من مظاهر مااستقر الرأى عليه فيه ان أخرج فى اليوم التالى الفا وخمسمائة رجل من جنوده . فأيقن ابراهيم حرج موقفه وجمع فى الحال اليه عساكره ووقف فى وسطهم آمرا اياهم بان يضنوا كل الضن بما معهم من الذخائر وان لايطلق احدهم رصاصة الا وهو معتقد انه يصيب بها عدوه ولا تخطئه ، وأنذر كل متقهقر بالاعدام لامحالة . فلما أسفر الصبح انبثت الطلائع المصرية للاستكشاف والهجوم على العدو فاستنفدت الخراطيش ولم يبق أمام الرؤساء الا ان يتبعوا بالدقة امر الباشا ووقف هذا على ربوة فيها ثلاثة مدافع وارسل الضباط الى جميع النقط يأمرون العساكر بترك العدو يتقدم نحوهم مع مراعاة الاقتصاد في اطلاق الرصاص حتى اذا اقترب منهم

كثيرا صعقوه بالطلقات . وكان من عيوب الوهابيين فى الحرب انهم اذا خرجوا للقاء اعدائهم قاموا بحركات سريعة ودنوا منهم فى أقل من لمح البصر بدل أن يجعلوا هذه الحركات بطيئة ومتفرقة ليجهدوا قواهم ويستنفدوا ذخائرهم ، فلما دنوا على المثال المتقدم تلقتهم المدافع بمقذوفاتها فحصدتهم حصدا ذريعا واضطرتهم الى التقهقر .

ساء عبد الله هذا الفشل فارتأى ملازمة الدفاع . وعنى ابراهيم بحالة جرحاه ومرضاه الذين كانت علة امراضهم البرد القارس فى الليل والقيظ الشديد فى النهار ، وكان مرض الدوسنطاريا (الاسهال) اكثر الامراض تفشيا بينهم وكذا الرمد الصديدى الذى أصيب هو به على أثر ما بذله من الجهد ودأب عليه من الانتقال لتفقد أحوال الجند والاشراف على تهيئة وسائل القتال وتعرضه بذلك للاصابة بهذا الداء . على أن الآلام النفسية والجثمانية التى كانت أحدقت بالجيش المصرى وأحرجت مركزه لم تلبث ان انكشفت عنه غمتها وحل محلها الاغتباط والسرور بشفاء الاجسام من السقام وجلاء اليأس عن القلوب . ولقد أشخص فى يوم حادث الانفجار الرسل الى الشقراء وبوريدة وعنيزة ومكة والمدينة فى طلب المدد الذى يسد به بعض النقص الذى نشأ من هذا الحادث ، فلم تمض خمسة وعشرون يوما من يوم سفر هؤلاء الرسل حتى وصل اليه

مائتان من دلاة حامية عنيزه ومعهم مائتا جمل محمل بالبارود والرصاص والقذائف ثم تواردت القوافل من المدينة تحمل الذخائر الكثيرة ومدفعين ومن بعدها فرقة مؤلفة من سبعمائة عسكرى فاستطاع ابراهيم بهذه القوة الجديدة اخضاع القوى التى ثبت من تقرير بعث به فيصل شيخ عربان مطير أنها تمد الدرعية بالمؤن والذخائر. وكانت المهمة الموكولة الى هذا الشيخ تنحصر فى اقصاء القبائل المعادية عن العسكر المصرى.

وفى ليلة ١٥ اغسطس خرج الباشا فى ألفى عسكرى ومدفعين فاستطلع الطريق مستترا بالظلام وخبر حالته، غير أن جلبة جرّ المدافع ووقع أقدام الجنود وصهيل الخيول وما الى ذلك من حركة وضوضاء نمت عليه وفضحت سره، فهب الوهابيون الى مدافعهم يطلقونها وألحقوا بالمصريين خسارة لا يستهان بها. وأراد عبد الله فى اليوم التالي ان يغتنم فرصة غياب ابراهيم باشا فأمر بالخروج لمهاجمة خط الحصار فى مداه كله فلبث القتال أربع ساعات تحت شمس محرقة أبدى الفريقان فيها من البسالة ما يستوجب الاعجاب وانتهى بصد الوهابيين. وقد شوهدت النساء فى هذه المعركة تقتحمن خط النار وعلى رؤوسهن قدور الماء يحملنها الى العساكر المدافعين. وذهب الطبيب جنتيلى الى خيمة البكباشى اسماعيل أغا ليسعف بعنايته من كانوا فيها من الجرحى فاصابته قذيفة فى ساقه فبترها له زميله

نودسكيني . وفى اليوم التالى عاد ابراهيم من غزوته بعد ان استولى على بلدة خرقة وترك بها حامية من جنده وعلم باصابة الطبيب جنتيلى فبادر بزيارته وفى صحبته الضابط فيسيير وأظهر له من آيات العطف والعناية ما أطلق لسانه بالثناء وبث فى قلبه عوامل الرجاء . وتتابعت الامداد بعد ذلك فانضمت الى الجيش وكان منها اربعمائة جندى من المشاة بقيادة البكباشى ماشو وفرقة فرسان تتبعها قطعان الماشية والدواب الحاملة لذخائر الحرب . وانتهى الى علم الباشا ان والده سيوافيه بثلاثة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان بقيادة خليل باشا حاكم الاسكندرية الا ان ابراهيم باشا خشى على مجده الذى أحرزه بمعاناة صنوف المشاق والاهوال ان يساهمه فيه دخيل ، فما ان اتصل ذلك الخبر به حتى عقد النية على ملاحقة الوهابيين فى معصمهم الأخير وافنائهم عن آخرهم قبل وصول المدد اليه من مصر . ولهذا كاشف جيشه بما اعتزمه من الاستيلاء على عاصمة الاعداء فى أقرب ما يمكن من الزمان .

بدأت المدفعية باطلاق القذائف وتلاها المشاة بضرب الرصاص من عيون المعاقل الأماميه . وكان فيصل أخو عبد الله قد خرج للاستطلاع فأردته رصاصة وعاد جواده راكضا نحو الجيوش الموالية ووصل نعيه الى أخيه عبد الله فتلقى هذا الخبر بالفرح والاستبشار اذ أبلغ النعى اليه فى الصيغة الآتية :

« لك ان تفرح ياعبد الله فقد عاد جواد أخيك من غيره لأنه صار فى جوار ربه » فحمد الأمير الوهابى الأله سبحانه وتعالى واثنى عليه . وحفز ابراهيم باشا جنوده الى الهجوم بعد ان حشدهم فى جنح الليل وألقى عليهم أوامره وطالبهم باتباعها ولم يترك فى المعاقل والحصون وعلى البطاريات سوى العدد الكافى للقيام عليها . وأمر سلحداره وفرسان الايشاغاسية بالكمون وراء جبل واقع الى الجهة اليمنى ليتمكن عند الحاجة من التقدم نحو مسيل الباتن والهجوم عليه وعهد الى اوزون على مراقبة حركات العدو وأعماله . وكانت القذائف من كل الانواع تخترق الفضاء، واتصل بالوهابيين من جواسيسهم خبر الهجوم فاستعدوا له فى جميع نقطهم ومراكزهم ، إلا ان ابراهيم عمد الى جسر خال من مراكز للعدو فتمكن بواسطته من ايصال ثمانمائة فارس الى داخل الحدائق دون أن يشعر بهم أحد فلما استيقظ الوهابيون من سباتهم وادركوا أن المصريين مفاجئوهم لامحالة أخلوا حصنا لهم كان يحتوى ثلاثة مدافع فتمكن المصريون عندئذ من تضييق الخناق على غسيبة والاحاطة بالقلعة التى كان يقود الوهابيين فيها سعد بن عبد الله بن سعود . وكان مع هذا الامير الشاب مائة وخمسون مقاتلا ولديه مقدار وافر من المدافع والذخيرة ، وانما لم يكن عنده من المؤن الغذائية الا كفاية يومين فلم يسعه الا التسليم فى اليوم الثالث فأسر وسلم بتسليمه الموقع . وقتل

الايشاغاسية وجرحوا عددا عظيما من الاعداء وفيهم أقارب عبد الله كمحمد بن المقرى صهره الذى اصيب بشظية قذيفة : وكانت خسائر المصريين قليلة الا أنه كان لايمضى يوم حتى يموت عدد عظيم منهم لرفضهم اجراء العمليات الجراحية على أبدانهم ، على أن ابراهيم كان قد قرب من الدرعية فعين المواقع لنصب مدافعه التى زاد عددها بمقدار ماغنم من مدافع العدو وشرع يرمى الدرعية بقذائفها التى حصدت ارواح الاهلين فى سهل وغسيبة وضربت منازل هذين الحيين وعلت صيحات الاستغاثة من النساء والاطفال فاضطر اهلها الى التسليم وطلبوا الأمان على شرط الا يكون دخول الامير المصرى فيهما واحتلاله اياهما الا بعد احتلاله حىّ الطرفية . والظاهر أن فشل الوهابيين فى هذه المعركة والمعارك السابقة لم يكن مقنعا لهم بوجوب الالتفات الى الهاوية الفاغرة فاها تحت اقدامهم فأن سعودًا بن عبد الله والى درامة عالج الخروج منها لاقتحام خط الحصار فتلقفته فصيلة الفرسان القائمة بحراسة الممرات والمضايق . وقد جىء به أمام ابراهيم باشا فوبخه على حنثه فى اليمين ونقضه ما عاهده عليه من الاحجام عن محاربة المصريين ثم أمر باعدامه فرمى عنقه ، اما أصحابه فلم يلحق بهم أذى أذى .

وأجال عبد الله النظر فيما حوله فلم ير من رجال حرسه الخاص المؤلف من اربعمائة سوداني الا نفرا قليلا . وكانت

الطرفية قد سلمت الى المصريين وأخذت مبانى طريف تتداعى بفعل المدافع فحض عبد الله قومه على المقاومة واستفزهم واستثار حميتهم فلفتوا نظره الى الحى وقد دك عن آخره ولم يبق فيه حجر على حجر وضرعوا اليه أن يحتفظ ببقية الاسوار ليواروا تحتها جثث الشهداء من ابنائهم وعلا الصياح واشتد الصخب فلم يسع الزعيم الوهابي إلا أن أطرق برأسه مليا ، وقد استمكن الحزن والأسى من نفسه ، وأجابهم الى ماطلبوه من الرضا بحكم القضا فرفع راية التسليم والامتثال وطلب الكف عن القتال . وفى ٨ القعدة الموافق ٩ سبتمبر وصل رسول من جانب الوهابيين ، فما أن دنا من المعسكر حتى صدر الأمر بوقف رحى القتال ، ومثل الرسول فى حضرة ابراهيم ملتمسا منه بالنيابة عن اميره الكف عن الحرب وتحديد موعد للمقابلة والمفاوضة فأجابه الى ملتمسه . وبعد ساعات حضر عبد الله فى مائتين من حرسه وكان ابراهيم فى سرادقه جالسا على صفة فتلقاه بمظاهر العطف والرعاية والود وحاول عبد الله أن يلثم يده فأبى مستغفرا وسحبها تواضعا واكراما ثم أجلسه الى جنبه ودار الحديث بينهما ، فسأله ابراهيم: لمَ ظل مصراً على المقاومة بينما الأهلون كانوا مجمعين على ضررها وموافقين على التسليم والرضا بما جاء به القضا . أجاب عبد الله : لقد انتهت الحرب الآن وكان ماهو كائن بقضاء الله وقدره . قال ابراهيم : مازال عندى

الشيء الكثير من البارود وذخيرة الحرب ، فاطلب منها ماشئت وهلم بنا نستأنف الصراع . أجاب عبد الله : لا أبغى شيئا من هذا وكل مناى ان يحفظك المولى من السوء ، ولست أنت الذى أذلنى وانما المذلّ والمعزّ هو الله . وخفتَ صوت الامير وانهملت الدموع من مآقيه ، وهو يفوه بهذه الكلمات ، فوجه ابراهيم اليه بعض عبارات التعزية والسلوان اذ قال له إنه لا بطل فى العالم خال من نقص او عيب بالغا ما بلغ من البطولة . لأن الكمال المطلق مستحيل على الانسان فهو غير معصوم من القضاء اذا نزل قال عبد الله : إنى اسألك الصلح ياسيدى أفتعطيه ؟ أجاب ابراهيم : نعم وأنت الحكم فى وضع شروطه ، إلا أن هناك أمراً لا تصرف لى فيه ، وهو بقاؤك فى الدرعية فإن الأوامر الواردة الى من الوالى تقضى بترحيلك الى مصر . فأطرق عبد الله مليا وطلب إرجاء اجابته الأخيرة فى هذا الموضوع الى الغد ، ثم انصرف بعد ان شرب القهوة ، يصحبه ابنه سعد الذى كان أسيرا وقد ردّه ابراهيم باشا اليه . وكان المصريون قد استولوا على الدرعية وكانت منافذها الخارجية لا تزال خارج قبضتهم فخشي ابراهيم ان ينتحر عبد الله أو أن يلجأ الى الفرار على احدى هجنه الخفيفة السريعة فأمر فرسانه بتشديد الرقابة عليه حتى لا يأتى أمرا من هذين الأمرين ، ولقد تولاه القلق الشديد من جراء ذلك فقضى ليله واقفا على قدميه .

ولكن الزعيم الوهابي كان في محنته والبائقة التي نزلت به رجلا صادقا شريفاً وفيا بوعده فأنه ما كاد يحل الموعد الموقوت حتى أقبل فتلقاه ابراهيم بمثل ما تلقاه أمس به من البشاشة والبشر ثم سأله . بمَ جئتنا اليوم من عزم ؟ أجاب : أسافر الى مصر ان ضمنت لي النجاة . قال ابراهيم : ان اكن عاجزا عن مخالفة ارادة الوالى فانى بلا ريب اشد عجزا عن مخالفة ارادة السلطان ، غير أنى أقول لك عن ثقة واعتقاد أنهما من كرم النفس ورحابة الصدر بحيث لا يرضيان التنكيل بمن يسلم نفسه اليهما مختاراً . قال عبد الله : انى معتمد على كرمك وشرف خصالك يا ابراهيم فأوصيك بأولادى وإخوتى وابناء وطنى خيرا وأطلب لهم السلامة جميعا قبلى . وتلقى عبد الله من ابراهيم منديل الأمان الابيض ، وهو شارة الصلح ، وعاد الى طريف ليتجهز للسفر . ولما أتم معداته أقام بالمعسكر المصرى أياما كان كثيرا ما يرمى طوافه به فى اثنائها الى مكان القيادة العامة فيقع نظر ابراهيم عليه فيدعوه الى تناول الطعام معه ويعامله معاملة الصديق . ومثل هذا فعل البرنس دوغال فى سبتمبر سنة ١٣٥٦ اذ كان يواسى جان دى فالوا فى مدينة (بواتييه) بقوله له انه اذا فاز عليه فما هو إلا رمية من غير رام ، الى غير هذا من اقوال التمجيد للمغلوب والاطراء فى صفاته والمبالغة فى تعزيته بعبارات من طراز أنه قد أتى بكل ما كان فى وسع واحد من البشر ان يأتى

به من جلائل الأعمال . وكثيرا ما كان ذلك الامير يترك سرادقه فيدعو أسيره لتناول الطعام على مائدة جمعت من ألوانه اكثرها وأشهاها ويبالغ فى اكرامه الى حد أنه كان يقف خلف كرسى هذا الاسير ليقدم اليه بخضوع واحترام صنوف الاطعمة المهيأة ، فكان اذا اعترض واحتج على هذه الرعاية قال إنه لا يجد نفسه أهلا للجلوس الى جانب شهم باسل مثله .

وفى ١٤ القعدة الموافق ١٥ سبتمبر ودع عبد الله بن سعود أسرته الحزينة وأصدقاءه ومن دافعوا عنه حتى اللحظة الأخيرة ثم ودع قصره المنيف بنظراته وابتعد بخطوات متثاقلة يصحبه خازنداره وكاتب أسراره وبعض عبيده قاصدا الى خيمة ابراهيم فتسلم منه رسائل برسم ابيه محمد على ثم أوغل فى الصحراء يحف به اربعمائة جندي بقيادة رشوان أغا الذى أصدر أمره بمقاومة عبد الله اذا بدأت منه حركة يريد بها الفرار . وظل سائرا فاخترق وهو أسير تلك الارجاء التى كانت خاضعة لحكمه وهو أمير . وقضى فى هذا السفر الذى قطع فيه نجد والحجاز والبحر الاحمر شهرين كاملين . وفى ١٨ محرم ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفمبر ١٨١٨ وصل الى القاهرة فجىء به الى شبرى وقدم الى الوالى فقبل يده وشرب القهوة عنده فسأله محمد على عن رأيه فى الحوادث والحروب التى دخلت اليوم فى خبر كان . أجاب عبد الله : كانت تلك الحوادث مقدرة فى الازل قبل ان يعلم بها

انسان . فسأله وما رأيك فى ابراهيم باشا وما هو شعورك نحوه وما حكمك فى خلقه وطبعه ؟ أجاب : إن ابراهيم قام بالواجب عليه كما قمنا نحن بالواجب علينا وقد أراد الله ذلك وقضى به ولا رادّ لقضائه .

وكان بين يدى عبد الله صندوق صغير فلما وقع بصر محمد على عليه سأله عنه فقال : فى هذا الصندوق الجوهرة الوحيدة الباقية من الجواهر التى انتزعها والدى محمد بن سعود من الضريح النبوى وقد بقيت فى يدى طول الطريق التي سلكناها من نجد الى هنا ، لأنى وعدت بردها وسأسلمها الى السلطان . ثم فتح الصندوق وهو من العاج واخرج منه ثلاث مصاحف رصعت بالجواهر والاحجار الكريمة وثلاثمائة لؤلؤة من اكبر اللآلى وانقاها ماء وأسطعها إشراقا وزمردة يتصل بها شريط من الذهب فقال محمد على : هذا حسن ، لكنى أعرف أن أشياء كثيرة غير هذه سلبت من الضريح النبوى . أجاب : إن والدى أخذ منها حصته وهى ما أقدمه أما الباقى فبيع بعضه واقتسم بعضه اشراف مكة والأغوات ومشايخ العربان وعليهم هم ان يقولوا أين أخفوه أو على أى وجه تصرفوا فيه . قال محمد على : هذا صحيح فقد وجدنا كثيرا من هذه النفائس عند الشريف غالب . ثم ختم الاثنان على الصندوق وقال الوالى دع هذه الجواهر معك ياعبد الله واحرص عليها كل الحرص واذهب لتقدمها الى جلالة

السلطان فعسى أن يشفع لك لديه شرف أصلها .

وبعد هذه الحادثة ألبسه محمد على خلعة السمور ثم نزل ببولاق بيت ابنه اسماعيل باشا ومنه استقل قنجة أقلعت به الى دمياط . وفى يوم ٢٠ محرم الموافق ١٩ نوفمبر أخذ عبد الله سمته الى الآستانة ولم تتجاوز مدة اقامته بمصر ثلاثة أيام . وكلف بعض التتر حراسته ورافقه فى سفره كل من خازنداره وكاتم سره . وفى ١٦ ديسمبر وصل الى البسفور ، وكان محمد على قد التمس من السلطان العفو عنه ، غير ان رجال المابين كانوا لتعصبهم الأعمى يرون وجوب معاملته بالصرامة فطافوا به وبزميليه شوارع الآستانة ثلاثة أيام متتابعة ثم أعدموهم فى ميدان مسجد آيا صوفيا وعلقوا بصدورهم كتابة بالجريمة المنسوبة اليهم هاك بعض ماجاء فيها : « هذا ماحكم به على الشيخ عبد الله بن سعود الذى أسره ابراهيم باشا ابن سمو والى مصر الحالى . وقد شاركه فى جنايته العربيان سرى وعبد العزيز بن سلمان ولذا وجب ان يقاسماه العقوبة . وكان عبد الله بن سعود قد أظهر منذ زمن طويل التمرد والعصيان فى قحة ووقاحة ، اذ كان يعذب الانصار في المدينة المنورة ويحتقرهم وهم سلالة أولئك الذين نصروا النبى صلى الله عليه وسلم بعد هجرته من مكة ، كما عذب واحتقر المهاجرين وهم سلالة الذين هاجروا معه عليه الصلاة والسلام وعذب واحتقر المجاورين وهم أولئك الاتقياء الصلحاء الذين

آثروا الاقامة فى مكة والمدينة للتبرك بجوارهم من الحرمين الشريفين . وكان يرى أن من وجوه البر والاحسان قتل المؤمنين والموحدين . ولقد سد سبل الحج وقطعها على الحجاج بتغريره بمشائخ العربان واقتدى فى ذلك بمسعود المضيان وحسن الخلاجى والمضايفى وطامى وغيرهم الذين أعدموا جميعاً بين هذه الجدران فسار سيرة مخالفة لما نهت عنه الاحكام الشرعية الخالدة بتحريضه القبائل على العصيان وخيانته للاسلام والدولة » .

وظل المتفرجون يقرأون هذه الجملة على صدور الجثث الثلاث ، بعد أن قطعت رؤوسها ثلاثة أيام ، متتابعة وشاع بين الناس فى الآستانة يومئذ أن هذه الرؤوس أخذت ودقت فى هاون الحكومة وجعلت الجثث الثلاثه ملكا للشعب ولسنا نظن أن النسورة والبزاة وثبت عليها كما وثب أهل الآستانة بفرح وسرور ينمان على غريزة الوحشية المستقرة فى نفوسهم .

يرى مما تقدم أن ابراهيم قد فتح الباب بقوته الذاتية لمطامعه العظيمة ، فانه عندما وصلت الى المدينة الامدادات التى أرسلها والده كانت الاجراءات الحربية قد انتهت ولم يبق مسوغ لاستمرارها . فشعر قائدها خليل باشا بشىء من الخزى وكسوف البال وقدر ما سيلقاه من الامتهان اذا هو عاد الى مصر كما جاء منها دون ان يقوم بعمل يسند اليه فتراءى له ان يهجم بجيشه المؤلف من ألفى راجل وفارس ومن عربان

الشريف راجح على بلدة ابو عريق عاصمة تهامة ، فاستولى عليها وبعث الى القاهرة الامير احمد بن الشريف حمود وخلفه فى الحكم على هذه البلاد . ولم تطل اقامة هذا الامير فى مصر اذ أصيب فيها بالجدرى وتوفى به . وما أحرز خليل باشا هذا الفوز حتى صدر أمر من السلطان بتوليته على مكه ومنحه باشويتها . وفيها لقى حتفه بعد اشهر قلائل .

ولقد اخطأنا اذ تركنا القارىء يستشعر أن سقوط الدرعية كان لا بد ان يتلوه سقوط نجد كلها ، فأن أقليم الأريك كان لايزال حافظا استقلاله ، انما أرغم على تضييعه بفعل المدفعين اللذين فتح السلحدار بهما أبواب الحلوة بعدمقاومة قليلة باسم ابراهيم . ولم يكن ابراهيم باشا ممن يستنيمون الى ما أحرز من الفوز فى القتال فانه لم يقف عند حد الوقائع السالفة بل وسع فى نطاق اجراءاته الحربية فدخل الدرعية وأسكن منازلها فريقا من عساكره وأنزل الفريق الآخر بالميادين العامة وخصص القلعة التى أخذها من يد سعد بن عبد الله لاقامة المرضى والجرحى . أما هو فقد جعل معسكره العام فى طريف بالمكان الذى كان يسكنه زعيم الوهابيين واختص بالأسطبلات الفسيحة ودار الصناعة الصغيرة التى كانت للوهابى وترك لأسرة هذا الاخير كل ما كان يملكه فيها عدا ما تقدم . واذ أضحى المتسلط وصاحب التصرف المطلق فى شؤون الأمة

النجدية فقد استفاد بما تخوله إياه حقوق الفتح فعاقب بالصرامة القصوى الشيخين احمد الحنبلى وصالح بن رشيد اللذين نيط بهما ابلاغ اقتراحات الصلح اليه أيام محاصرته للرس، لأنهما كانا يخاطبانه بعبارة تنم على القحة والتبجح والبذاءة والعنف. ولقد أسف فيما بعد لأنه أطاع هواه فعوض أحد الرجلين مالحقه من ضرر الشدة التى عومل بها إذ أجرى عليه رزقا سنويا واختاره لتعليم مماليكه فراح بعد هذا التسامح يفرض المغارم على الاغنياء والسراة من أهل الدرعية وعطل الأعمال الزراعية التى استأنفها الاهلون وكان عندما اجازهم مزاولتها يعتبر ان هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تخرجهم من الضنك والشدة. وأمر بهدم قصور عبد الله والمساجد وتدمير ما بقي من الاسوار والقلاع بعد الحصار وأعطى الموالين له من العربان اربعمائة درع من الحديد وأسلحة كثيرة عثر عليها فى مغائر عبد الله ومخازنه. وخشى أهالى الاقاليم النجدية أن يحل بهم ماحل بالدرعية من التنكيل والخراب فأرسلوا الوفود الى ابراهيم فى التماس تقرير الصلح، فكان أول ما اشترطه تقديم مقدار معين من المؤن والأغذية، لأن الجيش كان ينقصه الكثير منها. ولم يكن فى الجهة التى يعسكر بها شيء مدخرا، فضلا عن ان العربان المعادين قطعوا الطريق على قافلة مؤلفة من ١٠٠ جمل تحمل الأرز والتمر. فلما لم يجد العساكر ما يقتاتون به تغذوا بنخاع

الاشجار واشتد القحط حتى تعذر على الفرسان وجود العلف لخيلهم وأخذت الخيـل تنفق تباعا بتأثير الجوع وآلت الحالة بالجنود الى أكل الحشائش التى كانوا يدوسونها بأقدامهم ولم يطرق الآذان بعد ذلك سوى نداء واحد وهو : الخبز !.. الخبز !.. والمفهوم ان هذا الصياح اذا انبعث من صدر جندى امتلأ باليأس كان دليلا ناطقا على قرب وقوع الثورة والعصيان.

أبى رؤساء الجند التدخل لتسكين المتمردين ، لـكنهم أحدقوا به للدفاع عن ابراهيم . ولم يكن هو بحاجة الى مثل هذه المظاهرة الولائية لـكى يحتفظ بثباته وجلده امام العاصفة ، فقد حدث أن نحو الف وخمسمائة متمرد تجمهروا بالقرب من المعسكر العام ، فلم يسعه عند ما أبصر بهم الا أن ابدى امتعاضه وتذمره من سلوكهم وهمّ بالسير نحوهم فى حراسه لتأديبهم وزجرهم عن تمردهم . وعبثا بذل أولئك الرؤساء سعيهم لديه ليحملوه على العدول عن نيته فنزع الى ماجبل عليه من التهور والمجازفة اذ استل سيفه وسار يتبعه بعض الأُيشاغاسية حتى بلغ الى بسيط فسيح من الارض يتصل بمسجد قريب من مركز التجمهر . وظهرت فى الآن نفسه فرقة من الفرسان من الجانب المقابل للمسجد عن طريق مسيل البائن . فلما فوجىء المتجمهرون بهذه المناورة وقع بينهم الاختلاف وساد التردد وعمت الحيرة . فأمر ابراهيم الفرسان باطلاق نار البنادق عليهم فتفرفوا يلتمسون

الفرار ، إلا انهم اقترفوا فى اثناء ذلك الجرائم الخسيسة والمنكرات الفاضحة من انقضاض على الحوانيت بالنهب وعلى النساء المارات فى الطرقات بسلب مصوغاتهن وجواهرهن ، وطمت الفتنة ثلاث ساعات أعيد السكون عقبها بعد أن قتل ثلاثون نفسا وجرح خمسون . وفى غروب الشمس أعدم اثنان من رؤساء الجند وضرب غيرهم بالعصيّ أو كبلوا بالاغلال ليزجوا فى السجون .

وفى الأيام التالية وصلت قافلة بالمؤن والاغذية وأرسل جيش من المشاة الى عنيزة وقصد ابراهيم الى العارض في طلب الأغذية والمؤن فعاد منها بالشيء الوافر واشتغل بتوفير وسائل النقل ليتقى بها وقوع المجاعة مرة أخرى بين الجند ، ثم أجلى مدفعيته عن الدرعية وتوجه فى ألف من المشاة والفرسان الى درامة وعهد الى مهر داره محمد افندى بزمام الحكم على نجد قبل مبارحته لها ، فقام محمد افندى بالمهمة الموكولة اليه طبقا للخطة التى رسمت لمعاقبة العاصمة الوهابية بأقصى مايخطر بالبال من قسوة وصرامة . فان هذا الحاكم الذى تجرد قلبه من عواطف الرحمة والشفقة أمر بقطع النخل والاشجار جميعا فى دائرة يبعد محيطها عن الدرعية بأربعة كيلو مترات وتوفر على تدمير الدور ، وما لم يستطع هدمه منها أضرم فيه النار . فخرج السكان جميعاً على وجوههم يلتمسون النجاة ويطلبون مأوى يأوون اليه ويتحامون

رؤية المزروعات تحصدها يد الفناء . وبعد أن قام محمد افندى بعمله الجائر تحرك بجنوده للحاق بابراهيم باشا فأدركه فى الشقراء حيث كان ينتظر للرحيل عنها عودة الجمال التى خرجت مع القوافل السابقة . ووصل الباشا بعد ذلك الى درامة وفيها كاد يذهب ضحية لمؤامرة سوداء ترجع الى أن أربعة من المماليك الذين شقوا عليه عصا الطاعة وتركوا المعسكر شاردين كان قد حكم عليهم بالاعدام كما حكم على غيرهم بالضرب بالعصىّ . وكانوا يرون بعد أن أفنت الامراض والمعارك سوادهم الاعظم ان الاصلح لهم إخلاء سبيلهم ليتمتعوا بحريتهم فقرروا بينهم قتل الباشا ليلا وتجريده من أمواله والفرار بعد ذلك الى بغداد . وكان بين المتآمرين رجل اسمه علىّ صار فيما بعد خازندارا له ، فذهب الى ابراهيم وأطلعه على سر المؤامرة والغرض منها فدعا ابراهيم اليه على الفور يوسف زعيم العصابة ثم أشار الى الموجودين فى حضرته بالانصراف فلما اختلى به أخذ يحدد فيه النظر ثم عالج التغلب على نفسه حتي اذا ضبطها وملك عنانها تظاهر له بالعطف وقال له فى تؤدة وسكون : « إنى قائدكم وسيدكم جميعا فأنت وأعضاء العصابة التى تمالئك على جريمتك لستم الا كفرة بنعمتى . ولقد كانت نيتى منصرفة الى ترقيتك واعلاء رتبتك وها أنت ذا تطلب قتلى » . حاول يوسف آنئذ تبرئة نفسه من هذه التهمة وبالغ فى انكارها ، فحنق الباشا عليه لما رآه من امعانه فى الكذب

والانكار ووضع يـده على مقبض سيفه فلم يتمالك المملوك أن اخرج غدارته وأطلقها على مـولاه وانصرف محاولا الفرار . وكانت الرصاصة قد مرت بين عنق ابراهيم وكتفه اليمنى فهرول نحوه كخيا الامير وبعض ضباطه وركض الحراس في أثر القاتل الذى وجد فى طريقه بندقة فالتقطها وكان مسلحا من قبل بسيف وخنجر وطبنجتين فلما أيقن أنه لا بد واقع فى ايدى مطارديه عول على بيع حياته بأغلى ثمن ، فاستند الى شجرة وأخذ يدافع عن نفسه بحدة وغضب . ولقد أطلقت عليه رصاصات عديدة فلم تصبه واحدة منها ، لكن الأخيرة أصابت منه مقتلا فسقط صريعا . وكان وهو طريح على الارض ، بل وهو يسلم الروح ، لا يزال يضرب بسيفه يمنة ويسرة ؛ غير ان طلقة نارية أخرى أجهزت عليه فقطع رأسـه وألقى به بين قدمي ابراهيم . وفى اليوم نفسه ضرب عنق أحد المتآمرين وعوقب خمسة غيرهم فيما بعد بالاعدام ، ومنذ هـذا الوقت منع المماليك من الخدمة فى خيمة الباشا واستعيض عنهم بعساكر نظاميين .

وكانت الرسائل الواردة من محمد على باشا الى ابراهيم باشا تأمره بمغادرة نجد الى الحرمين ، فلكى يحصل ابراهيم على المؤن الضرورية له فى هذه الشقة الطويلة طاف بالصحراء أياما فى الف من فرسانه . وكان حزب كبير من عنيزة بزعامة ابن مكلف قد اعتصم بجبل شمر ، فى موقع منه عزيز المرام . فقاوم العنيزيون

هجمة المصريين مقاومة عنيفة جدا ، وكان هؤلاء على وشك الهزيمة لولا أن الباشا اثار فيهم الحمية بما دعاهم اليه من الاقتداء به فى بسالته وثباته . دعاهم الى هذا ثم طوح بنفسه ، على الرغم من الأخطار المحدقة به ، بين العربان ونازلهم فى ملحمة عنيفة بمنعرجات الجبل فتراجعوا ولاحقهم المصريون فى تراجعهم ، الا أنهم ظلوا يقاتلون فى انسحابهم تاركين وراءهم الماشية والخيام. وعلى أثر ذلك بادر الأهلون بتقديم مطالب الجيش ورأى ابراهيم أنه أصبح فى مركز حرج لأنه اذا فشل كان فشله عنوان فتنة عامة بجميع الاقاليم يلحق ضررها بالعساكر المصريين لتفرقهم فى جهات متنائية . وقد نظر الباشا مليا فى هذا الأمر وقلبه على وجوهه فتراءى له أن خير الوسائل للخروج من مأزقه الثبات حتى النهاية. وقد صمد لاعدائه وما دنا منهم أحد لقتاله حتى لقى حتفه ، وأصيب جواده بجرح بالغ فلم يفل هذا الحادث من حدّه ولم يخمد من عزمه ، بل أنه كان فى غيبة الاطباء يسعف الجرحى من العساكر بالعلاج .

ولطالما خرج لغزو العربان فكان يعود من كل غزوة بالغنائم الكثيرة ، ووردت عليه من والده نصوص الأوامر السلطانية القاضية بتدمير الدرعية وجعل عالى أسوارها وحصونها سافلها وإحراق بيوتها وإرسال أفراد أسرة عبد الله وأكابر الوهابيين وزعمائهم من سكان تلك المدينة الى القاهرة ، وأن يجتاز هو

والجنود الظافرة البحر الاحمر عائدا الى الديار المصرية .

فأرسل ابراهيم فهداً وسعدا وحسنا وخالدا ، إخوة عبد الله ، وأربعمائة من الأعيان الى ينبع تحت حراسة الجنود ؛ وكانت السفن تنتظرهم فى هذا الثغر لتنقلهم الى السويس . أما سعد ونصر ومحمد ، ابناء عبد الله ، وعمر وعبد الرحمن من اعمامه فقد وجهوا مع قسم من المدفعية الى المدينة فالقاهرة . ولقد وصلوا اليها فقرر لهم محمد على باشا المرتبات لمعاشهم بسخاء عظيم ، ليهوّن عليهم ذل السقوط من عرش الأمارة ويعوضهم شيئا من اموالهم التى خسروها . أما سفر جنود ابراهيم باشا فقد كان محفوفا ببعض المصاعب ، لأن الهاربين من الجهات التى دمرت بسبب الحرب كانوا قد اتفقوا مع البدو على التلصص والحاق الأذى بالناس . وكانت جمالهم قليلة العدد ولم يكن فى الوسع جمع ما يكفى منها بالنظر لتفرق الاهالى وتشتتهم فى الصحراء على حفاف الخليج الفارسى ، دع أن الوباء الناجم عن الحصر والمجاعة كان قد تفشى فى الناس وأصيب به جملة من البكباشية ، ولم يستثن من العدوى به القائد العام الذى ما كاد ينال الشفاء حتى جمع فى الدرعية شيوخ بريدة والشقراء والرس وعنيزة وأمرهم بتدمير الحصون والمعاقل والاسوار فى أقرب وقت ، منذرا المخالف منهم أو المتخلف بالاعدام . ثم وجه الى المدينة فرقة من المشاة ومعها المدافع غير الصالحة للاستعمال وقد كسرت قطعا

لسهولة الحمل والنقل . واخترق ابراهيم الاقاليم فى اربعمائة هجان ليتأكد له تنفيذ الأوامر القاضية بتدمير الحصون والاسوار واستأنف سيره الى المدينة التى كانت الجنود قد سبقته اليها ، وهنالك بادر بزيارة الضريح النبوى الشريف .

وفى سبتمبر سنة ١٨١٩ وردت الاخبار الى ابراهيم باشا برغبة الكابتن (سادلييه) الضابط بالجيش البريطاني فى مفاوضته ، وانه لتعذر دخوله المدينة بسبب ديانته المسيحية قد وقف غربيها عند بئر علي ، فقصد الباشا اليه فى هذه النقطة فعلم أن حكومة الهند الانجليزية ساءها تكرر العدوان من سكان سواحل الاحساء على السفن الماخرة لعباب الخليج الفارسى وأنها ماعلمت باخبار حملة مصر العسكرية فى نجد حتى قررت ارسال أسطول حربى لغرضين احدهما حماية التجارة البحرية والثانى صرف جهود الوهابيين على وجه يلائم مصلحة الحملة المصرية . ثم قال ان فرقاطة واحدة وبضع سفن للنقل قدأنزلت ثلاثة آلاف جندى هندى فى جون القطيف فأصابتهم الدوسنطاريا لرداءة الماء وأن قائدهم علم ، عند ماوطأت قدماه جزيرة العرب ، أن دولة الوهابيين قد دالت وان الدرعية عاصمتهم قد أصبحت أثرا بعد عين فاعترته لذلك دهشة شديدة ، غير انه ودّ ان يبلغ الى ابراهيم باشا ماكان مرسوما للدونتمة الانجليزيه أن تقوم به من الاعمال بتعزيز جانبه وشد أزره . فشكر الامير له هذه النجدة التى لم

يبق لها مسوغ بعد ، فبسط له المستر سادلييه خططا أُخرى مؤداها عودته الى احتلال النقط التى انجلى عنها فى نجد . فأرسل الباشا الى والده ليطلعه على هذا الاقتراح ويسأله رأيه فيه ، وقدم الضابط الانجليزى الى ابراهيم هدايا جليلة فى مقابل ما أهداه الباشا اليه من مؤن ومرطبات وأظهره من جميل العطف والرعاية . فجاء الرد من محمد عليّ الى المستر سادلييه مباشرة برفض ذلك الاقتراح واهدى اليه فى الوقت نفسه جوادين كريمين فاعتذر الضابط عن قبولهما لأن حكومته لم تعطه ترخيصا خاصا بقبول مثل هذه الهدية ثم أبحر بسفينته الى مخا فى اليمن حيث كان ينتظره أمير الاسطول الانجليزى الذى لم يلبث أن أخذ سمته الى بومباي .

وفي موعد الحج زار ابراهيم الضريح النبوى مودعا ثم سار الى مكة فطابق وصوله اليها وصول المحملين المصرى والشامى فوقف ابراهيم بين الحجاج كأحدهم وقام بفروض الحج ومناسكه وصعد فى جبل عرفات ووفى بنذره الذى نذر من قبل ، وهو تضحية ٣٠٠٠ رأس من الغنم ووزع فى عودته من عرفات الى مكة الصدقات الكثيرة واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين قرر سفرهم الى ينبع ليعودوا منه الى مصر بعد أن ترك فى كل من المدينة ومكة وجدة وقنفذة حامية لها . ووجه الى القصير المشاة والمدفعية والامتعة والمهمات وأوغل الفرسان فى الصحراء الممتدة

بين القصير والنيل ومعهم مائتان من كرام الخيل النجدية وأبحر ابراهيم من ينبع فى إحدى السفن ومعه ساحداره نخفق فؤاده طربا وابتهاجا حينما تراءت له سواحل مصر . وما كاد يطأ ثراها بقدميه حتى بعث الى والده قاصدا يبشره بعودته . وفى ١١ صفر سنة ١٢٣٥ الموافق ٩ دسمبر ١٨١٩ وصل الى الجيزة حيث اجتمع بأسرته بعد أن قضى ثلاث سنوات فى قتال الوهابيين قتالا عاد منه باكاليل الفخر والمجد .

وهنا متسع للقول بأن القتال بين الأميرين المصرى والنجدى كان من أجلّ مظاهر الشجاعة والبطولة . فانهما ساقا الى الميادين قوات كبيرة من الجند كان التفوق العددى فيها للنجديين، بيد أن ابراهيم كان متفوقا بالمزايا العسكرية فعوض منها ذلك النقص . وكان عبد الله بن سعود اذا انبرى للقتال هماما مقداما ، إنما كان ينقصه صدق النظر والخبرة بالتدابير الحربية والصلابة فى المفاوضات السياسية . وهذان العيبان اذا اجتمعا فى أمير بيده زمام أمور أمة ألحق بها الضرر الفادح . وكان عبد الله بن سعود شغوفا بفرض المغارم الثقيلة والضرائب الفادحة على أمته شديد الحرص على المال لا يكافيء به أحدا حتى العاملين لمصلحته ، فكان من هذا الوجه على النقيض من أبيه . ولذا كثر مبغضوه لشحه وتقتيره وكانوا فى بغضهم له يعملون بالمثل العامى الشائع بمصر وهو : « حبيب ماله حبيب ماله » .

وذكر فى هذا الصدد أنه لما ولى محمد على الحكم بمصر بدلا من خورشد باشا الذى اعتاد التسويف فى دفع المرتبات للجند قال له على ماذكره الشيخ محمد بن عمر التونسي فى كتاب رحلته الى دارفور : « لقد خلعت نفسك بيدك حينما جاوبت الجند بقولك لهم : لن أدفع لكم شيئا . فان الواجب على ولي الأمر أن يكون سخي اليد كثير البذل . ألا تدرى أن كلمة (لا) قد تقلب كيان كل شيء وتبدل من حال حالا غيرها ؟ »

ومما لاينكر ان الجيش النجدى لم يكن تنقصه الصفات والفضائل الكفيلة بالفوز ، فانه كان مطيعا بقدر ما كان باسلا وقنوعا بالقليل بقدر تحمسه فى العمل وعدم كلاله من مزاولته ، وانما كان ينقصه قائد قدير على السير به الى مواطن النصر ملمّ بأساليب الحرب بعيد النظر فى مصائر الامور حاضر الذهن ، لايرد الموارد ولا يصدر عنها إلا وهو عالم بما وراءها من نفع للمصلحة العامة . والظاهر ان الجرأة التي أظهرها المصريون منذ البداية قد بهتته فافقدته الرشد والصواب ، وضاعف حيرته مارآه من الوسائل والمعدات التى بذوها على ذلك فانها أضعفت ثقته فى المستقبل وتركت لليأس مسربا الى فؤاده .

وكان الواجب عليه ان يجعل مركز جيشه وميدان قتاله عند حدود بلاده وان يستبسل فى الدفاع عنها ويفضل الموت على التفريط فيها ويبذل كل جهد فى صد العدوّ عن مجاوزتها

للأيغال فى داخل البلاد . وكان له من طبيعة الارض ، بما يتخللها من حزون وأوعار وجبال شاهقة وفيافي مترامية الاطراف الى أبعد مدى عونا ووزرا على النجاح . وكان لزاما ، وقد فرطت منه هذه الفرطة ، أن يحول جهده دون وصول القوافل بالامداد المتوالية الى الجيش المغير وان يقطع عليه خط الرجعة بشراذم من الخيالة يدربها تدريبا خاصاً على مهاجمة المؤخرات ومناوشتها ، لكنه لم يفعل شيئا من هذا كله بل ترك الفرص تفلت من يديه فلم يفد منها فائدة .

وقد كان فى مكنته أيضا ، وقد ضيع هذه الفرص ، ان يستدرك بعض مافاته فى معركة الرس او أمام أسوار الدرعية . وهل كان ثمة من فرصة أوفق لضرب المصريين الضربة القاضية من اليوم الذى فنيت فيه ذخائرهم عن آخرها بتلك الجذوة التى ألقتها الرياح السوافى عليها فأصبحوا وليس معهم خرطوش ولا بارود ولاوسيلة للخلاص من المأزق الحرج الذى زجهم ذلك الحادث فيه ؟ لم تكن الساعة ساعة الخلاص فحسب بل ساعة القضاء على خصومهم ، ساعة الضربة الشديدة بجماع اليدين .

لم يغتنم عبد الله فرصة واحدة مما ساقته الصدفة العمياء وجاءت به اليه الحظوظ المؤاتية فكان فشله فشلا قاطعا ، وقد ساعد على وقوعه أن تعليمات محمد على باشا لابنه كانت مبنية على الحكمة وبعد النظر ، وان سعودا كان فى العهد الأخير من

حكمه قد فقد كثيرا من الصفات الفاضلة التى يمتاز بها الأمراء القادرون على السير بالعدل بين رعيتهم فأنه أعار أذنيه للوشايات فهام فى بيداء الأهواء الجائرة وأطاع الشهوات المفضية الى التحاسد والتحاقد والانشقاق بين جماعات المشايعين من أهل المذهب الوهابى ، بل بين أعضاء أسرته أنفسهم . وفضلا عن كل هذا فأنه كان قليل الدراية بأساليب التصرف فى مصالح القبائل الخاضعة له وصيانتها فنفرت منه قبائل الشمال المشهورة بالفروسية وكان باستطاعتها مؤازرته بعضدها ، كما نفرت قبائل الجنوب وهى اكثر القبائل تعرضا للغارات الآتية من الخارج . وكان لاهمّ له الا ايقاع البغضاء والشحناء بينها فاغتنم والى مصر فرصة الاختلاف المستحكم بين أعضاء الاسرة الوهابية المالكة والانشقاق فى وحدة القبائل والجشع المتسلط على نفوسها والدافع لها فى الغالب على حب الكسب من طريق السلب والنهب والعمل بالكراء ليدبر شؤون الحرب وفاقا لما رسمه من الخطط ليخلص له زمام الحكم والتصرف فى جزيرة العرب ومستقبلها وكانت نتيجة ذلك كله أن أذعن الوهابيون ، وهم الذين ضربت ببسالتهم الامثال ، لمقتضى التدابير المصرية المبنية على الروية والنظر البعيد .

وكان مما زاد الطين بلة ماوقر فى نفوس الوهابيين من توهم العزة والمنعة فى أسوارهم فاستكانوا اليها واعتصموا بها ولم يهبوا

من سباتهم العميق إلا وقتما رأوا صواعق النار تكتسح الاسوار وتحيف النفوس . وقد ثبت ان ذلك الوهم لم يكن إلا ضربا من الزهو والاعتداد بالنفس . وكان المحصورون يسخرون من المصريين بقولهم انهم « ينطحون الأحجار » فكان يجاوبهم المحاصرون بقولهم . « المدينة المحصورة مأخوذة » . ولكن هل جهل اولئك الناس مدى البعد الذى قطعه المغير قبل الوصول الى تلك الأسوار ، وأنه بعد ان عبر البحر اجتاز اقيانوسات عديدة من الرمال لاحد لآفاقها وصخورا جرداء وجبالا شاهقة وأنه كان ، اذا سرح الطرف حوله ، لايرى الا العراء والجدب والسكون الشامل فلا شجر ولا نبت ولا خضرة ترتاح لرؤيتها العين وتأنس بها النفس وانما كانت الشمس المحرقة يضاعف سعيرها ما يتشعع من الحرارة الكامنة فى السهول الفسيحة التى لاغطاء لها من شجر أو سحاب والرياح التى يشعر من تهب على وجهه انها منبعثة من تنور نار تلظى وان مخترق تلك الصحراء كراكب سفينة تخترق نار الجحيم لا رجاء له فى الراحة ولا فى الرسو على ساحل الهناء ؟

تتبعث نظرات الجائل فى تلك الصحراء الجرداء فلا يعوقها قط عائق عن النفوذ الى منتهى الأفق ولا ترى أمامها ومن خلفها وحواليها إلا سماء ملتهبة وارضا محترقة وصخورا متقدة . وليس فى مثل هذا المكان يحسن الانتظار ريثما ينزل من السماء

وابل من امطارها الدورية التي يعقبها فى الهند الخصب العظيم والخيرات الوفيرة ، فأن اقليم جزيرة العرب لايستطيع الحياة فيه غير صنفين من الكائنات : الصقر والبدوى . على ان هذا الجارح لا يزجّ بنفسه الى اطراف تلك الأصقاع إلا اذا دعاه داع من دم بشرى سفكه هذا البدوى . تلك هى الصورة الحقيقية لتلك الأصقاع المحزنة على ما حفظته ذاكرة الذين رأوها رأى العين ، بل هى تلك البلاد التى سماها الاقدمون بتسامحهم الأعمى « بلاد العرب السعيدة » . وقبل الاقطار التى سرنا فيها بالقارىء خطوة واحدة يوجد جيل من مخلوقات هى من كثرة العدد بحيث لا يجوز لنا أنكار وجودها ، نريد به الجراد الذى عدّ فى الازمان السابقة من الضربات العشر التى انزلها الله بآل فرعون . نعم إن صعيد مصر يتردد عليه من تلك المخلوقات كل سنة مالايقع تحت حصر ، وهى تقصد منه الى سنار والنوبة ، إنما يجوز لنا القول بأن البلاد النجدية هى ، ولا فخر ، موطن تلك الحشرة الضارة التى من أقل اضرارها فى تنقلاتها الكثيرة بهذه البلاد أنها تأتى فيها على كل خضراء وغضراء ، لا سيما ورق النخل .

وفى سنة ١٨١٣ كان المصريون قد وجهوا طليعة من جيشهم الى الطريق الذى سيسلكه وكلفوها حفر الآبار واستنباط المياه الكافية لحاجات العسكر . فلما شهد الوهابيون ذلك ارسلوا فى

أثرها بعض خيالتهم لمنعها من القيام بهذا العمل . وكان عسيرا على الجيش اسعاف تلك الطليعة وكف الأذى عنها ، فلما لم ينجح سعود في سعيه سد بالاحجار جميع الآبار المحفورة بين الدرعية ومكة والمدينة . وهى آبار يقال إن الذين حفروها جيل قديم من الجبابرة ، ما عدا حديث العهد منها فقد حفره الوهابيون بما لهم من الدراية بالعيافة اى تحديد اعماق المياه بباطن الارض بمجرد النظر الى سطحها والبحث فى النباتات النابتة فيها . فخطة العدو هـذه لم تكن فى شىء من المصلحة ولا سلامة الطبع . لكن الجهال اسندوا الى ابراهيم باشا طمر تلك الآبار النافعة وقالوا إنه لم يقصد بفعلته هـذه سوى الانتقام بدليل أنه تعدى حدود التقاليد فيما تقتضيه الحرب من القسوة اذ حـول الصحراء على اتساعها الى مزرعة خصيبة بجثث القتلى وأنه لم يجد وسيلة لقمع الفتنة أنجع من دماء الأبرياء . ولم يبق لدى ابراهيم الا اليسير من الجند مع ترامى اطراف البلاد التى أراد اخضاعها لشوكته ، فلو أنه ترك فى كل منطقة فتحها حامية من جيشه الضئيل لانتهى الأمر به الى أن لا يبقى معه سوى شرذمة تعد رجالها على الاصابع . وهذا ما حـدا به الى تدمير الحصون والمواقع المنيعة حتى لا يضطر الى ترك حامية كبيرة فيها وحتى لا تسدّ من خلفه سبل الرجعة فتفسد الخطط التى وضعها لتكفل له النجاح فى القتال . فالاطوار التي تقلب فيها ، وهي محفوفة بالمصاعب والشدائد ، لم

يكن ليخرج منها سالما لو أنه اظهر شيئاً من لين العريكة والتردد فى العزيمة . ولا جرم فان المراكز الحرجة يقتضي الخروج منها الارادة القوية والعزم الماضى والرأى السديد ويدا من حديد تستطيع فى مثل البلاد النجدية صد تيار القبائل المتعصبة وصيانة النظام فى جيش تحتك فيه العناصر المختلفة المتضادة .

ولننظر الآن فى شيء من احوال الخصم فنقول إن عبد الوهاب واضع أساس المذهب الوهابى جعل شارة مذهبه « الفوز أو الموت » فجمع تحت هذا العنوان القصير كل الوسائل التى تبيح له التعدى بالقتل على كل مخلوق لايرتضي الوهابية مذهبا له . وكان عبد الوهاب يرى ان القرآن يأمر بقتال الكفار حتي يؤمنوا أو يدفعوا الجزية ، وكان الأمام الفقير فى بعض القبائل لا يستطيع ابرام عقدة الزواج أو مطالبة الفتاة المراد تحرير عقد زواجها بالرضى والقبول مالم يلوث هو رمحه بدم المعركة (١) وكان يقول : « ان الله قلدنا السيف لتأييد وحدانيته ضد الكفار واننا وقد اعتقدنا بالله القادر على كل شيء وبسر التكبيرة القدسية — الله اكبر ! الله اكبر ! — التي تلقى الفزع فى قلوب اعدائنا يوم القتال فأننا نتقدم الى الامام فيقع العالم تحت سطوتنا » . كان يقول ذلك مفتخرا ، لكنك اذا ذكرته باستحالة المقاومة عليه قال : « مهما تكن قوتك فان الله وحده

(١) اى افتض بكارتها

ابراهيم باشا يواسى الجرحى ويضمد جراحهم

هو المولى القدير وفيه ينحصر كل رجائنا . إنا اذا دافعنا فأنما ندافع عن عقيدتنا وهي دين الله الواحد الأحد نخير لنا ان نموت فى سبيل هذا الدين من ان نعيش بعيدا عن حظيرته » .

وكان اذا جندل الوهابي بطعنة ثم أشرف على الموت ووقع نظره فى أثناء ذلك على الظافر الذى أورده هذا المورد قطب وجهه ثم أسلم الروح الى بارئها ، واذا أتيح له ان يتكلم فما هو الا ليلعن او ليستنزل غضب الله ومقته . وقد سئل أحد شيوخ الوهابيين: لم لاتميزون اذا استوليتم على بلد بين أهليه من مسلمين ومسيحيين ويهود بل تقتلون الجميع على حد سواء ؟ اجاب : انك اذا أردت ان تطحن حنطة ورأيت فيها بعض حبات من الحمص والفول أفلا تلقي الكل فى الطاحون حتى لاتكلف نفسك عناء تنقية الحنطة مما اختلط بها من حبوب غريبة ؟ ويؤيد هذا القول الذى ينم على فطرة التوحش وقلة الاكتراث بالحياة الانسانية انه لم تذكر حالة واحدة فى أثناء السنوات الأربع التي انقضت فى الحرب بين نجد ومصر تدل على أن نجديا أشفق بعدوه . أفبعد هذا يستغرب ان يجعل قطع الرقاب والأحراق بالنار عقوبة لمن عمدوا الى النار والحديد فى التنكيل بغيرهم ؟ إن من عادة الحروب التى يؤجج نارها التشيع للمذاهب ان يطول أمدها فلا تضع اوزارها إلا بعد زمن ، وان يسمى المهجوم عليهم منهم بالمظلومين المغبونين المعذبين وأن يسمى القتلى فيها بالشهداء . وهي أسماء مبرقشة

بألوان خداعة فتانة لمن تحدثهم نفسهم بالمشايعة . ولقد حاول أشياع المذهب الوهابي النهوض من عثرتهم فهبوا للعمل فى سنى ١٨٢٤ و ١٨٢٥ و ١٨٢٧ و ١٨٤٢ ، لكنهم لم يرفعوا رؤوسهم فى سنة من هذه السنين إلا خيل لهم أنهم يسمعون اصطفاق أجنحة ونقر مناقير . فأرسلوا نظرهم فاذا بالطيور الجارحة تبتز من الهياكل التى جففتها الشمس والعظام التى ابيضت بطول الزمان مابقى فيها من غذاء ، واذا بأشباح اخوانهم الذين قتلوا خلال الحرب الماضية تتحرك أمامهم ، واذا بهم يشعرون بالأرض وقد مادت من تحت أقدامهم فلا يلبثون أن يفيئوا الى ماكانوا عليه من الاستكانة الى السكون .

ولنعد الآن الى الكلام على نتائج سنة ١٨١٩ فنقول إن ابراهيم باشا بكبحه جماح الوهابيين وثله عرشهم قد أعاد مياه العلاقات التجارية الى سابق مجراها وخلص الدولتين العثمانية والفارسية من القلق الذى استحوذ عليهما ووقى الاسلام خطر السقوط فى هوة الخلل والفساد . فلا جرم اذا أعجب بفتوحاته شعوب آسيا وأوروبا واتجهت اليه انظار العالم السياسى وتأيدت شوكة العرش المصرى فى الخارج كما تأيدت فى الداخل . ولقد أنعمت الدولة العلية على محمد على وابراهيم ابنه بأسمى مراتب الباشوية فى المملكة العثمانية ، وضربت بعبقرية الأول فى سياسة شؤون الدولة وسن القوانين لها الامثال بين الشعوب ، كما

سارت الركبان بذكرى نبوغ الثانى فى الفنون العسكرية والبسالة الذاتية فى القتال ، حتى نجم عن ذلك ان العرب شبهوا ابراهيم باشا بابطالهم العظام وأوردوا سيرته فى القصص والروايات ورفعوه فوق بطلهم الحديث الذى لايكفون عن الترنم بذكره ألا وهو (جدوة بن غيان الشمسى) الذى يفتخرون بأنه ماتراجع قط امام عدو وأنه شق فى يوم واحد صدور ثلاثين من أعدائه . ولو لم يكن عنترة عبد رق لشبهوا الفاتح ابراهيم باشا بهذا البطل الشهير فى التاريخ .

كانت قد مضت أشهر طويلة ولم يصل الى محمد على نبأ من ابنه عن نتائج حروبه فى نجد . وأصيب فى اكتوبر سنة ١٨١٨ برمد صديدى اشتد بسببه قلقه وكربه فأوعز الى المشايخ بالصلاة والدعاء الى الله أن يكلل بالفوز مساعى ابنه وبتلاوة البخارى كل يوم فى مسجد الأزهر ، فما هى إلا أيام حتى تبدل كربه بالفرج وحزنه بالفرح فقدأ بلغه عثمان اغا والى ينبع ومحمد افندى كاتم اسرار ابراهيم خبر الاستيلاء على الدرعية ، فأطلقت المدافع فى يوم ١٨ اكتوبر إيذانا بهذه البشرى وأقيمت الافراح والزينات سبعة أيام ذهب محمد على بعدها إلى الاسكندرية فاستقبل فيها بافخم مظاهر الاحتفال وتنافس الافرنج فى إقامة معالم الزينات على مثال لم يسبق له فى البلاد نظير ، اجلالا واعظاما لقدر الأب وتقديرا وإعجابا باعمال الابن . ولما كان من فطرة القلوب اذا

نالت مبتغاها ان تكون الى الرحمة أميل منها الى الشدة فقد قابل التهنئة التى بعث بها السيد عمر مكرم المنفى فى طنطا بالأذن له بأداء فريضة الحج واستدعاه لهذا الغرض من منفاه . واكرم مثوى محمد بك ابو نبوت والى يافا المعزول بأمر المابين وبالغ فى اكرامه الى حد أن رتب له من ماله الخاص ستة وثلاثين كيسا شهريا أى ٤٥٠٠ فرنك، ثم صالحه على الصدر الاعظم وحصل له على الاذن بالعودة الى وطنه وإسناد احدى الوظائف فى حكومة الدولة اليه .

وفى أثناء إقامة محمد على بالاسكندرية وافته بشرى انشرح لها صدره ، اذ جاءه زائر بلباس من القماش ورداء أبيض وقفطان من الجوخ وعباءة وحذاء من الجلد وشال مسقطى تعمم به وتساقطت عذباته على صدره وجعل فوق العمة منديل قطن معلم بخطوط حمراء وخضراء هبطت أهدابه على كتفيه . فلما وقع نظر الوالى على هـذا اللباس الغريب سره حسن منظره وتوافر الشبه بين لباسه ولباس الوهابيين . فمن ذا الذى كان يلبس هذا اللباس ؟ — هو ملازم ركاب ابراهيم باشا المسيو فسيير الفرنسى الاصل ، جاء ببشرى وصول الأسرى الذين أخذوا فى المعارك المختلفة . وكان يحمل رسائل برسم محمد على باشا من قائده ابراهيم وكان هذا قد أوصاه بان يمثل بين يدى والده بثياب الوهابيين لينوب عنه فى إخباره بما أحرزه الجيش المصرى من فخر ومجد .

وأراد محمد على أن يشكر لابن جلدتنا الخدم الجليلة التى قام بها فأهداه من القمح والارز والقطن مايعدل ثمنه خمسين الف ريال، وأهداه غير ذلك ثوبين جميلين من الثياب العثمانية وشالين كشميريين ليتخذ من أحدهما عمامته ومن الآخر حزامه .

وعاد محمد على الى القاهرة فى ٢٥ مارس ١٨١٩ مصحوبا بقابجي الباب العالى الذى كان وصل من الآستانة ليقدم اليه من طرف جلالة السلطان تذكارا نفيسا لانتصاراته الجليلة فى بلاد العرب، وهو ساعة وخنجران وريشتان من الالماس وسموران من أنفس انواع السمور أحدهما برسمه والآخر برسم ابراهيم . وكان على يد هذا القابجى مرسوم سلطاني بترقية عباس بك حفيد محمد على واحمد أغا بن طاهر باشا الى رتبة الباشوية ذات الذنبين . كل هذا مع التصريح له بالانعام برتبة القابجية على من يريد ، فأنعم بها فى الحال على حسن أغا الازرنجلى وشريف بك ناظر المالية وخليل أغا وعلى بك .

وفى ٢٥ صفر ١٢٢٣ الموافق ١١ دسمبر ١٨١٩ وصل ابراهيم من بلاد العرب فاستقبله فى قصر شبرى كبار رجال الحاشية وعظماء قواد الجيوش بجنودهم والأغوات والاعيان فسار يحف به ذوات مصر وتتقدمه الأذناب الثلاثة المرموز بها لرتبته واثنى عشر جوادا مطهماً ومغطى بأغطية مزركشة بأسلاك الذهب . وكان دخوله القاهرة من باب الفتوح فظل سائرا حتى

صعد الى القلعة الصلاحية . وكانت الحوانيت والشرفات والطنف والنوافذ مزينة باجمل الزينات والأهـلون يسيرون أفواجا فى الطريق فكان كلما تراءى لفوج ، اختلط تصفيقهم وهتافهم له بدوى البنادق والمدافع .

وبالجملة فقدشهد سكان العاصمة المصرية جميعا هذا الاحتفال الجليل إلا رجلا واحداً التمسته الانظار فى مظان وجوده بين الجموع الكثيفة ، بل التمسته القلوب فلم تجده ، ذلك هو محمد على باشا . حقا ان والى مصر عرف بالهمة والعزيمة ، لكنه لم يأنس من نفسه القدرة على الاحتفاظ برصانته أمام هذا المنظر السارّ فأراد بتغيبه ألا يخصه أحد دون ابنه بشىء من الهتاف ومظاهر الحفاوة التى كان ابراهيم وحده جديرا بها ، لهذا اكتفى باتخاذ مقعد بسيط له فى مسجد السلطان الغورى شهد منه الاحتفال الباهر كما شهده غيره من مطاق الناس ولما أوشك ان يمر امامه بسط يديه لله شاكرا حامدا مثنيا ثم وضعهما على صدره حتى لاينفجر من طفرات قلبه الطافح بالسرور . ثم نظر الناس حولهم لدى مرور ابراهيم أمامه فلم تقع انظارهم على والى مصر ، وانما وقعت على الوالد الذى غمره هذا المنظر في بحر خضم من السعادة والسرور فساقطت دموع الفرح من عينيه . وفى اليوم التالى تواردت الوفود على ابراهيم يهنئونه بالظفر ويقدمون اليه الهدايا الجليلة من الكشامير والاشياء المشغولة بالذهب والفضة

والاحجار الكريمة واللآلىء والنفائس . وقد أحصيت قيمة ماقدم اليه فى ذلك اليوم فاذا بها تتجاوز ستة آلاف كيس اى ٧٥٠٠٠٠ فرنك . واستمرت الأعياد سبعة أيام بلياليها كانت الشوارع والميادين العامة فيها مزينة بالأنوار الزاهية والمصابيح المتلألئة وأخذ الناس يطوفون شوارع القاهرة ويزورون أسواقها ويذهبون الى بولاق حيث كانت الزوارق أمامها مزينة بالاغصان المورقة والازهار المونقة وتتهادى على النيل بين طلقات المدافع المصفوفة على الضفتين . وبلغت أنباء هذا الاحتفال الى الآستانة العلية على يد مبعوث خاص أرسلته الحكومة المصرية فلما وصل هذا المبعوث سار بين جماعات من الاهلين قد اصطفوا على عطفى الطريق ، وقد ألبسه القائمقام خلعة من أعلى الخلع وأغلاها قيمة وقصد السلطان ووزراؤه وقبطان باشا وقابجى باشا وكزلار أغاسى وقبو أغاسى وجميع العلماء والقواد وضباط العساكر وكبار الموظفين فى المعية السلطانية والحكومة العثمانية والخصيان السود والبيض الى مسجد السلطان أيوب فى موكب جليل مهيب وهيئة جميلة ،وهناك حمد المفتى الله تعالى واثنى عليه اذ عاقب الذين دنسوا مقام ابراهيم وأعاد الى سلطة الخليفة الحرمين الشريفين . وعاد السلطان الى قصره فجلس فى قاعة العرش فتوارد العظماء للسلام عليه وتهنئته وظلت الحفلات قائمة فى الآستانة سبعة أيام كانت مدافع القصر الشاهانى والدونتمة

والمدينه تطلق فى خلالها صباحا وظهرا ومساء . وكان السلطان ورعاياه يخرجون صباح كل يوم فى طلب النزهة بركوب القنجات أو الخيـل . وبينما كان اسم ابراهيم تردد صداه أركان المملكة العثمانية ويعجب العثمانيون بشجاعته ويحمدون عمله ابتلاه الله بمحنة وأنزل به مصابا كيلا تأخذه عزة الظفر فتنتفخ أوداجه كبرياء وصلفا أو ينسى أن الرؤوس مهما رفعها المجد الى الأوج لا مناص لها فى يوم ما من التدهور الى الحضيض وان الناس مهما شرفت مراتبهم وعلت مراكزهم غير معصـومين من فتكات الموت .

كان ابراهيم وهو فى المدينة قد اشترى جارية فارسية وبني عليها فرزق منها بغلام ، وبعـد سقوط الدرعية بأربعين يوما جاءت اليه الوالدة والولد فى تختروان يحمله جمل يحف به اربعمائة فارس ليدخلا السرور عليه ويجزياه على جايل فعاله بقبلاتهما الحارة . وكانت مركبة الباشا فى الوقت نفسه آخذة سمتها الى المدينة يجرها أربعة بغال فلماالتقى بابنهوزوجته نقلهما الى مركبته ، الا ان الله اراد عند ما وصلوا جميعا الى المدينة ان تموت الزوجة على أثر وضعها غلاما آخر ، توفى بوفاتهـا . فتلقى هذه الكارثة بالصبر وعهد الى كيخياه العناية بعثمان بك الابن الاول فى سفره الى السويس ، لكن حدث عقب الوصول الى هذا الثغر أن كان هذا الأمير الصغير نائما فى حجر جارية سوداء فاذا بجارية بيضاء

انقضت عليها تبغى ضربها ، وقد زاغت يدها فأصابت الامير الصغير خطأ فقتلته ، فجاء هذا المصاب بعد مصابه الاول بفقد زوجته وابنه الاصغر ضغثا على إبالة وأصابه من جرائه غمّ شديد فى الوقت الذى كان والده مغتبطا بعودته ويستقدم الوقت ليحظى برؤيته .

على انه ما من والد او والدة او زوجة إلا ناله مكروه كما نال ابراهيم بفقد عزيز عليه ، فبكى الوالد والوالدة ولدهما والزوجة زوجها وصاحت ، والوجد على فقيدها يفتت كبدها ، منادية : ياسبعي ! ياجملى ! يامصيبتى الخ صيحات العويل والانتحاب . ذلك لأنه ما من أحد أصيب بفقد عزيز عليه إلا فقد الأمل فى رؤيته ، لاسيما اذا أثار المعزّون ثائرة الوجد فى نفسه بتعزيتهم اياه بمثل قولهم : عوضك الله خيرا . أما الذين لم تدفن جثثهم فى رمال صحراء نجد فقد قرت بعودتهم أعين وابتهجت أفئدة . نعم انهم عالجوا من المصاعب واقتحموا من الأهوال الشىء الكثير ، لكن فى عودتهم مكللين بأكاليل الظفر مايخفف عنهم عبء ما تكبدوا .

طابقت عودتهم الى مصر شهر صفر من السنة ، وهو الشهر الذى يعود فيه المحمل الشريف من مكة . ولا يذهبن الاعتقادبك الى أن الحجاج العائدين استأثروا باحترام الجماهير وتحياتهم او بمظاهر الاجلال التى يقابل بها من قاموا بمناسك الحج وشعائره

وفروضه ، فثمة أولئك الابطال الذين ماتحققت أمنيتهم من كبح جماح الوهابي وقمع شيعته وتعطيل مذهبه إلا بعد معاناة الشدائد من حرمان مهلك وسير في القفار وأوعار الجبال ، على مسافة لاتقل عن ١٥٠ مريامترا . تراهم بعد عودتهم يطوفون الشوارع والاسواق في سكون ووجوم وربما نام البعض وهم جلوس على القهوات ، فاذا شهدت عجوزا تعمدت الاحتكاك بأحدهم فما هو إلا للتبرك به اوطلب الشفاء من داء اصابها لاعتقادها ان من يستنقذ الحرمين الشريفين جدير بأن يكون من الاولياء والصالحين . وهذا الاعتقاد باطل بلا ريب ، بل هو خرافة لا وزن لها . ألم تر عساكرنا الابطال ، وقد عادوا من افريقية الفرنسية الى وطنهم والعرق يتصبب من جباههم والصدور مجللة بالجراح الدامية والشوار مثقوبا بالرصاص والاعلام كالخرق البالية ، موضعا للتبجيل والتعظيم والتوقير والتكريم ؟

الباب التاسع

افريقيا العليا

من سنة ١٨١٩ الى سنة ١٨٢٣

فتن الحظ المؤاتى فاتح جزيرة العرب واغراه التوفيق بتحقيق الامانى فطمح الى توسيع نفوذه واعلاء كلمته بخوض غمار مشروعات جديدة . وكأن تفرغه لجنى ثمار فتوحاته السابقة لم يضعضع همته ولم يفلّ عزمته ، فعمد الى إفساح المجال لهمة الاستثمار ، وعهد الى حسن بك الشماشرجى مدير اقليم البحيرة رياسة حملة علمية عسكرية لفتح واحة سيوه والبحث فيها عن هيكل شيد فى الأزمان القديمة لعبادة رب الارباب .

ألفت الحملة من ألفى رجل وجهزت ببضعة مدافع ورافقها ثلاثة من الاروبيين وهم : مسيو (دروفيتى) قنصل فرنسا الجنرال و (ليناز) الطالب بالبحرية الفرنسية و (ريتشي) الطبيب

والرسام الفلورنسى فكان هؤلاء الثلاثة خير معوان على تحقيق الغرض الذى نيط بتلك البعثة اذ رسموا المناظر الغريبة فى تلك الجهة ووضعوا لها الرسوم الهندسية وسافرت الحملة من الطرانة بالبحيرة فوصلت الى الزيتون بعد مسيرة ١٤ يوما . وقد تخلف أولئك الأوروبيون بها زمنا لمشاهدة الآثار القديمة وسار حسن بك الشماشرجى بالشطر الاكبر من جنده حتى وصل الى سيوه . وكان قد اتصل بأهليها خبر الحملة فأغرقوا ماحولها بالمياه واضطروا قافلة مؤلفة من مائة بدوى كانت آتية من ضاحية بنى غازى لأعمال تجارية الى الوقوف فى صفوفهم للدفاع عن الواحة، وتحصنوا بالاستحكامات وأسوار الحدائق وأشجار النخل فحاربوا ببسالة وعنف ودام القتال ثلاث ساعات لم يكفوا فيها عن اطلاق النار من ستة آلاف بندقية . فلما شهد المصريون ذلك عمدوا الى المدافع فأطلقوها عليهم فقتلت قذيفة من قذائفها امرأة وابناءها فذعروا جميعا ووقفوا القتال بعد أن بلغت خسائرهم اربعين رجلا مقابل خمسه عشر من المصريين . وفرض حسن بك الشماشرجى على أهل البلدة غرامة عشرة آلاف ريال ثم فاوضهم فى أن يؤدوا ألفى حمل من البلح سنويا، لكن مسيو دروفيتى رأى الفرضة فادحة لايتحملها أولئك الفقراء فتوسط فى تخفيضها فخفضت رعاية لخاطره . وأراد الفرنجة المرافقون للبعثة دخول البلدة فاعترض أهلها قائلين انهم لا يحبون

ان يطلع الاجانب على ينابيع مياههم ومسالك طرقاتهم خيفة ان يفضى ذلك الى ضياع استقلالهم الذى تحميه الصحارى الرملية ، فهددهم حسن بك بهجوم ثان بالمدافع اذا أصروا على المعارضة فلم يسعهم الا الأذعان وتمكن الأوربيون الثلاثة بذلك من مباشرة ابحاثهم ، وتفقدوا البحيرة ذات الاسرار العجيبة الموجودة بجزيرة (العراشية) وكانوا يرجون ان يهتدوا فيها الى هيكل (زفس أمون) أى المشترى فاتضح لهم ان الهيكل القديم هو هيكل (أم بيضه) الواقع فى بلدة سيوه .

وفى أول يونيو عاد محمد على باشا من الاسكندرية الى القاهرة فأقام بها بضعة أسابيع سافر بعدها الى الاسكندرية . وكان شاه فارس قد أرسل اليه هدية من الطيور النادرة والكشامير الدقيقة السلك والخيول العربية الكريمة فألقى بزمام الحكومة فى أثناء غيابه الى ابراهيم باشا كما عهده اليه فى السابق . وقد أقام ابراهيم معالم الزينة ومظاهر الافراح مدة ثمانية أيام احتفالا بختان عباس ابن أخيه . وجاء فى هذا الاحتفال باربعمائة طفل من ابناء الفقراء فجعل لكل منهم سريرا وبذلة واعطاه خمسة وعشرين قرشا ونظمهم صفوفا حول الامير الصغير فى موكب ختانه ثم ختنهم فى قصر ابراهيم بحضور القاضى والمشائخ وكبار رجال الحاشية .

ولسائل أن يسأل : لمَ لمْ يقم طوسن باشا والد عباس

بحفلة ختانه وهو أولى بذلك لمكان ابوته منه ؟ الجواب : ان طوسن باشا كان قد توفى قبل هذا الوقت بثلاث سنوات على اثر مرض عصبي . وكان قبل وفاته قائد الجيوش المعسكرة على فرع رشيد ، وكانت بلدة (برمبال) مقرّ القيادة العامة لها ، فرأى ان يلتمس فيها الراحة من المشاق التى تكبدها فى الحجاز ، فجمع اليه الموسيقيين والراقصات والمغنيات من الغادات الفاتنات . وفى ذات يوم ظهر على جسمه انتفاخ وعلاه اصفرار فوهم رجال حاشيته أنه مصاب بطاعون ، بيد أنه تبين بعد الفحص الطبي ان تلك الاعراض ناشئة عن الافراط فى اللهو والجماع . وقد بلغ هذا الافراط اشده فى ليلة قضاها مع جارية شركسية بارعة الجمال . وأيقن محمد على باشا أنه توفى لأن كيخيا بك كان يحاول التلطف فى ابلاغه نعيه ففهم مراده ولم يتمالك ان خنقته العبرة وسقط مغشيا عليه فرفع من مكانه وأجلس حتى اذا أفاق من غشيته أخذ يطالبهم ، بالرجاء والترغيب تارة وبالاخافة والترهيب أخرى ، باحضار ابنه العزيز اليه . فلما لم يجد منهم سميعا ولا مجيبا أمعن فى البكاء والأنين ولم تجدِ فى تسكينه من هذا الجزع وسائل التعزية . وحينما بدىء بتسيير الجنازة رغب فى تشييعها من بولاق الى الامام الشافعى سيراً على القدمين ، الا انهم منعوه بعد إلحاف فى الرجاء . وفى اليوم التالى وزعت صدقات جمة على الفقراء استنزالا للرحمة والرضوان على جدث الفقيد

وكان طوسن سمحا كريما لايحسب لغده حسابا اذا مدّيده بنوال . ومن اقواله المأثورة : « خليق بابناء الملوك المحبين لخير بلادهم . ان يكونوا كالنسيم الذى يسوق السحب لتروى الارض بمائها فتخرج الحب والنبت » . وبعد وفاة طوسن باشا حصر محمد على فى ابراهيم كل آماله . وكان فى سنة ١٨١٢ قد ناط جباية الضرائب فى الصعيد فاستطاع ، بما جبل عليه من انصاف واعتدال ، ان يوفق بين المهمة الموكولة اليه وبين مصلحة الاهلين . وعين حاكما للوجه القبلى فى سنى ١٨١٣ و ١٨١٤ و١٨١٥ ثم واليا مؤقتا لمصر فى سنة ١٨٢٠ ، فتمكن بحكمته وسداد رأيه من وضع حد لاستبداد العمد والمشايخ الذين كانوا يسيرون بين الناس بالظلم قضاء لمطامعهم وغاياتهم ، ودافع عن حقوق الفلاحين بما أوجب شكرهم له وحبهم إياه كحبهم والده الذى خلصهم من ربقة البكوات الجراكسة وكشافهم .

وكان المماليك الذين نجوا بحياتهم بعد أن طردوا من إبريم لايزالون فى حركة ونشاط بأقليم دنقله ، اذ أخضعوا لنفوذهم واستبدادهم فيه ملوك القبائل وشيوخها وقتلوا الكثير منهم . ولقد دبت فى نفوسهم عوامل الكبرياء والجبروت ، لما اختصوا أنفسهم به فى ذلك الاقليم من السلطة الظاهرة والحكم الوقتى لخدثهم وسواسهم بالنزول الى مصر ، الا أن محمداً عليا لم يكن بالرجل المستكين حتى يلجأ الى الراحة فى انتظار وصولهم ، بل

عـول على الذهاب اليهم لمطاردتهم فى ملاجئهم التى آووا اليها ليقضى عليهم قضاء أبديا . وكان يرمى بهذا المشروع الى غايات أخرى وهي امتلاك النوبة ، لاستخراج الذهب والالماس من مناجمهما التى اتصل به ان دنقلة وسنار وكردفان ودافور تحتوى الكثير منها واغتنام هذه الفرصة للتخلص من الجنود الذين ما برح اختـلال نظامهم ومخالفتهم الطاعة لرؤسائهم مصدر بلاء عظيم لمصر وحكومتها وتجنيد جنود من السودانيين بدلا منهم لما عرف عنهم من الطاعة والصبر والقناعة والبسالة . ومن هذا الحين اخذوا يشيرون فى المصورات الجغرافية الى ما يفيد ان النوبة العليا والسفلى اصبحت جزءا متمما لباشوية مصر وان اقليم سنار سيصبح قريبا تابعا لها . وكانت الاقوام الذين عقد محمد على النية على قتالهم معروفين بالأقدام والبسالة والبراعة فى ركوب الخيل وانهم ، مع تجردهم من الثياب والاسلحة النارية، لا يفوق عليهم أحد فى الضرب بالسيوف ذات الحدين المصنوعة بالبلاد الالمانية ، وهـذه السيوف ذات مقبض من الخشب وقراب من الجلد ، ولا فى الطعن بالرماح ذات النصال المسننة . ولقد أوغل محمد بك الدفتردار بتلك البـلاد فى خمسمائة فارس حتى أدرك حدود دنقله فلما رآه المماليك ولوا مدبرين الى شندى واستولى الذعر على خمسة وعشرين منهم فجاءوا الى القاهرة بثياب بيضاء يلتمسون الرحمة بهم والتجاوز عمـا سلف من ذنوبهم .

فوعدهم محمد على بالعفو عنهم جميعا إلا زعيميهم محمد بك المنفوخ وعبد الرحمن بك ، وكانا قد توليا الزعامة على المماليك بعد وفاة عميدهم ابراهيم بك فى سنة ١٨١٦ متجاوزا الثمانين من العمر .

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه الجمال الكثيرة تجمع باسنا لنقل الأحمال فى الصحراء كان ثلاثة آلاف قارب مهيأ بموردة مصر العتيقة فى يونيو ١٨٢٠ لحمل ٤٣٠٠ جندى من المشاة وعشرة مدافع ومدفع من طرز الهاون وكثير من الذخائر والأمتعة والمهمات .

ولقد أقلع هـذا الاسطول الكبير وسار ألفا فارس ، منهم خمسمائة من عربان العبابدة ، على ضفة النيل بقيادة عابدين كاشف حتى بلغوا الى أسوان مكان احتشاد الحملة . فلما كمل اجتماعها فيها استأنفت الزحف ومعها ثلاثة من العلماء للقيام ببعض المهام السياسية وقد دفع الى كل منهـم مقدما خمسة عشر كيسا وأعطى بذلة وترأس هذه الهيئة اسماعيل باشا أصغر ابناء محمـد على باشا فاجتاز بها الشلالين الأول والثانى واخترق دنقلة من غير ان يجد مقاومة . وقد التقي على مسيرة يومين منها برجال من قبيلة الشايقية المعروفة بكثرة عددها وشدة بأسها في القتال حتى تسلطت على الاهالى بالقهر والأذلال وهتك الأعراض ونهب الاموال . وكان يصحب الباشا قليلون من الأحراس ، ومع هذا فقـد أوغل فى تلك الأصقاع الـكثيرة المخاوف والمتالف

فاعترض طريقه عدد كثيف من الأهلين يبغون قطعه عليه ، فدهمهم وأثخن فيهم قتلا وجرحا وأرسل الى والده رؤوس ستة من رؤسائهم ومشائخهم وآذان خمسمائة منهم ، دلالة على ما أحرزه من النصر وأوتيه من توفيق فى ارتياد تلك الاصقاع . وبعد مسيرة ثمانية أيام كان الأهلون لا يزالون يواصلون التقهقر لحشد جموعهم ، فاغتنم المصريون هذه الفرصة للاستراحة على ضفاف النيل فى مزارع الذرة القريبة من (كورتى) وارسل الامير الى النوبيين من يدعوهم الى السلم والقاء السلاح وتسليم الخيل والاقتصار على زراعة الأرض ودفع ضريبة قليلة من المال ، فوافق الشايقية على دفع الضريبة لكنهم أبوا التخلى عن سلاحهم وخيلهم وقالوا إنهم يفضلون القتال على الرضاء بهذا الطلب . وكان اسماعيل باشا شابا مغامرا صارم القلب متوقد الحماسة يحلم بمجد الحروب فأبى الا أن يفرض عليهم ارادته ولو لجأ الى القوة فى تنفيذها فسير اليهم فى بادىء الأمر فصيلة مؤلفة من مائة بدوىّ للاستطلاع ، لكنها ما كادت تتحرك من مكانها حتى أحاط بها الشايقية ، على الرغم من شدة مقاومتها ورباطة جأشها فقد خسرت خمسة وتسعين من رجالها وعشرين جوادا . ولو أن جيش اسماعيل باشا كان يتجاوز الثمانمائة فارس الذين عهدت اليه قيادتهم أو كان معه مدفع واحد ، لما منعه مانع من الزحف به فى سهل فسيح يمتد النظر فيه الى أربعة أميال ، لكنه اهتدى

الى موقع ملائم لمقـامه على حفاف المناطق المزروعة ورمال الصحراء ، فلم تبد من العدوّ حركة لمناوأته طول النهار على انه احتاط لنفسه فأمر العسكر باليقظة دفعا للخطر الداهم والمفاجآت .

وقبيل الساعة الثالثة بعد ظهر ٢٧ محرم ١٢٣٦ الموافق ٤ نوفمبر ١٨٢٠ أقبل أربعون شايقيا وأخذوا يستدرجون المصريين اليهم . وكان اسماعيل على أهبة القتال دائما فتفقد عساكره وحضهم على الثبات وحسن البلاء . وكانت هذه أول مرة ساس فيها حركة قتال مع عدو ، فلاح لبعض كبار الجند الذين خبروا القتال وعركوا الحروب ، وبينهم بعض الكشاف ، أن يطلعوه على آرائهم وملاحظاتهم فلم يكن منه إلا أن وقف إزاءهم وقفة عزة وشمم وسألهم بصوت جهورى : من له القيادة على هذا الجيش ، هو أم هم ؟ فلم يسعهم ، وقد سمعوا هذا السؤال ، إلا ان اعربوا له عن طاعتهم وانقيادهم ، فقال : « لقد ملأتم فؤادى بهجة وسرورا بما اقررتم به من طاعتكم وثقوا بأن الفوز والغلبة سيكونان لنا » . ثم أمر برسم الخطط واتخاذ التدابير طبقا لها ، فلم تمض عقب ذلك برهة حتى شوهد من ناحية الشرق ما يشبه الغمام زاحفا نحوهم متعاظما كلما دنا منهم . وما هى الا فترة قصيرة من الزمن حتى انجلت هذه السحابة عن جيش ضخم من الرجالة والخيالة والهجانة مسلحين بالسيوف والرماح . وكان قوادهم يلبسون الزرد ويحملون الدرق المستطيل المتخذ من جلد

التمساح او جلد العسنتة (فرس البحر) والبنادق وغيرها من مختلف الاسلحة فاصطف المشاة صفا والفرسان من ورائهم . وبرزت احدى فتيات القبيلة على هجينة مطهمة فأعطت الجيش شارة القتال بصوت كسجع الحمام فتعالت الى عنان السماء غمغمة اصوات حادة اختلطت برنين البازات . وما هى الا إناخة راكب حتى تدفق الهجانة على ميمنة المصريين وحمل الفرسان حملة عنيفة على الميسرة وحمى وطيس القتال الذى ظل بين الطرفين سجالا . وكانت تحت قيادة عابدين كاشف فرقة احتياطية مؤلفة من مائتى بدوى ، فحمل على العدوّ ثلاث حملات صادقة أحدث بالاخيرة منها ثغرة فى صفوف فرسان العدو . وهنا أدركه اسماعيل بمدده وضم جهوده الى جهوده وانبرى هو وعابدين بك فى طليعة رجالهما لصد صدمات العدو وعززهما البكباشى عمر اغا فلم تمض على القتال ثلاث ساعات حتى تشتت شمل العدو . وكان فرسان الشايقية ألفا لم يفقد منهم سوى خمسين فارسا أما الباقون فلم يستطع المصريون أن يجذموا بالسيف رقابهم لأن الليل كان قد زحف بكتائبه فنجوا بأنفسهم فى ظلامه الداجى وحملت مشاة العدو الشطر الاكبر من عبء الصدمة ، وكانوا خليطا من الفلاحين اتخذهم المحاربون سياجا لهم وجنة لانهم لم يكن معهم من السلاح سوى ما ألقاه فى وهمهم بعض الشيوخ المشعوذين من أن الرصاص لا ينال فتيلا من صادق الايمان .

فكنت تراهم لاستقرار هـذه العقيدة فى اخـلادهم يعرضون صدورهم لوابل الرصاص . وكان كل محارب منهم يحمل معه ، فيما عدا هذه العقيدة الراسخة ، قطعة حبل باعتقاد أن اعداءهم سيسلمون اليهم بأنفسهم ويمـدون ايديهم ليشدوا وثاقهم بها . وبلغ الوهم الباطل ببعضهم انهم بما عملوه من السحر وحملوه من الطلسمات صاروا بحيث لا تراهم العيون وان كانوا هم يرون غيرهم . لهذا لم تكد المعركة تنتهى حتى قصـد لفيف منهم الى خيمة اسماعيل باشا فى المعسكر المصرى يبغون أذاه معتقدين انهم مستخفون عن الانظار، فلما أبصر الحراس بهم وايقنوا أنهم من الاعداء قبضوا عليهم ومنعوهم من اتمام قصدهم . وقد تبادر الى خواطرهم فى أول الامر أنهم من الجلابة الموالين للباشا فلما سئلوا عن حقيقة مقاصدهم ونياتهم أجابوا صراحة بأنهم كانوا يرجون القبض على الامير وشد وثاقه وأخذه من خيمته مكتوفا الى أخيه ابراهيم ، قاهر الوهابيين . وبلغت بهم شدة التمسك بالاباطيل والخرافات الباطلة أنهم لم يبالوا لماذا لم يأت السحر والطلسم بما يبغونه منهما الا وهو الاستخفاء عن الانظار لنيل الاوطار، بل ان بعضهم اصيبوا بالرصاص وأشرفوا على الهلاك لشدة ما كابدوا من الألم ومع هذا كانوا لا يكترثون بالموت ويقولون إنه غير ملاقيهم مهما بلغت فـداحة جراحاتهم . ولعل سبب ضلال عقولهم انهم كانوا قبل النزول فى ساحة الوغى بل وبعد نزولهم

فيها يكرعون الشراب الذى يسمونه (أم بلبل) وهو نوع من الجعة يفقد الشارب رشـده فتى تجرعوه قذفوا بنفوسهم فى ميدان القتال غير حاسبين لحياتهم حسابا وأخذوا يلقون الرمال فى وجوه المصريين أو يحيونهم بتحية «السلام عليكم». يفعلون ذلك على سبيل التهكم والسخرية، لكنهم كانوا يدفعون ثمنها غاليا جدا، ففى تلك المعركة كان عددهم فى أولها الفين وخمسمائة فبلغ عدد قتلاهم فى منتهاها ثمانمائة رجل فى مقابل ثلاثين قتيلا واربعين جريحا من المصريين.

وفى مساء ذلك اليوم نقل اسماعيل معسكره الى ضفة النهر، ومع مابذله من جهود لصد الجنود عن ارتكاب الفظائع التي كانت على ذلك العهد فى بلاد الشرق خير مايختتم النصر به لم يوفق لاقناعهم بملازمة السكون فانطلقوا يعيثون فى الارض فسادا، فمن هتك اعراض الى قتل أنفس الى نهب أموال وإحراق بيوت. ومن الجدير بالذكر هنا ان بلدة (كورتى) عاصمة الشايقية أحرقت وصار عاليها سافلها، وما أمسك جندى بيده اذن شايقى إلا ليصلمها بخنجره حتى بلغ ماأرسله اسماعيل من الآذان الى والده فى زكيبة واحـدة سبعمائة وعشرين أذنا كانت الشهادة الناطقة بما أحرزه من فوز ولقيه من نجاح فى فتوح البلاد. ولم تنج النساء من صلم آذانهن كذلك الا أن اسماعيل باشا ساءه ان يعاملن بهذه القسوة فأنحى على مرتكبيها باللوم والتأنيب

وألزمهم الكف فى الحال عن معاملة النساء بهذه الصرامة وأمر فجىء اليه بستمائة من الأسيرات كان المرقوب استرقاقهن ، فلما مثلن بين يديه بكين وولولن وأسلم بعضهن أمره الى الله قائلات : « سيأخذوننا الآن ويقطعون رقابنا لكن يد الله هى التي ستضرب زوجات الشايقية . وماكان مكتوبا فى الأزل لابد من نفاذه » ، لكن ما كان أعظم دهشتهن حينما قيل لهن إنهن لن يعاملن بالقسوة من قتل او غيره كما تبادر اليهن بل سيطلق سراحهن ويرسلن الى جزيرة (شطرب) حاملات كل مايلزمهن من حاجات المعيشة . وأطلق اسماعيل كذلك سراح جماعة من أهل دنقلة أشركهم الشايقية معهم فى القتال على الرغم منهم وأعادهم الى بلادهم . وفى ٢٨ محرم الموافق ٥ نوفمبر جىء الى اسماعيل بعشرين أسيرا فسألهم كم كان عددهم عند ما هجموا فى اليوم الماضى ، فلم يقصروا فى المبالغة جوابا على هذا السؤال اذ قالوا : « كنا خمسة آلاف وكان الله معنا » فقال لهم الأمير : « عودوا الى زعمائكم ومشائخكم وقولوا لهم إننى بقليل من العساكر استطعت محاربة الكثير منكم وانكم اذا ضاعفتم عدد جنودكم الى عشرة أمثالها فى بداية هجومكم فلن يكون من حظكم الا مالقيتموه أمس من الفشل والتقهقر . وأخبروهم بالنيابة عنى اذا كانوا يجهلون ماهى قوة جيشى انها أربعة أمثال من رأوهم فى الأمس . هذا فيما عدا الاثنى عشر مدفعا التى لو أطلقت

عليهم مرة واحدة لأفنيهم عن آخرهم . وخبروهم كذلك بأننى اذا أطاقت لجنود العنان ليقتلوا ويستبيحوا اعراضهم وأموالهم فليس فى قدرتى ان أحول بينهم وبين مايقصدونه فتحترق منازلكم وتضرب أعناق نسائكم وأطفالكم فعليكم اذاً ان تنصحوا الى زعمائكم بالحضور لتقديم فروض الطاعة لتكفونى مؤونة الاسف على إهراق دمائكم بلا جدوى . ولقد أمرت خازندارى بأن يسلم كلا منكم محبوبين فانطلقوا الآن من حضرتى احرارا غير مقيدين » .

وسلمت صورة هذا الخطاب الى الأسرى الذين صحبهم بعض الحراس الى خارج المعسكر فأخذوا سمتهم الى زعمائهم دون ان ينالهم أذى .

تلك الخلال الفاضلة والصفات الانسانية التى امتاز بها اسماعيل باشا جديرة ولا شك بالمدح والثناء ، لكنها لم تكن لتقنع أحدا من المغلوبين بوجوب الطاعة والخضوع للمصريين كما لم تقنعهم ، لبلوغ هذا القصد ، اقوال العلماء الذين صحبوا الحملة ليكونوا لدى الاعداء رسلا داعين الى الطاعة حاثين على الاعتراف بالحكومة المصرية ، فان الشايقية عبروا النهر سباحة على مسافة اثنى عشر كيلو مترا من معسكر الجيش المصرى أو ركوبا على الجياد أو تعلقا بقطع الأخشاب ثم جمعوا شتاتهم بالقرب من جبل (داجر) الذى باعلاه قصر حصين . وكان قد

وصل مائتا فارس وثلاثمائة راجل فانضموا الى جيشه بمدفعين وعبر هو النيل فى اربعمائة فارس فهجم الشايقية عليهم بجميع قواتهم يقذفون بالاحجار أولا ثم يطعنون بالرماح ، فتلقى المصريون صدمتهم العنيفة بجنان ثبت ليمكنوا بقية الجيش من عبور النهر . فلما عبرته تقدم المشاة فأمرهم اسماعيل بستر المدفعين اللذين معهم وقاموا بمناورة لهذا الغرض أفضت الى قطع الصف الاول من صفوف الاعداء ، فبدأ المدفعان عندئذ برمى مقذوفاتهما فاحدثا ثغرة واسعة بينهاثم أطلقت المقذوفات منهما على بعد يعدل نصف المرمى ، فتشتت شمل الشايقية عند الطلقة الثانية وذهبت جموعهم الكثيفة بدداً واحتمي ثمانون منهم بالقصر السالف الذكر ولزموا فيه خطة الدفاع ، غير ان قذيفة سقطت بينهم ففلت شوكتهم وثبطت هممهم ففتحوا أبواب القصر للظافرين ولم يبق بميدان القتال احد ولم يشاهد للنساء اللائي كن يثرن بصيحاتهن الحماس فى نفوس المحاربين أثر اذ لذن بالفرار معهم ونزل بالأهلين من المحن والنكبات ما أنذر اسماعيل به الاسرى العشرين فى خطابه لهم ، يوم أفرج عنهم . فان قرية (داجر) أحرقت بالنار فالتهمت بيوتها وقتلت ألفا من الاعراب ذكورا ونساء . وأسر جندى طفلة ليسترقها فتبعته والدتها ونازعته عليها ، فلما رأى الجندى ألا مناص له من التخلى عنها طعنها بخنجره دون ان تأخذه رحمة . وحدث أن دافعت امرأة

عن عفافها من عدوان جندى قطعها بسكين . وقبض العربان على فتاة فى السادسة عشرة جميلة الطلعة رشيقة القوام يستر عورتها رهط من الجلد تتدلى منه خيوط محلاة فى وسطها بقطعة واحدة من الصدف رمزاً للبكورة وفى قدميها صندل طويل تدل صناعته المتقنة وما احتواه من الزخارف على أنها من بنات الأعيان . فجىء بها الى اسماعيل باشا ، وقد بدرت منه حركة دهشة واعجاب عند ما وقف نظره عليها ، فسألها عن أمرها فأجابت بأن اسمها صفية وان والدها أمير . فسألها من هو ؟ فأجابت : هو الملك زبير ، ثم انهملت الدموع من ما قيها فاشفق عليها اسماعيل وبعد أن ألبسها رداء جميلا قدم اليها عقدا من المحابيب الذهبية وبعض المصوغات والجواهر ، فلم تبال الفتاة بها مع نفاستها ، اذ كان كل همها السؤال عن أبيها والالحاح فى الذهاب عاطلة من الحلي والزينة ، فهدأ الامير روعها ثم أمر لها بناقة فركبتها وناط ببعض ضباطه إيصالها سالمة الى أبيها . وكان قد نمى الى أبيها انها سبيت فنهض فى حشد من رجاله لاستنقاذها أو ليلاقى حتفه وحث المسير لأدراكها . وفيما هو فى الطريق التقت صفية به فرمت بنفسها الى صدره المضطرب . ولقد خيل له بادىء ذى بدء أنه يرى حلما لا حقيقة محسوسة فتأمل فيها مليا كما لو كان غير موقن انها لم تعد اليه ، ثم لم يلبث أن احمرت عيناه وجحظتا وتقلبتا فى حجاجيهما كما لو تراءت له رؤيا أزعجته وخفق

من اجلها قلبه واضطرب ضميره فتقطبت جبهته وحملق فى ابنته حملقة الحانق المتبرم لما رابه من أمرها ، على أثر مارآه عليها من الحلى والحلل . وبعد سكوت طويل بدت فى خلاله على وجهه آيات الألم النفسى قال لها بصوت متهدج : «ألا تزال بكر الملك زبير أهلا لأن تعيش بين اترابها ؟ » فصاحت صفية : « والدى ! ان ابنتك مابرحت طاهرة الذيل وما ابن محمد على باشا إلا يافعا شريف النفس نبيل القصد » .

فبهت الزبير لهذا القول وعرته الدهشة وانطلق لسانه بالشكر لعدوه على ما عامل ابنته به من كرم وشرف نفس ، ثم أمر رجاله ان يقتدوا به فيما هو صانع . وقصد من فوره الى الأمير المصرى فقبل ركبتيه وألقى سلاحه بين يديه . واقتدى الملك عمر بالملك زبير اذ قدم طاعته كذلك . أما الملك شاويش وهو الرئيس الأعلى للقبيلة فقد انفذ ابنه اسماعيل ليقدم اليه هدية جوادين كريمين ويلتمس منه هدنة بضعة أيام . وكان الرسول فتى فى الثامنة عشرة أصيب بجرح وهو يقاتل الى جانب أبيه فتلقاه اسماعيل باشا بالحفاوة والاكرام وأكد له أنه لن يأتى بحركة عداء ضد الشايقية حتى يستعدوا للدفاع ثم ألبس الملكين اللذين رضيا بالطاعة كسوتى تشريف وأبقاهما فى منصبيهما وعامل الملوك الذين أصروا على العصيان بعزلهم من مناصبهم وتخريب دورهم وألقى بهم فى حضيض الذل والمهانة . واستتب

النظام والامن بعـد ذلك فعاد الاهلون بماشيتهم وأغنامهم الى مساكنهم واستأنفوا أعمالهم ورأى أهل البلاد المتاخمة أن اسماعيل باشا إنما جاء لتخليصهم من استبداد الشايقية وعسفهم .

وقسمت البلاد التى فتحت ، على الطريقة المتبعة فى مصر ، الى مديريات ومراكز يقوم على تدبير شـؤونها المـديرون والـكشاف الذين تقرر فيما بعد أن يكونوا من المصريين أو الاتراك . وبقيت جثث قتلى الشايقية فى الوقعات الاخـيرة مطروحة فى ميدان القتال فحث اسماعيل باشا ابناء جلدتهم على التعجيل بدفنها صونا لها من الطيور الجارحة . وبالقرب من اطلال (داجر) تلال صـغيرة من الاحجار وهى التى وقعت بجوارها بين الشايقية والمصريين المعركة التي كان من نتائجها ما ذكرناه الآن للقارئين .

وعلى مسيرة ساعتين من هذا المـكان أقام اسماعيل باشا شهرين كاملين ليعوض من الجمال النافقة غيرها وينتظر القوارب المقلة للامداد والميرة والذخائر ويخضع القرى العاصية . ثم عبر النيل ثانيا فى ألفى فارس فزحف على سنار مارّا بالجهة الجنوبية الشرقية لصحراء (بيوضة) كى يجارى النيل فى ملتوياته اختصارا للطريق وقد حملت المدافع العشرة كل مدفع بين جملين واشتط المشاة الضفة اليمنى فى فصائل متتالية وانقسم الفرسان فى وادى (أرجول) فرقا حتى لا يكون ورودهم على الآبار مجتمعين

سببا لنضوب الماء فيها . وكان الطريق شاقا فأضل الأدلاء السبيل فأمر اسماعيل بجلد كل منهم اربعمائة جلدة لمعاقبتهم على سوء نيتهم وتحذيرهم من الزيغ في المستقبل عن قصد السبيل . ونفقت الجمال تحت اعبائها الثقيلة ، وكان الجنود اذا ساروا فى الليل خافوا أن يغلبهم النوم فيقعوا عن دوابهم ففضلوا السير على الأقدام ممسكين بأزمتها .

وفى أول مارس ١٨٢١ جاءت أخبار على يد قاصد تفيد وجود ثلاثة آلاف من العدو على مسافة ١٥ فرسخا من الجهة الامامية ، وتلاه بعد يومين قاصد ثان كذب هذا الخبر الذى انما كان قصد اسماعيل من اذاعته تعليل جنوده التى أنهكها التعب بالامل فى وقوع معركة قريبة لا يحتاجون بعدها الى اجتياح العدو فى معارك متتابعة . وكان الباشا على وشك الوصول الى بربر فأراد التأثير فى نفوس أهلها بمظاهر القوة والعظمة فرتب جيشه كما لو كان على اهبة القتال . فلما وقفت أنظار هؤلاء على اختلاف الوان ملابس الجنود وتباين اشكالها وجمال الخيل وحسن تنظيمها وهيئة العساكر حاملين مختلف الاسلحة ، ومع كل منهم حاجته من التبغ وأدوات التدخين ورأوا خفة حركات رؤساء الجند المزركشة ملابسهم بالقصب ولألاء سيوفهم فى أشعة الشمس ، فتنتهم هذه المناظر وخلبت عقولهم فجاء الملك نصر الدين والمشائخ والفقراء وأصحاب الشأن والمكانة فى البلدة

لمقابلة اسماعيل وتهنئته بالفوز على الشايقية وعاهدوه على الطاعة له والاعتراف بسيادته . وأخلد المصريون الى الراحة فى تلك البلدة التى وجدوا بها ، فوق حاجتهم من الأعلاف لخيولهم ودوابهم ، الأزواد الكافية من الماشية والتمر والذرة والقمح لطعامهم .

وفى ١٢ مارس ١٨٢١ وصل أحد ابناء نمر أمير شندى يحمل الى اسماعيل تحية والده الملك فاشخص اسماعيل اليه ديوان افندى ليدعوه الى الحضور بنفسه ، فجاء نمر الى المعسكر المصرى يوم ٢٢ مارس فى هودج يحمله جملان ويتقدمه رجلان يحمل كل منهما رمحا وآخران بيد كل منهما محجن أى عصا طويلة معقوفة المقبض المكسو بالفضة ، ويحف به حرس مؤلف من خمسين رجلا مسلحين بسيوف نصالها من هذا المعدن الكريم . وكان الملك على سذاجة ثيابه مهيب المنظر حديد البصر . وكان يلبس ثوبين عريضين من القماش الدقيق السلك ، الشعار منهما أبيض والدثار من الحرير الهندى . وكان حذاؤه من الجلد وعلى رأسه سكبة مما اختص الملوك فى تلك الجهات بلبسه . وكان حول رقبته مسبحة كمسابح الدراويش وأحجبة جلد وطلسمات وأوراق كتبت فيها آيات قرآنية . وكان يتلفع بعباءة مما اعتاد الملوك لبسه فلما دنا هذا الرجل من اسماعيل باشا فى مظهر العزة والصلف والكبرياء انحنى أمامه مرارا للاعراب بهذه الحركة عن احترامه

وطاعته . ثم جلس على سجادة فرشت له تجاه الامير المصرى ولثم يده ظاهرا وباطنا ورفعها الى رأسه . فنبهه الباشا فى مفتتح الحديث الى أنه كان من الواجب عليه أن يبادر بزيارته . أجاب الملك : « إنى عبد الله وخادم السلطان ومحمد على باشا واسماعيل باشا » . وبعد عشر دقائق قضياها فى الحديث خرج نمر لمقابلة خازندار اسماعيل باشا ودخن عنده التبغ وتعاطى القهوة . وكان قد أهدى الى اسماعيل جوادين من كرائم خيل الحبشة فأهداه اسماعيل فى مقابلهما جوادا كريما مطهما وكسوة جميلة وخيمة خضراء اللون ، فضلا عن ألوان الطعام التى كان يوافيه بها كل يوم من خاصة طعامه .

ولما استأذن الملك في الانصراف وقفل راجعا الى شندى اجتمع عليه أهلها يصيحون صيحات الفرح . وكان النساء يسرن على الأقدام والرجال على الخيل والحمير والجمال يخطرون بسيوفهم ويفرقعون بأسواطهم . وذهب ديوان افندى يومئذ الى شندى ليشترى من أهلها جمالا للحملة فحيا الملك هو ومن معه باطلاق البنادق . ووصل نمر بعد ذلك الى قصره فاستقبلهم فيه بمظاهر الأعظام والتكريم ، وبعد المقابلة جاء شاويش كبير زعماء الشايقية فكاشف ديوان افندى بالرغبة فى تسليم نفسه اليه ، لأنه بعد فراره أمام الجنود المصرية كان قد لجأ الى الملك نمر ، فذهب ديوان افندى اليه فى أحراس مدججين بالسلاح ، فداخل

شاويشَ الخوفُ وخالجه الشك ، فلما علم ديوان افنـدى بذلك رضى بأن يتقدم اليه بلا أحراس ولا سلاح ، يريد بذلك جذب الرجل الى جانب الباشا ، لما له من النفوذ والـكلمة المسموعة بين أهل قبيلته ، غير أنه ما كاد يصل الى مقره حتى أحاط به خمسون من العربان . فادرك ديوان افندى فى الحال أن هنـاك مكيدة مدبرة وانه فريستها . إلا أن شاويشا دنا منه وصافحه وحلف له بالأيمان المحرّجة انه سيقيم على ولائه وطلب منه الوعد بأن يعفو اسماعيل باشا عنه فوعده بذلك . وقد برّ بوعده اذ استطاع اقناع مولاه بالصفح عنه .

وفى اثنـاء وجود المصريين ببربر توافدت قبائل عربان الكبابيش والحسانيه والبشارين ليقدموا الطاعة الى اسماعيل باشا ، وكانوا قد قصروا فى اداء الجزية التى فرضوها على انفسهم من الجمال والهجن فعهد اسماعيل الى عربانه تذكيرهم وأخذ ماعندهم من الدواب والخيام وقطعان الماشية والأغنام قسراً ، فنفذت أوامره بالتطبيق على مارسمه . ولقد كان مطل تلك القبائل فى اداء تلك المطلوبات سبباً فى تحصيل أضعافها منهم .

ارتحل الجيش عن بربر بعد ذلك متبعا فى سيره ضفاف النيل ، ففى اليوم السادس من رحيلهم أى فى ٩ مايو ١٨٢١ نزل على مسافة فرسخ من شندى التى يبلغ عدد سكانها خمسة عشر الف نسمة وتتبع أقليم سنار . وتخلف أربعة من العسكر فقتلهم

اهل إحدى القرى، فلما انتهى الخبر الى زملائهم صاحوا يطالبون بالثأر فسير اسماعيل باشا اليهم اربعمائة فارس لتأديبهم ومعاقبتهم بأنكأ عقوبة . وما انقضت الساعة الثانية من وقت الشروع فى التنكيل بهم حتى تحولت قريتهم الى كومة رماد وقتل ثمانون في المائة من أهلها . وثمل جنود المغاربة بخمرة الانتقام فعقدوا النية على تأديب القرى كلها بالتخريب والقتل وانتهاك الأعراض . وقد رأى الملك هذه البوادر الرهيبة فرجا من الباشا النظر فى الأمر وسأل ألا يؤذن بتحويل العقاب العادل الى ظلم فادح تهراق فيه دماء الأبرياء . فارسل اسماعيل على الفور سلحداره ليكبح جماح المغاربة فلم يستطع بالرغم من الجهود التي بذلها . وكل ما كان فى طاقته انه ، بعد التدبر مليا فى الحالة ، لم يسعه الا اصدار الأمر برد المنهوبات الى اربابها الذين لم تتطاول أيديهم بعدوان على أحد . وفى ١٥ مايو وصل الى المعسكر رجل بدين هائل الخلقة تدل سحنته على حقيقة حالته النفسية ، وكان يتبعه مائتان من الشايقية فاذا هو شاويش كبيرهم السابق الذى كاشف ديوان افندى برغبته فى تقديم الطاعة لاسماعيل باشا . فلما مثل فى حضرة الأمير المصرى انحنى أمامه ولثم يده ثم أعرب عن أمنيته فى أن لا يحرم من مزاولة الحروب التي شب عليها وشاب ، وقال إنه يحترم صناعة الحرب بقدر ماخانته فى تحقيق مطامعه . فعطف اسماعيل عليه وأمر برد سلاحه وثيابه اليه ومنحه لقب بلوكباشي ،

وعقد له القيادة على مائة وأربعين من الشايقيـة الذين تعهدوا بأن يكونوا، مذ الآن، فى خدمة مصر وموالين لها ولأمرائها.

وفى الساعة الثالثة من ذلك اليوم أطلق المدفع إيذانا بتحميل دواب النقل واطلق ثانيا فى الساعة السادسة مساء إشعارا بالتأهب للرحيل ونادى العربان جمالهم بندائهم المألوف لها ونفخ فى النفير أمام الراحلين. وفى ٢١ مايو صاح سكان (وادى بيشار) صيحات الجزع والكرب لأن جنوداً من المغاربة سلبوهم أغنامهم ودجاجهم فعاقبهم اسماعيل بالضرب وألزمهم رد المسروقات، وكانت الخراطيش قد وزعت على العسكر لأطلاقها على أهل الحلفاية اذا حدثتهم بالمقاومة انفسهم، لكنهم لم يلجأوا الى هذه الضرورة التى أغناهم عنها الملك (ود عجيب) بمبادرته الى الدخول فى طاعة الباشا.

وأمر اسماعيل بالتشديد والصرامة فى معاقبـة من يخلّ بأمن السكان أو يلحق بهم أذى، فلما كانت ليلة ٢٤ مايو نصب المصريون خيامهم تجاه الحلفاية وانفذ الأمير اسماعيل على الفور رسولين الى الملك يطلبان منه جزية من الجمال والذرة، فلما كان فجر يوم ٢٦ مايو جاء وَدْ عجيب الى المعسكر ومعه الفرضة المطلوبة. وحينما وصل الى شاطىء النيل جلس متربعا على الأرض تحت ظلة من الجوخ أمسك بأطرافها أربعة من أحراسه لتقيه

حر الشمس المشرقة ولبث ينتظر السفينة التى وعد الباشا بأرسالها لتقله اليه . وكان ود عجيب كبير القامة متين الاساطين جميل الطلعة مهيب المنظر ، وكان محتذيا حذاء من الجلد يشبه أحذية قدماء المصريين . وكان شعره مدهونا بالزيت ومضفورا كشعرهم وكان على بدنه ثوبان من نسيج القطن ، أحدهما أبيض والآخر أزرق ، وبأعلى ذراعه حجابان من جلد وفى أصابعه خواتم فضة ، أما سيفه الفضى فكان يحمله رجل من اتباعه . فلما مثل بين يدى اسماعيل أخذ يلهج بعبارات الشكر له لأنه ارسل السفينة اليه وقال إنها أول سفينة رآها تزلج على وجه الماء بأجنحة بيضاء . وقد وقف الباشا منه على أسرار الفتن التى تمزق احشاء سنار ولحظ ان هناك ما يعد الانتفاع بها فتحرك بجيشه فى الساعة الثالثة والربع من مساء ٢٧ مايو ١٨٢١ وفى صباح اليوم التالى عبر النهر الابيض من مخاضة وقضى جيش الحملة ، وهو مؤلف من ٥٥٠٠ مصرى وعربى و ٣٠٠٠ جمل وحصان ، ثلاثة أيام فى عبوره البعض سباحة والبعض الآخر ركوبا على القرب المنفوخة أو قطع الاخشاب . وكان الطمع فى الغنيمة يحفزهم جميعا للمسابقة فى العبور وطلب القتال ، غير أن تحمسهم أدى الى خسارة ثلاثين رجلا ومائة وخمسين دابة من تلك الدواب غرقا بسبب التزاحم على العبور .

وقد أشرنا فيما سبق الى ان مملكة سنار كانت تتقلب على جمر الفتنة وأن الانشقاق كان مستحكما بين جماعاتها وأفرادها .

والآن نذكر أن أحزابها كانت تتنازع صولجان الحكم وتسفك الدماء فى سبيل تحقيق مقاصدها . وكان من أحذق زعمائها وأشدهم بأسا وأكثرهم مثابرة على تحقيق مآربهم الاخوان محمد عدلان وحسن رجب اللذان وضعا يدهما على بيت المال واعتقلا ولى الأمر الشرعى . وفى غاية رجب ١٢٣٦ الموافق افريل ١٨٢١ تناقلت الألسن نبأ انتصار اسماعيل باشا فخزن الغاصبان حزنا شديدا وأيقنا فشل مساعيهما ، وكانا الى هذا الحين فى شقاق مع بعضهما لتناقض مصالحهما . فلما انتهى اليهما أن الباشا يحث السير وأنه أصبح منهما قاب قوسين او أدنى اتفقا على محاربة العدو العام فنصبا ثلاثة مدافع في ضاحية بلدهما وأخفيا مدافع غيرها فى النهر الأزرق ، وكانا قد اشترياها من المماليك . ثم حشدا ثمانية آلاف مقاتل وجعلت بلدة (مونا) مقرا لعدلان . وكان فى احدى ليالى الايام الاخيرة نائما بداره إذا باثنين من رجال أخيه حسن رجب وهما (عبد الله نكنيت) و (ادرايس ودعكندى) يدخلان عليه ويقتلانه غيلة ، فاستبشع رجال عدلان هذا الغدر ووصفا صاحبه بالجبان النذل ثم قاتلوا أعوان رجب فألحقوا بهم خسارة فادحة اضطرته الى الخروج هائما على وجهه فى جبال حدود الحبشة . واتصل به وهو هناك نبأ عبور جيش اسماعيل باشا الى النيل الابيض . وكان الملك اسما ورسما لا فعلا هو (بادى بن طبل) . وكان ضعيف الرأى واهن العزيمة ، فلما

توارى من أمامه الاخوان الغاصبان كان أول ما أتى به من الاعمال التى تثبت ضعف ارادته وفساد رأيه أن زار الباشا للاعتراف له بسيادة الدولة العثمانية . وبيان ذلك أنه ذهب الى ود مدنى لمقابلة اسماعيل باشا ، وكان ممتطيا جوادا كريما وحوله ثلاثمائة هجان . وكان ربع القامة بدين الجسم قوي الاساطين نحاسي اللون ممتلىء الوجه جميل الطلعة يناهز الأربعين من عمره. وكان يلبس رداء ، كقميص من الحرير المزركش بالقصب ، سابلا الى كاحل القدمين . أما قانسوته فكانت اشبه بقلنسوة من الصوف يعلوها قرنان . وكان يحمل سيفا طويلا عريضا فضيّ القبض . وفى مقابلته لاسماعيل قدم اليه أربع أفراس كريمة ، فشمله الباشا بعطفه ورعايته بتقديم القهوة اليه وأهداه جوادين مطهمين وفروة سمور للتشريف وكسوة مصرية وشالين كشميريين وسيفا وطبنجتين . وقصد الباشا والملك بادى الى سنار ، وقبل الوصول اليها بربع ساعة رتب اسماعيل جيشه فى مصاف القتال . وكانت عساكر (بادى) تجىء على أثره منكسة الرماح . ولقد اقنع السناريين بما لهذا الجيش من قوة وبأس ماقام به من المظاهرات العسكرية التى لم تقع انظارهم من قبل على مثلها ، كاطلاق البنادق والمدافع عند الدنوّ من الأسوار قبل الغروب وارسال السواريخ والاسهم النارية فى جنح الليل . ونصب اسماعيل ملك سنار شيخا لها ، وكان فى مدة ملكه يحرث

الأرض بيده ويتخذ مشائخ البلاد والقرى جباة له على حساب أن العشور حق له . وكان فى أيام عزه وصولته يستطيع أن يحشد ثلاثين الف مقاتل ، فأصبح منذ هذه الساعة ولا همّ له من الامور العامة سوى تحصيل الجزية باسم الحكومة المصرية وتقديمها اليها ، كما يفعل ملوك بربر وشندى والحلفاية ، والاستقرار بعد ذلك فى داره كى يتفرغ لشؤون عائلته جالسا على حصير او كرسي حقير ، مفكرا فى مجده السالف وقصره المنيف ومدخنا التبغ فى شبك غاب لا يملك نفسه من الدهشة اذا وقع نظره على منديل أبيض أو علبة من اعواد الثقاب تكرم بها عليه رحالة انكليزى .

وما استتب الأمر لاسماعيل فى العاصمة السنارية حتى انزل جنوده بها وبالقرى المجاورة لها وأمر سفائنه بالعودة الى القاهرة. وكان عيد الفطر قاب قوسين أو أدنى ، فحصل الشيخ بادى من الباشا على الأذن بالاحتفال به احتفالا باهرا جليلا . فأجابه الى طلبه وفى يوم ٣ يونيو الموافق ثالث أيام العيد اخترق طرقات المدينة فى زيّ عظيم اذ أفرغ على جسمه حلة من قماش الهند ووضع على رأسه سكبة مستديرة ينثنى طرفاها الجانبيان فى ارتفاع فوق الفودين . ونعل نعلا على طريقة السلف وتقلد سيفاً موسوما بالذهب والفضة وامتطى جوادا مطهما ومحلى بريش النعام وسار فى جواره عبد يحمل ظلة كبيرة ممزقة وآخر يحمل كرسيا حلي

بالفضة يتخذه سلما له فى حالتى الركوب والترجل وسار أمامه وزيران وستة من سواس الخيل يمسك كل منهم بعنان جواد حبشى حرون قد أسرج بسرج محلى بالفضة . وتبع الشيخ أفواج من الأهلين يصيحون صيحات الفرح والحبور ، وفيما بينهم وبينه مائة حارس مدججين بالاسلحة والجنود السنارية ، منكسة الرماح مسندةً الى الكتف من طرفها الاسفل ، احتراما وإذعانا للسيادة الاجنبية التى بسطت عليهم رواقها .

وما وصل الموكب على هذا الترتيب الى دار الأمير المصرى حتى وقف ليدخل السرور عليه بأقامة حرب صورية ، اذ انفصل مائة الحارس من الموكب وأدوا التحية العسكرية ثم انقسموا شطرين زحف أحدهما على الآخر ثم تقدموا الى الامام يخطرون برماحهم ويحركونها فى وضع أفقى ويثبون بقدم واحدة ثم يجلسون متربعين ساترين أجسامهم بدرقاتهم الواسعة الكبيرة . ويقفون بعد ذلك ليتقدموا خطوة واثبين تارة الى اليمين وطورا الى اليسار كأنهم يتقون طعنات قوم يرشقونهم بالسهام . وأخذوا بعدئذ يصيحون صيحاتٍ مزعجة يريدون بها تحذير بعضهم البعض من هذه الطعنات ، بينما كانت السهام تطير من ايديهم وتشتبك في الفضاء . وقام على عقب ذلك صراع بالسيف بين الجنود ، فكان المصارعون يرفعون السيوف فوق رؤوسهم ويخطرون بها دقائق واثبين على القدمين وثبا مترادفا ، ثم يلقون بأنفسهم متدفقين على

صفوف العدو أو متراجعين بعد ان يلتحموا به التحاما عنيفا .

وكان اسماعيل لا يكترث بالمعارك الصورية لشغفه بالمعارك الحقيقية وانكبابه عليها . فقد وضع تحت إمرة الحاج حامد فرقة مؤلفة من اربعمائة فارس ومدفعين وناط بسلحداره مرافقتها لأخضاع أهل السودان . فتحرك هذا الجيش فى ١٨ يونيو قاصدا (بورنو) بالجنوب الغربى فأسر وسبى فى طريقه بضع مئات من الرجال والنساء والاطفال . ولحظ اسماعيل أن الأسرى والسبايا من الشيوخ والأمهات والأطفال فأطلق سراحهم . وما كاد يفك وثاقهم حتى انطلق المساكين يبكون فرحا وسرورا ويدعون للباشا بصالح الدعوات . وفى ٢٣ يونيو قبض على ثائر ممن غمسوا يدهم فى جريمة حسن رجب فرمى عنقه . وكان هذا الرجل لا يزال يحشد الأعوان والجنود بأطراف جبال الحبشة ويتهدد بالعودة الى سنار . فاغتنم اسماعيل هـذه الفرصة للوفاء بما وعد به ابناء محمد عـدلان من الانتقام لوالدهم ، فأنفذ ديوان افندى فى أربعمائة من العربان انضم اليهم رجب وادريس ابنا القتيل وشاويش كبير الشايقية السابق . وكان حسن رجب قد اعتصم مع ثلاثمائة من أعوانه بهضبة جبل فى الشمال الشرقى من سنار والحدود الشمالية للحبشة . وكان خمسون من العربان المصريين قد وصلوا الى سفح هذا الجبل قبل وصول اخوانهم ، فترجلوا عن جيادهم وأخذوا يتسلقون الجبل فى منحدر من منحدراته

المائلة فلما أيقن حسن رجب واعوانه حرج مركزهم بسبب هذه المباغتة عولوا على الاستبسال فى القتال وألا يبيعوا حياتهم رخيصة ، فبدأوا بالقاء جذوع شجر ضخمة واهداف حجر كبيرة على المهاجمين . ومع هذا فقد بلغ العربان الى الهضبة وصبوا عليهم فى الحال نارا حامية من فوّهات البنادق فتفرقوا فى بادىء الامر ثم لم يلبثوا ان جمعوا فلولهم وحملوا على العربان، فأطاق هؤلاء النار عليهم ثانيا وما زالوا بهم حتي هزموهم وقتلوا عشرين منهم قتل ثلاثة من المصريين في مقابلهم وغنم هؤلاء خيلهم وجمالهم وسلاحهم وأسروا حسن رجب والخائنين اللذين نفذوا المكيدة التى دبرها، فسلم اسماعيل الى ابنى القتيل عمهما القاتل كي يتصرفا فيه على هواهما، فحبساه بضعة أشهر ثم صفحا عنه. وترك الرأى فى زميليه الى عدل اسماعيل وانصافه . وكان كل ما قصد الاثنان اليه من الاشتراك فى الجريمة هو الطمع فى المال وكان هـذا المال ما زال باقيا لهما فى ذمـة المحرض لهما على القتل فقبضاه فى ١٣ يوليو ١٨٢١ « حوالة » على الميدان الذى تقام به سوق بلدة سنار، فقد أرسلا اليه مكبلين بالأغلال فما كادت تقع أنظارهما على المعدات المتخذة لاعدامهما حتى طلبا سيفا ليقطع كلاهما به رأس نفسه . وكان (ودعكندى) عندما جىء به الى ساحة الاعدام يئن انينا خافتا ، فسمعه (نكنيت) زميله فصاح به : « انت اذن امرأة لا رجـل » فاطمأنت نفسه وثبت جأشه وتأهب لتنفيذ حكم

الاعدام فيه اذ انبطح على وجهه كقربته ، على ان تقع رقبته بين وتدين غرزا فى الارض . وجىء بعد ذلك بخوزقين من الخشب حددا من الطرف فدسا فى شرجيهما بالمطارق حتى اذا برزا من تحت ذقنيهما رفعا فى وضع رأسى كما ترفع سارية السفينة . وكان نكنيت ، وهو فى هذا الوضع ، لا يزال على قيد الحياة إذ رفع يده الى جبهته مسلما وحرك شفتيه ، لكن دون ان ينطق بلفظ . أما ودعكندى فمات قبل صاحبه على حين ان تنفيذ الحكم فيه تمّ بعده فى هذا الاخير . ولم تنبعث صيحة واحدة من هذين الصدرين اللذين تمزق ما احتوياه كل ممزق ولبثت الجثتان معروضتين على المتفرجين يومين كاملين .

وكان نجاح ديوان افندى فى مهمته ممهدا الى تجريد حملة ثانية ،فقد زحف يوم ٢٢ اغسطس ١٨٢١ في ثلاثمائة عسكرى فى الاتجاه الشمالى الشرقى حيث اقليم (العايزة) فلما اقترب من البحر الابيض التقى بجماعة من عربان الجمالية فقاتلهم فى معركة انجلت عن قتل زعيمهم وغنم ثلاثمائة جمل وكثير من البقر والاغنام . وفى ٣٠ اغسطس جىء الى الباشا بزعيم من العصاة ، وهو تومسا بن عم ملك بربر وخصمه اللدود ، بتهمة انه يحرض الاقوام الداخلين فى طاعة مصر على العصيان وأنه يؤلف حزبا لمناصرته فى الاصقاع الواقعة على ضفاف نهر أتبره فحكم بأعدامه شنقا . وحينما همّ الجلادون (المشاعلية) بشد وثاقه واخذه الى المكان

الذى نصبت المشنقة فيه طلب اليهم ألا يكافوا أنفسهم مؤونة هذا الاحتياط قائلا : « اذ كنت ذاهبا الى الاعدام أفليس هذا لأن ساعتى قد دنت وانى لا استطيع ان استقدمها او استأخرها ؟ » ثم سار بقدم ثابتة الى هذه الساحة حيث شنق دون ان يعترى قوته وهن أو ان يصيح بصيحة الالم أو يبدى أقل اسف .

وأمعن جنود الباشا فى إقفار البلاد من سكانها ، بما كانوا يأخذونه من الاسرى ويسترقونه من العبيد برسم البيع فى أسواق النخاسة أو الخدمة فى المعسكر المصرى ، فكان مما لا مفر منه أن يكون لهذا الفعل مابعده من عاقبة سيئه ودائرة تدور على الفاتحين أنفسهم . وبيان هذا أن الامراض الخبيثة كالحميات والدوسنطاريا والصفراء لم تلبث أن فشت فى الجنود ومات بها مائة منهم وأصيب ألفان فى شهر واحد . ولم يكن الجيش يزيد عدده على ثلاثة آلاف عسكرى فكان عدد الاصحاء فيه اربعمائة فقط . ولم تكن هناك ادوية ولا اطباء لمعالجة هذه الادواء ، وانما كان يوجد لفيف من أفاق اليونان والطليان يرافقون الجيش فى تنقلاته من مكان الى مكان منتحلين العلم بالطب . والحقيقة أنهم كانوا لايدرون من بسائطه شيئا ، وانما كانوا من النصابين البارعين فى الشعوذة . ولقد كان ستة من أولئك الاطباء المزعومين فى مقدمة الذين لقوا حتوفهم بتلك

الامراض المهلكة ، فكان موتهم بها دليلا على عجزهم وجهلهم وشعوذتهم . وكان انشاء مستشفى لأيواء المرضى وعلاجهم يقتضى تدابير ونظاماتٍ لاتتفق مع طباع الجنود وعاداتهم . وكانت الخيل والجمال تنفق فى كل ساعة بداخل المدينة وضواحيها فتتعفن رممها وتبقى مطروحة على قوارع الطرقات ، فيفسد الجو بالروائح الكريهة المتصاعدة منها فتتفشى الأوباء ويتفاقم خطرها . وأحسّ الجيش الجوع الشديد على أعقاب ذلك ، لقلة الحاصلات وانصراف الخواطر والجهود الى مكافحة تلك الامراض الفاشية . وقد بليت على جسومهم الكسى ولم يجدوا للنوم سوى الأماكن الرطبة التى يستيقظون منها تحت سماء ممطرة ليتنازعوا بعض حبات من الذرة لاتسمن ولاتغنى من جوع . وكان فريق منهم قد زاول بعض الصناعات كتطريز الملابس ونسج الاقمشة وخصف النعال وبيع الفاكهة ، فكان فى ربحهم من هذه الصناعات سداداً من عوز ، لكن المشترين أضربوا عن معاملتهم شامتين بل ذهبوا الى توجيه الألفاظ الجارحة اليهم فى قالب السخرية والتهكم . وتداولت الألسنة اشاعات كثيرة عن الحاميات التى تركت لحفظ خط الرجعة ، وانقطعت اخبار مصر فلم ترد منها القصاد كالمعتاد وساءت الحالة العامة للجيش ، على وجه خيف معه أن يقلب الدهر له ظهر المجن وأن يورده شر الموارد .

على ان قاصدا وصل فى ١٩ سبتمبر وعلى يده رسائل تفيد

قيام ابراهيم باشا من مصر الى السودان ليشد أزر أخيه ، وأنه قد اجتاز دنقلة . وفى ليل ٢٢ اكتوبر وصل ابراهيم فى ثلاثين من مماليكه ، بينا كان اسماعيل يتوقع وصوله بعد اسبوع . وفى اليوم التالى حياه باطلاق واحد وعشرين مدفعا واستعادت العساكر بوصوله مافقدته من ثقة وأمل . وكانوا يعتقدون أن سفنا سترد من شندى مشحونة بالحبوب والمؤن ، الا ان شندى كانت أتعس حالا من سنار واكثر منها افتقارا الى الحاصلات الغذائية . ومع هذا فقد اعتبروا وجود قاهر الوهابيين بين ظهرانيهم كفيلا بخروجهم من هذه الأزمة ، فلم يعد أحد منهم يتكلم فيما حل بهم من ضنك وشدة . واستشعر ابراهيم ثقتهم فى شخصه فأراد ان يكون شكرها لهم محسوسا ، اذ وزع عليهم الكساوي ودفع لهم مطلوباتهم وفرق عليهم من ازواده الخاصة مقادير وافرة من القمح والارز ، تخفيف وطأة المجاعة عنهم وأمر بنقل المرضى الى نقطة تبعد عن سنار ببضع فراسخ ، فنشأ عن نقلهم من جوها الفاسد الى جوّ طاهر نقىّ وعن العناية بهم عنايه مبنية على العلم ان تحسنت صحتهم واستقامت أمورهم .

وكان الرؤساء والعظماء الذين صحبوا ابراهيم باشا قد برحوا القاهرة ومع كل منهم عشرون خادما ، فلم يبق الموت لأحد منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة . واضطر ابراهيم الى القيام على شؤون نفسه ، كغيره من أولئك العظماء ، فان المسيو (أسكو) طبيبه الاول

مات فى الطريق بحمي شديدة ، كما مات صيدليه وخازندار اسماعيل باشا وقائمقام الارنؤود . وأصيب هو نفسه ، على طريق العدوى ، وتعرضت حياته للخطر . وكان السنيور (ريتشى) قد رافقه الى سنار لنقل بعض النقوش القديمة ، وكان على درايته التامة بالطب رساما حاذقا ، فرأى أن الفرصة سانحة بل داعية الى اظهار براعته فى فن العلاج . فباشر هذه الوظيفة مقتفيا فيها الاسلوب العلاجى الذى اتبعه مواطنه الطبيب الجنوى (أسكو) ، فكان التوفيق رائده . ذلك لانه على الرغم من عدم وجود أثر للسكينا فى صيدليته تمكن من معالجة ابراهيم باشا معالجة أنقذته من موت مؤكد . ولما دخل هذا الامير فى دور النقاهة نفحه بعشرة الآف ريال مكافأة له .

ولم تستطع القوارب المشحونة فى مصر بالازواد والاعلاف والميرة والذخائر والامتعة الخاصة بالجيش اجتياز شلالات الشايقية ، اذ لم يصل بين ٢٤ و٢٧ اكتوبر سوى ستة وعشرين قاربا افرغ مشحونها على ضفة النيل فى الحال ثم نقل على متون الجمال طول المسافة التى تستطيع القوارب اجتيازها . أما بقية القوارب فغرقت بين الصخور وكان بينها قارب جميل برسم ابراهيم باشا وفيه أموال كثيرة وأمتعة قيمة . وغرق ريس هذا القارب وجميع رجاله فأسف الامير أسفا شديدا عليه . وعندما رأى ابراهيم ان سلحداره ومائتين من حرسه قد أدركوه فى اول نوفبر على

ضفة النهر فى نقطة تبعد بمقدار فرسخ عن سنار اشترك مع اخيه فى استئناف الاجراءات الحربية التى وضع لها خطة من مقتضاها تقسيم الجيش الى فرقتين ، احداهما بأمرة اسماعيل للزحف على ضفاف النيل الازرق الى فازوغلى ، والاخرى بقيادة ابراهيم للزحف فى الاتجاه الجنوبى الى اقليم الدنكا الواقع على النيل الأبيض . وتقرر أن يعود اسماعيل من طريق الجبال الغربية ليستطلع فيها مناجم الذهب بالجهة المعروفة بالقماميل. والامطار فى هذه الجهة تملأ مقدارا كبيرا من الآبار والصهاريج الطبيعية الواقعة على هذا الطريق .

وتقرر ايضا ان يلتقى ابراهيم باسماعيل ويسير الاخوان على خطين متوازيين بطول مجرى النهر فيهبطان الجهات الشمالية ويأخذان بين تلك الجهات وسنار من استطاعا أخذه من السودانيين . وكان ابراهيم يرى فى الاستيلاء على اربعين الف نفس منهم امرا هينا . وتنفيذا لما رسم من تلك الخطط ترك ابراهيم اسماعيل وجنوده فى بحبوحة الراحة بالعاصمة السنارية وشرع ينقل جنوده فى قوارب مساحة . وزوارق خفيفة سهلة النقل على البرّ اذا حالت الشلالات دون سيرها فيها . وأوغل بهذه الطريقة فى النهر الابيض وجال بين روافده ليرى اذا كانت ينابيعه تتصل بنهر نيجر فيوغل فى مياهه الى مدى بعيد ، وإلا عاد من حيث أتى . ولقد توقع فى ثانى الاحتمالين أنه سيمر بكردفان

ليتجه منها مع المدد الذى يرد اليه الى دارفور فبلاد بورنو فالقطر المصرى ، عن طريق طرابلس الغرب .

ولا مشاحة فى أنه لايجمع بين هذه الفتوحات الواسعة والاستكشافات العظيمة إلا ذو عقل راجح وشجاعة موفورة وعزيمة ماضية تكتسح أمامها المصاعب ولاتعبأ بما يقع من المصائب ، إلا أنه كثيرا ماتشل حركة المشروعات الخطيرة وينتاب الفشل الاحلام الكبيرة متى نزل بها الى ميدان العمل والتنفيذ . وان القدر ليغبط بل ليحسد من تطوح به الهمة الى ابراز تلك المشاريع فيتربص بهم ليلقي فى طريقهم المزالق والمعاثر .

بدأ ابراهيم بتنفيذ مشروعه يوم ٢٨ صفر ١٢٣٦ الموافق ٥ دسمبر ١٨٢١ اذ أخذ فى خدمته جملة من الادلاء والمشائخ والملوك الوطنيين ، ومنهم بادى الملك السابق ، وسار معهم نحو النهر الابيض فى جيش مؤلف من الف وخمسمائة جندى فصعدوا فى النيل الازرق تحت قيادة اسماعيل ومعه بعض المشائخ والملوك وفى مقدمتهم شاويش أمير الشايقية آنفا ، وبقيت فى سنار حامية مؤلفة من الف وخمسمائة عسكرى كان نحو النصف منهم مرضى . وفى مساء اليوم الخامس للسفر وقف اسماعيل بجيشه فى (عدلديبا) فعلم أن أخاه ابراهيم قد سبقه بمسيرة بضع ساعات فتحرك لادراكه واللقاء به بعد أن أمر رجاله بأن لايتأهبوا

للرحيل قبل الصباح وذلك لكى لا يلتقى الجيشان . وفى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر ١١ دسمبر كان جيش اسماعيل يجتاز فيما يلى قرية (لونى) ارضاً كثيرة الأوعار والحزون بها اشجار ميتة وحشائش جافة ، فإذا بنار اشتعلت فيها واندلع لسان اللهب الى الجو فوقع الفزع فى أفئدة العسكر . وكانت الريح شمالية غربية فساعدت على سريان النار واتساع نطاق الحريق حتى التهمت من تلك الاشجار والحشائش ما كان يجلل منها وجه الأرض فى مسطح كيلو مترين مربعين . وكان لا يطرق الآذان إلا صيحات الالم والذعر ولا تقع الانظار الا على جنود مدبرين حذر الموت وجمال هائمة على وجوهها لا تطيع نداء الآخذين بزمامها ، وتلقى ماعليها من احمال واثقال ، لكن النار كانت لا تلبث ان تحيط بها وتلتهمها . تلك كانت خسائر هذه الكارثة التى ظن فى بادىء الأمر انها بفعل فاعل رام الانتقام لوطنه ، لكنه ثبت فيما بعد أن الحريق نشأ عن اشتعال جذوة نار اتصلت من بعض المتخلفين وهو يحاول التدخين بالشجيرات الجافة فسرت النار منها فكان ذلك الحريق المروّع . وبعد يومين من هذا الحادث وقع فى منتصف الساعة الأولى بعد الظهر حادث من نوعه كان كسابقه سليم العاقبة ، ومن ثم سار الجيشان غربا فى طريقين متوازيين وعمد ابراهيم الى اللهو ساعة من الزمن بصيد الفيلة فالتقى مماليكه باثنين منها فأحاطوا بهما من كثب ، لينفذ

رصاص بنادقهم فى جلدهما ويصيبهما فى مقاتلهما . ولقد اطلقوا بنادقهم جميعا فى وقت واحد فوثب الحيوانان فجأة لا من شدة الألم بل من شدة الذعر فجرحا خمسة من الضاربين توفى اثنان منهم وقضيا على اثنين آخرين بخرطوميهما وقذفا بهما من فوق أشجار النبق واللبخ التي اقتلعت من مغارسها بسبب الرصاص الذى أصابهما .

وفى ١٩ دسمبر اتخذ اسماعيل معسكره بين صخرين تجاه قرية (كربين) بالطرف الشمالى من مجموعة جبال يكثر فيها شجر التمر الهندى والدوم كما تكثر الضباع والاسود والقردة الخضراء وقطاط الزبد . وهذه الجهة داخلة فى اقليم سنار ، لكنها أقرب منها الى بلاد فازوغلى ، فوصل قصاد من طرف ملك البلاد يحملون المراسيم بعرض الطاعة والخضوع ، فلم يبق من تجب محاربته غير عبدة الاوثان . وأرسل اسماعيل الملك شاويش أمير الشايقية السابق الى عرب كنانة يدعوهم الى التسليم وأداء إتاوة من الذرة والماشية فأجابوا أنهم لا يملكون من ذلك ما يفيض عن حاجتهم ، وليس من الحكمة ان ينزلوا لغيرهم عما به قوام حياتهم . فسير الباشا اليهم ثلاثمائة جندى أسروا منهم مائة وسبعين رجلا سيقوا الى سرادق اسماعيل باشا بعد أن وضعت فى أعناقهم اطواق من الخشب ، فأفرج الامير منهم عن النساء الطاعنات فى السن واحتفظ بالصغيرات وباشرت

الجنود ذبح ما فى البلد من الماشية ، لا سيما الخنازير المحرم أكلها عند المسلمين . ولما اقترب اسماعيل بجيشه فى ٢٢ دسمبر من قرية (كلجو) ساق طليعته نحو هذه القرية المشرفة على سفح الجبل فتسلقت منحدره الصخرى وفجأت أهل القرية الذين سارعوا الي الذود عن حوضهم بثبات وبسالة . وخيم سواد الجيش المصرى عند سفح الجبل فى الساعة الاولى بعد الظهر ، فتسلق الجبل كل من الحاج حامد وعمر كاشف ، أحدهما من الجانب الجنوبى والآخر من الجانب الشمالى . وكان رجالهما لا يزيد عددهم على بضع مئات فأخذوا ينتشرون فى الارض ، كلما تقدموا الى الامام لحصر العدو . غير أن وعورتها وصعوبة الرقى فيها أفسدتا ترتيب الزحف فاخذ العساكر ، لعجزهم عن حفظ توازن أجسامهم فوق الصخور الصلدة ، ينزعون نعالهم ويحملونها فى مناطقهم . فلما وصلوا الى البيوت الاولى ، وقد أخذ منهم التعب والاعياء كل مأخذ ، شرعوا يقتلون النساء اللائى رفضن السير معهم . أما الرجال فكانوا قد اعتصموا بقمة الجبل يلقون الاخشاب الضخمة والاحجار الكبيرة ، وحينما أدركوا ان المهاجين قد زجوا بأنفسهم فى مضائق لا منفذ لها أسرعوا جميعا نحو هذه المضائق وكمنوا خلف الاشجار وأحجار الصوان يتربصون بالفريسة الشر . وكان اسماعيل قد وعد الجنود بان يدفع لهم عن كل انسان يجلبونه ذكرا أو انثى

مكافأة مالية قدرها قرش اسباني . ولبث ينتظر النتيجة الحاسمة لتلك المعركة ليقف على مقدار الغنيمة ، فلما لم يصل اليه خبر بشيء رأى ان يتسلق الجبل فى سبعة من مماليكه وشرذمة من الارنؤود وكاد يرد بسبب هذه الجراة شر مورد . لأنه ما عتم أن رأى جماعة من السودانيين قد برزوا من كمين له وأخذوا يريشون فيه وفى رجاله سهامهم فقتل أحد مماليكه . ولما أيقن الباشا وحرسه حرج الموقف أطلقوا البنادق فجندلوا بعض هؤلاء السودانيين وأسرع الذين ألقوا السلاح منهم ليقذفوا الاحجار والاخشاب بالفرار ومن ورائهم بقية العصابة ، بعد أن قتل منهم ثلاثة أرباع عددهم فبلغ عدد القتلى من رجال الامير اثنى عشر وعدد الجرحى اربعين فأسف على فقدهم أسفا شديدا ، لا سيما أن خازنداره وقائمقام الارنؤود الذى عين حديثا فى منصبه كانا فى عداد القتلى .

أما العدو فقد بلغت خسارته مائة وثمانين قتيلا ومائة وخمسة وسبعين أسيرا ارسلوا فى الوقت الى عاصمة سنار . ولم يسمع من أحدهم صوت شكاية ولا تألم بل لم يتنفس أحدهم الصعداء ولم تنبس شفة بكلمة . وكانت تظهر على وجوههم سمات الاستسلام للقضاء والقدر ، وكانت شعورهم شعثة وشفاههم غليظة وخدودهم بارزة وأنوفهم منبطحة قليلا وسحناتهم لا بأس بها ، وكانوا يسترون عوراتهم بأرهاط من جلد الماعز قد ربطت

اطرافها بالجلد الذى يكسو قوائم هـذا الحيوان . وكان النساء مؤتزرات بقماش من القطن يستر ما بين الاعكان ومنتصف الفخذين . وكانت بمعاصمهن وأجيادهن حلى زجاج ملون وفى شفاههن السفلى قطع من القصدير كثيرة الشكل وبآذانهن وأنوفهن قطع خشب مثبتة فى ثقوب ثقبت بها .

وفى اليوم التالى أى ٢٣ دسمبر أوغل العسكر فى الجبلين المجاورين لتسقط الأخبار واستطلاع الاحوال ، فوجدوا الاكواخ شاغرة من السكان وعثروا على جثة قائمقام الارنؤود وجثتى زميليه اللذين ذهبا معه ضحية المعركة التى سبق لنا تفصيلها مجللة بالطعنات وأعضاء التناسل مستأصلة منها . وأراد اسماعيل باشا قبل الايغال فى بلاد فازوغلى الانجاه نحو الجبال الغربية فخرج اليها قبيل الساعة الخامسة من صبيحة ٢٥ دسمبر . فبعدمضي ست ساعات عسكر بالقرب من مسيل ماء فى أرض صخرية تنبت فيها الحشائش . وكان أهل الجهة قد ولوا الأدبار فأحرقت أكواخهم . وحاول اسماعيل بقوة قوامها فصيلة من المشاة ومدفعان صغيران الايغال فى جبل (جاسى) فلم يتيسر له السير بين أشجار النبق واللبخ إلا بمعاناة مشاق تشق المرائر وتذليل صعوبات كان من أخصها تمزق ملابس الجنود بأشواك غصون الاشجار . وكان مرور العساكر من هـذا الطريق ارسالا ، بعضهم تلو بعض ، مع الحذر الشديد من السقوط في الأغوار

الفاغرة فاها تحت الاقدام . وكان يتبع اسماعيل مملوك من مماليكه ليحمل له النارجيلة ، فبينما كان سائرا والى جانبه هذا التابع إذا بقطعة صخر جسيمة تتدهور على المنحدر وتدفع فى طريقها المملوك المسكين الى هاوية تردّى فى قاعها . وكان اسماعيل باشا هو المقصود بهذا الاعتداء اذ سهلت معرفته على الاعداء بما كان يحمل من ثياب تميزه عن سائر الجنود ، فأمر هؤلاء بالترجل عن الخيل لاتقاء الاحجار التى يقذف بها العدو المستتر بالاشجار. فما هو الا كلمح البصر حتى سقط هدف كبير اكتسح فى طريقه جوادا كريما ، فلما بلغ اسماعيل الى السفح اطلق المدفعين فاكتسح بمقذوفاتها القمم التي اعتصم السودانيون بها .

وفى الساعة الاولى بعد الزوال من يوم ٢٦ دسمبر اخترق المصريون واديا خصيبا تنبت فيه شجيرات شبيهة بالبردى ورأوا فيه شجرة محيط جذعها عشرون مترا فنصبوا خيامهم فى سهل واقع الى الجنوب . وفى المساء انحط عليهم من أقرب ربوة جمع كبير من الاعداء متوارين عن الانظار بما تكاثف من اوراق الاشجار ومستخفين بحلك الليل وسواد ألوانهم ودنوا من المعسكر حتى صاروا منه قِيدَ نصف مرمى البندقة ثم اقتحموه عليهم ورشقوه بنشابهم وتصايحوا بصيحاتهم المروّعة ولم يكن المصريون يتوقعون مثل هذه المفاجأة المزعجة فأخذوا يطلقون البنادق ثم ألقوا ثماني قذائف من مدفعهم فأصيبوا هم أنفسهم

بطلقاتها وفشت فيهم جراحاتها . ولقد كان الامير واثقا بيقظة رجاله وحذرهم ، لا سيما مع قلة عددهم وانهم لا يبلغون الخمس من عدد العدو . وكان يرى ان الجندى الجدير بهذا الاسم انما هو الذى يبيت ليله على أهبة مستمرة للقتال ، ومن ثم كان لا يرى من حاجة الى وضع الاحراس خارج المعسكر . فلما وقعت تلك الحادثة عدل عن رأيه فقرر ان يضرب حوله نطاقا من الاحراس يعرفون بعضهم البعض بانهم على يقظة ، بصيحة متفق عليها يبلغها كل حارس الى من يليه فى كل عشر دقائق . وقد كان هذا الاحتياط ضروريا ، وليس فيه ما يطعن على شجاعة الجنود اذ هو خير وسيلة لوقايته من شر المفاجآت والحوادث الطارئة .

على ان العدو كان اتخذ من كل غابة وجبل حصنا عزيز المرام وامتنع فيه على كل من يريده بسوء فلم يسع الامير تجاه هذه الحالة إلا الارتحال من هذه الاصقاع الوحشية القاحلة لاستئناف السير فى اتجاه فازوغلى . وحاول فى ٢٢ دسمبر أن يسبى بعض السودانيين فى جبل (باجيس) فسبى منهم فى جولة واحدة خمسين سودانيا جىء بهم موثقى الاكتاف . وفى ٢٩ دسمبر قصد الى النهر متجها نحو الشرق ، وكان هو والعسكر يمنون أنفسهم بالاهتداء الى ينبوع ماء صالح للشرب أو أقل فسادا مما يستقونه من المستنقعات الآسنة فاهتدى الى ثبجارة بعرض خمسة عشر مترا وعمق ستة أمتار كانت تقطع عليه

الطريق . ورأى ان ارتفاع حافتيها يستدعى فتح خندق ففتحه فعلا وأرسل فيه الجمال فهلكت تحت أعباء ماتحمله من الاثقال . وكان مستحيلا إمرار المدافع من هذا الطريق الذى يتعذر المضيّ فيه وبدا من جانب العسكر فتور حبب الى نفوسهم الاحجام عن التعاون حتى لدفع أوار العطش عنهم اذ قنطوا من وجود الماء بعد ان شهدوا بانفسهم جفاف ذلك المسيل وحاولوا مرارا اطفاء أوارهم بوضع أفواههم على الرمال الكاسية للقاع رجاء الارتواء، بعض الشيء، بامتصاص مايمكن ان تحتويه من رطوبة . ولا جدل فى أن من يبلغ به العطش الى هذا الحد لارجاء فى صرف همته الى غير الغاية التى هى منصرفة اليها . وبادر اسماعيل ، وقد رأى ذلك ، بالنزول الى ذلك القاع والامساك بأزمة الجمال التى كانت تسحب المدافع وبث بهذا المثل فى افئدة الجنود روح الأمل معللا اياهم بقرب مجرى النيل من هذا المكان ، فمرت المدفعية ولاح لبعضهم ان يثقب المسيل بأداة معه فما هو الا كصرّة الحالب حتى نبط الماء منه فانتابه العسكر جميعا للارتواء ، بعد اذ كادوا يموتون عطشا .

وقد حيا الجنود هذا الاستكشاف الموفق بأجمل مظاهر الفرح والاستبشار . نعم إن الجيش لما زايل بلدة سنار وزعت القرب على عساكره مملوءة بالماء ، لكن عددا عظيما من دواب النقل كان قد نفق تحت مايحمله من الأثقال ، كما كان العسكر

لايستطيعون ان يحملوا اكثر مما هو مقرر حمله عليهم من الأسلحة فى طرق طويلة عليهم أن يقطعوها بسرعة عظيمة فلم يستطيعوا الاحتفاظ طبعا بتلك القرب لحملها . دع انه كان شاقا جدا على السائر التماس طريق له بين اشجار النبق المتكاثفة والحشائش والاشواك التى كانت تمزق الثياب وتدمى الأرجل والايدى والوجوه . وبعد سير طويل وصل الجيش الى الضفة اليمنى من النهر فى نقطة تبعد بخمسة فراسخ عن قرية فازوغلى فاستقبل ملكها حسنٌ قائدَ الجنود المصرية . وكان هذا الملك شابا جميلا من قوم الفونجى وكان يلبس نعلا مدبب الطرف فى انثناء ويشبه تماما صور النعال المرسومة فى مقابر ملوك طيبة ، ويعلق برقبته أحجبة كثيرة كتبت فيها آيات من القرآن . وكان مقبض سيفه فضة خالصة وكذا الخواتم التى يتختم بها . فلما رأى الملك ووزراؤه الباشا نزلوا عن دوابهم المطهمة وتقدموا نحوه فى انحناءة الاحترام والتعظيم . وأهداه حسن جوادين حبشيين كريمين وصاح المائة حارس الذين كانوا يحفون به صياحهم المعتاد فى مثل هذه الظروف واصطفوا صفا واحدا ، جاثين بركبة واحدة على الارض ومنكسين رماحهم الى أسفل ، فقرر القائد المصرى ان يشكر الملك هذا الاستقبال الجميل ويغير خطة سيره بحيث لاتمر جنوده بالقرى التابعة له فتقع منهم المفاسد والشدائد ضد الاهلين . ولم ينصب اسماعيل مخيمه الا بضاحية يارا الواقعة

على مسيرة اربع ساعات من بلدة فازوغلى ، وانقضت الأيام التالية كلها فى مفاوضات بين اسماعيل والملك وشيوخ البلد انتهت بأن يقدم أهل فازوغلى ألف أوقية من التبر اى ٥٧ كيلوجراما وألفى سودانى عن كل مائة جبل ، ودفع الملك ربع هذه الأتاوة فوراً . وفى ١٢ يناير ١٨٢٢ استؤنف السير الى الجنوب واضطر اسماعيل ان يترك مدفعين وخياما كثيرة وأمتعة ومهمات ذات شأن لأن عدد الجمال كان دون مايكفى لحملها . وانتزعت مؤخرات المدافع الاخرى وحملت بها دواب النقل فدلّ هذا الاحتياط على وعورة الطريق وتعذر السير فيه . وكان مما نغص على العساكر فى هذه الآونة تفكرهم فى أنهم سيتركون ضفاف النيل مرة أخرى ، الا أنهم رأوا فى احتمال تحقق أمنية الاهتداء الى معادن الذهب خير معاض لهم عن هذه الخسارة .

واعترض الجيش فى طريقه مسيل ماء كبير اسمه مسيل (بابا) كان فى تلك الآونة جافا ، وهو الرابع من المسايل التى اعترضته منذ الزحف ، فقضى فى عبوره ست ساعات . وكانت الجمال لاتستطيع الوقوف على ضفافه الصخرية ولا اجتيازه لأنه كان اشبه شىء بهاوية يبلغ عمقها عشرة امتار وعرضها ثمانين خطوة ، ولم تكن فى الجيش حبال يستعان بها على عبور الحيوانات والعساكر فى أمن من الاخطار . ولذا كانت تلك الدواب المسكينة تتدحرج على المنحدر فتجذب معها ساقتها

فتسحقهم تحتها سحقاً . ومما زاد النظام اختلالا خوف السقوط في أيدى السودانيين من أهل البقاع المجاورة ، بعد أن فتحوا باب العداء بالقبض على طائفة من المتخلفين . وهلك فى هذا العبور عدد لا يستهان به من الرجال والحيوانات . وفى اليوم التالى سلك الجيش طريقاً ممتدّاً فى الجهة الشرقية على طول الروابي فعثر على جثة رجل من عربان الفيوم ترك المعسكر فى طلب شيء من الذرة فقتله السودانيون شر قتلة وطرحوه ارضا فى هذا المكان كى يراه رفاقه عند مرورهم به . وكان السودانيون يعتزون بكثرة عددهم ومناعة مواقعهم فاخبروا الباشا فى اثناء وجوده بفازوغلى أنه اذا جرؤ على تدنيس قمم جبالهم باحتلالها فلا مفرّ لهم من كسر ساقيه ، إلا أنهم ما كادوا يرون اسماعيل ، وقد وقف تجاه قمم أكارو العالية ، حتى بدلوا من لهجتهم العدائية لهجة وداد وصفاء وبعثوا يلتمسون العفو ، فأبى ان يلبي نداءهم بل ارسل اليهم الحاج حامد وعمر كاشف بجيش من المصريين أخذ يطاردهم فى مكامنهم الصخرية ويدمر أكواخهم وأسر مائة منهم ذهب بهم الجنود الى الافندى المنوط به عمل الحساب ليأخذوا عليهم المكافأة الموعودة وهي قرش اسبانى عن كل رأس . وكان الشطر الاكبر منهم نساء فى مقتبل الشباب يحيط برقابهن خيط رفيع من الجلد نيطت به جثة حيوان يسمى فى لغة القوم بالكنكنة . وكان الكثيرات منهن قد دهن وجوههن بحجر المغرة الاحمر

مسحوقا بعد اضافة شيء من الشحم اليه . وكانت شعورهن مضفورة ضفائر عديدة تتخللها فتائل اذا تحركت دفعت البعوض عن ابدانهن فهى تقوم منهن بمقام الكلة اذا انسدلت عليهن .

وأنشأ الباشا يعدّ المعدات لحملة ثانية فى الجانب الشرقى من جبل أكارو الذى عاد اليه السود ، لابنية العداء ، لأنهم اوفدوا عنهم رسولين للمخابرة فى الصلح ، فجاوبهم اسماعيل بما يأتى : « انى اطلب منكم بعض العبيد لاغير فقدموهم سريعا الىّ وانا لا أعتدى عليكم بأذى . وهذه بلادكم ومحاصيل زراعاتكم ونساؤكم وأولادكم على وشك أن تقع فى قبضتى ، فاذا انتم قاومتمونى ففى مقاومتكم ما يجر عليكم المصائب وينزل بكم الكوارث بل فيها مايضيق به صدرى ويحزن فؤادى . أما وانتم تجنحون الى السلم وتطلبونه فاذا لم يكن جنوحكم وطلبكم غشا وخدعة فأتوا جميعا عند شروق شمس الغدلتؤدوا ما عليكم نحوى من واجب الطاعة والاحترام وأنا أعدكم جميعا بالعفو عنكم » . ولما كان اليوم التالى لم يحضر أحد فخرج اسماعيل فى ثمانمائة من رجاله وبعض مدافعه ليذهب بنفسه الى لقائهم فلم يجد فى بلدة اكارو نافخ ضرمة . وكانت بيوتها خمسمائة كوخ فأشعل النار فيها فأضحت كومة من الرماد .

ووصل الجيش المصرى الى أبعد ما كان يبغى الوصول اليه

بالحرب ، غير انه لم يظفر بطلبته وهى مناجم الذهب ولم يهتد الى ركاز واحد منه . وكل ما أبصر به من هذا المعدن الكريم شذورٌ كانت تدفعها مياه السيل . وكان بعض المشائخ قد أبلغه أن رمال القماميل اكثر الرمال احتواء للشذور الذهبية ، وقد أدت عمليات الغسل التى أجريت هناك الى كشف ذرات صغيرة منه . وكثيرا ما كان اثناء غسل الرمل ترسب فى قاعه الشذور فاذا فرغت لم يوجد لها أثر بالمرة وعملت فى ختام الامر تجربة قرر اسماعيل أنها ستكون الاخيرة . وكانت على مرأى من الكبار والعظماء . وكان بين الاسرى الخمسين الذين جاء بهم الحاج حامد فى غزوة حديثة رئيس قبيلة يحمل رداء يدل على مكانته فأخذ الباشا بملاطفته ومحاسنته وكساه جبة من الصوف الاحمر ثم سأله عن الجهة التى يعلم ان الذهب فيها اكثر منه فى غيرها وانذره بأنه ضارب عنقه لامحالة اذا حاول الغش والتضليل . فسمى الشيخ بضع جهات على انها المشهورة بكثرة الذهب ، فلما بحث الباشا فيها لم يجد له اثرا فتولى الشيخ بنفسه البحث وأرشد اعوان الباشا الى الجهات التى ذكرها فاذا هى على ضفة مسيل عميق وقد نزل فيه تاركا الجيش على الضفة ثم عاد بعد زمن من بين الاغوار الصغيرة التى فى قاع المسيل وفى قبضته تراب ضارب الى الخضرة يحتوى شذورا من الذهب ثم قال إن السودانيين لا يحصلون فى فصل الامطار وبعد الحفر الطويل والعمل المتواصل على اكثر

من هذا الذهب . فبدا لاسماعيل عندئذ ان لافائدة من الأيغال فى بلاد لم يترك أهلها راحة لجنوده بل آلوا على أنفسهم إضعاف قوتهم واستنزاف اقواتهم بالمناوشات المتواصلة الطويلة .

ومما لاشك فيه ان هؤلاء القوم كانوا عالمين بما تواتر على الالسنة من استيلاء السودانيين فى سنار على قافلة تحمل المؤن والبارود والذخائر المختلفة الخاصة بالجيش المصرى وقتلهم خمسة وعشرين من أحراسها . وكان اسماعيل قد وصل فى تنقلاته الى حدود شمال الحبشة فرأى ان قوته اصبحت من الضعف ، على أثر الامراض والحروب المتوالية ، بحيث لاتبيح له الدخول فى معركة ما مع بلد كالحبشة ذى نظام سياسى وعسكرى قائم منذ أجيال عديدة . وكان ملوك دورار وفازوغلى كثيرا مايقولون عن الحبشان : « أترون الاشجار التى امتلأت بها رحاب الارض ؟ إنها أقل عددا من رجال تلك الامة وسلاحها ومفاجآتها الليلية » وكان هذا القول مما يثير فى نفس بطل كاسماعيل الشوق الى منازلتهم ، إلا أن عواصف الحوادث فى سنار كان قد رنّ فى أذنه رنينها إذ فشت فيها الفتنة وتمادى الناس فى العدوان حتى جرؤوا على ضبط البريد الوارد برسمه متضمنا شرح الاحوال واذاعوا عن الجيوش المصرية أشأم الاخبار واكدرها وأيدوها حتي استقر فى العقائد أنها فنيت عن آخرها فتحركت لهذا السبب في النفوس كوامن الحقد واشرأبت الأعناق الى الأخذ بالثار

فقتلوا قواد الحاميات وجنودها فى القرى غدرا وغيلة وتهددوا حامية العاصمة السنارية بصب جام غضبهم عليها . وكانوا قد هموا بذلك من قبل ثم أحجموا عنه عند ما بلغهم نبأ وصول ابراهيم فى جيش ضخم وطار شرر الفتنة العامة فأصاب الحلفاية وشندى . وقضت الارادة الربانية ألا يجد امامه، بعد البلاد التى وصل اليها ، الا الجبال الفاصلة بين النوبة والحبشة ليكون اعتراضها فى طريقه مغريا له بالاحجام عن مواصلة الزحف الى الامام . وإذ كان من عادات الشايقية وطباعهم التى فطروا عليها ، اذا ادركوا فى غزواتهم بقعة يريدون الا يتجاوزوا حدودها ، ان يتخذوا لأحدهم مثالا من مادة ما ويطوفوا به على ظهر جمل ثم يواروه التراب . ولقد قام الموجودون منهم فى الحملة المصرية بصنع مثال من هذا النوع ودفنوه إشعارا ببلوغهم الى المدى الاقصى من رحلتهم .

انقلب اسماعيل بجيشه الى سنار ومعه بضع مئات من السودانيين التقطهم في الطريق ، فوجد أن أخاه ابراهيم لم يصل اليها ، لأنه اصيب بعلة هياج الدم فلم يستطع بسببها مجاوزة بلدة (الكربين) . وقد أراد ، على الرغم من شدة الالم ، أن يواصل السير فى طريقه متجها نحو الجنوب الغربى ، لكن تبريح الداء به مع سوء تأثير الحرارة الجوية فى جسمه ، إذ كانت تتراوح بين ٤٠ درجة و ٤٥ ، أزعجا الاطباء على صحته . فلم يسعهم إلا

تقرير عودته الى مصر فى أقرب وقت ، فخضع ابراهيم لاشارتهم مرغما وعهد بقيادة فرقته الى سلحداره وطوسن بك اللذين وصلا بعد مسيرة اربعة عشر يوما من ضفة النيل الأزرق الى النيل الأبيض ثم عادوا الى سنار ومعهما من السبي ثمانمائة سوداني.

ولم يتجاوز فى رحلته بلاد الدنكة التى تصحب المقاتلين منها فى اثناء القتال عائلاتهم . ومن عادة أهلها حلق رؤوسهم والنوم فى الرماد الساخن شتاء ويلبس ملكهم عمامة بيضاء تعلوها ريشة نعام . وابناء الأغنياء الذين لم يبلغوا الحلم تخلع لهم الاسنان الاربع القواطع فى الفك الأسفل لانها فى نظرهم تشوه الوجه ولا فائدة منها . وكل منهم يحمل جرسا صغيرا يعلقه دون السرة كما يحمله الشيخ منوطا باحدى ذراعيه . وتلبس نساؤهم مئزرا من الجلد ، ويسير الرجل مجردا من الثياب ، ويدخن التبغ فى قصبة طولها أربع أقدام ، ويتزوج من النساء بقدر عدد البقرات التى يمهرهن بها ، ويدهن كل جسمه فى يوم زواجه بالدهن ممزوجا بالهباب كما تدهن العروس به جسمها فى ليلة جلوائها ، ويقضى كلاهما وقته فى نتف شعر الآخر ، وتطلق الزوجة التى لا تلد فى كل بطن توأمين ، ولكل زوج يريبه من امر رجل أنه عاشق لزوجه ان يسحبه من قدميه ليرميه فى حفرة أعدها ما لم يكن العاشق ابنه فانه لا يمسه بأذى ، إذ المقرر فى عاداتهم انتقال حقوق الزوجية من الآباء الى ابنائهم متى قوست الشيخوخة ظهورهم .

وماذا كان يرجى من بقاء اسماعيل باشا بعيداً عن الاسكندرية بستمائة فرسخ ؟ لاشك أنه لم يرض بالبقاء فى تلك الاصقاع النائية إلا ليتقى غضب والده عليه ، وإلا فمن سواه كان أحرص على النظام أو براً بوالده مطيعا له الى حد الاستكانة ؟ لقد طلب الى والده ان يستدعيه وعلل هذا الطلب بأنه لم تعد هناك فائدة ترجى من استئناف البحث عن مناجم الذهب وانه قد نهكته الامراض لما أصيب به من ضروب الحمى ومختلف السقام ولما لرطوبة الجوّ من التأثير المدنف فى صحته . وتحرك البريد الحامل لكتابه فى هذا الموضوع يوم ١٨ فبراير ١٨٢٢ ومعه قنطاران من رمل القماميل الذهبي ومذكرة شارحة للتجارب التى أجريت لاستخراج الذهب ، ولم تكن إيجابية . ومن قوله فيها : « اعتاد والدى حفظه الله أن يصف تقارير خدمه وأتباعه بأنها قائمة على الحدس والتخمين ولا أساس لها من الصواب . وقد تحقق هذا القول فان رسالة أسماعيل لم تلق فى بادىء الأمر ما كان يتوقعه من موافقة والده عليها ، لأنه كان قد رسخ فى اعتقاده وجود الذهب الذى يبغى الاستعانة به على اتمام مشاريعه الكبرى . وكان كعظماء الحاسبين لايحب الرجوع عن أول حساب عمله ، ولو كان خطأ . لهذا لم يكد يتم مطالعة رسالة اسماعيل حتي قال : « إن ابنى مازال فى مقتبل العمر وعنفوان الشباب فالواجب عليه أن يقتحم أخطار الحروب ويكابد اختلافات الفصول » ، لكن

اصدقاء اسماعيل من حاشية والده ألحوا عليه بتلبية ندائه والترخيص بالعودة الى مصر . فلما كان آخر المحرم ١٢٣٨ الموافق سنة ١٨٢٢ برح اسماعيل سنار فى بضع مئات من رجاله فتلقاه اهالى شندى فى بلدتهم بمظاهر الاحتفاء والاحتفال، لكنهم لم تبد من جانبهم اية همة في دفع مارضوا ان يدفعوه من متأخر غرامة الحرب وهى ألفا عبدو ٢٠٠٠٠ قرش اسبانى اى ماقيمته ١١٠٠٠٠ فرنك فحتم اسماعيل عليهم دفع المتأخر وضرب لذلك أجلا خمسة أيام، فجاء اليه الملك نمر يشكو من هذا التحتيم ويلتمس إطالة الأجل . واذ كان هناك مايحمل اسماعيل على اسناد التخلف عن سداد مطالب الحكومة الى تهاون المشايخ ومكايدهم فانه لم يتمالك من اظهار غضبه . وهنالم يسع الملك الا أن يكشف عن حقيقة مايكن قلبه من السخائم ويغلظ القول متجهما ، فاستاء الامير وغضب وكان يحمل بيده شبك التدخين فبدرت منه حركة صدم الشبك فيها خدّ الملك نمر فقام نمر مغضبا مزمجرا يطوى فى قلبه اسوأ النيات وجاراه فى غضبه وتذمره الملك مسعد الذى كان الى هنا يرفض كل اقتراحات زميله عليه بالنزوع الى الثورة. ثم ساعده على تدبير مقاصده وتنفيذ مكائده ، واشترك الاثنان فى الدس لأثارة الاهلين . وكان نمر مع كل هذا يجيء يوميا ليقبل اليد التى يعمل لقطعها مظهرا الود ومضمرا العداء فكان شأنه شأن سميه النمر الوحشي الذي يلمس اليد ليتحسس أوفق المواضع

لنهشها منها . وكان اسمه فى الاصل (نائر) فلقبه الأهلون بالنمر لما عرفوه فيه من الضراوة وغريزة التوحش والميل الى الفتك بالارواح وسفك الدماء .

اقبل نمر فى احد الايام يدعو اسماعيل الى وليمة أعدها اكراما له ، فأجابه الى هذه الدعوة وترك السفينة التى كان يقيم بها فى عشرين من اخصائه . وكان نمر قد أقام له قصرا من القش ليس به إلا منفذ واحد ليستقبل الامير فيه أعيان البلدة ويتناول الطعام . وجمع وراء هذا القصر كثيرا من القش والقصل وسوق الذرة لعلف خيل الباشا فى اثناء الزيارة . وما استقر الباشا ورجاله فى المكان حتى اجتمع الرجال والنساء حوله يصيحون بصيحات الحماسة فاغتنم نمر هذه الجلبة لاشعال القش والكوخ فى نحو عشرين موضعا . وعجل اعوانه بجمع مااستطاعوا من مواد قابلة للالتهاب وألقوها فى الأتون فاندلع لسان اللهب فالتهم سقف المكان المعدّ لتناول الطعام . وظهر الباشا واصحابه عندئذ وقد امتشقوا سيوفهم فما تراءت اشباحهم للمجرمين حتى اخذوا يرشقونها بالسهام ويردّونهم الى داخل الأتون ، وما زالوا بهم حتى ماتوا محروقين بينما كان عامة الناس يصيحون صياحا يشبه زئير الضوارى ، كما كان نمر يصيح صياحا مزعجا ويضحك ضحك التشفي والانتقام .

وفى الجهات الاخرى التى كان الكثيرون من أصحاب

الباشا متفرقين بها أنحى الجمهور المنتقم على رقابهم ، بعد أن ثملوا بخمرة (أم بلبل) وفعل الملك مسعد بالمصريين فى الناحية الاخرى من النيل حيث المتممة مافعله نمر بهم هنا . على ان بعضهم نجا من المجزرة الشنيعة بالالتجاء الى فقير يدعى (رية) . وقد اهتدوا فى أحد الاكواخ الى الطبيب اليونانى الخاص باسماعيل باشا ، وكان الناس يكرهونه لقسوته وتسليطه الباشا عليهم واغرائه اياه بهم فجاءوا به الى نمر فاقتلع له اسنانه جميعا فتخاطفها النساء ليضعوها فى اكياس من الجلد ويعلقوها باعناقهن كحرز او طلسم يتقين به شر الأصابة بالامراض ثم أعدموه بالطريقه التي كان من اكبر المحرضين على اتباعها فى اعدام السودانيين وهى الخوزقة . وكان أحد خدم اسماعيل قد نجا من القتل فسار تواً الى المعسكر ووافى الجنود بحقيقة الخبر ، فعثر هؤلاء فى اليوم التالى بجثة الباشا بين أطلال القصر الذى اغتيل فيه ، وقد احترقت ساقاه ونصف جسمه وطعن صدره بالرماح طعنات كثيرة وابلغ الخبر الى محمد على باشا فوجد على ابنه وجدا شديدا .

وكان لابد من معاقبة المجرمين عقابا صارما على مااقترفوا من تلك الجريمة الشنعاء . فأصدر محمد على امره الى الدفتردار محمد بك بالتنكيل بهم تنكيلا لارحمة فيه . وجدير بنا قبل الاسترسال فى شرح التدابير التي اتخذت لأداء هذه المهمة أن نشير الى مهمة أخرى كان الدفتردار مكلفا بها ، وهى فتح اقليم

كردفان .

برح الدفتردار مصر لمباشرة هذا الفتح فى اربعة آلاف عسكرى ، ثمانمائة منهم من العربان والمغاربة ، عقب مزايلة اسماعيل باشا لها بستة أشهر . وكانت القيادة العليا لهذا الجيش معقودة لابراهيم باشا فما كاد يبلغ الى دنقلة حتى انفصل ليدرك أخاه ويدبر الوسائل لاحتلال دارفور وهو الاحتلال الذى كان داخلا فى مهمته الخاصة . فبقيت لمحمد بك الدفتردار القيادة على الجيش المؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى تصحبهم عشرة مدافع ، فترك النيل من ورائه تجاه عيذاب على بضعة فراسخ من عاصمة النوبة ، وأوغل فى جنوب الصحراء حيث قضت جنوده اسبوعا كاملا بلا ماء فلما وصل الى قرية (بارا) أطفأ أوار الظمأ الى الماء وشرع يطفىء أوار العطش الى العمل . كان العدو متربصا به للدفاع عن الابيض الواقعة على مسيرة ستة فراسخ من هذا المكان . وكان فرسانه يلبسون مايشبه ملابس العرب فى حروبهم مع المسيحيين ، من خوذات مدببة لاعيون لها تتصل أطرافها السفلى بقضبان حديد سابلة الى العنق وقيص من الزرد . وكانوا متسلحين بالرماح والسهام المسننة النصال والسيوف العريضة ذات الحدين . وكانوا على دراية تامة بأساليب الضرب بهذه الاسلحة . اما الخيل فكانت تحميها دروع من الصوف المخيط ، كما كان يحمى رؤوسها غطاء من النحاس تهبط منه أسلاك من

الحديد . وكان مشاتهم يكادون يكونون عراة اذ كان لا يستر اجسامهم الا الدروع المصنوعة من جلد وحيد القرن بالشكل الهندسى المعروف بالمعين . وكان مكانهم من الجيش المؤخرة ينتظرون العدو جثاة على الركبتين وبيمناهم سهم مسدّد . وكانت شعورهم كثة مرسلة الى الكتفين لتصد ضربات السيوف ، فاشتبك الفريقان فى قتال عنيف دل على شدة البأس وقوة المراس .

وكان فرسان كردفان شديدى الوطأة فى حملاتهم يواصلون التقدم الى الامام رغم المدافع التى تصب النار على رؤوسهم ، وبلغ من بسالتهم وشدة بأسهم ان استولوا على مدفع بعد ان قتلوا القائمين عليه ، لكنهم بدلا من استخدامهم اياه ضد عدوهم الذى روّعته حركاتهم الجريئة ، انهالوا عليه ضربا بالسيوف . وكان اولئك المتوحشون لجهلهم الاسلحة النارية يمرون بأصابعهم على الجراح التى تصيبهم منها، من غير ان يدركوا السرفى اصابتهم بما سموه فيما بعد بالصواعق الخفية التى لا يشهدون منها الا الأثر، ولقد احزنهم استعصاء هذا السر على افهامهم القاصرة .

على ان الحرب كانت لا تزال سجالا ولم ترجح كفة فريق على فريق حتى أطلقت طبنجة كان اطلاقها سببا لرجحانها فى جانب المصريين . وبيان ذلك ان شيخ قبيلة الجميعات قتل سالما قائد جند كردفان بطلق نارى فلاذ هؤلاء بالفرار فقتل

المصريون منهم وجرحوا نحو الألفين بينما لم تتجاوز خسارتهم ثلاثمائة قتيل وسلك العرب مسلكا حميدا جدا ظهرت فى اثنائه براعتهم فى القتال . وقتل ثلاث من نسائهم فى المعركة . وكان محمد بك الدفترادار على الرغم من نهكة المرض خير قدوة لعساكره فى الشجاعة والاقدام اذ كان يهاجم الاعداء فى مقدمة فرسانه . ولما تم له النصر وسقطت البلاد فى قبضته دخل مدينة الأبيض دخول الظافر . وكان بعض السكان قد اعتصم بالجبال الجنوبية العزيزة المرام وهاجر البعض الآخر الى دارفور ، فاضطر محمد بك الدفتردار منذ هذا الحين الى اتباع طريقة المناوشات فى قتالهم . وكان الغرض الذى يرمى اليه بذلك تحصيل المغارم والفرض التى فرضها على الاهلين فكانت نتيجة عمله ان تواردت عليه قوافل العبيد والجوارى وأحمال الاقمشة والصمغ والذهب .

واتصل به فى الاثناء خبر قتل اسماعيل فعهد بزمام القيادة والحكم الى حليم بك وتحرك الى سنار ليصب جام انتقامه على اهلها تحقيقا لأمنية محمد على باشا وارضاء لروح الفقيد ، معاهدا نفسه ان لا يضحى فى هذه السبيل أقل من عشرين الف نفس ، لكنه ضحى فى الحقيقة اكثر من هذا العدد بعشرة آلاف نفس ، أما مدبر الجريمة ومنفذها الاكبر فقد جمع حوله شيع الثائرين وحاول القتال فى بسيط الارض فتمزقت كل ممزق ونجا بنفسه هاربا الى دارفور . ولم يغير محمد بك الدفتردار بعد هذا الانتصار

شيئا من الخطط الحربية والاساليب الادارية التى سنها اسماعيل باشا فى هذه البلاد فبقى الى اكتوبر ١٨٢٠ على حكومة كردفان والنوبة العليا والنوبة السفلى، ملقيا الرعب فى النفوس ومزعجا لها باساليبه الاستبدادية . وكان جيشه مؤلفا من ٥٨٣٠ مقاتلا بدل منهم فيما بعد غيرهم من الجنود المنظمة على النظام الجديد . وكان فى المدة التى قضاها فى السودان يجوب الاقطار من كردفان الى سنار ومن سنار الى شندى ، تاركا الارض من ورائه خرابا يبابا ، وأشلاء القتلى منتثرة فى كل مكان . وكان لا يعطى الأمان للأهلين الا اذا أعجزهم عن النهوض للانتقام ، فاذا أعطاه عاد المهاجرون منهم الى اوطانهم وزاولوا اعمالهم كعادتهم .

وذهب محمد بك الدفتردار يوما ليزور الفقير (ريه) ويشكر له ايواءه المصريين فى بيته واكرامه مثواهم ودفاعه عنهم يوم مذبحة المتمة ، فما كاد يصل الى عتبة دار هذا الشيخ حتى ريش بسهم فى ظهره أراد راميه ان يرديه به ، الا ان الاصابة لم تكن قاتلة . فتوخى معاملة الاهالى باشد ما يكون من الصرامة والعنف ، اذا ما وقع احدهم فى قبضة الحامية ، طفلا كان أو شيخا ، الا ضرب عنقه . أما النساء فقد ارسلن الى القاهرة بعد ان وسمت اذرعتهن بميسم الرق والاستعباد ، ولم ينج من هذا الميسم احد حتى بنات الملوك اللائى كن فى قصورهن يرفلن فى ثياب العز والجلال ويمشين مشية الصلف والدلال . وما وقعت انظار

محمد على على القطعان البشرية الراسفة فى قيود الذل والمهانة حتى أخذته الرأفة بهن فأعادهن الى مواطنهن ووزع على أسراتهن المنكوبة بعض أكياس من المال ، لـكن ما قيمة الذهب مهما كثر اذا ضاع فى مقابله الهناء ونعيم البال فى ظلال الاستقلال ؟

ثأر الدفتردار لنفسه ولاسماعيل أخى زوجته ، وكان هذا الثأر عدلا لأن هذا الامير كان جديرا بان تكون خاتمته غير التى لقيها . كان شهما شجاعا جميل الطلعة تؤهبه سجاياه الشريفة وشيمه العالية لاحراز صنوف المجد والتمتع بمستقبل زاهر . ولم تكن الحملة العسكرية التى تتبعنا خطواتها ، بما ذكرناه من أحوالها ، خالية من الآثار الموجبة لاطرائه وتحبيذه . فلقد كان اسماعيل فى نضرة الشباب ، أى فى الوقت الذى يؤثر ابناء الملوك فيه التفرغ للملاهى والشهوات على الاستيقاظ من نومهم منزعجين بدوى" النداء العسكرى . وكان يبرز بنفسه فى المعارك الخطيرة ولا يعبأ بالسير فى الطرق المحفوفة بالحشائش والادغال الشائكة التى تمزق الملابس والجلد ، ولا بالتهاب النار فى الغابات ، ولا بالنزول فى الاغوار العميقة ، ولا باحتمال الامراض الوبيئة والجوع والعطش ، ولا باقتحام الحيوانات الضارية . ولا ريب فى أنه كان جم" الشجاعة والجلد حتى تمكن من جوب الآفاق البعيدة واخترق بلادا تسكنها شعوب متوحشة ميالة بفطرتها الى القتال وسفك الدماء ، ومن فتح بلاد مساحتها ٤٥٠ فرسخا

فى أشهر تعد على الاصابع ، ومن الاستيلاء على اثنى عشر اقليما ومملكة بجيش صغير لايتجاوز عدده اربعة آلاف عسكرى حرموا كل شىء حتى المؤن الغذائية . وكان الوحيد الذى استطاع بما توافر له من تلك المزايا ان يرفع علما شرقيا على مرتفعات الجبال التى لم يستطع الفرس ولا الرومان ان يصلوا اليها .

ولقد اشترك بعض الاوربيين فى أعمال هذه الحرب وتكبدوا مشاقها ، فلا أحد منهم الا لهج لسانه بالحمد والثناء على اسماعيل وأطرى اخلاقه الكريمة . وحدث ان احدهم ، وهو الايطالى (فردينانى) الرحالة الشاعر ، اصيب بجنون على أثر حمى شديدة انتابته فخاطه الباشا بجميع وسائل الاسعاف التي توافرت لديه ، فكان طبيبه الخاص يلازمه ليلاً نهاراً وطعامه من خاصة طعامه . وأقام الضباط والقواسة على خدمته وجعل تحت تصرفه المال الكثير وشاطره ما كان عنده من الثياب القليلة. وقد أدرك أنه يميل بفطرته الى المعالى ويتأثر بأقل شىء فأنعم عليه بشرائف الرتب وذهب بنفسه لزيارته ومواساته بكلمه الطيب .

وكان المستر (فريدريك كاليو) من مدينة نانت بفرنسا مبعوثا لحكومته فى مصر . وكان عالما بالمواليد وواسع الاطلاع على الشؤون الجغرافية ، وكان يلقب ابراهيم باشا واسماعيل باشا بالشاهين الناصرين له فأهدى ابراهيم بمصر ذات مرة آلة زوالية مدفعية كانت تأخذه هزة السرور كلما أخطرته بمواقيت الصلاة .

وكان اسماعيل يباشر بنفسه فى مدينة سنار تدريب مدفعيته ، فكان يعمر المدافع بمهارة وحضور ذهن لانظير لهما . وكثيرا ما كان يطلب اليه المسيو كاليو ليقول له : « من الواجب ان تتعلموا مثلى القيام على تدبير المدافع ، فقف اذن بجوارى فى المعركة المقبلة ، فاذاشاء حسن الطالع أو شؤمه ان نكون الأخيرين بعد فناء الجيش كله فلا أقل من ان نجد وسيلة للدفاع عن أنفسنا » وما افترق القائد والرحالة عن بعضهما الا بعد ان ارتبط قلباهما بروابط المودة الوثيقة التى لا انفصام لها .

الباب العاشر

بلاد موره

من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٢٩

قام المصريون بافريقيا العليا فى القرن التاسع عشر بمثل ماقام الاسبانيون به ، فى القرن الخامس عشر ، فى قارة أمريكا اذ استولوا على اقطار متنائية الاطراف لم تطأها من قبل اقدام أجنبية وأخضعوها لحكمهم على ان تدفع لهم جزية من المال . ولقد كانوا يملكون نصف النيل فأصبح هذا النهر ، منذ ذلك اليوم ، لايروى ارضا لاتعترف بسيادتهم وتسلطهم . وقد عنت لهم رقاب العباد فى اقطار النوبتين العليا والسفلى ، وهى البلاد التى لم تر منذ غارة قمبيز جيشا دهمها من الجيوش القوقازية الأصل ، فأخذت تبكى حريتها واستقلالها . ولكن محمدا عليا كان قد اعاد الدولة المصرية بهذا الفتح المبين الى سابق مجدها فى عهد الفراعنة. فبالسيف ضم الممالك الى تحت حكمه وبعبقريته العاملة

البصيرة المصلحة بدل من احوال تلك الممالك احوالا غيرها . وكان أميا يجهل القراءة والكتابة فتعلمها على امرأة أديبة من نساء حرمه . وكانت افكاره ترمى الى ابعد مدى فاتسع لها النطاق وانفسح المراح ، على أثر ما وجد من الروابط بينه وبين أوربا فى الشؤون العاميه والادارية . وتجرد من الخيالات والاوهام ليقف على حقائق الأمور فى شؤون السياسة ، وحمل أهل أفقه على الاستمساك بعرى المدنية الحديثة وطبق المبادىء التى سنها نابليون ، سيد الغرب ، على العالم الشرق فكان كأنه الوكيل الذى عهد اليه ذلك القائد العظيم تنفيذ وصيته .

وكان من أجل المشاريع لتوفير السعادة العامة وتكثير الخيرات تعضيد الزراعة والتجارة اللتين يتوقف نهوضهما على انتظام الرى بواسطة النيل . وكانت الترع والقنوات التى توزع على الاراضى مياهه الخصبة قد اندثرت آثارها وزالت معالمها وامتلأت بالأتربه وسدت بها ، فلم يكتف محمد على بترميم هذه الترع واصلاحها بل زاد فى عددها بحفر ترع جديدة . وأنشأ المواصلات بالتلغراف وأقام المعامل لتكرير السكر وصناعة ملح البارود ووضع آساس المعامل لمزاولة الصنائع المختلفة ووزع الفا وخمسمائة بستانى من الفرنسيين وغيرهم على الاقاليم المصرية لاطلاع الناس على اجود الاساليب الزراعية وتعريفهم بالاسرار المؤدية لمضاعفة حاصلاتهم وخيرات أرضهم . وجلب العلامة (جومل)

الى مصر القطن ذا الفتلة الطويلة الناعمة وتولى المهندس (لينان) ادارة المنافع العامة وانشأ الطبيب (كلوت) ، الذى سمى فيما بعد (كلوت بك) ، مدرسة الطب والجراحة ، ثم انشئت مستشفيات عديدة بعضها ثابت وبعضها متنقل عهدت شؤونها الى اطباء فرنسيين برآسة الدكتور (دوساب) والدكتور (لايات) . وعهدت الى (هامون) إدارة مدرسة الطب البيطرى والى فرنسية وهى الآنسة (جوت) ادارة مدرسة الولادة وارسلت زهرة الشبيبة العربية والعثمانية الى العاصمة الفرنسية للتعلم والاطلاع على أسرار التقدم فتألفت منهم برآسة العالم (جومار) تلك البعثة النافعة المعروفة بالارسالية المصرية التى افادت الوطن المصرى فوائد جليلة بان نثرت فى اطرافه ماحصدته فى فرنسا من بذور العلم والعرفان .

وكان محمد على يرى فى تنظيم الجندية اول عنصر من عناصر القوة . وانما كانت تعترضه مصاعب جمة، فناط بالجنرالين (ليفرون) و (بوابيه) والكولونل (جودان) والضابط الامبراطورى (سيف) المسمى الآن سليمان باشا القيام بتلك المهمة . وكان (اوكتاف جوزيف انثلم سيف) ابن رجل مهنته طحن الغلال . وقد ولد بمدينة ليون فى أول افريل سنة ١٧٨٧ ، وكان نسيج وحده فى القوة البدنية حتى لقبه اهل بلده لهذا السبب «بالتركى» وتوفى والده فى سنة ١٨٣٢ أي فى الوقت الذي كانت لابنه فيه

مسيو فيبير ينقل الى محمد على باشا خبر انتصار ابراهيم

اليد العليا فى فوز الجنود المصرية على الجنود التركية بسهول قونيا . وكان سيف وهو فى ريعان الشباب شديد الميل الى الجندية ، فذهب الى ثغر تولون سنة ١٨٠٤ وانتظم فى سلك البحرية . وشغف حبا بأعمال الجنود الفرنسية البرية ، فترك متن البحر لمتن الأرض . وكان فى مدة خدمته البحرية قد جاب انحاء البحر الابيض المتوسط واقتحم خضمات الأقيانوس فوصل الى جزائر (الانتيل) ثم عاد الى اوربا وبذراعه اليمنى جرح اصابها من طعنة فى اثناء واقعة (الطرف الأغر) حينما التحمت احدى السفن الانجليزية بالسفينة الفرنسية التى كان هو أحد بحريتها . واتفق بعد ذلك ان دعا خصما له الى المبارزة فقتله فيها فحمل قلبه لهذا السبب غما شديدا ، فأراد أن يسرى هذا الغم عنه بالرحلة والانتقال واختلاف المناظر فرحل فى أول أمر الى ايطاليا حيث عرض نفسه للخدمة كجندى بسيط بالطابور السادس للخيالة ، اى الطابور الذى كان يقوده الكولونيل (باجول) . وكان مطلوبا من الفرسان ان يتدربوا على مناورات جيش المشاة ، فتدرّب عليها بارشاد صف ضابط فى المدفعية ، فعين بعد قليل معلما عسكريا نظرا الى ما أبداه من البراعة والكفاءة فيها . وفاق فوقا عظيما فى واقعة الرين سنة ١٨٠٩ وقتل جواده من تحته فى ذلك اليوم . وأصابه عيار نارى وثلاث طعنات بالسيف فالتقطه العدو مثخنا بهذه الجراح وبقى فى أسره الى سنة ١٨١١، حيث

فك عقاله فعاد وعين فى رتبة بلوك أمين . وفى حرب الروسيا رقي الى رتبة أخرى وقام فى اثناء الانسحاب من موسكو بوظيفة ضابط المراسلة للمارشال (نى) . وفى معركة (بيريزينا) قتل جواده من تحته . وفى ملحمة (بوزن) جرح بطعنة رمح فعين وكيل يوزباشى ثم صار ضابط المراسلة للجنرال (بيريه) فى سنة ١٨١٤ فاستولى على نقطة لعساكر القوزاق بضواحى (لافرته سور أوب) ، على مسافة ثلاثة فراسخ من طلائع الفرنسيين . ورقى الى رتبة اليوزباشى فقتل جواده من تحته فى واقعة (بريين). وكان على وشك ان يقلده نابوليون رتبة جديدة حينما لفظت الامبراطورية نفسها الأخير ، فعين عضوا فى اركان حرب المارشال (جروشى) فحضر حروب المائة يوم .

وكان صريح العبارة حر الفكر فلم يستطع بعد واقعة (واترلو) ان يخفى ما يخالج نفسه من الميل الى نابوليون والأسف عليه ، فكان ذلك حائلا دون قبوله فى الحرس الملكى . ولما لم يدر أية جهة يولى وجهه شطرها ، منذ غاب رئيسه المحبوب من ميادين القتال تفرغ للزراعة فى سهل (جرونل) ، لكن الميول العسكرية كانت تتغلب فى نفسه على الميول الاقتصادية . واذ اصبحت ابواب العسكرية فى فرنسا مغلقة فى وجهه فقد عقد النية على التوجه الى فارس التى كانت حكومتها آخذة باصلاح جيوشها وتنظيمها على النمط الاوربى . وكانت مصر فى الطريق التى

سيسلكها فى ذهابه الى فارس فقدمه بعض عارفيه الى محمد على فاقترح عليه الخدمة فى الجيش المصرى ، فراق له هذا الاقتراح ورضي به . فقال له الوالى : « عليك ان تضع النجاح فى مهمتك نصب عينيك ، ومهما تكن مطامعك فان كرمى سيفوق عليها فوقا عظيما » . وكانت المهمة الموكولة اليه محفوفة بالصعاب لانطماس العقول بالاوهام الفاسدة التى كانت سائدة فى الشرق على ذلك العهد . من ذلك انه احتك بمقاومات شديدة عند ما شرع فى أول عمل لاصلاح الجندية ، اذ كانت نتيجة شروعه فيه أن ثارت ثائرة الجند فحاصروا الوالى بضعة أيام . وقد بذل الضابط سيف كل ماعنده من حذق لتذليل هذه المصاعب وعرض حياته مراراً للخطر من أجلها بما دس له من الدسائس ونصب من المكائد ، لكنه تغلب عليها بشجاعته وحضور ذهنه.

وكان قائما ذات يوم بتدريب الجند فاذا برصاصة اطلقت صوبه ولامست رأسه فلم يعبأ بها ولم يتحرك له نبض بسببها ، فقال لعساكره : « انكم لأغبياء لاتحسنون تسديد البنادق ولا اصابة المرمى . فهلموا الى بنادقكم واطلقوا منها النار » فأطلقوا النار جميعا لكنه لم يسمع رصاصة تصفر بجوار أذنه . ومنذ هذا الوقت لزم الحانقون والمتذمرون السكوت والامتثال ، فأتم تدريبهم وتعليمهم فى ثلاث سنوات . وكان ابراهيم باشا قاهر نجد خير قدوة في الامتثال لأنه كان ينفذ الأوامر كأرادة معلمه .

ومالبث جند النظام الجديد ان اتيحت له الفرص لتطبيق ماتلقاه من التعاليم العسكرية . فان بلاد اليونان كانت فى ذلك الوقت قائمة على قدم وساق تطالب بحريتها وتنشد استقلالها . وكان خورشد باشا الذى رأيناه بمصر ينازع محمدا عليا صولجان الحكم عليها قد ترك ، بغفلته وسوء تدبيره ، جموع الرعايا اليونانيين يتغلبون على جيشه المؤلف من خمسين الف مقاتل ويمزقونه تمزيقا . فعراه بسبب ذلك خزى عظيم لم يشأ أن يعيش بعده فانتحر بيده . وكانت أودية (تساليا) و (موره) وهضابهما قد جللت بجثث اربعة جيوش عثمانية . وكانت امواج الأرخبيل تتقاذف بقايا ثلاثة أساطيل تركية دمرها اليونان تدميرا جعل ابواب الآستانة العلية مفتوحة لهم على مصاريعها . واشتد الحرج على السلطان ، فرأى ان يستنجد باقوى وزرائه واشدهم بأسا وأعظمهم شوكة ، فأرسل الى محمد علي باشا بتاريخ ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٣٩ الموافق ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ فرمانا شاهانيا استهله بجمل الاطراء فيه ثم اختتمه بتكليفه الذهاب الى موره ليبيد فيها العصاة ، على ان تكون بعد اخماد ثورتهم داخلة فى ولايته . فلم يمض يومان على وصول هذا الفرمان حتى ابلغ محمد على الى الديوان ماتفضلت الانعم الشاهانية عليه من توجيه عبارات الثناء والتكليف بتلك المهمة . وسمع الارمنى يوسف بوغوص أحد الوزراء يومئذ هذه العبارات حتى صاح داعيا :

فى خلال التداريب العسكرية وجهت رصاصة الى
الكولونل سيف ولكنها لم تصبه فوبخ عساكره
على خطأهم فى أصابة المرمى وامرهم باطلاق النار
معا من جديد

« فليضع المولى جل وعلا تيجان الارض على رأسك » . انك لأهل لذلك وجدير به وانك لبطل افريقيا وبونابرتها »

وفى ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ تحرك من الاسكندرية اسطول مؤلف من ٦٣ سفينة مصرية حربية ومائة سفينة نقالة ترفع اعلام الأمم الأجنبية الا الأمة الفرنسية . وكانت تقل الاورط الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة من المشاة المنظمة بحسب النظام الجديد واربعة بلوكات من فرقة هندسة الطريق و ٧٠٠ جواد تحت إمرة حسن بك ومدافع للحصار والميدان . وكان الاسطول تحت إمرة اسماعيل أغا الجبل الأخضر والجيش تحت قيادة ابراهيم باشا . وكانت اجور سفن النقل فادحة جدا ، لأن أصحابها كانوا يجازفتهم بها يرمون الى المضاربة . ولو ان العدو ضبطها كلها او بعضها لما وجد اربابها من حكوماتهم مساعدة على استخلاصها . ولهذا ذكروا فى العقود المضاة مع الحكومة المصرية ان السبعة عشر الف عسكرى الذين تكفل ارباب تلك السفن بنقلهم الى موره من المسافرين العاديين العاملين لترويج اشغالهم .

قصد ابراهيم بهذا الاسطول الى رودس لينضم فيها الى قبطان باشا ويدبر معه أمر الأغارة على موره بعد احراز الفوز فى البحر على اليونان . وكانت هذه الخطة راجحة فى نظر ابراهيم باشا ومكفول نجاحها ، لأنها أثر من آثار ابتكاره ، لاسيا ان

فرقاطات البحرية العثمانية وسفنها كان لابد لها بمقتضى هذا الحساب من الفوز على السفن اليونانية التى لم تكن بينها سوى سفينة واحدة كبيرة تحتوى ثلاثين مدفعا من العيار الصغير الذى لاتؤثر قنابله اذ اقذفت تأثيرا فعالا فى السفن الكبيرة .

فلما كان يوم ١٥ اغسطس احرق الاميرال اليونانى (ميوليس) فى قنال جزيرة ساموس سفينة عثمانية حربية من طراز الغراب (الكورفيت) تحمل ٢٤ مدفعا وسفينتين أخريين من طراز الفرقاطة تحمل احداهما ٣٢ مدفعا والأخرى ٥٤ واستولى على عشرين سفينة نقالة ولجأ القبطان باشا على أثر هذه الهزيمة الى خليج (هاليكرناس) فأدركه فيها يوم ٢٦ اغسطس الاسطول المصرى الذى كان الناس حين وقعت انظارهم عليه يعجبون بجمال منظر سفنه ودقة مناوراته وسرعة سيره . وكان اغلب هذه السفن حديث الصنع والقليل منه قديما رمم ترميما حسنا . وكانت سفن الجوبليت منها ذات ٢٤ مجدافا تجعل سرعة سيرها فى الساعة ميلين . ولم يحدث منذ شبت نار الحرب ان جمعت قوات حربية بهذا المقدار .

على ان الاميرال (ميوليس) لم يكن ليعتمد فى اسطوله على اكثر من خمسين سفينة شراعية ، ومع هذا فكان لا يخشى الهجوم بها على قوة تفوقه فوقا عظيما . فمن ذلك انه فى ٥ سبتمبر سير نحو سفائن العدو خمس حراقات (وهى زوارق صغيرة

ممتلئة بمواد قابلة للالتهاب) فلما وقع نظر العثمانيين عليها اعتراهم هلع شـديد فذهبوا يجنحون بسفائنهم على الشواطىء . وانفذ (كاناريس) السارية الافقية التى فى مقـدم حراقته فى احدى نافذات الفرقاطة الحامـلة لعلم الأميرالية فأحرقها بلهيب النار واحترقت سفن أخرى على هذا المثال . فلم يسع الاسطول العثمانى الا الفرار نحو بوغاز الدردنيل تاركا ابراهيم وسط النيران يتلقى عبء الجهود التي يبذلها اليونان لاحراز الفوز . ولما رأى الامير ان العثمانيين تخلوا عنه وأنه لا يستطيع مقاومة العدو وحده آثر الانسحاب الى جزيرة كريد . وكان الأميرال ميوليس ينتظره تجاهها فناوشه مناوشة عنيفة أدت الى استيلائه على اجمل فرقاطة من سفنه وخمس نقالات تحمل الفى عسكرى مصرى . على أن ابراهيم استطاع فى آخر الامر ان يـدرك سفنه فى موردة (بوتروس) بخليج (كو) ، فعاد الى رودس حيث مار اسطوله بالمؤن والذخائر ثم أوغل فى البحر قاصدا الى قنديا . وكان الضابط سيف (وكان قد احتضن الاسلام وتسمى بسليمان بك) يرافق ابراهيم ، فناط هـذا به الذهاب الى رودس لتولى القيادة ، لكنه لم تمض أيام حتي ارسل فى طلبه وجال الاثنان فى مياه (موره) وعلم الامـيرال (ميوليس) بوجودهما فحاول منع الجيوش المصرية ثانيـا من النزول الى البر . الا ان بحريته أبوا الاشتباك مع المصريين فى معركة ما لم تـدفع لهم مطلوباتهم ومتأخرات

أجورهم فاضطر لهذا السبب ان يعود الى (نابولى دى رومانيا) على أمل ان يترضى رجاله بدفع مالهم . وقد ضيع فى هذه السبيل وقتا ثمينا اغتنمه ابراهيم للرسو على الشواطىء اليونانية . وكان رسوّه على ميناء مودون يوم ٥ رجب ١٢٤٠ الموافق ٢٦ ديسمبر ١٨٢٥ .

وكان هذا الموقع المنيع وموقع (كورون) مما بقى فى يد الاتراك ، وكان يحتفظ عادة فيهما بمقادير وافرة من المؤن والأقوات لتعذر حصرهما على الاعداء . وكان الاميرال اسماعيل الجبل الأخضر قد اصيب فى رودس بعلة فتوفى فى عودته الى الاسكندرية . وكان شيخا ملما بكل شىء من حقائق العلوم الا حقائق علم البحر ، فقد كان بارعا فى الكلام بلغات أهل الشمال فى كياسة ولباقة ، على حين أنه لو كان ملما بعض الالمام بفنون البحر لوفر على البحرية المصرية الخسارة الفادحة التى سبق الكلام عليها .

وفى غد اليوم الذى وصل ابراهيم فيه الى مودون عهد الى قواده العناية بترتيب المعسكرات وإقامة المخازن والمستودعات ثم استصحب فصيلة من المشاة وأخرى من الفرسان ليستطلع بنفسه الاماكن القريبة من نافارين . وعاد فى اليوم ذاته الى المعسكر بجملة قطعان من الاغنام والماشية استولى عليها خلال ذلك الاستطلاع . وفى ١١ رجب الموافق ٢ مارس خرج فى

كتيبة مختارة (مفروزة) من الجنود لأمداد بلدة (كورون) التى كان يضايقها اهل موره بمناوشاتهم . فتمكن بسيوفه ومدافعه ، من كسر كل مقاومة ارادوا بها صده عن مواصلة الزحف . وفى اليوم الثالث اتصل بالقلعة وابعد المحاصرين عنها . وعسكر المصريون تحت أسوارها اسبوعا صدوا فى خلاله بنجاح تام كل الاجراءات الحربية التى وجهها اليهم أشياع اليونان. وبعد أن عزز حامية هذا الموقع وزوده مافوق حاجته من المؤن والماشية التى غنمها فى غزواته عاد الى مركز القيادة العامة حيث قضى ست ساعات ،ثم استأنف الأيغال فى داخل (موره) وجس نبض الاعداء فى جملة من مواقعها المختلفة ، وقد قضى فى هذا الاستطلاع الى ٢ شعبان الموافق ٢٢ مارس . وفى اليوم التالى ارسل الطابورين الثالث والرابع بقيادة خورشد بك وحسين بك ومعهما المعدات لحصر نافارين ، وكان الباشا لايريد ان يتركها فى يد الاعداء من ورائه أى فى الوقت الذى عول فيه على تنفيذ مشروعاته الحربية .

وتراكض اليونانيون لنجدة هذا الموقع ، لكن أورطتى عثمان أغا ويوسف أغا بادرتا بمهاجمتهم فألحقتا بهم الهزيمة لاول حملة عليهم . ولم يتمكن القواد اليونان من النجاة بأنفسهم مع بعض من رجالهم الا بتجشم الاهوال ومكابدة المصاعب . أما الباقون فقد قتل فريق منهم وأسر الفريق الآخر ، وحاولت

الحامية تعزيز حركتهم فخرجت لمهاجمة الجنود المصرية . لكنها حينما شهدت ماحل بها أسرعت بالعودة الى المدينة بعد أن خسرت خسارة بالغة من القتلى والجرحى والاسرى . واغتنم المصريون هذه الفرصة فاقتفوا أثر المحصورين وحرابهم فى أقفيتهم حتى وصلوا بهم الى القنطرة الممدودة على خنادقهم والموصلة الى مدينتهم

وفى ٥ شعبان الموافق ٢٥ مارس برح ابراهيم باشا بلدة (مودون) ببقية جيشه فعسكر فى المساء أمام الاسوار التى نيط الدفاع عنها بالضابط اليونانى (نيولاؤس) . وكان قد صدر الأمر الى الجنود الموجودة في موره بالتحرك لأمداد (نافارين) فأخذ ابراهيم يصد هذه الجنود ، كلما توردت مستعينا على ذلك بالاورط الثلاث التى كانت تحت قيادة مصطفى اغا وعثمان اغا وسليمان أغا .

وكان الكبتن (ينى) من الضباط الذين تقاطروا بجيوشهم من انحاء (موره) وكان جيشه مؤلفا من ٣٥٠٠ مقاتل فزحف الأمير المصرى عليه وفرق شمله أول وهلة . ووقع (ينى) نفسه فى الأسر مع كثيرين من الاسرى غيره وحاولت الحامية مرارا الخروج بقيادة (نيكولاؤس) الذى كان اليونانيون المتواردون لنصرته يعززون جانبه خارج الموقع . لكن هذه المحاولات لم تجدهم نفعا لأن الفشل كان لها حليفا والخذلان أليفا لاسيما وقد

اسر المصريون نيكولاؤس فى احداها . وكان كثيرا ماتستفزهم الحماسة فيطاردون العدو ويتعقبونه الى اسوار المدينة . واتفق لأحدهم ان اقتفى أثر يونانى هارب فأدركه عند باب المدينة وجذبه اليه من فستانه قبل أن يدخل منه ورمى عنقه بسيفه .

وفى اول رمضان الموافق ١٩ افريل وردت اخبار باحتشاد تسعة آلاف يونانى فى ثلاث قرى وجبلين واقعين على مسيرة ١٢ كيلو مترا من المعسكر . فسار ابراهيم فورا فى ثلاثة آلاف من المشاة واربعمائة من الفرسان قاصداً الى الجبلين . وكان يقود الفرسان بنفسه وعهد الى عمر أغا وكوجك عثمان مهاجمة الجبلين من جهتين متقابلتين ، وانقض باقى الجنود على القرى الثلاث . فلما فوجئت الجيوش اليونانية من كل ناحية وفى وقت واحد فشلت مقاومتها فقتل وأسر الكثيرون من رجالها . وكان بين الأسرى (واسيلى هاكاراموفيتى) و (نيكولاؤس) المرة الثانية والكابتن (سفانجو) ومن القتلى الكابتن (اكزيدس) والكابتن (روفائيل) اليونانيان ومن الجرحى (كوستابوتزاريس) اخو (ماركو بوتزاريس) ولقد كاد يقع أسيرا لولا أن حمله بعض رجاله بعيدا عن مواطن الخطر على حياته . وضرب ابراهيم بعد ذلك كل الحصون والاستحكامات فلم يبق منها حجر على حجر ، ثم عاد الى مخيمه فى ١٩ رمضان الموافق ٧ مايو سنة ١٨٢٥

وقد اعتزم فى الاستيلاء على نافارين الجديدة الاستيلاء

على نافارين القديمة فأنفذ فرسانه الى الميناء عن طريق البر وطابورا من الأورطة الثالثة بقيادة حسين بك . وكانت مهمة هذه الجنود التضييق على المدينة بتشديد الحصار عليها. فلما أنس يونانيو نافارين الجديدة من زملائهم فى القديمة ميلا الى التسليم وافوهم بجنود مختارة من البحرية فوصل هذا المدد الى الصخرة التى عند مدخل الموردة ، وهى الجزيرة المعروفة (سفكتيريا) وبها نصبت جملة بطاريات لمعاكسة المحاصرين وعرقلة أعمالهم . ولقد تأذى ابراهيم من نارها فأمر الكولونل سليمان بك (سيف) بالذهاب بحرا الى (مودون) فى طابورين من الاورطة السادسة المشاة وان يجتاز البحر منها الى تلك الجزيرة لأخذها . فحشد الأميرال اليونانى (تسامادوس) قائد الاسطول الصغير الذى كان ذهب اليها قبلا كل من (مفروكرداتوس) و (ستافروس) و (ساهينس) و(انانيوستاراس) و (تسوكريس) واربعمائة من اعوانهم . فلما كانت الساعة الحادية عشرة نزل سليمان الى ساحل الجزيرة عنوة على الرغم من وابل رصاص العدو . ثم زحف ببسالة على الحصون والبطريات وأخذها وهلك سواد اليونانيين ، بعضم بأسنة الحراب والبعض الآخر غرقا فى البحر ، ولم ينج منهم الا الذين يحسنون السباحة اذ وصلوا الى السفن الثمان الراسية بالموردة ، وما كادت هذه السفن ترى العطب الشديد الذى حل ببحريتها حتى قطعت حبال المراسي لتنجو بنفسها تحت جنح الظلام

فنجت ست منها وسقطت اثنتان فى أسر الاسطول العثمانى ، وهو عائد الى مودون . وقتل فى هذه المعركة البطل (تسامادوس) بعد ان حاول عبثا مواصلة القتال . ولم يستطع ابنه ان يقنعه بالالتجاء الى سفينته . وقتل فيها كذلك الضابط (تسروكريس) والشاب الكونت البيمونتي (سنتاروزا) الذى امتاز بالبراعة فى عالمى التحرير والسياسة . اما (ستافروس) و (ساهينس) اللذان لجآ الى قبة كنيسة صغيرة اتخذت مستودعا للذخائر فقد نسفاها نسفا كيلا يسلماها الى العدو صاغرين . وعثر على (اانيوستاراس) فى مغارة فقتل وكانت المعركة من مبتداها الى مختتمها حامية الوطيس محفوفة بالنصر العزيز للمصريين وفيها اصيب سليمان بك (الكولونل سيف) بطعنة فى فخذه .

واتصل بالاميرال (ميوليس) فى ٢٣ رمضان الموافق ١١ مايو نبأ موت (تسامادوس) فأقسم ان يثأر له فنشر أشرعة سفنه قاصدا الى نافارين . فلما صار منها على مسافة بضعة أميال فى مساء ١٢ مايو اتصل به نبأ وجود نصف الاسطول المصرى راسيا أمام مودون فاتجه صوبه . فلما لاحت له اشباح السفن المصرية جرد من أسطوله ست حراقات سارت حتى دنت من هذه السفن وأحرقت بنارها فرقاطتين وسفينتين من النوع المعروف بالغراب وثلاث سفن أخرى صغيرة ودفعت الريح السفن المحترقة نحو بقية الاسطول فاحترقت سفينة أخرى وفرقاطة وثلاث عشرة

سفينة من نوع البريك انتسفت الواحدة بعد الأخرى . واتصلت نار الحريق بالمدينة فأحرقتها ثم بمستودعات البارود فنسفتها وانهار جزء من بناية الحصون على السواحل .

على ان هذا الفوز لم يف بالمراد من انقاذ مدينة نافارين وفك الحصار عنها ، فقد وصل قبيل منتصف ليل ذلك اليوم ثلاثة آلاف يوناني فانقضوا على الجنود المصرية . وكانت هذه الجنود متأهبة للقائهم بل وللهجوم عليهم . وقد حملت عليهم فعلا حملات عنيفة أدت الى الفتك بعدد بالغ منهم وفرار الباقين تحت جنح الظلام واغتنم المحصورون هذه الفرصة لمغادرة الاسوار فزحفوا على طلائع حسن افندى وحسين بك اللذين نيطت بجنودهما حراسة البحيرة ، فقوبلوا بنار حامية أفقدتهم الصواب إذ ألقى بعضهم بنفسه فى البحيرة وعاد البعض الآخر الى الطابية متخبطين ، واقتفى الفرسان المصريون أثرهم فقتلوا منهم جما غفيرا . أما الباقون فقد تواروا عن الانظار حوالى ميدان القتال فقبض عليهم ليلا فى اليوم التالى ، فكان بينهم السكابتن (حاجى خرستو) و (جورج مفروميكاليس) ابن بترو بك وابن (بابوليو) قومندان مضيق (تريبوليا) واثنان من اكابر رجال الدين وأسقف مودون .

وهذا الاسقف هو الذى حرض الخونة على ذبح مسلمى نافارين عن آخرهم فى سنة ١٨٢١ بعد أن استسلموا اليهم ودخلوا

فى طاعتهم وأرسل منهم الى جزيرة سفكتيريا الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ليموتوا بها جوعا ، فكان عدلا ان يلقى هذا الفظ الغليظ القلب جزاء ما جنت يداه ارهاقا وتعذيبا وازهاقا للارواح ، لكن ابراهيم اكتفى بتهجينه وتحقيره وابقاه فى اسره وفى ٢٥ رمضان الموافق ١٣ مايو استولى اليأس على المحصورين فى نافارين القديمة ونافارين الجديدة فبعث الأولون فى ذلك اليوم والآخرون فى ٢٨ رمضان الموافق ١٦ مايو وفداً من وجوههم يلتمسون الأمان فأمنهم الأمير على حياتهم بالشروط الآتية :

اولا — ان تسلم الحامية الموقع بما فيه من المدافع والاسلحة والذخائر الى القومندان المصرى الذى يعين لهذا الغرض وذلك فى اليوم الذى تكون السفن الاوربية فيـه على تمام الأهبة لنقل الجنود اليونانية .

ثانيا — ان تأخذ الحامية مهماتها وامتعتها وتلقى سلاحها .

ثالثا — ان تنزل فى سفن تجارية نمسوية وانجليزية تنقلها الى (كالاماتا) .

رابعا — ان يرجى من ربابنة السفينة (امارانت) والسفينة النمسويةالراسية فى المينا القيام بحراسة الحامية اليونانية الى كالاماتا دفعا لكل عار عنها .

خامسا — ان يوقف القتال من الجانبين منذ الآن .

وكان تسليم نافارين أول مثال لمدينة أخذها المسلمون من

اليونانيين منذ بدء الثورة . وقد ثبطت عند سماع تسليمها الهمم وهبطت حرارة الحماسة وحل اليأس فى النفوس محل الأمل .
وذاعت الانباء بان جيشا من الأسيويين مؤلفاً من ثمانية آلاف مقاتل يزحف على (بويسيا) وآخر من ثلاثين ألف الباني يحاصر (ميسولونغى) فهجر الرومليون جميعا شبه جزيرتهم للذود عن حياض بلادهم . وكان (لندوس) و (زايميس) ، من الحزب المنشق ، قد عادا من منفاهما الاختيارى وأخذا يدسان الدسائس ضد الحكومة ويعملان على قلبها فأبى اهل موره قتال ابراهيم باشا منذ حضرا مالم يردّ اليهم زعيمهم (تيودوروس كولوكوترونيس) واضطر مجلس السناتو ان يتنحى عن حقه فى الانتقام والتشفى ، حرصا على كيان الأمة ومحافظة على أمنها فأخرج هذا اللص العتيق من ديركان معتقلا فيه بجزيرة (هيدرا) وما اطلق سراحه حتى ظهر امام (لازاروس كوندوريوتيس) وخاطبه بقوله :
« لقد أسأت الى وطنى ، لكن عظماء موره هم الذين خدعونى .
لقد كنت كشجرة باسقة فى طريق عام فكان السابلة ، وأغلبهم من اللصوص ، يلتمسون الراحة فى ظلى كلما ثارت العواصف ويعلقون بأغصانى جعباتهم المملوءة بالمسروقات والمظالم، وسأعرف كيف أصلح منذ الآن خطأى . واسوف تسمع اليونان الكثير عنى » .

غير أن عودة (كولوكوترونيس) الى ميدان العمل لم تحرّك

فى النفوس ما كان متوقعا لها من الحماسة . واذا انبث فيها شىء منها فقد زال . وكان اهل مورة اذا رنت فى آذانهم اصوات نفير الجيش المصرى تفرقت جموعهم وامتلأت بالرعب والهلع قلوبهم وبدر من حركاتهم مايدل على ان حميتهم قد حل محلها الذل والجزع والتروع . ولقد احتشدت عصاباتهم العديدة فوق جبال (كوندوروتيا) على مسيرة ١٢ ساعة من مودون فزحف ابراهيم عليها فاحتل قرية (سكر ماما) فى ١٥ شوال الموافق ٢ يونيو . ولم ينتظر وصول المدد اليه بل تقدم الى الامام فى فرسان حسين بك ومحمد على أغا ورشوان أغا . وكان العدو قد تحصن بالآكام فلم يشأ الباشا ان يصبر عليه بل تسلق الجبل فى فرقة من الفرسان حتى وصل الى قمة من قممه الشرقية وامر الفرقتين الاخريين بالعمل فى الآن نفسه من الجهة الشمالية . واتفق ان وصل الى جيش المشاة مدد فانضم سبعة طوابير منه الى ابراهيم وخمسة الى رشوان أغا وحسين بك . وضيق الخناق على اليونانيين من كل مكان وفى جميع الروابى التى يحتلونها فانجلوا عنها للاعتصام بأكمة (سنياش) لاعتقادهم فيها أنها أمنع من تلك . فصعد المصريون الى قمتها بوثبة واحدة رغم وابل الرصاص ووعورة الأرض . فلما بلغوا الى القمة حاصروا المعاقل والاستحكامات وقتلوا كل من تعرض لهم بمقاومة ما فكان منهم اللص الشهير (شجبالوس) والقبطان (أطنازيوس نيكالى)

وتسعة غيرهما من الضباط وخمسمائة مقاتل . وحدث ان عربيا اسمه عبد الله انكسرت حربته بعد ان قتل بها ستة من اليونان فأمسك بخناق خصم سابع وحاول ان يطرحه ارضا فسقط الاثنان معا وتدهورا على منحدر الجبل حتى بلغا الى سفحه دون ان يترك احدهما الآخر . وهناك اخرج المصرى مديته وحزّ بها عنق خصمه ، فرقاه ابراهيم باشا فى الوقت الى رتبة الجاويش، ولم ينكر بسالة خصمه فخصه ببعض عبارات المدح والثناء .

وفى اليوم التالى سار ابراهيم فى فرسانه لاستطلاع مضائق (كندورونيا) المشهورة بحزونها واوعارها وقريتى (اوركاديا) و (اندروتسبا) ثم عاد الى ضفاف نهر (بانيروس) فى قصر (نيزيا) وكان قد أسر بضع مئات وغنم عشرة آلاف رأس من الماشية . وظفر على أغا ورشوان أغا وحسين بك بالعدو فى سهل (لوكاس) فعادوا منه بست وخمسين أسيرا وثمانين جوادا واربعمائة ثور . وفى فجر ٢٢ شوال الموافق ٩ يونيو تقدم ابراهيم باشا نحو الموقع الخطير الذى احتله القس (فلشياس) مساء اليوم السابق فى قرية (منيانيس) على رأس الف وخمسمائة مقاتل فانقضت ست ساعات فى عراك عنيف أفضى الى انسحاب خمسمائة عسكرى يونانى فى أودية (أوروتاس) وتفرقت بقية الجيش فى جهات شتى . غير ان ثلاثمائة من الاركاديين ثبتوا فى مراكزهم حول القس فلشياس يقاتلون قتالا عنيفا الى ان أرخى الليل سدوله .

ولبث زعيمهم يقاوم وحده جماعة من المصريين أحدقوا به من كل جهة فأعجب ابراهيم ببسالته وثباته وقال له : « يابابا فلشياس سلم نفسك والق سلاحك ولك الامان على حياتك » ، فأجاب القس : « لا أبغى منك عفوا ولا اريد منك ان تبقى على حياتى . لقد أقمت بلاد اليونان كلها على قدم وساق فالواجب ان أموت فى سبيل الدفاع عنها » ثم دافع حتى مات هو وأصحابه .

وفى ٢٥ شوال الموافق ١٢ يونيو اتصل بابراهيم ان بترو بك أمير (ماتيا) يعمل هو وستة ضباط لحشد خمسة آلاف يونانى فى (كالاماتا) وانه شرع يرمّ اسوارها . فقصد ابراهيم اليها على عجل فى ثلاثة طوابير من المشاة وفرقة من الفرسان ، فلم يكد اليونانيون يبصرون بالجنود المصرية حتى ولوا الأدبار . فأرسلت فصيلة من الجند لاقتفاء أثرهم فأدركتهم وقتلت منهم خمسمائة رجل واثنين وثلاثين رجلا . اما بترو بك فقد صمد حتى النهاية ، وكان هذا الشيخ الشجاع يبكى بكاء شديدا ، وقتما اضطر الى ترك هذا الموقع . واتجه ابراهيم صوب (كيتريا) حيث يسكن هذا الزعيم فبث فيها الخراب كما خرب فى الوقت نفسه بأقليم (كالاماتا) بلدان (جانيني) و (ارموروس) و (منديتوس) و (اجا)وسائر القرى والقصور الموجودة به . وحدث ان لاذ الفان من اليونان بدير (فلاميديا) القائم على قمة أكمة ، فاستولى ابراهيم عليها فى ٢٦ شوال الموافق ١٣ يونيه ورمى اعناق رجال حاميتها .

وفى اول القعدة الموافق ١٨ يونيه برح هذه الجهة التى امتازت بتوالى انتصارات المصريين قاصدا الى (تريبولتسا) عاصمة جزيرة موره فمرّ بعض الجيش بأقليم أركاديا والبعض الآخر بأقليم (ليونداري) فخرب الجيشان فى طريقهما قريتى (كالافيا) و (بولاكى) .

وكان سليمان بك وحسين بك ورشوان أغا يحمون ابراهيم باشا فى زحفه وصعوده ، فى الجبال وقد صعدوا فيها معه للاستطلاع .

وكان (كولوكوترونيس) و (بتراكو) قد تحصنا بقمة جبل (تركى خورا) لمقاومة الجيش المصرى المتدفق كالسيل ، ووقف ابراهيم على نياتهما فانقضّ عليهما ودحرهما ودمر استحكاماتهما وقتل خمسمائه من رجالهما ومنهم الجنرال بتراكو ، وما اقبل المساء حتى انضم ابراهيم باشا الى جيشه الاساسى . وكان فى ٢ ذى القعدة الموافق ١٩ يونيو ، يتأهب للنزول في سهل ليونداري وعلم أن الأعداء ينصبون له كمينا فأنفذ اليهم فصيلة لتصدهم عن تنفيذ نياتهم المقوتة . وكان (كولوكوترونيس)قد اتخذ له في النقط الخلفية موقعاً منيعاً ، لكن جنوده لم تجرؤ على البقاء فيه خيفة ان يدهمهم ابراهيم فينكل بهم . ولذا فروا على وجوههم فى الجبال لايلوون على شىء وبات الطريق مفتوحا للجيش المصرى بذلك فدخل فى يوم ٦ ذو القعدة الموافق ٢٣ يونيو وفى طليعته ابراهيم باشا مدينة (تريبولتسا) بعد ان هجرها سكانها واشعلوا فيها النار . وتراءى لكل من (كولوكوترونيس) وابنه (جينوس)

والجنرال (كوليوبولس) ان نفاد المؤن من عندهم سيضطر العسكر الى التشرد فكتبوا الى حزبهم يستحثونه على هدم اسوار (تريبوليتسا) لضعفها عن مقاومة الهجوم المنتظر . ومما ذكروه فى رسائلهم قولهم : « إن هذه الأسوار لا فائدة لنا منها وإنما فائدتها للعدو اذا اخذ المدينة لقدرته على الدفاع عنها وتمكنه بواسطتها من البقاء فى قلب شبه جزيرة موره . فاهدموا تلك الاسوار المحقق ضررها ولينسحب النساء والاطفال والشيوخ الى مرتفعات (كاريتين) ولا يرابط بها غير الصالحين لحمل السلاح » . فأجاب الحزب على هذه النصيحة بقوله : « انا لن نهدم الأسوار والواجب علينا أن نبنى أسوارا جديدة » وهو رد لا أثر فيه لصدق النظر وقد اثبتت الحوادث السالفة فساد ما تضمنه من آراء .

لم يستنم ابراهيم الى هذه الانتصارات السريعة ، فقرر على الرغم من المشاق التى كابدها جيشه فى الوقعات الأخيرة أخذ نابولى دى رومانيا فترك لهذا الغرض فى عاصمة موره جيشا احتياطيا قويا وتحرك ، يوم ٨ ذى القعدة الموافق ٢٥ يونيو ، فى جيش مؤلف من خمسمائة فارس ومن كتيبة مشاة يعززها مدفعان عاديان ومدفع هاون ، فوصل فى اليوم الثالث من زحفه الى سهل (أرجوس) حيث أحرق كل ما فيه من أشجار الزيتون ثم انقضّ على طواحين نابولى

التي كانت فى حراسة (إبسلانتى) وثلاثمائة من العسكر غير النظامين المشهورين باسم (الباليكار) فترامى الجيشان بالرصاص وتصنع ابراهيم حركة رجعية قصد بها الى استدراج العدو فى طريق تريبوليتسا فكانت هذه الخدعة باستيلائه على جميع مواقعه وقتله اربعمائة وخمسين من رجاله . ثم استأنف السير متحملا بالغنائم الكثيرة ومعه الجم الغفير من الأسرى فلم يعترضه أحد ، وشكا جنوده قلة الماء فمات بعضهم عطشا . وفى الثالث عشر من شهر ذى القعدة الموافق ٣٠ يونيو عاد الى عاصمة موره فاهتم بتدبير الوسائل لاقامة عسكره بها فى فصل الشتاء فحصد ودرس مالم يتيسر للأهالى ان يحصدوه ويدرسوه من الحبوب ونقله على الخيل التى غنمها منهم الى المخازن والمستودعات . ولكى يضمن للعمال الذين قاموا بهذه الاعمال الأمن على حياتهم بث الشراذم حولهم للاستطلاع . وكان يختلف دائما الى النقط الأمامية منها ليشرف بنفسه على احوالها . وحدث يوم ٢٠ القعدة الموافق ٧ يوليو أنه أوغل فى الداخل على مدى بضعة فراسخ يصحبه سليمان بك قائد الأورطة السادسة وفرقة فرسان حسين بك لأخذ الطواحين اللازمة لطحن الحبوب المحصودة ، وكان ثمانية آلاف يونانى محتشدين يومئذ بالجبال على مسيرة ساعة واحدة من تريبوليتسا ، فلما أبصروا بالمصريين اعتصموا ، بعد انقسامهم الى أربع فرق ،

بقلاعهم واستحكاماتهم المنشأة فوق الآكام والروابى فرتب ابراهيم جنـوده فى صفوف مستطيلة متساندة وهجم عليهم بأطراف الحراب فاستولى على استحكاماتهم كلها ، ولم تزد خسارة المصريين على أربعة عساكر فى مقابل ثلاثمائة وسبعة وثمانين من العدو . وكانت امدادات مقبلة لنجدتهم من ناحية قرية (مالا) فجرّد ابراهيم فصيلة من المشاة وشرذمة من الفرسان مؤلفة من ٣٠ فارسا فأظهر الله هذه القوة الضعيفة على تلك الامدادات الكثيرة . على أن ابراهيم لم يتمكن من اصابة الهدف الذى لأجله جاء الى هنا ، فقصد فى اليوم التالى فى جيشه الصغير الى تلك الجهة نفسها حيث قضى أياما فى ترميم الطواحين التى خربها اليونان وأقام على حراستها الأورطة الخامسة ثم قفل راجعاً من هناك الى تريبوليتسا . وكان مائة وخمسون من مشاة سليم بك معسكرين فى النقط الأمامية تحت قيادة كوجك عثمان أغا قائد الطابور الأولى فرأوا فى ٢٨ القعدة الموافق ١٥ يوليو فرقة من الفرسان المنتظمة مقبلة عليهم بخطوات سريعة ، فرتب هذا القائد جيشه فى موقع اكثر ملاءمة من الذى كان فيه ودار بين الفريقين قتال خرج منه ، إزاء تفوق اليونانيين فى العدد ، منسحبا بانتظام تام نحو الطواحين . ونمي خبر هذا الهجوم الى ابراهيم فأراد ان يضع حدا للمناوشات الجزئية التى من هذا القبيل فأنفذ فى الحال فصيلة من الفرسان يصحبها جنود من

الألبانيين كانوا قد وصلوا حديثا من قنديا ، فاعتصم اليونانيون بالجبال . غير ان هذا الجيش المتحرك كان مرسوما له الا يتراجع الى المعسكر إلا إذا أعمل السلاح ، فانطلق يتحسس مكامن العدو ويضرم النار فى كل ما فى طريقه من المساكن . ولقد أمضى ما اعتزمه اذ أنه لم ينقلب الى المعسكر إلا بعد أن قتل ٥١٣ يونانيا وأسر ٣٩٥ وغنم ٧٠٠ جواد و ٧٦٩٠ رأسا من الغنم .

ومضى ابراهيم لتفقد مضائق (كريتين) و (سيناف أورازيا) التى وقعت فيها هذه المعركة الوافرة الثمار . وتراجعت الحملة عنها فى ٢٨ يوليو بما يكفى الجيوش المصرية من المؤن لمدة ثمانية أشهر . ومنذ هذا الحين اقتصر كل من (كولوكوترونيس) وبترو بك على الاحتفاظ بنابولى دى رومانيا و(مالفوازى) وأخلد المصريون الى الراحة فى معسكراتهم . أما بلدة أرجوس فقد محيت من صفحة الوجود ودمرت استحكامات برزخ قورنث بحيث لو مر منه الف جندى فقط لما استطاع اى جيش ان يحول بينهم وبين الوصول الى مايبغون .

ولما ادرك اليونان أن جزيرة قنديا اصبحت ، بعد إرسال حاميتها الى موره لقتال اليونان ، ولا حماة فيها يذودون عن حياضها عند الحاجة ، حاول اليونان التسرب اليها فتنكر فريق منهم فى ازياء العثمانيين وتسهل لهم بهذه الحيلة الدخول فى قلعة

(قرابوزه) دون ان يرتاب أحد فى حقيقة شأنهم . وما قرّ فيها قرارهم حتى ذبحوا حاميتها واتخذوها وكرا للتلصص فى البر والبحر وأسرفوا فى الاعتداء الى حد أنهم كانوا يطلقون القنابل على السفن الاوروبية التي تمر بقنال قنديا . وعلم انصار اليونان فى جزيرة كريد بسقوط القلعة فى ايدى أولئك القرصان فدبت فيهم الحمية وحفزتهم الغيرة فزحفت جموعهم على مدينة خانيا ، لكن لم يلبث محمد على أن أرسل فى الحال اليها بقية الألبانيين وجميع فرسان حسن باشا ، فما هى الا أيام معدودة حتى عادت الجزيرة الى سابق عهدها من الطاعة والامتثال .

وقبل هذه الحوادث بشهر واحد ، أى فى يوم الأحد ١٧ يونيو ، دبر اليونان مكيدة واخذوا فى تنفيذها بما لم يعهد منهم منذ شب ضرام الثورة من الاقدام والجرأة . ذلك ان الاميرال (إمانويل تومبازيس) ظهر فجأة امام الاسكندرية بنية إحراق الدونانمة المصرية . وكانت دونانمته مؤلفة من ثلاثة وعشرين سفينة شراعية وفرقاطة اسمها (لاهلاس) كانت الراية النمسوية تخفق عليها . ونزل كل من (كاناريس) و (فوكوس) و (فوتيس) فى حراقاتهم مستترين بالظلام فحملوا بها على السفينة المصرية (تكران) التى كانت تحرس الميناء القديمة فاشتبكت حراقة ثالثهم بها وأشعلت فيها النار فنجا البحرية بما بذل من وسائل الأسعاف لانقاذهم . ونزل محمد على باشا فى يخته الخاص

لاتخاذ التدابير الكفيلة بدفع الخطر. وبينما كانت احدى الكتائب على تمام الأهبة للقتال فى رأس التين، كانت الهمة منصرفة لتحصين قلاع الشاطىء والقلعة القائمة فى وسط الثغر المشهورة باسم (كفارللى). وكانت فى دار الصناعة سفن على وشك ان يتم بناؤها ولا شراع لها ولا ماء ولا بارود فيها، فلم تنقض ليلة واحدة حتى جهزت بالسلاح والرجال والذخائر لأن محمد على باشا كان يهيمن بنفسه على الأعمال فبث بهمته الحماسة فى النفوس. وما طلع فجر يوم ١٨ يونيو حتى كانت أربع سفن حربية مصرية من الطرز المعروف بالغراب (الكورفيت) وثلاث سفن من طرز البريقا موغلة فى البحر على الرغم من عدم موافقة الريح الشمالية لها، وكان العدو قد وصل الى عرض البحر يلتمس الفرار.

وفى مساء ١٨ يونيو كان الاسطول كله فى الميناء ينتظر لمبارحتها هبوب الرياح المؤاتية. وفي صباح ١٩ منه اصدر الوالى الى صهره محرم بك تعليماته الاخيرة باقتفاء أثر اليونان فى منطقة رودس والتحرش بهم واستدراجهم الى القتال. وقد أخذ الاسطول المصرى يخترق البحر في كل اتجاه مدة احد عشر يوما دون أن يعثر بالفارين الذين كانت نتيجة حركتهم ونشاطهم أن دمروا سفينة شراعية عتيقة وخسروا فى مقابلها ثلاثا من اكبر سفنهم وأمتنها.

وكان ابراهيم يسيطر فى شبه جزيرة موره على مواقع (مودون) و (كورون) و (نافارين) و (تريبوليتسا) و (بتراس)، لكنه لم يكن قد تسلط بعد على البلاد الداخلية، لأن اليونان كانوا ينسحبون كلما لاحت لهم فصائل الأمير المصرى وانما كانوا يزعجون معسكراته بهجماتهم الجزئية ويتربصون الشر بقوافله التي توافيه بالذخيرة والازواد والأعلاف. فرأى ابراهيم أن الواجب عليه، ازاء فعلهم، الاعتماد فى قتالهم على حرب الكتائب الكبيرة والجموع الكثيفة لا على حرب المناوشات.

ولذا طلب امداده بجيوش جديدة، فلم يمض زمن حتى تلقى مايلزمه من المدافع والذخائر لحرب الحصار وحرب الميدان كذا ثمانية آلاف جندى من المشاة أى الفيلقين السابع والثامن، الاول بقيادة حسن بك والثانى بقيادة حسين بك. وحدث فى الاثناء أن ورد عليه كتاب من محمد رشيد باشا سر عسكر الجيوش العثمانية جاء فيه: « لقد أفنيت هذا الجنس الممقوت جنس الموراليه، فسارع بالحضور لتنكل بأولئك الصيادين سكان مدينه (ميسولونغى) فانهم اصبحوا من الشياطين بما هم مكبون عليه من عمل السحر. ومن آيات سحرهم انى أقمت أمامهم جبلا يتجاوز علوه ارتفاع أسوارهم فدمروه تدميرا بسحر رجل عندهم اسمه (كوكنيس) وعندهم لعين آخر اسمه (كنستانتينوس) وصل من نابولى دي رومانيا فقلب جميع الحصون والاستحكامات

ويشتغل هؤلاء الكفار كل يوم بترميم أبنيتهم كلما سقطت جدرانها ويجرؤون على شتمى من أعلى الأبراج ، فهل يرضيك ان تتركنى هكذا هزأة لأولئك الملاعين ولعبة بأيديهم ؟ ان امتلاك بلاد اليونان كلها يتوقف على أخذ اسوار ميسولونغى فهلم اليها من غير تأخير » .

ولم تكن ميسولونغى فى الواقع غير ذات بال ، فقد كان محققا ان يؤثر مصيرها باعتبار انها عاصمة اليونان الغربية تأثيرا قاطعا فى مصير شبه الجزيرة كلها . ذلك لأن هذا الثغر على مقربة من الفتحة الشمالية لخليج (ليبانت) وكانت تصل منه الى أهل (سولى) مهمات القتال الضرورية وتسهل بواسطة الجزر اليونانية وسائل الاتصال باللجان المشايعة لليونان فى اوروبا وكانت تحصنه من جهة البحر قلة عمق الماء وتكون القاع من الرواسب الطينية التى يتعذر على السفن السير عليها ما لم تكن رواسس أو سفنا فرطاحة ، ومن جهة البر انخفاض الارض تتخللها المستنقعات على مسافة كيلو مترين فضلا عن حصون منتظمة تحتوى ثمانين مدفعا فى مدى ١٨٠٠ متر . وكانت بطاريات جبهة الحصون السهلة المنال منها تسمى بأسماء المشاهير من الابطال مثل (غليوم تل) و (فرنكلين) و (كوسيوزكو) و (مونتلمبير) و (البرنس دورانج) و (بايرون) و (اسكندر بك) و (ريجاس) و (ماركو بوتزاريس) و (كرياكولولس) و (نورمن) وغيرهم . وحول

المرتفعات العالية بمترين الى أربعة امتار والهابطة على اتجاه رأسى خندق طينى القاع عرضه عشرة أمتار وفوق تلك المرتفعات حاجز مبنى بسمك متر وخلف الخندق الأول خندقان أقل منه اتساعا. أما جهة البحر فكانت السفن على اختلاف احجامها مضطرة للاسباب المتقدمة الى الوقوف فيها على بعد فرسخين من البر بالقرب من جزيرة صغيرة محصنة تسمى (فاسيلادى) وكانت حامية ميسو لونغى مؤلفة من اربعة آلاف مقاتل روملى بقيادة (نوتى بوتزاريس) أخى ماركو و (استورناريس) و (كريس) و (تسونجاس) و (لوكتوس). وكان بالمدينة حزب سيامى محلى نيط به النظر فى المسائل السياسية الخاصة باقليم إيتوليا وكان ضمن أعضائه (جان بابا دميامنتو بولوس) و (جورج كاناريس) و (ديمتريوس تشميايس) وكان الطبيب السويسرى (ماير) يحرر جريدة عنوانها « الحوادث الهلينية » يثير فيها الخواطر ويستفز النفوس للدفاع عن قضية الحرب المقدسة.

وكانت المهمة الموكولة لمحمد رشيد باشا المعروف بكوتاهيه لى، نسبة الى وطنه كوتاهية بالاناضول، الاستيلاء على مدينة ميسولونغى. وقد سبق له ان رفع الحصار هو والاميرال عمر يونس عن تلك المدينة فى ١٣ يناير سنة ١٨٢٤ بكيفية ألصقت بهما العار. فلما أقبل فصل الخريف من تلك السنة بذل مجهودات جديدة لأعادة الحصر فكان فيه اشأم طالعا منه فى المرة الأولى

وبيانه انه انذر أهل ميسولونغى بالتسليم فأجابوه بقولهم : « ان مفتاح مدينتهم معلق بفوّهات مدافعهم » . فتهددهم بسوء العاقبة اذا هم أصروا على عنادهم فاجابوا بكلمتين « القتال والموت » فاشتبك الفريقان فى قتال سمع فيه دوى المدافع والبنادق وصليل السيوف وألقيت المقذوفات من كل نوع بين احجار وقنابل وكرات يدوية من الصنف المعروف بالرمان ، وجللت سطوح الاسوار والميادين المختلفة بجثث القتلى وأشلائهم . ولم تخفق الراية العثمانية مع كل هذا على المدينة ، اذ كان العثمانيون كلما رفعوها انزلها اليونان فى الحال .

وقد أغضب السلطان هذا التردد وعيل صبره ، فأنفذ القابجى باشا وعلى يده كتاب الى رشيد باشا يحتوى كلمتين اثنتين وهما . « إما ميسولونغى وإما رأسك » ، فلم يبق ازاء هذا الحكم الجازم مجال للتردد ، إذ بادر رشيد باشا بعقد مجلس حربى يوم ١٥ دسمبر سنة ١٨٢٥ تقرر فيه الهجوم الأخير ، لكن الاتراك ما كادوا يشرعون فى تنفيذ هذا القرار حتى وضع اليونان النار فى ألغام بثوها من قبل بباطن الارض ، فانشقت أخاديد واسعة تحت اقدام العثمانيين وانقذفت بتأثير الانفجار الهائل أشلاء الموتى متساقطة على رؤوس زملائهم ، فاستولى الذعر عليهم بما اضطر رشيد باشا الى وقف الهجوم وتراجع منسحبا الى خيمته .
وعلى أثر هذا الانسحاب أمر بأقامة اكمة عالية تفوق فى علوها

حصن بوتزاريس . وكان العساكر المسخرون فى نقـل الأتربة يذهبون قريبا من الأسوار، فلما تم تكوين الأكمة ، رغم مابذله المحصورون من الجهود لمنع العساكر من اتمامها ، جهزت بالمدافع فى أمكنة منها تحكم فيها على أربع من بطاريات المـدينة وعلى شوارعها ومسالكها ، غيرأن المهندس (كوكينس) ساعد الضابط (جورج فلتينوس) على بث لغم تحت الأكمة بأن حفر له نفقا تحتها فى يومين ، فنسفها النسف الذى عزاه رشيد فى كتابه الى ابراهيم الى سحر ساحر وفعـل كافر . وأفضى النسف الى قتل ألفين من العثمانيين فوقع بسبب هذا الحادث التباك عظيم اغتنم اليونانيون فرصته للخروج من المدينة فغنموا كثيرا من الاعلام بعد أن صدوا اعداءهم الى مواقفهم الأولى وقتلوا منهم عددا عظيما .

وأقام العثمانيون استحكامات أخرى فدمرها الميسولونغيون الذين مكنهم هذا الفوزمن ترميم أسوارهم وتوطيد استحكاماتهم وتعزيزها بالسلاح . وثبطت همة العثمانيين لما تحققوه من فشلهم ونحس طالعهم وانتشرت الامراض الوبائية بينهم لانبعاث الروائح الـكريهة من رمم القتلى وحصر جيش (كرايسكاكيس) لهم وسلبه كل ما كانت تحمله اليهم القوافل من الأزواد والأعلاف والذخائر ، وقطعـه لخطوط المواصـلات بينهـم وبين بلدتى (سالون) و (أرطى) . واشتد عليهم الضيق حتى حدث القائد

العام نفسه برفع الخيام والرحيل من هذا المقام ثم ارتأى ان يلجأ الى ابراهيم باشا ويستنجده فى كتابه اليه . وكان هذا الامير قد تلقى من السلطان العثمانى كتابا بخط يده يسند اليه منصب وزارة موره وكتابا آخر يدعوه فيه الى الزحف على ميسولونغى اذا استنجد رشيد باشا به ، فترك ابراهيم حاميات صغيرة فى نافارين ومودون وكورون وبتراس وأخرى مؤلفه من ألفى جندى فى تريبوليتسا بقيادة سليمان بك ثم اجتاز خليج ليبانت فنزل بثغر (كريونيرس) فى أواخر دسمبر سنة ١٨٢٥ ، بجيش مؤلف من ١٠٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠٠ فارس . وكان قد وصل الى رشيد باشا فى الحين نفسه امداد من آسيا غير جيشه المؤلف من ١٥٠٠٠ جندى نظامى ، وكانت الدونمتان المصرية والتركية تعززان الحركة البرية وتنقلان الى (بترلس) أدوات القتال فالتقتا بالاميرال ميوليس أمام جزيرة (فاسيلادى) ، فجرد هذا الاميرال اثنتى عشرة سفينة شراعية من نوع البريقا تحت إمرة (كريزيس) رافقتها حراقات (كناريس) و (بيبينوس) فاشتبكت سفينة مصرية من طراز الغراب بالسفائن الحراقة اليونانية فهلكت بمن فيها من البحرية واستطاع الاميرال (ميوليس) ان يوصل الى مدينة ميسولونغى ما يكفيها من ذخائر الحرب شهرين كاملين . وفصل رشيد باشا وابراهيم باشا معسكريهما احدهما عن الآخر ، لما وقع بين الجنود من الاختلاف . واتصل بالسلطان

خبر خصامهما فبعث وزيرين من عنده لمصالحتهما وقدم الهدايا النفيسة اليهما . وطالب ابراهيم أهل ميسولونغى بالتسليم فأجابوا سلبا فبادر الجيش المصرى بالوقوف فى مصاف القتال وصب نار مدافعه فورا على المدينة وظل يواصل اطلاقها ليل نهار . وكانت المبانى تسقط بعضها تلو بعض بفعل المقذوفات المدمرة وهجرها النساء والاطفال لائذين بعشش أقيمت لأيوائهم . ولزم الرجال مواقفهم على الاسوار وكانوا يصيحون : « لايزال عندنا الخبز والخرطوش وسنتمكن بهما من مقاومة الباشا المصرى الى النهاية » . وفى مساء ٨ فبراير انقض خمسة آلاف مصرى عربى على الاسوار فخرج اليونان والسيوف مسلولة بأيديهم وصدوا المهاجمين ثم تظاهروا بالانسحاب فاستدرجوا المصريين الى ملاحقتهم واقتفاء أثرهم حتى اذا بلغوا بهم الى منطقة بثوا فيها الالغام من قبل انفجرت هذه الالغام فطوت فى الارض فريقا كبيرا منهم وبلغت خسارة ابراهيم فى هذه المعركة خمسمائة جندى ووقعت بعد ذلك معركة أخرى بلغت الخسارة فيها ثلاثمائة جندى ، ولترادف هذه النكبات المثبطة للهمم رأى ان يعدل عن الهجوم بهذا الاسلوب الضار وأخذ يضرب فى الارض يسبر أغوارها مع مهندسه العسكرى السنيور (روميئى) الايطالى فأيقن ان خير الوسائل لالزام ميسولونغى التسليم هى المجاعة ، فقرر سد المسالك الموصلة اليها من ناحيتي البر والبحر . وكانت

المواقع المسماة (انا توليكوس) و (فاسيليدى) و (دولماس) و (كليسوفا) قد نظمت الاحوال فيها بحيث تكفل الاتصال بالمدينة من ناحية البحر وتسهل وصول المؤن والذخائر اليها . وكان القواد العثمانيون الذين تولوا حصرها قد اهملوا احتلال هذه النقط البحرية ، فلما أدرك ابراهيم باشا أهمية قطع تلك الصلة التى لجأت اليها « اللجنة المحبة لليونان » بمدينة جنيف فى ايصال المؤن اليهم أمر بالشروع حالا فى بناء مائة وخمسين سفينة بقاع فرطاح وجوانب من القطن وخشب الفلين . ولما تمّ صنعها انزل فيها أورطتين من الآلايين السابع والثامن فتقدمت بهما تحت حماية مدافع الاسطول فوصلت الى مرمى قذيفة الطبنجة من (انتوليكوس) التى كانت تحمى ، بموقعها فوق صخرة منعزلة ، الطريق الموصل الى المدينة وتعرقل بنار مدافعها ، اذا أطلقت من الجانبين ، كل سعى يرمى الى الاتصال بها . وكان هناك مايحمل على الاعتقاد بأن الاهالى وعددهم ثلاثة آلاف نفس وعساكر الباليكار غير النظاميين الذين انفذ منهم ثلاثمائة لنجدة المحصورين سيقاومون مقاومة عنيفة ، لكن المصريين ألقوا بأنفسهم فى الماء فوصلوا فى الساعة الخامسة من يوم ١٠ مارس ١٨٢٦ الى اسوار المدينة وتسلقوها بسرعة وجرأة لم تخطرا للاعداء ببال فلم يأخذوا عدتهم للدفاع فقتل الضابط اليونانى (ليكاتوس) ولم يصب المهاجمون بخسارة ذات بال وكان الواجب ،

بمقتضى قوانين الحرب ، ضرب اعناق رجال الحامية الا انهم استماحوا ابراهيم باشا العفو عنهم فأجابهم الى ملتمسهم على أن ينسحبوا الى (ارطى) عزلا من السلاح . وقد وقع مثل هذا لحامية (دوماس) ، وبيان ذلك ان لسان الارض المعروف باسم (فاسيلادى) الممتد فى بحيرة عميقة على مقربة من ساحل البحر كان يسد مدخل الخليج ، وكان القصر الحصين الذى ينزل القائد فيه وهو قصر (انستازيا بالوكا) يحمى ميسولونغى كحصن خارجى له ، فحدث ان سقطت قنبلة من مخزن البارود به فانفجرت ودمرت شطرا من الاسوار فعرا اليونان لهذا الحادث هلع سارعوا بسببه الى التسليم فى ١٤ مارس سنة ١٨٢٦ ، على ان الجنود العثمانية والمصرية لم توفق لمثل هذا النجاح فى يوم ٥ ابريل أمام جزيرة (كليسوفا) او (موناسترى) ، لأن خمسة وسبعين جنديا كانوا قد تحصنوا بالكنيسة بعد أن نصبوا فيها خمسة مدافع ، وكان الضابط (كتسوس تزافلاس) يرقب الشواطى ، فنزل فى سفينة مع بعض الباليكار للانضمام اليهم ، غير أن قلة عمق الماء فى المناطق المجاورة كانت تحول دون رسو الزوارق والسفن الكبيرة ذات القاع الفرطاح فتكبد أولئك الرجال فى عبور هذه المسافة خوضا عناء كبيرا ، اذ كان الماء يصل الى مناطقهم . وعرف تزافلاس رشيد باشا بسيماه ، وهو يتقدم فى هذه الناحية ، فركض نحوه واختطف خنجره المرصع

بالجواهر بيده وأطلق عليه طبنجته بالاخرى . وألقى رشيد باشا بنفسه عن ظهر جواده ليتقى الأصابة ، فرفعه أعوانه ، فما كاد يقف حتى أصيب فى حرقفته بعيار نارى آخر ، فتراجع الى الخلف مع جنده . أما ابراهيم باشا فأمر بالحملة على القوم ، لكن جهوده في هذه السبيل كانت تفنيها نار البنادق اليونانية . على انه لم يبرح مكانه إلا بعد قتال دام ثلاث عشرة ساعة خسر فى خلالها عددا كبيرا من رجاله وكان بين القتلى منهم اشجع ضابط من ضباطه وهو حسين بك ، قتل برصاصة فى جبهته .

وطلب كتسوس تزافلاس لدى عودته الى ميسولونغى كسرة خبز مكافأة له على هذا الفوز الباهر ، لأن المدينة كان لا يوجد بها ما يسد رمق رجل واحد ، حتى أن ميوليس حاول عبثا التماس منفذ بين سفن الاسطول العثمانى المصرى ليسلكه بزوارقه المشحونة بالمؤن ولينقذ الاهالى من غائلة الجوع ، فأنه وجد البحيرة ممتلئة بالسفن ذات القاع الفرطاح وشهد الجزر الصغيرة ، وقد نصبت عليها المدافع وظل ثلاثة أيام متتابعة فى قتال معها ليرغمها على ترك منفذ له فلم يبلغ مراده . ولما أيقن فشله عاد الى (هيدرا) ولبس الحداد اعتقادا منه بان ميسولونغى ساقطة لا محالة فى يد المصريين وبقي فى حداد الى ان مات .

وهنا ينبغى ان نذكر أن جهود الأميرال ميوليس جاءت بعد الأوان المناسب . وكان الواجب النظر فى استنقاذ ميسولونغى

من جهة البر لا من جهة البحر ، بأثارة اقليمى (أتيكا) و (ليفاديا). على ان ابراهيم لم تفته هذه الحيلة الوحيدة التى كان فى قدرة اليونان ان يعتمدوا عليها فى رفع الحصار عن ميسولونغى فحشد الكفاية من الجنود لبث السرايا فى كل مكان دفعا لذلك الطارىء ، ودون أن يضطر الى سحب جنوده من حوالى هذه المدينة .

أما ميسولونغي فقد حفز الجوع أحشاء أهلها بينا كانت الأزواد متراكمة فى معسكرات المصريين وفائضة عن حاجتهم وبلغ من شدة المجاعة بهم أن لجأوا الى أكل لحوم الخيل والحشائش البحرية ومات الضعفاء منهم على قوارع الطرقات وسقط الجنود مغشيا عليهم فى مراكزهم العسكرية . وتأثر ابراهيم باشا بهذا الضنك ورثى لحالهم فعرض عليهم الخلاص ، فى مقابل تسليم سلاحهم ومهماتهم فلم يقبلوا . وكان الكولونل (فافييه) الفرنسى الذى جاء الى اليونان فيمن رحلوا اليها من انحاء أوربا لتحرير أهلها موجودا بأثينة ، حيث ألف فرقة من المشاة على النسق الحديث ، فطلب الانضمام بفرقته الى (كرايسكاكيس)وجنوده للتعاون على رفع الحصار ، فأجيب على هذا الاقتراح بما يأتى : « ان ميسولونغى على شفا هاوية الخراب وليس فى الدنيا قوة انسانية تقيها شر هذه العاقبة » . فاجتمع الرؤساء العسكريون والملكيون للتشاور ، فقر رأيهم على

محاولة الخروج من المدينة فى الوقت الذى يهجم (كرايسكاكيس) فيه ليلا . وكتبوا الى الضابط بما قر عليه قرارهم وعينوا له يوم ٢٢ أفريل للقيام بهذا الهجوم ثم اتفقوا معه على إخطارهم بوصوله الى مؤخرة الجيوش المصرية والعثمانية باطلاق البنادق مرة واحدة إطلاقا شديدا . على أنهم قبل الاقرار نهائيا على هذا التدبير أستشاروا الأسقف والنساء فاجاب الأسقف بما يأتى :

« رأيى تعبر عنه كلمتان ، وهما : « الموت والسلاح فى أيدينا »

ثم جمعوا النساء فى مكان واحد وسألوهن : « وانتن ماذا تفضلن، الموت أم الاسترقاق ؟ » فأجبن بصوت واحد : « الموت! الموت ! » . وتزاحم اهل المدينة جميعاً حول الاسقف ليتلقوا منه الاسرار الدينية الاخيرة ، فقال لهم : « اخوتى ! اصغوا جيدا الى قولى . . . . أن سر القربان لكم هو دم اعدائكم » ، ثم أخذوا يودعون الجرحى والمرضى بينما كان الأسقف يباركهم ويعزيهم وأقسم لهم أنه باق ليموت معهم كما يموتون . وبوشر بعد ذلك احصاء الموجودين فإذا هم ثلاثة آلاف رجل صالح للدفاع والقتال وستة آلاف طفل وشيخ وامرأة ومريض ، الا أن النسوة أقسمن ليشاطرنّ آباءهم واخوتهم وازواجهم الخطر العتيد ، فتجهزن بمعدات القتال وتم ترتيب كل شىء فى الغروب فما مضت ساعة بعده حتى سمع دوىّ البنادق تطلق من قمم جبل (أراسنت) المحيط بسهل ميسولونغى . وسمع المحصورون الدوىّ

فقالوا بصوت واحـد : « تلك هى الاشارة المتفق عليها . لقد وصل (كرايسكا كيس) فلنزحف » . وأخذوا يكررون هـذا القول بشعور من هزه الامل والفرح . وكان هذا الامل خائبا فإن (كرايسكا كيس) لم يكن الذى أطلق جنوده تلك العيارات المتفق عليها ، لأ نه كان مريضا فلم يقدر على ترك فراشه لتعزيز الحركة التى عزم المحصورون على القيام بها .

والحقيقة أن ابراهيم باشا وردت التقارير اليه بما صحت عليه عزيمة المحصورين ، فجمل على قمم ذلك الجبل فرقة من جيشه لتحول من جهة دون تقدم المدد المنتظر وصوله لتعزيز الحامية المحصورة ومن جهة أخرى لتصد هذه الحامية اذا خرجت من ميسولونغى . واطلق العساكر المصريون الطلقات النارية فى تلك الساعة تنفيذا لأمر ابراهيم باشا ، فلما سمع المحصورون دوىّ الطلقات عجلوا بالجلاء عن المدينة وجعلوا الأسوار خلفهم ثم انبطحوا على الارض ولبثـوا ينتظرون هجوم الجنرال (كرايسكا كيس) على العثمانيين والمصريين . وانقضت ساعة بعد ذلك فى سكوت وقلق وارتياب ، حتى اذا ملوا الانتظار قام قوادهم وصاحوا بهم : « ايها الأخوة ! الى الامام ! والهلاك للمتوحشين » . ثم مروا فلم يفقدوا أكثر من أحد عشر نفسا ، منهم (ستورناريس) قائد الحامية . وتلاهم جيش آخر شاهرا السيوف ، فقتل منهم ثلاثون غير المقاتلين . وما شرع هؤلاء

فى مبارحة المدينة حتى صاح بهم صائح : « أن ارجعوا الى الخلف والزموا بطرياتكم » ، فعادوا مسرعين ، وقد ساد بينهم الخلل واختلط المصريون بهم مقتفين آثارهم فاستؤنف القتال من النافذات ومن خلف الأسوار وظل محتدما اربع ساعات . وجمع (كريستوس كبساليس) جما غفيرا من الجنود والنساء والاطفال والعجزة فانسحب بهم الى بناء فسيح فيه مقدار عظيم من ذخائر الحرب . وكان قد عاهد نفسه على أن ينقذ من ذل الاسترقاق والعار نفسه وابناء جلدته وانتظر حتى إذا أقبل الاعداء في حشد عظيم صاح : « ارحمنايا إله » ، ووضع البارود فانشقت الارض وابتلعت الدار ومن فيها ، ومعهم ألفان من العساكر المصريين . وانفجرت مع هذا البارود ألغام كثيرة كانت مخبوءة تحت الارض فقذفت فى الجو أجسام الموتى وأشلاءهم . وقام يوسف اسقف (روجون) واعظا فى الف واربعمائة من الاهالى الذين آووا الى برج اعتزم نسفه ، حتى اذا جاء على ختام عظته نسفه فماتوا جميعاً ، ومات هو ، وهو يصلى صلاة الاحتضار . ولجأ ضابط يونانى الى كنيسة (سان سبرديون) وآخر الى طاحون ولبثا يدافعان ثلاثة أيام ، فانتهى الأمر بثانيهما الى الانتحار ، ومن ثم اصبحت مدينة ميسولونغى ، اجمل مدائن اليونان الحديثة ، أطلالا دارسة ينبعث من خلالها الدخان . أما الآن فلا تعدو مساكنها ان تكون عششا واكواخا يأوى اليها بعض الصيادين ويسكنها قوم مابرحت

مسطورة على وجوههم آيات الحزن والوجوم ، ولم يبق فيها من آثار الماضى حتى الآن سوى الغرفة التى مات فيها الشاعر بيرون الذى لو كان عاش سنوات قليلة ، لأفرغ على مدينة ميسولونغى حلة المجد والفخار ، كما كساها ابراهيم ثوب الهوان والدمار .

وفى ٢٤ ابريل ١٨٢٦ كان لايزال على قيد الحياة ،فى ذلك القبر الفسيح ، الف ومائتا نفس يرسفون فى اغلال الرق والاستعباد . ومن نجا منهم، وهم النزر اليسير، لاذوا بدير (سان سيمون) الذى يحكمه جبل (اراسنت)، على اعتقاد ان اخوانهم من عساكر (كرايسكاكيس) سيتلقونهم بالفرح ، فتلقاهم فيه بدلا من هؤلاء جماعات الألبانيين الذين وضعهم ابراهيم فى هذا الجبل ففتكوا بهم . ووصل (دمتريوس) من ضباط (كرايسكاكيس) فى أثناء ذلك بقوة من الجند فساعد الباقين على التراجع . وكان عددهم الفين واربعمائة فقضوا يومين هائمين في الجبال والاغوار لايلوون على شىء ثم وصلوا الى قرية (درفكستا) فلم يجدوا فيها مايفرجون به بعض كربهم فواصلوا السير وهم فى أسوأ حال حتى وصلوا الى (سالونه) . ومات منهم فى الطريق ستمائة نفس جوعا وتعبا وتفرق الباقون بعد ذلك شرق مقاطعة (إيتوليا) حيث تلقاهم (كوستابوتزاريس)، كما يتلقى الأخ إخوته .

وفى السابع من مايو كتبوا الى حزبهم السياسى الرئيسى

مايأتى : « أيا حكام اليونان ! لا تفقدوا الشجاعه ولا تضيعوا الثقة فينا ، فأنا لانزال مدينين للوطن بخدمات نافعة شريفة . وسنستطيع الانتقام لقبر (ماركو بوتزاريس) وقبر الانكليزى الكريم الذى وقف علينا أغانيه الشعرية وماله وحياته . إن مدينة ميسولونغى لا حياة لها إلا فى اطلالها ، لكن ذكراها ستبقى عالقة بخواطرنا على ممر الايام . وما برح الدم الذى يجرى فى عروقنا يغلى ساخنا . نحن مازلنا الوطنيين الذين دافعوا عن حقوق الوطن المقدس وعن ذمار الحرية فوق جبال (سولى) الشامخة الذرى واسوار ميسولونغى التى أصبحت أثرا بعدعين » .

وكان سقوط ميسولونغى عنوانا لانتهاء الحركات الثورية التى تواتر ظهورها بين يوناني إيتوليا واليونان الشرقية وأكرمانيا وإبيروس . ولقد أفرغ على مدائن اليونان جميعا ثوب الحزن والكآبة وانفرط بسببه عقد الجماعات المسلحة . ومنذ ٢٤ ابريل انعقد مؤتمر فى (ابيدور) فقرر اجماعا العدول عن كل أمل فى الاستقلال وأن يتوسط سفير انكلترا لدى الحكومة العثمانية فى كف القتال مقابل دفع اليونان جزية سنوية لها . وكان مؤكدا ان لايرضى (إبسلانتى) بتضحية كرامة الوطن ، قبل ان يبدى رأيه ويسمع صوته ، وفى هذا قال : « ان الكارثة التى نزلت بميسولونغى قد أزعجتكم على مايظهر لى ، بينما أن الواجب عليكم الاعتماد الآن ، كاعتمادكم قبل الحرب ، على همة الشعب وغيرته

وحماسته . إن فى صدر كل منا صورة من ميسولونغي بل شبحا ماثلا منها . فاذا كان نقص وسائل الدفاع قد ألقى بكم فى الحيرة الى هذا الحد ، فلست أفهم لماذا لاتستنجدون بكرم الأمة وسخائها ! فليس فى القطر اليونانى يونانى واحد ، على مااعتقد ، يضع أصابعه فى أذنيه اذا حدثه محدث فى أمر الوطن » . تلك كانت ثقة ذلك الوطنى الغيور فى أمته ، ولم تكن بأقل منها ثقة (جيناديوس) الكاتب فيما يختص بمدينة نابولى . وكان قد شاع ان المصريين سيحملون حملة جديدة عليها حيث قال على الملاء فى ميدانها العمومي : « معشر اليونان ! إن العدو مابرح يتهددكم فانبذوا خصوماتكم وراء ظهوركم وعجلوا بتأليف فرق مشاتكم وانشاء فرقة للفرسان يكون لها من الأهمية وصدق الأثر مالا يخفى ، فى سرعة الانتشار والانبثات فى سهول (ارغوس) و (ميسنيا) . ومن المحتوم علينا تضحية كل مانملك للخلاص من هذه الازمة . ولست كما تعلمون إلا معلما معدما ، لكننى اقدم قليل ماأملك ، وهو مائتا الفرنك التى فى هذا الكيس . واعتقد أن ذوى اليسار سيدفعون اضعاف مادفعت » ، فاستهوت همة الرجل فى قوله وفعله أفئدة الحاضرين فتزاحموا عليه متنافسين فى دفع الاعانات ، كل على قدر طاقته ، لأنقاذ الوطن من مأزقه الحرج . وألقى الضباط والعساكر من ايديهم سيوفهم المحلاة بالفضة ليحملوا فى خدمة وطنهم سيوفا أمضى منها حدا ، وان

تكن أبسط شكلا . وحينما رأى (جيناديوس) هذا الأقبال صاح فى الحاضرين قائلا : « معشر اليونان ابناء وطنى الأعزاء ! إنى لمعجب بوطنيتكم الطاهرة واخلاصكم الثابت ، لكن خبرونى أين نجد الخيل التى نحن فى اشد الحاجة اليها ؟ » أجاب بعض الحاضرين : « نأخذها من اسطبلات موسرى موره » قال : وان رفضوا فماذا نفعل؟ اجابوا : « نأخذها قوة وكرها» قال : « أيها الأخوان الاصدقاء ! لنجمع كلمتنا ولنضم جهودنا لاستنقاذ اليونان ، لكنى اتوسل اليكم ان لاتغمسوا أيديكم فى دماء اخوانكم » . وما هي الا ساعة حتى جىء بخمسين جوادا عربيا الى الميدان العمومى ، حيث كان الاجتماع ، وبعث (مفروكرداتوس) بجواده متنازلا عنه . وتألفت الفرق المطلوبة وألف أهل (كررفو) و (سيفالونيا) من أنفسهم فرقة بقيادة (كوكومورفوبولوس) وألف (بيتاس) السلانكلى فصيلة من المقدونيين ، وعين (كرايسكا) قائدا عاما لبلاد الروملى .

على أن زحف العدو ، وقد خفض من غلوائه فى الهجوم ، كان لايستدعى هذا الاحتياط كله . فأن حصار ميسولونغى كلف الاتراك عشرين الفا كما كلف المصريين ستة آلاف . وانها لخسارة فادحة جعلت ابراهيم باشا ، منذ عاد الى موره ، يتفادى الظهور بالعدوان والهجوم ، الا فى جهة (مانيا) التى كان يعلق على احتلالها ، طوعا أو كرها ، اهمية كبرى . فلما رأى اليونان

منتشرين فى أودية (أوروتاس) وسواحل (اميروس) حيث كان الآيان من المشاة المصريين ينازعهما العدو الارض شبراً شبرا رأى ألا يزجّ بجنوده، بعد أن نقص عددها بذلك القدر الفاحش، فى مآزق لافائدة منها، وكاد يقع أسيراً فى آونة ما فرأى بعد هذا وذاك ان يوغل فى موره رجاء الوصول الى تريبوليتسا.

وفى نوفمبر ١٨٢٦، عاد ابراهيم الى مودون حيث أقام المستشفيات وأنشأ مجلسا صحيا وقسم جيشه قسمين لقضاء فصل الشتاء، فجعل الآلايات الخامس والسابع والثامن فى مودون والثالث والرابع والسادس فى كورون وشكا العسكر اليه فى آخر تلك السنة قلة المؤن وانها اوشكت ان تنفد. وكانت المستودعات والمخازن صفرا من بعضها، حتى لقد استعيض من الزبدة والسمن الزيت الردىء، وعن الخبز الناضج القمح غير المطحون، لأن اليونان كانوا قد دمروا طواحينهم. وكان المنتظر ان يصل الأسطول المصرى مع الدونمة التركية، بعد مغادرتها مياه بتراس. ففى خلال دسمبر زحف ابراهيم على تريبوليتسا فلما وصل الى قرية (نيزيا) ترك بها سواد جيشه ثم واصل السير الى بلدة (أنينا) فى شراذم من فرسانه ففجأ فى بعض القرى عصابات من اليونان أسر منها بضع مئات وغنم ١١٠٠٠ رأس من البقر والغنم. وذهب من هناك الى العاصمة فونها بالزاد وبدل من

حاميتها أخرى . وعلم في أوائل سنة ١٨٢٨ أن اليونان يتهددون بتراس ، فجرد ثلاث أورط من كل ألاى وأخذها معه مشتطا السواحل الغربية من موره . فما من جبل من الجبال الممتدة هناك كان الثائرون قد آووا اليه إلا ترك المصريون فيه أثرا من آثار نقمتهم . وذهب ابراهيم بعد ذلك الى (يهود قلعه سى) ، وكان أهلها قد جهروا بالعصيان ، فلقوا جميعا حتفهم ماعدا الشيوخ والاطفال والنساء . واغتنم ثلاثمائة يونانى فرصة غياب ابراهيم عن بلدة كورون لمحاولة الاستيلاء عليها ، فآبوا من محاولتهم بالفشل ، لان الحامية كانت على تحفز دائم للدفاع عنها .

وفى الوقت الذى أسندت فيه جمعية (أبيدور) رآسة بلاد اليونان الى كونت (جان كابوديستيريا) المولود بجزيرة كورفو ، وكان فى ايام مؤتمر فيينا وزيرا لخارجية الروسيا ، قلد اللورد (كوشران) قيادة القوى البحرية والجنرال (شورش) قيادة القوات البرية . وكان فى هذا التقليد مايمس بالطبع كرامة الاميرال (ميوليس) والضابطين العظيمين (كرايسكاكيس) و (كولوكوترونيس) واشباههم فى الكفاءة والبسالة والفضل ، لاسيما وان الاكفاء من ابناء جنسهم لتولى مناصبهم كانوا اكثر من أن يحصيهم العد . نعم لم يكن اللورد (كوشران) محروما من البسالة والذكاء ، فلقد تقلد بأمريكا الجنوبية ، في حكومة جمهورية شيلي الحديثة ، منصبا كالذى أسند اليه فى اليونان ،

لكن لم تتفق الروايات على أنه بهر الانظار وخلب الألباب بمعجزات فعاله كأمير بحر يقود الاساطيل . أما الجنرال (شورش)، وكان نديم ملك جزيرة صقلية وتابعة المخلص، فلم يرق بين صفوف الجنود اليونانية، بل ظل عائشا كأحد الافراد فى احدى السفن المسلحة . وقد اتخذه العسكر هزأة لهم اذ كانوا يسمونه، كلما وردت على لسانهم سيرته، بالجنرال جوبليت . وعلى كل حال فان القائدين البريطانيين لم يوفقا الى شيء من الفوز والنجاح فى الفصل الاول، وهو الفصل الخطير من رواية اشتراكهما فى العمل . فقد اجتمعا فى ٦ يونيو ١٨٢٧ للبحث فى مشروع هجوم عام على الاتراك فكانت النتيجة ان نكل بالسوليين والكريديين والموره ليين والروملليين الذين اشتركوا فى القتال وضربت أعناقهم جميعا . وفر القائدان على وجههما لايلويان على شيء. بل لم يلتفتا الى (توماس بوتزاريس) وهو يصيح فيهما، وقد خضب بدمه : « الى اين تذهبان واخوانكما يذبحون ذبحا ؟ » وما كادا يبلغان الى الساحل حتى استقلا زورقيهما، فكان سلوكهما هذا دليلا على عجزهما عن اداء المهمة الموكولة اليهما. وما اشبههما، وقد تركا اليونان ينزل بهم هذا الوبال، برشيد باشا الذى ثمل بخمرة الظفر فراح يقيم الدليل على همجيته برميه رقاب الزعماء وكبار الرؤساء من الأسرى ومحبي اليونان من الاجانب الذين توافدوا من اصقاع العالم للدفاع عن الحرية اليونانية

ولقد خابت آمال اليونانيين فيهما على أثر سلوكهما الجالب للعار والشنار وما كادا يعودان الى دونتمتها الصغيرة التى بولغ كذبا فى ضخامتها حتى انهزما أمام ثغر (مونيشيا) فساءت الظنون فى كفاءتهما ويئست النفوس من فائدة معاونتهما. وحدث بعد فشل هذا الاسطول ان سقطت (اثينة) فى قبضة الاتراك فذهب (اللورد كوشران) الى خليج (بتراس) ليوارى عن الانظار عار فشله. وكان وقتئذ فى الفرقاطة (لاهلاس) التى قدمتها امريكا مساعدة لليونان ترافقه سفينة بخارية فوقف بهما تجاه سواحل موره وجاءت الاخبار الى ابراهيم بقرب دنوهما فاستدعى ربانى السفينتين الراسيتين بالميناء، وأصل احداهما من الآستانه والثانية من تونس، وقال لهما: «إذا كنتما جبانين فالزما هذه الميناء ولا تبرحاها فان فى مدافعى الكفاية لحمايتكما، أما اذا كنتما بطلين باسلين فعليكما بهذه الفرقاطة التى تريانها.. ادنوا منها لقتال رجالها، لكن اعلما انى لن أكف عن متابعتكما بالمنظر فاذا تراجعتما الى الخلف قيدَ قامة واحدة فأنى لاشك قاتلكما رميا بالرصاص». فخرجت السفينتان ونشرتا أشرعتهما للرياح، فلما وقع نظر اللورد الجبان عليهما أطلق المدافع مرارا، ثم دار دورة لائذا بالفرار. وظل مدبرا حتى وصل الى نابلى وفيها قام بتسليح عشرين سفينة من طراز البريقا وقصد بها الى الاسكندرية بنية تدمير الاسطول الذى كان يعده والى مصر.

ولما دنا من الساحل رفع الراية النمسوية، وكان محمد على منذ حاول اليونان الغارة على الثغر الاسكندرى باتخاذهم الراية النمسوية شعارا لسفنهم خصص سفينة بمراقبة البحر دائما، فلما رأى ربانها ذلك الاسطول مقبلا عليه أدرك الحيلة فاطلق مدفعا، وكان اطلاقه متفقا عليه من قبل للأخطار بخطر داهم. وتعذرت على السفينة المصرية القائمة بالمراقبة العودة الى الثغر فجنحت على الساحل، وهناك أدركتها حراقات العدو وأحرقتها.

على ان محمدا عليا باشا لم تنبض له فريصة ولم يأبه لهذا الحادث إذ أمر باخراج اربع وعشرين سفينة من السفن المصرية للاصطدام بالسفن المهاجمة ومقاتلتها، فرأى اللورد كوشران ان يجتنب القتال ما استطاع وعاد بأقصى سرعة الى جزيرة رودس، فسار الاسطول المصرى مقتفيا أثره حتى اذا بلغ اليها انضم الى الفرقاطتين المصريتين اللتين كان ابراهيم باشا قد ناط بهما مطاردة اللورد التعس. ومع هذا فقد استطاعت سفنه العودة الى مياه (هيدرا) و (اسبزيا) و (بوروس) وظلت فى هذه الموانيء الثلاث مستقرة بلا حراك.

ولم يأت البحرية اليونان فى الجزر الكبرى من الأرخبيل بعمل ما يرمى الى الدفاع عن الوطن، فلم يروا خيرا من الانضمام لسفن القرصان الذين آذوا التجارة بين أوربا والشرق، بتعدياتهم المتوالية سلبا ونهبا. ولما رأت ذلك الدول الثلاث: فرنسا

وبريطانيا العظمى والروسيا تدخلت فورا فى الأمر وقفا للقتال وتفاديا من وقوع اليونان فى ذل الاسترقاق والاستعباد . وقد أبرمت لهذا الغرض فى ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ معاهدة لوندره التى اعلن نصها فى الحال الى ابراهيم فقال بعد اذ تلاها : « ليس فى وسعى الجزم بشىء مطلقا ، قبل أن ترد الىّ رسالة من سمو والى مصر وفرمان من جلالة السلطان ، فانهما رئيساى اللذان أعمل بأمرهما وأذعن لارادتهما وانى لباعث اليهما منذ اليوم رسولا لأخبارهما بالواقع وعلى الخطة التى يرسمانها لى اسير . ومهما يكن الخطر الذى اصبحت به مهددا فلست من يحيد عن الخطة التى رسمت لى قيد شعرة » . أما الديوان الهمايونى فقد رفض وساطة الدول الاجنبية فى شؤون عصاة اليونان التابعين له وجاوب على رسالة ابراهيم بدعوته الى استئناف القتال بنهاية العنف وقصارى الشدة . واتصل بمحمد على قرار الباب العالى ، فقال لضابط فرنسى من ضباط بحريته : « ان ولدى ابراهيم سيدأب على القتال بعنف حتى النهاية . إنى أعرف طبعه » وفى أغسطس انضم الاسطولان المصرى والعثمانى ودخلا فى موانىء موره وكان محمد على قد أرسل اثنتين وتسعين سفينة وأربعة آلاف عسكرى من المشاة الذين يتألف منهم الآلاى العاشر تحت قيادة احمد بك . أما الاسطول فكان مؤلفا من سفينتين كبيرتين فيهما ٨٤ مدفعا و١٢ فرقاطة كبيرة ، كان فى بعضها ٦٥

مدفعا و٣٧ سفينة من سفن الغراب والجوبليت والحراقات و٤١ مسطحا (سفينة نقالة) . وكان ضباط اوربيون يديرون الاعمال . فسافر هذا المدد من الاسكندرية بمبلغ جسيم من المال لدفع مرتبات الجند ، ورسا فى مياه قنديا ثم قصد الى نافارين فوصل اليها فى أواخر اغسطس . وفى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٧ اتصل الاسطول الفرنسى بقيادة الاميرال (دورنبي) امام هذا الثغر بالاسطول الانجليزى الذى بإمرة الاميرال (كدرنجتن) . وفى ١٣ اكتوبر وافى هذين الاسطولين الاسطول الروسى . وكانت سفن الاسطولين العثمانى والمصرى فى مراسيها حول الجون على خط مقوس يشبه الهلال تعززه بطريات الساحل ، ففى يوم ٢٠ اكتوبر تقدمت سفن الحلفاء على خطين متوازيين فكان الصف الايمن بالنسبة لاتجاه سير السفن مؤلفا من سفن الاسطولين الانجليزى والفرنسى والصف الأيسر المؤازى له من سفن الاسطول الروسى .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر اجتازت سفن الاسطول الانجليزى الرمال والصخور التى بمدخل الميناء ووقفت بسكون فى اتجاه مؤاز للسفن العثمانية ، وفى الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة وقفت السفن الفرنسية فى وسط السفن المصرية والسفن الروسيه امام سفن العدو التى تحت الريح مجانبة لها ، فلم يعترض الاساطيل الثلاثة معترض فى سيرها ، بل تركها العثمانيون

والمصريون تقوم بمناوراتها ، فى سكون ومن غير مبالاة ، كما لو كانت تقوم بها أمام اصدقاء او حلفاء. ولم يظهر من جانب الاساطيل الاوربية ولا من جانب الأسطولين الشرقيين مايدل على أن احد الفريقين يريد البدء بالقتال ، وليس معنى هذا انهما لم يكونا على استعداد له . وحدث ان زورقا بريطانيا دنا من حراقة عثمانية يطلب منها مزايلة مكانها ، فلم يسمع صوت الاسبران الذى نيط به إيصال هذا البلاغ ، فحاول عندئذ ان يصدم الحراقة فأصابته رصاصة أردته مكانه ، فلما رأت الفرقاطة الانجليزية التى ارسلت الزوارق ذلك اطلق عساكرها بنادقهم بعنف أخذا بثأر مبعوثها . فأطلقت سفينة عثمانية قنبلة اصابت السفينة سيرين الرافعة لراية الأميرال دورني ، فأجابت هذه على الفرقاطة بنار مدافعها الجانبية . وكان رأى محرم بك اميرال الاسطول المصرى عدم الاشتراك فى المعركة ، لكنه لم يسعه ، عند ما شهد الحادث ، الا مسايرة الظروف مرغما ، فأمر اسطوله بتصويب مدافعه والقاء قذائفه . وكانت البسالة من الجانبين فى أقصى شدتها ، لكن النصر عقد للاساطيل الاوربية ، بعد قتال عنيف استمر اربع ساعات . وتلقت الفرقاطة الفرنسية (ارمين) الصدمات العنيفة من خمس فرقاطات للعدو دون ان يفقد بحريتها صوابهم. وجانبت حراقة شرقية السفينة (سيبيون) أربع مرات وأشعلت النار فيها فتمكن رجالها من اخمادها ، دون ان يصرفهم صارف عن أداء

واجباتهم الحربية . وما بدأت سحب الدخان المتلبدة تتبدد بتأثير الريح ، حتى لاح للانظار علم والى مصر ، فما من سفينة مرت أمامه الا قامت نحوه بشعائر الاجلال والاحترام والتقدير . ولقد دمر الاسطول المصرى التركى ، بعضه بفعل النار والبعض بالجنوح على الساحل والبعض بالغرق ، وغطى سطح الماء فى الخليج بالانقاض المتحطمة . وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٣ قتيلا و١٤١ جريحا وخسائر الانجليز مثلها ،حذوك النعل بالنعل ، قتلى وجرحى وخسائر الروسيين أقل من ذلك فيهما . أما خسائر المسلمين فقد بلغت ٦٠٠٠ قتيل وثلاث سفن كبيرة من سفن القتال و ١٩ فرقاطة و ٢٦ سفينة شراعية من طرز الغراب و ١٢ سفينة من البريقا و ٥ حراقات ، ولم تقع سفينة واحدة من هذه السفن على اختلاف انواعها واحجامها فى يد المسيحيين ، فان السفن التى لم تغرق بتأثير مدافع العدو أحرقها بحريتها بأيديهم أو نسفوها نسفا . وكانت الرايات العثمانية والمصرية فى الحالتين خفاقة بأعلى ساريتها . وكان الضباط الفرنسيون الذين فى خدمة الاسطول المصرى قد نقلوا قبل المعركة ، بناء على أمر الاميرال (دورني) ، الى سفينة نمسوية أوغلت بهم فى عرض البحر .

ولنا ان نقول فى هذا المقام ان انتصارنا فى نافارين كان فوزا لا اساس له من السياسة القويمة والنظر الصادق الحكيم ، لأنه أفضى بالدولة العثمانية الى الوقوع فى براثن الروس بعد أن جردت

من أهم الوسائل لديها للذود عن حماها فى البحر الأسود وبحر الارخبيل وبحر سوريا . ولشدّ ما كان اسف بريطانيا العظمى لوقوع هذه النكبة التى وصفها بعض رجالها بالطامة الكبرى. وقد وصف احد كبار رجال الحكومة الفرنسية هذا الانتقام الذى انزلته الاساطيل الاوربية الثلاثة بالمصريين والعثمانيين بأنه تهوس وطنى انقادت لعوامله ، اعتباطا ومن غير روية ، كل من الدولتين الفرنسية والانجليزية لخدمة المصالح الروسية فقط . فانهما فى واقعة نافارين انما حاربتا حلفاءهما الطبيعيين ، وهذا ماجعل محمدا علياء حينما وصل اليه خبر الكارثة ، يقول : « ما كان يدور بخلدى ان تطلق المدافع الفرنسية نارها على اسطولها » ولا خلاف فى انه اذا كان الغرض الذى رمت أوربا اليه بتألبها على تركيا تأديب هذه الدولة واعطاء درس لها ، فقد كان هذا الدرس قاسيا للدرجة القصوى . على ان اميرالية الأساطيل الفرنسية والانجليزية والروسية كانوا أول المعترفين بأن العمل الذى كلفتهم اياه حكوماتهم انما كان ضربا لا نظير له من العبث وسوء استعمال القوة المبنية على التفوق العددى . ولقد اعرب ابراهيم اليهم عن تأذيه بهذا التصرف ، فكان جوابهم له أن نشوب المعركة كان نتيجة سوء تفاهم بسيط وان حالة الحرب لم تكن موجودة بين الفريقين وان الاوربيين مابرحوا اصدقاء امناء للعثمانيين والمصريين .

وكان ابراهيم باشا غائبا فى اثناء المعركة ليخضع لرهبوته البلاد الداخلية من شبه جزيرة مورة وكانوا يخشون ان يثأر للاسطول المصرى بالتنكيل بالاسارى اليونان والافرنج الذين ساقهم نحس الطالع الى الوقوع فى قبضته بالاماكن الحصينة التى استولى عليها فى تلك البلاد ، الا أن شيئا من هذا الخوف لم يتحقق لأنه اعلن فى جيشه ان من يعتدى على أحدهم بأذى يكون جزاؤه الاعدام . وبعد اربع وعشرين ساعة من وقوع كارثة نافارين وصل الى هذا الثغر وشرع على الفور فى العمل بهمة لاتعرف الكلل لانقاذ مايستطيع انقاذه من سفن الاسطول وترميمه فى الاحواض بقدر ماتسمح به الطاقة ، فما وافى اول جمادى الثانية الموافق ٢٠ دسمبر حتى أتم تجهيزاحدى سفن القتال الكبيرة وست فرقاطات وعشر سفن من طراز الغراب وخمس وثلاثين مِسطحا (سفينة نقالة) واعدها لنقل خمسة آلاف عسكرى بين مريض وجريح وستة آلاف يونانى أسروا فى الغزوات الأخيرة وسافرت تلك السفن الى مصر . وفى اوائل شعبان ١٢٤٣ الموافق اواخر فبراير ١٨٢٨ حشد ابراهيم آلاياته بالطرف الجنوبى الذى تحيط به مدائن كورون ومودون ونافارين وقسمها الى معسكرات شاد لحمايتها حصونا فوق الآكام والروابى وكفل لهذه الحصون سلامة خطوط الاتصال . وكان سليمان بك (الكولونال سيف) لايزال فى (تريبوليتسا) على رأس حاميتها فدمر حصونها وقلاعها وخرج

بجيشه منها ليدرك القائد العام الذى اصبح محصورا مع هذه القوات كلها فى مكان لا تتجاوز سعته بضعة فراسخ مربعة . وكان حصره من جهة باساطيل الدول الثلاث ومن الاخرى بأقوام الاغريق الذين نسلوا من كل حدب . وقد يئس من وصول المدد اليه من مصر لقلة المساطح فيها فعاش مدة حصره لا يجد لنفسه وجيشه من الازواد الا ماتسوقه المصادفات وتأتى به المقادير . وكان قد بذر الارض الصالحة للزرع ، يرمى بذلك الى توفير موارد العيش فى مكان الحصر نفسه . وكان هذا الاحتياط فى الدرجة القصوى من الحكمة اذ كان فى استطاعته ان يلبث طويلا فى مكانه بعد أوان الحصاد للاحتفاظ بمواقعه ، وانما كيف كان يتيسر له انتظار الموسم المقبل ليستفيد بثمار ماغرست يداه ؟

اصبح ابراهيم باشا مهددا بالموت جوعا فلم تزعزع هـذه الكارثة العتيدة من ثباته وثقته بنفسه . وقد اقتدى عساكره به فى فضائله العالية وصفاته النادرة ، فأنهم مع تجردهم ممـا يسد الرمق كانوا متعلقين به ومخلصين له ومذعنين لارادته . ولم يجد بابا للخلاص من هذا الضنك الا بالعودة الى القطر المصرى ، غير انه لم يكن ميسورا له بلوغ هذا الوطن الا بأذن من والده او من السلطان ، فانتظر حتى يجىء اليه من احدهما الامر بذلك ، فجاء الأمر من والده بالعودة . اذ كان قد أمضى فى الاسكندرية

الاتفاق الآتى بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٤٤ الموافق ٦ اغسطس ١٨٢٨ مع الدول الثلاث ممثلة فى الأميرال (كدرنجتن) وها هو:

اولا — يتعهد والى مصر برد الأسرى الذين أسروا بعد واقعة نافارين وارسلوا الى الديار المصرية ويعد باستعمال نفوذه بالاتفاق مع قناصل الدول المتحالفة لاستنقاذ اليونانيين الذين بيعوا قبل تلك المعركة ورد حريتهم اليهم.

ثانيا — يتعهد الاميرال كدرنجتن بان يعيد الى حكومة مصر جميع الاسرى المصريين وسفينتين من طراز الغراب أسرتا فى مياه ثغر مودون.

ثالثا — يخلى الجنود المصريون بلاد موره فى اقرب وقت ويرسل والى مصر الى نافارين السفن اللازمة لنقلهم الى ثغر الاسكندرية.

رابعا وخامسا — المساطح تقوم بحراستها فى ذهابها وايابها سفن حربية فرنسية وانجليزية.

سادسا — لا يرغم يونانى مهما تكن حالته او مهنته ذكرا كان او انثى على مغادرة القطر المصرى، والعودة الى اليونان ما لم يعرب صراحة عن رغبته فى ذلك.

سابعا — يجوز لابراهيم باشا ان يترك فى موره ١٢٠٠ جندى ينتخبهم من الجيوش الاحتياطية المصرية تتألف منهم ومن الجنود الالبانيين الموجودين فيها حاميات مودون ونافارين

وكورون وباتراس وكاستل تورنيز . اما النقط الاخرى التى يحتلها المصريون من بلاد اليونان فيتعهد باخلائها منهم .

وكانت فرنسا قد أعدت حملة عسكرية لاستخلاص شبه جزيرة موره من ايدى المصريين وسيرتها اليها عندما رفض ابراهيم الجلاء عنها مالم ترد اليه اوامر صريحة بهذا الصدد من الاسكندرية أو الآستانة . وكانت مؤلفة من ١٤٠٠٠ عسكرى من المشاة و ١٥٠٠ فارس . وبرحت هذه الحملة ثغر تولون يوم ١٧ اغسطس ١٨٢٨ فوصلت الى ساحل (بتياليتيدى) مساء ٢٩ ونزلت اليها صباح ٣٠ وكان قائدها العام اللفتننت جنرال (المركيزميزون) وقوادها الجنرال (ثيبورس سباستيانى) والجنرال (شنيدر) والجنرال (هيجونيه) كل منهم يقود فيلقا من الفيالق الثلاثة التى تؤلف الحملة . وكان المارشال (دوربو) رئيسا لاركان الحرب والكولونل (تريزل) وكيلا له والكولونل الفيكونت (لاهيت) مديرا للطوبجية واللفتننت كولونل (اودون) رئيسا لفرقة الهندسة والمقيم العسكرى (فولان) للشؤون الادارية . فبمجرد ان وقعت انظار اليونانيين من اهل السواحل على العلم الفرنسى جثوا على ركبهم ، تحية واحتراما وشكرا لله على معونته .وما مضت ساعة من نزول هذا الجيش حتى توافد الاهلون يهدون منقذيهم من الاستعباد التين والعنب والشمام .

ثم شرع القائد العام الفرنسى فى المفاوضات مع القائد المصرى العام الذى قال إنه ، وقد وصل اليه نص الاتفاق المبرم بين والده وبين الاميرال كدرنجتن ، لا يسعه الا ان ينفذه بحرفه . وبعد مفاوضات طويلة بين القائدين الكبيرين ، نهض الدليل فيها على ما تحلى ابراهيم باشا به من الهمة الرفيعة والغيرة الشديدة والارادة الماضية والجأش الثابت والعلم الواسع بضروب السياسة الاوربية تقرر جلاء المصريين عن المواقع الحصينة فى يوم ٩ سبتمبر . وقد بدىء فعلا به فى اليوم المعلوم اذ لم تبزغ شمس يوم ١٦ منه حتى بلغ عدد العساكر المصريين الذين استقلوا بسلاحهم وامتعتهم ومهماتهم احدى سفن القتال الكبيرة وسبعة وعشرين مسطحا ٣٥٠٠ عسكرى . وقد تحركت هذه السفن بهم صوب الاسكندرية بحراسة الفرقاطة الفرنسية سيرين وسفينتين انجليزيتين من سفن القتال . وتولى هذه الاعمال مندوبو الدول الثلاث وخيرت السبايا اليونانيات بين البقاء فى اليونان والذهاب الى مصر مع سادتهن الذين اشتروهن بالمال فآثرن مرافقتهم التماس الرغد واللبان من العيش وفرارا من شظفه فى مواطنهن حيث يعانين مرارة الحياة وبؤس العيش وجدب الخيرات ، ولم يعارضهن أحد فيما اخترنه لمستقبلهن . اما الاطفال الذين دون الرابعة عشرة فقد حيل بينهم وبين السفر الى مصر على خلاف الذين نزلوا فى السفن فقد خيروا بين السفر والبقاء فكان سوادهم

على إيثار الرحلة والانتقال .

ودأب قواد جيش الحملة الفرنسية فى مورة على رعاية الادب والاحترام وحسن المجاملة فى حق ابراهيم باشا ، لكنه لم يتلق هذه الرعاية وهذا العطف بشىء من صراحته المعتادة ولا بما عرف عنه من طلاقة المحيا وقد بدا للجنرال ميزون ان الامير ربما كان يميل الى شهود العرض العسكرى فأمر باجراء عرض عظيم إكراما له . ففى الساعة التاسعة من صباح اول اكتوبر ١٨٢٨ وصل ابراهيم الى مكان العرض فى زورق لايصحبه فيه سوى ترجمانه الخاص . وكان ساحل نافارين الذى نزل فيه يبعد عن ذلك المكان بمسافة طويلة قد احتشدت فيه جموع من اليونانيين تقاطروا من مختلف النواحى للتفرج والاستطلاع . فاخترق القائد المصرى هذه الجموع الحشيدة لايحيط به أحد من الاحراس غير واجل ، ثم وقف وسط الجيوش الفرنسية راجلا ، فقدم الجنرال ميزون اليه جوادا كريما وجوادا آخر الى الخواجه (آبرو) كاتم امراره وترجمانه . وكان ابراهيم يلبس بذلة ثمينة على بساطة منظرها ، وكان يهبط من وسط طربوشه الأحمر زر أزرق ويلبس صدرية (سلطة) لعلية اللون مشغولة بالحرير ونطاقا من الحرير يضبط حول الخصر سروالا واسعا من لون الصدار ويحمل قرابا لسيف جميل مقوس . اما المترجم فأرمنى الأصل أقام بباريس زمنا طويلا وكان معتما بعمة او شبه عمة ومتلفعا برداء واسع

قال ابراهيم باشا للقائد الفرنسى : « أرجو منك أن تحمل هذا السيف لحظة فأن ذلك يكسبه فى نظر الكولونيل قيمة لم تكن له من قبل »

لازوردى اللون يغطى ثوبا شرقى الطراز يضبطه على الجسم نطاق من الحرير . فلما شهد ابراهيم الجيش الفرنسى وتفقده عارضا أعرب عن ارتياحه من هيئة المشاة وضبط حركاتهم وقال لقوادهم انه كقائد لفرسان يود لو يكون قائد مشاة كهؤلاء . وازداد إعجابه عندما وقع نظره على هيئة الجنود الفرنسية ، وقد انتشرت منها امامه فى بسيط الأرض الفرقة الثالثة من الفرسان الخفاف ، ولم يسعه الا ان دنا من قائدها الكولونل (دى فودواس) فامتدح له هذه الفرقة لما لاحظه على حركاتها من الخفة والسرعة والرشاقة وأعرب له عن رغبته فى اقتناء نموذج من كسوة عساكرها ، فلم يكن من الكولونل الا ان قدم اليه كسوته الخاصة به . وفى اليوم التالى كان ابراهيم باشا يتناول طعام العشاء بالمعسكر العام الفرنسى مدعوًّا من القائد ميزون ، فنزع سيفه من جنبه ورجا من هـذا القائد أن يقدمه الى الكولونل (دى فودواس) ثم قال بعد ان سـلمه اليه « ارجو منك أن تحمله فترة فان ذلك يكسبه فى نظر الكولونل قيمة لم تكن له قبل » ، وهي جملة كبيرة المغزى لطيفة المعنى من رجـل كانوا حتى أمس الدابر يرمونه بالهمجية وحب سفك الدماء . وقدرت قيمة السيف فيما بعد فاذا بها تتجاوز عشرة آلاف فرنك . وفى تلك الوليمة والولائم التى أقيمت بعد إكراما للقائد المصرى العام أظهر هذا فى حديثه من آيات الدقة فى التفكير والفصاحة فى التعبير والحصافة فى

الاحتياط والتدبير ما أدهش سامعيه . فقد روى لنا احد الذين حضروا هذه الاجتماعات الجماء الفوائد من الضباط الفرنسيين ان ابراهيم باشا كثيرا ما أفحم بغمزه وتلويحه ، على الاسلوب الشرقي ، كل من صاوله فى الحديث . وفى وليمة الغداء التى أعدت له على أثر العرض العسكرى شرب فى سر الدولة الفرنسية ، ثم سأل ضباط اركان الحرب الفرنسيين كيف يتفق ذهابهم الى اسبانيا قبل خمس سنوات لاستعباد اهلها مع مجيئهم الآن الى اليونان لتحرير سكانها من ذل هذا الاستعباد .

وفى ٢٤ ربيع الأول ١٢٤٤ كان قد تم نزول المصريين جميعا فى السفن تحت قيادة الباشا للجلاء عن الديار اليونانية . وكانت الجيوش الفرنسية تشكو هطول الامطار واشتداد البرد القارس والبقاء معسكرين فى الخلاء فسيرت الى المدائن التى لم يجل عنها العثمانيون . وفى ١٦ اكتوبر دخل الجنرال هوجونيه مدينة نافارين من ثغرة فى الاسوار ، كما دخل الجنرال ميزون مدينة مودون من بابين كسرا بالبلط والمطارق . واستولى الجنرال (تيبورس سبستيانى) على مدينة (كورون) فى ١٨ اكتوبر واحتل الجنرال (شنيدر) مدينة (بتراس) فى ١٤ منه ونقل الألف والمائتا جندى مصرى الذين كانوا فى القلاع الى الاسكندرية ، كما نقل الاتراك الى أزمير . ومن ثم أصبح خلاص اليونانيين من ربقة الاستعباد أمرا محققا فعاد الجيش الفرنسي الى فرنسا تاركا

احدى فرقه للملاحظة والمراقبة تحت قيادة الجنرال شنيدر ولوقاية البلاد من الغارات المحتملة والفتن الداخلية ، وبقى (جول مارنبيه) رئيسا لاركان الحرب . ووصل ابراهيم باشا بجيشه الى مصر فى ٣٠ ربيع الاول ١٢٤٤ الموافق ١٠ اكتوبر ١٨٢٨ فسرّ محمد على بعودته سرورا لا حدّ له . وما وقع نظر الابن على الأب ، وهو بين عظماء رجال الدولة الذين اجتمعوا عنده لاستقباله ، حتى اندفع نحوه وقبل أطراف الصفة التى كان جالسا عليها . وذهب بعض الكتاب والمؤرخين الى ان محاربة محمد على للأمة اليونانية، وهى أمة كريمة ذات ماض مجيد ، جريمة لا تغتفر فقالوا إنه لم ينظر الى قضيتها التى هى قضية الاستقلال المقدس بعين العطف والاعجاب والاحترام . لكن أ كان فى مقدور مثله باعتباره تابعا للدولة العلية ان يخالف أوامرها ويمرق عن طاعتها ؟ وهل قصر ، كما يزعمون تعسفامنهم واعتباطا ، فى واجبات الرحمة نحو الضعفاء ؟ اتخذ حكام الاتراك نهوض اليونان للمطالبة بتحريرها من قيد التعبد ذريعة للتشفى ونفث الاحقاد الكمينة . ألم يفرضوا الضرائب الفادحة فى سوريا على المسيحيين ويأمروا والى عكا بتدمير كنيسة جبل الكرمل ووالى قبرص بسجن كل من يدين بالمسيحية على المذهب اليونانى ؟ ألم يذق المسيحيون فى أزمير وجزر الارخبيل والآستانة من عذاب الاضطهاد الوانا ؟

اما والى مصر فقد ظل طول الوقت ناشرا على اليونان لواء

رحمته ورعايته وعدله، اذ أبقى اليونانيين الذين فى خدمة حكومته فى وظائفهم ولم يصادر تجارهم فى متاجرهم . وكم من عائلة شردتها الحوادث التى عصفت فى اليونان عواصفها لاسيما فى شبه جزيرة موره فلم تجد حرزا حريزا ولا مأوى كريما غير ضفاف النيل، حيث كانت التجارات والصناعات فى ذلك العهد معفاة من كل قيد وضغط كما كانت الحرية الشخصية ترفرف على الجميع فيستطيع الاجنبي ان يجوس خلالها بغير جواز رسمى وان يقتنى من الاسلحة بحجة الصيد كل ماتهوى نفسه دون ان يعترضه او يزعجه أحد . أما التجار فى بلاد اليونان فقد اكرمت معية محمد على باشا مثوى البعض منهم كالتاجر (توتستسا) واستخدمت الحكومة فى وظائفها الكثيرين من المهاجرين اليونانيين . فكانوا يتقاضون مرتباتهم من خزينة الحكومة كالمصريين سواء. وكان عدد من وظفوا منهم فى المستشفيات كممرضين وكتبة واطباء كبيرا جدا . وهناك دليل دامغ على ما كان اليونانيون يجدونه من حسن المعاملة والرفق والاكرام، وهو عدم اكتراث الاسرى الذين جىء بهم الى مصر بالعودة الى اوطانهم بعد ابرام عهدة الصلح . ومن الامثلة الجديرة بالذكر والمؤيدة لتسامح محمد على باشا انه لما تداخلت اوربا المتحالفة فى الحرب بين مصر واليونان وارسلت فى سنة ١٩٢٧ اساطيلها المتحدة الى نافارين انذر القنصل البريطاني في القاهرة مواطنيه بالخطر الذي اصبحوا عرضة له،

بعد توتر العلاقات بين الفريقين ، اذا هم تخلفوا فى الديار المصرية .
ففند محمد على جهارا التهم التى كانت تكال جزافا للمصريين واكد لقنصل فرنسا وقناصل الأمم الاخرى ان رعاياهم سيجدون فى القطر المصرى ما وجدوه ولا يزالون يجدونه فيه من الرعاية والحماية رغم تلك التهم الجائرة والاوهام الباطلة : ثم قطع على نفسه عهدا ان يحافظ على راحتهم وامنهم . ولما عاد الجنود المصريون من اليونان وبعضهم مصاب بالجراح والآخر مبتور الاعضاء ظهرت فى الاسكندرية حركة عدائية ضد المسيحيين وسمع الالبانيون يمرمرون بلفظ الانتقام وشوهدت علامات التذمر والاستياء مرسومة على وجوه المصريين ، وهم يسألون عن ابنائهم الاعزاء الذين ذهبوا الى ميادين القتال أموتى هم أم أحياء ؟ فجمع محمد على جميع المصريين الذين نجوا بحياتهم بعد كارثة نافارين فى خيام نصبت بسيف البحر حتى لا يتمكنوا من مشاهدة مناظر الحزن والحداد من داخل المدينة ، وارغم الاهلين على العودة الى منازلهم وملازمتها ، ومن عصى منهم هذا الأمر عومل بالشدة والعنف واكره الارنؤود ورجال المدفعية على البقاء فى ثكناتهم ووزع فى الاحياء الافرنجية ضعف ما كان يكفيها عادة من الجنود لحفظ الامن والنظام وبالجملة كل الوسائل الواقية من ذلك الخطر المدلهم ، خصوصا وقد حدث فى مساء اليوم نفسه ، اى ٢٨ اكتوبر ١٨٢٧ ، ان خسف القمر . وخسوف القمر

يؤوله العامة عادة على أسوأ وجوه التأويل ويتخذونه نذير سوء . وكان محتملا ان يؤولوه فى مثل هذه الظروف بما يوافق نزعات الغضب والانتقام فى نفوسهم .

ولا مراء فى انه لو خلصت اليونان لمحمد على لأولاها نصيبا من الاصلاحات الكبرى التى أراد بها انهاض الشرق من عثرته ، لكن السواد الاعظم كان وقتئذ يجهل مقاصد ذلك المصلح العظيم ، بل كثيرا ما كانت الصحف بما تلفقه من الاخبار تحض الرأى العام فى كل قطر على مناصرة اليونان ومشايعتهم والاشفاق بحالهم وتبرز محمدا عليا وابراهيم فى صورة نمرين كاسرين انسابا ، على حين غرة ، فى البلاد اليونانية فأخذا يمزقان احشاءها ويبددان ذاك التراث الثمين الذى خلفه فطاحل اليونان فى سالف الحقب مثل (ليونيداس) و (بيريكليس) و (ليكورغة) .
والآن ، وقد هدأت فورة المضيّ مع الغرض وانقضت فترة المالأة والتحيز من غير حق واستؤصلت من النفوس جذور الاحقاد ، فقد بات من السهل لنا ان نحكم حكما جازما ونعترف جهرة بأن حملة السباب والتهجين التى قصد بها الى الانتقاص من قدر محمد على باشا وابراهيم باشا لم تكن فى شىء ما من الصواب والعدل .

وكان محمد على أمر ابراهيم فيما زوّده من التعليمات فى بادىء الحرب بان يعامل اليونانيين الذين أضلتهم الروسيا لتحقيق

اغراضها السياسية فجاروا عن قصد السبيل ، بالمعروف واللين ، وقد عمل ابراهيم بهذه التعليمات ولم يحد عنها قيد أنملة فلم يسفك قطرة دم خارج ميدان القتال . أما اعمال التخريب والقتل والنهب التى اسندت اليه فقد كان الشطر الأوفى منها من عمل أهل موره أنفسهم لانهم كانوا ينزلون على املاك الاتراك المسلمين الواسعة الاكناف الكثيرة العدد فى هذا البلد ، بالاتلاف والافساد لمجرد نفث الاحقاد والتشفى بالانتقام . واذا كان ابراهيم قد ارسل الى مصر الأسرى المسترقين من أهل موره ، وهم الذين سلموا فيما بعد لقناصل الدول الاوربية بهذا القطر ، فما ذلك إلا لأن كل وسيلة لوقايتهم من عسف الجنود لم تكن فى قدرته ولا فى متناول يده .

ويجب ألا يغيب عن الخاطر ان حرب موره كانت جمة الآثار غنية بالفعال الدالة على بسالة ابراهيم وجرأته وشفقته ببنى الانسان ، فقد حدث فى مياه جزيرة ساموس ان تبودل الرمي بالنار بينه وبين احدى السفن اليونانية اذ صوّبت هذه السفينة اليه مقذوفاتها بما يدل دلالة لا ريب فيها على انه قد عرف منها . فجلس فى مكان الربان جامدا لا يتحرك وكان ينظر باسم الثغر الى طلقات الرصاص وهى تصيب ما حوالى قدميه . وحدث انه كان يزحف يوما فى جبال (ميانا) فاذا به يواجه (كولوكوترونيس) ألد خصومه ، فأمر جنوده بالكف عن اطلاق النار عليه والاحتراز من الاضرار به . ثم قال له : « سلم نفسك ايها القائد »

ولم يكن بينهما سوى مهواة ضيقة فأطلق اليونانى على ابراهيم عيارا ناريا أصاب رجلا من اتباعه مع انه من ناحيته كان قد امر عساكره كما ذكرنا بالاحتراز من كل حركة عدائية . وفى خلال محاصرة ميسولونغى استأذنت سفينة تحمل العلم البريطانى فى ارسال زورق الى المدينة لنقل رعايا انجلترا فيها فأجاب ابراهيم : « انى اعلم ان ليس من خلف هذه الاسوار غير الاعداء ، لهذا لا أسمح للزورق بالمرور » ، لكنه أباح لزورق فرنسى ما ضنّ به على الزورق الانجليزى . على ان الاوربيين الذين كان يراد اسعافهم أبوا الا البقاء حتى النهاية مع المحصورين ، لأنهم كانوا لايحبون ان يخصوا انفسهم بالنجاة دونهم . وحدث ان ضابطين يونانيين وقسا برحوا المدينة المحصورة فى سلاحهم ، فلما وصلوا الى الخندق توسلوا الى ابراهيم ان يأذن لهم بالمرور بحجة توقعهم بقرب سقوط المدينة فأجاب : « عودوا بسلاحكم الى مراكزكم اذ لا قبل لى بتلبيتكم الى طلبكم ، عودوا لتخبروا مواطنيكم انى احترم من يحمون حتى النهاية ذمارهم وان عساكرى اذا تقدموا للهجوم على اسواركم فسيتحاشون اطلاق النار ، غير انى سوف اكال بهم هامات هذه الاسوار وحرابهم ذاهبة فى الهواء » .

ودعا سليمان بك (الكولونل سيف) المسيو (لوبلان) قومندان السفينة الشراعية الحربية (كوبراسييه) ليشارف احوال الاسرى فى اليوم المعين ويتفقدها وقال له : « ان ما سيجرى فى

حضرتك الآن من التفتيش قد أمر به سمو ابراهيم باشا وهو يأمرنا به كلما وصلت طائفة من الأسرى . وسيتاح لك ان تحكم الآن اذا كان ماتنشره الصحف فيه من المطاعن والمثالب على شىء من الصواب والحق ام هو ضدهما على خط مستقيم » . وما هى الا هنيهة حتى شهد الضابط الفرنسى بعينى رأسه توزيع الاغطية والفرش من الصوف والثياب كالمجاسد والجلابيب على الأسرى بلا فارق بينهم وبين الجنود المصريين . وكان احد هؤلاء الاسرى بارعا فى سرقة الماشية ، وقد قبض عليه متلبسا بها فقاوم وجرح فى اثناء مقاومته فلم يرغب ابراهيم باشا فى استجوابه قبل ان تضمد جراحاته ، وقد كلف طبيبه الخاص بمباشرة علاجه . ولما استولى المصريون على قصر (تورنيز) عرض ثلاثة آلاف من سكان (جوبتونى) طاعتهم على القائد ، وكان الجوع قد عضهم بنابه فتلقاهم الباشا بالهشاشة والبشر والكرم اذ خفف عنهم وقع مصابهم . وكانوا يخشون أن يسىء اليهم ابناء وطنهم بعد رحيل المصريين فأمر بارسالهم الى مودون حيث أكرم مثواهم وزودهم مايفيض عن حاجتهم من غذاء ولباس ، بينما كانت مخازن الجيش المصرى فى ذلك الحين خالية منهما . وقد عنى بمرضاهم عناية فائقة وخرج ابراهيم باشا يوما للاستطلاع والغزو فى نواحى بتراس ، فعبر نهر (ألفيه) وخيم بعساكره فى وسط سهل فسيح من سهول (ايلميد) ، فبينما كان بعد الظهر فى سرادقه يطلب الراحة

لبدنه ويستجم ّ إذا بصيحات يأس وضيق تقرع صماخ أذنه وترتفع رويدا رويدا ارتفاعا يدل على ان صاحبه يتجه نحو الصيوان ويدنو منه شيئا فشيئا ، فلبث هنيهة يتسمع ، فاذا امرأة خنقتها العبرة تقبل عليه وتدنو منه فما أن امتد نظرها اليه حتى ألقت بنفسها على قدميه فأجلسها وطيب خاطرها وسألها عن مرادها . قالت إنها فقدت ابنها العزيز وسنادها الوحيد وعزاء شيخوختها إذ أسره ضابط مصرى فأصبح ملك يمينه . سألها ان كانت تستطيع فديته بمال ، فسح ّ من عينيها وابل من الدموع وقالت انها لاتملك فتيلا . فنقدها من المال ماتفتدى ابنها به ثم دعا اليه بالضابط والغلام فلاحت على المرأة علائم الفرح واهتزت بنشوة السرور ، لكن ما أعظم دهشتها حينما رأت ولدها وفلذة كبدها ينكر نسبته اليها ويلقى بنفسه على اقدام سيده . ساء ابراهيم سلوك الغلام مع والدته وعقوقه لها وهم ّ بطرده من المعسكر ثم عدل اشفاقا بحالها وسألها الاحتفاظ بالمال لتنفقه فى مصلحتها ناصحا لها أن تمحو من صحيفة قلبها صورة ذلك الابن الجاحد والا تفكر فيه بعد .

الباب الحادى عشر

سوريا

من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٤١

كانت حرب موره درسا مفيدا لمحمد على باشا وابراهيم باشا نظرا الى الاطوار التى تقلبت فيها ، وكانا على شىء من الجهل بأسرارها فاقنعت هذه الحرب الاميرين المصريين بتفوّق التدابير الحربية ، اذا كانت مبنية على الخبرة والتدقيق ، فباشرا على الفور تنسيق فرسان الجيش على الطراز الحديث بحيث يشتمل على الخيالة الخفيفة والخيالة الرماحة والخيالة المدرعة والخيالة الدراغون. وفى افريل سنة ١٨٢٩ عهد الى المسيو (دى سيريزى) « وفيما بعد : سريزى بك » بانشاء عمارة بحرية بدلا من التى حطمت فى واقعة نافارين وتولى تعليم بحريتها فرنسى آخر هو مسيو (بيسون) « فيما بعد : بيسون بك). واستمرت التنسيقات الادارية والاجتماعية قائمة على قدم وساق فركبت فى المعامل

الآلات البخارية المستوردة من انجلترا واتجهت الهمم الى تجديد مابلي أو فقد فى الحملة الأخيرة . وبوشر فى الآن نفسه اصلاح يرمى الى انقاص ميزانية الحكومة فأمضى تطبيقه الى تغيير كبير فى الفروع الأدارية المختلفة . وقسمت مصر الى مديريات ومراكز واخطاط وسألت فرنسا من الحكومة المصرية بلسان البارون (تيلور) ان يتحفها بأحدى المسلتين اللتين تحليان مدخل هيكل الأقصر جزاء معاونتها لها على مباشرة الاصلاحات العامة وموافاتها اياها بما تحتاج اليه من الأموال . وكان ذلك فى أخريات سنة ١٨٢٩ فأجابتها الى سؤلها وشرع حالا فى بناء سفينة خاصة لنقل الأثر الجليل برحت بعد اتمامها ثغر تولون فى ربيع سنة ١٨٣١ وأقلت الى صعيد مصر ١٤٠ عالما فرنسيا تكبدوا مشاق الانتقال واقتحموا الأخطار حبا فى بلادهم وحرصا على مصالحها ، فذلك الأثر الجليل الماثل أمامنا قد وثق عرى المودّة بين فرنسا ومصر . وحينما خاطب الملك شارل العاشر سمو محمد على باشا بشأنه اقترح عليه اشتراك مصر فى فتح بلاد الجزائر ، يرمى بذلك الى إجلال قدره والتنويه بذكره فحال عن هذه المشاركة لصعوبات وموانع شرحها له الشرح الوافى فاضطرت فرنسا الى العمل وحدها بالرغم من تهديدات بريطانيا العظمى وتكشيرها لها عن نابها

واتفق ان شبت فى بلاد العرب ثورة جديدة قام باطفائها

القواد المصريون ووصل قابجى باشا من طرف السلطان وعلى يده مرسوم التهنئة لمحمد على باشا بهذا الظفر المبين واسناد إمارة مكة الى ابراهيم باشا . ومفهوم ان هذه الرتبة فى الصف الاول من رتب الباشوية فى السلطنة العثمانية . وكان الغرض من توجيهها الى ابراهيم دون والده إيقاظ الاطماع فى نفسه والقاء بذور الشقاق بين اعضاء الاسرة المالكة فى مصر ، لكن منهج الحكمة والتبصر الذى سلكه ابراهيم باشا فى هذا الظرف الدقيق واحترامه الطبعى لشخص والده هتكا ستار هذه الخدعة السياسية التى لم يعزب فهمها قط على ذكائه ، خصوصا وان الدولة العلية كانت قد ظهرت من قبل بمظهر الضنين على والده بما هو حق مكتسب له . فلقد وعدته مرتين بمناسبة حملة الوهابيين وموره باسناد باشوية سوريا اليه جزاء الخدم التى قام بها لها ، فلم تف بما وعدت بل اكتفت بالتنازل له عن جزيرة قنديا ، وهى تستلزم ادارتها انفاق المال الكثير وليس من المنتظر ان تأتى بفائدة ما اذ كان ايرادها لا يتجاوز اربعة ملايين من القروش على ان نفقاتها كانت تربو على أحد عشر مليونا منها .

وسكت محمد على ريثما تسنح الفرصة لوضع يده على ذلك القطر حتى هيأها له والى عكا على غير انتظار منه .

وبيان ذلك انه فى شعبان ١٢٣٧ الموافق مايو ١٨٢٢ خيل لهذا الوالى ، واسمه عبد الله ، ان يوسع سلطته بضم دمشق الى البلاد

الداخلة فى ولايته . فلما علم الولاة المجاورون بمرامى هذا المتسلط تأهبوا لقتاله ايقافا له عند أفقه . وكان قد قطع من الطريق المؤدى الى دمشق نصفها فعاد أدراجه الى عكا ليدافع عنها ضد حصرين ضرب عليها نطاقهما تباعا . ولم يستطع اعداؤه ان ينالوا من اسواره بمقذوفاتهم فكان يتهكم عليهم ويقابل كل مقذوف منها بطلقة بسيطة من بندقيته او بارسال بعض السوارخ والاسهم النارية تشق الفضاء . ومع انه كان يستطيع المقاومة امدا طويلا فانه كان لايخيفه من وجودهم سوى أمر واحد ، وهو حصر الاسطول العثمانى له من جهة البحر ، لأن هذا الحصر ، اذا وقع ، يقطع خطوط مواصلاته البحرية ويحرمه التزود والتمون عند الحاجة . فلما خشى هذه العاقبة وطمح الى نيل العفو من الباب العالى الذى حنق عليه حنقا شديدا توسط محمد على باشا له فى تحقيق مأربه وقد حققه فعلا فى مقابل دفع غرامة قدرها ٦٠٠٠٠ كيس قام محمد على باشا بسداد جزء منها قرضا له . ولما حلّ أجل السداد لم تبد من عبد الله لائحة ميل الى الوفاء ، بل سوّف وانتقل من التسويف الى المضىّ فى نكران الجميل والظهور فى مظهر العداء اذ منح عضده لعصابات تهريب المحظورات فى مصر عن طريق صحراء السويس وجمع ستة آلاف من فلاحى الصعيد للعمل عنده فلما طلب منه محمد على باشا ردّ هؤلاء المهاجرين الى اوطانهم أجاب بأنهم رعايا الدولة وسواء عليهم أأقاموا بالشام

أم بالقطر المصرى . فاستاء محمد على من هذه الاجابة وأبلغه أنه ذاهب اليه بنفسه ليأخذ الستة الآلاف فلاح يزيد عليهم رجل واحد (اى هو) .

اما السلطان محمود فظل غير مكترث بمطالبة محمد على باشا حتى اضطره الى التصريح جهارا بانه سوف يحصل عليهامضاعفة . وكانت الجيوش والجمال والذخائر والمؤن والاسطول على الأهبة التامة للتوجه الى الشام اذا بوباء الكوليرا قد تفشى فى البلاد ولبث يستأصل أهلها استئصالا ٣٤ يوما من اغسطس وسبتمبر ١٨٣١ وهلك منهم فى هذه المدة ١٥٠٠٠٠ نفس من بينهم ٢٨ أوربيا وأصيب من الثمانين الجارية الجركسية والسودانية اللائى كن فى حرم محمد على باشا ثلاثون متن جميعا به . ولما انتهى الوباء واندثرت آثاره من البلاد اجتازت الحملة المصرية حدود سوريا مؤلفة من ستة الايات من المشاة واربعة من الفرسان واربعين مدفع ميدان واكثر منها للحصار فسافر ابراهيم باشا قائد الحملة واركانه بحرا من الاسكندرية وكانت تتألف من عباس باشا حفيد محمد على باشا وابراهيم باشا ابن اخيه وسليمان بك (الكولونل سيف) وسليم بك واحمد بك المنيكلى .

وقد اتبع ابراهيم باشا فى سيره الخطة التى اتبعها نابليون بونابرته قبل اثنين وثلاثين عاما ، حينما زحف بجيشه على سوريا اذ استولى فى طريقه على غزة ويافا وحيفا والقدس ونابلس .

وفى ٢١ جمادى الثانية الموافق ٢٧ نوفبرسنة ١٨٣١ نصب خيامه امام حصون عكا التى عجز القنصل الاول الفرنسى عن قهرها ووصلت من مصر دونمة مؤلفة من خمس سفن كبيرة وفرقاطات عديدة فعاونت جيش الحملة على القيام باعمال الحصار وقطعت عن المدينه المحصورة ما كان يرد اليها من الامدادات . وفى ٢٦ الحجة ١٢٤٧ الموافق ٢٧ مايو ١٨٣٢ أى بعد حصار ستة أشهر قاومت المدينـة فيهـا مقاومة عنيفة واطلقت المدافع المصرية فى خلالها ٥٠٠٠٠ قذيفة كروية واسطوانية و ١٨٠٠٠٠ قذيفة كروية أصغر حجما من السابقة سقطت تلك المدينة المنيعة بايدى المصريين . فما شاع نبأ هذا الاستيلاء فى بلاد الشرق حتى اعترى اهله وحكوماته الدهش واشتد تحمس ابراهيم فصاح قائلا : « سأذهب فى فتوحاتى الى نهاية البلاد التى يتكلم أهلها بالعربية » وارسل باشا عكا أسيرا الى محمد على فلم يقابله مقابلة الغالب للمغلوب أو الملك للصعلوك بل مقابلة الوزير لوزير مثله .

وخشى السلطان مغبة هذا الفوز فأصدر فرمانا رمى فيه محمدا عليا باشا وابراهيم باشا بالمروق مستندا فى ذلك الى فتوى تضمنت جواز اعدامهما ، غـير أن وسائل الاعدام كانت قد رثت فى سراى الآستانة كما بليت فى قصر الفاتيكان وحلت محلها وسائل العقل والروية فيهما محل التوحش والهمجية ، وصار أضراب كليبر فى سنة ١٨٣٢ لا يلتقون فى طريقهم بأمثال سليمان الحلبي.

لأن السلطان محمود كان من ذوى العقل الراجح والرأى الصائب فأيقن ان الفتاوى لا تفيد حيث يجب تحكيم النار والحديد. ولهذا سير الى آسيا الصغرى جيشا مؤلفا من ٦٠٠٠٠ مقاتل ورسم بيده خطة الاجراءات الحربية وألبس قائده العام كسوة القيادة العليا وهي المعطف القصير ذو البنيقة المزركشة بأسلاك الذهب واهداه سيفا مرصعا بالالماس وجوادين عربيين مطهمين وقلده رتبة المشيرية. لكن من هذا القائد العام الذى فاز بهذه الحظوة السنية من لدن الحضرة السلطانية واقترن نجمه بالسعد الى هذا الحد! هو مبيد الانكشارية، اى ذلك الذى كان فى أول عهده بالاعمال حمالا للاثقال ثم جاسوسا ثم رئيس قلعة ثم مهيجا ثم جلادا ثم باشا فباشا الباشوات جميعا. نعم كان هذا القائد فى عهد مضى سيفا مصلتا ماضيا، لكنه الآن سيف لايخرج من قرابه. كان الفريق محمد باشا مملوكا عتقه حسين باشا قائد الطليعة فى ذلك الجيش وحدث أن سمع دوى المدافع فأمر أعوانه بحمله الى خيمة نصبها بالقرب من نهر حمص ليتمتع فيها بالراحة مضطجعا على الفراش الوثير ومعيرا اذنيه لعبارات المدح يكيلها المتملقون من غير حساب وناظرا الى انعقاد الدخان المتصاعد من نارجيلته فى جو سرادقه. وجاءه ذات يوم، وهو فى مثل هذه الحال، ضابط من الفرسان أقلق راحته وأزعج خاطره بأبلاغه خبر استيلاء المصريين على جميع السواحل أى على جبل لبنان

ودمشق وأنهم لم يبق بينهم وبين المعسكر سوى مسيرة ساعتين وكان محمد باشا قبل وصول هذا النبأ المحزن اليه بهنيهة يستفز همم جنوده بمثل قوله : « ها نحن أولاء ذاهبون الى مصر » وكان السواد الاعظم من سامعيه على وشك ان يذهبوا فى الحقيقة اليها، إنما مكبلين بالسلاسل والأغلال . فان جيوش مصر وصلت الى الشام قبل ان تصل الجيوش العثمانية اليها وحاربت ببسالة لا نظير لها : ولم يسبق لاهل الشرق حتى هذا العهد ان تحاربوا بحسب الأساليب الحديثة فلم يكن بغريب ان تتفوق مصر بهذه الأساليب على الاتراك وان تفوز عليهم فوزا مبينا وان تطاردهم الى حدود الصحراء . على انهم تمكنوا من لمّ شعثهم بالقرب من سفوح الجبال الحاكمة على (اسكندرونه) واستعصموا بها فطردهم ابراهيم منها الى سهول نهر العاصى الكثيرة المستنقعات . وكان قد استولى فى طريقه على (حلب) ثم على مضيق (بيلان) فوجه اهالى انطاكيا اليه الوفود لتقديم فروض التهانى واقرت حامية اللاذقية له بالطاعة ولم تعارض القبائل المنتشرة فى فسيح الارض الى نهر الفرات فى حقوق الظفر والغلبة عليهم . واقتدى بهم اهالى مركز آطنة فاصبح ابراهيم باشا صاحب الكلمة النافذة والامر المطاع فى ميدان القتال الذى شمل بلاد الشام، من اقصاها الى اقصاها . وأخذ الاتراك بعد اذ تولاهم الفزع واليأس فى هزيمتهم الى جبال طوروس ، وحراب عباس باشا فى أقفيتهم ،

فباد منهم عدد عظيم . والذين لم يموتوا منهم بالامراض والاصابات المختلفة اجهز الاكراد وفلاحو الاناضول عليهم بسيوفهم . وأضل المشير حسين باشا الطريق اياما ، وكان قد صدر اليه الفرمان فى غير وقته بتوليته باشوية مصر والحبشة وكريد ، ثم عاد الى الظهور كفيف البصر على أثر رمد صديدى شديد أصيب به ، فلجأ الى مدينة بروسه ليوارىَ خلف اسوارها آلام العار ومخازى الفشل والانكسار

عندئذ انتخب السلطان خلفا له زميله فى حرب موره ، رشيد باشا سر عسكر الروملى الذى طرد من أدرنة مصطفى باشا والى اشقودرة المارق من طاعة السلطان والخارج على الدولة . والظاهر أنه كانت تلذ له معيشة المعسكرات والدسائس السياسية ، لكن لم يكن أهلا فى الحقيقة لشىء ، إلا ان يكون زعيم عصابة او قائد شيعة . وكان السلطان موقنا بماله من النفوذ فى تركية أوروبا ، فامره بحشد اكبر عدد من الألبانيين والبوسنويين ، وان يحضر الى الآستانة في الالايات الستة من المشاة والفرسان المحافظين على الولايات التى تحت ادارته . وبعث اليه برسالة بخط يده يسلمه بمقتضاها مقاليد الصدارة العظمى ، وخط شريف آخر يسند اليه ولايات مصر وجدة وقنديا والصعيد وحلب ونيقية والقدس الشريف ، وخط شريف ثالث يعهد اليه بالقيادة العامة . ولا نتعجل فنتكهن الحوادث

فى غير الأوان وانما نقول إن الاحتفالات الشائقة أقيمت لقواد الجيش وان الهدايا الثمينة الغالية قدمت اليهم . ولم يقتصر السلطان فى وداع عساكره ، يوم تحركهم الى ميدان القتال ، على الاعراب عن أمانيه لهم ، بل ذهب بنفسه الى معسكر القائد العام فى اسكدار فقال له على مسمع من الجنود : « أنقذ الدولة فان شكرى لك ولعساكرك ، اذا فعلت ، لايكون له حد » .

وكان ابراهيم قد استمال اليه شعوب سوريا ومزجهم بعساكره وحصل منهم على المقادير الوافرة من المؤن وقضى فى الراحه بينهم شهرين كاملين ثم جاء اليه فى هذه الأثناء من أبيه الأمر بالأيغال فى آسيا الصغرى فاكتسح بين (شفته خانه) و (أولوقشلاق) فلول الاعداء التى كانت تسدّ دونه الطريق . وقتل أربعمائة منهم فى أريكلي وغنم خمسمائة جواد وتربع في دست النفوذ والتحكم على المنحدر الشمالى لجبال طوروس فى بهرة المملكة العثمانية نفسها . والتحمت طلائعه بالعثمانيين فى معركتين كان الفوز الختامى فيهما لها ثم التقى الجيشان بالقرب من (قونيا) وكان الأتراك ثلاثة امثال المصريين عددا غير انهم ، لفساد المناورات العثمانية وبسالة ابراهيم باشا وسليمان بك ، ولوا الادبار تاركين فى ساحة القتال اثنين وتسعين مدفعا وثلاثة آلاف قتيل وعشرة آلاف أسير . ووقع الصدر الأعظم ، وهو مندفع فى الميدان بدافع الحماسة ، فى قبضة العربان المساعدين للمصريين وجيء به

الى ابراهيم باشا فتلقاه بالحفاوة والاجلال . وكان يعتقد أنه لن يعيش اذا انهزم جيشه ، فاستودع كيخياه مفاتيح الباب العالى والسر عسكرية العثمانية ، فلما أشرفت المعركة على الختام خاض المعمعة متحمسا غيورا على أداء المهمة التى وكلت اليه فجاءه بعض العساكر الذين خدموا تحت لوائه فى أوروبا ، وقد اغرورقت أعينهم بالدموع وامتلأت قلوبهم بالحزن وقالوا له : « يارشيد باشا إنا نبكى ، لأنك تصل دائما متأخرا . فلقد قضي الامر » أجاب : « كلا بل تشجعوا ولا تيأسوا . إنه مادامت في العروق قطرة دم فلا محل لليأس » . وقد نقلت هذه الاجابة الى شيخ فى قونيا فقال : « لما كشفت النباتات للقمان عن سر خواصها الطبية لم يقل له نبت منها قط ان لى خاصية الشفاء من الموت . وكان محمد رشيد باشا في هذه المعركة لقمان ، لكن دولتنا كانت الجثة الهامدة الخامدة » .

ولم تمض ست ساعات على المعركة حتى أبيد الجيش العثمانى برمته ، كما أبيد الجيش السابق وفقدت الدولة بذلك جيشين فى اقل من ستة أشهر وكان انهزام الجنود وتشتتها فى الآفاق بحيث يتعذر أن تقع الباصرة فى آسيا الصغرى برمتها على عشرة جنود مجتمعين معا . ولم يلبث ابراهيم باشا أن تواردت اليه الوفود من سواحل البحرين الابيض والاسود لتعترف له بالطاعة وتقر له بالسلطان بالنيابة عن الشعوب التى أوفدتها ،

وتعجب بحسن نظام الجنود المصرية وتطرى بسالتها وشجاعتها . وكانت الامم جميعا فيما بين الهند والبوسفور ترتقب أمرا أو اشارة من القائد المصرى الظافر لتعلن طاعتها له وأقام ابراهيم باشا بولاية كوتاهية شهرا كاملا كان الاهالى فى اثنائه يقدمون اليه المؤن الوافرة فيدفع اثمانها بغير حساب ، كما كان يدفع اجور منازل الاهلين التى كان الجنود يأوون اليها وينزلون فيها . ومدّ رواق حمايته الفعلية على مسيحي تلك الولاية .

وفي ٢٩ شعبان الموافق ٢٠ يناير زحف على مدينة كوتاهية فاحتلها عنوة ، ولم يكن بينها والآستانة أكثر من خمسين فرسخا اى مسيرة خمسة أيام ، فعين المواقع لجيشه فى (مغنيسيا) بالقرب من الحلوق المفضية الى سهول (ليديا) ، فارتعدت فرائص أهل بروسة وأزمير والآستانة ، لكن الدول الأوروبية هبت عندئذ للتدخل ، وفى مقدمتها نيقولا قيصر المسكوف . ولقد اظهر محمد على باشا بازاء هذه الحالة الخطيرة آيات الحكمة المزوجة بالروية والاعتدال ، وصين العرش العثمانى بهذه الوسيلة من عادية المتغلب ، فأصدر السلطان بتاريخ ١٦ الحجة ١٢٤٨ الموافق ٢ مايو ١٨٣٣ خطا شريفا بتثبيت محمد على فى ولايتى كريد ومصر واسناد ولاية جدة مع لقب شيخ الحرم المكى الى ابراهيم باشا وبالتنازل عن ولاية الشام للأول وعن التزام مركز آطنة للثانى . وعلى هذه القواعد أبرمت معاهدة الصلح التى سميت بمعاهدة كوتاهية ،

وهي المكان الذى وقف ابراهيم باشا عنده عن مواصلة الزحف في يوم ٢٤ ذو الحجة ١٢٤٨ الموافق ١٤ مايو ١٨٣٣

ولكى نبين ماهية الاجراءات الحربية التى قام بها ابراهيم باشا نكتفى بايراد خمسة عشر سطرا من رأى ابداه فيها عظيم من عظماء فرنسا حائز على رتبة المارشالية . قال : « إن حملة سنة ١٨٣٢ تشرف ابراهيم وتعلى شأنه . ويقينى ان الملمين بالشؤون العسكرية والخبيرين بها يعترفون معى بان تلك الحملة لاينهض عليها انتقاد ولا يتناولها تجريح وان قيادتها بنيت على اسلوب حكيم وقاعدة مستقرة وهمة عالية حينما قضت الظروف بتجريدها ، وأنه اذا امكن توجيه لوم ما الي ابراهيم باشا فما هو الا لأنه ، فى المعارك الثلاث التى اشتبكت بينه وبين الاتراك ، استخدم فى بدء القتال صفوفه الثانية وجيوشه الاحتياطية . ومع هذا فلا غبار عليه وقد اتبع هذه الخطة لأنه كان موقنا سوء حالة الجيوش المحاربة له وواثقا بالظفر عليهم . ثم ان ابراهيم باشا لم يولد على فطرة القتال والعلم بأساليبه ، لكنه كان موفقا فيه بالحوادث الطرآنية وبوجود رئيس لأركان الحرب معه معروف بالكفاءة العالية والدراية التامة بتسيير الجيوش ، ألا وهو سليمان باشا الذى كان لايزال فى ذلك العهد سليمان بك (سيف) » . واذا أردنا ان نقف الآن على قدرة محمد على باشا وصدق نظره فى الشؤون غير الحربية فلنمعن النظر فى القطعتين الآتيتين اللتين كتبهما

هذا الوالى، الذى اكرهته السياسة الأجنبية اكراها على التنحى عن حقه المكتسب فى الوقائع التى فازت فيها جيوشه بالنصر المبين. كتب :

« الى حضرة القنصلين الجنراليين لفرنسا وانجلترا بالقطر المصرى .

بما أننى صاحب شوكة واقتدار فى أمتى ، فان الشريعة المطهرة والفتاوى الشرعية التى ارسلها الىّ علماء بلاد العرب والاناضول كافة تلزمنى مواصلة العمل لتقوية حكومتى وأمتى ، بما أستطيع من جهد وأتذرع به من وسيلة . وحيث انى قد طالبت بالبلاد التى وعدت بها ، فقد عولت على استئناف طلبها حتى الوفاء بهذا الوعد . وهل أقل من ان أترك بعدى سيرة استحقها اذا كنت قد اشتغلت طول حياتى بهمة ووضعت امتى فىّ كل ثقتها و لم أعرض نفسى للوم بأغفال مصالحها ، اكتفاء بما أحصل عليه من الراحة لنفسى . كلا بل انى أحسبنى سعيدا إذا متّ مخلصا فى أداء واجبى ، فأن فى ذلك كل المجد لى . واذ كان هذا هو شعورى الذى أحسه فأنى ارجو من انجلترا وفرنسا ان تتبعا حيالى خطة مطابقة للعدل والانصاف وموافقة لمصلحتهما ذاتهما »

« الى جناب الفيس أميرال البارون روسان السفير لدى الباب العالى .

سيدى السفير ... فى رسالتكم رقم ٢٢ فبراير اعترضتم بأنه لايحق لى المطالبة ببلاد غير عكا والقدس الشريف ونابلس وطرابلس الشام ، وان الواجب علىّ بناء على ذلك المبادرة بسحب جيوشى . وانذرتم بسوء العاقبة فى حالة الامتناع وأضاف ياوركم شفويا الى ماتقدم ، عملا بالتعليمات التى وردت اليه ، أننى اذا بقيت مصرًّا على زعمى فاسوف تصل الى السواحل دونتمة متحدة من السفن الانجليزية والفرنسيه . لكن الى أى حق ياجناب السفير تستندون فى تجريدى على هذا الشكل ! إن أمتى بأسرها منضمة الىّ فى مطالبى ، وكلمة منى تكفى لاثارة الأهلين فى الروملى والاناضول بل أن فى قدرتى ، إذا شئت ، إحداث حدث فى المملكة العثمانية بموافقة ومعاونة الشعب العثمانى نفسه . ولقد استوليت على اقطار جمة وانتصرت فى كل الميادين ، ومع هذا فقد اكتفيت ببلاد الشام التى يعطينى حق التملك عليها فوز جيوشى فيها وانحياز الرأى العام بها الىّ . فإذا أنا منعت جيوشى عن مواصلة الزحف فما هو الا لحقن الدماء والضن بها ان تهدر فيما لا فائدة منه ترتجى . ولينفسح أمامى مجال الزمن للاطلاع على ميول الدول الأوروبية وأمانيها . وها أنتم الآن تريدوننى ، تلقاء ماأبديته من المعروف والمجاملة وحسن النية وتجاه ماتكبدته أمتي من الضحايا وهى التى اليها وحدها يرجع الفضل كله فى انتصارى انتصارا جديرا بحسن الذكر على ممر

الايام ، على الجلاء عن البلاد التى احتللتها وسحب جيوشى الى مقاطعة صغيرة اطلقتم عليها من باب التوسع اسم الولاية . أفلا يعد هذا حكما منكم علىّ بالموت السياسى ! إنى لأجسر مع هذا على الرجاء من فرنسا وانجلترا أن لاتضنا على بالعدل وان تعترفا بحقوقى التى يرتبط بشرفهما صونها من كل عبث . فاذاخابت آمالى وحبطت مساعىّ فلست اذعن إلا للقدرة الالهية موثرا الموت على العار ومخلصا لقضية أمتى ومغتبطا بخدمة بلادى الى أن ألفظ النفس الأخير . تلك هى النية التي عليها عولت وفى التاريخ أمثال كثيرة لهذا الاخلاص

الاسكندرية فى ٨ مارس سنة ١٨٣٣ — الامضاء :

محمد على والى مصر »

ولم تكن اتفاقية كوتاهيه فى الحقيقة إلا نوعا من الهدنة ، لأن والى مصر ربح بمقتضاها شيئا كثيرا حبب اليه الطموح الى المزيد . وخسر السلطان خسارة فادحة لم يسعه تلقاءها الا ان يعلل النفس بالسعى لاستردادها . ومما أحزنه وأثار الحزازات فى نفسه الاسلوب الذى اتبع فى فرض هذه الخسارة عليه فان ما اصابه من الغم والوجد بسببه كان ابلغ ما اصابه منهما بسبب ضياع املاكه المتنائية الاطراف . ومما ضاعف أسفه وأجج نار الحزازة فى نفسه ان ينتزع محمد على منه صولجان الديار السورية بتلك الصورة المخزية . ومن ثمّ عول على التعلق باهداب الصبر

حتى تتاح له الفرصة الملائمة لنفث حقده وحزازات نفسه .

وكان محمد على واسع الحيلة جريئا فى تنفيذ نياته ، فلقد أنس فى نفسه من قوة البطش مايستطيع معه ان يحمل الصولجان مطلقا من كل قيد . ثم ألقى نظرة حوله فرأى من الرجال والاعوان من يصح الاعتماد عليهم فى الشدائد والثقة بهم فى استبقاء تلك الولايات فى قبضة أسرته ، ومن ثم طمح الى تقرير استقلال مصر وحصر حق الوراثة فى ذريته . وجهر بهذين المطمعين فلم يكن عجبا ان يوفد السلطان اليه مبعوثا خاصا ، وهو صارم افندى ، ليفاوضه فى شؤون قبل انها سرية بحت . وقد جرت بين الاثنين مفاوضات عديدة طرحت فى اثنائها على بساط البحث جملة اقتراحات كان ختامها ان حض المندوب الشاهانى والى مصر على الحضور الى الآستانة لمفاوضة السلطان فى مطالبه ، فشكر له هذه الدعوة قائلا إن من أحب الاشياء اليه ان تتم له الحظوة بلثم اطراف رداء الحضرة الشاهانية « غير أن واجباته بصفته والى مصر والشام وقنديا وبلاد العرب يضطره الى البقاء لمباشرة شؤون هذه الولايات »

على أن هذه المفاوضة لم تكن الفخ الوحيد الذى نصب لأيقاع محمد علي باشا . فإن الباب العالى سن تعريفة جديدة للجمارك وقرر إلغاء الاحتكار والالتزام بجميع أنحاء السلطنة ، عامدا بهذين القرارين لأفقار محمد على وإيراده موارد الافلاس والمتربة. وكانت

الفتن على ذلك العهد تتعاقب فى جبال سوريا . وكثيرا ما كانت تمتد منها الى السواحل بسبب تحصيل الضرائب او التجنيد او التجريد من السلاح او لأسباب غير هذه وتلك . وكان ابراهيم باشا فى سوريا يحكم باسم والده ويوقع العقوبات على مستحقيها ، لكن عواصف تلك الفتن لم يكن مهبها الاقطار السورية ذاتها ، بل ضفاف البسفور . فقد حدث أن ايقظ الفتنة فى حوران شرقى جبل لبنان اعوان الباب العالى الموكلون بدس الدسائس واثارة الاضطراب ، فكلف اخمادها مصر عشرة آلاف عسكرى وانتهى الامر بالباب ان عول على الحرب . وما أقبل فصل الربيع من سنة ١٨٣٤ حتى امر بالتعبئة فى (سيواس) فراقبها ابراهيم باشا بفصائل من الجند جعل (الرقة) على ضفة الفرات مركز احتشادها . ووالى السلطان محمود إرسال المدد وبالغ فى تحصين الدردنيل وأمر الولاة يستجيشون من ولاياتهم حتى بلغ ماحشده ٦٠٠٠٠ مقاتل على اختلاف الاجناس والعقائد .

ولكن اين كان والى مصر فى هذه الآونة وماذا كان يصنع ؟ كان يجول فى بلاد سنار ويزور مناجم الذهب الواقعة بين الدرجتين العاشرة والحادية عشرة من خطوط العرض ، فكانت المسافة بينه والقاهرة ٦٠٠٠ فرسخ بينما كان الباب العالى يحشد للانتظام فى سلك الجيش جميع طبقات المجندين . وكان ابراهيم باشا واقفا فى الحقيقة موقف الديذبان المراقب فحشد فى حلب

الشطر الاكبر من قواته ووزع الشطر الآخر على (عينتاب) ومضايق (كولك بوغاز) فيما بين كرمانيا والشام ثم على حماه ورمم أسوار عكا وجعل فى حمص الأمير بشير زعيم الدروز والموارنة مع سكان جبل لبنان . وكانت الذخائر تصل اليه من الاسكندرية محملة على الجمال ، فبعد ان تظاهر قائد الجيش العثمانى بتأديب بعض العصاة من بكوات كردستان جعل مركزه فى ملطية بالقرب من الفرات . وكان ذلك فى أفريل سنة ١٨٣٨ إلا أن قلة المؤن وانتشار الحمى التيفودية اكرهاه على تبديد عساكره فيما لايقل مسطحه عن ٨٠٠ فرسخ مربع من الارض ، وجعل فى ضواحى ديار بكر وأورفه وملطية ١٥٠٠٠٠ مقاتل . ذلك القائد هو حافظ باشا الذى خلف رشيد باشا على القيادة العامة ، على أثر وفاته بالحمى المخية . وكان حافظ باشا يلقب نفسه بالمنتقم لسلفه فبدأ اعماله الحربية بالانقضاض على القوافل واجتياز الحدود ففى يوم ١٧ مايو ١٨٣٩ ، عبر نهر الفرات وعسكر فى ٢٢ منه أمام نصيبين وبث جواسيسه فى سوريا للاستنجاد بالثائرين والمهيجين .

وفى ٢٤ مايو استولى على قرى ولاية عينتاب فوقعت بذلك مسئولية قطع الصلات الودادية والبدء بالعداوة على العثمانيين . اما ابراهيم باشا فقد تجنب الدخول فى القتال بالرغم من شدة شوقه اليه ليوافى والده بحقيقة الحال . وما تسلم محمد

على باشا الرسائل التى وصلت اليـه منه فى هذا الصدد ، حتى بادر بارسالها الى قناصـل الدول العظمى الاربع . فلفت هؤلاء نظر ابراهيم باشا الى مطالبة حافظ باشا بتبرير خطته العدائية ، فكتب هذا فى ٢٧ ربيع الأول ١٢٥٥ الموافق ٨ يونيو ١٨٣٩ كتابا نورد فيما يلى ختامه :

« اذا كنتم ياصاحب السعادة قد تلقيتم الأمر بأعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن ؟ واذا كنتم تودون القتال فهلموا الى ميدانه بصراحة واقدام ، ورجائى ألا يفوتكم فى هذه الحالة انكم ستقاتلون أبطالا لايعرف الخوف طريقا الى قلوبهم ، واما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فليست مما يطاق احتماله الزمن الطويل » .

ولقد اعترف حافظ باشا بوصول ذلك الكتاب اليه وإلمامه بما اشتمل عليه وأفرغ رده فى قالب من الالفاظ الرشيقة ، لكنه توقى فيه جهده الأتيان بتصريح جازم أو قول قاطع وهى خطة ينطبق عليها المثل الايطالى القـائل : « القول الصادق لايحتاج الى اللفظ الرشيق كما ان اللفظ الرشيق لايتحتم ابدا ان يكون صادقا » .

وكان السلطان قد استصدر فى هذه الاثناء فتوى بوجوب إعدام محمد على باشا ، فلما انتهى الخبر بذلك الى علمه أوعز الى ابراهيم ان يزحف من فوره على العدو وان لا تأخذه فى القضاء

عليه رحمة . فحدثت مناوشات عقب عيد الاضحي كان التوفيق فيها مصاحبا للمصريين . وفى ٢٤ يونيو ١٨٣٩ التحم الجيشان بالقرب من نصيبين فكسر المصريون الاتراك بالرغم من المقاومة العجيبة التى أبداها الحرس الشاهانى . ولقد دعى الى إلقاء السلاح والتسليم فأجاب : « ان حرس السلطان لايلقى سلاحه الا امام الموت »

وقد اشتد سرور ابراهيم باشا بهذا الفوز فلم يتمالك ان ضم الى صدره رفيقه فى الفخر سليمان باشا (سيف) وبهذه المناسبة كتب مايأتى : « كنا جنديين نتبادل التهنئة بالفوز وكان سليمان باشا يحض الضباط ليلة المعركة بقوله : « ايها السادة الضباط انى اعين لكم زمان الملتقى ومكانه غدا فى ساعة الزوال تحت خيمه حافظ باشا لنتعاطى معا شراب القهوة ان شاء الله » ولقد تحققت هـذه النبوءة بأجزائها فطفق يقول : « فى المرة المقبلة سنذهب الى الآستانة أو يجيئون هم الى القاهرة » . ولقد أعدت المعدات للزحف على الآستانة ، إلا أن والى مصر أبى إلا ان يظهر فى هذه المرة ايضا ماأظهره قبلا من الكرم والتسامح . فقد حدث ان طلب المارشال سولت رئيس مجلس وزراء فرنسا من محمد على باشا بواسطة الكابتن (كاييه) وقف رحى الحرب ، فبعث الى ابراهيم باشا يأمره ألا يتخطى حدود آسيا الصغرى ، فوقف الجيش المصرى أمام (عينتاب) ، كما وقف اخيرا أمام

(كوتاهيا) محفوفا بالنصر العزيز والمجد الشامخ . وكان السلطان محمود ضعيف البنيه لاصابته بعلة الصدر وانكبابه على الشهوات ، فمات فى ريعان الشباب ، أى فى الوقت الملائم لينسى أبد الآبدين كارثة نصيبين وخيانة دونمته التى انحازت الى جانب المصريين . أما حافظ باشا الذى غلبه ابراهيم باشا على أمره فقد حوكم فى عودته الى الآستانه بتهمة التسرع فى الهجوم ، قبل ان يصل اليه الأمر الرسمى به ، لكن السر عسكر أبرز كتابا بخط يد المرحوم السلطان محمود يؤخذ منه صراحة انه كان فى كتبه السرية يخالف ما يتظاهر به من الميول لحفظ السلم وانه كان بذلك يخدع السفراء الأوروبيين ووزراء الدولة أنفسهم .

وبينما كان محمد على ينشىء فى مصر حرسا وطنيا ويلزم بالتعليم العسكرى جميع عمال مصانعه العديدة ، أبرمت المعاهدة الصارمة ، معاهدة ١٥ يوليو ١٨٤٠ ، التى ردت الشام بمقتضاها الى الدولة العلية ، لا لسبب سوى أن أربعا من الدول الغربية اجتمعن فى ركن من اركان مدينة لوندره للاتفاق معا على حرمان والى مصر وحاكم وادى النيل ثمار فتوحاته كافة والالقاء به عند قاعدة عرش طالما هزه بيده كما يهز الغلام اللعبة الضئيلة . ولقد رفضت فرنسا حضور هذا المؤتمر الذى لم يكن الباعث عليه غير عدم رضاء انجلترا باتساع نطاق الدولة المصرية . أما محمد على فعارض فى ذلك واحتج عليه متمسكا بحقوقه المهضومة وكادت

فرنسا حليفته الامينة تستل السيف من غمده حتى لا يقدم أحد على مس مصر ذاتها بسوء . وكانت انجلترا والنمسا قد ضيقتا الخناق على السواحل السورية بسفنها الحربية ومدافعها واستولتا على بيروت واللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وعكا، بعد ان ضربتا حصونها بالمدافع . وبعثت دول التحالف الى مياه الاسكندرية القومودور (نابيية) للمفاوضة مع والى مصر فرضى محمد على بالدخول فيها ، فكانت النتيجة أن عقدت اتفاقية تضمن له الولاية على مصر وتمنحه حق الوراثة الذى لم يكن معمولا به فى ولاية مامن ولايات الدولة كلها. وفى ١٢ يناير سنة ١٨٤١ صدر خط شريف بالمصادقة على هذا الامتياز الذى منح فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ بقيود لم يقبلها محمد على باشا ورفضتها فرنسا والدول الموقعة على المعاهدة الاولى رفضا جازما، فصدر فى أول يونيو سنة ١٨٤١ فرمان بتثبيت محمد على فى ملكية مصر ملكية تنتقل بالوراثة الى الذكور من ذريته وتنطبق على بلاد النوبة انطباقها على الديار المصرية :

ولم يكن محمد على ليطمح الى اكثر من ذلك ، فأعلنت فرنسا موافقتها على هذا الحل . ولكى تقيم الدليل على رضائها به انتظمت فى سلك الاتفاق الاوروبى بمقتضى معاهدة ١٣ يوليو ١٨٤١ التى وان لم تكن ماسة مباشرة بالمسألة المصرية ، بما انها كانت تتعلق بمزاعم تركيا وحقوقها على الدردنيل ، كانت تدل

على توافق الخواطر بشأن الحالة في البلاد الشرقية . اما الباب العالى فقد أراد ان يقـدم دليلا على صراحته فى الصلح مع محمد على باشا فأسند اليـه رتبة الصدارة العظمى الشرقية ، ومن ثمّ عاد بجيشه الى القطر المصرى . وقد آن الوقت لايراد التقارير التى كتبت بصدد هـذه الحرب التى قال عنها أحد الشعراء انها ادهشت العرب وأخافتهم

التقارير عن حملة الشام

الثامن من شهر ذى القعدة ١٢٤٧ الموافق ٨ ابريل ١٨٣٠

كان القائد العام ابراهيم باشا متفرغا كما هو معلوم لحصر عكا جاعلا نصب عينيه القيام بالمهمة المعهودة اليه فلما وصل عثمان باشا الى اسوار حلب واللاذقية صرف همته كلها الى اضرام نار الفتنة ثم قصد فى بضعة آلاف من الجند الى (مينه) التى هى على مسيرة ساعة ونصف من طرابلس لمهاجمة هذه المدينة . ولقد حمل عليها مرتين فصدته حاميتها وهزمت عساكره . وكان أمير الآلاى ادريس بك قد نيط به الدفاع فتحرك فى نحو ٥٠٠ الى ٦٠٠ من العسكر بباعث من غيرته وتحمسه وقبل ان يتلقى بذلك أمرا من رؤسائه ، فاضطر الى اللياذ بالفرار تجاه هجوم عثمان باشا عليه بفيلقه كله من مشاة وفرسان فسبب بهذا التعجل خسارة اورطة برمتها وبث الامل ورباطة الجأش فى نفس عثمان باشا فلم تمض اربعة ايام او خمسة حتى استأنف الهجوم على طرابلس ، لكن حماتها الابطال الذين سبق لهم الدفاع عنها برزوا لقتاله وتدفقوا عليه بعنف وانقضوا انقضاضا فقتلوا معظم الرؤساء والقواد والزموا عثمان باشا الانسحاب الى معسكره . وقد ساء سمو القائد العام هذا المسلك العدائى . ولا تجاه رغائبه الى حصر الضرر فى دائرة ضيقة زحف فى قوة كافية من جنوده النظاميين المحاصرين لعكا وفرقة من العربان الخيالة فلما انتشر خبر وصوله الى البترون التى على مسيرة ست ساعات من طرابلس دب فى نفس عثمان باشا دبيب اليأس من التغلب على القائد المصرى الباسل البارع فى التدابير الحربية فولى الادبار ليلا تاركا كل

شيء : الخيام والمدافع والمؤن والجرحى ، فتفرق العسكر وسار كل منهم فيما راق له ان يسلكه من الطرقات ولم يعلم احد الوجهة التي ولى عثمان باشا وجهه شطرها وهذه الاخبار غير مختلف فى صحتها وجميع ماسيرد من الاخبار بعد سينشر عند وصوله

***

فى ١٤ ذو القعدة ١٢٤٧ الموافق ١٤ ابريل ١٨٣٢

علم من التقارير السالفة خبر فرار عثمان امام طرابلس وعزم القائد العام سمو ابراهيم باشا على الزحف على حمص لحماه . وقد جاءت بتاريخ ١٣ ذو القعدة الاخبار الآتية : سقوط موقع عكا وهو ما كنا نرمى اليه . وقد عجلنا هذا السقوط بتوجيه العناية الى ازالة اسباب اطالة الحصر . فمن ذلك ان القائد العام بطرده عثمان باشا من ضاحية طرابلس والزامه بالانسحاب الى حمص قد توافرت عنده الوسائل لاصابة غرضه واتقاء ضرورة الفتك بالمحصورين وابادتهم عن آخرهم الامر الذى كان لامفر منه لو استطال الحصر . ولما كانت فكرة اثارة الحروب الاهلية وايقاظ الفتن بين المسلمين من ابغض الافكار عنده واكثرها مخالفة للشعور الدينى الذى عمر به قلبه فقد عدل عن مشروع استمرار الزحف على موقع حماه وما يليها مفضلا عليه مشروع الارتداد . وبناء على ذلك ارتحل فى جيوشه من حمص قاصدا (خان قصير) وفى اليوم التالى ارتحل قاصدا سهول (زرعه) للبث فيها يوما . لكن نظراً لان هذه التصميمات والمشاريع فسرت على غير حقيقتها فقد اذاع العدو ان القائد العام قد لاذ بالفرار . ومثل هذه الاشاعة فضلا عن وضوح فسادها فانها تناقض على خط مستقيم ما اجمعت عليه الآراء من شجاعة سموه وبسالة جيوشه . وقد جعل كل من والى قيصرية والفرار عثمان باشا وجهته مدينة حمص على نية توجيه الجيوش منها الى سهل زرعه السالف الذكر بقيادة قاضى كران ونعمت اغا اللذين هما امهر قواد الجيوش . وبمجرد ان ادرك صاحب السمو ابراهيم باشا ان القصد

الذى يرمى العدو اليه هو محاربته بالذات فقد اوقف فى مصاف القتال جيشه المؤلف من الايين من المشاة والاى من الفرسان وبعض البدو الراكبين . ووضع أحد الالايين وهو الاى الحرس تجاه الجناح الايسر للعدو والالاى الآخر تجاه ميسرته وقسمت الفرسان الى قسمين . وتلقى الرؤساء والقواد التعليمات اللازمة بشأن الحركات المطلوب منهم القيام بها والامر بالزحف عند صدور الاشارة به وهو ست طلقات بالمدافع تطلق من النقطة التى يكون القائد العام واقفا عندها . فما كادت تعطى الاشارة السالفة الذكر حتى حمل أبطالنا على الأعداء حملة عنيفة فلم يثبتوا لها بل بادروا بالفرار وتعقبهم عساكرنا واضعين الحراب والسيوف فى اقفيتهم وقد بلغ عدد القتلى من العدو ٣٠٠ وبلغت الغنيمة ٣٠٠ جواد . أما القائد العام فلم تزد خسائره على قتيل واحد من الجنود المصريين وجريح من البدو

***

فى ٩ محرم الحرام ١٢٤٨ الموافق ٧ يونيو ١٨٣٢

نيط منذ ستة أشهر بأحد فيالق الحملة المصرية فى سوريا حصر موقع عكا وقد اعتزم صاحب السمو ابراهيم باشا وضع حد لهذا الحصر الذى استمر كل تلك المدة بالهجوم على الموقع . ولتنفيذ هذا العزم استدعى اليه فى ٢٦ الحجة الموافق ٢٦ مايو اكابر الضباط من القواد والميرالايات ورؤساء الاورط فى فيلق الحصار وقرر عليهم اتباع الترتيبات الآتى بيانها : صدر الى الميرالاى احمد أمر بالحملة مع الاورطة الاولى من الالاى الثانى ومعه أميرهذا الالاى على ثغرة البرج المعروف باسم (قبو برجو) وامرت الاورطة الثانية التى بقيادة القائمقام بالحملة على الثغرة الثانية المفتوحة تجاه النبى صالح والاورطة الثالثة التى بقيادة عمر بك على الثغرة الاخيرة المعروفة بالزاوية . ووقفت الاورطة الرابعة من الالاى نفسه تحت الثغرة الاولى للامداد بها عند الحاجة وصدر الامر الى اورطة من الالاى العاشر الذي كان

بقيادة اميرالاى بالوقوف تحت الثغرة للغرض المتقدم . وخصصت اورطة اخرى لنقل السلالم قبيل الساعة الاولى بعـد نصف الليل فى الخندق الواقع بجانب القلعة المعروفة باسم (كريم برجو) وبان تكون هناك ساعة الهجوم العام . وزود القائد العام فيما عدا ذلك كل ضابط وقائد بالتعليمات الخاصة به ، ففى ليلة ٢٦ الى ٢٧ اطلقت البطريات مقذوفاتها على الموقع وفى صبيحة ٢٧ بعد شروق الشمس ببضع دقائق أمر القائد العام بالهجوم فاستولت الجنود الموجهة الى ثغرة الزاوية فى الحال على الاستحكام وثبتت فيه . اما الجنود التى كان مقررا عليها الاستيلاء على ثغرة (قبو برجو) فقد وجدت بعض المقاومة من المحصورين فترددت وتزلزلت اقدامها ولحظ القائد العام منها ذلك فشهر سيفه وتهدد كل جندى يحاول النكوص على عقبيه برمى عنقه ثم دفع بالجنود الى الامام وما زال بها حتى اتخذت لها مكانا فى الثغرة . ووافى المدد وبينما كان قسم من العساكر يصدون العدو باطلاق البنادق عليه كان القسم الآخر مشتغلا بانشاء استحكام للدفاع . اما الثغرة المفتوحة تجاه النبى صالح فقد استولى عساكرنا عليها وأخذوا ماوجدوه فى الحصون من المدافع والاهوان . وبينما كان القتال قائما على قدم وساق على الثغرات مع المحصورين الذين كان عددهم يبلغ الى الالفين حمل هؤلاء على الاستحكام المشيد فى ثغرة (قبو برجو) ثلاث مرات فى ساعة ونصف ولكنهم صدوا فى كل مرة منها وصدوا أيضا فى ثغرة الزاوية واستمر اطلاق نار البنادق والمدافع من الجانبين . فلما كانت الساعة الرابعة بعـد الظهر اندفعت الاورطة المجردة من الالاى العاشر وهى الاورطة التى كانت على ثغرة الزاوية خارج استحكاماتها وحملت على الحامية بعنف حتى اضطرتها الى طلب العفو والامان . وبعد دقائق تألف وفد من رؤساء المدفعية والمفتى وامام عبد الله باشا فخرج من المكان الذى آوى المحصورون اليه وترامى على اقدام القائد العام ملتمسا منه الرحمة والشفقة فعفا عنهم وضمن لهم

انفسهم واموالهم وبلغ به التسامح الى أن اجاز لهم الاحتفاظ بسلاحهم. أما عبد الله باشا فقد أمنه على الحياة وارسل اليه بعد غروب الشمس بقليل الميرالاى سليم بك وفى منتصف الليل حضر عبد الله باشا ومعه كيخياه فتلقاه القائد العام بمظاهر الاحترام التى يتلقى بها الوزراء وبعد نصف الليل بساعة ركب الاثنان جوادين وتبعهما الكيخيا قاصدين الى خارج الموقع حيث يوجد قصر قضيا به الليل وحدث ان بعض جنودنا الذين انتشروا فى المدينة ارتكبوا من العبث والافساد ما لا مفر من وقوعه عادة عقب الهجوم والاستيلاء اذ نهبوا أشياء لم تلبث فى اليوم التالى أن ردت الى اربابها

وأعرب عبد الله باشا عن رغبته فى التوجه الى مصر فارسل الى حيفا بحراسة الاى سليم بك وفى ٢٩ الحجة الموافق ٢٩ مايو أبحر منها فى السفينة المسماة (شباز جهاد) التى وصلت الى الاسكندرية فى ٣ محرم (٢ يونيو) وما ابلغ نبأ وصوله الى سمو والى مصر حتى أرسل اليه زورقه الخاص وعليه من طرف القهوجى باشا فنزل عبد الله باشا فى الزورق ومعه كيخياه وثلاثة اشخاص من حاشيته وقصد مباشرة الى سموه فتفضل باستقباله بما يليق برتبته وتجاوز عن هفواته. وقد اعفاه من القورنتينة رعاية لشخصه وانزله بالقرب من قصر سموه فى القصر المعد لضيافة الاجانب

عدد الجرحى		عدد القتلى	
١	برتبة اميرالاى	١	برتبة اميرالاى
١	برتبة قائمقام		
٢	برتبة رئيس اورطة	٢	برتبة رئيس اورطة
٢	برتبة مساعد بكباشى	٢	برتبة مساعد بكباشى
٨	برتبة يوزباشى	٣	برتبة يوزباشى
٤٧	برتبة ضابط	١٥	برتبة ضابط
١٣٦٨	عسكريا	٤٨٩	عسكريا
١٤٢٩		٥١٢	

خلاصة تقرير القائد العام سمو ابراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها

رتبت جيوش الهجوم كما يلي : الاورطة الاولى من الالاى الثانى بقيادة قائد الاورطة مختار آغا وتحت امرة الفريق احمد بك تجاه الثغرة التى فتحت من ناحية باب عكا والاورطة الثانية بقيادة الميرالاى اسماعيل بك الذى قتل بعد فى المعركة امام ثغرة (قبو برجو) والاورطة الثالثة بقيادة الفريق عثمان بك تقرر ان تهاجم ثغرة الزاوية وصدر الامر الى الاورطة الاولى من الالاى العاشر بالاستعداد لتسلق (كريم برجو) وفى الساعة ٤ والربع من صبيحة ٢٧ مايو أطلقت طلقة من ثلاثة مدافع هاون معا ايذانا بالهجوم فقصدت فى الحال الى البطارية التى خلف الفصيلة المنوط بها الزحف على الزاوية وكنت قد عهدت الى ابراهيم باشا (ابن اخ) بالهجوم على الثغرات التى من ناحية الباب ووقفت الاورطتان الثانيتان من كل من الالايين الخامس والعاشر الى جانبي كجنود احتياطية واتخذت الاورطة الرابعة من الالاى الثانى كجيش احتياطى للفيلق الذى بقيادة ابراهيم باشا « ابن أخ » وهذا الفرق فى توزيع القوات الاحتياطية ناشىء من انه كان من المنتظر ان تحصل مقاومة شديدة من ناحية برج الخزنة الذى كان يوجد به عبد الله باشا نفسه وكنت قد اعتزمت الهجوم من ناحية الخان القريب من البحر ولكن بعض المخبرين من اهل المدينة المحصورة جاءوا الى معسكرى فى الليلتين السابقتين واخبرونى بان اربعة الغام وضعت تحت هذا الخان فعدلت عن نيتى وظهر لى ان تسلق برج « كريم برجو » غير مؤكد النجاح على ان السلالم أسندت الى جدار هذا البرج تحت وابل من القنابل الكروية الصغيرة والرصاص نخسرنا جملة من العساكر ولم نوفق للنجاح وامتاز قائد الاورطة الموكول اليها هذا التسلق بالبسالة النادرة والاقدام العجيب. وفى ثغرة الزاوية لم تطلق عساكرنا النار الا بعد ان اتخذت من هذه

الثغرة مركزا لها . أما باب عكا فان عساكرنا فى ناحيته ما كادوا ينزلون فى الخندق حتى بدأوا باطلاق البنادق وصعدوا الى قمة الثغرة وتبعهم فى الحال عساكر الاورطتين الاولى والثانية من الالاى الخامس وتقدمت جنودنا فى جهة الزاوية حتى بلغت الى الباب الذى بالقرب من قلعة الخزنة الا ان عبد الله باشا خرج من البرج مع جميع رجاله وصدهم الى ما وراء الخندق شاهرا سيفه واخذت قنابل العدو الكروية تساقط عليهم فتراجعوا حتى وصلوا الى بطرية منصوبة على مسافة اربعين خطوة من تلك النقطة فاجتهدت وسيفى مصلت بيدى ومعى اميرالاى الفرقة الخامسة من الفرسان فى اعادتهم الى القتال ولكنهم كانوا كلما دفعتهم امامى تفرقوا يمنة ويسرة ثم انسحبوا من جديد فامرت عندئذ جاويشا كان قريبا منى باخذ العلم من يد حامله والتدفق على الاعداء فعاد الى ليخبرنى بانه ابى ان يسلمه اليه فارسلت جاويشا آخر عاد بمثل ما عاد به زميله من الفشل وفى هذه الاثناء كان حامل العلم قد تقدم الى الامام فاستأنف عساكرنا الحملة بعنف فما هى الا هنيهة حتى بلغوا الى اسفل الذروة التى كان العدو متترسا بها وتلقاهم من اعلاها بقذف الاحجار عليهم ثم اجتازوا الذروة وعادوا الى النقطة التى كانوا قد وصلوا اليها فى المرة الاولى فرفع المحصورون عندئذ علمهم على البرج الصغير الذى بين برج الخزنة وبرج الزاوية وهناك اجتمعوا ثم حملوا من جديد على عساكرنا وصدوهم الى الزاوية فالقى فريق منهم بانفسهم فى الخندق وتراجعوا حتى بلغوا الى حافتها الاخرى أما الباقون فقد صعدوا على الثغرة ووالوا اطلاق البنادق فأخذ الضباط عندئذ — ولم يكن احدهم قد اشترك فى هذه المعركة — يدافعون عن الثغرة وسيوفهم مسلولة بايديهم وكان الفارون قد عادوا فتيسر صد العدو من جديد وجمع المحصورون فى النهاية جموعهم ولموا شعثهم فشتتوا عساكرنا بعد أن ألقوا بثلاثين منهم فى الخندق ولكنهم لم يلبثوا ان صدوا ثانيا لان عساكرنا اوغلوا فى الزحف من

ناحيتهم حتى لم يبق بينهم والبرج سوى مسافة قصيره جدا فأمرت على الفور عمر بك بان يقيم استحكاما ويتفرغ للدفاع عنه فنفذ أمرى طبق المرام . وكان الميرالاى احمد بك قائد الفرقة الخامسة الفرسان ومعه بعض جاويشيتنا قد اعتلى الثغرة وأخذ يشجع العساكر الذين أصلاهم العدو من بنادقه نارا حامية وانقطع اطلاق النار بعد ذلك من الطرفين الى منتصف الساعة السادسة من المساء : وفى هذه الاثناء استدعيت رئيس الالغامين فأمرته باستكشاف نقطة وقع نظرى عليها بالقرب من الباب وخيل لى امكان التسلق منها فعاد بعد بضع دقائق مؤكدا صلوحها للتسلق ففرضت على رئيس احدى أورط الالاى العاشر أداء هذه المهمة برجال اورطته فأطاع الامر ومع انه خسر ثلاثين قتيلا وستين جريحاً فقد حتمت عليه استمرار التسلق فنجح بمهارة فائقة وشجاعة نادرة واستولى بعد ذلك على الخان واتخذ له موقعا فيه وكنت قد جمعت مائة فارس من الالاى الخامس لينقلوا على خيلهم التعساء الذين سقطوا فى الخندق فحدث ان أراد اثنى عشر منهم الظهور بالتفوق والسبق الى الاسوار شاهرين سيوفهم .ويؤخذ من تقرير أحمد بك ان قسما منهم أدرك اورطة الالاى العاشر والقسم الآخر اندفع يجول فى المدينة . وفى هذه الاثناء حضر وفد يلتمس رحمة الظافر وشفقته هذا كل ما حدث بالجهة التى توليت فيها القيادة بنفسى وفيما يلى تقرير ابراهيم باشا (ابن اخ) عن الحوادث التى وقعت فى ثغرات (قبو برجو) حيث كان قائما بالقيادة

***

تقرير صاحب السمو ابراهيم باشا (ابن اخ)

قبيل شروق شمس يوم الاحد صعدت الاورطة الثانية من الالاى الثانى الذى كان يقوده الميرالاى اسماعيل بك فى البرج الذى وقع الهجوم عليه فى الحملة الماضية وصعدت الاورطة الاولى التى كان يقودها احمد بك فى الاسوار التى الى يمين برج (قبو برجو) فبعد ان رفعت

الاورطتان الرايات المصرية على هذا البناء ضويقوا من المحصورين حتى اضطروا الى التقهقر الى نصف ارتفاع الثغرة . وكنت وقتئذ أقدم الى الامام الاورطة الرابعة فاذا بثلاثة ألغام كان العدو قد لغم بها البرج قد انفجرت فتراجع عساكرنا الى بسيط الارض للمرة الثانية وكان صاحب السمو القائد العام يهاجم العدو بعنف من جهة الزاوية لان الاعداء الذين كان مقررا علينا قتالهم انتقل معظمهم الى الجهة المتقدمة فاغتنم الضباط هذه الفرصة لحث العساكر فاندفعوا نحو البرج اندفاعا شديدا فبعد ان استولوا عليه اتجهوا نحو اليمين ثم وصل رجال الهندسة الحربية ومعهم حزم كثيرة من الخشب وفروع الاشجار وسلال اسطوانية ليقيموا بها استحكاما وكان عساكرنا قد غنموا مدفعا من مدافع البرج فاستخدموه فى ضرب داخل الموقع به وبعد ساعة من اقامة الاستحكام حمل العدو ثلاث مرات ولكن على غير جدوى وفى هذه المعركة قتل الميرالاى اسماعيل بك . وقبيل الساعة الخامسة مساء استولت الاورطة الاولى من الالاى العاشر الذى قرر عليه صاحب السمو القائد العام الهجوم على الخان بين برج قبو برجو وبرج الانكليز فطاب المحصورون الامان فأوقف ضرب النار حيث كان أول محرم الحرام ١٢٤٧ الموافق ٣٠ مايو ١٨٣٢

***

وفى ٢٥ محرم الحرام ١٢٤٨ الموافق ٢٣ يونيو ١٨٣٢

فى العاشر من محرم الحرام الموافق ٨ يونيو زايل جيشنا معسكر عكا قاصدا الى دمشق فوصل فى ١٤ منه الى الحناتير وبرحها فى اليوم التالى الى قرية العوادية على مسيرة ساعة ونصف من دمشق فأمضى بها الليلة وقبيل الساعة الثالثة من الصباح استكشف العدو متقدما نحوه فتقدم ثمانمائة من الفرسان نحو ميسرة القرية وتهدد ميمنتها مشاة من سكان المدينة فلما استطلع صاحب السمو ابراهيم باشا حركة الاعداء زحف فرسانه على جناحهم الايسر فى تتبعهم الاورطة الرابعة من

الالاى الثامن المشاة بقيادة أحمد بك وفى الوقت نفسه حملت فرقة الفرسان التى يقودها قوجه أحمد أغا والعربان الراكبون على الجناح الايمن واذ كان فرسان الاعداء لاقبل لهم على هذه الصدمة فقد غادروا ساحة القتال واقتدى المشاة بهم بعد أن تفرقوا كل متفرق على أثر الطلقات الاولى التى اطلقتها احدى الاورط . وقد ايقن على باشا والى دمشق أن لافائدة من المقاومة فابتعد عن المدينة فى اكابر رجال حكومتها ومنهم الشوربجى وشمعدان أغاسى وكيلار أمينى والمفتى نقيب افندى وبلى أغاسى ورشيد أغا وترجمان أغا وقاضى افندى . وقد لاذ الجميع بالفرار من طريق السلانية ومعهم الف وخمسمائة فارس وخمسمائة مجند وكان سكان دمشق قد ملوا المظالم وسئموا المغارم التى حملهم الولاة اعباءها فبادروا بتقديم تحياتهم الى صاحب السمو القائد العام راجين منه القبض على زمام مدينتهم وأن يتفضل بالعفو عنهم فأجابهم الى طلبهم اذ قصد الامير بشير صباح اليوم التالى فى خمسة آلاف رجل من الفرسان والمشاة الى المعسكر العام حيث تلقى الاوامر والتعليمات من القائد العام ثم استأنف الزحف على الموقع بينما أخذ سموه بالزحف عليه من الجهة المقابلة غير أن سموه لم يلبث أن رأى جماعة من الاعيان ومعهم مصطفى أغا الطوبجى باشا مقبلين لتقديم طاعتهم وخضوعهم . وقبل أن يدخل سموه المدينة توجه الى وسط سهل جوش ميدان الذى جعل معسكرا لالايات الفرسان وفرقة الامير بشير وجاء ابراهيم باشا (ابن أخ) بالالاى الثامن من الفرسان والمدفعية فأخذوا مقرهم فى المعسكر أما الاورطة التابعة للالاى الخامس فقد جعل مستقرها بالقلعة

٩ صفر سنة ١٢٤٨ الموافق ٧ يوليو سنة ١٨٣٢

عند بزوغ الشمس تحرك من (قصير) جيشنا المؤلف من ألايين من المشاة واربعة من الفرسان وفرقة من البدو الراكبين قاصدا (ططلى جوكل) حيث قضى الليلة على الضفة الشرقية من بحيرتها . وفى منتصف

الساعة الثالثة وصل الى حمص وكان على اهبة التحرك فى فجر اليوم التالى فاذا بالتشوقدار السابق ابراهيم أغا قائد فرقة مؤلفة من ألفين من العربان وكان معسكرا فى المقدمة قد ظهرت له قوات العدو المحتشدة امام حمص وكانت هذه القوات بقيادة محمود باشا والى حلب وتحت امره ثمانية باشاوات آخرين يمكن تقدير عددها بخمسة وعشرين الف مقاتل فبادر ابراهيم اغا باخبار صاحب السمو ابراهيم باشا بما رآه فبعد ان تحققت لسموه صحة مانقل اليـه قرر اجراء الترتيبات الآتية : وضع الالايين الثانى والرابع أحدهما خلف الآخر عند الجناح الايمن وألاى مشاة الحرس وستة مدافع والالاى الحادى عشر من المشاة فى القلب والالايين الثالث والسابع من الفرسان وكذا فرقة فرسـان البدو فى الجناح الايسر وتقدم العدو على هيئة ثلاثة جيوش فاتجهت فصيلة من البدو الفرسان الملحقين بجيشنا نحوه منقسمة الى كوكبات كل كوكبة يختلف عدد فرسانها من اربعين الى خمسين وبمجرد ان اطلقت مدافعنا تراجع العدو الى الخلف على مسافة فرسخ . أما العدو فـكان قد رتب قواته وهى أربعة الايات من المشاة وثلاثة من الفرسان بحيث ان كل فرقة تنفصل عن الاخرى بمسافة وضع فيهـا مدفعان فأطلق الاى الحرس الملحق بجيشنا مدافعه نحو ساعة و نصف فصدت الايات العدو التى تقدمت على أثر اطلاق القنابل الـكروية والرصاص عليها على ان ألايا منها استمر يطلق الرصاص فتكونت عندئذ الاورطتان الاولى والثانية من الحرس تحت قيادة خورشيد بك على شكل جيشين وتولى سليم بك قيادة الاورطتين الثالثة والرابعة وحمل الجميع على العدو حملة عنيفة حتى ساد الخلل فى صفوفه وتمزقت كل ممزق وقام الالايان الثانى والرابع من الفرسان باتمام هزيمته وكان عدد النظاميين من العدو سبعة آلاف عسكرى تقريبا قتلنا منهم الفين وأسرنا الفين وخمسمائة كان الـكثيرون منهم مثخنين بالجراح أما الباشوات فقد لجأوا الى الفرار كما حصل منهم فى ظروف أخرى وقد اتصل بنا انهم برحوا حمص تحت

جنح الظلام قاصدين الى حماه مع فلول الجيوش وفى صباح اليوم التالى استولينا على خيام العدو وذخائره ومؤنه وعشرين مدفعا ومدفع هاون ومن الاسف ان الهزيمة وقعت حينما جن الليل ولولا ذلك لما استطاع واحد من عساكر جيوشه الموصوفة ظلما بالنظامية الافلات من أيدى عساكرنا الابطال ولتعجل السر عسكر محمد باشا بالهزيمة لم يتمكن من الاستيلاء على اوراقه فقد عثر فى خيمته على كثير من الرسائل والاوراق السرية فسلمت الى سمو القائد العام الذى بعث بها من فوره الى صاحب السمو والده .

وها هى أسماء وألقاب الباشوات الذين كانت لهم القيادة فى الجيش المغلوب بحمص : — محمد باشا والى حلب وسر عسكر . عثمان باشا والى معدان . عثمان باشا والى قيصريه . على باشا والى دمشق سابقاً . عثمان باشا والى طرابلس سابقاً . محمد باشا الكريدلى . نجيب باشا . محمد باشا . دلاور باشا . وهؤلاء القوات التسعة باشاوات بثلاثة أذناب وكان معهم كثيرون من الباشاوات بذنبين

***

خلاصة من تقرير صاحب السمو القائد العام ابراهيم باشا

لم ار فى حياتى هزيمة كهزيمة العدو . فأنى لا أغالى اذا قلت انه لو زحف على مئتا الف أو ثلاثمائة الف من عساكره لما نبض لى بسببهم نبض أو اكترثت بهم ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا وقد أرسلنا الاسرى الى عكا وامرنا ديوان افندى بأن يقبل فى التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب فى العودة الى وطنه اليه فى مصر او غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جوادا

***

١٢ صفر سنة ١٢٤٨ الموافق ١٠ يوليو سنة ١٨٣٢

خرج الجيش من حمص فى ٢١ صفر الساعة ٤ صباحا فقصد اولا

الى قرية (رستان) القريبة من نهر العاصى حيث وقف حتى المساء ثم قضى الليل على الضفة الاخرى من هذا النهر وقد عثرنا فى الطريق بستة مدافع من الاثنى عشر التى استطاع العدو استنقاذها فى اثناء الهزيمة . وفى يوم واقعة حمص استولى الذعر على العدو فاستمر فى هزيمته من غير ان يعرج على حماه وقد اغتنمت قبائل عنيزه فرصة تشتته فتعقبت الفارين وقتلت منهم جملة وسلبت الباقين ما كان معهم . وفى ١٢ صفر (١٠ يوليو) برح سمو ابراهيم باشا القائد العام المعسكر فى الساعة الثانية من الصباح فى بعض من الآيات الفرسان فبعد مسيرة ساعتين استولى على حماه ووصلت اليها آلايات المشاة بعد وصوله بساعتين وقد استولينا بالقرب من حماه على خمسة من المدافع التى بقيت للعدو وأخذنا خيامه وذخائره . وبعد أن خسر ابا شاوات الهاربون جميع مدافعهم اجتمعوا فى قصر (مديك) وعلمنا أن المشير حسين باشا وصل انطاكية وصدر الامر الى ديوان افندى بان يرسل حالا من عكا قائمقام الطوبجية فى ٣٠٠ من رجاله وجماعة من النجارين والحدادين وكافة خيول ودواب النقل والجر الموجودة بها للقيام على خدمة المدافع المأخوذة من العدو . واليوم يقصد جيشنا الظافر الى مدينة حلب

كشف مضبوط ومراجع بعدد الجيوش النظامية التى هزمها جيشنا فى واقعة حمص

الالاى الرابع من المشاة مؤلف من	٢١٠٠	جندى
« السابع « «	١٨٨٤	«
« الحادى عشر « «	٢٥٨٧	«
« الخامس عشر « «	٢١٠٠	«
آلاى الفرسان بقيادة عصمت بك	٥٠٠	فارس
« « « محمد على بك	٥٠٠	«
فرقة كريدلى اوغلو	٨٠٠	مقاتل
المجموع	١٠٤٧١	

١٨ صفر سنة ١٢٤٨ الموافق ١٦ يوليو سنة ١٨٣٢

فى ١٤ صفر (١٢ يوليو) ارتحل جيشنا من المحروق قاصدا (مرى) على تسعة فراسخ فلما لم يجد فى الطريق كفايته من الماء وقف عند عين ماء تبعد بفرسخين عن مرى فاراد صاحب السمو ابراهيم باشا ان يشهد بنفسه توزيع الماء وفى الساعة الاولى بعد الظهر نصب الجيش مخيمه فى حدائق مرى حيث قضى الليل وفيها تلقينا خبرا مؤداه ان المشير حسين باشا كان فى ليلة معركة حمص قد برح انطاكيا قاصدا (قنطرة شجر) وأنه لما وقف فى اليوم التالى لوصوله اليها على نتيجة المعركة من الباشوات الفارين انصرف قاصدا حلب. وفى الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم ١٥ صفر (١٣ يوليو) استأنف الجيش الزحف قاصدا (تل السلطان) على مسيرة ثمانى ساعات من مرى ولقلة الماء اذ كان لا يوجد الا على مسافات سحيقة ولشدة الحرارة فى النهار قرر سمو القائد العام السرى فى الليل. ونمى الينا ونحن فى مرى ان اتجه بيرقدار أوغلو خالد باشا ذهب الى حسين باشا بجيشه المؤلف من ألفى فارس اى القوة التى بقيت بعد معركة حمص فنقم عليه الباشا هذا المسلك وجرده هو ومن كانوا معه بواسطة عساكره. وفر المسكين مع رجل من خاصته ولم يعلم اين اختفى. واتصل بنا أيضا انه لم يبق فى جيش العدو عسكرى نظامى واحد لان فريقا من النظاميين قتلوا فى المعارك الاخيرة وتشتت الفريق الآخر بالرغم من صرامة العقوبة التى وقعها حسين باشا على من وقعوا منهم فى قبضته زجرا لغيره وحملا لهم على اداء الواجب. ونقل الينا ايضا انه لم يبق تحت قيادة حسين باشا سوى آلايين من البستانجية وآلاى ثالث ألفه خسرو باشا وكان فى نيته التراجع الى حلب مع هذه القوات الا ان سكان هذه المدينة أبوا استقباله. وفى ١٧ صفر (١٥ يوليو) تحرك الجيش بعد نصف الليل من تل السلطان فحط رحاله على ضفاف النهير الذى يجرى بالقرب من (الزيتون) وفى الساعة الاولى بعد الزوال جاء عرباننا الفرسان الى

سمو القائد العام ببعض من عساكر الاعداء النظاميين فعلم منهم ان المشير حسين باشا كان قد وصل فى الليلة السابقة الى حلب وبصحبته والى هذه المدينة السابق والباشاوات الهاربون وانه طلب من الحكمة موافاته بالمؤن والجنود فأخبره الاهالى بعجزهم عن اسعافه ومعاونته. فحينما أيقن بضياع أمله فى صده لنا ولى الادبار فى الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه تاركا خيامه ومؤونته وذخائره الحربية وستة عشر مدفعاً فاستولينا على هذه الغنائم كلها ويقال ان المشير أخذ سمته الى عينتاب واكد كثيرون من عرباننا الفرسان الذين أوغلوا فى البلاد حتى بلغوا الى اسوار حلب فرار العدو فقصد سمو القائد العام من فوره الى حلب ومعه ياورانه وامر عباس باشا بتعقبه فى آلايات الفرسان وستة مدافع . وفى منتصف الساعة الخامسة مساء وصل الى هذه المدينة ودخلها وكان قد اتصل ببعض اعيان أهلها نبأ بدنو سموه منها فخرجوا للقائه وقدموا اليه فروض التحية والتبريك ووافاه القاضى والمفتى وعظماء المدينة بطاعتهم ودعوا ببقائه . وفى ١٨ صفر (١٦ يوليو)عين سمو القائد العام ابراهيم آغا سياح زاده واليا على حلب . وقبل الساعة التاسعة من صبيحة ذلك اليوم وصل ابراهيم باشا (ابن اخ) فى آلايات المشاة وآلاى المدفعية وجميع مهمات الجيش وأدواته واليوم جىء الى المعسكر بخمسمائة أسير من العساكر النظاميين فى حالة يرثى لها فوافيناهم بما تقضى الانسانية به من المساعدة والاسعاف

***

٧ ربيع اول سنة ١٢٤٨ هجرية الموافق اول اغسطس سنة ١٨٣٢

فى الساعة الثانية بعد نصف الليل من يوم ٢ ربيع الاول (٢٩ يوليو) زايل جيشنا قنطرة مراد باشا ففى الساعة العاشرة قبل الظهر وصل الى نقطة تبعد بخمسة فراسخ عن مضيق (بيلان بوغازى) واتصل بنا هناك ان المشير حسين باشا ومحمد باشا والى حلب سابقا وبعض الذوات والعظماء عسكروا فيما يلى المضيق بمن بقى معهم من

الجنود النظامية وغير النظامية وانهم نصبوا المدافع والبطاريات على الروابى والمرتفعات وايدت الطلائع صحة هذه الاخبار فامر سمو القائد الفريق حسن بك بالتقدم فى الالاى الثالث عشر من المشاة والالاى الخامس من الفرسان واربعة مدافع من الطريق الايمن وسار هو فى الطريق الايسر فى الالايين الثامن عشر والثامن والاى الحرس واثنى عشر مدفعا ووضعت ألايات الفرسان الباقية فى مواقع مختلفة حول حلوق الجبال ومنافذها فلما أبصر العدو بهذين الجيشين يزحفان عليه بدأ باطلاق مدافعه وكانت لارتكازها على قمم الممرات تحكم الطريقين فاجابتها مدافعنا بنار حامية اضطرتهم الى فك مدافعهم الا مدفعا منها استمر على اطلاق مقذوفاته وبينا كان الجناح الايسر للعدو تصليه مدافعنا نارا شديدة كان الالاى الثامن والاى الحرس يتقدمان الى الامام فبلغ عساكرهما الابطال بوثبة واحدة الى الروابى التى الى ميسرة العدو فهجموا عليه بعنف وبسالة فلم يسعه الا التنحى عن مواقعه تاركا ما معه من الذخائر والمهمات ولاذ بالفرار عند غروب الشمس فى اتجاه (آطنه) فقضى جيشنا الليلة فى ساحة القتال وفى صباح ٣ ربيع الاول (٣٠ يوليو) ارسلت الايات الفرسان كلها لاقتفاء أثر الهاربين وتوجهت بعثة الجيش الى بيلان لتعسكر بها وانضم عارف بك قائد الالاى العاشر من العدو الى صفوفنا فعينه سمو القائد العام قائدا للالاى العشرين من مشاتنا . ويؤخذ من شهادة عارف بك ان ألايه كان حينما تحرك من قونيا مؤلفا من ٣٢٦٨ رجلا فنقص الى ١٨٨٨ بسبب فتك الامراض والقتل والتشرد . وقبل فرار عايش باشا من اللاذقية جاء ستون فارسا وستمائة راجل من فرقته الى الاسكندرونه ليضعوا انفسهم تحت امر قائدنا العام الذى اطلق حريتهم وترك الخيار لهم فى العودة الى اوطانهم او الى مصر او فى البقاء بهذا البلد وامر حفظه الله بتجهيزهم بما يلزم لسفرهم ومما نقله هؤلاء الفارون ان عايش باشا بعد ان ارسل حريمه الى جزيرة قبرص على امل اللقاء به فى الاسكندرونه استأجر سفينة اوروبية للذهاب فيها الى صاحب

السمو ابراهيم باشاومعه ستة من المدافع . وقداخذت آلايات الفرسان التى كلفت بتعقب الباشاوات الفارين بمناوشتهم حتى بلغوا الى ابواب آطنه فعادت من هناك ومعها ١٩٠٠ اسير . وفى ٥ ربيع الاول الموافق اول اغسطس قدم اعيان (انطاكيا) فروض الطاعة الى قائدنا وعين خليل بك اخو مصطفى باشا واليا على (بيلان) ومر والى حلب بمدينة عينتاب راكضا على جواده ووقعت مدفعيته فى قبضتنا . وقد علمنا ان هذا الباشا موجود الآن ببلدة (ملطية) فى عددقليل من العساكر وبلغت خسارة العدو فى مضيق بيلان ٣٧ مدفعاً استولينا عليها جميعا وفى ٦ ربيع الاول الموافق ٢ اغسطس كتب ايوب بك اسكيان باشا من قبيلة مللو بمركز (أورفا) كتبا الى صاحب السمو ابراهيم باشا يقدم فيها فروض الطاعة وواجب التهانى والتبريكات فتفضل سموه بابقائه فى وظيفة اسكيان باشا . وخلاصة القول فقد غنمنا فى الوقائع التى نشبت بيننا والعدو ٨٠ مدفعا ومدفع هاون وكمية كبيرة من الذخائر المختلفه وتجاوز عدد القتلى والاسرى من عساكره ١٣٠٠٠ ولا بد ان يكون عدد الهاربين جسيما فقد اخبرنا عارف بك ان جيش العدو كان عدده تحت اسوار حمص ٣٦٠٠٠ من النظاميين فلم يبق منه تحت اوامر حسين باشا سوى ٥٠٠٠ تقريبا وبلغت خسارتنا فى معركة بيلان ٢٠ رجلا بين قتيل وجريح

* * *

صورة كتاب حرره الى صاحب السمو ابراهيم باشا حضرة السيد محمد افندى مفتى بيلان واحمد افندى والحاج اسماعيل اغا اخو محمد باشا البيلانلى :

نتشرف بان نرفع الى عتبات سموكم عبارات الاحترام والاجلال . وان السرور الذى بثه فى نفوسنا نبأ قدومكم الينا لسرور شامل وعظيم الى درجة انستنا تقريبا ماتكبدته مدينتنا من الآلام والاوجاع اثناء وجود عساكر العدو فيها فان هؤلاء العساكر الذين اعتادوا

التهور والافراط فى شهواتهم لم يحترموا شيئا من دورنا وحقولنا واموالنا فذهب كل ما احتوته نهبا لهم . ولقد لجأنا الى الجبال لنأمن فيها على نفوسنا وهناك رفعنا اصواتنا بالدعاء الى رب السموات ان يؤيدكم بالنصر المبين ويكلل بالنجاح اعمالكم التى ترمون بها الى انقاذ وطننا التعس . وليسمح لنا سمو مولانا الامير بالحضور بانفسنا لنجدد امامه عبارات هذا الولاء وهذا الشكر اللذين يترددان فى افئدتنا منذ زمن طويل

* * *

كتاب من خليل بك والى بيلان ومصطفى باشا أخيه :

ياصاحب السمو ! مضى علينا عشرون عاما كان يخالجنا فيها الشوق الى الانتظام فى خدمة سمو والى مصر وكنا لانكف عن الجهر بأمانينا نحو سعادة هذه الاسرة الكريمة ومجدها ولقد ظهر سرورنا فى ابهى مجاليه واوسع معانيه حينما علمنا بوصول سموكم الى بلادنا التعسة التى انقذت من الظلمة القساة والله وحده يتولى جزاءكم على هذا العمل الجليل الصادر عن كرم النفس وعلو الهمة . ولقد بذلنا كل مافى وسعنا لتنفيذ ماورد الينا من أوامركم فاذا لم نستطع ان نقدم قبل الآن الى سموكم بالذات ماهوواجب لكم من الاحترام والاعظام فماذلك الا لان الظالمين المستبدين كانوا قد قبضوا عليناثم أحاطونا بسياج المراقبة الشديدة فأجلنا الى اليوم تلك الساعة التى كنا ننتظرها بذاهب الصبر . وفى ذلك اليوم تشرف أولئك الذوات ومعهم محمد بك وأخوه مصطفى بك بن كرد بك والحاج احمد بك وشقيقه حاج بك واسماعيل بك بن عبد الرحمن باشا بالمثول بين يدى سمو القائد العام الذى لقيهم بمظاهر البشر والايناس

* * *

تقرير الفريق حجازى سليم بك وشوقدار ابراهيم أغا وقد أرسلهما سمو القائد العام الى اولو قشلاق

فى ٢٢ جمادى الاول سنة ١٢٤٨ الموافق ١٦ اكتوبر ١٨٣٢ عند بزوغ الشمس زايلنا جهة (بوزانتى) يسبقنا خيالة احمد بك ملمنجى زاده ويتبع هؤلاء فى المؤخرة العربان الراكبون . وكان المضيق الذى تقرر علينا النفوذ منه ضيقا جدا فوقفنا عند جهة (تخته كوبرو) مدة قصيرة كان ٥٠٠ الى ٦٠٠ من عساكر العدو الكشافة قد رأونا فى خلالها فعجلوا الاوبة لاخطار قائدهم بذلك وكان العدو قد حصن (شفته خان) من كل ناحية فتركنا الحاميات الكافية فى (تخته كوبرو) والنقط الاكثر تعرضا لضربات العدو ثم زحفنا عليه بالترتيب السابق وكان متحصنا فى حلوق الجبل فنزل منهم الى الوادى اكثر من الف فارس اصطفوا تجاهنا ووقف ٥٩٠ آخرون فى مصاف القتال ومعهم المشاة فوق شفته خان وارتكز فيلق آخر على طول الجبل الممتد أمامنا فلبثنا نصف ساعة نرقب حركات العدو واهتممنا من ناحيتنا بالتأهب لمقابلته فبدأت المعركة باطلاق نار البنادق وكان قواد العدو وهم صادق باشا وملمنجى أوغلو وعبيد بك يخترقون صفوف العساكر الموزعين على الاستحكامات والسيوف مسلولة فى أيديهم لتأييد النظام . وبعد عشر دقائق زحف ابراهيم آغا الشوقدار السابق فى مشاته الذين كانوا تجاه فيلق مشاتنا على استحكامات العدو تتبعه فصيلة من الفرسان وتقدم سليم بك من القلب فى فرسان البدو قاصدا خيمة عليش باشا فانضم دلاتنا فى الحال الى ابراهيم أغا واشتبك الفريقان فى معركة بلغ من شدتها ان تراجع العدو عن استحكاماته وكان صادق باشا وعبيد بك أول من لجأوا الى الفرار وبلغت خسارتهما ٥٠٠ قتيل و ٣٠٠ أسير واقتفى أثر صادق باشا على مسافة ١٢ فرسخا من شفته خان وابلغ بعض الهاربين الى الباشوات الذين فى اولو قشلاق خبر الهزيمة وكان تحت قيادتهم اكثر من الف فارس فهموا بالهجوم علينا ولكن فرساننا العربان انبروا لهم يعززهم فرسان آخرون ووصل فى الاثناء كل من سليم بك وابراهيم أغا الاول فى ٧٠ رجلا والثانى فى ٨٠

فحملوا جميعا على العدو وما زالوا به حتى هزموه ثم طاردوه اكثر من ساعة وعادوا فى الغروب الى أولو قشلاق . وطبقا لاوامر سمو القائد العام قصدنا الى ايركلى (هرقلة) بعد ان قضينا فى الراحة يوما بجهة اولو قشلاق وفى الطريق تلقى سليم بك رسائل الاحترام والتهنئة من المفتى والاعيان وعامة الاهالى

ملحوظات

كان سمو القائد العام قد اعتزم الوقوف دون اسوار حلب وانتظار قرار الباب العالى فى وقف الحرب ولكن العدوكان أبعد من أن يفكر فى سلوك هذا المسلك فقد كان يذهب تارة الى مضيق (كلك) ويحتشد أخرى بالقرب من (عيذاب) وأولو قشلاق ناشرا فى كل مكان اخبار السوء . وسئم سكان هذين البلدين المظالم والمغارم التى كان العدو لايزال يفرضها عليهم فالتمسوا من القائد العام اسعافهم بمساعدته وكانت عرائضهم اليه فى هذا الموضوع ممضاة من رجال الدين والقضاة والاعيان . وكان سكان اطنة بنوع خاص يلحون عليه بالحضور لنجدتهم وتوسلوا اليه أن ينفذ اليهم سمو عباس باشا بالنيابة عنه اذا لم يستطع المجىء بنفسه وتواترت الرسائل اليه فى هذا المعنى وفيما يقع من الحوادث فاضطر الى الزحف فوصل الى آطنة . أما العدو فلاصراره على نياته الشريرة جد فى انشاء الاستحكامات للدفاع عن مضيق كلك وحشد القوات العسكرية فى أولو قشلاق فأنفذ القائد العام فصيلة لم تلبث ان استولت على هذا المضيق . وعهد بحراسته الى قبائل آطنة حتى لايدع له وسيلة يتذرع بها لاطالة الحرب . على ان العدو كان لايزال ، بما يعده من التجهيزات الحربية ، من بواعث القلق فانه حصن شفته خان وتأهب لتحصين أولو قشلاق وأخذ بتأليف جيش جديد . وكان احمد بك أحد زعماء (ايتشل) قد قتله عساكر العدو فى داره وتروع الناس فى كل مكان مر اولئك العساكر به أو اقاموا فيه فوردت على سمو القائد العام من الاهلين التماسات عديدة ضرعوا فيها

اليه ان يخلصهم من ظلمهم فكانت الاغراض التى ترمى اليها حملة أولو قشلاق منحصرة فى اعادة النظام والامن الى هذه البلاد التعسة والقضاء على المشروعات التي شرع العدو بتنفيذها .

***

٢٩ رجب سنة ١٢٤٨ الموافق ٢١ دسمبر سنة ١٨٣٢

دخلنا مدينة قونيا ظافرين يوم ٢٤ رجب الموافق ١٧ دسمبر . ولما تبين لنا فى اليوم التالى ان احد فصائل جنودنا بقرية (سيلة) الواقعة على مسيرة ساعة ونصف فيما يلى قونيا قد اشتبكت فى معركة مع العدو بادر سمو القائد العام بالذهاب الى هذه القرية فى الالايين الثالث والرابع من الفرسان والالاى الثانى عشر من المشاة وكان الضباب كثيفا فلم يسمح بلقاء الاتراك ولم يشتبك بهم الا بعد مسيرة ساعة فى الجبال . وما كادت هذه الجنود الحديثة تقف فى مصاف القتال حتى شعر الاعداء بعجزهم عن تلقى الصدمة فتواروا عن الانظار تاركين ستة من مدافعهم وثمانية من اعلامهم وعددا كبيراً من القتلى وقد اسر ألفان من الارنؤود وتفرق الباقون . ولما جن الليل تعذرت مطاردة العدو الى مسافة بعيدة فعاد القائد العام الى سيله راضيا بما حصل عليه من الفوز . ويؤخذ من اقوال الاسرى ان جيش العدو كان مؤلفاً من ١٤٠٠٠ من الالبانيين والفيكا والتوسكا بقيادة وافى باشا سلحدار الصدر الاعظم وآخر . وقد ارسلت المدافع الستة بمهماتها الى سيله ومنح الاسرى الالبانيون شرف الاندراج فى سلك جنودنا غير النظاميين . وفى فجر ٢٧ رجب الموافق ١٩ دسمبر اتصل بالقائد العام ان فى نية الصدر الاعظم الاتجاه صوب (دكسلوخان) فسار يتبعه الالايات الاول والثانى والرابع من الفرسان وألاى الحرس وثمانية عشر مدفعا متجها صوب تلك الجهة ولم ينتظر الفرسان الطلقة الثانية من المدفع حتى طلب مائة وخمسون منهم وهم الذين كانوا يحرسون القصر مع سلحدار كريدلى أوغلو محمد باشا الامان فاعطى لهم .

وقد غنمنا ماجمعوه من المؤن الكثيرة برسم هذا الزحف وكان احمد باشا مستشار السلطان بين المدافعين عن الموقع فنجا بنفسه اما لانه لم يعرفه أحد واما لان تراكم الثلوج حال دون تعقبه . وفى ٢٩ رجب الموافق ٢١ دسمبر حشد الصدر الاعظم جميع قواته وتقدم بها لمداهمة المعسكر فبعد قتال عنيف ظل ساعة ونصفا انهزمت عساكره ووقع هو فى الاسر وأرسل الى قونيا بحراسة قاعقام فرقة الفرسان الرابعة وفيها أسكن قصر القائد العام بعد ان قوبل بمظاهر الاجلال اللائقة برتبته. ويؤخذ من اقواله ان جيشه كان مؤلفا من ست اورط من المشاة ومثلها من الفرسان بينا قوات القائد العام لم تتجاوز شطرا صغيرا من جيشه القديم اى خمسة الايات من انفرسان لان المجندين من مصر كانوا لم يصلوا بعد الى ساحة القتال وقد بلغت خسائرنا ٥٣٠ جريحا و ٢٦٢ قتيلا وأسرنا ألآيا باكمله من الجنود النظامية . وكان ٧٠٠٠ ألبانى وبوسنوى قد شردوا من الجيش العثمانى للانضمام الى جيش القائد العام فألحقوا بالشراذم غير النظامية التى يقودها محمد بك الذى قضت الضرورة بارتحاله الى (قيصرية) ولم يصل الينا عدد القتلى. والمحقق انه بالغ جداً

***

خلاصة تقارير ابراهيم باشا عن واقعة نصيبين

كان الجيشان يوم ٢٠ مايو فى مصافهما بمركز عينتاب على مقربة من بعضهما وكانت الجنود العثمانية تحتل مدينة عينتاب بقيادة سليمان باشا والى مرعش وكان جواسيس حافظ باشا وأعوانه لايزالون يحرضون الاهالى على الثورة والعصيان كما كانت فصائل جيشه لاتكف عن اتيان الاعمال العدائية فكان الجيشان والحالة هذه فى حالة حرب . فقرر ابراهيم باشا عملا بتعليمات والده المطابقة لآراء قناصل الدول العظمى الاربع الذين رأى الوالى وجوب استفتائهم مقابلة القوة بالقوة وكان مما أوجب استياءه وتذمره لما فيه من مخالفة مزاجه وفطرته الوقوف

زمنا طويلا بلا عمل تجاه ما يبديه العدو من الاعتداء والتبجح ففى ٢٢ يونيو زايل القائد العام مقر القيادة العامة فى (توزل) تصحبه فصيلة فرسان وبضع بطاريات خفيفة واربع أورط مشاة لمداهمة معسكر العدو بالقرب من (مزار) على نهر الفرات فبمجرد وصوله الى هذا المكان حمل الفرسان على الاعداء وألزموهم الفرار فغنم ابراهيم باشا اربعة عشر مدفعا وخزنة تحتوى ٥٠٠٠٠ قرش وأسر ٨٠٠ نفس ثم التقى فيما بين (مزار) و (ونسبى) بفرقة من العثمانيين فاضطرها الى التراجع نحو فيلق حافظ باشا الذى جعل مقر قيادته بالقرب من نسبى .

واذ رأى القائد العام ان هذه الحركة تضمن له خط الرجعة فقد قرر الاشتباك مع العدو فى معركة حاسمة . وفى صبيحة ٢٤ يونيو رتب جيشه فى مصاف القتال تجاه الجيش العثمانى بضواحى قرية نصيبين بالاراضى التابعة للشام على مسافة بضع فراسخ من الفرات . وكان ابراهيم باشا مشرفا على جميع الحركات وكان جيشه مؤلفا من ٣٠٠٠٠ جندي نظامى و ١٤٠٠٠ غير نظامى بينما كان جيش العدو مؤلفا من ٩٠٠٠٠ جندي نظامى وغير نظامى . وقد اخطأ الاتراك خطأ بالغا لانهم لم يرسلوا غير الفرسان فى الصدمة الاولى لان هؤلاء الجنود قصروا همهم على مهاجمة المصريين فى كل مكان فلم تلبث طلقات البنادق ان فرقتهم واضطرتهم الى الانثناء نحو المشاة فاوقعوا الخلل فى صفوفهم وأدرك الفرسان المصريون ذلك فقاموا بمناورة وتحرك الجناح الايمن من الجيش المصري حركة افضت الى انكسار العدو على وجه لم يسع الصف الاول من مشاته معه الا ان يلقوا بسلاحهم ويتفرقوا فى جميع الانحاء . ونال الهلع من أفئدة بقية العسكر فلم يكن يطرق الآذان سوى صيحات التنادى بطلب النجاة لمن قدر عليها . وقد ترك العثمانيون فى هذا الفشل كل مهماتهم من المدافع والبنادق والخيام وصناديق الذخيرة والمؤن وكل شىء ولم تأت الساعة التاسعة حتى صار ابراهيم باشا متحكما فى المعسكر العثمانى وصاحب التصرف فيه . وقد عثر فى خيمة حافظ باشا

على الفرمان الوارد اليه من السلطان بتقليده ولاية مصر . واقتفى فرسان ابراهيم باشا أثر الهاربين فأسروا اوردا بأكملها وعادوا بها الى المعسكر وسلم كثير من الضباط وسبعة باشوات بأنفسهم والمظنون ان لا يفلت حافظ باشا نفسه من الفرسان المصريين وقد أسر فى ساحة القتال ٥٠٠٠ رجل من بينهم سليمان باشا والى مرعش وجيش برمته . وقد خيرهم سمو ابراهيم بين الانتظام فى سلك جيشه والعودة الى اوطانهم فقبل ٥٠٠٠ منهم أول الاقتراحين فسيروا فى الحال الى الاسكندرية واتجه قسم من الجيش العثمانى صوب الفرات وكان قد فات حافظ باشا أن يعد القناطر على هذا النهر فنشأ عن غفلته ان ١٢٠٠٠ جندى ماتوا فيه غرقا اثناء عبورهم اياه سباحة واعتصم القسم الاكبر منه بجبال عينتاب فقتلهم العربان والاكراد والتركمان وتقدم الجيش المصرى عقب ذلك نحو مرعش وملطية وديار بكر

***

خلاصة تقارير ابراهيم باشا فى ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ مايو سنة ١٨٣٩

احتل جنود حافظ باشا فى مركز أورون (أورور) بولاية عينتاب ١٤ قرية ووزع على الاهلين الاسلحة والذخائر وجمع اليه كبارهم ففرق عليهم قفاطين الشرف . وكان العدو قد أسر ثلاثة من فرسان البدو فلما جيء بهم الى حافظ باشا طلب الذين أسروهم منه المكافأة الموعودة فأمر بعض جنوده باطلاق النار على العساكر المصريين أينما وجدوا وأخذهم أسرى . وفى بلدة (بربى) اطلقت المدافع تحية لحافظ باشا واذيعت الاخبار بأن ابراهيم باشا عاجز عن الزحف وانه سينقلب على عقبيه الى القاهرة وان والى (موش) قد انضم بنصف جنوده الى الجيش العثمانى وان أحد القواد العثمانيين سيصل قريبا فى جيش مؤلف من أحد عشر ألايا وانه متى تم انضمامه الى جيش حافظ باشا باشر زحف الجيشان معا ومعهما ١٤٠ مدفعا على مدينة عينتاب وألقى فى أفئدة الاهالى الروع باذاعة خبر مؤداه ان حافظ باشا سيرمى رقاب الرجال والاطفال والنساء من

قرابة أي كان يتراخى فى تنفيذ أوامره واستفزت فرقة من الفرسان العثمانيين ببلدة (أورن) وجيء برئيس الناحية الى حافظ باشا فأهداه ساعة ذهب . فلما عاد الرجل الى قريته جمع اليه الكبار والاعيان وحضهم على مقاومة الجنود المصرية ثم حشد رجال خمس نواح أخرى وجهزهم بالاسلحة بعد ان وردت اليه من حافظ باشا الذخائر اللازمة لذلك

***

تقرير ابراهيم باشا عن الوقائع من أول يونيو سنة ١٨٣٩ الى ٨ منه من القيادة العامة فى توزل بالقرب من عينتاب يوم ٢٧ جمادى الثانية الموافق ٨ يونيو

نمى الى أول امس ان سليمان باشا استولى خلال زحفه من مرعش فى جيش مؤلف من ٦٠٠ فارس على مدينة عينتاب . وكانت أورطة من جيشنا محتلة القلعة فارسلت ٦٠٠ من الفرسان غير النظاميين الى هذه المدينة فخرج الفرسان العثمانيون لصدها فبعد قتال دام بضع ساعات انقلب العدو الى المدينة وعاد فرساننا الى توزل . وبالامس تلقيت خبرا مفاده ان المدافع أطلقت على مراكزنا الامامية فبادرت بالزحف فى قوة من الفرسان ومعى اربع بطاريات من المدافع فلم تكن الا هنيهة حتى وقع بصرى على جمع من الفرسان العثمانيين النظاميين فما تظاهرت بالميل الى مهاجمتهم حتى عجلوا بالانسحاب وقد اختل نظامهم وانفرط عقدهم وأكد لى الاسرى منهم ان حافظ باشا كان يقود الفرسان . وقد اعدت المعدات وتمت التجهيزات للاستيلاء على عينتاب ولا تزال حامية القلعة تطلق النار على العثمانيين . وسيكون الهجوم على ناحيتين معا بالجيشين اللذين يقود احدهما سليمان باشا وأقود انا ثانيهما وقد نزع النصارى فى أحد الجبال القريبة من الاسكندرونة الى الثورة وتسلحوا لهذا الغرض ولكن ٧٠٠٠ من جنودنا صعدوا فى ذلك الجبل فنكلوا بالثائرين جزاء فعلتهم وصدر منشور الى أهل سوريا ينذرهم بمثل هذه العقوبة اذا جنحوا الى الثورة

رسالة من ابراهيم باشا عن واقعة نصيبين

أكتب هذه الاسطر تحت خيمة حافظ باشا التى لم ينقل العدو شيئا مما كانت تحتويه وقد استولينا على الامتعة والمهمات والمدافع والخزانة وأسرنا عدداً عظيما من العساكر وانى اود ان اقتفى اثر الاعداء ولكننى لا أجد منهم احدا وكان تفرق الجيش العثمانى اشتاتا وفراره بسرعة لم تستطع معها ادراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . وكان هجومنا عليه من جميع النقط معاً وكان احمد باشا على قيادة ميمنتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . اما القلب فكنت اتولى قيادته وكانت نار مدفعيتنا حامية جداً وقد أعاد هذا الفوز السريع الى ما كنت عليه فى سن العشرين من النشاط والانشراح والقوة وسنوافيكم بالتفصيل قريبا

***

رواية واقعة نصيبين باسان سليمان باشا (سيف)

فى ١٨ يونيو خرجنا من معسكر (دويبك) فوصلنا بعد يومين الى قرية (مزار) الواقعة على بعـد ساعتين تقريبا من الجيش العثمانى المعسكر فى (نصيبين) وكان زحفنا مواجهة على خمس صفوف متطاولة من المشاة وصفين من الفرسان . وفى ٢١ قمنا باستكشاف موقعه فى ١٥٠٠ فارس من البدو واربعـة ألايات من الفرسان وبطريتين من المدافع الراكبة . وبينا كانت الجنود الخفيفة تناوش العدو ومدفعيتنا تبادل مدفعيته بعض الطلقات تأكد لنا أن موقعه كان من المناعة بحيث لايمكن الهجوم عليه مواجهة ولامجانبة . وكانت واجهته تحميها من الخلف آكام محصنة متوجة القمم بالمدافع وامامها ثلاثة معاقل كبيرة . وكانت ميمنته تستند الى ربوة عالية تحتوى معقلا وضعت فيه أورطة من المشاة وأسفل هذا المعقل بطرية مدافع لحماية الطرف الأقصى من الميمنة والاورطة الموجودة فى المعقـل ، كما كان جناحه الايسر يستند الى معقل مشـيد على ربوة فى اسـتدارة الثدى وعرة

المنحدرات . فكان الهجوم على الواجهة والجناحين فى هذه الحالة أمراً شاقاً ومحفوفاً بالمصاعب وكان لا بد معه من خسارة الكثير من الجند بدون نتيجة يحسن الوقوف عليها . ولهذا قد اقترح فى الحال القيام بحركة التفاف بالعدو من ميسرته وبالزحف عليه زحفا جانبيا

وعلى هذا عدنا الى المعسكر وفى الليل جهزت المعدات وأخذت الأهبة . فلما كان بزوغ شمس يوم ٢٢ يونيو رفع الجيش المعسكر وتحرك زاحفا زحفا جانبيا بصفوف متطاولة وفى مقدمته الميمنة فبعد مسيرة عشر ساعات وصلنا الى قنطرة (هركون) وقبل الوصول اليها بعد الظهر كان الأتراك قد أرسلوا بعض الاورط والمدفعية نحو الجانب الايسر من زحفنا الجانبى . فاحتللنا فى الآونة نفسها ربوة مستديرة ثديية الشكل كانت الى يمين صفوف جيوشنا فثبتنا فيها اقدامنا ببطريتين من مدافعنا وألايين من مشاتنا كانت كل اورطة من اورطهما صفا واحدا متكاتفا ومنثنيا على القلب بشكل صفين مضاعفين وارسل ألاى من المشاة وآخر من الفرسان الى ميسرة الزحف الجانبى فاتخذا لهما مستقرا على اتجاه جانبى الفيلق التركى فلم يسع هذا الفيلق ازاء هذه الترتيبات الا الانسحاب فاستأنف الجيش المصرى السير فى طريقه بسكون واطمئنان حتى بلغ الى قنطرة هركون على الضفة اليسرى من النهير وأخذ هناك مركزه

وانقضى يوم ٢٣ يونيو فى تجهيز السلاح للقتال وعرض المدفعية والمشاة والفرسان وقبيل نصف الليل من ليلة ٢٤ يونيو جاء العدو ببطريتين من مدافع القنابل المستطيلة ومعهما بعض المشاة والفرسان وسار بهذه القوة فى اتجاه ميسرتنا ثم القى فى معسكرنا من ٢٥٠ الى ٣٠٠ قذيفة فوقع فيه شىء من الهرج والاختلال وجرح جواد المير ألاى محمد بك أحد ياوران سليمان باشا بشظية قذيفة منها . وقبل ثلاثة ايام قتل جواد من تحته أثناء قيامه بالاستطلاع . وقتل سبعة او ثمانية من عساكرنا وجرح ثلاثون . والظاهر ان العدو تمكن

من أخذ قياس اتجاه خيمة سليمان باشا خصها بنصيب واف من مقذوفاته وفى الآن نفسه انتقل سليمان باشا الى النقط الامامية فلم تلبث نار العدو ان اسكتها الضرب المستمر من مدافعنا التى رتبت لهذا الغرض حول المعسكر منذ اليوم السابق اتقاء للمباغتات. ولقد اصيب مدفعيو الاتراك بخسارة بالغة من جراء ذلك اذ قتل بعضهم وجرح البعض الآخر وانقلبت جملة من مدافعهم فانسحب جيشهم من مشاة وفرسان ومدفعيين نحو معسكرهم ووقع الخلل فى صفوفهم. وكان الجيش فى هذه الاثناء قد تناول سلاحه ووقف كل جندى فى النقطة المعينة له وانتظر الجميع طلوع النهار. وما اسفر الصبح حتى استأنف الجيش سيره الجانبى صفوفا متطاولة من المقدمة الى المؤخرة وكان الصف الاول يتكون منه الجيش الاول فزحف منقسما الى فرق كاملة تفصلها عن بعضها مسافات تامة والصف الثانى يتألف منه الجيش الثانى فزحف منقسما الى أورط متباعدة عن بعضها بقدر الفصيلة على شكل عمودين مرتكزين على القلب وبينهما مسافات تكفى للحركة والامتداد والصف الثالث يتكون منه الجيش الثالث فزحف منقسما الى أورط متضامة متكاثفة ومنثنية بشكل عمود مضاعف على القلب وبينها مسافات بقدر فرقتين. وكان ستة ألايات من الفرسان يزحف كل ألاى منها على شكل صف كثيف متطاول من المقدمة الى المؤخرة الاى الميسرة الى يسار الالاى الاول على مسافة ستمائة خطوة منه وعلى اتجاه الصف الثالث وقد اتخذ هذا الاحتياط لاتقاء هذا الخطر فى حالة ما اذا هوجمت صفوفنا المتطاولة فى اتجاه الخاف من مقدمتها او مؤخرتها. وكان بامكان هذه الالايات الزاحفة على مسافة فرقتين خارج مقدمات الصفوف ورؤوسها الامتداد بسرعة مع ابتداء ضرب النار بينما كانت الصفوف تستطيع التقدم او التقهقر أو الوقوف فى مصاف القتال تحت حماية الفرسان والمدافع الخ

ولما رفعنا المعسكر وبدأنا الزحف تقدمنا بمقدار بضعة آلاف

خطوة فى اتجاه يكاد يكون عموديا على خط قتال الاتراك (وكانوا قد اتجهوا الى الخلف وانتشروا على المرتفعات والروابى الواقعة خلف معسكرهم القديم) وكنا نرى انهم ربما نزلوا الى السهل للقتال على بسيط الارض ولكننا لما رأيناهم لايبدون حركة جعلنا اتجاهنا الى اليسار وسرنا موازين لخطهم مع اطالة هذا الاتجاه بمقدار ألفى خطوة ليتيسر لنا التصرف فى مناوراتنا بحسب ما يمكن ان يتخذوه من الترتيبات ولما ايقنا انهم عازمون على القتال فى مكانهم غيرنا الاتجاه فى اليسار دفعة اخرى فاتجهنا نحو ربوة مستديرة قريبة من ميمنتهم التى صارت ميسرة باتجاههم الى خلف . وكنا معتزمين الهجوم بميمنتنا دون القلب والميسرة فزحفنا فى اتجاه مائل على خط قتالهم للتمكن من سحب الميمنة تحت حماية الفرسان فى حالة عدم التوفق للنجاح بها والهجوم عندئذ بالقلب والميسرة . ولما صار الجيش على مدى ٢٠٠ او ٣٠٠ خطوة من الاكمة المستديرة وقف بخفة وسرعة واتحاد فى الحركات من وحداته جميعا على هيئة القتال . وكان قيام الخط الاول بهذه الحركة بناء على « واحد الى اليسار للقتال » والخطين الثانى والثالث بناء على تعديل فى الاتجاه بواسطة الجانب الايمن والاورط لمواجهة واجهة العدو والفرسان بناء على تغيير الاتجاه الى اليسار بواسطة آلاياتهم جميعا . وكانت مدفعية الخط الاول (وهى تسع بطريات) تزحف على بعد ٥٠٠ خطوة من الجانب الايسر للصفوف الاولى فاطلقت مدافعها بينما كان الخط الاول يقوم بحركة « الى اليسار للقتال » وكان اربع بطريات تزحف مع الآلايات الستة للفرسان فى مقدمة الصفوف واربع فى مؤخرتها . اما البطريات الاحتياطية العشر فكانت تزحف على مسافة ٣٠٠ خطوة من الجانب الخارجى للخط الثالث

وبينما كان الجيش ينفذ هذه الحركات المختلفة بودر بنصب بطرية من العيار الكبير على الاكمة المستديرة التى كانت لاهميتها كمفتاح لساحة القتال . وقد احس الاتراك بعد فوات الوقت بما لهذا الموقع

من المزايا الخطيرة فاطلقوا مدافعهم ولكن هذا الاطلاق لم يمنعنا من تعيين موقع البطرية وارشاد المدفعيين الى النقطة التى يجب تحرير الضرب نحوها ونزل سليمان باشا بعد ذلك الى الميمنة فامر المدفعية بالزحف مع الضرب وعزز هذا الهجوم ألاى من مشاة الجناح الايمن والخط الاول وأرسل ألايان من المشاة وأربعة من الفرسان الى طرف الميمنة لحماية هذه الحركة واطلقت فى الآن نفسه نار البنادق والمدافع من كل جهة ماعدا القلب والميسرة اللذين كان مقررا عليها الامساك عن الهجوم الا بامر خاص . وبدت فى ابان الامر بوادر التردد والارتياب ولكن لم تلبث الفرسان والمشاة والمدفعية ان عادت بهمة الى اقصى الميمنة وثبتنا ثباتا حسنا فى الميمنة حتى ألزمنا الميسرة العثمانية بالانسحاب . واغتنمنا فرصة تقهقرها لدفع جناحنا الايمن برمته الى الامام وصدرت الاوامر الى القلب والميسرة بالسير نحو خط النار والبدء بضرب المدافع والبنادق معا

ولما لم يطق الجيش التركى تلقى هذه الهجمات المتتابعة التى نفذت باجماع تام وتطابق محكم من جميع وحدات الجيش المصرى انسحب الى معسكره القديم فاقتفينا أثره فيه بمدفعية الخطين الاول والثانى من المشاة واتخذ الخط الثالث الاحتياطى للمشاة والمدفعية مراكزها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى واصبحت هزيمة العثمانيين على اثر هذه المناورات تامة عامة وقد غنمنا من معسكر العدو ١٤٤ مدفعا بصناديق ذخائرها و ٣٥ مدفعا كبيرا فى حصون (بلجك) التى كان الاتراك قد اخلوها وجميع الخيام من خيمة حافظ باشا الى خيمة اصغر جندى ونحو ١٨٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ بندقية واخذنا ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ اسير ارسلوا فى الحال الى الاماكن التى اختاروا الذهاب اليها سواء فى تركيا او البلاد والاملاك التابعة لمحمد على باشا

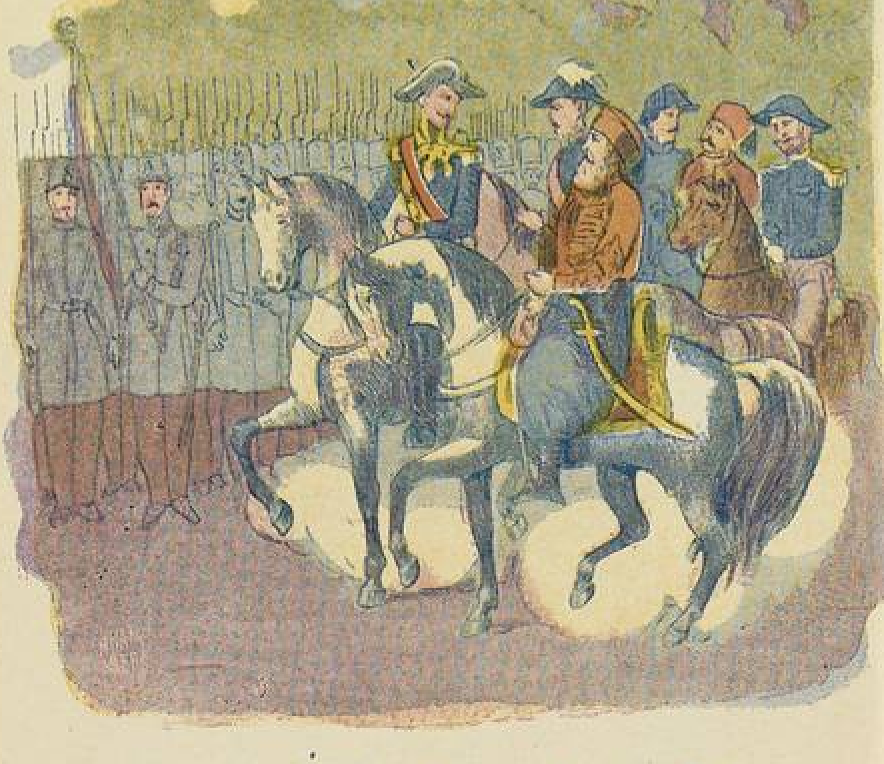

ابراهيم فى ميدان عرض الجيش الفرنسى بباريس

الباب الثاني عشر

الشرق والغرب

من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٤٧

لم تذهب أوقات السلام التى تخللت الحروب المصرية باطلا. ففى المدة بين الحملتين المصريتين على الشام ادخلت اصلاحات نافعة وتنسيقات مهمة كانت البلاد فى أشد الحاجة اليها. وكانت العناية بالصحة العامة فى مقدمة ما اختلج به خاطر مؤسس الاسرة العلوية وانصرفت اليه جهوده من وجوه الاصلاح. حتى خيل للمتأملين انه قصد بها الى تعويض ماخسرته مصر بالأمس فى حروب لم تبق على الانفس والاموال. من ذلك انه أدخل التطعيم بالجدرى وهو من اجل مستكشفات العلم وأعمها فائدة، اذ هو خير وقاية من هذا الداء. وقد عانى الأمرّين فى حمل الجمهور على قبوله لجهله واعتقاده أنه حيلة تذرع الباشا بها لتجنيد الشبيبة يعزز بها ملكه ويعمد بيته.

م — ٥٠

وانشأ التكايا للمعوزين والمنقطعين من غير العسكريين . واقام بالاسكندرية على مثال دار العجزة وذوى العاهات (اوتيل ديزانفاليد) ملجأ وطنيا لأيواء العجزة وذوى العاهات من الجند . وأقام بالاسكندرية الحجر الصحى على السفن الواردة من البلاد الموبوءة (اللازاريتا) وألف المجلس الصحى للقيام على الشؤون الصحية فى القطر كله . وجعل من الارض اليباب غابات ذات اشجار باسقة فقد كان هناك فسيح من الارض تربو مساحته على ستة عشر مليون ذراع لا أثر فيها للرطوبة فغرس الاشجار فيه فصفاجوه وسدت الحاجة الى الاخشاب .

ولم تكن عنايته بهذا أقل منها بالزراعة والتجارة . فقد كان أول ماطمحت اليه آماله من المنافع العامة خزن ماء النيل بانشاء القناطر عليه وحفر الترعة بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ومد السكة الحديدية بين السويس والنيل وشق القاهرة بشارع عظيم بين القلعة والازبكية وانشاء مصرف بسندات قيمتها السكاية مائة الف كيس . أما المدة التى تلت الحرب الثانية بين مصر وتركيا فقد كانت مظهرا لكسر قيود الصناعة والزراعة وتنظيم الأدارة على نسق قوامه البساطة والاختصار وايجاد قسم لهندسة القناطر والجسور وفرقة من الاطباء الوطنيين لتنظيم المصالح الصحية على وجه صار العلاج معه يعطى بالمجان للطبقات الفقيرة . وما برحت الجهود منصرفة فى الوقت الذى

نخط فيه هذه الاسطر لانجاز مشروع جليل جزيل النفع لاينتظر ان يكلف خزينة الباشا أقل من خمسين الف كيس سنويا، وهو المشروع الذى يرمى الى اعادة بناء القرى الريفية على اصول وشروط تتوافر معها اسباب الهناءة والصحة فى المعيشة .

وقد نيطت بالمستقبل جملة صالحة من الاصلاحات النافعة ، فالقد جاء الى فرنسا بكرى ابناء محمد على باشا للبحث فى قواميس الرقى ودرس قواعد الانفاق بروية وامعان فترجمت له الصفحات التى رام الاطلاع على ماتحتويه من اسرار العرفان . وروعى خلال ذلك فى جانبه ما اشتهر به شعبنا القوى الكريم من واجب المجاملة والمؤانسة . وعرض على مشهد منه جيش مؤلف من ٣٠٠٠٠ جندى فى ساحة لاتتجاوز مساحتها ٩٠٠٠٠ متر ، فأدى هذا الجيش حركاته على مايرام ، وشهد وطنينا الشهير معلم الجنود المصرية ومدربها بدقة هذه الحركات وسرعتها التى نقل أسرارها الى ضفاف النيل . ومن المجمع عليه انه منذ نابليون الى الآن لم تشهد ساحة (شاندمارس) التى جرى فيها ذلك العرض حفلة أبدع من التى شهدها ابراهيم . وكان ممن شهدوا هذا الاحتفال العظيم ثمانية أمراء وست اميرات . ولبست الطبيعة فى ذلك اليوم ابهى حلاها وبدت الشمس ناصعة فى كبد السماء كأنها تحيى بطل نصيبين المتغلب فيها على العدو ، فكان يوم ٢٥ مايو اجمل يوم فى أجمل شهر فى اجمل فصل من فصول

وكان ابراهيم باشا عادى القامة يلقى الهيبة فى النفوس بصدره الرحب واعضائه الشثنة وعينيه الرماديتين المفصحتين عما يكن ضميره ووجهه المستطيل الذى يشام منه خلق الجد . على انه فى ساعات مرحه وبسطه كان يرتسم على شفتيه وفى عينيه مايخامر فؤاده من بواعث السرور حتى كان يخيل لناظره ان كل شىء فيه باسم وان ينابيع الابتهاج من فؤاده تتفجر . وقد وصفه واصف فيما يلى مشيرا الى ميوله الفطرية وماتؤثره نفسه من الخصائص والصفات فقال : « لم ير الغرب جنديا يضارع ابراهيم فى البسالة والكرم بل لم ير بطلا خلق للنصر مثله . يميل بفطرته الى الحرب فاذا نزل فى حومة الوغى عرف كيف يباشر القتال ولو انفتحت ابواب العالم لوصل الى منتهاه . وهو من سلالة اولئك الابطال الذين لا يقفون فى ساحة الحرب الا اذا جندلتهم المنون فمثله كمثل الاسكندر الأكبر وجنكيزخان » . وشجاعة ابراهيم شجاعة دفاقة فياضة . كانت اذا ساقته نحو العدو وواجهته به لاتكسر لها شكيمة ولا يكبح جماح . وكانت تتجلى للانظار وتتحرش بالجماعات وتستفز الجماهير والشيع وتحصد الرؤوس ولا يغرها بالنصر الغرور . وكانت اكاليل الغار لا تحجب عنها ماقد يقترن الفوز به من الاحزان والمحن . فلقد ارسل الى قائد قوات الجيش العثمانى قبل الواقعة الأخيرة باسابيع الرسالة الآتية التى

يخيل لقارئها انها تصنيف فيلسوف حكيم قال: « لقد وطأت بقدميك حدودنا وعثت فسادا فى قرانا ولم ترع لهـا حرمة وأطلقت نارك على نقطتنا الأمامية! أفكان هذا بأمر جلالة السلطان؟ اذا صح هذا فقد وجب على ان أوافى والدى بحقيقة الواقع.. أم أنت تعمل كوالى اقليم او زعيم جيش؟ انى اطالبك بتعليل فعالك التى لم يكن لها من ناحيتنا مسوغ. لقد احترمنا حدود حكومتك وما خسنا قط بعهدنا ولا نقضنا وعدنا. لذا أحب أن اعتقد أيها القائد انك لم تقصد بعد ذلك القاء الرهبة فى نفسي وان يكون كل ما وقع سوء تفاهم نجم عن ظروف واحوال زجت بالاسلام فى احرج المواقف. ولم يكن الوقت ملائمـا لما أتيتموه من أعمال لا يبعد ان تقف لصاحب الشوكة مولانا السلطان وصاحب السمو والدى فى سبيل المدنية التى أخذا بيد أقوامها فيها اذا ظلت الحروب مضطرمة بينهما. ان الحروب التى تتحيف الشعوب وتبيد الامم بلا فائدة تلجئنا الى الوقوف فى طريق التقدم والفلاح. ولا وسيـلة الى تحقيق المقاصد التى حققها السلف سوى الاتحاد فى ظلال السلام والاجتهاد ».

وصاحب السمو ابراهيم باشا عارف باللغات التركية والعربية والفارسية على قياس واحد فهو يتكلم بها فى سهولة وفصاحة ويلم الماما تاما بتواريخ أمم الشرق. وقد نقل كتاب (تاريخ نابوليون امبراطور فرنسا) الى اللغة التركية ضمن مجموعة من مختارات

الكتب اسماها : (دفيني اسرار حكامى اوربا) اى (كنز أسرار حكام اوربا) وله نظرة اذا أرسلها الى الجندى المصرى سحرته وبهرته حتى ليكفى ان يذكر اسمه امامه لتراه ، وقد تلهب غيرة وحماسا وبسالة وإقداما . وما بلغ السادسة عشرة من عمره حتى قلده والده ولاية بعض البلاد فكانت مباشرته للاحكام والادارة فى مقتبل العمر باعثة على تنمية الخبرة القائمة فى نفسه على طول التجربة . وهو شديد العناية بالزراعة وشعاره فيها كلمة مأثورة عن مراد بك الزعيم المشهور وهى : « اذا طلبت الذهب فى مصر فانبش ارضها » وبمثل هـذه المبادىء الحكيمة والخطط القويمة ستظل التقاليد التى رسمها والده مصونة خصوصا اذا لوحظ احترامه وحبه العظيمان له . ولقد أيدت الحوادث امتلاء فؤاده بهاتين العاطفتين فان ابراهيم باشا ، مع احرازه لمراتب الباشوية والوزارة والامارة على مكة ومع كونه والد ثلاثة ابناء ، يتنزل عن ذاتيته فى مجلس والده ويمحو كل أثر لخطورة مكانته ويلثم يده كلما أقبل عليه . ولا يأخذ مكانه من المجلس الا اذا أمره هو به ولا يدخن على مرأى منه مالم يبح له التدخين .

اما محمد على باشا فيقابل هذا التوقير بنظيره ولا يتخذ سمو مركزه ذريعة للغض من كرامة غيره . واذ كان نظام الالقاب وترتيبها فى الدولة العثمانية يجعلان ابراهيم باشا باعتبار كونه امير الحرمين الشريفين على رأس باشوات الدولة جميعا ويفرضان على

هؤلاء اذا أقبل عليهم الوقوف اجلالا له وا كبارا فان محمدا عليا باشا كان اذا اقبل عليه ولده انتظره واقفا تعظيما لرتبته ، وان يكن مكان ابوته منه وكونه صاحب الولاية على مصر يجيزان له اللبث فى مكانه . وقد اذن له بالسير معه فى الحفلات العامة والتشريفات الرسمية على صف واحد معتدل . هذا مانقله الينا العارفون بماجريات البلاط المصرى الأميرى والمترددون عليه ، ومنه يؤخذ ان أطوع الناس لوالى مصر انما هو ابراهيم باشا عماد ملكه وقوام عرشه وذراعه اليمنى ورأسه المفكر .

وقد استندت فرنسا فى استقبال ابراهيم باشا والحفاوة به على الالقاب والاسباب التى سردناها الآن ورغبته الاكيدة فى ان تقترن خطواته عندنا بخطوات رجل من ابناء فرنسا ويعيد الينا ، ليقيم بضعة أشهر ، ذلك الابن الضال الذى غاب عن وطنه نحو ثلاثين عاما تباعا . ارتحل هذا الابن من بلادنا وهو برتبة الملازم او اليوزباشى فعاد الينا قائدا كبيرا وأميرا عظيما فهل فى قدرتنا بعد هذا ان نقابله بوجه عبوس قمطرير وهو ذلك الذى اذا سلك فى مصر طريقا وجب على السابلة الاحتشاد له فيه ثم الانزواء فى عطفيه حتى يتم له المرور فى سلام وامان ؟

لقد أقام سليمان (سيف) منذ اعتنق الاسلام ادلة جديدة على شجاعته وعرفانه وانسانيته فى بلاد اليونان ثم فى حمص

وبيلان وقونيا ونصيبين . وما من جهة قصد اليها لمصلحة والى مصر الا وحقق فيها معنى الجملة الآتية التى كثيرا ما كان يرددها لسانه : « احببت فى حياتى ثلاثة رجال وجعلت حبي لهم فوق كل حب ، والدى ونابوليون ومحمد على » . وليس بغريب بعد هذا اذا قال محمد على باشا لضابط من ضباط جيشه : « لقد خرج سليمان من صلبي فهو ولد من اولادى وهو لن يبرح مصر الا اذا برحها محمد على نفسه » .

وقد جمع محمد على باشا الى عاطفة الميل والحب هبة العقل والذكاء . فهو سرعان مايميز بين الصديق الحميم والصديق المخاتل . وقد خص بالحجى الوافر والعارضة الشديدة والخاطر السريع والرأى الصائب والفكر الثاقب اذا رمى بشعاع بصره اصاب مكنون سرك ومستتر ضميرك . ومن أحب الامور اليه قضاء بعض الفراغ من وقته فى الحديث مع الاوربيين لولعه باستطلاع آرائهم ولعلمه بما ذاع بينهم من شهرته . إذا نظرت اليه واقفا رأيته كالالف في اعتدالها واستقامتها بالرغم من بلوغه الى الثامنة والسبعين من عمره وهو في أسرته يميل الى بساطة العيش وشظفه ويغتبط بعطفه على جميع ابنائه الذين نذكرهم فيما يلى ماعدا ابنة ولدت فى مستهل القرن التاسع عشر ، وهى الآن أيم المرحوم محمد بك الدفتردار وابنة أخرى ولدت عام ١٨٢٤ وهاهم :

— ابراهيم باشا قائد قواد القوى البرية ولد سنة ١٧٨٩

— سعيد باشا قومندان الاسطول ولد سنة ١٨٢٢
— حسين بك ولد سنة ١٨٢٥
— حليم بك ولد سنة ١٨٢٦
— على بك ولد سنة ١٨٢٩
— اسكندر بك ولد سنة ١٨٣١
— محمد على بك ولد سنة ١٨٣٣ .

ويتلوهم احفاده وهم :

— عباس باشا بن طوسن باشا ولد سنة ١٨١٤
— احمد بك بن ابراهيم باشا ولد سنة ١٨٢٥
— اسماعيل بك اخو السابق ولد سنة ١٨٢٨
— مصطفى بك اخو السابق ولد سنة ١٨٣٢ .

وعادة محمد على باشا ان لا ينام ليلا اكثر من خمس ساعات وان يستيقظ فجراً فيقضى النهار كله فى عمل متواصل . وله خبرة تامة بالرياضيات مع أنه لم يدرسها فى الكتب وجل بحثه ومناظرته فى امجد حوادث الملوك وتواريخهم . وهو اذا سار بدت على خطواته آثار المشية العسكرية واذا طلب الرياضة فى حجرته سار فيها مرحا جامعا يديه خلف ظهره كما كان يفعل نابليون . وهو كنابوليون شغوف بالسذاجة فى المعيشة واللباس ، حريص على آداب المعاشرة ، وكنابوليون كان كلا شيء فصار كل شيء ، وكنابوليون خلد سيرته على ممر الأيام بالانظمة الجليلة والآثار

الخالدة .

ولقد لبث بونابرته عهداطويلا يمنى نفسه بان يعيد الى مصر مجدها القديم وعزها السامق السابق ويعلها بقلب المشرق رأسا على عقب وبالاستواء تحت سماءفرنساعلى عرش ثابت ، إذ كثيرا ما كان يقول : « فى الشرق وحده يرجى إحراز المجد والصيت البعيد » ، ولكن الجمهورية الفرنسية أبدت له عكس ماتمناه وذهب اليه كما اثبتت له الامبراطورية الفرنسية اضعاف ماأيدته الجمهورية . على انه كان لايكف مع هذا عن قوله : « الولايات العثمانية التى يتكلم أهلها بالعربية فى حاجة الى انقلاب عظيم وهى تنتظر رجلا يقضى لها هذه الحاجة ، وإنما محمد على باشا هو هذا الرجل » . وقد كان جان جاك يقول : « هل أتى واحد من اهل زمانى بما استطعته ؟ » ونحن نقول هل فى العالم رجل غير محمد على باشا استطاع ان يقول : « هل فعل احد لمصر مافعلته بعد الله والنيل ؟ »

زار ابراهيم باشا فى اثناء رحلته بفرنسا فيما زار من منشآتها الوطنية دار الضرب الباريسية . فضربت بحضوره مدالية فاذا بها تمثل صورة محمدعلى باشا ، وقد كتب تحتها بالفرنسية (محمد على مجدد مصر) . وفى يولية سنة ١٨٤٥ كان الدوق (دى مونبنسييه) فى رحلة على ضفاف النيل فقوبل من المعية المصرية بالحفاوة والا كرام ، فلما كان مايو سنة ١٨٤٦ لزم هذا

الدوق ابراهيم باشا ومن كانو معه فى زيارته لفرنسا ملازمة الظل للشبح واقترح عليهم تفقد ساحة المناورات فى (سانمور) فحضر ابراهيم باشا الى الساحة فى المركبة الملكية وبمعيته الدوق (نيمور) والبرنس (دى جوانفيل) وقدم اليه جواد ليمتطيه فى اثناء التفقد فامتطاه خافق الفؤاد فاذا به الجواد الكريم الذى ركبه يوم ربح واقعة نصيبين. وكان محمد على باشا قد اهداه فى سنة ١٨٤١ الى ملك فرنسا مع تسعة جياد. ولما عرض ابراهيم باشا فى ذلك اليوم ذوى العاهات (الانفاليد) وعددهم ٢٥٠٠ متقلدين سلاحهم جعل منظمو هذه الحفلة من كانوا منهم ضمن الحملة الفرنسية بمصر فى مكان خاص. وما من حفلة غنائية او موسيقية او وليمة او احتفال اقامة الوزراء او رجال الحكومة الا ووجه كرسى الشرف فيه نحو الشرق ليستوى عليه ابراهيم الظافر. وكان بروجرام الادوار الموسيقية يذكر السامع بالانغام الشرقية.

وكان ابراهيم قد أقام ستة اسابيع فى (توسكانا) قبل ان يقصد الى فرنسا، فاستقبله بها الغرندوق حاكم هذه الجهة بمظاهر التعظيم والتكريم. ودعته الملكة فيكتوريا فى هذه الاثناء بخطاب رسمى الى زيارة بريطانيا العظمى فلم يسعه الا اجابة دعوتها. وكانت هذه الدولة قد اعترفت بحقوقه فى الوراثة الشرعية على عرش مصر. ولما برح باريس الى الجزر البريطانية تبرع باثنى عشر الف

فرنك لفقراء هذه المدينة . ومرّ فى سفره بعد زيارة هذه الجزر بيلاد البرتقال فقلده ملكها وملكتها وسام البرج من درجة الصليب الأكبر . وكان قد قلد فى فرنسا وسام اللاجيون دونور من الدرجة الأولى ، ومن البرتقال ابحر الى وادى النيل .

وكان والى مصر فى أثناء ذلك قد قصد الى الآستانة ونزل بها . فلما وصل الى رودس اهدى السلطان عبد المجيد اليه اجود ثمار حديقة السراى السلطانية وما ان وصل الى دار الخلافة حتى توجه الى القصر السلطانى فتلقاه السلطان واقفا عند مدخل البهو وصافحه محييا . وكان جلوس السلطان على العرش بعد ان أدرجت العداوة بين مصر وتركيا فى كفن السلطان محمود فكان استقباله اقدم صدور الدولة بمثل تلك الرعاية من أقوم خططه وأحكمها واجدرها بالاستحسان والثناء . وقد قدم جلالته اليه جملة طيبة من نفيس الهدايا فقدم محمد على اليه ما هو اغلى منها وأعلى . وكتب الىّ من الآستانه بتاريخ ١٥ اغسطس ١٨٤٦ : يبرح صاحب السمو محمد على باشا بعد غد ضفاف البسفور . وقد كانت مدة اقامته مصدر خير واحسان وينبوعا غزيرا لاعمال البر ، فقد كان يرد اليه فى اليوم من مائتى التماس الى ثلاثمائة فلم يخيب رجاء احد من أصحابها وبلغ ما أنفقه مدة اقامته بين هدايا وصدقات ٥٠ مليون قرش . ولشدة حرصه على الآثار القديمة أبى إلا أن يبقى منزل آبائه فى (قوله) كما هو . وقد مر بهذه المدينة فأنشا بها مدرسة

وزار قبور عائلته ثم عاد الى حكومته .

ومن غرائب الاتفاق ان السلطان عبد المجيد قام بجولات كثيرة فى بلاده ورمى بها الى المقاصد الخيرية والاغراض الدالة على حب الحرية والتسامح ودعا فيها الامـة الى الوئام والاتحاد ووقف بنفسه على حاجاتها . وكان شأنه فى جولاته شأن محمد على وابراهيم باشا من حيث ان هؤلاء الثـلاثة لقوا من مظاهر الاجلال والتكريم ما نقش فى صدورهم بحروف لا تمحى ذكرى جـلال الاستقبال الذى قام به الرعايا لاعتقادهم فى اولياء امورهم الميل الى ادخال الاصلاحات النافعة وازالة آثار الفساد من بينهم ومعاقبة المسىء منهم ومكافأة المحسن .

ولو اتيح لنا الاعراب عن امنية نكلل بها هذه الصفحات لطلبنا للاجتماع المصرى الحالى المشيد الصرح على العبقرية المعززة بالنصر وجوها للاصلاح فى نظامى الضرائب والتجنيد تتمشى مع مبدأ التسامح وعلى قاعدة الاتساق والترتيب وتمنينا مع ما تقدم استئناف اعمال التاريع (المساحة) ووضع مكافآت للتشجيع على الاستكشافات الصناعية وزيادة عدد المدارس الكلية فى المدن والمـدارس الابتدائية فى القرى وتعريب الكتب الابتدائية فى العلم والتاريخ وطبعها وانشاء مجموعات مختلفة وفتح دار الكتب للجميع ونشر مجموعة دورية باللغتـين التركية والعربية ومجموعة أخرى باللغة الفرنسية يكون الغرض منها التقريب الفكرى بين

مواطنينا فى القطر الفرنسى وبينهم فى مصر وتعويد الوطنيين من المصريين لغتنا وتوثيق روابط الالفة بينهم وبيننا وانشاء مرصد ومدرسة خاصة بفنون الرسم والنقش ومتحف لضم التحف والملح النفيسة ومجلس (ديوان) وطنى للنظر فى الشكاوى وسن القوانين المدنية وسن قانون اساسي وتأليف مجلس محلفين حتى والغاء النخاسة وابطال الخصيان فى الحرم .

عرف الشعب المصرى بالثروة فى تجارته والقوة بسلاحه والقناعة فى غذائه وشرابه ولباسه والطاعة لرؤسائه ثم بالصبر المفضى الى النتائج الكبيرة ، فلا غرابة اذا استطاع بهذه الصفات الجليلة أن يبذر الصحراء بما يثمر العجائب والمعجزات . وان له من ارداته القوية لأداة عاملة قاطعة ومن الزمن لمعينا أمينا .

سمعنا منذ أشهر صوتا فصيحا يقول : « ان آخر عامل وضع حجرا فى أساس الهرم قام بعمل جليل لم تعد عليه حتى الآن عوادى الدهر وأنه اذا كان الحجر الذى وضعه لا يحمل اسمه فانه يرفع الى السموات العلى شيئا أجل واسمى ، ألا وهو الخلود لمصر ، فليفض النور على رجال الماضى وليفض على رجال المستقبل فان الشجرة التى غرسوا غراسها لن تنثنى ، تلك الشجرة التى قال حسين قوجه ان ثمارها تنحصر فى كلمتين يعذب للأذن سماعهما : السلام فى السعادة . اه

فهرست الكتاب

صفحة	
٧	تمهيد
١٣	مصر القديمة
٦١	مصر الحديثة
١٠٨	(مصر فى القرن التاسع عشر)
١٠٨	الباب الاول — حملة الجمهورية الفرنسية على مصر
٢٠٦	« الثانى — الانجليز والاتراك والمماليك
٢٤٠	« الثالث — الفوضى
٢٩٣	« الرابع — قوله
٣٠٥	« الخامس — محمد على واليا
٣٥٢	« السادس — الحملة الانجليزية على مصر
٣٦٩	« السابع — الوقائع الاهلية الاخيرة
٤١٣	« الثامن — الوهابية والوهابيون
٥٨٩	« التاسع — افريقيا العليا
٦٥٤	« العاشر — بلاد موره
٧٣١	« الحادى عشر — حملة الشام
٧٥٥	التقارير عن حملة الشام
٧٨٦	الباب الثاني عشر — الشرق الغرب

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01113 2175
DT104 .G6912 1931 Misr fi al-qarn al-tasi ashara